التيسير في التفسير

تأليف الإمام المفسر العلامة

أبي نصر القشيري

أبي نصر عبد الرحيم ابن الأستاذ أبي القاسم
عبد الكريم بن هوازن القشيري

المتوفى سنة ٥١٤هـ

أول كتاب يبرز مطبوعاً للمؤلف
ويطبع محققاً على ثلاث نسخ خطية
إحداها مكتوبة سنة ٥٤٢هـ بتحديث وقراءة الإمام أبي حفص
عمر بن أحمد الصفار النيسابوري زوج بنت المؤلف رحمه الله تعالى

حققه وقدم له
محمد خلوف العبد الله

المجلد السادس
سبأ - الحديد

دار اللباب

التيسير في التفسير

(٦)

حُقوق الطّبْع محفُوظَة

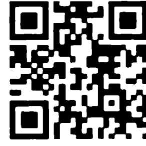
الطبعَة الأولىٰ

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

يُمنع طباعةُ هذا الكتاب أو ترجمته أو تصويرُه ورقياً أو إلكترونياً

إلا بإذن خطي من الدار الناشرة

تحت المُساءلة الدُّنيوية والأُخروية





دار اللُّباب

للدِّراسات وتحقيق التُّراث

DAR-ALLOBAB

Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları

بيروت - لبنان
009615813966
0096170112990

دمشق - سوريا
00963993151546
info@allobab.com
Www.allobab.com

اسطنبول - تركيا
00902125255551
00905454729850



İskenderpaşa mh. Kıztaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

التيسير في التفسير

تأليف الإمام المفسر العلامة

الإمام أبي نصر القشيري

أبي نصر عبد الرحيم ابن الأستاذ أبي القاسم
عبد الكريم بن هوازن القشيري

المتوفى سنة ٥١٤هـ
رحمه الله تعالى

أول كتاب يبرز مطبوعًا للمؤلف
ويطبع محققاً على ثلاث نسخ خطية
إحداها مكتوبة سنة ٥٤٢هـ بتحديث وقراءة الإمام أبي حفص
عمر بن أحمد الصفار النيسابوري زوج بنت المؤلف رحمه الله تعالى

حققه وقدم له
محمد خلوف العبد الله

المجلد السادس

سبأ - الحديد

دار اللباب

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ سَبَإٍ

تفسيرُ سورةِ سبأ

مكيَّةٌ

بسمِ اللّه الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١) ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: الثَّناءُ والحمدُ للهِ؛ إذ النِّعمُ كلُّها منه ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: هوَ المحمودُ في الآخرةِ كما أنَّه المحمودُ في الدُّنيا، وهوَ المالكُ للآخرةِ كما أنَّه المالكُ للأُولى، وهوَ الذي يُدخِلُ المؤمنين الجنَّاتِ فهم يحمدونه على نِعَمِه كما أخبرَ عنهم فقالَ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقالَ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: حيثُ لا يُحمَدُ غيرُه[١].

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ أي: المُحكِمُ لأفعالِه، أو: العالمُ بكلِّ شيءٍ، أو: المصيبُ فيما يفعلُ.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: (الحكيمُ) الذي حَكَمَ في خَلقِه أن يُميتَهم[٢].

* * *

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٣١١).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٣١١)، وزاد: «ثم يحييهم».

(٢) ـ ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾.

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ ﴾؛ أي: ما يدخُلُ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من مطرٍ، أو كنزٍ، أو ميتٍ، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من زرعٍ ونباتٍ والخلقِ يومَ الحشرِ ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من مطرٍ أو مصيبةٍ أو رزقٍ أو ملَكٍ ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكةِ وأعمالِ العبادِ.

﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ قالَ ابنُ عبَّاسٍ: رحيمٌ بأوليائِه غفورٌ لذنوبِهم[١].

* * *

(٣ ـ ٤) ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ لمَّا بيَّنَ أنَّه مستحِقُّ الحمدَ وله ما في السَّماواتِ والأرضِ، بيَّنَ أنَّ الكفَّارَ يَصفونَه بما يُضادُّ هذا، ويقولونَ: لا يقدرُ على البعثِ. فهؤلاءِ الكافرون مُقِرُّون بالابتداءِ مُنكِرون الإعادةَ، وهوَ نقضٌ لِمَا اعترفوا به، وإن اعترفوا بالقدرةِ على البعثِ وقالُوا: فإنْ قدرَ لا يفعلُ، فهذا تَحكُّمٌ بعدَ أن أخبرَ على ألسنةِ الرُّسلِ أنَّه يبعثُ الخَلقَ، وإذا وردَ الخبرُ بشيءٍ هوَ ممكنٌ في العقلِ مقدورٌ فتكذيبُ مَن وَجَبَ صدقُه لمعجزتِه من المحالِ.

وقالَ مُقاتلٌ: قالَ أبو سفيانَ لكفَّارِ مكَّةَ: واللَّاتِ والعزَّى لا تأتينا السَّاعةُ أبداً

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٣١٢).

ولا نُبعثُ، فقالَ اللهُ جلَّ وعلا: ﴿قُلْ﴾ يا محمَّدُ: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ السَّاعةُ[1].

ثمَّ عادَ إلى تمجيدِ نفسِه، فقالَ: ﴿عالمُ الغيبِ﴾، وهوَ رفعٌ على الابتداءِ وخبرُه ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾، وقُرِئَ ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ بالكسرِ؛ أي: الحمدُ للهِ عالمِ الغيبِ، وقُرِئَ (علَّام الغيوبِ) على المبالغةِ[2].

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾؛ أي: لا يخفَى عليه مِن أقوالِهم وأفعالِهم، وهوَ المجازي عليها.

قولُه تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: لتأتينَّكم السَّاعةُ ليجزيَ المؤمنين بالثَّوابِ، والكافرين بالعقابِ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني: المؤمنين ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ مِن اللهِ وسترٌ لذنوبِهم.

* * *

(٥) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾؛ أي: ظنُّوا أن يَفُوتونا ولا نقدرُ على بعثِهم في الآخرةِ، وظنُّوا أنَّما نُهمِلُهم، فهؤلاءِ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أليمٍ﴾ بالكسرِ نعتاً للرِّجزِ؛ فإنَّ الرِّجزَ هوَ العذابُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٥٩]، وقُرِئَ: ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرَّفعِ[3] نعتاً للعذابِ.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٢٣).

(٢) قرأ ﴿عالمُ﴾ بالرفع نافع وابن عامر، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿علاَّمِ﴾ بصيغة المبالغة والجر، وباقي السبعة: ﴿عَٰلِمِ﴾ بالكسر، وقرؤوا جميعاً: ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ بالإفراد. انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٦)، و«التيسير» (ص: ١٨٠). أما (علَّام الغيوب) فذكرها الزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ٢٤٠).

(٣) قرأ بالرفع ابن كثير وحفص، وباقي السبعة بالجر. انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٦)، و«التيسير» (ص: ١٨٠).

﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾؛ أي: آياتِ القرآنِ، وقيلَ: أي: المعجزات.

وقُرِئَ: ﴿مُعَجِّزين﴾[١]؛ أي: ثبَّطُوا النَّاسَ عن الإيمانِ بها.

***

(٦) - ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: ليجزيَ وليَرى، قالَه الزَّجَّاجُ والفرَّاءُ[٢]، **وفيه تأمُّلٌ**؛ لأنَّ قولَه: ﴿لِّيَجْزِىَ﴾ متعلِّقٌ بقولِه: (لتأتينكم السَّاعة)، ولا يُقالُ: لتأتينَّكم السَّاعةُ ليرى الذين أُوتوا العلمَ أنَّ القرآنَ حقٌّ؛ فإنَّهم يرونَ القرآنَ حقّاً وإن لم تأتِهم السَّاعةُ، **والصَّحيحُ**: أنَّه رفعٌ على الاستئنافِ، والرُّؤيةُ بمعنى العلمِ، فلمَّا ذكرَ الذين سَعَوا في إبطالِ النُّبوَّة [بيَّنَ][٣] أنَّ الذين أوتوا العلمَ يرونَ أنَّ القرآنَ حقٌّ.

قالَ مقاتلٌ: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ هم مُؤمِنو أهلِ الكتابِ[٤].

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: هم أصحابُ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٥].

وقيلَ: جميعُ المسلمين.

﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾؛ أي: يعلمون القرآنَ الحقَّ الهاديَ إلى

---

(١) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٩)، و«التيسير» (ص: ١٥٨).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٥٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٤١).

(٣) من «تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٥٦).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٢٤).

(٥) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٣١٤)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢١٤) عن قتادة.

صراطِ العزيزِ الحميدِ، فلفظُ المستقبلِ بمعنى الحالِ، ودلَّ بقولِه: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ على أنَّه لا يُعاجَزُ، وبقولِه ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ على أنَّه لا تليقُ به صفةُ العجزِ.

* * *

(٧) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ هذا إخبارٌ عمَّن قالَ: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾: هل نُرشِدُكم إلى ﴿رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾؛ أي: يقولُ لكم: إنَّكم تُبعَثونَ بعدَ البِلى في القبورِ. وهذا صادرٌ عن فرطِ إنكارِهم.

﴿مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾؛ أي: فُرِّقتُم كلَّ تفريقٍ، والمَزْقُ: خَرْقُ الأشياءِ، يُقالُ: ثوبٌ مزيقٌ وممزوقٌ ومُتمزِّقٌ ومُمزَّقٌ.

* * *

(٨) ـ ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ أي: ما يُدرَى لِمَ يُخبرُ بهذا: على جهةِ الافتراءِ، أم به جنونٌ فهوَ يتكلَّمُ بما لا يدري؟ والألفُ في ﴿أَفْتَرَىٰ﴾ استفهامٌ، وسَقَطَ ألفُ الوصلِ كقولِه: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ﴾ [الصافات: ١٥٣].

ثمَّ ردَّ عليهم، فقالَ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾؛ أي: ليسَ الأمرُ كما قالُوا، بل هوَ أصدقُ الصَّادقين، ومَن ينكرُ البعثَ، فهوَ غداً في العذابِ واليومَ في الضَّلالِ البعيدِ عن الصَّوابِ؛ أي: صارُوا إلى تعجيزِ الإلهِ ونسبةِ الافتراءِ إلى مَن أيَّدَه اللهُ بالمعجزاتِ.

وقيلَ: أي: همُ اليومَ في عَناءٍ من أمرِهم في تقريرِ شيءٍ لا حجَّةَ معهم فيه، وفي عناءٍ من إضلالِ الخَلقِ، واللهُ أعلمُ.

* * *

(٩) ـ ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: أفلم يرَ هؤلاءِ المُستبعِدون للبعثِ إحاطةَ السَّماءِ والأرضِ بهم، فهم محبوسونَ فيها؛ ليستدلُّوا بذلك على كمالِ قدرةِ اللهِ.

﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ حتَّى تبتلعَهم ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾؛ أي: جانباً مِن السَّماءِ فنُهلكَهم، والكِسفُ: القطعةُ، وأصلُه: التَّغطيةُ؛ أي: نُنزِل عليهم قطعةً مِن السَّماءِ تُغطِّيهم، ومنه: كسوفُ الشَّمسِ؛ لتَغَطِّيْها عن الأبصارِ بما يسترُها.

قُرِئَ ﴿نَخْسِفْ﴾ و﴿نُسْقِطْ﴾ بالنُّونِ، وقرأَ حمزة والكسائيّ ﴿إنْ يَشأْ يَخسِفْ﴾ وكذلك ﴿يُسقِطْ﴾[١].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾؛ أي: لَعلامةً ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجعٍ إلى اللهِ بقلبِه، وخصَّ المنيبَ؛ لأنَّه المنتفِعُ بالفِكرةِ في حججِ اللهِ وآياتِه.

* * *

(١٠) ـ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا﴾ بيَّنَ لمنكِري نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ أنَّ إرسالَ الرُّسلِ ليسَ أمراً بِدْعاً، بل أرسلنا الرُّسلَ وأيَّدناهم بالمعجزاتِ وأحلَلْنا بمَن خالفَهم العقابَ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٠).

﴿ءَاتَيْنَا﴾: أعطينا ﴿فَضْلًا﴾؛ أي: أمراً فضَّلناه به على غيرِه، وهوَ تسخيرُ الجبالِ والطَّيرِ والحديدِ له، وقيلَ: الفضلُ: النُّبوَّةُ والكتابُ.

﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾؛ أي: وقلنا: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾؛ أي: سبِّحي معه وارْجِعي، مِن آبَ يَؤُوبُ؛ أي: رجَعَ.

وقيلَ: التَّأويبُ: سيرُ النَّهارِ كلِّه إلى اللَّيلِ؛ أي: ادْأبِي النَّهارَ كلَّه بالتَّسبيحِ.

وقيلَ: هذا أمرٌ للجبالِ بالسَّيرِ معه طولَ النَّهارِ إذا شاءَ ذلك.

وقيلَ: أي: تصرَّفي على ما يتصرَّفُ عليه داودُ بالنَّهارِ، فكانَ إذا قرأَ الزَّبورَ صوَّتَت الجبالُ معه، وأصغَت إليه الطَّيرُ، فكأنَّها فعلَت ما فعَلَ، وكانَ هذا مِن الجبلِ تسبيحاً للهِ لدلالتِه على نبوَّةِ داودَ.

وقرأَ الحسنُ: (أُوْبِي معه)[1] أمرٌ؛ أَمَر أن تَؤُوبَ؛ أي: ارجعي، مثل: «تُوبِي» مِن تابَ يَتوبُ.

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ قُرِئَ بالنَّصبِ، قالَ الزَّجَّاجُ: هوَ عطفٌ على قولِه: ﴿فَضْلًا﴾؛ أي: آتيناه فضلاً والطَّيرَ، أو مضمرٌ فيه سخرنا؛ أي: وسخَّرنا له الطَّيرَ، كقولِه: أطعمتُه طعاماً وماءً؛ أي: وسقيتُه ماءً، أو نصبٌ على النِّداءِ؛ أي: أدعو الجبالَ والطَّيرَ، فـ﴿الطَّيرَ﴾ معطوفٌ على موضعِ الجبالِ في الأصلِ، وكلُّ منادًى فهوَ في موضعِ نصبٍ، أو هوَ نصبٌ على معنى «مع» كقولِك: قمتُ وزيداً؛ أي: مع زيدٍ؛ أي: أَوِّبي معه ومع الطَّيرِ[2].

وقُرِئَ: (والطَّيرُ) بالرَّفعِ[3]؛ أي: أَوِّبي يا جبالُ أنت والطَّيرُ.

---

(١) نسبت لابن عباس والحسن وقتادة وابن أبي إسحاق كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٤٢).

(٣) بالنصب قراءة الجمهور، وبالرفع قراءة الأعرج وعبد الوارث عن أبي عمرو كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢).

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: كانَت الطَّيرُ تُسبِّحُ معه إذا سبَّحَ(١).

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾ قالَ ابنُ عبَّاسٍ: صارَ عندَه كالشَّمعِ(٢).

وقالَ الحسنُ: كالعجينِ(٣)، فكانَ يعملُه من غيرِ نارٍ.

وقالَ مُقاتلٌ: كانَ يَسردُ الدِّرعَ لا يقرعُها بحديدٍ ولا يُدخِلُها النَّارَ، ويَفْرُغُ من الدِّرعِ في بعضِ اليومِ أو بعضِ اللَّيلِ، ثمنُها ألفُ درهمٍ(٤).

وقيلَ: أي: أعطيناه من القوَّةِ ما كانَ يَثني به الحديدَ.

وقيلَ: هوَ كقولِك: لانَ فلانٌ لفلانٍ؛ أي: انقادَ له.

* * *

(١١) - ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾؛ أي: أمرناه أنِ اعْمَلْ؛ أي: وقلنا له: اعمَلْ، وقيلَ: أي: لأن يعملَ، تقولُ: أرسَلَ إليه أنْ قم، وأرسَلَ إليه أن يقومَ.

﴿سَٰبِغَٰتٖ﴾؛ أي: دروعاً تامَّةً تعمُّ البدنَ، ومنه: سبوغُ النِّعمةِ، واكتُفِيَ بذكرِ الصِّفةِ عن الموصوفِ؛ أي: دروعاً سابغاتٍ.

﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِ﴾ السَّردُ: أن يجعلَ مساميرَها على قَدْرِ ثقوبِ الحَلَقِ.

وقيلَ: هوَ ضمُّ شيءٍ إلى شيءٍ حتَّى يتَّسقَ بعضُه في إثرِ بعضٍ متتابعاً، ومنه: «سَرَدَ فلانٌ الحديثَ يسرُدُ سرداً»؛ أي: والاه، ومنه قولُهم في الأشهرِ الحرمِ: «ثلاثةٌ سَرْدٌ وواحدٌ فَرْدٌ».

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٣٢٤)، وبنحوه الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٤٣٥).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٣٢٤).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٦٢).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٢٦).

وقيلَ: السَّردُ الثَّقبُ في طَرَفي كلِّ حَلْقةٍ على قَدْرِ المسمار.

وقيلَ: نسجُ الدِّرع، ومنه يُقالُ: زَرَّادٌ وسَرَّادٌ؛ لتقارُبِ الزَّايِ والسِّينِ.

وقيلَ: السَّردُ: المساميرُ التي في حَلَقِ الدِّرعِ؛ أي: لا تَجعلِ المساميرَ رقاقاً فتَقْلَقَ ولا غِلاظاً فتكسِرَ الحَلَقَ.

فإذنْ: السَّردُ يجوزُ أن يكونَ مصدراً، ويجوزُ أن يكونَ نعتاً، والعربُ قد تنعتُ بالمصدرِ كقولِك: «رجلٌ عدلٌ» و: «رجلٌ صومٌ».

﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ هذا خطابٌ لداودَ وأهلِه الذينَ يُلْزَمُونَ[1] بما ألزمَه اللهُ به.

* * *

(١٢) ـ ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾؛ أي: وسخَّرنا لسليمانَ الرِّيحَ، وقُرِئَ: ﴿الريحُ﴾ بالرَّفعِ[2]؛ أي: وثبَتَ له الريحُ.

﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞ﴾؛ أي: سَيرُ غُدوِّ تلك الرِّيحِ المسخَّرةِ له شهرٌ؛ أي: مسيرةُ شهرٍ، وكذا في الرَّواحِ.

قالَ الحسنُ: كانَ يغدو مِن دمشقَ فيَقيلُ بإصطخرَ وبينهما مسيرةُ شهرٍ للمُسرِعِ، ثمَّ يروحُ مِن إصطخرَ ويبيتُ بكابُلَ وبينهما شهرٌ للمُسرِعِ[3].

---

(١) في (أ): «يسرون»، ولعل الصواب المثبت.

(٢) قرأ أبو بكر بالرفع والباقون بالنصب. انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٠).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٤٠٠)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٢٨)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٣٠ ـ ٣١)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ٣٣٠)، والبغوي في «تفسيره» =

وقالَ السُّدِّيُّ رحمَه اللهُ: كانَت تسيرُ به في اليومِ مسيرةَ شهرين للرَّاكبِ[١].

﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾؛ أي: أذَبْنا له النُّحاسَ كما ألَنَّا لداودَ الحديدَ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ ومجاهدٌ والسُّدِّيُّ: أُجرِيَت له عينُ الصُّفرِ ثلاثةَ أيَّامٍ بلياليهنَّ كجريِ الماءِ مِن صنعاءَ يعملُ بها ما أحبَّ كما يعملُ بالطِّينِ[٢].

وكانَ النُّحاسُ لا يذوبُ قبلَ سليمانَ ومِن وقتِه ذابَ[٣].

وقيلَ لعكرمةَ: إلى أينَ سالَت؟ فقالَ: لا أدري[٤].

وتخصيصُ الإسالةِ بثلاثةِ أيَّامٍ لا يُدرَى مأخذُه، ولعلَّه وهمٌ من الناقلِ؛ إذ في روايةٍ عن مجاهدٍ: أنَّها سالَت من صنعاءَ ثلاثَ ليالٍ ممَّا يليها، فهذا يُشيرُ إلى بيانِ الموضعِ لا إلى بيانِ المدَّةِ، **والظاهرُ** أنَّه جُعِلَ النُّحاسُ لسليمانَ في معدنِه عيناً تسيلُ كعيونِ المياهِ دلالةً له من الجنِّ على نبوَّتِه[٥].

وقالَ الخليلُ: القطرُ: النُّحاسُ الذَّائبُ[٦].

= (٦/ ٣٨٩). ورواه الإمام أحمد في «الزهد» كما في «الدر المنثور» (٦/ ٦٧٧) بلفظ: (فيقيل بقلعة خراسان).

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٣٣٠).

(٢) ذكره عنهم الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٣٣١)، وفيه: «. . كمجرى الماء في صنعاء. .»، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٢٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما مختصراً بلفظ: «عين النحاس أسيلت».

(٣) ولا دليل نقليًّا على هذا، ولعله مأخوذ من الإسرائيليات.

(٤) رواه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٦/ ٦٧٨).

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٢٦٨) عن المصنف دون قوله: «له من الجن».

(٦) انظر: «العين» (٥/ ٩٥).

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: وسخَّرنا له مِن الجنِّ مَن يعملُ بحضرتِه ما يأمرُه به مِن الأعمالِ ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: بأمرِ ربِّه؛ أي: ربِّ سليمانَ.

﴿وَمَن يَزِغْ﴾؛ أي: ومَن يعدِل من الجنِّ ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ لهم بطاعةِ سليمانَ ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ أي: في الآخرةِ.

وقيلَ: كانَ ذلك العذابُ في الدُّنيا؛ لأنَّ اللهَ تعالى وكَّلَ ملكاً بيدِه سوطٌ من نارٍ، فمَن زاغَ مِن الجنِّ عن طاعةِ سليمانَ ضربَه ضربةً أحرقَتْه.

* * *

(١٣) ـ ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾؛ أي: مساجدَ، وقيلَ: أي: مِن القصورِ والمساكنِ. قالَ أبو عُبيدةَ: المحرابُ: أشرفُ بيوتِ الدَّارِ[1].

وقيلَ: هوَ ما يُرقى إليه بالدَّرجِ، كما قالَ: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١].

﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ هي جمعُ تِمثالٍ، وهوَ كلُّ شيءٍ مثَّلتَه بشيءٍ، فكانَت الجنُّ تعملُ صوراً من نُحاسٍ وزُجاجٍ ورُخامٍ، وتقولُ: هي صورُ الأنبياءِ والملائكةِ، وكانَت تُصوَّرُ في المساجدِ ليراها النَّاسُ فيزدادوا عبادةً، وهذا يدلُّ على أنَّ التصويرَ كانَ مباحاً في ذلك الزَّمان.

وقيلَ: كانَت صورَ غيرِ الحيوانِ، وهوَ ممَّا لا يُكرَهُ.

﴿وجِفانٍ كالجوابي﴾ الجفانُ: جمعُ الجَفنةِ، وهي القصعةُ الكبيرة، والجوابي: جمعُ الجَابيةِ، وهي الحوضُ الكبيرُ تَجبِي الماءَ؛ أي: تجمعُه، وكانُوا يتَّخذونَ له

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١٤٤)، وعبارته: «هو مقدم كل مسجد ومصلى وبيت».

قِصاعاً كحياضِ الإبلِ، يجلسُ على القصعةِ الواحدةِ ألفُ رجلٍ يأكلونَ منها.

قُرِئَ ﴿كالجوابي﴾ مع الياء، وقُرِئَ بحذفِ الياءِ في الوصلِ والوقفِ(١)؛ إذِ الكسرُ ينوبُ عن الياءِ.

﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾؛ أي: عظامٍ، ولها قوائمُ لا تحرَّكن عن أماكنِها لعظمِها، ثوابتَ على أثافيِّها تُتَّخذُ من الجبالِ.

وقيلَ: كانَت هذه بأرضِ اليمنِ، وكانَ ملكُ سليمانَ ما بينَ مصرَ وكابُلَ.

وقيلَ: ملَكَ الدُّنيا، وكانَ يتَّخِذُ الطَّعامَ في هذه القدورِ لجُندِه وأصحابِه.

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾؛ أي: وقلنا لهم: اعملوا شُكراً لِمَا أعطيناكم مِن النِّعمةِ.

وقيلَ: أي: اعملُوا بطاعةِ اللهِ شُكراً له على ما آتاكم.

وقالَ الزَّجَّاجُ: نُصِبَ ﴿شُكْرًا﴾ بمعنى: اعملُوا للشُّكرِ، أو نُصِبَ على المصدر؛ أي: اشكروا شكراً(٢).

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾؛ أي: لا يقومُ بالشُّكرِ إلَّا القليلُ مِن العبادِ.

* * *

(١٤) - ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾؛ أي: فلمَّا حكمْنا عليه بالموتِ؛ أي: حتَّى صارَ كالأمرِ المفروغِ منه، ووقَعَ به الموتُ ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ

---

(١) أثبت الياء وصلًا ووقفاً ابن كثير، وأثبتها في الوصل ورش وأبو عمرو، وباقي السبعة بحذفها. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٢).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٤٦).

تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾، وذلك أنَّه كانَ متَّكئاً على المنسأةِ، وهي العصا، فبقيَ كذلك وماتَ خافي الحالِ، إلى أن سقطَ ميتاً لانكسارِ العصا لأكلِ الأَرضةِ إيَّاها، فعُلِمَ موتُه بذلك، فكانَت الأرضةُ دالَّةً على موتِه؛ أي: سبباً لظهورِ موتِه.

وقولُه: ﴿دَلَّهُمْ﴾ ترجعُ الكنايةُ فيه إلى آلِ داودَ.

وقيلَ: إلى الجنِّ العَمَلةِ.

وقيلَ: إلى الجميعِ، وكانَت الجنُّ تُوهِمُ الإنسَ أنَّهم يعلمونَ الغيبَ الذي يكونُ في غدٍ، فابتُلوا بموتِ سليمانَ، وماتَ سليمانُ مُتَّكئاً على عصاه، وبقيَ كذلك سنةً والجنُّ في الأعمالِ الشَّاقَّةِ لا يشعرونَ بموتِه، فلمَّا خرَّ سليمانُ ميتاً علمَ الإنسُ أنَّ الجنَّ لا تعلمُ الغيبَ.

والمِنْسَأةُ: العصا، وقيلَ: هي لغةُ اليمنِ.

وقالَ أبو عُبيدةَ: هي التي تنسأُ بها الغنمُ، ونسأتُ البعيرَ؛ أي: زجرتُه في السَّيرِ[1].

وقالَ المبرِّدُ: سُمِّيت العصاةُ منسأةً لأنَّه يُنسأُ بها الطَّريقُ؛ أي: يُقصَدُ، ونسأتُ النَّاقةَ؛ أي: حملتُها على الطَّريق[2].

والمنسأةُ مهموزةٌ، وقرأَ نافعٌ وأبو عمرٍو بغيرِ همزةٍ[3].

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾؛ أي: سليمانُ ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾؛ أي: تبيَّنَتِ الإنسُ أنَّ الجنَّ ﴿لَّوْ

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١٤٤).

(٢) ذكره عن المبرد الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٣٣٦).

(٣) قرأ نافع وأبو عمرو بالألف بدلًا من الهمزة، وابن ذكوان بهمزة ساكنة، والباقون بهمزة مفتوحة، وحمزة إذا وقف جعلها بَينَ بَينَ على أصله. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٠).

كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ﴾، وفي قراءةِ ابنِ عبَّاسٍ: (تبيَّنَتِ الإنسُ أنْ لَوْ كانُوا)[1]؛ أي: لو كانَ الجنُّ يعلمونَ الغيبَ.

وقيلَ: أي: بانَ لعوامِّ الجنِّ أنَّ رؤساءَهم المدَّعينَ لعلمِ الغيبِ كذَبوا.

وقُرِئَ ﴿تُبُيِّنَتِ الجنُّ﴾ بضمِّ التَّاء[2]؛ أي: عُلِمَ من حالِهم أنَّهم كانُوا لا يعلمونَ الغيبَ.

والعذابُ المهينُ: البعثُ في العملِ.

وقيلَ: كانَ رؤساءُ الجنِّ سبعةً، وكانُوا منقادين لسليمانَ، وكانَ داودُ أوصَى إلى سليمانَ في إتمامِ مسجدِ بيتِ المقدسِ، فأمَرَ سليمانُ الجنَّ به، فلمَّا دنَت وفاتُه قالَ لأهلِه: لا تُخبروهم بموتي حتَّى يُتمُّوا بناءَ المسجد، وكانَ بقيَ سنةٌ لإتمامِه، وكانَ ملَكُ الموتِ صديقَه، فسألَه عن آيةِ موتِه، فقالَ: أن تخرجَ من الأرضِ من موضعِ سجودِك شجرةٌ يُقالُ لها: الخرنوبةُ، فلمَّا رأى سليمانُ ذلك لبسَ كفنَه وتحنَّطَ واتَّكأَ على العصا على كرسيِّه، ووقفَ في المحرابِ فماتَ، ولم تعلمِ الجنُّ إلى أن مضَت سنةٌ، وتمَّ بناءُ المسجدِ[3].

---

(١) رواها عنه سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (١٧٥٨)، وذكرها النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٣١)، وابن جني في «المحتسب» (٢/ ٢٣٢).

(٢) هي قراءة رويس عن يعقوب. انظر: «النشر» (٢/ ٣٥٠).

(٣) لم أجده هكذا، وقصة الخرنوبة وما بعدها رواها الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٤١) من طريق السُّدِّي عن أشياخه عن ابن عباس وابن مسعود، وناس من أصحاب رسول الله ﷺ في خبر طويل، وفيه: «الخروبة»، قال ابن كثير بعد ذكر هذا الخبر في «تفسيره» عند هذه الآية: وهذا الأثر ـ والله أعلم ـ إنما هو مما تُلُقِّي من علماء أهل الكتاب، وهي وَقْفٌ لا يصدق منها إلا ما وافق الحق، ولا يُكذب منها إلا ما خالف الحق، والباقي لا يصدق ولا يكذب.

وقال في «البداية والنهاية» (٢/ ٣٥٤): وهذا فيه من الإسرائيليات التي لا تُصَدَّقُ ولا تُكَذَّبُ. =

(١٥) ـ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ كانَ لِسَبَأٍ فـي مَساكِنِهم آيةٌ جَنَّتانِ﴾ ذَكَرَ قصَّةَ سبأ، وهي مشهورةٌ عند العربِ، وحذَّر[١] مشركي قريشٍ أن ينزلَ بهم ما نزلَ بسبأ؛ فإنَّهم كانُوا في رغدةٍ[٢] وبلادٍ طيِّبةٍ، فلمَّا عصَوا زالَ نعيمُهم، وسُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن سبأٍ: أرَجُلٌ هوَ أم امرأةٌ أم أرضٌ؟ فقالَ: «رجلٌ، وله عشرةٌ مِن الأولادِ، تيامَنَ قومٌ، وتشاءَمَ قومٌ»[٣].

والمرادُ بسبأ هاهنا: القبيلةُ؛ أي: لقد كانَ لأولادِ سبأٍ في بلادِهم ﴿ءَايَةٌ﴾؛ أي: علامةٌ تدلُّ على أنَّ لهم إلهاً خلقَهم؛ لأنَّ كلَّ الخلائقِ لو اجتمعوا على أن يُخرِجوا

= وروي بنحوه مرفوعاً وموقوفاً من حديث ابن عباس رضي الله عنهما:
فقد رواه البزار (٢٣٥٥ ـ كشف الأستار)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٤٠)، والطبراني في «الكبير» (١٢٢٨١)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٨٤)، والضياء في «المختارة» (٣٠٨)، من طريق عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ.
قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٣٥٢): عطاء بن السائب في حديثه نكارة، والموقوف أشبه بالصواب.
وقال في «تفسيره» عند تفسير هذه الآية: الأقرب أن يكون موقوفاً.
والموقوف على ابن عباس رواه الحسينُ المروزي في زياداته على «الزهد» لابن المبارك (١٠٧٢)، ومحمد بن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (٢٠٧)، والبزار (٢٣٥٦ ـ كشف الأستار)، والحاكم في «المستدرك» (٧٤٢٩).

(١) في (أ): «وجد»، ولعل الصواب هو المثبت.

(٢) في (أ): «عدة»، ولعل الصواب هو المثبت.

(٣) رواه بنحوه أبو داود (٣٩٨٨)، والترمذي (٣٢٢٢)، من حديث فروة بن مسيك رضي الله عنه. قال الترمذي: حديث حسن غريب.

من الخشبةِ ثمرةً لم يُمْكنْهم ذلك، ولم يَهتدوا إلى اختلاقِ أجناسِ الثِّمارِ وألوانِها وطُعومِها وروائِحها وأزهارِها، وفي ذلك ما يدلُّ على أنَّها لا تكونُ إلَّا مِن قادرٍ عالمٍ، وإذا قَدَرَ على هذه الأشياءِ قَدَرَ على بعثةِ الرُّسلِ، وقد بعثَ وشرعَ الأديانَ، وأيَّدَ الرُّسلَ بالمعجزاتِ.

قُرِئَ: ﴿مَسْكَنِهِمْ﴾ بفتحِ الكافِ، وقُرِئَ بالكسرِ، والمسكِنُ بالكسرِ: اسمُ المكانِ، والمصدرُ أيضاً، فهوَ كالسُّكنى؛ أي: في مواضعِ سُكناهم، والمصدرُ مِن فَعَلَ يَفْعُلُ مثل نَصَرَ ينصُرُ يكونُ بالفتحِ نحو: المحشَرِ، وقد وردَ بالكسرِ أشياءُ كالمسجِدِ والمسكِنِ، وقُرِئَ ﴿مساكنهم﴾[1].

وكانَت مساكنُهم بمأربَ مِن اليمن، ثمَّ بيَّن الآيةَ التي كانَت لهم، فقالَ: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾؛ أي: كانَت بلادُهم بساتينَ ذاتَ أشجارٍ وثمارٍ تسترُ النَّاس بظلالِها.

ولم يُرِد جنَّتينِ اثنتين، بل أرادَ مِن الجهتين يَمْنَةً ويَسْرَةً.

وقالَ الزَّجَّاجُ: أي: الآيةُ جنَّتانِ، فـ﴿جَنَّتَانِ﴾ رفعٌ لأنَّه خبرُ ابتداءٍ محذوفٍ[2]، وقالَ الفرَّاءُ: رفعٌ لأنَّه تفسيرُ الآيةِ[3].

﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: قيلَ لهم: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾، ولم يكنْ ثَمَّ أمرٌ، ولكنَّهم تمكَّنُوا من تلك النِّعم.

وقيلَ: أي: قالَت الرُّسلُ لهم: قد أباحَ اللهُ لكم هذه النِّعَمَ فاشكروه بالطَّاعةِ له.

---

(١) قرأ حفص وحمزة: ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ بإسكان السين وفتح الكاف، والكسائيُّ كذلك غير أنه يكسر الكاف، والباقون بفتح السين وكسر الكاف وألف بَينهما على الجمع. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٦٧).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٤٧).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٥٨).

﴿مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: مِن ثمارِ الجنَّتينِ، قيلَ: كانَت المرأةُ تخرجُ فتحمِلُ مِكْتلاً على رأسِها وتمرُّ في البستانِ، فيمتلئُ مِكتلُها من ألوانِ الفاكهةِ من غيرِ أن تمسَّ شيئاً بيدِها[1].

﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾؛ أي: على هذه النِّعمِ.

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ هذا كلامٌ مستأنَفٌ؛ أي: هذه بلدةٌ طيِّبةٌ؛ أي: كثيرةُ الثِّمارِ، وقيلَ: غيرُ سَبِخَةٍ، وليس فيها شيءٌ مُؤْذٍ من بعوضٍ وبرغوثٍ وذُبابٍ لطيبِ الهواءِ.

﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾: والمنعِمُ بها عليكم ربٌّ غفورٌ يسترُ ذنوبَكم.

* * *

(١٦) - ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾؛ أي: كفروا فعاقبناهم، وكانَ اللهُ تعالى أرسلَ إليهم ثلاثةَ عشرَ رسولاً فكذَّبوهم[2].

وكانَ لهم رئيسٌ يُلقَّبُ بالحمارِ، وكانُوا في زمانِ الفترةِ بينَ عيسى ومحمَّدٍ عليهما السَّلام.

وقيلَ: كانَ له ولدٌ فماتَ، فرفَعَ رأسَه إلى السَّماءِ فبزَقَ وكفَرَ، فلهذا يُقالُ في المثلِ: «أكفَرُ مِن حِمارٍ»، ويُقالُ: «تركَه جَوفَ حمارٍ»[3]؛ ....

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٤١٥)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٤٧) عن قتادة. ورواه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٦/ ٦٨٨) عن السدي.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٤٩) عن وهب بن منبه.

(٣) انظر: «الزاهر» لابن الأنباري (١/ ٣٥٤)، و«مجمع الأمثال» (١/ ١٣٥) و(٢/ ١٦٨). وذكر ابن =

أي: كوادي حمارٍ لمَّا سالَ بهم، وفي المثلِ: «صاروا أياديَ سبا»(١).

وقيلَ: الأوسُ والخزرجُ منهم.

وقيلَ: كانَ الماءُ يأتي أرضَ سبأٍ من الشِّحْرِ(٢) وأوديةِ اليمنِ، فرَدَموا ما بينَ جبلين، وجعلُوا في ذلك الرَّدمِ ثلاثةَ أبوابٍ بعضُها فوقَ بعضٍ، وكانُوا يَسقُونَ مِن الأعلى، ثمَّ مِن الثاني، ثمَّ مِن الثَّالثِ على قَدْرِ حاجاتِهم، فأخصبُوا وكثرَت أموالُهم، فلمَّا كذَّبوا الرُّسلَ سلَّطَ اللهُ عليهم الفأرَ، فنقبَت الرَّدمَ حتَّى انثقَبَ وغرَّقَ الجنَّتين، ودفنَ السَّيلُ بيوتَهم.

وقيلَ: أرسلَ اللهُ سيلاً فقلَعَ الرَّدمَ وقلعَه(٣).

= الأنباري فيه قولين: الأول: عن هشام بن محمد الكلبي قال: حمار رجل من العمالقة، كان له بنون ووادٍ مخصب، وكان حَسَنَ الطريقة، فخرج بنوه في بعض أسفارهم، فأصابتهم صاعقة فأحرقتهم، فكفر بالله عز وجل، وأخذ في عبادة الأصنام، وقال: لا أعبدُ ربّاً أحرق بَنِيَّ أبداً، وهو الذي يضرب به المثل فيقال: «أَكْفَرُ من حمارٍ» فأرسل الله عز وجل على واديه ناراً فأحرقته ولم تَدَعْ فيه شيئاً، وأهل اليمن يسمون الوادي: الجوف. فضُرب هذا مثلاً لكل شيء هلك وبَعُدَ، فلم يوجد منه شيء، ولم يبق منه بقية، وقال الشرقي بن القطامي: هو حمار بن مالك بن نصر من الأزد.

والثاني: عن الأصمعي قال: «تركه جوف حمار»، معناه: لا خير فيه ولا يوجد فيه شيء ينتفع به، وذلك أن جوف الحمار لا ينتفع منه بشيء ولا يؤكل من بطنه شيء.

(١) أي: مذاهب سبأ وطرقها؛ أي: تفرقوا تفرقاً لا اجتماع بعده. وقال الأزهريُّ: العربُ لا تهمز «سَبَا» في هذا الموضع لأنه كَثُر في كلامهم فاستَثقلوا فيه الهمزَ وإن كانت «سبأ» في الأصل مهموزة. انظر: «تهذيب اللغة» (١٣/ ٧٢)، و«معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٤١٠)، و«مجمع الأمثال» (٢/ ٢٧٥).

(٢) الشِّحْر: منطقة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن ما بين عدن وعمان. انظر: «معجم البلدان» (٣/ ٣٢٧).

(٣) قوله: «فقلع الردم وقلعه» كذا في (أ)، وفيه تكرار لا داعي له، ولعل إحدى الكلمتين محرفة، وقد ذكر البخاري كما في «الفتح» (٨/ ٥٣٥) تعليقاً عن مجاهد قال: «ماءٌ أحمرُ أرسله الله في =

والعَرِمُ: السِّكرُ الذي كانَ يَحبِسُ الماءَ عنهم بلغةِ اليمنِ.

وقيلَ: العَرِمُ: السَّيلُ الذي لا يُطاقُ، ذكرَه ابنُ الأعرابيِّ[1]، فقولُه: ﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ مِن بابِ إضافةِ الشيءِ إلى نفسِه، كما قالَ: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وقالَ الزَّجَّاجُ: العَرِمُ اسمُ الجرذِ الذي نقبَ السدَّ عليهم، وهوَ الذي يُقالُ له: الخلدُ[2]، وقد قالَ ابنُ الأعرابيِّ: العرمُ مِن أسماءِ الفأرِ[3].

وقيلَ: العرمُ: المطرُ الشَّديدُ، وأصلُه مِن العَرامةِ، وهي الشِّدَّةُ، ومنه: رجلٌ عارِمٌ؛ أي: شديدٌ.

﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾؛ أي: جعَلْنا بَدَلَهما جنَّتين من أشجارٍ لا يُنتفع بها من خَمطٍ وأثلٍ وسِدرٍ، فالخمطُ: الأراكُ، وقيلَ: ثمرُ الأراكِ، والأثلُ: الحِنَّاء.

وقالَ أبو عُبيدةَ: الخمطُ: كلُّ شجرةٍ مُرَّةٍ ذاتِ شوكٍ[4].

وقُرِئَ: ﴿ذَوَاتَيْ أُكلِ خَمْطٍ﴾ بالإضافةِ؛ إذ الخمطُ ليسَ بوصفٍ للأُكلِ، ولا يُدرَكُ مِن الأُكلِ؛ لأنَّه ليسَ هوَ ولا هوَ بعضَه؛ لأنَّ الجَنى مِن الشَّجرةِ، وليسَتِ الشَّجرةُ مِن الجنَى.

= السُّدِّ فشَقَّه وهدَمه وحفر الواديَ، فارتَفعَتا عن الجَنْبَين، وغاب عنهما الماء فيَبِسَتا، ولم يكن الماءُ الأحمرُ من السُّدِّ، ولكنْ كان عذابًا أَرسله اللهُ عليهم مِن حيث شاء». وذكر ابن حجر عن القاضي عياض أنه في رواية: «فبثقه» بدل «فشقه» قال: وهو الوجه، تقول بثقت النهر: إذا كسرته لتصرفه عن مجراه.

(١) ذكره عنه الأزهري في «تهذيب اللغة» (٢/ ٢٣٧)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ٣٤٤).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٤٩).

(٣) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٣٤٤).

(٤) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١٤٧).

وقُرِئَ: ﴿أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ بتنوينِ ﴿أُكُلٍ﴾[١]، وهذا يُخرَّجُ على أنَّ الخمطَ ثمرُ شجرٍ، فيكونُ الخمطُ نعتاً للأُكلِ، وقد قالَ ابنُ الأعرابيِّ: الخمطُ ثمرُ شجرٍ يُقالُ له: «فسوةُ الضَّبُعِ» على صورةِ الخشخاشِ لا يُنتفَعُ به[٢].

وقالَ الزَّجَّاجُ: كلُّ نبتٍ فيه مرارةٌ، فهوَ خَمطٌ[٣].

﴿وَأَثْلٍ﴾ قالَ الفرَّاءُ: هوَ شبيهٌ بالطَّرفاءِ إلَّا أنَّه أعظمُ منه طولاً[٤]، ومنه اتُّخذَ منبرُ رسولِ اللهِ ﷺ[٥].

وللأثلِ أصولٌ غليظةٌ تُتَّخذُ منه الأبواب، وورقُه كورقِ الطَّرْفاءِ.

﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ قال الأزهريُّ[٦]: السِّدْرُ من الشَّجرِ سِدْرانِ:

بَرِّيٌّ لا يُنتفعُ به، ولا يَصلُحُ ورقُه للغَسولِ، وله ثمرٌ عَفِصٌ لا يُؤكَلُ، وهوَ الذي يُسمَّى: الضَّال، والثاني سدرٌ ينبتُ على الماءِ وثمرُه النَّبِقُ وورقُه غَسولٌ يشبهُ شجرَ العُنَّابِ، وهوَ أصفرُ مَزٌّ يُتفكَّهُ به.

وقيلَ: إنَّه السَّمُرُ؛ أي: كانَت ثمارُهم من أطيبِ الثِّمارِ فبُدِّلوها بشرِّها.

---

(١) قرأ أبو عمرو: ﴿ذواتي أُكُلِ خَمْطٍ﴾ بالإضافة، والباقون بالتنوين، وخفف الكاف في ﴿أُكُلٍ﴾ نافع وابن كثير وثقل الباقون. انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٨)، و«التيسير» (ص: ١٨٠).

(٢) ذكره عنه الأزهري في «تهذيب اللغة» (٧/ ١١٨).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٤٩).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٥٩).

(٥) روى البخاري (٣٧٧) عن أبي حازم قال: سألوا سهل بن سعد: من أي شيء المنبر؟ فقال: ما بقي بالناس أعلم مني، هو من أثل الغابة، عمله فلان مولى فلانة، لرسول الله ﷺ.

(٦) في (أ): «الجوهري»، والصواب المثبت. انظر: «تهذيب اللغة» (١٢/ ٢٤٧)، و«البسيط» (١٨/ ٣٤٧).

وأشجارُ البوادي لا تُسمَّى جنَّةً وبستاناً، ولكنْ لـمَّا وقعَت الثَّانيةُ في مقابَلةِ الأولى أُطلِقَ لفظُ الجنَّة، وهوَ كقولِه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٢].

ويَحتمِلُ أن يرجعَ قولُه: ﴿قَلِيلٖ﴾ إلى جملةِ ما ذُكِرَ من الخَمْطِ والأَثْلِ والسِّدرِ.

***

(١٧) ـ ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ﴾؛ أي: هذا التَّبديلُ جرى بسببِ كفرِهم، وموضعُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ نصبٌ؛ أي: جزيناهم ذلك بكفرِهم.

﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ قُرِئَ بالنُّونِ، وقُرِئَ: ﴿يُجازَى﴾ بالياءِ[1]، وخصَّ المجازاةَ بالكَفورِ؛ لأنَّ المؤمِنَ تُكفَّرُ عنه ذنوبُه، قالَ اللهُ تعالى: ﴿نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ [النساء: ٣١]، والكافرُ يُجازَى بكلِّ سوءٍ يعملُه.

وقالَ طاوسٌ: يُجازى الكفورُ ولا يغفرُ له، فأمَّا المؤمنُ فلا يُناقَشُ الحسابَ[2].

***

(١٨) ـ ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ﴾؛ أي: جعلنا بينهم وبينَ الشَّامِ قرًى، فالقرى التي باركنا فيها: الشَّامُ والأردنُّ وفلسطينُ وبيتُ المقدسِ، والبركةُ فيها: كثرةُ النِّعمِ والأشجارِ والمياهِ، وكانَ بينَ مساكنِ سبأٍ وبين

---

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائيّ: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ﴾ بالنُّون وكسر الزَّاي ﴿إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ بالنصب، والباقون بالياء وفتح الزَّاي والرَّفع. انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٨)، و«التيسير» (ص: ١٨١).

(٢) ذكره عنه ابن قتيبة في «غريب القرآن» (ص: ٣٥٦)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ٣٤٨).

متاجرِهم من الشَّامِ على كلِّ ميلٍ قريةٌ بسُوقٍ، وهوَ سببُ أمنِ الطَّريقِ.

و﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾؛ أي: متَّصلةً إذا خرجْتَ من هذه ظهرَت لك الأُخرى، فالنُّزولُ غَدْوةً في قريةٍ وباللَّيلِ في قريةٍ، فلا يُحتاجُ إلى حملِ الزَّادِ.

وقيلَ: ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾؛ أي: معروفةً، يُقالُ: هذا أمرٌ ظاهرٌ؛ أي: معروفٌ.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾؛ أي: جعَلْنا فيها السَّيرَ بمقدارٍ معروفٍ حتَّى يكونَ المَقيلُ في قريةٍ والمبيتُ في قريةٍ، فبينَ القريةِ والقريةِ نصفُ يومٍ، فهذا تقديرُ السَّير، وإنَّما يبالِغُ الإنسانُ في السَّيرِ لعدمِ الزَّادِ والماءِ ولخوفِ الطُّرقِ، فإذا وجد الزَّادَ[1] والأمنِ لم يحمل على نفسِه المشقَّةَ، ونزلَ أينما أرادَ.

﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ﴾ هذا أمرُ تمكينٍ؛ أي: كانُوا يسيرون فيها إلى مقاصدِهم إذا أرادُوا آمِنين، فهذا أمرٌ بمعنى الخبرِ، وفيه إضمارُ القولِ؛ أي: قُلنا لهم: ﴿سِيرُوا﴾، وقالَ: ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ بلفظِ النَّكرةِ تنبيهاً على قصرِ أسفارِهم؛ أي: كانُوا لا يحتاجون إلى طولِ السَّفرِ؛ لوجودِ ما يحتاجونَ إليه بقربِهم.

* * *

(١٩) - ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾؛ أي: سَئِمُوا العافيةَ والنِّعمةَ، وتمنَّوا طولَ الأسفارِ والكَدْحَ في المعيشةِ، كقولِ بني إسرائيلَ: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا﴾ [البقرة: ٦١]، وكالنَّضرِ بنِ الحارثِ إذ قالَ: ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]،

(١) في (أ): «وجدنا للزاد»، والتصويب من «تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٩٩).

فأجابَـه اللهُ وقُتِـلَ يـومَ بدرٍ بالسَّـيفِ صَبْراً، فكذلكَ هـؤلاءِ تبدَّدُوا في الدُّنيـا ومُزِّقُوا كلَّ ممزَّقٍ.

﴿بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾؛ أي: باعِدْ بينَنا وبينَ أسفارِنا؛ أي: اجعَلْ بيننا وبين الشَّامِ فَلَواتٍ وقِفَاراً.

وقيلَ: قالُوا: ليتَ أسفارَنا تباعَدَت، فكنَّا نركبُ البحرِ، ونحملُ معنا الأزوادَ، ونحتاجُ إلى قطعِ البراري.

وقُرِئَ: ﴿بعِّدْ بينَ أسفارِنا﴾[1] وفاعَلَ وفَعَّلَ بمعنًى مثلَ: ضاعَفَ وضَعَّفَ.

وقُرِئَ: ﴿ربُّنا باعَدَ بينَ أسفارِنا﴾[2]؛ أي: شَكَوا واستَبْعَدوا سفرَهم، وقالُوا: نحتاجُ إلى جلبِ بعضِ الأشياءِ من الأطرافِ وليسَت عندنا.

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ إذ قـالُوا: ﴿بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ أو: ﴿بَٰعِدۡ﴾ على طـريقِ الإخبارِ؛ إذ كانَ من حقِّهم الشُّكرُ والاستكانةُ، لا الشِّكايةُ؛ إذ لا بدَّ للآدميِّ مِن التقلُّبِ في البلادِ؛ إذ ليسَ كلُّ شيءٍ يُوجَدُ في كلِّ موضعٍ.

وقيلَ: ظلموا أنفسَهم بالكفرِ وتكذيبِ الأنبياءِ.

﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾؛ أي: يتحدَّثُ النَّاسُ بأمرِهم وما جرى عليهم مِن العقوبةِ والخزي ﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾؛ أي: فرَّقناهم في كلِّ وجهٍ من البلادِ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما فُعِلَ بسبأٍ ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾ عن معاصي اللهِ ﴿شَكُورٖ﴾ لنِعمِه.

* * *

---

(١) هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وهشام. انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٩)، و«التيسير» (ص: ١٨١).

(٢) قراءة يعقوب. انظر: «النشر» (٢/ ٣٥٠).

(٢٠) ـ ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ ﴾؛ أي: إنَّما وقعَ لهم ما وقعَ مِن قِبَلِ أنفسِهم إذ أصغَوا إلى وساوسِ الشَّيطانِ وكفروا باللهِ.

قُرِئَ ﴿صَدَّقَ﴾ بالتَّشديدِ، وبالتَّخفيفِ[1]، ذلك أنَّ إبليسَ ظنَّ أنَّه هوَ إذا دعاهم اتَّبعوه فوجدَهم كذلكَ، فمَن شدَّدَ قالَ: صدَّقَ إبليسُ الظَّنَّ، فالظَّنُّ مفعولٌ به، ومَن خفَّفَ قالَ: صدَقَ عليهم ظنّاً ظنَّه؛ أي: صدَقَ في ظنِّه، فنُصِبَ على المصدرِ أو على الظَّرفِ.

وقالَ أبو عليٍّ: ﴿ظَنَّهُۥ﴾ نصبٌ لأنَّه مفعولٌ له؛ أي: صَدَقَ الظَّنَّ الذي ظنَّه إذ قالَ: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، وقالَ: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، ويجوزُ تعديةُ الصِّدقِ إلى المفعولِ به، يُقالُ: صدَقَ الحديثَ؛ أي: في الحديثِ[2].

ثمَّ قيلَ: هذا في أهلِ سبأٍ؛ أي: كفرُوا إلَّا قوماً منهم آمنوا برسلِهم.

وقيلَ: هذا عامٌّ؛ أي: صَدَّقَ إبليسُ ظنَّه على النَّاسِ إلَّا مَن أطاعَ الله.

﴿إِلَّا فَرِيقًا﴾ هم المؤمنون، فـ﴿مِّنَ﴾ للتَّبيينِ لا للتَّبعيضِ؛ لأنَّ مِن المؤمنين مَن يُندبُ ويَنقادُ لإبليسَ في بعضِ المعاصي، وإبليسُ لم يعلمِ الغيبَ، ولكنْ لمَّا نفذَ له في آدمَ ما نفذَ؛ غلبَ على ظنِّه أنَّه ينفذُ بعدَ ذلك مثلُ ذلك في ذرِّيَّتِه، وقد وقعَ تحقيقُ ما ظنَّ إبليسُ بفعلِ الكافرِ، فيجوزُ أن يُضافَ إلى الكافرِ مرَّةً وإلى إبليسَ مرَّة.

وقيلَ: صَدَقَ ظنَّه؛ أي: وجدَه صادقاً، أو: رأى ظنَّه صادقاً، ويقالُ: صدَقَ ظنِّي في فلانٍ وعلى فلانٍ، كما يُقالُ: أعطى في اللهِ وعلى اللهِ.

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي بالتشديد، والباقون بالتخفيف، وكلاهما برفع ﴿إِبْلِيسُ﴾ ونصب الظن. انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٩)، و«التيسير» (ص: ١٨١).

(٢) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٦/ ١٩ ـ ٢٠).

(٢١) - ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾؛ أي: لم يقهرهم إبليسُ على الكفرِ إنَّما كانَ منه الدُّعاءُ والتَّزيينُ، والسُّلطانُ: القُدرةُ، وقيلَ: الحجَّةُ؛ أي: إنَّما اتَّبعوه بشهوةٍ وتقليدٍ وهوى نفسٍ، لا عن حجَّةٍ ودليلٍ.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾؛ أي: ما أتيناهم[1] وابتليناهم بالشَّيطانِ إلَّا لنعلمَ وجودَ الإيمانِ مِن قومٍ والكفرَ مِن قومٍ، وقبلَ ظهورِ ذلك كنَّا نعلمُ أنَّه سيُوجَد.

وقيلَ: ﴿إِلَّا ﴾ استثناءٌ منقطِعٌ؛ أي: لا سلطانَ له عليهم، ولكن ابتلَيْناهم بوسوستِه لنعلمَ، فـ﴿إِلَّا ﴾ بمعنى: لكنْ.

وقيلَ: هوَ متَّصلٌ؛ أي: ما كانَ له عليهم مِن سلطانٍ غيرَ أنَّا سلَّطْناه عليهم ليَتِمَّ الابتلاءُ.

وقيلَ: ﴿كَانَ ﴾ زيادةٌ؛ أي: وما له عليهم مِن سلطانٍ، كقولِه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ [آل عمران: ١١٠]؛ أي: أنتم خيرُ أمَّةٍ.

وقيلَ: لـمَّا اتَّصلَ طرفٌ منه بقصَّةِ سبأٍ قيلَ: وما كانَ لإبليسَ على أولئكَ الكفَّارِ مِن سلطانٍ.

وقيلَ: وما كانَ له في قضائِنا السَّابقِ سلطانٌ عليهم.

وقيلَ: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ ﴾؛ أي: إلَّا لنُظهِرَ، وهوَ كما تقولُ: «النَّارُ تحرقُ الحطبَ»، فيقولُ آخرُ: «لا، بل الحطبُ يحرقُ النَّارَ»، فيقولُ الأوَّلُ: «تعالَ حتَّى نجرِّبَ النَّارَ

---

(١) بعدها في (أ): «لا عن حجة» ولعلها سبق نظر من الناسخ.

والحطبَ لنعلمَ أيَّهما يحرقُ صاحبَه»؛ أي: لنُظهِرَ ذلك وإن كانَ معلوماً لهما ذلك.

وقيلَ: إلَّا لتَعْلَموا ذلك أنتم، وهو كقولِه: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]؛ أي: في ظنِّكم، وقولِه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]؛ أي: عندَ نفسِك، فالمقصودُ: ظهورُ المعلومِ للعبادِ.

وقيلَ: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾؛ أي: إلَّا [ليكون ويحصل، كما تقول][1]: «ما علمَ اللهُ هذا منِّي»؛ أي: لم يكن منِّي، ولو كانَ لعلمَه الله.

وقيلَ: أي: إلَّا ليعلمَ أولياؤُنا والملائكةُ، كقولِه: ﴿إِنَّمَا جَزَاؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المائدة: ٣٣]؛ أي: يحاربون أولياءَ اللهِ.

وقيلَ: أي: إلَّا ليَميزَ اللهُ، كقولِه: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧].

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾؛ أي: إنَّه عالمٌ بكلِّ شيءٍ، وقيلَ: يحفَظُ كلَّ شيءٍ على العبدِ حتَّى يجازيَه به.

***

(٢٢) - ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: هذا الذي مضى ذكرُه مِن أمرِ داودَ وسليمانَ وقصَّةِ سبأٍ من آثارِ قدرتي، فقل لهؤلاءِ المشركين: هل عندَ شركائِكم قدرةٌ على شيءٍ من ذلك؟ وهذا خطابُ توبيخٍ، وفيه إضمارٌ؛ أي: ادعوا الذين زعمتم أنَّهم آلهةٌ لكم من دونِ اللهِ؛ أي: ظنَنْتُموهم أولياءَ.

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، ثمَّ بيَّنَ أنَّ مَن عُبِدَ مِن دونِ اللهِ لا يملكُ مثقالَ

---

(١) ما بين معكوفتين جاء بدلاً منها في (أ): «إلا لنقول»، ولعل في الكلام سقطاً، ولعل المراد ما أثبت.

ذرَّةٍ ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾؛ أي: لا يملكونَ ضرّاً ولا نفعاً ﴿وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾؛ أي: ما للهِ من هؤلاءِ مِن مُعينٍ على خَلقِ شيءٍ، بل اللهُ المنفردُ بالإيجادِ فعبادةُ غيرِه محالٌ.

***

(٢٣) ـ ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾؛ أي: شفاعةُ الملائكةِ ﴿إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾، قُرِئَ بضمِّ الهمزةِ وفتحِها[1]، والآذِنُ هوَ اللهُ تعالى، ويرجع (مَن) في ﴿لِمَنۡ﴾ إلى الشافعين، ويجوزُ أن يرجعَ إلى المشفوعِ لهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾؛ أي: أنَّ الشَّفاعةَ لا تكونُ من أحدٍ من هؤلاءِ المعبودين من دونِ اللهِ مِن الملائكةِ والأنبياءِ والأصفياءِ[2] إلَّا أنَّ اللهَ يأذنُ للأنبياءِ والملائكةِ في الشَّفاعةِ، وهم على غايةِ الفزعِ مِن اللهِ، كما قالَ: ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فالمعنى: أنَّه إذا أَذِنَ لهم في الشَّفاعةِ وورَدَ عليهم كلامُ اللهِ فزِعُوا لِمَا يقترنُ بتلك الحالةِ مِن الأمرِ الهائلِ، أو لخوفِ أن يقعَ في تنفيذِ ما أَذِنَ لهم فيه تقصيرٌ.

وقُرِئَ: ﴿حتَّى إذا فَزَّعَ عن قلوبِهم﴾ بفتحِ الفاءِ والزَّاي[3]، وقالَ أبو عُبيدةَ: ﴿فَزَّعَ عن قلوبِهم﴾؛ أي: نفَّسَ عنها[4].

---

(١) بالبناء للمجهول أبو عمرو وحمزة والكسائي، والباقون بالبناء للمعلوم. انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٩)، و«التيسير» (ص: ١٨١).

(٢) قوله: «والأصفياء» كذا في (أ)، وفي «تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٠٨): «والأصنام» ولكل وجه.

(٣) قراءة ابن عامر، والباقون بالبناء للمجهول. انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٠)، و«التيسير» (ص: ١٨١).

(٤) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١٤٧).

وقيلَ: كشفَ الفزعَ عن قلوبِهم، وفَزَّعَ؛ أي: كشفَ الفزعَ[1]، ويكونُ التَّفزيعُ بمعنى إزالةِ الفَزعِ كالتَّمريضِ، وهوَ مثلُ: أشكاه؛ أي: أزالَ شكواه، وكذا فزَّعه وأفزَعه؛ أي: أزالَ فزَعه.

والمقصودُ: أنَّه إذا سُرِّيَ عنهم ﴿قَالُواْ﴾ للملائكةِ فوقَهم وهم الذين يُوردون عليهم الوحي بالإذنِ ممَّن هم فوقَهم في الدَّرجاتِ في السَّماءِ:

﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: ماذا أمرَ اللهُ به؟ فيقولون لهم: قالَ ﴿ٱلْحَقَّ﴾، وهوَ أن أذِنَ لكم في الشَّفاعةِ للمؤمنين ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ فله أن يحكمَ في عبادِه بما يريدُ.

ثمَّ؛ يجوزُ هذا أن يكونَ إذناً لهم في الدُّنيا في شفاعةِ أقوام، ويجوزُ أن يكونَ في الآخرةِ، وفي الكلامِ إضمارٌ؛ أي: ولا تنفعُ الشَّفاعةُ عندَه إلَّا لمَن أذنَ له ففَزِعَ لِمَا وردَ عليه من الإذنِ تهيُّباً لكلامِ اللهِ، حتَّى إذا ذهبَ الفزعُ عن قلبِه أجابَ بالانقيادِ.

وقيلَ: هذا الفزعُ يكونُ اليومَ للملائكةِ في كلِّ أمرٍ يأمرُ به الرَّبُّ جلَّ وعلا؛ أي: لا تنفعُ الشَّفاعةُ إلَّا مِن الملائكةِ الذين هم فَزِعونَ اليومَ مُطيعونَ للهِ دونَ الجماداتِ والشَّياطين، وروى أبو هُريرةَ عن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «إذا قضَى اللهُ الأمرَ في السَّماءِ ضَرَبَتِ الملائكةُ بأجنحتِها خُضعاناً لقولِه كأنَّه سلسلةٌ على صَفوانٍ، فـ﴿إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؟»[2].

وقيلَ: فزعُ الملائكةِ من هولِ قيامِ السَّاعةِ؛ أي: هؤلاءِ الذينَ يَرجُونَ شفاعتَهم ويقولونَ: لو كانَت قيامةٌ كما يقولُ محمَّدٌ لشفعَت لنا الملائكةُ، هم يفزعونَ من وقوعِ القيامةِ، فكيفَ تُؤمِّلونَ أنتم الشَّفاعةَ ولا تعترفونَ بالقيامةِ، بل تقطعونَ بردِّها، أو تشكُّونَ فيها؟!

---

(١) بعدها في (أ): «عن قلوبهم» ولعلها سبق نظر من الناسخ.

(٢) رواه البخاري (٤٧٠١)، وفيه زيادة.

وقال مجاهدٌ: أي: حتَّى إذا فُزِّعَ وكُشِفَ الفزعُ عن قلوبِ المشركين في الآخرةِ إقامةً للحجَّةِ عليهم، قالَت الملائكةُ لهم: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ في الدُّنيا؟ ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾، فأقرُّوا حينَ لا ينفعُهم الإقرارُ(١).

﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾؛ أي: قالُوا: قالَ الحقَّ.

* * *

(٢٤) - ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ذكَرَ أنَّهم لا يملكونَ مِثقالَ ذرَّةٍ ممَّا يقدِرُ عليه الرَّبُّ سبحانَه وتعالى، وقرَّرَ ذلك فقالَ: قل يا محمَّدُ للمُشركينَ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: من المطرِ مِن السَّماءِ والشَّمسِ والقمرِ والنُّجومِ وما فيها من المنافعِ، وما يَخرجُ من الأرضِ من الماءِ والنَّباتِ؛ أي: لا يمكنُهم أن يقولُوا: هذا فِعلُ آلهتِنا، فيقولون: لا ندري، فقُل: إنَّ الذي يفعلُ ذلك الذي يعلمُ ما في نفوسِكم، وإن قالُوا: اللهُ يرزقُنا، فقد تقرَّرَت الحجَّةُ، فإنَّه الذي ينبغي أن يُعبَدَ.

﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: وقُل: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾.

وقيلَ: ﴿أَوْ﴾ بمعنى الواو، فيرجعُ قولُه تعالى: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾ إلى قولِه: ﴿وَإِنَّآ﴾، وقولُه: ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ إلى قولِه: ﴿إِيَّاكُمْ﴾ كقولِه: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣]. ذكرَه الجرجانيُّ(٢).

وقالَ الفرَّاءُ والزَّجَّاجُ: لا يجوزُ «أو» بمعنى الواو، وإذا قلتَ: «خذ درهماً أو

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٧٥) مختصراً بلفظ: «كشف عنها الغطاء يوم القيامة».

(٢) كما في «البسيط» (١٨/ ٣٦٣).

درهمين» فليس للمخاطبِ أن يأخذَ ثلاثةً، فمعنى الآيةِ: «إنَّا لضالُّونَ أو مهتدونَ وليسَ ثَمَّ شكٌّ»، وهوَ كما تقولُ لصاحبِك: «إنَّ أحدَنا لكاذبٌ»، والمرادُ: إنَّكَ كاذبٌ، وكذا علمَ اللهُ أنَّ المهتديَ محمَّدٌ والمؤمنون به، والمعنى: نحنُ ندعو إلى اللهِ وأنتم إلى الأصنامِ، والجمعُ بين الأمرين تناقضٌ، وقد ثبتَ أنِّي على الحقِّ، فتعيَّنَ جانبُكم للضَّلالِ، وهذا تقريرُ الحجَّةِ، لا إظهارُ شكٍّ[1].

وقالَ قُطرب: هوَ كقولِك: «إن كنتَ أبي فافعلْ كذا»، وليسَ ثمَّ به شكٌّ.

***

(٢٥) - ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: إنَّما أقصدُ بما أدعوكم إليه الخيرَ لكم، لا أنَّه ينالُني ضررٌ بكفرِكم، وهذا كما قالَ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

وقيلَ: نزلَ هذا قبلَ آيةِ السَّيفِ.

***

(٢٦) - ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: يُثيبُ المهتديَ ويُعاقِبُ الضالَّ يومَ القيامةِ ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾؛ أي: القاضي ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾؛ أي: العالمُ بما يَقضي.

***

---

(١) انظره بمعناه في: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٦٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٥٣).

(٢٧ ـ ٢٨) ـ ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾ هذا تأكيدُ قولِه: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾؛ أي: هل تقدرُ هذه الأصنامُ على خلقِ كلِّ شيءٍ، فإذ لم تقدرْ فلِمَ تعبدونَها؟!

وقيلَ: أي: أروني آلهتكم شركاءَ للهِ في الخلقِ والقدرةِ والملكِ ليصحَّ لكم ادِّعاؤُكم الإلهيَّةَ لها.

وفي الآيةِ حذفٌ؛ أي: أروني آلهتكم هل يَخلقونَ وهل يَرزقون؟!

ثمَّ قالَ ـ وهوَ ردعٌ وتنبيهٌ ـ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾؛ أي: وما أرسلناكَ إلَّا للنَّاسِ كافَّةً؛ أي: عامَّةً، ففي الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ.

وقالَ الزَّجَّاجُ: أي: وما أرسلناكَ إلَّا جامعاً للنَّاسِ بالإنذارِ والإبلاغِ[1].

والكافَّة بمعنى: الجامعِ، والهاءُ للمُبالغةِ؛ أي: تمنعُ من أن يَشذَّ أحدٌ عن حُكمِ الشَّرعِ.

وقيلَ: الكافَّةُ مصدرٌ على فَاعِلَةٍ كالخائنةِ والكاذبةِ.

وقيلَ: أي: إلَّا ذا كافَّةٍ، فحذفَ المضاف؛ أي: ذا مَنعٍ للنَّاسِ من أن يَشذُّوا عن تبليغِك، أو: ذا مَنعٍ لهم من الكفرِ.

والبشيرُ مَن يُبشِّرُك بما يَسرُّك، والنَّذيرُ: المنذِرُ، والنَّذرُ: الإيجابُ، فالنَّذيرُ يُوجِبُ بخبرِه الحذرَ من الشُّرورِ.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم المشركون، وكانُوا في ذلك الوقتِ أكثرَ من المؤمنين عدداً.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٥٤).

(٢٩) - ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾؛ أي: هؤلاءِ الذين لا يعلمونَ يقولونَ: متى هذا الوعدُ إن صدقتُم؟! أي: لو كانَ صدقاً لوقَعَ، والوعدُ عامٌّ [في][1] البِشارةِ والنِّذارةِ.

وقيلَ: يرجعُ الوعدُ إلى قولِهم: ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾؛ أي: قالُوا هذا، وقالُوا: متى هذا الوعدُ؟ واللهُ تعالى أعلمُ.

***

(٣٠) - ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ ﴾؛ أي: لقيامِ السَّاعةِ موعدٌ عندَ اللهِ فلا يَغرنَّكم تأَخُّرُه، وليسَ في خفاءِ وقتِ البعثِ ما يدلُّ على كذبِ المخبرِ به، والميعادُ: الميقاتُ، ويعني بهذا الميعادِ وقتَ البعثِ.

وقيلَ: وقتَ حضورِ الموتِ؛ أي: لكم قبلَ يومِ القيامةِ وقتٌ معيَّنٌ تموتون فيه فتعلمونَ حقيقةَ قولي.

وقيلَ: أراد بهذا اليومِ يومَ بدرٍ؛ لأنَّ ذلك اليومَ كانَ ميعادَ عذابِهم في الدُّنيا في حُكمِ اللهِ سبحانَه وتعالى.

***

(٣١) - ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

قولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ هذا أيضاً من قلَّة علمِهم، وكانُوا يُراجِعون أهلَ الكتابِ ويحتجُّون بقولِهم في تكذيبِ محمَّدٍ ﷺ، فلمَّا قالَ المسلمون: «إنَّ القرآنَ أُنزلَ مِن السَّماءِ على محمَّدٍ»، جحدُوا ذلك، فاحتجَّ المسلمون وقالُوا: «هوَ كما أنزلَ التَّوراةَ والإنجيلَ فجحدوهما»، فلزمَهم بهذا بطلانُ قولِ اليهودِ والنَّصارى، ودلَّ هذا على اتِّباعِهم الهوى وعلى مناقضةِ أحوالِهم.

وقيلَ: معنى هذا أنَّ مسلمي أهلِ الكتابِ أَخبروا المشركين بصحَّةِ أمرِ محمَّدٍ ﷺ، وكانُوا مِن قبلُ يعتمدونَ قولَهم، فلمَّا أخبروهم بصدقِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قالُوا: لن نُؤمنَ لا بالقرآنِ ولا بالتَّوراةِ والإنجيلِ، فكذَّبُوا بالجميعِ، فبانَ تناقضُهم.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾؛ أي: لو رأيتَ هؤلاءِ الذينَ ظلمُوا أنفسَهم بالكفرِ وإنكارِ البعثِ وهم مَوقوفونَ عندَ ربِّهم محبوسونَ في موقفِ الحسابِ يَتراجَعونَ الكلامَ فيما بينَهم باللَّومِ والعتابِ بعد أن كانُوا في الدُّنيا أخلَّاءَ مُتناصِرينَ، وجوابُ (لو) محذوفٌ؛ أي: لرأيتَ أمراً هائلاً فظيعاً.

﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ ﴾ وهم الأتباعُ ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ ﴾؛ أي: تكبَّروا عن الإيمانِ، وهم المتبوعون: ﴿ لَوْلَآ أَنتُمْ ﴾ معاشرَ الكُبراءِ ﴿ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾.

* * *

(٣٢) ـ ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ ﴾ ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ ﴾ هوَ استفهامٌ بمعنى الإنكارِ؛ أي: ما ردَدْناكم نحن ﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ بالإصرارِ على الكفرِ.

(٣٣) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: كنتُم تمكرون بنا ليلاً ونهاراً، أو تخدعوننا وتأمروننا بالكفرِ واتِّخاذِ الأندادِ للهِ، وكنَّا مُستضعَفين لا نقدرُ على مُخالفتِكم.

وقولُه: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: كنتُم تمكرون بنا ليلاً ونهاراً، وتخدعونَنا عن الهدى، وتأمرونَنا بالكفرِ، وقولُه تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: بل مكرُكم في الَّليلِ والنَّهارِ، فأُضِيفَ المكرُ إليهما لوقوعِه فيهما، وهوَ كقولِه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤]، وأضافَ الأجَلَ إلى نفسِه، ثمَّ قالَ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ [الأعراف: ٣٤]، إذ كانَ الأجلُ لهم، وهذا مِن قبيلِ قولِكَ: «ليلُه قائمٌ، ونهارُه صائمٌ»، وقولِكَ: «نامَ ليلي»؛ أي: نمتُ في ليلي.

﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾؛ أي: أنتم السَّببُ في أنَّا كفرْنا باللهِ.

والأندادُ: الأمثالُ، يُقالُ: نَدَّ؛ أي: نَفَرَ، والأندادُ لا يَخلونَ مِن تنافُرٍ.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: اعتراهُمُ النَّدمُ لمَّا شاهدُوا العذابَ، والنَّدامةُ في القلبِ، ولهذا قالَ: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾، ثمَّ تظهرُ على البشرةِ أمارتُه.

وقيلَ: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾؛ أي: أظهرُوا النَّدامةَ، والإسرارُ من الأضدادِ يُستعمَلُ في الخفاءِ والعلَنِ، وإظهارُهم النَّدامةَ قولُهم: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٢].

وقيلَ: أسرُّوا النَّدامةَ فيما بينهم ولم يَجهروا القولَ بها، كما قالَ: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ [طه: ٦٢].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قيلَ: مِن غيرِ هؤلاءِ الفريقين.

وقيلَ: يَرجعُ قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إليهم.

وقيلَ: تمَّ الكلامُ عند قولِه: ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾، ثمَّ ابتدأ فقالَ: وجعلنا الأغلالَ بعدَ ذلك في أعناقِ سائرِ الكفَّارِ، فعلى هذا قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ عطفٌ على ﴿وَأَسَرُّوا۟﴾، وعلى الأوَّلِ على ﴿رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾.

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾؛ أي: لا يُجزَونَ إلَّا بأعمالِهم.

* * *

(٣٤) ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: استضعَفَ أربابُ الأموالِ في كلِّ وقتٍ الضُّعفاءَ، والمترَفُون: أهلُ التَّرفُّهِ والنِّعمةِ والتُّرْفةِ.

* * *

(٣٥ ـ ٣٦) ـ ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٣٥ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾؛ أي: قد فضَّلَنا اللهُ تعالى عليكم بالأموالِ والأعوانِ والأولادِ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾؛ أي: إنَّه أحسَنَ إلينا فلا يُعذِّبنا.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: إنَّ اللهَ هوَ الذي يُفاضِلُ بينَ عبادِه في الأرزاقِ امتحاناً[1] لهم، فلا يدلُّ شيءٌ منه على ما في

---

(١) في (أ): «وامتحاناً»، ولعل الصواب هو المثبت.

العواقبِ، فسعةُ الرِّزقِ في الدُّنيا لا تدلُّ على سعادةِ الآخرةِ، فلا تظنُّوا أنَّ أموالَكم وأولادَكم تُغني عنكم غداً شيئاً، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا؛ لأنَّهم لا يتأمَّلون.

* * *

(٣٧) ـ ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾؛ أي: قُربُكم منَّا بالطَّاعةِ لا بالمالِ والولدِ، ولو قالَ: «بالَّذِينَ» أو: «باللَّذَيْنِ» لجازَ، تقولُ: «أمَّا العسكرُ والإبلُ فقد أقبلا»، ولو قالَ: «بالذي» ذهاباً إلى تذكيرِ الأولادِ وتغليبِ بني آدمَ جازَ.

ولو قلتَ: ﴿التي﴾ تَرجعُ إلى الأموالِ دونَ الأولادِ لجاز، قالَه الزَّجَّاجُ؛ أي: ما أموالُكم بالتي تقرِّبُكم ولا أولادُكم بالذينَ يقرِّبونكم، فحَذفَ اختصاراً[1].

﴿زُلْفَىٰ﴾؛ أي: درجةً ومنزلةً؛ أي: لا تزيدُكم الأموالُ عندنا رفعةً ودرجةً.

وقيلَ: ﴿زُلْفَىٰ﴾ مصدرٌ؛ أي: التي تقرِّبُكم عندنا تقريباً.

﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾؛ أي: ما تُقرِّبُ الأموالُ والأولادُ إلَّا مَن آمَنَ وعملَ بها في طاعةِ اللهِ، فموضعُ ﴿مَنْ﴾ نصبٌ بالاستثناءِ على البدلِ مِن الكافِ والميم.

وقيلَ: هوَ استثناءٌ منقطعٌ؛ أي: لكن مَن آمَنَ وعملَ صالحاً فإيمانُه وعملُه يُقرِّبانه منِّي.

﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ﴾؛ أي: يُضعِّفُ اللهُ حسابَهم، وبيانُ ذلك التَّضعيفِ في

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٥٥).

قولِه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، فالضِّعفُ: الزِّيادةُ؛ أي: لهم جزاءُ التضعيفِ[1].

وقيلَ: لهم جزاءُ الأضعافِ، والضِّعفُ في معنى الجمعِ.

وإضافةُ الجزاءِ إلى الضِّعفِ كإضافةِ الشَّيءِ إلى نفسِه نحو: ﴿حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥] و«صلاةُ الأُولى»؛ أي: لهم الجزاءُ المضعَّفُ؛ للواحدِ عشرةٌ إلى ما يريدُ اللهِ من الزِّيادةِ.

﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾؛ أي: من الخيرِ في الدُّنيا.

﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ﴾؛ أي: في غُرفِ الجنَّة ﴿ءَامِنُونَ﴾ مِن العذابِ ومِن الموتِ.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضي الله تعالى عنه: هي غرفٌ مِن ياقوتٍ وزَبَرجَدٍ[2].

وقرأَ حمزةُ: ﴿في الغُرْفَةِ آمنون﴾[3]، والغرفةُ قد يُرادُ بها الجمعُ واسمُ الجنسِ.

* * *

(٣٨) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾؛ أي: مَن عملَ صالحاً وآمَنَ فله الثَّوابُ، ومَن سعى في آياتِنا بالتَّثبيطِ وصرفِ المسلمين عنها تعزُّزاً بمالِه وأولادِه فـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾؛ أي: في العذابِ الدَّائمِ حاضرون، كما قالَ: ﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٦]، وهذا الإحضارُ: إحضارُهم العذابَ، كما قالَ: ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧].

---

(١) في (أ): «الضعف»، والمثبت من «تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٢٣).

(٢) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٣٧٥).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٠)، و«التيسير» (ص: ١٨١).

(٣٩) - ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾؛ أي: قلْ يا محمَّدُ لهؤلاءِ المتعزِّزين بالأموالِ والأولادِ: إنَّ اللهَ يوسِّعُ على مَن يشاءُ ويُضيِّقُ على من يشاءُ، فلا تغترُّوا بالأموالِ والأولادِ ولا تعتزُّوا بها، بل أنفقوها في طاعةِ اللهِ سبحانَه وتعالى، فإنَّ ما أنفقتم في طاعتِه ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾، وفيه إضمارٌ؛ أي: فهوَ يخلفُه عليكم، أو: لكم، يُقالُ: أخلَفَ له، وأخلَفَ عليه؛ أي: يُعطيكم خلَفَه وبدَلَه، وذلك البدلُ إمَّا في الدُّنيا وإمَّا في الآخرةِ، وهذا إنفاقٌ في طاعةٍ أو مباحٍ مِن غيرِ إسرافٍ.

ثمَّ؛ قيلَ: الآيتانِ في أنَّ اللهَ يبسطُ الرِّزقَ لمن يشاءُ خطابٌ للكفَّارِ.

وقيلَ: الأولى خطابٌ للكفَّارِ والثانيةُ خطابٌ للمؤمنين؛ أي: لا يغرَّنكم ما أُوتيَ الكفَّارُ من الأولادِ والأموالِ، فإنَّ اللهَ يوسِّعُ على مَن يشاءُ، فلا تبخلوا بما أعطيناكم لتُساووا الكفَّارَ في الدُّنيا، بل أنفِقوا الأموالَ في طاعتي، فإنِّي أُخلِفُ ما أنفقتُم في الدُّنيا والآخرةِ عليكم.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾؛ لأنَّه قادرٌ على إدامةِ رزقِه، والرَّازقُ مِن الخَلقِ يرزقُ ثمَّ ينقطعُ رزقُه ويتكدَّرُ، أو: ما عند الخلقِ متناهٍ، ومقدورُ اللهِ لا يَتناهى.

وقد يُقالُ: رزقَ فلانٌ الجُندَ، وفلانٌ يرزقُ عُمَّالَه كذا، فلهذا قالَ: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾.

وقيلَ: خيرُ الرَّازقينَ فيما يتوهَّمُونه، وإلَّا فالرَّازقُ في الحقيقةِ هوَ اللهُ تعالى.

والمرادُ بالأولادِ في هذه الآياتِ: أعوانُ الرَّجلِ ومَن يعتضدُ بهم من العشيرةِ

والحاشيةِ، فنبَّهَ بذكرِ الأولادِ الذين هم أقربُ على مَن دونهم، كقولِه: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩]، نبَّهَ بالبيعِ على كلِّ شاغلٍ عن السَّعيِ إلى الصَّلاةِ؛ لأنَّ البيعَ أهمُّها إلى النَّاسِ.

وقيلَ: قولُه: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ عامٌّ أُريدَ به الخصوص، فيخرجُ عنه الإنفاقُ في المعصيةِ.

وقيلَ: الإنفاقُ هاهنا بمعنى الصَّدقةِ، كقولِه: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]؛ أي: يتصدَّقونَ.

* * *

(٤٠) ـ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ويومَ نحشرُهم جميعاً ثمَّ نقولُ للملائكةِ﴾(1) هذا متَّصلٌ بقولِه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾؛ أي: لو تَراهم في هذه الحالةِ لرأيتَ منظراً فظيعاً، والخطابُ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والمرادُ هوَ وأمَّتُه، ثمَّ قالَ: ولو تراهم أيضاً ﴿يومَ نَحْشُرُهم جميعاً﴾ العابدين والمعبودين؛ أي: نجمعُهم للحسابِ، ثمَّ نقولُ للملائكةِ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركون ﴿إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾؟ وهوَ استفهامُ توبيخٍ للعابدين، كما يُقالُ لعيسى عليه السَّلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦]؟!

* * *

(٤١) ـ ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾.

---

(1) قرأ حفص بالياء في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ و﴿يَقُولُ﴾، والباقون بالنون. انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٠)، و«التيسير» (ص: ١٠٧).

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾؛ أي: أنت إلهُنا وحافظُنا، وأنت الذي نتولَّاك ونلتمسُ التَّقرُّبَ إليك، ونُخلصُ في الطَّاعةِ لك، وليس هؤلاءِ لنا بأولياءَ ولا نحنُ لهم بأولياءَ، وأصلُ الولايةِ مِن القُربِ، يُقالُ: وَلِيَنـي الشَّيءُ يَليني؛ أي: قرُبَ منِّي، وفي الخبرِ: «لِيَلِني منكم أولو الأحلامِ والنُّهى»[1]، ومَن وَلِيَ شيئاً فقد وَلِيَه ذلك الشَّيءُ، فالمؤمنُ وليُّ اللهِ، واللهُ وليُّه، فمعنى ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾: أنت تلينا بحفظِك وفضلِك، وأنت الذي نتولَّاكَ ونتقرَّبُ إليك بالاجتهادِ في عبادتِك، وهؤلاءِ ﴿كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾؛ أي: يتولَّونهم، ويتوهَّمون أنَّهم يتولَّون عبدَتهم.

وفي التَّفاسيرِ: أنَّ حيّاً يُقالُ لهم: «بنو مُلَيحٍ» من خُزاعةَ كانُوا يعبدون الجنَّ، ويزعمون أنَّ الجنَّ تتراءى لهم، وأنَّهم ملائكةٌ، وأنَّهم بناتُ الله، وهوَ قولُه: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨].

وقيلَ: بل كانُوا يعبدون الشَّياطين؛ أي: إنَّهم أطاعوا الشَّيطانَ في عبادتِهم إيَّانا، فهذا معنى الآيةِ.

* * *

(٤٢) - ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

قـولُه تعـالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾؛ أي: يُقالُ لهم بعدَ ما شهدَت عليهم الملائكةُ: اليومَ لا يملكُ بعضُكم لبعضٍ شيئاً؛ أي: لا يجدُ الكفَّارُ مِن معبوديهم من دونِ اللهِ ضرّاً ولا نفعاً، وإن رجوتُم شفاعةَ الملائكةِ فهم مشاغيلُ بأنفسِهم ولا يملكون لأنفسِهم شيئاً فكيفَ يملكونَه لكم؟

---

(١) رواه مسلم (٤٣٢) من حديث أبي مسعود رضي الله عنه.

وقيلَ: أي: لا تملكُ الملائكةُ دفعَ ضرٍّ عن عابديهم، فحذفَ المضاف.

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾؛ أي: نُذيقُهم عذابَ النَّارِ، فهوَ أمرُ تكوينٍ، ويجوزُ أن يقولَ اللهُ لهم أو الملائكةُ: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾.

* * *

(٤٣) - ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾؛ أي: ليسَ هذا من جهةِ اللهِ، بل محمَّدٌ رجلٌ يريدُ أن يصدَّكم عن دينِ أسلافِكم، ثمَّ تارةً كانُوا يقولون للقرآنِ: سحرٌ، وتارةً يقولون: إفكٌ، ويحتمِلُ أن يكونَ قومٌ قالُوا: سحرٌ، وقومٌ قالُوا: إفكٌ.

* * *

(٤٤) - ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾؛ أي: لم يقرؤوا في كتابٍ آتيناهم بطلانَ قولِكَ، ولا سمعوه من رسولٍ، ومعظمُهم ينكرون الثَّوابَ، وليس عندَهم حجَّةٌ فيما يقولونه، فبمَ يُدلُونَ في كُفرِهم[1]؟!

* * *

---

(١) «يدلون»؛ أي: يقولون قبيحاً من القول، أو: يدلون بحجتهم فيحضرونها، في «القاموس» (مادة: دلى): «أدلى فلان في فلان: قال قبيحاً، وبرحمه: توسل، وبحجته: أحضرها»، ولعل المعنى الأقرب هنا: فبأي حجة يدلون في كفرهم؛ أي: لا حجة لهم أصلاً بعدما ثبت أن ما جاؤوا به لم يقرؤوه في كتاب ولا سمعوه من رسول ولا حجة لهم يحتجون بها.

(٤٥) - ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾؛ أي: كذَّبَ قبلَهم أقوامٌ كانُوا أشدَّ من هؤلاءِ بطشاً، وأكثرَ أموالاً وأولاداً، وأوسعَ عيشاً، فأهلكتُهم كثمودَ وعادٍ، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؛ أي: فكيفَ رأوا إنكاري عليهم؛ أي: ما بلغَ أهلُ مكَّةَ معشارَ ما آتينا تلك الأممَ، والمِعشارُ: العُشرُ، وهوَ جزءٌ من العَشَرةِ، وكذا العشير[1].

❊❊❊

(٤٦) - ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم﴾ تمَّمَ الحجَّةَ على المشركين؛ أي: قلْ يا محمَّدُ: إنَّما أعظُكم؛ أي: أذكِّرُكم وأحذِّرُكم سوءَ عاقبةِ ما أنتم فيه بخصلةٍ واحدةٍ أكتفي بها منكم إذا فعَلْتُموها، وهي ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾، ومعنى هذا القيامِ: القصدُ إلى طلبِ الحقِّ، لا القيامُ الذي هوَ ضدُّ القعودِ، وهوَ كما تقولُ: «قامَ فلانٌ بأمرِ كذا».

أي: لوجهِ اللهِ تعالى والتَّقرُّبِ إليه، لا للإلفِ والتَّقليدِ.

﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾: تفعلوا هذا وحداناً ومجتمعين، وما يُرادُ معرفتُه بطريقِ النَّظرِ فقد يَستقِلُّ النَّاظرُ وحدَه به، وقد لا يَستغني عن مراجعةِ غيرِه فيه.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾؛ أي: ثمَّ تتفكَّرُوا: هل بمحمَّدٍ عليه السَّلامُ من جنونٍ؟ وهل في أحوالِه من فسادٍ؟ وهل جرَّبتم عليه كذباً؟ وهل اختلَفَ

---

(١) في (أ): «وذرا العشير»، والمثبت مستفاد من «البسيط» (١٨/ ٣٧٩)، وفيه: «المعشار والعشير والعشر جزء من العشرة».

إلى أحدٍ ممَّن يدَّعي العلمَ بالسِّحرِ؟ أو هل يعلمُ الأقاصيصَ وقرأَ الكتبَ؟ وهل عرفتُموه بالطَّمعِ في أموالِكم؟ وهل تقدرون على معارضتِه في سورةٍ واحدةٍ؟ وهل فيما يدعوكم إليه من عبادةِ إلهٍ هوَ خالقُ السَّماواتِ والأرضِ تناقضٌ؟ فإن عرفتُم بهذا الفِكرِ صدقَه، فما بالُ هذه المعاندةِ؟!

وقالَ مجاهدٌ: ﴿أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾؛ أي: أدعوكم إلى واحدةٍ هي كلمةُ لا إلـهَ إلَّا اللهُ[1]. وهذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ[2]؛ أي: بطاعةِ اللهِ، وقيلَ: بالإخلاصِ.

﴿أَن تَقُومُواْ﴾ خفضٌ على البدلِ من ﴿واحدةٍ﴾، ويجوزُ أن يكونَ نصباً على تقديرِ: لأنْ تقوموا، فحُذِفَ اللامُ، ويجوزُ أن يكونَ رفعاً؛ أي: هي أن تقوموا ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾، قيلَ: تمَّ الكلامُ هاهنا، ثمَّ تستأنفُ ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾؛ أي: جنونٍ. وقيلَ: الكلامُ متَّصلٌ؛ أي: تتفكَّروا أيُّ شيءٍ بصاحبِكم من آثارِ الجنونِ وأماراتِه.

* * *

(٤٧) - ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: لم أطلبْ منكم أجراً على ما دعوتُكم إليه من الإيمانِ، وإنَّما أرجو الثَّوابَ مِن اللهِ.

ومَن تأمَّلَ علمَ أنَّ العاقلَ لا يُقاسي ما قاسى النَّبيُّ عليه السَّلامُ بسببِ الطَّمعِ في الدُّنيا؛ أي: يعلمُ أنَّه لا بقاءَ لها، وفيه أدلُّ الدَّليلِ على صدقِه، وهذا كما يقولُ الرَّجلُ لمن ينصحُه: «ما سألتُك من مالٍ على هذه النَّصيحةِ فخذْه»؛ أي: لم أسألْك مالاً،

---

(١) رواه الطبراني في «الدعاء» (١٥٦٣) من طريق سفيان عن رجل عن مجاهد، وذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٤١) من طريق سفيان عن ليث عن مجاهد. وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٧١٠) إلى عبد بن حميد والفريابي.

(٢) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٣٨٠).

فكأنَّه قالَ: ما طلبتُ منكم من أجرٍ فقد جعلتُه لكم لا حاجةَ لي إليه.

وقالَ مُقاتلٌ والكلبيُّ: ظاهرُ اللَّفظِ أنَّه سألهم شيئاً، وهوَ أن لا يُؤذوا أقاربَه، فانتهَوا عن الإيذاءِ، ثمَّ عابَ آلهتَهم، فقالُوا: نهانا أن نُؤذيَ قرابتَه ففعَلْنا، وهوَ يذكرُ آلهتَنا ويَعيبُها؟ فنزلَت الآيةُ(١)، إن شئتم فآذُوهم وإن شئتم فلا تُؤذوهم.

وقيلَ: نسخَت هذه الآيةُ قولَه: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣](٢).

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ﴾؛ أي: شاهدٌ على أنِّي لا أطلبُ منكم المالَ والرِّئاسةَ؛ أي: هوَ مشاهِدٌ لأعمالي وأعمالِكم، فهوَ يُجازي الجميعَ.

***

(٤٨) ـ ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: يُبيِّنُ الحجَّةَ بحيثُ لا اعتراضَ عليها لأنَّه ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾، فإنَّه متمسِّكٌ بما قذفَ؛ أي: من الحقِّ، والقذفُ: الرَّميُ بالسَّهمِ والحصى والكلامِ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: أي: يقذفُ الباطلَ بالحقِّ(٣).

وقيلَ: أي: يأتي بالحقِّ.

وقيلَ: الحقُّ القرآنُ، وقيلَ: أي: يُنزلُ الوحيَ مِن السَّماءِ.

---

(١) ذكره عنهما الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٣٨٤)، وهو في: «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٣٨).

(٢) رواه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٦٥٦) من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، وجويبر متروك.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٣٨٥).

﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ قالَ الفرَّاءُ: النَّعتُ إذا جاءَ بعدَ الخبرِ يُرفَعُ، تقولُ: إنَّ أخاكَ قائمٌ الظَّريفُ، ومثله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦٤](١).

وقالَ الزَّجَّاجُ: هوَ رفعٌ لأنَّ تأويلَه: قلْ: ربِّي علَّامُ الغيوبِ يقذفُ بالحقِّ، و﴿إِنَّ﴾ مؤكِّدةٌ، وقيلَ: الرَّفعُ على البدلِ ممَّا في ﴿يَقْذِفُ﴾؛ أي: [إنَّ] ربِّي يقذفُ [هو] بالحقِّ علَّامُ الغيوبِ(٢).

وقيلَ: أي: إنَّ ربِّي الذي يقذفُ بالحقِّ علَّامُ الغيوبِ.

* * *

(٤٩) ـ ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾؛ أي: جاءَ القرآنُ والوحيُ وبطَلَ ما سواه من الأديانِ، فلم يبقَ لغيرِ الإسلامِ بابٌ؛ لا في بدءٍ ولا في عاقبةٍ؛ أي: لا يُخافُ على الإسلامِ ما يبطلُه الآنَ ولا فيما بعده، كما قالَ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]، فقولُه: ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾؛ أي: ذهبَ الباطلُ بالكُلِّيَّةِ فلم يبقَ له بقيَّةٌ، كقولِك: «فلان ما يُحَلِّي وما يُمِرُّ».

وقيلَ: الباطلُ: الشَّيطانُ؛ أي: ما يَخلقُ ابتداءً ولا يَبعثُ.

وقيلَ: الباطلُ: كلُّ معبودٍ مِن دونَ اللهِ؛ أي: ما يُبدِئ لأهلِه خيراً في الدُّنيا وما يُعيدُه في الآخرةِ، فـ(ما) للنَّفي.

وقيلَ: (ما) بمعنى: أيّ شيءٍ؛ أي: جاءَ الحقُّ فأيُّ شيءٍ بقيَ للباطلِ حتَّى يُعيدَه ويُبدئَه؟ أي: فلم يبقَ منه شيءٌ، كقولِه: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨]؛

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٦٤).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٥٧)، و«البسيط» (١٨/ ٣٨٦)، وما بين معكوفتين منهما.

أي: لا تَـرى، وقولِـه: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [مريم: ٩٨]؛ أي: لسـتَ تُحسُّ.

❊ ❊ ❊

(٥٠) - ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ وذلك أنَّ الكفَّارَ قالُوا: تركتَ دينَ آبائِكَ فضللتَ، فقالَ له: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾؛ أي: إثمُ ضلالي على نفسي، ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ من الحكمةِ والبيانِ، ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ الدُّعاء ﴿قَرِيبٌ﴾ منِّي.

وقيـلَ: وجـهُ النَّظـمِ: قـلْ: إن ربِّـي يقـذفُ بالحـقِّ ويُبيِّـنَ الحجَّةَ فضـلالُ مَن ضـلَّ لا يُبطـلُ الحجَّـةَ، فلو ضلَلْتُ لأضررتُ بنفسـي، لا أنَّـه يُبطِلُ حجَّـةَ الله، وإذا اهتديـتُ فذلـك فضـلُ اللهِ إذ ثبَّتَني على الحجَّـةِ ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ لِمَـا أقولُه ﴿قَرِيبٌ﴾ يرَى أعمـالَ عبادِه.

❊ ❊ ❊

(٥١) - ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ ذكرَ أحوالَ الكفَّارِ في وقتِ ما يُضْطَرونَ فيه إلى معرفةِ الحقِّ عندَ حضورِ أسبابِ الموتِ، وعندَ معاينةِ أمورِ الآخرةِ في القبرِ، أو عندَ البعثِ، وقيلَ: أشارَ به إلى يوم بدرٍ حينَ أخذتهم سيوفُ الملائكةِ.

﴿فَزِعُوا۟﴾؛ أي: اعتراهُمُ الخوفُ الشَّديدُ.

﴿فَلَا فَوْتَ﴾؛ أي: لا يفوتونَ ما ينزلُ بهم ممَّا بيَّنَ اللهُ.

﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾؛ أي: مِن القبورِ، وقيلَ: من حيثُ كانُوا، فهم من اللهِ قريبٌ لا يبعدون عنه فلا يفوتونه[1].

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: نزلَت في ثمانين ألفاً يَغزونَ في آخرِ الزَّمانِ الكعبةَ ليخربُوها، فكما يدخلونَ البيداءَ يُخسَفُ بهم[2]، فهوَ الأخذُ مِن مكانٍ قريبٍ.

وجوابُ (لو) محذوفٌ؛ أي: لرأيتَ العجبَ.

﴿فَلَا فَوْتَ﴾؛ أي: لا فوتَ لهم؛ أي: لا يمكنُهم أن يَفوتوا.

وقيلَ: ﴿أخذوا﴾؛ أي: قُبِضَت أرواحُهم في أماكنِها، فلمْ يُمْكِنْهم الفِرارُ من الموتِ، وهذا على قولِ مَن يقولُ: هذا الفزعُ عندَ النَّزعِ.

ويجوزُ أن يكونَ هذا مِن الفزعِ الذي هوَ بمعنى الإجابةِ، يُقالُ: فزعَ الرَّجلُ؛ أي: أجابَ الصَّارخَ الذي يستعينُ به إذا نزلَ به خوفٌ، ومنه الخبرُ إذ قالَ للأنصارِ: «إنَّكم لتَقِلُّونَ عندَ الطَّمعِ، وتكثرونَ عندَ الفزعِ»[3].

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٣٤)، وفيه: «لا يعزبون عنه ولا يفوتونه».

(٢) ذكره عنه أبو حفص النسفي في «التيسير» (١٢/ ٢٧٨)، ورواه بنحوه نعيم بن حماد في «الفتن» (٩٤٢) من قول علي رضي الله عنه. ورواه بنحوه أيضًا الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣١٠) عن سعيد بن جبير، ورواه عن حذيفة مرفوعاً في خبر طويل لكنه أشار إلى تضعيفه، وأشار ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية إلى وضعه. وقصة الخسف بالبيداء بجيش يغزو الكعبة وردت في أحاديث، منها ما رواه البخاري (٢١١٨)، ومسلم (٢٨٨٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها، ورواه مسلم (٢٨٨٢) و(٢٨٨٣) من حديث أم سلمة ومن حديث حفصة. وقد أورد السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٧١٢ـ ٧١٣) جمعاً من هذه الأحاديث.

(٣) لم أقف عليه مسندًا، وتناقلته كتب الأدب، منها «البيان والتبيين» للجاحظ (٢/ ١٤)، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة (١/ ٣٨٨)، كما ذكره الخطابي في «أعلام الحديث» (٢/ ١٣٩٨)، وابن بطال في «شرح صحيح البخاري» (٩/ ٢٥٤).

ومَن قالَ: «أرادَ عذاباً في الدُّنيا كيومِ بدرٍ» قالَ: «أي: أُخِذوا في الدُّنيا قبلَ أن يُؤخَذوا في الآخرةِ».

ومَن قالَ: «هوَ فزعُ يومِ القيامةِ» قالَ: «أُخِذوا من بطنِ الأرضِ إلى ظهرِها».

وقيلَ: ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾: مِن جهنَّمَ فأُلقوا فيها.

فالفزعُ: إمَّا الخوفُ، وإمَّا النَّجاءُ، وإمَّا الإجابةُ.

* * *

(٥٢) ـ ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾؛ أي: بالقرآنِ، وقيلَ: بمحمَّدٍ عليه السَّلامُ وما جاءَ به من الشَّرائعِ، أو: آمنا بالحقِّ؛ أي: بالبعثِ.

﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾؛ أي: التَّناوُلُ؛ أي: وكيفَ لهم أن يتناولوا ما كانَ [مبذولاً][(١)] لهم وهوَ الإيمانُ والتَّوبةُ، وكانَ قريباً منهم، وكيفَ يتناولونه وقد بعُدَ عنهم. و«ناوَشَه كذا»؛ أي: ناوَلَه.

وقيلَ: هوَ مِن النَّأشِ، وهوَ الحركةُ البطيئةُ، وعلى هذا يجوزُ أن يكونَ ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ بالهمز[(٢)]؛ أي: من أينَ لهم أن يتحرَّكوا فيما لا حيلةَ فيه.

وقالَ الفرَّاءُ: الهمزُ وتركُ الهمزِ في ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ متقاربانِ؛ مثلَ: ذِمْتُ الرَّجلَ وذَأَمْتُه؛ أي: عِبتُه[(٣)].

---

(١) ما بين معكوفتين من «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٥٩)، و«البسيط» (١٨/ ٣٨٩)، ووقع مكانه في (أ) بياض.

(٢) في (أ): «نالهم»، وهو تحريف، والمثبت هو المناسب للسياق. وقد قرأ بالهمز حمزة والكسائي وأبو عمرو وأبو بكر، وباقي السبعة بلا همز. انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٠)، و«التيسير» (ص: ١٨١).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٦٥).

فإذنْ: مَن لم يهمِزْ جعلَه من النَّوشِ، وهوَ التَّناولُ، ومَن همزَ ففيه مسلكان:

أحدُهما: إبدالُ الأوَّلِ من الواوِ المضمومةِ بالهمزِ مثل ﴿وُقِّتَتْ﴾ و﴿أُقِّتَتْ﴾[1].

والثَّاني: أن يكونَ من النَّأْشِ، وهوَ الحركةُ البطيئةُ والتَّطلُّبُ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: أي: يطلبونَ الرَّدَّ إلى الدُّنيا ليُؤمنوا، وهيهاتَ من ذلك[2].

* * *

(٥٣) ـ ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: كيفَ ينفعُهم الإيمانُ في ذلك الوقتِ ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾؟!

﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾؛ أي: يَرمون بالظَّنِّ[3].

وقيلَ: أرادَ البعدَ عن القلبِ؛ أي: مِن مكانٍ بعيدٍ عن قلوبِهم.

وقيلَ: أي: يقولونَ في القرآنِ وفي محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالظَّنِّ البعيدِ أقاويلَ مختلفةً؛ فيقولون: سحرٌ وشعرٌ وأساطيرُ الأوَّلين.

وقيلَ: هو مثلٌ؛ لأنَّ مَن يُنادَى مِن مكانٍ بعيدٍ لا يَسمعُ؛ أي: هم لا يعقلون ولا يسمعون، فظنُّهم ظنٌّ بعيدٌ لا يتحقَّقُ.

وقيلَ: أي: يَرمون بالغيبِ؛ أي: بالآخرةِ مِن مكانٍ بعيدٍ؛ أي: يُبعِّدون أمرَها على أتباعِهم.

---

(١) قرأ أبو عمرو بالواو، والباقون بالهمز. انظر: «السبعة» (ص: ٦٦٦)، و«التيسير» (ص: ٢١٨).

(٢) رواه بنحوه ابن أبي الدنيا في «الأهوال» (١١٠، ١١١)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣١٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٦٩)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٨٨).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٢٠) عن قتادة بلفظ: «أي: يرجمون بالظن، يقولون: لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار».

وقيلَ: أي: كانُوا يقذفون بالأجَلِ والموتِ مِـن مكانٍ بعيدٍ؛ أي: يظنُّون طولَ الإمهالِ فيُسوِّفون التَّوبةَ.

وقيلَ: أي: يتكلَّمون بالإيمانِ في حالٍ لا ينفعُهم ذلك، فهوَ المكانُ البعيدُ.

* * *

(٥٤) - ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾؛ أي: يشتهونَ الانتفاعَ بالتَّوبةِ ولا تنفعُهم التَّوبةُ والإيمانُ في هذه الحالةِ.

وقيلَ: حِيلَ بينهم وبينَ الرُّجوعِ إلى الدُّنيا.

وقيلَ: وبينَ ما يشتهونَ من مالٍ وولدٍ.

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾؛ أي: كمَن مضى من القرونِ السَّابقةِ الذين كفروا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ﴾؛ أي: من العذابِ ونزولِه بهم، والكنايةُ في ﴿إِنَّهُمْ﴾ ترجعُ إلى الذين أخبرَ عنهم بأنَّهم حِيلَ بينهم، لا إلى الأشياعِ.

﴿مُّرِيبٍ﴾ مُوقِعٍ لهـم الرِّيبـةَ والتُّهمـةَ، ويُقـالُ: أربـتُ الرَّجـلَ؛ أي: أدَّيت إليه مكروهـاً؛ أي: كانُـوا فـي شـكٍّ أفضى بهـم إلى المكـروهِ، وهـوَ العذابُ.

وقيلَ: أرابَ الرَّجلُ؛ أي: جاءَ بِريبةٍ، كما يُقالُ: ألَامَ؛ أي: فَعَلَ ما يُلامُ عليه.

ومَن قالَ: «هوَ مِن الرَّيبِ الذي هوَ الشَّكُّ والتُّهمةُ» قالَ: يُقالُ: (شكٌّ مريبٌ) كما يُقالُ: (عجبٌ عجيبٌ) و(شتاءٌ شاتٍ) و(ليلةٌ ليلاءُ).

* * *

سُورَةُ فَاطِرٍ

تفسيرُ سورةِ فاطر

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١) ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: خالقِهما بعدَ أن لم يكن فيهما شيءٌ من غيرِ مثالٍ سبَقَ، والمرادُ بذكرِ السَّماواتِ والأرضِ العالمُ؛ أي: هوَ المستوجِبُ للحمدِ لأنَّ له القدرةَ والعلمَ والإرادةَ وصفاتِ الجلالِ، ويقالُ: فطَرَ البئرَ؛ أي: ابتدأَ حفرَها، وفطَرَ نابُ البعيرِ؛ أي: ابتدأَ خروجُها، ونبَّهَ بهذا على أنَّ مَن قدرَ على الابتداءِ قدرَ على الإعادةِ.

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾؛ أي: المستحِقُّ للحمدِ هوَ اللهُ الذي أرسلَ إلى عبادِه رسلاً مبشِّرين ومنذِرين، فجعلَ الملائكةَ رُسلاً إلى الرُّسلِ الذين هم من الآدميِّين إلى أهلِ الأرضِ؛ ليدلُّوهم على التَّوحيدِ والشَّرائعِ.

﴿أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾؛ أي: مِن الملائكةِ مَن له جناحانِ، ومنهم مَن له ثلاثةُ أجنحةٍ؛ أي: إنَّهم ليسوا كالآدميِّين في إبطاءِ الحركةِ، بل لهم أجنحةٌ ينزلون بها مِن السَّماءِ إلى الأرضِ ويعرجونَ من الأرضِ إلى السَّماءِ، وهي مسيرةُ كذا سنةٍ في يومٍ واحدٍ.

﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾؛ أي: ويزيدُ على أربعةٍ ما يشاءُ، ورأى رسولُ اللهِ ﷺ

جبريلَ عليه السَّلامُ ليلةَ المعراجِ وله ستُّ مئةِ جناحٍ[١]، جناحٌ منها بالمشرقِ وجناحٌ بالمغربِ[٢].

وقالَ قتادةُ: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾: المَلاحةَ في العَينين[٣].

وقالَ الزُّهريُّ: حُسْنَ الصَّوت[٤].

وقيلَ: الوجهَ الحسنَ. وفي الخبرِ في هذه الآيةِ: «هوَ الوجهُ الحسنُ، والصَّوتُ الحسنُ، والشَّعرُ الحسنُ»[٥].

***

(٢) - ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾؛ أي: إنَّ الرُّسلَ بُعِثُوا

(١) إلى هنا رواه البخاري (٤٨٥٧)، ومسلم (١٧٤)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وزاد في رواية عند الطبراني في «المعجم الكبير» (٩٠٥٤): «ما منها جناح إلا قد سد ما بين المشرق، والمغرب».

(٢) ورد هذا ضمن حديث رواه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (١٦٤٣)، وإسحاق بن راهويه في «مسنده» (١٦٨٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) رواه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ٤٨٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ١٥٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١١٦).

(٤) رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٥/ ٤٩٩)، وأبو عوانة في «مستخرجه» (٤٣٧٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٧٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢١٥١).

(٥) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٤٠٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً دون عزو ولا إسناد. وذكره تاج القراء الكرماني في «غرائب التفسير» (٢/ ٩٤٤)، والنسفي في «التيسير في التفسير» (١٢/ ٢٨٥)، والزمخشري في «الكشاف». وأورده الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ١٤٦)، وابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ١٣٨)، ولم يذكرا له تخريجاً.

رحمةً للنَّاسِ، ولا يقدرُ على إرسالِهم غيرُ الله؛ أي: لا يقدرُ أحدٌ على ردِّ هذا الأمرِ الذي هوَ النُّبوَّة.

وقيلَ: ما يأتيهم به مِن مطرٍ أو رزقٍ فلا يقدرُ أحدٌ أن يمسكَه، وما يمسكْ مِن ذلك فلا يقدرُ أحدٌ على أن يُرسلَه.

﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾؛ أي: للرَّحمةِ[1] ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾ ﴿لَهُ﴾ يرجعُ إلى لفظِ ﴿ما﴾، ولو قالَ فيهما: «له» أو «لها» لجازَ[2].

***

(٣ - ٤) - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ معنى هذا الذِّكرِ الشُّكرُ.

﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ استفهامُ تقريرٍ، والقومُ كانُوا بينَ مُقِرٍّ بأنَّ اللهَ تعالى هوَ الخالقُ وبينَ منكرٍ لا يمكنُه إثباتُ خالقٍ ورازقٍ غيرِ الله، فإذا كانَ هكذا ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ في عبادةِ غيرِه.

قالَ الزَّجَّاجُ: ﴿غَيْرُ اللَّهِ﴾؛ لأنَّ المعنى: هل خالقٌ غيرُ اللهِ؛ لأنَّ ﴿مِنْ﴾ مؤكِّدة، وقُرئَ ﴿غيرِ اللهِ﴾ بالكسرِ على لفظِ ﴿مِنْ خَالِقٍ﴾[3].

---

(١) في (أ): «من الرحمة» ولعل الصواب المثبت.

(٢) أي يجوز في كل واحد منهما تذكير الضمير وتأنيثه، فالتذكير على اللفظ والتأنيث على المعنى.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٦٢). والجر قراءة حمزة والكسائي، وباقي السبعة بالرفع. انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٤)، و«التيسير» (ص: ١٨٢).

وقالَ أبو عليٍّ: يجوزُ أن يكونَ الرَّفعُ استثناءً؛ أي: هل مِـن خالقٍ إلَّا اللهُ[1]، فجَعلَ إعرابَ ﴿غَيْرُ﴾ إعرابَ ما بعدِ (إلَّا).

﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: المطرَ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: النَّباتَ.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ من (الأَفْكِ) بالفتحِ، وهو الصَّرفُ، يُقالُ: ما أفَكَكَ عن كذا؟ أي: ما صَرفَكَ، وقيلَ: من (الإفكِ) بالكسرِ، وهوَ الكذبُ، ويرجع هذا أيضاً إلى ما تقدَّم؛ لأنَّه قولٌ مصروفٌ عن الصِّدقِ والصَّوابِ؛ أي: مِن أينَ يقعُ لكم التَّكذيبُ بتوحيدِ اللهِ؟! وهوَ كما تقولُ: «أينَ يُذهَبُ بك؟» وهو الذاهبُ باختيارِه، أو: كيفَ تَقبَلون ممَّن يكذِبُ ويقولُ: هاهنا إلهٌ غيرُ اللهِ؟!

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ هـذا تسـليةٌ للنَّبـيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّـلامُ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ بفتحِ التَّاءِ وضمِّها[2].

* * *

(٥ ـ ٦) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ هـذا وعظٌ [للمكذِّبينَ للرسولِ بعدَ إيضاحِ الدَّليلِ على صحَّةِ قولِه: إنَّ البعثَ والثَّوابَ][3] والعقابَ حقٌّ ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أن رُزِقتُم فيها من المَهْلِ[4] ومِـنَ الجاهِ والمالِ، فإنَّ مفاتيحَ هذه

---

(١) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٤/ ٣٩ ـ ٤٠).

(٢) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بفتح التَّاء وكسر الجيم حيث وقع، والباقون بضم التاء وفتح الجيم. انظر: «السبعة» (ص: ١٨١)، و«التيسير» (ص: ٨٠).

(٣) ما بين معكوفتين من «تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦).

(٤) «المهل»: هو عدَم التعجيل بالعقوبة لمن ركب المعاصي، في «القاموس» (مادة: مهل): «رُزق =

الأشياءِ بيدِ اللهِ يَفتحُ على مَن يريدُ، ويمسكُ عمَّن يريدُ.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾؛ أي: الشَّيطانُ بوساوسِه في أنَّه تعالى[1] يتجاوزُ عنكم لفضلِكم، وإيهامِه إيَّاكم أن لا بعثَ.

وقيلَ: ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ وصفُ الدُّنيا؛ أي: مِن عادتِها أن تغرَّ النَّاسَ بها.

وقُرِئَ (الغُرور) بضمِّ الغينِ[2]؛ أي: لا يغرَّنَّكم الباطلُ، والمتعدِّي قد يكونُ مصدرُه على فُعُول وإن كانَ نادراً مثلَ: لَزِمتُه لُزُوماً.

قالَ الزَّجَّاجُ: ويجوزُ أن يكونَ (الغُرور) جمعَ غارٍّ، مثلَ: قاعدٍ وقُعُودٍ[3].

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾؛ أي: عرفتُم معاداةَ الشَّيطانِ إيَّاكم، قد أخرجَ أباكم من الجنَّةِ وضمنَ إضلالَكم فلا تغترُّوا به ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾؛ أي: بطاعةِ اللهِ ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ﴾؛ أي: شِيعتَه إلى الكفرِ؛ ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ أي: ليدخلوا النَّارَ.

***

(٧) ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ أي: وعدُ اللهِ حقٌّ للفريقين، والذين كفروا لهم عذابٌ شديدٌ، وهوَ الذي لا يُطاقُ.

= مَهْلاً: ركب الخطايا فمُهلَ ولم يُعجَّلْ».

(١) كلمة: «تعالى» من «تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٤٦)، ووقع بدلا منها في (أ): «لا» وهو خطأ ظاهر.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٦٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٤٥)، و«تفسير الثعلبي» (٢٢/ ١٥٩)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٦١٨)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٢٩)، عن أبي السمال وأبي حيوة حيث وقع كما قال الهذلي.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٦٣).

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾؛ أي: لهـم سـترٌ لذنوبِهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾؛ أي: ثوابٌ عظيـمُ القَدْرِ.

* * *

(٨) - ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ تُريدُ أن تهديَه؛ فإنَّ اللهَ أضلَّهم؛ أي: أفمَن زُيِّنَ له سوءُ عملِه فرآه حسناً تُريدُ أن تهديَه، وإنَّما ذلك إلى اللهِ لا إليك، والذي إليك هوَ التَّبليغُ.

وهذا التَّزيينُ من الشَّيطانِ.

وقيلَ: من سادةِ الكفَّارِ.

وقيلَ: هم زيَّنوا لأنفسِهم تركَ التَّدبُّرِ.

وقيلَ: هذا التَّزيينُ من اللهِ، فإنَّ منه الهدايةَ والإضلالَ.

وفي الآيةِ إضمارٌ؛ أي: أفمَن زُيِّنَ له سوءُ عملِه كمَن ليسَ كذلك.

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ لأنَّهم كافرون.

وقيلَ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ ذهبَتْ نفسُك عليه حسرةً ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، وجازَ هذا الحذفُ لدلالةِ قولِه: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ عليه.

وقُرِئَ ﴿فلا تُذهِبْ﴾ بضمِّ التَّاءِ ﴿نفسَك﴾ بفتحِ السِّينِ[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾؛ أي: عالمٌ بصنيعِهم فيجازيهم.

---

(١) قرأ بها أبو جعفر. انظر: «النشر» (٢/ ٣٥١).

(٩) ـ ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ بيَّنَ أنَّـه القادرُ على البعثِ، واستدلَّ عليه بأنَّه يُنزِلُ مِن السَّماءِ المطرَ، ويخرجُ من الأرضِ النَّباتاتِ، وفصَّلَ ذلك بأن قالَ: هوَ الذي يُرسلُ الرِّياحَ لتجمعَ السَّحابَ بأن تنشرَه مِن مواضعِه وتسوقَه بإذنِ الله إلى بلدٍ ميِّتٍ لا نباتَ فيه، فتَحيا تلك الأرضُ وتَنبتُ، وكانَت العربُ ـ أو أكثرُها ـ تقرُّ بأنَّ ذلك ممَّا يفعلُه اللهُ، ولهذا قرَّرَهم فقالَ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٦٤]، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ [الواقعة: ٦٨ ـ ٦٩]، فإذا أقررتم بأنَّ اللهَ تعالى فاعلُ هذه الأشياءِ إذ هي ممَّا لا ينبغي أن يُنكرَه عاقلٌ، فكيفَ تستحسنونَ ما يُزيِّنُه الشَّيطانُ لكم أو نفوسُكم أو قادتُكم من إنكارِ البعثِ؟

﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾؛ أي: بالسَّحابِ والمطرِ ﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾؛ أي: ليسَ أمرُ النُّشورِ بأبدعَ مِن هذا.

﴿فَسُقْنَٰهُ﴾ قالَ هذا بعد أن قالَ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾، وهوَ مِن بابِ تلوينِ الخطابِ.

وقالَ أبو عُبيدةَ: سبيله: «فتَسُوقُه»؛ لأنَّه قالَ: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾[1].

والإثارةُ: الإزعاجُ، والبلدُ الميِّتُ: المكانُ الذي لا نباتَ فيه.

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١٥٢)، وفيه: «تثير أي تجمع وتجيء به وتخرجه ومجاز «فسقناه» مجاز فنسوقه، والعرب قد تضع «فعلنا» في موضع «نفعل» قال الشاعر:

إنْ يسمعوا ريبةً طاروا بها فرحاً ... مني وما يسمعوا مِنْ صالحٍ دفنوا

في موضع «يطيروا» و«يدفنوا»».

(١٠) - ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ هذا متَّصلٌ بقولِه: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾؛ لأنَّهم كانُوا يغترُّون بالأموالِ والأعوانِ؛ أي: مَنِ التمسَ العزَّ الحقيقيَّ فالعزُّ كلُّه للهِ فليُطلَبْ منه.

ثمَّ بيَّنَ ما يُطلَبُ به العزُّ، وهو الطَّاعةُ، فقالَ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾ وهذا كما يُقالُ: مَن أرادَ المالَ فالمالُ لفلانٍ؛ أي: فلْيَطْلُبْه مِن عندِه.

وقالَ الفرَّاءُ: أي: مَن أرادَ أن يعلمَ أنَّ العزَّةَ لمَن هي، فإنَّها للهِ جميعاً[١].

وقيلَ: مَن أرادَ العزَّةَ فلْيَتعزَّزْ بطاعةِ اللهِ، ففيه حذفٌ دلَّ عليه الكلامُ.

وقيلَ: أي: مَن تعزَّزَ واستكبرَ عن الإيمانِ فليعلَم أنَّه لا عزَّ له، بل العزُّ للهِ، فيُعزُّ مَن يشاءُ ويُذلُّ مَن يشاءُ.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ قيلَ: هوَ قولُ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ».

قالَ الزَّجَّاجُ: يُقالُ: ارتفعَ الأمرُ إلى القاضي؛ أي: علِمَه، فهوَ بمعنى العلم، وخصَّ الكلمَ الطَّيِّبَ بالذِّكرِ لبيانِ الثَّوابِ عليه[٢].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٦٧).

(٢) هذا الذي ذكره المصنف هو شرح الواحدي لكلام الزجاج، ففي «البسيط» (١٨/ ٤٠٦): «وقال أبو إسحاق: «أي: إليه يصل الكلام الذي هو توحيده، والله تعالى يرتفع إليه كل شيء»، وعلى ما ذَكَر معنى الصعودِ إليه: الارتفاعُ، وهو بمعنى العلم كما يقال: ارتفع هذا الأمر إلى القاضي وإلى السلطان؛ أي: علمه، وفي تخصيص الكلم الطيب بعلمه إثبات للثواب عليه».

وعبارة الزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ٢٦٥): «أي: إليه يصل الكلم الذي هو توحيد الله، وهو قولُ: لا إله إلا الله، ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ المعنى: إذا وحد الله وعجل بطاعته ارتفع ذلك إلى الله، والله ـ عز وجل ـ يرتفع إليه كل شيء ويعلم كل شيء».

وقيلَ: أي: يصعدُ إلى سمائِه والمحلِّ الذي لا يجري فيه لأحدٍ غيرِه حُكمٌ.

وقيلَ: هوَ صعودُ القَبولِ؛ أي: يقبلُ الكلمَ الطَّيِّبَ ويُثيبُ عليه.

وقيلَ: أي: يُحمَلُ الكتابُ الذي كُتِبَت فيه طاعاتُ العبدِ [إلى السَّماءِ ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ قال ابنُ عباسٍ: يريد العملَ بما افترضَه الله عز وجل، يقول الله تعالى: إذا قال العبدَ]: «لا إلـهَ إلَّا اللهُ» بنيَّةٍ صادقةٍ، نظرَت الملائكةُ إلى عملِه؛ فإن كانَ العملُ موافقاً لقولِه صعدا جميعاً، وإن كانَ عملُه مخالفاً وُقِفَ قولُه حتَّى يتوبَ مِن عملِه»[1]، فالعملُ الصَّالحُ يرفعُ الكلامَ الطَّيِّبَ إلى اللهِ تعالى، والكنايةُ في ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ ترجعُ إلى الكلمِ الطَّيِّبِ.

وقالَ قتادةُ: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ اللهُ إليه ويقبلُه[2].

---

(١) انظر: «البسيط» (١٨/ ٤٠٧) وما بين معكوفتين مستفاد منه، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٣٩) عن ابن عباس بلفظ: «الكلام الطيب: ذكر الله، والعمل الصالح: أداء فرائضه؛ فمن ذكر الله سبحانه في أداء فرائضه حمل عليه ذكر الله فصعد به إلى الله، ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله فكان أولى به».

وروى الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٣٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩١٤٤)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٨٩)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إذا حدثتكم بحديث أتيتكم بتصديق ذلك من كتاب الله، إن العبد المسلم إذا قال: الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وتبارك الله، قبض عليهن ملك، فجعلهن تحت جناحه، ثم صعد بهن، فلا يمر على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يجيء بهن وجه الرحمن تعالى»، ثم قرأ: عبد الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٩٠): «وفيه المسعودي، وهو ثقة ولكنه اختلط، وبقية رجاله ثقات».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٤٠) بلفظ: «لا يقبل الله قولًا إلا بعمل، من قال وأحسن العمل قبل الله منه».

وقيلَ: الكلمُ الطَّيِّبُ ـ هوَ التَّوحيدُ ـ يرفعُ العملَ الصَّالحَ؛ لأنَّه لا يُقبَلُ العملُ الصَّالحُ إلَّا مع الإيمانِ والتَّوحيدِ، والرَّافعُ على هذا هوَ الكلمُ الطَّيِّبُ؛ أي: والعملُ الصَّالحُ يرفعُه الكلمُ الطَّيِّبُ.

وقيلَ: والعملُ الصَّالحُ يرفعُ صاحبَه، وهوَ الذي أرادَ العزَّةَ وعلمَ أنَّها تُطلَبُ من اللهِ سبحانَه وتعالى.

وقيلَ: العملُ الصَّالحُ يرفعُه اللهُ على الكلمِ الطَّيِّبِ؛ لأنَّ العملَ يحقِّقُ الكلمَ، والعاملَ أكثرُ تعباً مِن القائلِ.

﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: يخدعونَ الضَّعَفةَ عن الإسلامِ فـ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ في الدُّنيا والآخرةِ، ولا ينفعُهم مكرُهم، بل يَبيدُ ويَضمحِلُّ.

قالَ أبو العاليةِ: عنَى الذين مكروا بالنَّبيِّ عليه أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ لمَّا اجتمعُوا في دارِ النَّدوةِ(١).

﴿وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾؛ أي: يَفسدُ ويهلكُ؛ أي: ليسَ له ثوابٌ، ومنه ﴿وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ [الفتح: ١٢]، والمكرُ ما عُمِلَ على سبيلِ اختيالٍ وخديعةٍ.

***

(١١) ـ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم﴾ يعني: آدمَ ﴿مِّن تُرَابٖ﴾، ذكرَ مِن دلائلِ قدرتِه وعِلمِه ومُلكِه ما نبَّهَ به على أنَّ العزَّةَ له ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ يعني: نسلَ آدمَ ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ قيلَ: ذُكراناً وإناثاً، فالذَّكرُ زوجُ الأنثى؛ ليتمَّ البقاءُ في الدُّنيا إلى انقضاءِ مدَّتِها.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ١٧١)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ٤٠٨).

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾؛ أي: جعلَكم أزواجاً، فيتزوَّجُ الذَّكرُ بالأنثى، فيتناسلان بعلمِ اللهِ، فلا يكونُ حملٌ ولا وضعٌ إلَّا واللهُ عَلِيمٌ به، فلا يخرجُ شيءٌ عن تدبيرِه.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾؛ أي: إنَّه يعلمُ أعمارَ الخلقِ ومُدَدَها، وهي عندَه في كتابٍ كتبَه لملائكتِه ولمَن أرادَ تعريفَه، وهوَ اللوحُ المحفوظُ.

والمعمَّرُ: مَن طالَ عمرُه؛ أي: ما يُعمَّرُ شخصٌ ولا يُنقَصُ من عمرِه إلَّا وهوَ عالمٌ به.

وقالَ الفرَّاءُ: ترجعُ الكنايةُ في ﴿عُمُرِهِۦٓ﴾ إلى آخرَ غيرِ الأوَّلِ، وكنَّى عنه بالهاءِ كأنَّه الأوَّل، ومثلُه قولُك: عندي درهمٌ ونصفُه؛ أي: نصفُ آخرَ(١).

وقيلَ: المعمَّرُ: الذي قُدِّرَ له شيءٌ من العمرِ وإن قلَّ؛ أي: مَن قلَّ عمرُه أو كثُرَ عمرُه فهوَ معمَّرٌ إلى أجلِه الذي كُتِبَ له.

وقيلَ: لا يُعمَّرُ زيدٌ سنةً ولا يُنْقَصُ عمرٌو عن مقدارِ عمرِ زيدٍ قَدْراً ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ مبين.

وقيلَ: قد يُكتَبُ في اللَّوحِ: عُمرُ فلانٍ كذا سنةً؛ فإن وصلَ رَحمَه زِيدَ في عمرِه كذا سنةً، فيُبيَّنُ ذلك في موضعٍ آخرَ من اللَّوحِ المحفوظِ أنَّه سيصلُ رَحمَه، فمَن اطَّلعَ على الأوَّلِ دونَ الثاني ظنَّ أنَّه زيادةٌ أو نقصانٌ؛ أي: أنَّه عالمٌ بالقضاءِ الذي يكونُ حتماً لا يتغيَّرُ، وبما يكونُ مشروطاً بشرطٍ، ثمَّ هوَ عالمٌ بأنَّ الشَّرطَ هل يقعُ أو لا يقعُ، فيَعلمُ ما كانَ وما يكونُ، وما لا يكونُ ممَّا يستحيلُ أن يكونَ، وممَّا لا يكونُ ممَّا يجوزُ أن يكونَ، ويعلم أنَّه لو كانَ كيفَ كانَ يكونُ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٦٨).

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ أي: كتبُه الأعمارَ والآجالَ غيرُ متعذِّرٍ عليه.

قُرِئَ: ﴿وَلَا يُنقَصُ﴾ بضمِّ الياءِ، وقُرِئَ بفتحِ الياءِ[١]، يُقالُ: نقَصَ الشَّيءُ بنفسِه ونقَصَه غيرُه، وزادَ بنفسِه وزادَه غيرُه، وقُرِئَ ﴿مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ بضمِّ الميمِ وتخفيفِها[٢].

***

(١٢) ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾ ذكَرَ سبباً آخرَ من كمالِ قدرتِه؛ أي: عرفتُم أنَّ البحرين مع اختلافِهما في الملوحةِ والعذوبةِ، ففي شُربِ أحدِهما الهلاكُ، وفي الثَّاني الحياةُ، يُخرجانِ لحماً طريّاً، وهوَ السَّمكُ يُستطابُ أكلُه، فهوَ إذاً مِن أدلِّ الدَّليلِ على أنَّ الصَّانعَ وحدَه لذلكَ من غيرِ طبعٍ يُحالُ عليه، وهوَ كقولِه: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرعد: ٤]، ثمَّ قالَ: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

ثمَّ؛ قيلَ: البحرُ عندَهم كلُّ ماءٍ ملحٍ، فسمَّاهما بحرين لتجاورِهما واجتماعِهما في الجنسِ، كما يُقالُ للشَّمسِ والقمرِ: قمرانِ، ولأبي بكرٍ وعُمرَ: العُمَرانِ.

وقيلَ: البحرُ اسمٌ لما اتَّسعَ من الماءِ، يُقالُ: تبحَّرَ فلانٌ في العلمِ والمالِ.

الفراتُ: العذبُ، والأجاجُ: الملحُ.

---

(١) بفتح الياء قرأ يعقوب في رواية رويس بخلف عنه. انظر: «النشر» (٢/ ٣٥٢).

(٢) بتسكين الميم رواية عن أبي عمرو في غير المشهور عنه. انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٤)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٤).

وقيلَ: الأجاجُ مِن أجَّجتُ النَّارَ، فكأنَّه من شدَّةِ الحرِّ والملوحةِ يَلتهبُ، ومنه الخبرُ: «البحرُ نارٌ في نارٍ»[(١)]، والأجاجُ: شدَّةُ العَدوِ لأنَّها تحمَى وتلتهبُ[(٢)].

﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾؛ أي: سهلٌ انحدارُه إلى الجوفِ، كما قالَ في ضدِّه: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم: ١٧].

﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾؛ أي: من الماءِ الملحِ، ويعني بالحليةِ الدُّرَّ والجواهرَ والمرجانَ ممَّا يُستخرَجُ بالغوصِ من البحرِ، وإذا ذَكَرَ البحرين واللُّؤلُؤُ مستخرجٌ من أحدِهما فيكونُ مُستخرَجاً على التَّحقيقِ منهما، وهذا كقولِه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، والرُّسلُ من الإنسِ، ولمَّا كانَ الجنُّ كالإنسِ في إرسالِ الرُّسلِ إليهم جعلَ الرُّسلَ منهما.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾؛ أي: سُخِّرَت لكم البحارُ لتُجروا فيها السُّفنَ إلى

---

(١) ذكره بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ١٥)، والماوردي في «الحاوي الكبير» (١/ ٤٠)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٦)، وابن دقيق العيد في «شرح الإلمام» (١/ ١٢٤) دون نسبة ولا سند.

ولعلهم يقصدون ما رواه أبو داود (٢٤٨٩) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز في سبيل الله، فإن تحت البحر ناراً، وتحت النار بحرًا». قال ابن عبد البر في «التمهيد» (١/ ٢٤٠): هو حديث ضعيف مظلم الإسناد، لا يصححه أهل العلم بالحديث؛ لأن رواته مجهولون لا يعرفون.

قال الخطابي في «معالم السنن» (٢/ ٢٣٨): «وقوله: «إن تحت البحر نارًا وتحت النار بحرًا» تأويله تفخيم أمر البحر وتهويل شأنه، وذلك لأن الآفة تسرع إلى راكبه ولا يؤمن الهلاك في ملابسة النار ومداخلتها والدنو منها».

(٢) قوله: «والأجاجُ: شدَّةُ العَدوِ لأنَّها تحمَى وتلتهبُ» كذا في (أ)، ولم أجد هذا المعنى.

البلدانِ البعيدةِ في مدَّةٍ قريبةٍ ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: بالتِّجارةِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: ولتشكروا لي، والمخرُ: شقُّ الأرضِ، فمخرُ الفلكِ: شقُّه وجرفُه الماءَ.

* * *

(١٣) - ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ بيَّنَ أنَّه من آثارِ قدرتِه أنَّه يُدخِلُ اللَّيلَ في النَّهارِ؛ أي: يَزيدُ في أحدِهما ويَنقصُ مِن الآخرِ.

وقيلَ: يُذهِبُ هذا بذاك وذاك بهذا كقولِه: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾؛ أي: جعلَهما مُسخَّرَين يجريانِ على ما يريدُ، ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فالقمرُ يقطعُ السَّماءَ في شهرٍ، والشَّمسُ في أكثرَ مِن ذلك.

وقيلَ: كلٌّ يجري إلى عادةٍ معلومةٍ إلى أن يجيءَ الأجلُ المسمَّى عندَ اللهِ تعالى في انتقاضِ تلك العادةِ، كما قالَ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، وقالَ: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾؛ أي: هذا الذي مِن صُنعِه ما تقرَّرَ هوَ الخالقُ المدبِّرُ له الملكُ، فلا يستحقُّ غيرُه أن يُعبَدَ، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ تعبدونَ ﴿مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾؛ أي: ممَّا يملكُه اللهُ، والقِطميرُ: القُشيرةُ التي على النَّواةِ؛ أي: لا يملكونها فكيفَ بما عداها؟

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: هوَ شقُّ النَّواةِ(١)، وهوَ اختيارُ المبرِّدِ(٢).

* * *

(١٤) ـ ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ لأنَّها جماداتٌ لا تُبصِرُ ولا تسمعُ ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾؛ أي: لما أمكنَهم إغاثتُكم.

وقيلَ: ولو سمعوا ما بايعُوكم على الكفرِ.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾؛ أي: يَجحدون أنَّكم عبدتموهم ويتبرَّؤون منكم.

ثمَّ؛ يجوزُ أن يرجعَ هذا إلى المعبودين ممَّا يعقلُ كالملائكةِ والجنِّ والأنبياءِ والشَّياطينِ؛ أي: يجحدون أن يكونَ ما فعلتُموه حقّاً وأنَّهم أمَروكم بعبادتِهم كما أخبرَ عن عيسى بقولِه: ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]، ويجوزُ أن يندرجَ فيه الأصنامُ أيضاً؛ أي: يُحييها الله حتَّى تُخبرَ بأنَّها ليسَت أهلاً للعبادةِ، فما كانَ الكفَّارُ يعبدونها، بل كانُوا يتَّبعونَ الهوى، أو يكونُ هذا التَّقريرُ فيما يظهرُ فيها من الدلالةِ على أنَّها ليسَت أهلاً للعبادةِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ١٧٥)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ٤١٢).

وروى سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (٦٥٠)، وابن المنذر في «تفسيره» (٢/ ٧٤١)، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «النقير النقرة تكون في النواة التي تنبت منها النخلة، والفتيل: الذي يكون في شق النواة، والقطمير: القشر الذي يكون على النواة».

(٢) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٤١٢).

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾؛ أي: لا أحدَ أخبرُ بخلقِ اللهِ تعالى مِـن اللهِ، فلا يُنبِّئكَ مثلُه في علمِه جلَّ وعلا.

* * *

(١٥ - ١٧) - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: المحتاجون إليه في بقائِكم، واللهُ تعالى لا حاجةَ به إليكم، فبطاعتِه فتعزَّزوا لا بعبادةِ الأوثانِ.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾؛ أي: يُفنِكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ﴾ آخرَ غيرِكم.

* * *

(١٨) - ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾؛ أي: لا تحملُ نفسٌ إثماً عن غيرِها يومَ القيامةِ، فلا تغترُّوا بقولِ رؤساءِ الكفرِ: نحنُ نتحمَّلُ خطاياكم.

﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ﴾؛ أي: وإن تَدعُ نفسٌ مُثقلةٌ بذنوبِها إلى أن يُحمَلَ من ذنوبِها لم تجد مَن يحمِلُ، وقولُه: ﴿مِنْهُ﴾ يرجعُ إلى الحملِ.

﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾؛ أي: ولو كانَ المدعوُّ ذا قُربى مِن أبٍ أو عمٍّ أو ابنِ عمٍّ أو غيرِهم، ونظيرُه: ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣]، وهوَ تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ؛ أي: لا تُكلَّف أنت حملَ أوزارِهم.

والوِزرُ: الثِّقلُ، ومنه: ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ [طه: ٨٧]؛ أي: أثقالاً.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: إنَّما يقبلُ إنذارَك مَن يخشى عذابَ اللهِ، وهوَ كقولِه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١].

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾؛ أي: مَن اهتدى ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: فإنَّما يهتدي لنفسِه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيجزي كلّاً بما يُريدُ.

* * *

(١٩ ـ ٢٢) ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ جعلَ الكافرَ كالأعمى والمؤمنَ كالبصيرِ؛ أي: لا يستوي الكافرُ والمؤمنُ.

﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾؛ أي: الشِّركُ والهدى.

﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾؛ أي: الجنَّةُ والنَّارُ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: أي: ظلُّ اللَّيلِ وحرُّ السَّمومِ بالنَّهارِ[١].

وقالَ قتادةُ: هذه أمثالٌ؛ أي: كما لا تستوي هذه الأشياءُ كذلكَ لا يستوي الكافرُ والمؤمنُ[٢].

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾؛ أي: المؤمنون والكفَّارُ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: يُسمِعُ أولياءَه الذين خلقَهم لجنَّتِه ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾؛ أي: الكفَّارَ.

* * *

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٤١٥).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٤٤٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٧٩).

(٢٣ ـ ٢٤) ـ ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾.

﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾؛ أي: رسولٌ منذِرٌ، فليسَ عليك إلَّا التَّبليغُ.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾؛ أي: بالدِّينِ الحقِّ لتُبشِّرَ أهلَ الطَّاعةِ وتُنذِرَ أهلَ المعصيةِ.

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾؛ أي: ما مِن أمَّةٍ مِن بني آدمَ إلَّا وقد بعثَ اللهُ إليهم في وقتِهم رسولاً، فأنت كسائرِ الأنبياءِ ﴿خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾؛ أي: سلفَ فيها نبيٌّ، واللهُ أعلمُ.

* * *

(٢٥ ـ ٢٦) ـ ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ هذا تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ.

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾؛ أي: بالمعجزاتِ والشَّرائعِ البيِّنةِ ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ يعني: الكتبَ التي أنزلَها اللهُ على الأنبياءِ، و﴿ٱلْمُنِيرِ﴾ الواضح.

وقالَ: ﴿وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾؛ لأنَّ في الأنبياءِ مَن أخبرَ بكتبِ المتقدِّمين ولم يُفْرَد بإنزالِ الكتبِ عليه، ومنهم مَن أُنزلَ عليه الكتابُ فأخبرَ بكتابِ نفسِه وبكتبِ المتقدِّمين.

وقيلَ: الزُّبرُ والكتابُ بمعنًى واحدٍ.

وقيلَ: ترجعُ البيِّناتُ والزُّبرُ والكتابُ إلى معنًى واحدٍ، وهو ما أُنزلَ على الأنبياءِ من الكتبِ.

قولـه تعالـى: ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾؛ أي: عاقَبتُهـم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾؛ أي: كيـفَ كانَ عقوبتـي لهم.

* * *

(٢٧) - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾؛ أي: ألـم ينتهِ علمُكَ إلى ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾؛ أي: المطرَ؛ أي: أنزلَ من صَوبِ السَّماءِ.

وقيلَ: السَّماءُ بمعنى السَّحابِ.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ ﴾ هوَ مِن بابِ تلوينِ الخطابِ؛ أي: الماءُ واحدٌ والثَّمراتُ مختلفةٌ، والجبالُ خلقَها مختلفةً في البياضِ والحمرةِ والسَّوادِ وإن كانَ الجميعُ حجراً أو تراباً، وكذا الاختلافُ في النَّاسِ والدَّوابِّ، وكلُّ ذلك دليلٌ على صانعٍ مُختارٍ له أن يتعبَّدَ عبادَه بما شاءَ، وأن يُعرِّضَهم للثَّوابِ والعقابِ.

والجُددُ: الطُّرقُ تكونُ في الجبالِ من البيضِ والسُّودِ والحمرِ، واحدُها: جُدَّةٌ، وقالَ الزَّجَّاجُ: كلُّ طريقٍ جُدَّةٌ وجادَّةٌ[1].

﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ الغربيبُ: الشَّديدُ السَّوادِ الذي يشبهُ لونُه لونَ الغرابِ، تقولُ: أسودُ غربيبٌ وغرابيٌّ، والأسودُ والغربيبُ بمعنًى، وقد يُؤكَّدُ أحدُهما بالآخرِ.

وقالَ أبو عبيدةَ والفرَّاءُ: هوَ على التَّقديمِ والتَّأخيرِ[2].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٦٩).

(٢) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١٥٤)، وفيه: «مقدم ومؤخر لأنه يقال: أسود غربيب». وذكره عن الفراء الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ١٨٠)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ٤١٨).

(٢٨) ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كاختلافِ الثَّمراتِ والجبال ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ قيلَ: تمَّ الكلامُ عندَ قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، ثمَّ قالَ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ بأنَّ اللهَ تعالى لم يخلقْ هذه الأشياءَ إلَّا دالَّةً على كمالِ قدرتِه.

وقالَ قتادةُ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ موصولٌ بقولِه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ﴾؛ أي: كما اختلفَت هذه الأشياءُ فكذلكَ العلماءُ في خشيةِ اللهِ مختلفون، فكلُّ مَن كانَ علمُه أكثرَ كانَ أشدَّ خشيةً من اللهِ(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾؛ أي: في مُلكِه ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوبِ المؤمنين.

***

(٢٩ ـ ٣٠) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: هوَ وصفٌ للعلماءِ الذين يخشَونَ اللهَ، وقيلَ: لمؤمني أهلِ الكتابِ، كما قالَ: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [آل عمران: ١١٣]؛ أي: مِن جملةِ مَن يخشى اللهَ مؤمنو أهلِ الكتابِ.

---

(١) لم أقف عليه عن قتادة، وهو في «تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٤٣) بلا نسبة. وقال نحوه الزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ٢٦٩)، وعبارته: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كاختلاف الثمرات والجبال. ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ أي من كان عالماً بالله اشتدت خشيته له».

﴿يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: القرآنَ، وقيلَ: القرآنَ والكتبَ المتقدِّمةَ ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: ويقيمون، يُقالُ: سوقٌ قائمةٌ؛ أي: جاريةٌ دائمةٌ.

﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾؛ أي: ويُخرِجون حقوقَ المالِ ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾؛ أي: خُفيةً من النَّاسِ وجهراً.

ثمَّ؛ قيلَ: هذا عامٌّ في الفرضِ والنَّفلِ؛ أي: يُؤدُّونَ النَّفلَ سرّاً، والفرضَ علانيةً، فإنَّه يُصرَفُ إلى السَّاعي، والنَّفلُ يجوزُ أن يُؤدَّى على الوجهين، والفرضُ أيضاً قد يُؤدِّيه ربُّ المالِ سرّاً بنيَّة [البعدِ عن الرياءِ والسمعة، ويجوز][1] أن يرجعَ قولُه: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ إلى الصَّلاةِ والإنفاقِ جميعاً، وفي الخبرِ: «أفضلُ الصَّلاةِ صلاةُ الرَّجلِ في بيتِه إلَّا المكتوبةُ»[2].

﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾؛ أي: هؤلاءِ يرجون أن يكونوا تاجرُوا اللهَ تجارةً يربحون فيها، والبوارُ: الهلاكُ، وقيلَ: كسادُ السُّوقِ، وذُكِرَ بلفظِ الرَّجاءِ لأنَّ المؤمنَ أبداً يستقصرُ نفسَه، ولا يقطعُ بالموافاةِ على الإيمانِ، فإنَّه غيبٌ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾؛ أي: احتملُوا لتلك[3] الطَّاعةِ ليوفيَهم اللهُ أجورَهم ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾؛ أي: يعطيَهم بالواحدةِ عشراً إلى سبعِ مئةٍ إلى ما فوقها ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ يغفرُ الذُّنوبَ ويشكرُ الطَّاعاتِ.

---

(١) ما بين معكوفتين زدناه لعدم اتساق الكلام بدونه، وهو مستفاد من كلام العلماء في هذه المسألة، ومن ذلك قول ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/ ٣٦٥): ويشبه في زمننا أن يحسُنَ التستر بصدقة الفرض فقد كثر المانع لها وصار إخراجها عرضة للرياء.

(٢) رواه البخاري (٧٣١)، ومسلم (٧٨١)، من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(٣) في (أ): «لذلك»، والصواب المثبت.

(٣١ ـ ٣٢) ـ ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾؛ أي: ما أوحينا إليك مِن القرآنِ حقٌّ فالزمْ تلاوتَه والعملَ بما فيه.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وأورثنا علمَ جملةِ الكتابِ المتقدِّمةِ المصطَفَينَ مِن عبادِنا، وهم أمَّةُ محمَّدٍ ﷺ، وإيراثُ الكتابِ: نقلُه من قومٍ إلى غيرِهم، وقد ذكرَ قبلَ هذا أنَّ الأممَ الماضيةَ كذَّبوا الرُّسلَ، ثمَّ ذكرَ هاهنا أنَّ هذه الأمَّةَ صدَّقَت الكتبَ، فصارَ الكتابُ مُنتهياً إليهم.

و﴿ثُمَّ﴾ لا تدلُّ على التَّأخيرِ في كلِّ موضعٍ، فمعناه: ثمَّ أخبرُكم أنَّا أورثنا علمَ تلك الأممِ هذه الأمَّةَ.

ويحتملُ أنَّه للتَّأخيرِ؛ أي: ثمَّ ختمْنا الأممَ بهذه الأمَّةِ، والكنايةُ[1] ترجعُ إلى القرآنِ، ويحتمِلُ أن ترجعَ إلى جميعِ الكتبِ المنزلةِ، فهوَ للجنسِ.

﴿أَوْرَثْنَا﴾؛ أي: أعطينا، والميراثُ عطاءٌ، وقيلَ: أخَّرناه لهم[2].

﴿ٱصْطَفَيْنَا﴾: اخترْنا ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: مِن هؤلاءِ المصطفَين ظالمٌ

---

(١) قوله: «والكناية» يعني به قوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، والكناية عادة تطلق على الضمير، وليس ثم ضمير هنا بل هو اسم ظاهر.

(٢) أي: أخَّرْناه إلى ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، ومعناه: أخرنا القرآن عن الأمم السالفة وأعطيناكموه وأهلناكم له، وأُنشدَ لعنترةَ:

وأورَثْتُ سيفي عن حُصَينِ بنِ معقلِ ... إلى جــدِّه إنِّي لثــأري لطالــبُ

أي: أخَّرْتُ سيفي. انظر: «تفسير الثعلبي» (٢٢/ ١٨٩). ولم أقف على البيت في الديوان.

لنفسِه، وهوَ مَنِ اقترفَ الذُّنوبَ غيرَ مستحلٍّ لها، فيتناولُه الاصطفاءُ لكونِه مسلماً ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾، وهوَ الذي لم يبلغِ النِّهايةَ في الطَّاعةِ، بل أتى بالفرائضِ وإن لم يستكثر من النَّوافلِ، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ﴾(١)، وهوَ الذي بذلَ جهدَه في الطَّاعاتِ.

وقيلَ: المقتصدُ: مَن خلطَ عملاً صالحاً وآخرَ سيِّئاً.

وقالَ مُقاتلٌ: الظَّالمُ: صاحبُ الكبيرةِ، والمقتصدُ: مَن لم يُصبْ كبيرةً، والسابقُ: الذي ابتدرَ إلى الأعمالِ الصَّالحةِ(٢).

وقالَ الحسنُ: الظَّالمُ: مَن ترجَّحَت سيِّئاتُه على حسناتِه، والمقصدُ: مَن استوَت حسناتُه وسيِّئاتُه، والسابقُ: مَن ترجَّحَت حسناتُه على سيِّئاتِه(٣).

وروى أبو الدَّرداءِ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «السَّابقُ والمقتصِدُ يدخلانِ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ، والظَّالمُ لنفسِه يُحاسَبُ حساباً يسيراً، ثمَّ يدخلُ الجنَّةَ»(٤).

---

(١) في (أ): «ومنهم من سابق»، والمثبت لفظ الآية.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٨٨)، وعبارته: «فمنهم ظالم لنفسه أصحاب الكبائر من أهل التوحيد ومنهم مقتصد عدل في قوله ومنهم سابق بالخيرات الذين سبقوا إلى الأعمال الصالحة وتصديق الأنبياء».

(٣) ذكره عنه التستري في «تفسيره» (ص: ١٢٩)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ١٩٩)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ٤٢٣).

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٤٤٩)، والإمام أحمد في «المسند» (٢١٦٩٧) و(٢٧٥٠٥)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٧٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٩٣)، وعنه البيهقي في «البعث والنشور» (٥٨). قال الحاكم وعنه البيهقي: وقد اختلفت الروايات في إسناد هذا الحديث... وإذا كثرت الروايات في حديث ظهر أن للحديث أصلاً. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٥): «رواه أحمد بأسانيد رجال أحدها [وهي المذكورة] رجال الصحيح إن كان علي بن عبد الله الأزدي سمع من أبي الدرداء فإنه تابعي». وقال محققو «المسند»: «بينهما فيه أبو خالد البكري كما في =

وقالَت عائشةُ رضيَ اللهُ عنها لمن سألَها عن الآيةِ: أمَّا السابقُ فمَن مضى في حياةِ رسولِ اللهِ ﷺ، وأمَّا المقتصدُ فمَن اتَّبعَ آثارَهم وعملَ بأعمالِهم، وأمَّا الظَّالمُ لنفسِه فمِثْلي ومِثْلُك ومَن اتَّبعَنا، وكلٌّ في الجنَّةِ[1].

وقالَ محمَّدُ ابنُ الحنفيَّةِ: الظَّالمُ مغفورٌ له، والمقتصدُ في الجنانِ، والسَّابقُ في الدَّرجاتِ العُلا[2].

وقالَ قومٌ: الظَّالمُ لنفسِه ليسَ من أهلِ الجنَّةِ، وقولُه: ﴿منهم﴾ ﴿وَمِنْهُمْ﴾ يرجعُ إلى قولِه: ﴿عِبَادِنَا﴾.

والصَّحيحُ الأوَّلُ؛ لقولِه: ﴿ٱصْطَفَيْنَا﴾ وقولِه بعدَ هذه الآيةِ: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: أفيعذِّبُ الله مَن اصطفاه؟! جعلَهم[3] يدخلونَ الجنَّةَ[4].

= «التاريخ الكبير» للبخاري (٩/ ١٨)، ولم نتبينه».

قلت: هو في «التاريخ الكبير»: «عن علي بن عبد الله الأزدي، عن أبي خالد البكري: أن رجلاً جاء إلى المدينة فلقي أبا الدرداء..، نحوه». فالحديث على هذه الرواية رجاله رجال الصحيح إلا أن فيه انقطاعاً.

(١) رواه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (١٤٨٩)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٩٣) وصححه، وتعقبه الذهبي بأن فيه الصلتَ بن دينار، قال النسائي: ليس بثقة، وقال أحمد: ليس بالقوي.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٧٠).

(٣) قوله: «جعلهم» هكذا هنا وفي «البسيط»، والمراد والله أعلم: جميعهم.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ١٩١) بلفظ: «إنما رتبهم هذا الترتيب على مقامات الناس، لأن أحوال العبد ثلاث: معصية وغفلة، ثم توبة، ثم قربة، فإذا عصى دخل في حيز الظالمين، وإذا تاب دخل في جملة المقتصدين، وإذا صحت التوبة وكثرت العبادة والمجاهدة اتصل بالله ودخل في عداد السابقين». =

وقالَ أبو بكرٍ الورَّاقُ: مَن عصى فهوَ ظالمٌ لنفسِه، فإن تابَ فهوَ مقتصدٌ، فإن ثبتَ على التَّوبةِ فهوَ مقتصدٌ وداخلٌ في السابقين(١).

﴿سَابِقٌۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾؛ أي: بأعمالِه الصَّالحةِ، وقيلَ: سابقٌ برحمةِ الله؛ أي: إلى رحمتِه ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بأمرِه وإرادتِه.

وقيلَ: المصطفَون الذين أُورِثوا الكتابَ هم الأنبياءُ توارثُوا الكتبَ بعضُهم عن بعضٍ، على معنى: أنَّه انتقلَ عن بعضِهم إلى آخرَ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦]، وقالَ: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ [مريم: ٦]، فإذا جازَ أن تكونَ النُّبوَّةُ موروثةً فكذا الكتابُ على معنى: أنَّ الثانيَ أُنزلَ عليه كتابٌ كما أُنزلَ على الأوَّلِ.

ويجوزُ أن يكونَ الكتابُ في الأصلِ للملائكةِ الموكَّلين باللَّوحِ المحفوظِ، فإذا أنزلَه اللهُ على الأنبياءِ فقد(٢) ورَّثَهم إيَّاه، فالمعنى: أنزلنا الكتبَ على أنبيائِنا الذين هم صفوتُنا مِن عبادِنا المنقسمينَ إلى الظَّالمِ والمقتصدِ والسَّابقِ.

وقالَ الضَّحَّاكُ: أي: أورثنا الكتابَ الأنبياءَ، فمِن ذرِّيتِهم ظالمٌ لنفسِه، وهوَ المشرِكُ، فرجعَ قولُه: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ إلى المقتصدِ والسابقِ(٣).

ويجوزُ أن يقال(٤): اصطفيناهم، ثمَّ يرجعُ ذلك إلى المعظَمِ، كقولِه في بني

= قلت: فقول المصنف: «فهوَ مقتصدٌ وداخلٌ في السابقين» لعل الأولى: «فهو متصل بالله..».

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٤٢٦)، وذكر الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ١٩٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «السابق المؤمن المخلص، والمقتصد المرائي، والظالم الكافر نعمة الله غير الجاحد بها، لأنه حكم للثلاثة بدخول الجنة فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾».

(٢) في (أ): «هذا»، ولعل المثبت هو الصواب.

(٣) لم أجده.

(٤) في (أ): «يكون»، ولعل المثبت هو الصواب.

إسرائيلَ: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]، ثمَّ قد كانَ منهم الكافرُ، فرجعَ قولُه: ﴿اصْطَفَيْنَا﴾ إلى هذه الأمَّةِ.

ويجوزُ أن يُقالَ: اصطفيناهم فلم يَصْفُ بعضُهم، كما قالَ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧].

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾؛ أي: إيراثُهم الكتابَ فضلٌ منَّا عليهم.

وتكلَّموا في تقديمِ الظَّالمِ في الذِّكرِ على الأصناف الثلاثة من المؤمنين:

فقيلَ: التَّقديمُ في الذِّكرِ لا يقتضي تشريفاً كقولِه: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠].

وقيلَ: قدَّمَ الكافرَ لتأكيدِ[1] الرَّجاءِ في حقِّه.

وقيلَ: أخَّرَ السابقَ ليقرِّبَ ذكرَه من ذكرِ الجنَّاتِ كقولِه: ﴿لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ﴾ [الحج: ٤٠]، فأخَّرَ المساجدَ ليقرنَها بذكرِ اسمِ الله.

وقيلَ: بدأ بالأدنى، ثمَّ بمَن فوقَه، ثمَّ بمَن فوقَ ذلك، وهذا ترتيبُ الكلامِ.

***

(٣٣) - ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ ﴿جَنَّاتُ﴾ رفعٌ؛ لأنَّه تفسيرُ الفضلِ؛ أي: ذلك الفضلُ جناتُ عدنٍ، وقيلَ: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدلٌ من قولِه: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ﴾، فالمعنى: الفضلُ دخولُ الجنَّاتِ، والعدنُ: الإقامةُ.

---

(١) في (أ): «لتقديم»، والمثبت من «تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٨٤).

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ الحريرُ مِن أَنْعَمِ الثِّيابِ في الدُّنيا وأخفِّها على البدنِ؛ أي: لباسُهم فيها بحيثُ لا يُؤذي أبدانَهم، وقالَ هاهنا: ﴿أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾، وقالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١]، فيجوزُ أن يُحَلَّوا معاً في حالَين، أو يُجعلا لهم في حالةٍ واحدةٍ، وقيلَ: الذَّهبُ للنِّساءِ والفضَّةُ للرِّجالِ، **وهذا بعيدٌ**؛ إذ في الخبرِ: أنَّ الذَّهبَ حرامٌ على الذُّكورِ في الدُّنيا حلالٌ في الآخرةِ(١).

وقالَ قتادةُ: يُحلَّون من أساورَ من لؤلؤٍ لونُها لونُ الذَّهبِ في الحُسنِ(٢).

والأساورُ: جمعُ أسْورةٍ، والأسورةُ: جمعُ سوارٍ، قُرِئَ: ﴿ولؤلؤٍ﴾ عطفٌ على ﴿ذَهَبٍ﴾، وقُرِئَ: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾(٣)؛ أي: يُحلَّون لؤلؤاً؛ لأنَّ السِّوارَ لا يكونُ من لؤلؤٍ.

***

(٣٤) ـ ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ أخبرَ عن أهلِ الجنَّةِ أنَّهم يحمدونَ اللهَ على إذهابِ الحزَنِ عنهم؛ لأنَّ الأمنَ الحقيقيَّ يكونُ عندَ دخولِ الجنَّةِ، وهذا الحزنُ: أحزانُ الدُّنيا وحزنُ الموقفِ والحسابِ، فالآيةُ عامَّةٌ في جميعِ الأحزانِ، والحُزْنُ والحَزَنُ بمعنًى كالبُخْلِ والبَخَلِ.

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾؛ أي: غفرَ ذنوبَنا ﴿شَكُورٌ﴾: شكرَ لنا طاعتَنا.

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وروى البخاري (٥٤٢٦)، ومسلم (٢٠٦٧)، من حديث حذيفة رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها؛ فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة».

(٢) لم أقف عليه.

(٣) قرأ نافع وعاصم بالنصب، وباقي السبعة بالجر. انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٤ ـ ٥٣٥)، و«التيسير» (ص: ١٥٦).

(٣٥) - ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بيَّنَ أنَّ تمامَ السُّرورِ وزوالَ الحزنِ بحلولِ دارِ المقامِ، فأمَّا الدُّنيا فدارُ انتقالٍ، فلا يُتصوَّرُ فيها كمالُ السُّرورِ.

﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾؛ أي: دارَ الخلودِ، والمقامةُ مثلُ الإقامةِ، يُقالُ: أَقَمْتُ مُقاماً وإقامةً.

﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: ذلك بفضلِه لا بأعمالِنا، ولو كانَ في مقابلَةِ العملِ لكانَ بقَدْرِ العملِ.

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾؛ أي: تعبٌ ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾؛ أي: إعياءٌ في أبدانِنا، يُقالُ: «لغَبَ يلغُبُ» مثلَ: نصرَ ينصُرُ، و«لغَبَ يلغَبُ» مثل: منعَ يمنَعُ.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: أي: لا يمسُّنا فيها فتورٌ[1].

* * *

(٣٦) - ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ ذكرَ صفةَ الكفَّارِ أيضاً؛ أي: هم يُخلَّدون في النَّارِ ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾: فيستريحوا بالموتِ وعدمِ الإحساسِ بالعذابِ.

---

(١) لم أجده عن ابن عباس، وذكر هذا المعنى الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٢١١) حيث قال: ﴿لُغُوبٌ﴾؛ أي: كلال وإعياء وفتور.
وروى الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٨١) عن ابن عباس قوله: «اللغوب: العناء».
وذكر الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٤٣١) عنه قولاً آخر فقال: والمفسرون يقولون في اللغوب: «إنه الإعياء»، وقال عطاء عن ابن عباس: «مثل ما يلغب الرجل حين يلاعب أهله ويجامعها».

﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: لا يُقضى عليهم بالموتِ.

وقيلَ: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: لا يُهلَكون كقولِه: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]؛ أي: أهلكَه.

وقيلَ: لا يُفرَغُ منهم فيموتوا.

﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾؛ أي: من عذابِ النَّارِ ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾؛ أي: كلَّ كافرٍ باللهِ وبالرُّسلِ وبالبعثِ.

قُرِئَ: ﴿نَجْزِى﴾ بالنُّونِ، وقُرِئَ: ﴿يُجزَى﴾ بالياءِ على ما لم يُسمَّ فاعلُه[١].

* * *

(٣٧) - ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾؛ أي: يستغيثون في النَّارِ بالصَّوتِ العالي، والصُّراخُ: الصَّوتُ العالي، والصَّارخُ: المستغيثُ، والمُصرِخُ: المغيثُ له[٢].

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾؛ أي: يُنادُون: ربَّنا أخرِجْنا منها ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ قالَ ابنُ عبَّاسٍ: نقلْ: لا إلهَ إلَّا اللهُ ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾؛ أي: غيرَ الشِّركِ[٣]؛ أي: رُدَّنا إلى الدُّنيا نمتثلْ أمرَ الرُّسلِ.

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ هذا جوابُ دعائِهم؛ أي: فيقولُ لهم،

---

(١) قرأ أبو عمرو ﴿يُجْزَى كلُّ﴾، وباقي السبعة بالثانية: ﴿نَجْزِى كُلَّ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٥)، و«التيسير» (ص: ١٨٢). وعليها (كلُّ) بالرفع.

(٢) في (أ): «به»، ولعل الصواب هو المثبت، أو حذفها.

(٣) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٤٣٢).

فالقولُ مضمرٌ؛ أي: ألم نجعلْ لكم من العمرِ في الدُّنيا بمقدارِ ما كانَ يمكنُكم أن تتدبَّروا وتتَّعظُوا لو أردتُم، وهذا استفهامُ توبيخٍ.

﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾؛ أي: مَن أرادَ أن يتذكَّرَ، وفي الخبرِ: «إذا بلغَ الرَّجلُ ستِّينَ سنةً فقد أعذَرَ اللهُ إليه في العُمرِ»(١).

والجملةُ: أنَّه إشارةٌ إلى وقتِ البلوغِ، فمَن عُمِّرَ بعدَ البلوغِ بقَدْرِ ما يمكنُه النَّظرُ وتحصيلُ المعرفةِ فلم يَفعلْ فقد لزِمَتْه الحجَّةُ.

﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾؛ أي: الرَّسولُ، فأنتم جَنيتُم على أنفسِكم.

وقيلَ: جاءَكم الشَّيبُ؛ أي: عمَّرناكم حتَّى عمركم المشيبُ، فالنَّذيرُ على هذا بمعنى الإنذارِ، والشَّيبُ إنذارٌ بالموتِ.

﴿فَذُوقُواْ﴾؛ أي: العذابَ، ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾؛ أي: مِن مانعٍ من عذابِ اللهِ.

* * *

(٣٨) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: علمَ أنَّه لو ردَّكم إلى الدُّنيا لم تعملوا صالحاً، كما قالَ: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقيلَ: هوَ ابتداءُ كلامٍ؛ أي: هوَ يعلمُ الغيبَ وما في الصُّدورِ، فاتَّقوا أن يعلمَ منكم الشِّركَ.

* * *

(١) رواه البخاري (٦٤١٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣٩) - ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أورثناكم الكتابَ وجعلناكم خلفاءَ لمن تقدَّمَ في الأرضِ.

وقيلَ: أي: جعلَ سلطانَ الأرضِ لكم، وأظهرَكم على الأممِ إلى قيامِ السَّاعةِ.

﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾؛ أي: المضرَّةُ عائدةٌ إليه.

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾؛ أي: بُغضاً، وهوَ مثوبةُ اللهِ أو معاقبتُه إيَّاهم ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾؛ أي: إلَّا هلاكاً.

* * *

(٤٠) - ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ هذا كما تقولُ في ابتداءِ المحاجَّةِ: «أرأيتَ كذا ما وجهُهُ؟»؛ [أي][1]: قلْ: أرأيتم هذه الآلهةَ التي عبدتُم هل تقدرُ على خلقِ شيءٍ؟

﴿شُرَكَآءَكُمُ﴾؛ أي: مَن اعتقدتُموهم شركائي، وأضافَ إليهم لاعتقادِهم.

وقولُه: ﴿أَرُونِى﴾ تأكيدٌ لِمَا دلَّ عليه قولُه: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾؛ أي: أَعْلِموني أيَّ شيءٍ خَلقوا من الأرضِ أو مِن السَّماءِ حتَّى يكون لهم شِركٌ فيهما؟!

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

وقالَ مُقاتلٌ: ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ كما خلقَ اللهُ آدمَ، إن كانُوا آلهةً[١]، فعلى هذا ﴿مِنَ﴾ بمعنى: في؛ أي: في الأرضِ.

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾: أم أنزلنا عليهم كتاباً فهم على حجَّةٍ منه في تصويبِ الشِّركِ، وهوَ محالٌ، أو كتاباً فيه أنَّ الأصنامَ تشفعُ لهم إلى اللهِ؛ أي: لا يمكنُهم إثباتُ ذلك لا بطريقِ العقلِ ولا بطريقِ النَّقلِ، فأيُّ حجَّةٍ لهم في الشِّرك؟!

وقيلَ: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ﴾؛ أي: ، بل آتيناهم؛ يعني: أهلَ مكَّةَ **﴿كتاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَاتٍ مِنْهُ﴾**، وقرأَ أبو عمرٍو: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾[٢].

﴿بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ﴾؛ أي: ما يَعِدُ الظَّالمون ﴿بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾؛ أي: أباطيلَ تَغرُّ.

وقيلَ: أي: ما يعدُ الشَّيطانُ كفَّارَ بني آدمَ من شفاعةِ الآلهةِ لهم في الآخرةِ إلَّا باطلاً.

و(إن) الخفيفةُ تُستعمَلُ بمعنى الجحدِ كقولِه: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤]؛ أي: ما هذا إلَّا بشرٌ مثلُكم[٣].

***

(٤١) - ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ لمَّا بيَّنَ أنَّ آلهتَهم لا تقدرُ

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٥٩).

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر والكسائي: ﴿بيِّناتٍ﴾، وقرأ باقي السبعة: ﴿بَيِّنَتٍ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٥)، و«التيسير» (ص: ١٨٢).

(٣) جاءت الآية في (أ) هكذا: (إن هذا إلا بشر مثلكم)، وهو خطأ، ولعلَّ الصواب: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١]؛ أي: ما نحن إلا بشر مثلكم.

على شيءٍ من السَّماواتِ والأرضِ بيَّنَ أنَّ خالقَهما وممسكَهما هوَ اللهُ، فلا يُوجَدُ حادثٌ إلَّا بإيجادِه، ولا يبقَى إلَّا ببقائِه.

﴿أَن تَزُولَا﴾؛ أي: لئلا تَزولا، أو: كراهةَ أن تَزولا.

وقالَ الزَّجَّاجُ: ﴿يُمْسِكُ﴾؛ أي: يمنعُ ﴿أَن تَزُولَا﴾[1]، فلا حاجةَ على هذا إلى إضمارِ شيءٍ.

والسَّماواتُ سبعٌ، والأرضون سبعٌ، ولكنْ لمَّا ذكَرهما أجراهما مَجرى شيئين، فعادَت الكنايةُ إليهما، وهوَ كقولِه: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾؛ أي: ولو زالتا، كقولِه: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ [الروم: ٥١] ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾؛ أي: ولو زالتا لم يمسكْهما أحدٌ غيرُ اللهِ، وقيلَ: يعني: زوالَهما في القيامةِ.

وقالَ الكلبيُّ: لمَّا قالَت اليهودُ: عُزيرٌ ابنُ اللهِ، ولما قالَت النَّصارى: المسيحُ ابنُ اللهِ، كادَت السَّماواتُ والأرضُ أن تزولا عن أمكنتِها، فمنعَها اللهُ، وأنزلَ هذه الآيةَ فيه، وهوَ كقولِه: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٨٩ ـ ٩٠].

﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾؛ أي: من بعدِ اللهِ، وقيلَ: من بعدِ زوالِهما، وقولُه: ﴿مِّنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾؛ أي: أحدٍ[2] من الخلقِ، وهوَ كما يُقالُ: جاءَ ناسٌ من النَّاسِ.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ إذ لم يُعاجِلِ الكفَّارَ بالعقوبةِ ﴿غَفُورًا﴾ لم يسقطِ السَّماءَ عليهم، ولم يَخسِفْ بهم الأرضَ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٧٣).

(٢) في (أ): «لأحد»، ولعل المثبت هو الصواب.

(٤٢ ـ ٤٣) ـ ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾؛ أي: أقسمُوا قبلَ بعثةِ محمَّدٍ ﷺ وقالُوا: لئن جاءَنا نذيرٌ كما جاءَ مَن قبلَنا مِن الأممِ لنكونَنَّ أسلَكَ لطريقِ الهدى من أهلِ الكتابِ، وكانَتِ العربُ تتمنَّى أن يكونَ منهم رسولٌ كما كانَ الرُّسلُ في بني إسرائيلَ، فلمَّا جاءَهم ما تمنَّوه ـ وهوَ النَّذيرُ ـ من أنفسِهم، نفرُوا عنه ولم يُؤمنوا ﴿اسْتِكْبَارًا﴾؛ أي: عُتوّاً عن الإيمانِ؛ أي: ما زادَهم إلَّا نفوراً للاستكبارِ، فهوَ مفعولٌ له.

﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾؛ أي: ولِيخدعوا الضُّعفاءَ ولِيصدُّوهم عن الإيمانِ؛ ليكثرَ أتباعُهم، وجعلَ هذا المكرَ سيِّئاً لأنَّه صدٌّ عن الحقِّ وصرفٌ عن الهدى، ونبَّهَ بهذا على أنَّ احتيالَ المسلمين في قمعِ الكفَّارِ مكرٌ حسنٌ، وقرأَ حمزةُ: ﴿ومَكْرَ السَّيِّءْ﴾ بسكونِ الهمزةِ[1]، وخطَّأه أقوامٌ، وقالَ قومٌ: لعلَّه وقفَ عليه لأنَّه تمامُ الكلامِ، فغلطَ الرَّاوي وروى عنه ذلك في الإدراجِ.

وقد سبقَ الكلامُ في أمثالِ هذا، وقلنا: **ما ثبتَ بالاستفاضةِ والتَّواترِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قرأَه، لا بدَّ مِن جوازِه، ولا يجوزُ أن يُقالَ: إنَّه لحنٌ، ولعلَّ مرادَ مَن صارَ إلى التَّخطئةِ: أنَّ غيرَه أفصَحُ منه وإن كانَ هوَ فصيحاً.**

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾؛ أي: لا تحلُّ عاقبةُ الشِّركِ إلَّا بمَن أشركَ.

وقيلَ: هذا إشارةٌ إلى قتلِهم ببدرٍ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٥ ـ ٥٣٦)، و«التيسير» (ص: ١٨٢ ـ ١٨٣).

والحوقُ: الإحاطةُ، يُقالُ: حاقَ به كذا؛ أي: أحاطَ به.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: فهل ينتظرون إلَّا أن ينزلَ بهم العذابُ كما نزلَ بمَن قبلَهم من المكذِّبين للرُّسلِ ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾؛ أي: في العذابِ وإن تأخَّرَ؛ لأنَّه لا يُبدَّلُ القولُ لديه ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾؛ أي: لا يقدرُ أحدٌ على تحويلِ العذابِ عن نفسِه إلى غيرِه.

والسُّنَّةُ: الطَّريقةُ، وأضافَها إلى اللهِ، وقالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ [الإسراء: ٧٧]، فأضافَ إلى القومِ ليعلِّقَ الأمرَ بالخائنين، فالعذابُ وقعَ بقدرةِ اللهِ في المكذِّبين، وهوَ كالأَجَلِ تارةً يُضافُ إلى اللهِ، وتارةً إلى القومِ، قالَ: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]، وقالَ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٤].

***

(٤٤) ـ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بيَّنَ السُّنَّةَ التي ذكرَها؛ أي: أولم يرَوا ما أنزلنا بعادٍ وثمودَ وبمدينَ وأمثالِهم لمَّا كذَّبوا الرُّسلَ، فيتدبَّرُوا ذلك بنظرِهم إلى مساكنِهم ودُورِهم، وبما سمعوا على التَّواترِ بما حلَّ بهم، أفليس فيه عِبرةٌ وبيانٌ أنَّهم ليسوا خيراً من أولئكَ ولا أقوى، بل كانَ أولئكَ أقوى.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: إذا أرادَ إنزالَ عذابٍ بقومٍ لم يُعجزْه ذلك.

***

(٤٥) - ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾؛ أي: إنَّما يُمهِلُهم لئلا يَخرَبَ العالمُ في مدَّةٍ علمَ اللهُ بقاءَ العالَمِ فيها، وأضمرَ الأرضَ لكثرةِ جريانِ مثلِ هذا على الألسنةِ وعِلمِ الكلِّ بمعناه، تقولُ: «ما على ظهرِها أفضلُ من فلانٍ»، وأيضاً قد جرى ذكرُ الأرضِ قبلَ هذا في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤].

﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ يريدُ المشركين.

وقيلَ: يريدُ جميعَ النَّاسِ، ومَن دبَّ على وجهِ الأرضِ.

وقالَ ابنُ مسعودٍ: كادَ الجُعلُ أن يُعذَّبَ في جُحرِه من ذنبِ ابنِ آدم، ثمَّ قرأ هذه الآيةَ[١].

أو: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾؛ أي: مِن مُكلَّفٍ؛ لأنَّ المكلَّفَ لا يخلو مِن ذنبٍ.

﴿وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: معلومٍ مؤقَّتٍ لكلِّ قومٍ ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾؛ أي: الوقتُ الذي جعلَه أمداً لعذابِهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾؛ أي: يُحِلُّ العقابَ بمَن يستوجبُ العقابَ، ويُثيبُ مَن يستوجبُ الثَّوابَ بفضلِه وكرمِه جلَّ وعلا وتقدَّست أسماؤُه.

* * *

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٥٦٥)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٢٧٣)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٦٠)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٠٢) وصححه.

سُورَةُ يسٓ

سورةُ يس

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١ ـ ٤) ـ ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

﴿يسٓ﴾ قيلَ: يا سيِّدَ البشرِ، وقيلَ: ﴿يسٓ﴾ اسمُ السُّورةِ.

وقيلَ: يا إنسانُ، رُويَ ذلك عن ابنِ عبَّاسٍ وابنِ مسعودٍ وجَمعٍ[1]، ثمَّ مِن هؤلاءِ مَن قالَ: إنَّه لغةُ طيِّءٍ، وقيلَ: هوَ بالسُّريانيَّةِ، وقيلَ: بالحبشيَّةِ، فتكلَّمَت العربُ به فصارَ من لغتِهم.

قُرِئَ ﴿يسٓ﴾ بإظهارِ النُّونِ وإخفائِها[2]، وقُرِئَ بفتحِ النُّونِ لالتقاءِ السَّاكنينِ[3]، فصارَ كقولِهم: ليتَ وأينَ وكيفَ.

وعُدَّ ﴿يسٓ﴾ آيةً، ولم يُعدَّ ﴿طسٓ﴾ آيةً؛ لأنَّ ﴿يسٓ﴾ على وزنِ قابيلَ وهابيلَ، وأوَّلُه حرفُ علَّةٍ بخلافِ ﴿طسٓ﴾، فأشبَهَ الجملةَ والكلامَ التَّامَّ، ولأنَّه مُشاكِلٌ لِمَا بعده من رؤوسِ الآيِ.

---

(١) رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٩٨). وذكره أبو حفص النسفي في «التيسير» (١٢/ ٣٣٤) عن ابن عباس وابن مسعود وعكرمة والضحاك.

(٢) قرأ ورش وابن عامر وأبو بكر والكسائي بإدغام النون في الواو مع الغنة والباقون بإظهارها. انظر: «السبعة» (٥٣٨)، و«التيسير» (ص: ١٨٢). فلعل قول المصنف: «بإخفائها» من باب إطلاق الإخفاء على الإدغام.

(٣) نسبت لعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٥)، و«المحتسب» (٢/ ٢٠٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٠٧).

قولـه: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ قالَ ابـنُ عبَّاسٍ: قالَ كفَّارُ مكَّةَ: لسـتَ مرسـلاً، وما أرسـلَكَ اللهُ إلينا، فأقسـمَ اللهُ بالقرآنِ الحكيمِ المحكَمِ أنَّ محمَّداً مِن المرسَـلين[١].

والحكيمُ: المحكَمُ حتَّى لا يتعرَّض لبطلانٍ وتعارُضٍ، كما قالَ: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]، وكذلكَ أُحكِمَ في آياتِه ونظمِه ومعانيه فلا يلحقُه خللٌ.

وقد يكونُ الحكيمُ في حقِّ اللهِ بمعنى المحكِمِ ـ بكسرِ الكافِ ـ كالأليمِ بمعنى المؤلِمِ.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أقسمَ بالقرآنِ إنَّ محمَّداً عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من المرسَلين، وإنَّه ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: دينٍ مستقيمٍ، وهوَ الإسلامُ.

وقالَ الزَّجَّاجُ: أي: على طريقِ الأنبياءِ الذين تقدَّمُوك، وقالَ: ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ خبرُ (إنَّ)، و﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ خبرٌ ثانٍ؛ أي: إنَّكَ لمن المرسَلين وإنَّكَ على صراطٍ مستقيمٍ.

ويجوزُ أن يكونَ ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ من صلةِ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: إنَّكَ من المرسَلين الذين أُرسِلوا على طريقةٍ مستقيمةٍ[٢]؛ كقولِه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ أي: الصِّراطِ الذي أمرَ اللهُ به.

* * *

(٥ ـ ٦) ـ ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قُرِئَ ﴿تَنزِيلَ﴾ بالنَّصبِ؛ أي: نَزَّلَ اللهُ ذلك

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٤٥٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومقاتل.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨)، و«البسيط» (١٨/ ٤٥١)، وعنه نقل المصنف. وسقط من كتاب الزجاج قوله: «ويجوزُ أن يكونَ ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ من صلةِ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي»، ووقع بدلاً منه كلمة: «فالمعنى» ما يوهم أنه من تتمة الوجه الأول.

تنزيلاً، وأضافَ المصدرَ فصارَ معرفةً كقولِه: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾؛ أي: فضرباً للرِّقابِ.

وقُرِئَ بالرَّفعِ(١)؛ أي: الذي أُنزلَ إليك تنزيلُ العزيزِ الرَّحيمِ، أو: تنزيلُ العزيزِ الرَّحيمِ هذا.

والتَّنزيلُ يرجعُ إلى القرآنِ، وقيلَ: إلى النَّبيِّ عليه السَّلام؛ أي: إنَّكَ لمن المرسَلين وإنَّكَ تنزيلُ العزيزِ الرَّحيمِ، فالتَّنزيلُ على هذا بمعنى الإرسالِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا﴾ [الطلاق: ١٠ ـ ١١]، ويُقالُ: أرسلَ اللهُ المطرَ وأنزلَه بمعنًى، ومحمَّدٌ عليه السَّلامُ رحمةٌ من اللهِ أنزلَها مِن السَّماءِ، ومَن نصبَ قالَ: أي: إنَّكَ لمن المرسَلين إرسالاً مِن العزيزِ الرَّحيمِ.

والعزيزُ: المنيعُ المنتقِمُ ممَّن خالفَه، الرَّحيمُ بأهلِ طاعتِه.

قولُه تعالى: ﴿لِتُنذِرَ﴾؛ أي: أرسلناكَ لتُنذرَ ﴿قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ قالَ ابنُ عبَّاسٍ: أي: كما أُنذرَ آباؤُهم الأوَّلون(٢)، فـ﴿مَّآ﴾ بمعنى الذي، أو: لتُنذرهم بما أُنذرُ آباؤُهم.

وقيلَ: ﴿مَّآ﴾ للجحدِ؛ أي: لتُنذرَ قوماً لم يُنذَر آباؤُهم ولم يأتهم نبيٌّ.

ثمَّ؛ يجوزُ أن يكونَ العربُ قد بلغَتهم بالتَّواترِ أخبارُ الأنبياءِ، فالمعنى: لم

---

(١) قرأ حفص وابن عامر وحمزة والكسائي بالنصب، والباقون بالرفع. انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٩)، و«التيسير» (ص: ١٨٣).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٤٥٢) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره يحيى بن سلام في «تفسيره» (٢/ ٨٠٠)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٥) عن السدي، وذكر النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٥٩) معناه عن عكرمة حيث قال: «﴿مَّآ﴾ لا موضع لها من الإعراب عند أكثر أهل التفسير لأنها نافية، وعلى قول عكرمة موضعها النصب لأنه قال: أي: قد أنذر آباؤهم، فتكون على هذا مثلَ قوله: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً﴾ [فصلت: ١٣] أي: بصاعقة».

يُنذَروا برسولٍ من أنفسِهم، ويجوزُ أن يكونَ المعنى: بلغَهم الخبرُ ولكن غفلُوا وأعرضُوا ونسوا.

ويجوزُ أن يكونَ هذا خطاباً لقومٍ لم يبلُغْهم خبرُ نبيٍّ، وقد قالَ اللهُ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: ٤٤]، وقالَ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [السجدة: ٣].

﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾[1]؛ أي: لم يأتِهم نبيٌّ، وعلى قولِ مَن قالَ: «بلغَهم خبرُ الأنبياءِ»، فالمعنى: فهم مُعرِضون الآنَ مُتغافِلون عن ذلك، ويُقالُ للمعرِضِ عن الشَّيءِ: إنَّه غافلٌ عنه.

وقيلَ: فهم غافلونَ عن عقابِ اللهِ.

* * *

(٧) - ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾؛ أي: هؤلاءِ الغافلون - أي: عن الإنذارِ - ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ في إحلالِ العذابِ بهم ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عرَّفَ ملائكتَه ونبيَّه أوَّلاً أنَّهم لا يؤمنون، فلمَّا دعاهم النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فلم يُؤمنوا أخبرَ أنَّ ذلك القولَ قد تحقَّقَ وبانَ مُخْبَرُه، وهذا في أقوامٍ مُعيَّنين علِمَ اللهُ منهم أنَّهم لا يُؤمنون، وقد قالَ في هذه السُّورةِ: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١٠]؛ أي: فلا تطمعْ في إيمانِهم وقد أتيتَ بما عليكَ مِن البلاغِ.

---

(١) قوله: «﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾» كذا في (أ)، وفي «تفسير القرطبي» (١٧/ ٤١٢) بدلًا منها: «﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾» وهو من تتمة آية السجدة السابقة، وهو الأولى لقوله بعده: «أي لم يأتهم نبي» المتبادر منه أنه شرح لآية السجدة. وقد نقل القرطبي كلام المصنف بحرفه وتمامه حتى نهاية الآية.

وقيلَ: أرادَ قولَه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] وقولَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٦].

* * *

(٨) ـ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ قيلَ: نزلَت والتي بعدَها في أبي جهلٍ؛ حمَلَ حجراً ليدمَغَ به النَّبيَّ ﷺ وهوَ يصلِّي، فيبسَت يدُه إلى عنقِه حتَّى عادَ إلى أصحابِه، قالَه مقاتلٌ والكلبيُّ [(١)].

وقيلَ: هذا ضربُ مثلٍ، قالَ الفرَّاءُ: أي: حَبَسْناهم عن الإنفاقِ في سبيلِ الله[(٢)]. وهوَ كقولِه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقيلَ: أي: منعناهم عن الإيمانِ بخَلْقِ الكفرِ في قلوبِهم.

وقيلَ: أي: هؤلاءِ صاروا في الاستكبارِ عن الحقِّ كمَن جُعلَ في يدِه غلٌّ، فجُمِعَت إلى عنقِه، فبقيَ رافعاً رأسَه لا يخفضُه وغاضّاً بصرُه لا يفتحُه، والمتكبِّرُ يُوصَفُ بانتصابِ العنقِ، ويقالُ: ما يرفَعُ بصرَه إلى أحدٍ، وهذا معنى قولِه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾.

والقمحُ يجمعُ هذين المعنيين، والإقماحُ: رفعُ الرَّأسِ وغضُّ البصرِ، يُقالُ: أقمحَ البعيرُ رأسَه، وقمَحَ يَقمَحَ على وزنِ منَعَ يمنَعَ قُمُوحاً؛ أي: رفعَ رأسَه ولم

---

(١) ذكره عنهما الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٤٥٤)، وهو في «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٧٣). وروى القصة الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٠٦) عن عكرمة مختصرة بلفظ: «قال أبو جهل: لئن رأيت محمدا لأفعلن ولأفعلن، فأنزلت: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ إلى قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ قال: فكانوا يقولون: هذا محمد، فيقول: أين هو، أين هو؟ لا يبصره.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٧٢).

يشرب الماءَ، وبعيرٌ قامحٌ، والجمعُ قِماحٌ، ويقالُ للكانُونَينِ: شهرا قِماحٍ وقُماحٍ؛ لأنَّ الإبلَ إذا وردَت الماءَ ترفعُ رؤوسَها لشدَّةِ البردِ في هذين الشَّهرينِ(١).

﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ هذا كنايةٌ عن الأيمانِ وإن لم تُذكَر؛ لأنَّ الغُلَّ يكونُ في اليُمنى والعنقِ جامعاً لهما، فاكتُفِيَ بذكرِ أحدِهما، وهوَ كقولِه: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ١٨٢]، فضمَّ الورثةَ إلى الوصيِّ ولم يجرِ لهم ذكرٌ؛ لأنَّ الصُّلحَ إنَّما يقعُ بين الوصيِّ والورثةِ، وكقولِه: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾؛ أي: الحرَّ والبردَ، وفي قراءةِ عبدِ اللهِ: (إنَّا جَعلْنا في أيمانِهم أغلالاً)(٢).

وقالَ الأزهريُّ رحمه الله: إنَّ أيديَهم لمَّا غُلَّت عند أعناقِهم رَفعَت الأغلالُ أذقانَهم ورؤوسَهم صُعُداً كالإبلِ ترفعُ رؤوسَها(٣).

وهذا المنعُ بخلقِ الكفرِ في قلوبِ الكفَّارِ، وعند قومٍ: بسلبِهم التَّوفيقَ عقوبةً لهم على كفرِهم(٤)، كما يُقالُ: أفسدتَ السَّيفَ؛ أي: تركتَ صَقلَه وتنقيتَه من الصَّدأِ ففسدَ، فهذا معنى إضافةِ ذلك إلى فعلِ اللهِ بهم.

وقيلَ: الآيةُ إشارةٌ إلى ما يُفعَلُ بأقوامٍ غداً في النَّارِ مِن وضعِ الأغلالِ في أعناقِهم وجَعْلِ السَّدِّ بينَ أيديهم، قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ

---

(١) قوله: «شهرا قماح وقماح» بوزن كتاب وغراب: أشد ما يكون البرد. انظر: «القاموس» (مادة: قمح). وفي «الصحاح»: سميا بذلك لأن الإبل إذا وردت فيهما آذاها برد الماء فقامحت، وقامحت إبلك: إذا وردت ولم تشرب ورفعت رأسها من داء يكون بها أو برد.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٧٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٧٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٥٩). قال النحاس: وهي قراءة تفسير، ولا يقرأ بما خالف المصحف.

(٣) انظر: «تهذيب اللغة» (٤/ ٥١).

(٤) وهذا تأويل المعتزلة لصرف النص الواضح البين عن ظاهره تبريراً لمذهبهم الفاسد القائم على أن الله سبحانه لا يخلق الشر.

﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ [غافر: ٧٠ ـ ٧١]، وقالَ: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ [الإسراء: ٩٧]، فالسَّدُّ مِن بين أيديهم ومِن خلفِهم مثلُ إقماحِهم(١).

ثمَّ هذا متَّصلٌ بما تقدَّمَ؛ أي: حقَّ القولُ على أكثرِهم فهم لا يُؤمنون أنَّا نجعلُ يومَ القيامةِ في أعناقِهم أغلالاً، وقد يُعبَّرُ عن المستقبلِ بلفظِ الماضي.

* * *

(٩) ـ ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا﴾ قالَ مقاتلٌ: لمَّا عادَ أبو جهلٍ إلى أصحابِه ولم يصلْ إلى النَّبيِّ ﷺ وسقطَ الحجرُ من يدِه، أخذَ الحجرَ رجلٌ آخرُ مِن بني مخزومٍ، وقالَ: أنا أقتلُه بهذا الحجرِ، فلمَّا دنا من النَّبيِّ ﷺ طمسَ الله على بصرِه فلم يرَ النَّبيَّ عليه السَّلامُ، فرجَعَ إلى أصحابِه فلم يبصرهم حتَّى نادَوه، فهذا معنى الآيةِ(٢): ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ أي: لم يرَ النَّبيَّ عليه السَّلامُ ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾؛ أي: لم يرَ أصحابَه حتَّى نادَوه.

على التَّأويلِ الآخرِ: منعناهم عن الإيمانِ كما سبقَ، فهوَ ضربُ مثلٍ.

على التَّأويلِ الثالثِ: هذا ممَّا سيكونُ يومَ القيامةِ(٣).

﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ﴾؛ أي: ألْبَسنا أبصارَهم غشاوةً وأعميناهم عن الهُدى، والمقصودُ: أغشينا أعينَهم العمى، فحُذفَ المضافُ والمفعولُ الثَّاني للعلمِ بأنَّ ما يَغشَى العينَ هوَ العمى.

---

(١) في (أ): «أحماهم»، والصواب المثبت.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٧٣).

(٣) التأويل الثالث هو ما ذكره بقوله: «وقيل: الآيةُ إشارةٌ إلى ما يُفعَلُ بأقوامٍ غداً في النَّارِ مِن وضعِ الأغلالِ في أعناقِهم وجَعْلِ السَّدِّ بينَ أيديهم...»، والتأويل الأول والثاني واضحان.

وقيلَ: جَعلُ السَّدِّ بين أيديهم وخلفِهم مَثَلٌ لتحيُّرِهم كالذي لا يجدُ منفذاً.

وقالَ الضَّحَّاكُ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾؛ أي: الدُّنيا ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾؛ أي: الآخرة[1]؛ أي: عَمُوا عن البعثِ وعَمُوا عن قَبولِ الشَّرائعِ في الدُّنيا، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥]؛ أي: زيَّنوا لهم الدُّنيا ودعَوهم إلى التَّكذيبِ بالآخرةِ، وقيلَ على هذا: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾؛ أي: اغترُّوا بالدُّنيا ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾؛ أي: كذَّبُوا بالآخرةِ.

وقيلَ: ما بين أيديهم الآخرةُ، وما خلفَهم الدُّنيا.

وقُرِئَ ﴿سَدًّا﴾ بالفتحِ والضَّمِّ[2]، وهما لغتانِ.

* * *

(١٠ ـ ١١) ـ ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾؛ أي: مَن أضلَّه اللهُ هذا الإضلالَ لم ينفعْه الإنذارُ.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾؛ أي: إنَّما ينفعُ إنذارُك مَن اتَّبعَ الذِّكرَ المنزَلَ مِن اللهِ عليك، وهوَ القرآنُ، فأمَّا مَن اتَّبعَ هواه فلا ينتفعُ بالإنذارِ.

﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: خافَ اللهَ مِن حيثُ لا يراه.

وقيلَ: خافَ اللهَ حينَ يخلو بنفسِه ويغيبُ عن أبصارِ النَّاسِ.

﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾؛ أي: برحمةٍ منَّا تنالُه.

---

(١) ذكره عنه أبو حفص النسفي في «التيسير» (١٢/ ٣٤٠).

(٢) قرأ بفتح السين الكسائي وحمزة وحفص، وباقي السبعة بضمها. انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٩)، و«التيسير» (ص: ١٨٣).

(١٢) ـ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾؛ أي: إنَّا نفعلُ هذا لا محالةَ، ومَن سمعَ أنَّ بينَ يديه محذوراً فحقُّه أن يحترزَ، لا سيَّما إذا كانَ المخبِرُ لا يجرُّ إلى نفسِه نفعاً ولا يدفعُ ضرّاً فيما يُخبِرُ به، فكيفَ وقد أقامَ المعجزاتِ الدَّالَّةَ على صدقِه؟!

وقولُه: ﴿نَحْنُ﴾ بعدَ ﴿ إِنَّا﴾ يدلُّ على تأكيدِ الخبرِ.

و﴿نَكْتُبُ﴾؛ أي: نعلمُ ونحفظُ ونأمرُ الملائكةَ بالكتابةِ.

وآثارُ المرءِ: ما يلزمُه تبعَتُه بعد موتِه، وما يخلِّفُه من الأموالِ والأولادِ، وما سنَّه في حياتِه مِن خيرٍ وشرٍّ.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾؛ أي: كلَّ شيءٍ ممَّا يقدِّمُه المرءُ ويؤخِّرُه مُثبَتٌ في اللَّوحِ المحفوظِ، ومندرِجٌ في علمِنا، والإمامُ: ما يُؤتَمُّ به، فالكتابُ الذي أُثبِتَ فيه ذِكرُ الشَّيءِ على حقيقتِه إمامٌ له يُرجَعُ إليه فيه، ويُسمَّى الطَّريقُ الواضحُ إماماً، قالَ اللهُ: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩].

وقيلَ: آثارُهم: خُطاهم في الخيرِ والشَّرِّ.

قالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ: كانَت بنو سلمةَ في ناحيةٍ من المدينةِ، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قربِ المسجدِ، فنزلَت هذه الآيةُ، فقالَ: عليه السَّلامُ «إنَّ آثارَكم تُكتَبُ»، فلم ينتقِلوا. وفي روايةٍ: أنَّه قالَ: «منازلَكم؛ فإنَّما تُكتَبُ آثارُكم»[1].

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٢٦)، وقال: «حديث حسن غريب»، ورواه مسلم (٦٦٥) لكن ليس فيه أن ذلك سبب النزول، وله شاهد ـ دون التصريح بسبب النزول أيضاً ـ من حديث أنس رضي الله عنه عند البخاري (٦٥٥) و(٦٥٦) و(١٨٨٧).

وقيلَ: معنى الآية ﴿نُحْيِ الْمَوْتَى﴾: نهدي الكفَّارَ ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ من الشِّركِ، ﴿وَآثَارَهُمْ﴾؛ أي: ما عملوه في الإسلامِ، ويتَّصلُ هذا بما قبلَه؛ أي: لا ينفعُ إنذارُكَ لهؤلاءِ الكفَّارِ لأنَّهم أمواتٌ بقلوبِهم، فلا تقدرُ أنت على إحيائِهم، إنَّما القادرُ على ذلك هوَ اللهُ، وهوَ الذي يعلمُ أعمالَهم.

وقيلَ: لما قالَ: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦] عرفْنا أنَّ اللهَ يُحيي الموتى لا محالةَ، فهوَ يُجازيهم، وينتقمُ لك منهم.

و﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ نصبٌ [بفعل مضمَرٍ يدلُّ عليه ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾، كأنه قال: وأحصينا كلَّ شيء أحصيناه، **وهو الاختيارُ**؛ لسبقه][1] بقولِه: ﴿وَنَكْتُبُ﴾، تقولُ: «ضربتُ زيداً وعمراً كلَّمتُه» فتنصبُ عَمراً لسبقِ الفعلِ، ويجوزُ الرَّفعُ على الاستئنافِ، ولم يُقرَأ هاهنا بالرَّفعِ.

﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ الإحصاءُ: العدُّ، ويكونُ العدُّ للبيانِ والحفظِ، وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾؛ أي: حفظناه[2].

***

(١٣ - ١٤) - ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾؛ أي: صِفْ شَبَهاً يا مُحمَّدُ ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ بدلٌ مِن ﴿مَثَلًا﴾؛ أي: اذكرْ لهم أصحابَ القريةِ، أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ بإنذارِ هؤلاءِ المشركين أن يحلَّ بهم ما حلَّ بأصحابِ - أهلِ - القريةِ من الكفَّارِ

---

(١) ما بين معكوفتين مستفاد من «البسيط» (١٨/ ٤٦٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٢٢).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٤٦٢).

المبعوثِ إليهم ثلاثةُ رسلٍ، إذ أنذروهم فلم يقبلوا، ثمَّ أنذرهم رجلٌ منهم فلم ينتهوا، فأهلكَهم اللهُ بصيحةٍ أرسلَها عليهم، وهذه القريةُ أنطاكيَّةُ، جاءَها رسلُ عيسى، وقيلَ: رسلٌ مِن اللهِ على الابتداءِ، وقيلَ: إنَّ عيسى بعثَ رسولين إلى أنطاكيَّةَ للدُّعاءِ إلى اللهِ، وهوَ قولُه تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾، وأضافَ الرَّبُّ ذلك إلى نفسِه؛ لأنَّ عيسى أرسلَهما بأمرِ الرَّبِّ، وكانَ ذلك حينَ رُفِعَ عيسى إلى السَّماءِ ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ قيلَ: ضربوهما وسجنوهما ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾؛ أي: فقوَّينا وشدَّدنا الرِّسالةَ برسولٍ ثالثٍ.

وقُرِئَ: ﴿فعَزَزْنا﴾ بالتَّخفيفِ[1]؛ أي: قهَرْنا وغلَبْنا.

وقيلَ: عَزَّزْنا وعَزَزْنا بمعنًى، مثلَ: شدَّدْنا وشدَدْنا.

وفي القصَّةِ: أنَّ عيسى أرسلَ إليهم رسولين، فرأيا شيخاً يَرعى غُنيماتٍ له، فدعواه إلى اللهِ فطالبَهما بالمعجزةِ، وكانَ له ابنٌ مجنونٌ، فدعوا اللهَ فشفى اللهُ ابنَه، فآمَنَ الرَّجلُ باللهِ، وقيلَ: هوَ الذي جاءَ مِن أقصى المدينةِ يسعى، وقيلَ: لما انتشرَ أمرُ الرَّسولين همَّ الملكُ بضربِهما، فانتهى الخبرُ إلى عيسى، فأرسلَ ثالثاً، وقيلَ: اسمُ الثَّالثِ شمعون، وقيلَ: إنَّه تلطَّفَ بحاشيةِ الملكِ حتَّى تمكَّنَ مِن الملكِ، فأظهَرَ موافقتَه في دينِه، فرضيَ الملكُ طريقتَه، ثمَّ قالَ يوماً للملكِ: بلغَني أنَّك حبستَ رجلينِ دَعَواكَ إلى اللهِ تعالى، فلو سألتَ عنهما: ما وراءَهما؟ فقالَ: إنَّ الغضبَ حالَ بيني وبين سؤالِهما، قالَ: فلو أحضَرْتَهما؟ فأمرَ بذلك، فقالَ لهما شمعونُ: ما برهانُكما على ما تدَّعيانِ؟ فقالا: إبراءُ الأكمَهِ والأبرصِ. فجيءِ بغلامٍ ممسوحِ العينِ، فدعوا اللهَ جهراً ودعا شمعونُ سرّاً، فصارَ كأبصَرِ ما يكونُ، فتعجَّبَ الملكُ، فقالَ: لو قدرتما على إحياءِ ميتٍ ماتَ لنا منذُ سبعةِ أيَّامٍ لآمنَّا بكما. فدعوا اللهَ جهراً ودعا شمعونُ سرّاً، فقامَ الميتُ حيّاً، وقالَ: اعلموا أنِّي متُّ كافراً، وقد أُدخِلتُ

---

(١) قرأ بها شعبة عن عاصم. انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٩)، و«التيسير» (ص: ١٨٣).

طباقَ النِّيرانِ، فآمِنُوا باللهِ؛ فإنَّ الحقَّ ما عليه هؤلاءِ، وأشارَ إلى شمعونَ والرَّسولين، فلمَّا علمَ شمعونُ أنَّ كلامَه تمكَّنَ من قلبِ الملكِ، قصَّ عليه القصَّةَ، وأخبرَه بأمرِ عيسى، فآمَنَ الملكُ، ولم يؤمِن قومُه، فصاحَ جبريلُ صيحةً ماتَ كلُّ مَن بقيَ منهم مِن الكفَّارِ(١).

***

(١٥ ـ ١٧) ـ ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ ﴾ فأنتم كاذبونَ ﴿ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ وإن كذَّبتُمونا، ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾؛ أي: إلَّا التَّبليغُ، وتبيينُ أنَّ اللهَ تعالى واحدٌ.

***

(١٨) ـ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾؛ أي: تشاءَمنا بكم، وذلك أنَّه حُبِسَ عنهم المطرُ، فقالُوا: هذا بشُؤمِكم، ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟﴾؛ أي: لئن لم تسكتُوا عنَّا، ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾؛ أي: لنقتلَنَّكم، وقيلَ: أي: لنشتمَنَّكم، وقيلَ: أي: لنعذبَنَّكم، ولنرمينَّ بكم.

---

(١) ذكره الثعلبيُّ في «تفسيره» (٢٢/ ٢٦١ ـ ٢٦٣)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١١ ـ ١٢)، وأبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» (١٢/ ٣٤٥) عن وهبٍ، وهو مما أخذه وهب من أهل الكتاب. وليس عند الثعلبي والبغوي: «ومَن لم يُؤْمِن صَاح عليهم جبريلُ فهَلَكُوا»، وذكرا بدلاً منه: وقال ابن إسحاق عن كعب ووهب: بل كفر الملك، وأجمع هو وقومه على قتل الرسل، فبلغ ذلك حبيباً وهو على باب المدينة الأقصى، فجاء يسعى إليهم ويذكِّرهم ويدعوهم إلى طاعة المرسلين، فذلك قوله سبحانه: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾.

(١٩) ـ ﴿ قَالُوا طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ قَالُوا طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾؛ أي: شُؤمُكم معكم، وقيلَ: أي: ما كانَ منكم من خيرٍ وشرٍّ فهوَ لازمٌ في أعناقِكم.

﴿أَئِن ذُكِّرْتُم ﴾؛ أي: أئن وُعِظتُم، وهوَ كلامٌ مستأنفٌ؛ أي: إن وُعِظتُم تطيَّرتُم بنا، فالجوابُ محذوفٌ دلَّ عليه الكلامُ.

قُرِئَ: ﴿ذُكِّرْتُم﴾ بالتَّشديدِ، و: ﴿ذُكِرتُم﴾ بالتَّخفيفِ(١).

وقيلَ: إنَّما تطيَّروا لِمَا بلغَهم أنَّ كلَّ نبيٍّ دعا قومَه فلم يُجيبوه كانَ عاقبةُ قومِه الهلاكَ.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾؛ أي: مشركون، والإسرافُ: مُجاوزةُ الحدِّ، والمشركُ مُجاوِزٌ الحدَّ.

* * *

(٢٠ ـ ٢١) ـ ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ قيلَ في التفسيرِ: إنَّه حبيبُ النَّجَّارُ، وكانَ آمَنَ بأولئكَ الرُّسلِ حينَ وردُوا القريةَ، وكانَ منزلُه عندَ أقصى بابٍ من أبوابِ المدينةِ، فبلغَه أنَّ القومَ همُّوا بقتلِ الرُّسلِ، فجاءَ وقالَ: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

وقيلَ: كانَ مجذوماً، وكانَ ينزلُ ناحيةً من المدينةِ، وكانَ حرَّاثاً يعملُ في زرعِه خارجَ المدينةِ.

---

(١) قرأ بها أبو جعفر من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٣٥٣).

﴿يَسْعَىٰ﴾؛ أي: يشتدُّ في مشيتِه.

وقيلَ: يقصدُ وجهَ اللهِ بالذَّبِّ عن رسلِه كقولِه: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء: ١٩]، وقوله: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

وقيلَ: هوَ ذلك الراعي الذي أبرأَ الرُّسلُ ابنَه المجنونَ.

وقيلَ: كانَ رجلاً يعبدُ اللهَ في غارٍ، فلمَّا سمعَ بالرُّسلِ جاءَهم فقالَ: أتسألونَ أجراً على ما جِئتُم به؟ فقالُوا: لا، فقالَ: لقومِه: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾، فأخذَه القومُ ورفعُوه إلى الملكِ، وقالُوا: قد تَبِعت عدوَّنا، فقالَ الرَّجلُ للرُّسلِ: ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ ـ وقيلَ: بل قالَ لقومِه: إنِّي آمنتُ بربِّكم الذي كفرتُم به ـ فوثبُوا عليه فقتلوه بأن وُطِئ بالأقدامِ حتَّى خرجَت أمعاؤُه منه.

وقيلَ: إنَّه أُلقِيَ في بئرٍ، وهي الرَّسُّ، فهم أصحابُ الرسِّ[1].

في روايةٍ: أنَّهم قتلوا الرُّسلَ الثَّلاثةَ.

﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾؛ أي: لو كانُوا مُتَّهمين لطلبوا منكم المالَ.

وقيلَ: طوَّلَ الكلامَ مع القومِ ليشغلَهم بذلك عن قتلِ الرُّسلِ.

***

(٢٢ ـ ٢٥) ـ ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾؛ أي: أيُّ شيءٍ يمنعُني مِن أن أعبدَ اللهَ الذي ابتدأَ خَلقِي وإليه مرجعُكم للجزاءِ؟ وهذا احتجاجٌ منه.

---

(١) انظر ما تقدم عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الفرقان.

﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾؛ أي: أأعبدُ ما لا يضرُّ ولا ينفعُ.

﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ ﴾ خاطَبَ الرُّسلَ ﴿فَٱسۡمَعُونِ ﴾؛ أي: كونُوا شُهودي بالإيمانِ.

وقيلَ: خاطَبَ الكفَّارَ، وقولُه: ﴿فَٱسۡمَعُونِ ﴾؛ أي: فاعلمُوا هذا منِّي.

وقيلَ: ﴿فَٱسۡمَعُونِ ﴾؛ أي: فأطيعونِ في عبادةِ اللهِ وحدَه.

* * *

(٢٦ ـ ٢٧) ـ ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ ﴾؛ أي: فلمَّا قُتِلَ في اللهِ ﴿ قِيلَ ﴾ له: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ ﴾، فلمَّا شاهدها ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴾ ليعلمُوا ما علمتُ.

﴿ بِمَا غَفَرَ لِي ﴾؛ أي: بالذي غفرَ لي ﴿رَبِّي ﴾؛ أي: بمغفرتِه، و(ما) مع الفعلِ بمنزلةِ المصدرِ، وقيلَ: (ما) بمعنى: أيّ؛ [أي]: ليتَهم يعلمونَ بأيِّ شيءٍ غفرَ لي ربِّي، قالَه الفرَّاءُ[١].

واعترضَ الكسائيُّ، فقالَ: لو صحَّ هذا لقالَ: (بمَ) مِن غيرِ ألفٍ، قالَ الفرَّاءُ: يجوزُ أن يُقالَ: (بما) ـ بالألفِ ـ وهوَ استفهامٌ، وأنشدَ فيه أبياتٍ[٢].

وفي الخبرِ أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قالَ في هذه الآيةِ: «نَصَحَ لهم في حياتِه وبعدَ موتِه»[٣].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٧٤).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٧٤ـ٣٧٥)، و«البسيط» للواحدي (١٨/ ٤٧٠)، وعنه نقل المصنف.
ووقع في (أ): «أبيات» والصواب المثبت، ولم ينشد الفراء سوى بيت واحد. والكسائي شيخ الفراء.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٤٧٠) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً. =

وفي الخبرِ: «سُبَّاقُ الأممِ ثلاثةٌ: صاحبُ يس حبيبُ النجَّارُ مؤمنُ آلِ ياسين، وحزقيلُ مؤمنُ آلِ فرعونَ، وعليُّ بنُ أبي طالبٍ، وهوَ أفضلُهم»[1].

ثمَّ لمَّا قتلُوا هذا الذي قالَ: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ عجَّلَ اللهُ لهم العقوبةَ، فسمعوا صيحةً لم تُبقِ من الكفَّارِ من أولئكَ القومِ أحداً.

قولُه تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾؛ أي: قالَت الملائكةُ له، أو قالَ اللهُ له، وقيلَ: هوَ كقولِه: ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨]؛ أي: تسيرون فيها، ولم يكن ثَـمَّ قولٌ، وفي الآيةِ إضمارٌ؛ أي: قالَ: إنِّي آمنتُ بربِّكم فاسمعون، فقيلَ له: ادخلِ الجنَّة، وإنَّما قيلَ هذا بعدَ القتلِ أو عندَ معاينةِ أسبابِ الموتِ.

وقالَ الحسنُ: لمَّا أرادَ القومُ أن يقتلوه رفعَه الله إلى السَّماءِ، فهوَ في الجنَّةِ لا يموتُ إلَّا بفناءِ السَّماءِ وهلاكِ الجنَّةِ، فإذا أعادَ اللهُ الجنَّةَ أُدخِلَها[2].

* * *

= ورواه ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» عند هذه الآية من قول ابن عباس رضي الله عنهما.
ورواه ابن مردويه كما في «الكافي الشاف» (ص: ١٤٠) ضمن قصة عروة بن مسعود رضي الله عنه لما دعا قومه ثقيفاً للإسلام فقتلوه، فقال عنه النبي ﷺ ذلك وشبهه بصاحب يس.

(١) رواه الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (١٠٧٢) و(١١١٧)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٢٦٩)، من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه عن النبي ﷺ. وفيه عمرو بن جميع البصري وهو متروك كما في «الكافي الشاف» (ص: ١٤٠). ولفظ أحمد: «الصديقون ثلاثة...».
ورواه بنحوه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٨٢)، والطبراني في «الكبير» (١١١٥٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وقال عنه ابن كثير عند تفسير هذه الآية: حديث منكر.

(٢) ذكره الكرماني في «لباب التفاسير» (٧/ ٣٧٣)، وتعقبه الآلوسي في «روح المعاني» (٢٢/ ٢٢٨) بقوله: «والجمهور على أنه قتل»، وذكر ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٥١) أن الأحاديث والروايات تواترت بذلك.

(٢٨) ـ ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: ولم ننزل على قومِ هذا الرَّجلِ المؤمنِ جُنداً مِن السَّماءِ لمَّا أردنا عقابَهم؛ لأنَّا لم نحتجْ إلى ذلك.

﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ تصغيرٌ لأمرِهم؛ أي: أهلكناهم بصيحةٍ واحدةٍ.

﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾؛ أي: مِن بعدِ ذلك الرَّجلِ، أو: مِن بعدِ قتلِه، أو: مِن بعدِ رفعِه إلى السَّماءِ، وقيلَ: لمَّا حانَ وقتُ العذابِ لم نرسل إليهم رسولاً آخرَ، بل أهلكناهم.

***

(٢٩) ـ ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: ما كانَت إلَّا صيحةً واحدةً، قُرِئَ بالرَّفعِ والنَّصبِ[1]؛ أي: ما وَقَعَت إلَّا صيحةٌ واحدةٌ، فصارَ ذلك وقتاً لخُمودِهم.

***

(٣٠) ـ ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾ النَّكرةُ في النِّداءِ تُنصَبُ، تقولُ: يا رجلاً أقبِلْ، والحسرةُ: النَّدامةُ، وإذا قلتَ: يا عجباً أتفعلُ كذا؟ فمعناه: يا عجبُ أقبِلْ فهذا أوانُكَ، فكذا قوله: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾؛ أي: ما أكثرَ ندامتَهم في الآخرةِ بسببِ استهزائِهم بالرُّسلِ في الدُّنيا.

ثمَّ بيَّنَ سببَ الحسرةِ، فقالَ: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، وبيَّنَ أنَّ أصحابَ القريةِ أبادتهم الصَّيحةُ لاستهزائِهم بالرُّسلِ، ويقالُ: بعيرٌ حسيرٌ؛ أي: لم يبقَ فيه قوَّةٌ للسَّيرِ، فالحسرةُ: بلوغُ الغايةِ في التَّلهُّفِ حتَّى يبقى القلبُ

---

(١) قرأها بالرفع أبو جعفر، وباقي العشرة بالنصب. انظر: «النشر» (٢/ ٣٥٣).

حسيراً لا موضعَ فيه لزيادةِ الحزنِ، وطرفٌ حسيرٌ؛ أي: لم يبقَ فيه قوَّةٌ للنَّظرِ.

ويجوزُ أن تكونَ الحسرةُ بمعنى التَّحسُّرِ؛ أي: يا تحسُّراً على العبادِ من أنفسِهم.

وقيلَ: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾ من قولِ الرَّجلِ الذي جاءَ من أقصى المدينةِ يسعى لمَّا وثبَ القومُ لقتلِه.

وقيلَ: إنَّ الرُّسلَ الثَّلاثةَ هم الذين قالُوا لمَّا قتَلَ القومُ ذلك الرَّجلَ الذي جاءَ من أقصى المدينةِ، وحلَّ بالقومِ العذابُ: «يا حسرةً على هؤلاءِ» كأنَّهم تمنَّوا أن يكونوا قد آمنوا.

وقيلَ: هذا من قولِ القومِ الذين حلَّ بهم العذابُ، قالُوا لمَّا قتلُوا الرَّجلَ وفارقَتْهم الرُّسلُ الثَّلاثةُ، أو قتلوا الرَّجلَ مع الرُّسلِ الثَّلاثةِ؛ على اختلافِ الرِّواياتِ: يا حسرةً على هؤلاءِ الرُّسلِ، أو: على هؤلاءِ وعلى هذا الرَّجلِ، ليتنا آمنَّا بهم في الوقتِ الذي ينفعُ الإيمانُ، وتمَّ الكلامُ على هذا، ثمَّ ابتدأ، فقالَ: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾.

* * *

(٣١) - ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾؛ أي: لتكذيبِهم الرُّسلَ، وهذا تحريضٌ على النَّظرِ ليعتبروا.

﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾؛ أي: أولم يروا أنَّهم لم يرجعوا، قُرِئَ: (إنَّهم) بالكسرِ على الاستئنافِ، وقُرِئَ: (أنَّهم) بالفتحِ[1].

---

(١) القراءة بكسر الهمزة قراءة شاذة ونسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٥ ـ ١٢٦)، و«الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٣٩٩).

(٣٢) ـ ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وإنْ كُلٌّ لَمَا جَمِيْعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرون﴾؛ أي: يُحضَرون عندنا يومَ القيامةِ للجزاءِ؛ أي: في الموضعِ الذي يكونُ فيه الحسابُ والجزاءُ، وتنقطِعُ دَعاوي الخلقِ ثَـمَّ، فلا حُكمَ لأحدٍ غيرِ الله.

﴿لَمَا﴾ بالتَّخفيفِ هاهنا وفي هودٍ والزُّخرفِ والطَّارقِ، وقرأَ حمزةُ وعاصمٌ بالتَّشديدِ(١).

قالَ الفرَّاءُ: ﴿لَّمَّا﴾ بالتَّشديدِ بمعنى (إلا) مع (إنْ)، فكأنَّها (لم) ضُمَّت إليها (ما)، فصارا جميعاً استثناءً، وخرجا من حدِّ الجحد، وصارا حرفاً واحداً، وهذا لأنَّ (إلَّا) كلمتان: (إنْ) وهي للجحدِ، و(لا) وهي للجحد، جُمِعَ بينهما فصارا استثناءً، وكذلكَ (لم) و(ما) جحدٌ إن اجتمعا، فشابها (إلَّا)(٢).

فمَن قرأ: ﴿لَمَا﴾ بالتَّخفيفِ قالَ: ﴿إنْ﴾ حرفُ تأكيدٍ، ومَن قرأ بالتَّشديدِ قالَ: ﴿إنْ﴾ بمعنى الجحدِ؛ أي: ما كلٌّ إلَّا لجميعٌ، كقولِه: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾ [المؤمنون: ٢٥].

***

(٣٣) ـ ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ ذكَرَ آيةً أخرى تدلُّ على كمالِ قدرتِه، وهي الأرضُ الميتةُ أحياها بالنَّباتِ وإخراجِ الحبِّ منها ﴿فَمِنْهُ﴾؛ أي: من الحبِّ ﴿يَأْكُلُونَ﴾ وبه يتغذَّون.

---

(١) وقرأ بتشديد الميم أيضاً ابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ١٢٦).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٧٦).

(٣٤) - ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ﴾؛ أي: في الأرضِ بساتينَ من نخيلٍ ﴿وَأَعْنَٰبٍ﴾ وخصَّهما بالذِّكرِ لأنَّهما أعلى الثِّمارِ.

﴿وَفَجَّرْنَا﴾؛ أي: شقَقْنا من الأرضِ وفي هذه الجنَّاتِ عيونَ الماءِ.

* * *

(٣٥) - ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ قال أبو عُبيدةَ: قد تذكُرُ العربُ اثنين، ثمَّ تقتصرُ على الخبرِ عن أحدِهما، كقولِه: ﴿يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ [التوبة: ٣٤]، فلهذا قالَ: ﴿مِن ثَمَرِهِۦ﴾ وإن ذكَرَ النَّخيلَ والأعنابَ، ولفظُ النَّخيلِ مذكَّرٌ[١].

وقالَ الجرجانيُّ: ﴿مِن ثَمَرِهِۦ﴾ ترجعُ الكنايةُ إلى مُضمَرٍ مرادٍ في اللَّفظِ، وهوَ الماءُ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ تقديرُه: وفجَّرنا ماءً من العيونِ ليأكلُوا من ثمرِه؛ لأنَّ الثِّمارَ لا تكونُ إلَّا بالماءِ[٢].

وقيلَ: أي: ليأكلوا من ثمرِ ما ذكرنا، كما قالَ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ [النحل: ٦٦].

﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ (ما) للجحدِ؛ أي: ولم[٣] تعملْه أيديهم؛ لأنَّهم لم يُخرِجوا الجنَّاتِ والنَّباتَ مِن الأرضِ، بل فعلَ اللهُ ذلك.

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١٦١).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٤٧٨ - ٤٧٩).

(٣) في (أ): «وإن لم»، والصواب المثبت. انظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٤١).

وقيلَ: (ما) بمعنى: الذي؛ أي: ليأكلوا مِن ثمرِه ومِن الذي عملَت أيديهم مِن الثِّمارِ ومِن أصنافِ الحلاواتِ والأطعمةِ وممَّا اتَّخذُوا مِن أيديهم مِن الثِّمارِ والحبوبِ بعلاجٍ كالخُبزِ والدُّهنِ المستخرَجِ من السُّمسمِ والزَّيتونِ. وقيلَ: يرجعُ ذلك إلى ما يغرسُه النَّاسُ، وقولُه: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ﴾ يرجعُ إلى ما لم يغرسْه النَّاسُ ولم يُعالجوه. وقيلَ: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: ما حرثوه.

وقُرِئَ: ﴿وما عَمِلَتْ أيديهم﴾ مِن غيرِ هاءٍ[1].

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؛ أي: هذه النِّعمَ.

* * *

(٣٦) ـ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ نزَّهَ نفسَه عن قولِ الكفَّارِ إذ عبدوا غيرَه مع ما رأوه من نعمِه وآثارِ قدرتِه، وفيه تقديرُ الأمرِ؛ أي: سبِّحوه ونزِّهوه عمَّا لا يليقُ به.

وقيلَ: فيه معنى التَّعجُّبِ؛ أي: عجباً لهؤلاءِ في كفرِهم مع ما يشاهدونَه في هذه الآياتِ، ومَن تعجَّبَ من شيءٍ قالَ: «سبحانَ اللهِ».

والأزواجُ: الأنواعُ والأصنافُ، وكلُّ صنفٍ زوجٌ؛ لأنَّه مختلفٌ في الألوانِ والطُّعومِ والأشكالِ والصِّغرِ والكبرِ، فاختلافُها هوَ ازدواجُها.

﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: ممَّا تخرجُه الأرضُ؛ لأنَّه أصنافٌ ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: مِن البشرِ ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: مِن أصنافِ خَلقِه في البرِّ والبحرِ والسَّماءِ

---

(١) قرأ بها حمزة والكسائي وشعبة. انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٠)، و«التيسير» (ص: ١٨٤).

والأرضِ، ثمَّ يجوزُ أن يكونَ ممَّا يخلقُه ممَّا لا يعلمُه البشرُ وتعلمُه الملائكةُ، ويجوزُ أن لا يعلمَه مخلوقٌ.

ووجهُ الاستدلالِ في الآيةِ: أنَّه إذا انفردَ بالخَلقِ فلا ينبغي أن يُشرَكَ به، وخلقَ الأشياءَ أزواجاً ليُعرَفُ فضلُ البعضِ على البعضِ كما يُعرَفُ فضلُ الحلوِ بالمرِّ.

* * *

(٣٧) ـ ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ ﴾؛ أي: ومِن آياتِ قدرتِه: انتظامُ الَّليلِ والنَّهارِ وتكرُّرُهما على النَّاسِ.

﴿نَسۡلَخُ﴾؛ أي: ننزعُ، فتَجيءُ الظُّلمةُ، يُقالُ: سلخَه اللهُ من دينِه، والسَّلخُ كَشْطُ الإهابِ، ثمَّ يُستعمَلُ بمعنى الإخراجِ، وقد جُعِلَ ذهابُ الضَّوءِ وظهورُ الظُّلمةِ كالسَّلخِ مِن الشَّيءِ وظهورِ المسلوخِ.

﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾؛ أي: داخلونَ في ظلمةِ الَّليلِ، ويُقالُ: أظْلَمنا؛ أي: دخلنا في ظلامِ الَّليلِ، وأظْهَرنا: دخلنا في وقتِ الظُّهرِ، وكذلكَ: أصْبَحنا وأضْحَينا وأمْسَينا.

* * *

(٣٨) ـ ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ﴾ يعني: تجري إلى أبعدِ منازلِها في الغروبِ؛ لأنَّها لا تزالُ تتقدَّمُ في كلِّ ليلةٍ حتَّى تنتهيَ إلى أقصى مغاربِها ثمَّ ترجعُ، فمستقرُّها[1]: بلوغُها الموضعَ الذي لا تُجاوزُه، بل ترجعُ منه، كالإنسانِ يقطعُ مسافةً حتَّى يبلغَ إلى أقصى مقصودِه، فيقضي وطرَه، ثمَّ يرجعُ إلى منزلِه الأوَّلِ الذي منه

---

(١) في (أ): «المستقرها»، والمثبت من «تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٤٤)، وما سيأتي بين معكوفتين منه.

ابتدأ سفرَه، وعلى هذا تبلغُ الشَّمسُ أقصى منازلِها وهوَ مستقرُّها إذا طلعَت الهَنْعَةُ، وذلك اليومُ أطولُ الأيَّامِ في السَّنةِ، وتلك اللَّيلةُ أقصرُ اللَّيالي، فالنَّهارُ خمسَ عشرَةَ ساعةً، واللَّيلُ تسعُ ساعاتٍ، ثمَّ تأخذُ في النُّقصانِ، وترجعُ الشَّمسُ، فإذا طلعَت الثُّريا استوى اللَّيلُ والنَّهارُ، وكلُّ واحدٍ ثنتا عشرةَ ساعةً، ثمَّ تبلغُ أدنى منازلِها، وتطلعُ النَّعائمُ، وذلك اليومُ أقصرُ الأيَّامِ، واللَّيلُ [خمسَ عشرةَ ساعةً، حتَّى إذا طلعَ فرغُ الدَّلوِ المؤخَّرِ استوى اللَّيلُ] والنَّهارُ، فيأخذُ اللَّيلُ من النَّهارِ كلَّ يومٍ عُشرَ ثلثِ ساعةٍ، وكلَّ عشرةِ أيَّامٍ ثلثَ ساعةٍ، وكلَّ شهرٍ ساعةً تامَّةً، حتَّى يستويا، ويأخذُ اللَّيلُ حتَّى يبلغَ خمسَ عشرةَ ساعةً، ويأخذُ النَّهارُ من اللَّيلِ كذلك.

وقيلَ: تجري إلى المستقرِّ في كلِّ ليلةٍ كما روى أبو ذرٍّ عن النَّبيِّ ﷺ في هذه الآيةِ، وقالَ: «مستقرُّها تحتَ العرشِ»[1].

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: إنَّها إذا غربَت وانتهَت إلى الموضعِ الذي لا تُجاوزُه استقرَّت تحتِ العرشِ إلى أن تطلعَ[2].

وقالَ الحسنُ: إنَّ للشَّمسِ في السَّنةِ ثلاثَ مئةٍ وستينَ مَطْلِعاً، تنزلُ في كلِّ يومٍ مطلعاً ثمَّ لا تنزلُه إلى الحولِ، فهي تجري في تلك المنازلِ، فهي مستقرُّها[3].

---

(١) رواه البخاري (٤٨٠٣)، ومسلم (١٥٩).

(٢) هذا معنى قول ابن عباس على ما جاء عند الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٤٨٣)، حيث قال عقب حديث أبي ذر السابق: وهو قول ابن عباس قال: «يريد تحت عرش الرحمن»، وعلى هذا هي إذا غربت كل نهار استقرت تحت عرش الرحمن إلى أن تطلع. هذا كلام الواحدي، والظاهر أنه يعني به حديث أبي ذر وقول ابن عباس كلاهما.

(٣) ذكره عنه أبو حفص النسفي في «التيسير» (١٢/ ٣٥٩)، والقرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٨). وروي نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما، رواه سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (٨/ ١٧٠)، والطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٢٨٣)، بلفظ: «إن الشمس تطلع من ثلاث مئة وستين مطلعًا، تطلع =

وقيلَ: تجري إلى أجَلٍ لها لا تَعْدُوه، فمستقرُّها إذا انتهى سيرُها عند انقضاءِ الدُّنيا، وعلى هذا فالمستقرُّ بمعنى الاستقرارِ؛ أي: تجري إلى استقرارِها في الوقتِ المعلومِ.

وقرأ ابنُ عبَّاسٍ (والشَّمسُ تجري لا مُستقرَّ لها)(١)؛ أي: لا استقرارَ لها في الدُّنيا إلى أن يكوِّرَها اللهُ يومَ القيامةِ.

وقولُه: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾؛ أي: إلى مُستقرٍّ، والمستقرُّ: مكانُ الاستقرارِ.

﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الذي ذُكِرَ من أمرِ اللَّيلِ والنَّهارِ والشَّمسِ ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

* * *

(٣٩) - ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿والقَمرُ قدَّرْناهُ مَنازِلَ﴾، قُرِئَ بالرَّفعِ؛ أي: وآيةٌ لهم القمرُ؛ أي: ﴿القمرُ﴾ ابتداءٌ، و﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾ الخبرُ، وقُرِئَ: ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ بالنَّصبِ(٢)؛ أي: وقدَّرنا القمرَ قدَّرناه، والتَّقديرُ: قدَّرناه ذا منازلَ، فحُذفَ المضافُ، ومنازلُ القمرِ معروفةٌ، فهوَ ينزلُ كلَّ ليلةٍ منزلاً، فيقطعُ الفلكَ في ثمانٍ وعشرين ليلةً، ثمَّ يستترُ، ثمَّ يطلعُ هلالاً، فيعودُ في قطعِ الفلكِ على المنازلِ كما مضى.

= كل يوم من مطلع لا تعود فيه إلى قابل، ولا تطلع إلا وهي كارهة».

(١) ونسبت أيضًا لابن مسعود وعكرمة وعطاء بن أبي رياح وأبي جعفر محمد بن علي وأبي عبد الله جعفر بن محمد وعلي بن الحسين. انظر: «تفسير يحيى بن سلام» (٢/ ٨٠٨)، و«فضائل القرآن» لأبي عبيد (ص: ٣١٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٨٧)، و«معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٤٩٣)، و«المحتسب» (٢/ ٢١٢)، و«تفسير الثعلبي» (٢٢/ ٢٧٦)، و«البحر المحيط» (١٨/ ١٠٨).

(٢) بالرفع ابن كثير ونافعٌ وأبو عمرو، والباقون بالنصب. انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٠)، و«التيسير» (ص: ١٨٤).

﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾؛ أي: صارَ، يُقالُ: عادَ فلانٌ من المرضِ كالشَّنِّ؛ أي: صارَ.

﴿كَٱلْعُرْجُونِ﴾ قالَ الزَّجَّاجُ: هوَ عودُ العِذقِ الذي عليه الشَّماريخُ، وهوَ فُعْلُونٌ من الانعراجِ[1]؛ أي: صارَ في منازِله حتَّى صارَ كالعُرجونِ، وعلى هذا فالنُّونُ زائدة.

وقالَ الخليلُ في بابِ الرُّباعيِّ: العرجونُ أصلُ العِذقِ، وهوَ أصفرُ عريضٌ يُشبَّهُ به الهلالُ إذا انحنى[2]، والعَرْجنةُ: تصويرُ عراجينِ النَّخلِ[3].

* * *

(٤٠) ـ ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾؛ أي: خلقتُها بحيثُ لا تدركُ الشَّمسُ القمرَ فيغلبَ ضوؤُها ضوءَه فتذهبَ آيةُ اللَّيلِ وتصيرَ الأوقاتُ كلُّها نهاراً ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ فيجيءَ قبلَ وقتِه، إلى أن يُجمعَ بينَ الشَّمسِ والقمرِ يومَ القيامةِ، كما قالَ: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩]، وإنَّما هذا التَّعاقُبُ الآنَ لتتمَّ مصالحُ النَّاسِ، وليُعلَمَ عددُ السِّنين والحساب، ويكونَ اللَّيلُ للإجمامِ والاستراحةِ والنَّهارُ للتَّصرُّفِ، فقولُه: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: غالبُ النَّهارَ، يُقالُ: سبقَ فلانٌ فلاناً؛ أي: غلبَه.

﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾؛ أي: في فلكِه مسخَّرٌ، ومَن انبسطَ في شيءٍ فقد سبحَ فيه، ومنه السِّباحةُ في الماءِ، وأخبرَ عنها بما يُخبَرُ به عمَّا يَعقلُ كقولِه: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٨٧).

(٢) في «العين»: «انمحق».

(٣) انظر: «العين» (٢/ ٣٢٠).

وقالَ الحسنُ: عنى أنَّ الشَّمسَ لا تدركُ القمرَ ليلةَ الهلالِ[1]؛ أي: لا تبقى حتَّى يطلعَ القمرُ، ولكن إذا غربَتِ الشَّمسُ طلعَ القمرُ.

وقيلَ: بيَّنَ بهذا أنَّ القمرَ أسرعُ قطعاً للفَلَكِ من الشَّمسِ، فالشَّمسُ لا تدركُه، والَّليلُ لا يسبقُ النَّهارَ: لا يجيءُ في غيرِ الوقتِ المقدَّرِ له.

والفَلَكُ اسمٌ للشَّيءِ المستديرِ، ومنه: فَلْكةُ المِغزلِ، وتفلَّكَ ثديُ المرأةِ، ووصفُ هذه الأشياءِ بالسِّباحةِ توسُّعٌ، وهوَ كما يُقالُ: تحرَّكَت الشَّجرةُ؛ أي: حُرِّكَت.

* * *

(٤١) ـ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ قيلَ: أرادَ به سفينةَ نوحٍ عليه السَّلام؛ أي: مَنَنَّا على أسلافِ هؤلاءِ بالإسلامِ وجعلناهم في سفينةِ نوحٍ، ونشرَ اللهُ منهم هذا الخلقَ، ووصفَ السَّفينةَ بأنَّها كانَت مشحونةً مملوءةً بما يُحتاجُ إليه مِن النَّاس وغيرِهم، والذُّرِّيَّةُ: الأولادُ وأولادُهم، كانُوا في أصلابِ مَن حُمِلَ مع نوحٍ.

وقيلَ: المرادُ بالذُّرِّيَّةِ: الآباءُ والأجدادُ؛ أي: حمَلْنا آباءَهم في سفينةِ نوحٍ، فالذُّرِّيَّةُ تقعُ على الآباءِ بدليلِ هذه الآيةِ، وهي مِن ذرأ اللهُ الخَلقَ، فالولدُ ذُرِئَ من الأبِ، والأبُ ذُرِئَ منه الولدُ.

وقيلَ: مِن آياتِ قدرتِه أنَّا سخَّرنا لهم الفُلْكَ يحملونَ ذرِّيتَهم وأولادَهم فيه، ويسافرونَ في البحرِ، وليس يريدُ سفينةَ نوحٍ على التَّخصيصِ.

قُرِئَ: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ و﴿ذُرِّيَّاتِهم﴾[2].

---

(١) رواه عنه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٤٨١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٩٥).

(٢) قرأ نافع وابن عامر بالجمع وكسر التاء والباقون بالتوحيد وفتح التاء. انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٠)، و«التيسير» (ص: ١٨٤).

(٤٢) ـ ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ إن حملنا الفلكَ على سفينةِ نوحٍ فالمعنى: خلقنا لهؤلاءِ المشركين الذين حملناهم في سفينةِ نوحٍ مِن مثلِ ذلك الفلكِ ما يركبونَه في أسفارِهم؛ أي: علَّمناهم اتِّخاذَ السُّفنِ.

وعلى هذا القولُ الثَّاني؛ أي: خلَقْنا لأصحابِ الذُّرِّيَّةِ ـ وهم البالغون ـ مِن مثلِ ذلك الفُلكِ ما يركبونَه فيقطعونَ عليه المسافاتِ البعيدةِ.

وقيلَ: أي: وخلقنا لهم من مثلِه الإبلَ؛ فإنَّها تحمِلُ في البرِّ كما تحمِلُ السَّفينةُ في البحرِ.

* * *

(٤٣) ـ ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾؛ أي: في البحرِ، ترجعُ الكنايةُ إلى أصحابِ الذُّرِّيَّةِ أو إلى الجميعِ.

﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾؛ أي: لا مُغيثَ لهم ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾؛ أي: ولا أحدَ يُنقِذُهم من عذابي، والصَّريخُ: المغيثُ.

* * *

(٤٤) ـ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلَّا أن نرحمَهم ونمتِّعَهم إلى آجالِهم، وإنَّ اللهَ تعالى عجَّلَ عذابَ الأممِ السَّابقةِ، وأخَّرَ عذابَ أمَّةِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ وإن كذَّبوه ـ إلى الموتِ والقيامةِ.

* * *

(٤٥) ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾؛ أي: اتَّقُوا ما سلفَ قبلَكم من وقائعِ اللهِ في الأممِ المكذِّبةِ للأنبياءِ، واتَّقوا ما خلفَكم من العذابِ أن يحلَّ بكم غداً.

وقيلَ: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ من الآخرةِ فاعملُوا لها ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ يعني: الدُّنيا، فلا تغترُّوا بها.

و[قيلَ][1]: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ من عذابِ الآخرةِ ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾؛ أي: ما سلفَ مِن العقوباتِ أن تحلَّ بكم.

وقيلَ: اتَّقوا عقوبةَ ما تقدَّمَ مِن كفرِكم، واتَّقوا ما أنتم فيه من الكفرِ، وما أنتم عازمون عليه.

وقيلَ: اتَّقوا الكفرَ بآياتِ اللهِ التي نزلَت قبلَكم، وبآياتِه التي نزلَت بعدَ خلقِكم، وآمِنوا بهما جميعاً.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ أي: لتُرحَموا.

* * *

(٤٦) ـ ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ جوابُ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ محذوفٌ؛ أي: وإذا قيلَ لهم آمِنوا أعرَضوا؛ لأنَّه قالَ في هذه الآيةِ: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، فاكتفى بهذا عن ذلك.

* * *

(١) زيادة لا بد منها لاقتضاء السياق.

(٤٧) ـ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾؛ أي: تصدَّقُوا على الفقراءِ قالُوا ﴿أَنُطْعِمُ﴾؛ أي: أنرزقُ ـ كقولِه: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]؛ أي: يَرزقُ ولا يُرزقُ ـ ﴿مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ كانَ بلغَهم مِن قولِ المسلمين: أنَّ الرَّزَّاقَ هوَ اللهُ، فقالُوا: أنرزقُ مَن لو يشاءُ اللهُ أغناه؟!

وقيلَ: قالُوا هـذا تعلُّقاً بقولِ المؤمنين لهم: ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: وإذا كانَ اللهُ تعالى رزقَنا، وهوَ قادرٌ على أن يرزقَهم، فلمَ يَلتمسونَ الرِّزقَ منَّا؟! وكانَ هذا الاحتجاجُ باطلاً؛ لأنَّ اللهَ تعالى إذا ملَّكَ عبداً مالاً، ثمَّ أوجَبَ عليه فيه حقّاً، فكأنَّه انتزعَ ذلك القَدْرَ منه، فلا معنى للاعتراضِ، وقد صدَقُوا في قولِهم: (لو يشاءُ اللهُ أطعمَهم)، ولكنْ كذَبوا في الاحتجاجِ، ومثلُه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقولُه: ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: في سؤالِ المالِ منَّا، أو في اتِّباعِكم محمَّداً.

﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: في خطأٍ بيِّنٍ.

وقيلَ: هذا من قولِ اللهِ تعالى لهم.

وقيلَ: نزلَت الآيةُ في قومٍ مِن الزَّنادقةِ(١)، وقد كانَ فيهم أقوامٌ يتزندقون فلا يُؤمنونَ بالصَّانعِ، فاستهزؤوا بالمسلمينِ بهذا القولِ.

* * *

(١) ذكره السمعاني في «تفسيره» (٤/ ٣٨١) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤٨ ـ ٤٩) ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ لمَّا قيلَ لهم: ﴿ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قالُوا: متى هذا العذابُ؟ وكانَ هذا استهزاءً منهم أيضاً؛ أي: لا تحقيقَ لهذا الوعيدِ، واللهُ أعلمُ.

قولُه تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: ما ينتظرونَ إلَّا صيحةً تُرسَلُ عليهم فيَهْلِكون عندها.

﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾؛ أي: يتخاصمون في معاملاتِهم وأسواقِهم، فتأخذُهم السَّاعةُ بغتةً، فيموتون في أمكنتِهم من غيرِ إمهالٍ لتوصيةٍ والرُّجوعِ إلى أهلٍ.

قُرِئَ: ﴿يَخَصَّمُونَ﴾ بفتحِ الخاءِ وتشديدِ الصَّادِ؛ أي: يَختصِمون، فأُلقِيَت حركةُ التَّاءِ على الخاءِ.

وقُرِئَ بكسرِ الخاءِ، ووجهُه: أنَّه حُرِّكَ الخاءُ بالكسرِ لالتقاءِ السَّاكنينِ، ولم تُلقَ حركةُ التَّاءِ على فاءِ الكلمةِ.

وقُرِئَ ساكنةَ الخاءِ مخفَّفَةَ الصَّادِ، وهوَ يَفْعِلون من الخُصومةِ؛ أي: وهم يتكلَّمون ويُخاصِمون مَن وعدَهم السَّاعةَ؛ أي: يَغلِبونَ ـ فيما يظنُّونَ ـ مَن قالَ لهم: إنَّ السَّاعةَ آتيةٌ، تقولُ: خاصمتُه فخَصَمْتُه؛ أي: غلبتُه.

وقُرِئَ بالجمعِ بينَ ساكنين: الخاءِ والحرفِ المدغَمِ[1].

---

(١) قرأ ورش وابن كثير وهشام: ﴿يَخَصِّمون﴾ بفتح الخاء وتشديد الصاد.
وابن ذكوان وعاصم والكسائي: ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بكسر الخاء وتشديد الصاد.
وحمزة: ﴿يَخْصِمون﴾ بإسكان الخاء وتخفيف الصاد.
وقالون في أحد وجهيه: ﴿يَخْصِّمون﴾ بإسكان الخاء وتشديد الصاد. وهو المراد بالجمع بين ساكنين. =

قالَ الزَّجَّاجُ: وهوَ أشدُّ الوجوهِ على اللِّسانِ وأردؤُها[1].

***

(٥٠) ـ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾؛ أي: إذا جاءتهم السَّاعةُ بغتةً لم يستطيعوا الوصيَّةَ والرُّجوعَ إلى الأهلِ، فالتَّوصيةُ لمن كانَ حاضراً عندَ أهلِه، والرُّجوعُ لمن كانَ بعيداً من أهلِه.

وهذه الصَّيحةُ التي وصفَها في قولِه: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً﴾ هي النَّفخةُ الأُولى، وعندها يموتُ الخلقُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، ثمَّ مِن بعدِها النَّفخةُ الأُخرى للبعثِ.

***

(٥١) ـ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ يعني: النَّفخةَ الثَّانيةَ، ﴿فَإِذَا هُم﴾؛ أي: إذا جميعُ النَّاسِ، ومنهم المشركون ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾؛ أي: مِن القبورِ، والواحدُ: جَدَثٌ، يُقالُ: جَدَثٌ وجَدَفٌ بمعنًى.

﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾؛ أي: يَخرجونَ بسرعةٍ، يُقالُ: عَسَلَ الذِّئبُ ونَسَلَ، يعسِلُ وينسِلُ، مِن بابِ ضَرَبَ يضرِبُ، ويُقالُ: ينسُلُ بالضَّمِّ أيضاً، وهوَ الإسراعُ في

= وأبو عمرو وقالون في وجهه الآخر باختلاس فتحة الخاء وتشديد الصاد. والياء مفتوحة للجميع. انظر: «السبعة» (ص: ٥٤١)، و«التيسير» (ص: ١٨٤)، و«النشر» (٢/ ٣٥٤)، و«البدور الزاهرة» (ص: ٢٦٦).

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٨٩).

المشي، وفي الخبرِ: شكونا إلى النَّبيِّ ﷺ الضَّعفَ، فقالَ: «عليكم بالنَّسَلِ»[1]؛ أي: بالإسراعِ في المشيِ؛ فإنَّه ينشِّطُ.

ويقالُ: نَسَلَ ينسُلُ - بالضَّمِّ - نُسُولاً؛ أي: خرجَ مِن الشَّيء، ومنه: نَسِيلُ الدَّابَّةِ أيَّامَ الربِّيعِ، إذا سقطَ الشَّعرُ عن جسدِها شيئاً فشيئاً، ويقالُ لِمَا يتساقطُ: النُّسالةُ.

***

(٥٢) - ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ قيلَ: يُرفَعُ عنهم العذابُ فيما بينَ النَّفخَتين فيَرقدون، فلهذا يقولونَ: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾؟

وقالَ أبيُّ بنُ كعبٍ: ينامونَ قبلَ البعثِ نومةً[2].

﴿بَعَثَنَا﴾؛ أي: أيقظَنا وأقامَنا، وإنَّما يَدعون بالويلِ لِمَا يرونَ من آثارِ العذابِ والحسابِ، والويلُ كلمةٌ تدلُّ على تمنِّي أن ما كانَ من الحادثِ لم يكن.

---

(١) رواه البزار كما في «كشف الأستار» (١٦٦٣)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٥٣٧)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٨١٠٢)، والحاكم في «المستدرك» (٢٤٩١) وصححه، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠٤٤١)، عن جابر بن عبد الله قال: شكا ناس إلى رسول الله ﷺ المشي فدعا بهم، وقال: «عليكم بالنسلان»، فنسلنا، فوجدناه أخف علينا.

ورواه ابن قتيبة في «غريب الحديث» (١/ ٥١٧) عن ابن عيينة مرسلاً ولفظه: «وحدثني أبي حدثني محمد بن عبيد عن معاوية بن عمرو عن أبي إسحق عن ابن عينية عن رجل أن النبي ﷺ مر بأصحابه وهم يمشون، فشكوا الإعياء، فأمرهم أن ينسلوا».

وذكره بلفظ المصنف: الأزهري في «تهذيب اللغة» (١٢/ ٢٩٧)، والهروي في «الغريبين» (مادة: نسل)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ٥٠٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٥٦)، والفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٧/ ٦٣).

وقيلَ: يقولونَ ذلك لأنَّهم إذا رأوا أهوالَ القيامةِ هانَ عليهم ما كانُوا فيه من عذابِ القبرِ، حتَّى كأنَّ ذلك كانَ كالنَّومِ في جنبِ هذا الذي رأوه.

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ أي: يقولُ المشركون عند ذلك: هذا ما وُعِدنا فكذَّبنا به.

وقيلَ: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ من قولِ الملائكةِ لهم.

وقيلَ: من قولِ المؤمنين لهم.

ووقَفَ قومٌ على قولِه: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا﴾، ثمَّ ابتدؤوا: ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ أي: فيُقالُ لهم: ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ أي: بعثُكم وَعْدُ الرَّحمنِ، أو: وحقٌّ ما وَعَدَ الرَّحمنُ.

* * *

(٥٣ ـ ٥٤) ـ ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: ما كانَت إعادتُهم إلَّا صيحةً واحدةً بالنَّفخِ في الصُّورِ، وهوَ كقولِه: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧].

وقيلَ: أي: إن كانَت النَّفخةُ في الصُّورِ إلَّا صيحةً واحدةً.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾؛ أي: لا تُنقَصُ من ثوابِ عملٍ.

* * *

(٥٥) ـ ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾؛ أي: كلُّ نُجازي بما يستحقُّ، فأصحابُ الجنَّةِ وهم المستحقُّون للثَّوابِ يكونون في الجنَّةِ ﴿فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾، فهذا جزاؤُهم، لا في شُغلٍ ممَّا فيه أهلُ النَّارِ مِن العذابِ.

وقيلَ: شُغِلوا بملاذِّهم عن أهلِ النَّارِ فلا يشغَلونَهم.

قُرِئَ بسكونِ الغَينِ وبضمِّها، وهما لغتان[1].

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: شَغَلَهم افتضاضُ الأبكارِ[2].

وقيلَ: السَّماعُ.

وقيلَ: زيارةُ بعضِهم بعضاً.

﴿فَـٰكِهُونَ﴾؛ أي: ناعمون، والفُكاهةُ: المزاحُ والكلامُ الطَّيِّب.

وقُرِئَ: ﴿فَكِهُونَ﴾[3]، والفَكِهُ: الطَّيِّبُ النَّفسِ الضَّحوكُ، والفَكِهُ والفَاكِهُ بمعنًى.

قالَ أبو عبيدةَ: الفَكِهُ: صاحبُ الفاكهةِ، يُقالُ: فلانٌ فاكِهٌ[4]؛ أي: كثيرُ الفاكهةِ كاللَّابِنِ والتَّامِرِ، وذو الفاكهةِ ناعمٌ، فلهذا قيلَ في التَّفاسيرِ: الفاكِهُ: النَّاعمُ.

وقيلَ: الفاكِهُ: المُعجَبُ، وهوَ مِن قولِهم: تفكَّهْنا من كذا؛ أي: تعجَّبْنا، ومنه: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾؛ أي: تَعجَّبُون.

* * *

---

(١) بالسكون قرأ ابن كثير ونافعٌ وأبو عمرو، والباقون بالضم. انظر: «السبعة» (ص: ٥٤١)، و«التيسير» (ص: ١٨٤).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٦٠)، وابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٧/ ٦٤).

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٦٠)، وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (٢٦٤) وعبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في زوائد «الزُّهْد» وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٧/ ٦٤)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) بكسر الكاف أبو جعفر، و﴿فَـٰكِهُونَ﴾ قراءة باقي العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٣٥٣).

(٤) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١٦٣)، وعبارته: «الفكه الذي يتفكه تقول العرب للرجل إذ كان يتفكه بالطعام أو بالفاكهة أو بأعراض الناس: إن فلانا لفكه بأعراض...».

(٥٦) ـ ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾؛ أي: حلائلُهم من الحورِ العينِ.

وقيلَ: هم ونساؤُهم المؤمناتُ في الدُّنيا.

ويُحتمَلُ أنَّه أرادَ الصِّنفينِ.

وقيلَ: ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾؛ أي: أخلَّاؤُهم؛ كقولِه: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]؛ أي: قُرناءَهم.

﴿فِي ظِلَالٍ﴾؛ أي: في أكنانِ القصورِ لا يَضحَونَ، والظِّلالُ: جمعُ الظِّلِّ، وقيلَ: جمعُ ظُلَّةٍ مثل قِلالٍ وقُلَّةٍ، وقرأَ الكسائيُّ وحمزةُ: ﴿في ظُلَلٍ﴾[1]، وهي جمعُ ظُلَّةٍ مثلَ غُرفةٍ وغُرَفٍ.

﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ واحدُها: أريكةٌ، وهي الفُرشُ في الحِجالِ، وقالَ المفسِّرون: الأرائكُ: السُّرُرُ عليها الحِجالُ.

* * *

(٥٧) ـ ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾؛ أي: يتمنَّونَ، يُقالُ: ادَّعِ ما شئتَ عليَّ؛ أي: تمنَّ، وقيلَ: أي: كلُّ ما يَدعو به أهلُ الجنَّةِ يأتيهم، والادِّعاءُ: افْتِعَالٌ من الدُّعاء، فـ﴿يَدَّعُونَ﴾ بمعنى: يَدْعونَ.

* * *

(٥٨) ـ ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ ﴿سَلَامٌ﴾ بدلٌ مِن ﴿مَا﴾؛ أي: لهم ما

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٢)، و«التيسير» (ص: ١٨٤).

يتمنَّون سلام، وهذا مُنى أهلِ الجنَّةِ، وهوَ أن يسلِّمَ اللهُ عليهم، و﴿قَوْلًا﴾ نصبٌ على معنى: لهم سلامٌ يقولُه اللهُ قولاً. وروى جابرٌ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «إنَّ اللهَ يُشرفُ على أهلِ الجنَّةِ فيقولُ: السَّلامُ عليكم يا أهلَ الجنَّةِ، فذلكَ قولُه: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾»(١).

وقيلَ: أي: لهم ما يتمنَّونه سلامٌ لهم؛ أي: سالمٌ خالصٌ لا يزاحمُهم فيه، ﴿قَوْلًا﴾؛ أي: خالصٌ لهم وعداً مِن اللهِ وقولاً لا خلفَ فيه، وارتفعَ ﴿سَلَٰمٌ﴾ على هذا القولِ لأنَّ المعنى: ما يدعونه فهو لهم ﴿سَلَٰمٌ﴾؛ أي: سالمٌ، كما يُقالُ: أنت طلاقٌ؛ أي: طالقٌ، وانتصبَ على هذا قوله: ﴿قَوْلًا﴾ على الخروجِ ممَّا قبلَه، كما تقول: هذا لك حقّاً؛ أي: لهم ما يدَّعون خالصٌ حقّاً، أو: خالصٌ أقولُ هذا قولاً حقّاً.

***

(٥٩) - ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ قيلَ: هذا عند الوقوفِ للسُّؤال، فيُؤمَرُ بأهلِ الجنَّةِ إلى الجنَّةِ، ويُقالُ للكفَّارِ: تميَّزوا منهم واخرجوا من جملتِهم، يُقالُ: مِزتُ الشَّيءَ من الشَّيءِ أَمِيزه؛ أي: عزلتُه عنه، فانمازَ وامتازَ.

وقالَ الضَّحَّاكُ: هوَ أن يُفردَ لكلِّ واحدٍ من أهلِ النَّارِ بيتٌ، فيُدخلَ فيه ويُردَمَ بابُه، فيكونَ فيه أبداً لا يَرى ولا يُرى(٢).

***

(١) رواه بنحوه ابن ماجه (١٨٤). قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١/ ٢٦): هذا إسناد ضعيف لضعف الفضل بن عيسى بن إبان الرقاشي.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٢٩٤)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ٥٠٩).

(٦٠ ـ ٦٢) ـ ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾؛ أي: يُقالُ لهم عندَ دخولِ النَّارِ توبيخاً: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾؛ أي: ألم أُوصِيكم وأقدِّمِ الأمرَ إليكم على ألسنةِ الرُّسلِ أن لا تطيعوا الشَّيطانَ ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؛ أي: بيِّنُ العداوةِ، أخرجَ أبويكم من الجنَّةِ، وقصدُهُ أن يمنعَكم دخولَها.

﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِي﴾؛ أي: ألم أعهدْ إليكم أن أطيعوني فإنِّي خالقُكم ورازقُكم.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ والصِّراطُ المستقيمُ: ما يُوصِلُ إلى الجنَّةِ.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ بيَّنَ عداوةَ الشَّيطانِ لبني آدمَ؛ أي: أضلَّ عن الهدى خلقاً كثيراً، قُرِئَ: ﴿جُبْلاً﴾ بضمِّ الجيمِ والباءِ، وبسكونِ الباءِ، و﴿جُبُلًّا﴾ بالتَّشديدِ والضَّمِّ، و﴿جِبِلًّا﴾ بالتَّشديدِ وكسرِ الجيمِ[1]، يُقالُ: جُبِلَ فلانٌ على كذا؛ أي: طُبِعَ.

﴿أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ فتتدبَّروا هذا، وتعلمُوا أنَّ الواجبَ طاعةُ اللهِ تعالى.

* * *

---

(١) قرأ نافع وعاصم وأبو جعفر بكسر الجيم والباء وتشديد اللاَّم، وأبو عمرو وابن عامر بضم الجيم وإسكان الباء وتخفيف اللَّام، وروح عن يعقوب بضم الجيم والباء وتشديد اللَّام، والباقون بضم الجيم والباء وتخفيف اللَّام. انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٢)، و«التيسير» (ص: ١٨٤)، و«النشر» (٢/ ٣٥٥).

(٦٣ـ٦٥) ـ ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٦٤ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾؛ أي: يقولُ لهم خزنةُ النَّارِ: هذهِ جهنَّمُ الَّتي وُعِدتم فكذَّبتُم بها.

﴿ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ ﴾؛ أي: قاسُوا حرَّها اليومَ جزاءً على كفرِكُم.

﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾؛ أي: أَنَّهم يُنكرونَ أَنَّهم كذَّبوا الرُّسلَ وآثروا الشِّركَ، فيُختَمُ على أفواهِهم فلا تنطقُ بعذرٍ.

وقيلَ: يشهدُ لسانُ كلِّ واحدٍ منهم بما كسبَ، ويُختمُ عمَّا سوى ذلك.

ثمَّ قيلَ: هذا الختمُ أن يُجعلَ على الفمِ شيءٌ كالخَتْمِ المعروفِ حتَّى لا ينطقَ.

وقيلَ: هوَ إخراسُهم عنِ التَّكلُّمِ.

***

(٦٦) ـ ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ ﴾؛ أي: لو شئنا معاقبتَهم في الدُّنيا لفعلنا، ﴿لَطَمَسۡنَا﴾؛ أي: لأعميناهم ومحَوْنا نورَ أبصارِهم، والعينُ المطموسةُ هيَ الَّتي لا يتبيَّنُ جفنُها[1] ﴿فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾؛ أي: فابتدَروا إلى الطَّريقِ، وأنَّى يبصرُ الأعمى.

وقيلَ: أي: فعدلوا عن الطَّريقِ[2].

---

(١) هكذا شرحه الزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ٢٩٣)، وتوضيحه في قول القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٤٧٧): والمطموس والطَّمس عند أهل اللغة: الأعمى الذي ليس في عينيه شق.

(٢) وهذا أيضاً قول الزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ٢٩٣)، وتمامه: «أي: لو نشاء لأَعْمَيْنَاهُمْ فعدلوا عن الطريق فمن أَيْنَ يُبْصرونَ لو فعَلْنا ذلك بهم؟».

وقيلَ: أي: فجازُوا الصِّراط وخلَّفوه، وهذا استباقٌ من واحدٍ، وقولُه: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ [يوسف: ٢٥] استباقٌ من اثنينِ[١].

وقيلَ: أي: حوَّلنا أبصارَهم من الضَّلالِ إلى الهدى ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟﴾؛ أي: أبصروا طريقَ الهدى، ثمَّ قالَ: ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾؛ أي: يبصرونَ طريقَ الهدى ولم أُعمِّ عليهم طريقَ الكفرِ[٢].

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: أخذَ الأسودُ بنُ عبدِ الأسدِ حجراً ومعه جماعةٌ من بني مخزومٍ؛ ليطرحَه على النَّبيِّ ﷺ، فطمسَ اللهُ على بصرِهِ، وألصقَ الحجرَ بيدِهِ، فما أبصرَ ولا اهتدى، ونزلَتِ الآيةُ[٣].

* * *

(١) وهذا قول الأزهري كما ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٥١٣) وزاد: «لأن هذا بمعنى سبقوا، والأول بمعنى المسابقة».
وبيانه في «تهذيب اللغة» (٨/ ٣١٧) حيث قال: وقد جاء الاستِباق في كتابِ الله في ثلاثة مواضعَ بمعانٍ مختلفةٍ منها قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ﴾ [يُوسُف: ١٧] قال المفسِّرون: المعنى: ذهبنا نَنْتَضِلُ في الرَّمي.
وقال: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ [يُوسُف: ٢٥] معناه: تبادَرا إلى الباب، تبادَرَ كلٌّ واحد منهما إلى الباب، فإن سبقها يوسفُ فتح البابَ وخرج، وإن سبقته زليخا أغلقتْه لئلَّا يخرجَ ولِتُراوده عن نفسه.
والثالثُ قوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ معنى استباقهمُ الصراطَ: مُجاوَزَتُهم إياه حتى يضلُّوا ولا يهتدوا، والاستباق في هذا الموضع من واحد، وهو في الاثنين الأوَّلين من اثنين.
ثم قال الواحدي: «هذا كلامه (يعني: الأزهري) ويدل على صحته قول أبي إسحاق: «عدلوا عن الطريق»، ومعنى «عدلوا عن الطريق» ما ذكره الأزهري: «جازوا الصراط وخلفوه»».
(٢) ذكر هذا الوجه بهذا اللفظ الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٥١٢) عن مقاتل والكلبي.
(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٥١٢) من طريق عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦٧) - ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾؛ أي: لو شئنا لبدَّلنا خلقَهم، وقلبْنا بِنْيَتهم، فصيَّرناهم حجارةً أو جماداً أو بهيمةً؛ على الموضعِ الَّذي كانُوا فيه قعوداً، والمكانُ والمكانةُ واحدٌ.

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾؛ أي: فلا يتقدَّمونَ ولا يتأخَّرونَ، والجمادُ لا يتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ، وقد يكونُ المسخُ بتبديلِ صورةِ الإنسانِ بهيمةً، ثمَّ تلكَ البهيمةُ لا تعقلُ موضعاً تقصِده فتتحيَّر، فلا تُقبلُ ولا تُدبرُ.

وقيلَ: أرادَ بالمسخِ الإهلاكَ.

قُرِئَ: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ و: ﴿على مَكانَاتِهم﴾ على الجمعِ[١].

* * *

(٦٨) - ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ﴾ قُرِئَ بالتَّخفيفِ من نَكَسْتُه أنكُسُه، وقُرِئَ: ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ بالتَّشديدِ من نكَّسَه تنكيساً[٢]، إذا طالَ العمُرُ يصيرُ الشبابُ هَرَماً، والقوَّةُ ضعفاً، والزيادةُ نقصاناً، وهذا هوَ الغالبُ.

﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ أنَّ مَن قَدرَ على هذا قَدرَ على البعثِ، قُرِئَ ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ باليـاءِ والتاءِ[٣].

---

(١) هي رواية أبي بكر عن عاصم. انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٢ ـ ٥٤٣)، و«التيسير» (ص: ١٨٥).

(٢) قرأ عاصم وحمزة بضم النُّون الأولى وفتح الثَّانية وكسر الكاف وتشديدها، والباقون بفتح النُّون الأولى وإسكان الثَّانية وضم الكاف مخفَّفة. انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٣)، و«التيسير» (ص: ١٨٥). و(نُنْكِسْه) من الإنكاس لم أجدها.

(٣) قرأ بالتاء نافع وابن ذكوان، والباقون بالياء. انظر: «التيسير» (ص: ١٨٥). وهي في «السبعة» =

(٦٩) ـ ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾.

قولُـه تعالـى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾؛ أي: هـذا الَّـذي يتلـوهُ عليكـم محمَّـدٌ عليـه السَّـلامُ ليـسَ بشـعرٍ ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أن يكـونَ شـاعراً، نزلَـت لمَّـا قالوا فـي القرآنِ: إنَّـه شـعرٌ[١]. ويُقالُ: بغيـتُ الشَّـيءَ؛ أي: طلبتُه، فانْبَغَـى لي؛ أي: تسـهَّلَ، كما تقولُ: كسـرتُه فانكسرَ.

وما جرى على لسانِه في وزنِ الشِّعرِ فلا يُعدُّ شعراً؛ إذ لم يَقصِدْ به قيلَ الشِّعر، وكذا الأراجيزُ إن قيل: إنَّها شعر.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾؛ أي: ما القرآنُ إلَّا ذكرٌ وموعظةٌ.

وقيلَ: الذِّكرُ هوَ الرَّسولُ، كقولِه: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا﴾ [الطلاق: ١٠].

﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: بيِّنُ الأحكام.

* * *

(٧٠) ـ ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ﴾؛ أي: لينذرَ القرآنُ، وقُرِئَ بالتَّاءِ[٢]؛ أي: لتنذرَ يا محمَّدُ بما في القرآنِ من الوعيدِ ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾؛ أي: مؤمناً في علمِ الله.

وقيلَ: مَن كانَ عاقلاً، والكفَّارُ أمواتٌ.

﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾؛ أي: وتجبُ الحجَّةُ بالقرآنِ على الكفرةِ.

* * *

= (ص: ١٤٣) عن نافع وحده.

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٨٤).

(٢) قرأ بها نافع وابن عامر، والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٤)، و«التيسير» (ص: ١٨٥).

(٧١ ـ ٧٥) ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾.

قولُـه تعالـى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ وهـيَ الإبـلُ والبقرُ والغنـمُ والخيـلُ والبغـالُ والحميرُ.

﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾؛ أي: مُصرِّفون على ما أرادوا.

﴿مِّمَّا عَمِلَتْ﴾؛ أي: ممَّا ابتدَعْناه، تقول: هـذا مـمَّـا عمِلْتُه بيدي؛ أي: تفرَّدتُ به وتولَّيتُه، واليدُ بمعنى القدرة، أو صلةٌ في الكلامِ، ولو دلَّ قولُه: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥] على جارحتين أو صفتين، لدلَّ قولُه: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ على جوارح أو على صفاتٍ، ولا صائرَ إلى ذلك.

﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ﴾؛ أي: سخَّرناها لهم ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ الرَّكوبُ والرَّكوبةُ: كلُّ دابةٍ تُركَبُ كالحَمولةِ، وهوَ فَعولٌ بمعنى مفعولٍ، بيَّنَ أنَّه ذلَّلها لهم للرُّكوبِ والأكلِ.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ﴾ هيَ منفعةُ الرُّكوبِ والحملِ والأصوافِ والأوبارِ والأشعارِ والألبانِ.

رأوا هذه الآيات من قدرتنا، ثمَّ اتخذوا من دونه آلهةً لا قدرةَ لها على فعلٍ ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ أي: لِمَا يَرجون من نصرتها لهم إن نزلَ بهم عذابٌ، وطمعاً في أن تشفعَ لهم عندَ الله.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾؛ أي: أنَّ الأصنامَ لا تقدرُ على نصرِهم ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾؛ أي: الكفَّارُ لتلكَ الآلهةِ جندٌ يغضبونَ لهم ويحضُرونَ لهم في الدُّنيا.

وقيلَ: أي: الآلهةُ جندٌ للعابدينَ محضَرونَ معهم في النَّارِ، فلا يَدفعُ بعضُهم عن بعضٍ.

وقيلَ: أي: الآلهةُ جندٌ لهم محضرونَ يومَ القيامةِ لإعانتِهم في ظنونِهم.

***

(٧٦) ـ ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ هذا تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ؛ أي: لا يحزنْك قولُهم: إنَّه ساحرٌ، أو شاعرٌ؛ فإنَّ اللهَ يعلمُ سرَّهم وعلنَهم، وعن قريبٍ يُجازيهم.

***

(٧٧) ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾؛ أي: أو لم يعلمْ، والنُّطفةُ: القطرةُ.

﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾؛ أي: فصارَتِ القطرةُ إنساناً عاقلاً يخاصمُ في إحياءِ الأمواتِ، ولا يدري أنَّ مَن قدرَ على نقلِ النُّطفةِ إلى هذه المنزلةِ يقدرُ على إحياءِ الموتى.

نزلَت في أُبَيِّ بنِ خلفٍ(١)، أو أُميَّةَ بنِ خلفٍ(٢)، لـمَّا أتى النَّبيَّ ﷺ بعظمٍ حائلٍ ففتَّه بين يديه، فقالَ: أيُحيي الله هذا بعدما رَمَّ؟!

وقيلَ: نزلَت في العاصِ بنِ وائلٍ(٣).

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٤٦)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٨٦)، عن قتادة.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٣٧)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ٥٢٥)، عن الحسن.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٨٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٠٦) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧٨) - ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ﴾؛ أي: قالَ: متى تحيَى هذه العظامُ؟ ونسيَ أنَّا أنشأناه من نطفةٍ ميتةٍ فركَّبنا فيه الحياةَ، فإنَّ جوابَه من نفسِه حاضرٌ، ولهذا قالَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «نعم، يُحييه اللهُ، فيدخلُكَ النَّار»(١).

﴿وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾؛ أي: باليةٌ، يُقالُ: رمَّ العظمُ يَرِمُّ رمّاً، وأرَمَّ؛ أي: بَلِيَ، وفعيلٌ إذا كانَ منقولاً عن فاعلٍ لا يُبنى على الفعلِ، فلا تدخلُه علامةُ التَّأنيث.

* * *

(٧٩ - ٨٠) - ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾؛ أي: يُحييها مَن أحيا النُّطفة أوَّلاً، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾؛ أي: يعلمُ خلقَهم في الدُّنيا وإعادتَهم في الآخرةِ.

﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾؛ أي: يُحييها مَن أخرجَ من الشَّجرِ الرَّطبِ ناراً ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ ﴾؛ أي: من الشَّجرِ ﴿تُوقِدُونَ ﴾؛ أي: تقدحونَ النَّار، فلا النَّارُ في الشَّجرِ تُحرقُ الشَّجرَ، ولا رطوبةُ الشَّجرِ تُطفِئُ النَّارَ.

و(الشَّجرُ) يُذكَّرَ كقولِه: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [النحل: ١٠]، ويُؤنَّثُ كقولِه: ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٢].

ويعني بالآيةِ: ما في المَرخِ والعَفارِ، ومنه قولُهم: «أرخِ يديكَ واسترِحْ، فإنَّ الزِّنادَ منَ المَرخِ»(٢).

---

(١) ورد في سبب النزول المتقدم عن قتادة.

(٢) قولهم: «أرخ يديك واسترخ إن الزناد من مرخ»؛ أي: خفِّض عليك في الطلب فإن صاحبك كريم، =

(٨١ ـ ٨٢) ـ ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّـٰقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ﴾؛ أي: هوَ قادرٌ على ذلكَ ﴿وَهُوَ الْخَلَّـٰقُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾؛ أي: إذا أرادَ خَلْقَ شيءٍ لا يحتاجُ إلى تعبٍ ومعالجةٍ في الخلقِ، وقد مضى معناه في (سورةِ النَّحلِ).

* * *

(٨٣) ـ ﴿فَسُبْحَـٰنَ الَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَسُبْحَـٰنَ الَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ نزَّهَ نفسَه عن قولِ المشركين.

﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ أي: خلقُ كلِّ شيءٍ.

وقيلَ: خزائنُ كلِّ شيءٍ.

وقيلَ: القدرةُ على كلِّ شيءٍ.

والملكوتُ: الملكُ.

* * *

= وإذا كانت الزناد من مرخ اكتُفي بالقليل من القدح، والمرخ شجر يكثر ناره ومثله العفار، وفي مثل: «في كل شجرة نار واستمجد المرخ والعفار»؛ أي: عظم نارهما، وأصل المجد: الكبر والعظم. انظر: «جمهرة الأمثال» للعسكري (١/ ١٧٣).

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

تفسيرُ سورةِ ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١ ـ ٣) ـ ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ قيلَ: عنى الملائكةَ تصفُّ أجنحتَها في الهواءِ لأمرِ اللهِ حتَّى يأمرَها بما يريدُ.

أو تقف صفوفاً في السَّماءِ: إمَّا في صلاتِهم، أو كما يقومُ العبيدُ بينَ يدِ ملوكِهم صفوفاً.

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾؛ أي: الملائكةُ تزجرُ عن المعاصي بما تنزلُ به من الوحيِ.

﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾؛ أي: تتلو على الرَّسولِ الوحيَ، والقرآنُ يُسمَّى ذِكراً.

وعلى هذا فيحتملُ أن يُقالَ: أرادَ عصبةً واحدةً اجتمعَت فيهم هذه الصِّفات؛ أي: الَّتي تصفُّ فتزجرُ، فالصَّفُّ بسببِ الزَّجرِ، والزَّجرُ بسببِ التِّلاوةِ، كما تقولُ: قامَ فمرَّ فاضطجعَ فنامَ.

ويحتملُ أن تكونَ الفاء للعطفِ لا للسَّببيَّة، ثمَّ على هذا يحتملُ أن تكونَ هذه الصِّفاتُ مجتمعةً في عصبةٍ واحدةٍ، فهو إقسامٌ بهذه الصِّفات، ويحتملُ أن تكونَ الصَّافاتُ عصبةً، والزَّاجرات عصبةٌ أخرى.

ثمَّ الصَّافَّاتُ جمع الجمعِ، يُقالُ: جماعةٌ صافَّةٌ، ثمَّ يُجمَعُ: صافَّات.

وقيلَ: الصَّافَّاتُ جماعاتُ النَّاسِ المؤمنين إذا قاموا صفوفاً في الصَّلاة أو في الجهادِ، ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾؛ أي: بتلاوتِهم القرآنَ، أو بصلاتِهم؛ فإن الصَّلاة تنهَى

عـن الفحشـاءِ والمنكـرِ، ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾ لأنَّ الصَّـلاةَ لا تخلو عـن ذكرٍ وقـراءةِ قرآنٍ.

﴿صَفًّا﴾ مصدرٌ ذُكِرَ للتَّأكيدِ.

قولُه تعالى: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ من زجرْتُ البعيرَ أزجُرُه زجزاً؛ أي: حثَثْتُه للسَّيرِ، وزجرتُ فلاناً عن السُّوء؛ أي: نهيتُه.

ثمَّ قيلَ: هم ملائكةٌ نزلوا بالقرآنِ، وقيلَ: يزجُرون السَّحاب.

وقيلَ: الزَّاجراتُ زواجرُ القرآنِ وآياتُه.

﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾؛ أي: الملائكةُ ينزلون بالقرآنِ، أو يقرؤون القرآن.

وقيلَ: عُني جبريلُ عليه السَّلام، فذُكِرَ بلفظِ الجمع لأنَّه كبيرُ الملائكة، فلا يخلو من جنودٍ وأتباعٍ.

وقيلَ: التَّالياتُ ذِكراً: قراءةُ القرآنِ من المؤمنين، وهيَ آياتُ القرآنِ وصفَها بالتِّلاوةِ كما قالَ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [النمل: ٧٦].

ويجوزُ أن يُقالَ لآياتِ القرآنِ: تاليات؛ لأنَّ بعضَ الحروفِ يتبعُ بعضاً.

* * *

(٤ ـ ٥) ـ ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾.

قـولُه تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾ قسمٌ بربِّ الصَّافَّاتِ، فـ(الرَّبُّ) مضمَرٌ، أو بالصَّافَّاتِ تشريفاً لها، وجوابُ القسمِ ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾.

نزلَتِ الآيةُ لما قالَت قريشٌ: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥][(١)].

قولُه تعالـى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: هوَ ربُّ السَّـماواتِ، ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾؛ أي:

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٠١).

مالكُ مطالعِ الشَّمس في كلِّ يوم من أيَّام السَّنة، ودلَّت المطالعُ على المغارب، فلهذا لم تُذكرِ المغارِبُ، وهوَ كقولِه: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]؛ أي: الحرَّ والبردَ.

* * *

(٦ ـ ٩) ـ ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ لمَّا أخبر أنَّ الملائكةَ تنزلُ بالوحيِ منَ السَّماءِ الدُّنيا بيَّنَ أنَّه حَرَسَ السَّماءَ عن استراقِ الشَّياطينِ للسَّمع بعد أن زيَّنَها بالكواكبِ، والسَّماءُ الدُّنيا هيَ الَّتي تلي الأرضَ، فهي أدنى السَّماواتِ إلينا، فقيل لها: السَّماءُ الدُّنيا.

﴿بزينةِ الكواكبِ﴾؛ أي: بحُسنِها وضوئِها، أضافَ الزِّينة ـ وهيَ مصدرٌ ـ إلى المفعول، كقولِه: ﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ [ص: ٢٤].

وقرأ حمزةُ: ﴿بزينةٍ الكواكبِ﴾ بالتَّنوينِ وخفضِ ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ على البدلِ من ﴿زينةٍ﴾.

وقرأ عاصمٌ: ﴿بِزِينَةٍ﴾ منوَّنة ﴿الكواكبَ﴾ بالنَّصبِ[1]؛ أي: تزيينَنا الكواكبَ.

﴿وَحِفْظًا﴾؛ أي: وحفظاً فعلْنا ذلك، كقولِه: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]؛ أي: وليكون كذا أريناه.

والشَّيطانُ الماردُ: العاتي الخبيثُ، وأصلُ الكلمةِ الملاسةُ، ومنه: الأمردُ، وشجرةٌ مرداءُ.

---

(١) هي قراءة عاصم في رواية أبي بكر، وقرأ في روايةِ حفصٍ مثل ما ذكر عن حمزة، والباقون: ﴿بِزِينَةِ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ مُضافةً. انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٦ ـ ٥٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٦)

﴿لا يَسْمَعُون إلى الملأِ﴾؛ أي: لئلا يستمعَ الشَّياطينُ، فحُذفَ النَّاصبُ فعادَ الفعلُ إلى الرَّفع، ولو قالَ: (أن يسَّمعوا) لكانَ صحيحاً أيضاً.

وقيلَ: هوَ ابتداءُ إخبارٍ عن الشَّياطينِ؛ أي: أنَّهم لا يسمعون.

وقُرِئَ: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾[1]؛ أي: لا يتسمَّعون، يُقالُ: تسمَّعتُ إلى فلانٍ، ثمَّ قيلَ: سَمِعتُه وسَمِعتُ له، واستمعتُ له، قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، ويُعدَّى بـ(إلى) أيضاً، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

﴿إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى﴾؛ أي: إلى الملائكةِ، سُمُّوا بذلك لإسكانِ اللهِ تعالى إيَّاهم السَّماواتِ العُلى، ولفظُ ﴿الْمَلَإِ﴾ مذكَّرٌ، فلهذا قالَ: ﴿إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى﴾، كما يُقالُ: السَّلفُ الصَّالح.

﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾؛ أي: يُرمَون مِن كلِّ ناحيةٍ؛ أي: بالشُّهبِ.

قولُه تعالى: ﴿دُحُورًا﴾؛ أي: يَدْحرونهم ويُبعدونهم، والدَّحرُ: أشدُّ العذاب، يُقالُ: دَحَرتُه دَحْراً ودُحُوراً؛ أي: طردتُه، وهوَ نصبٌ على المصدرِ؛ أي: يُدْحرون دُحوراً، أو: يُقذَفون للدُّحورِ، ثمَّ حُذِفَ اللامُ[2].

وقيلَ: ﴿دُحُورًا﴾؛ أي: مطرودين.

وقرأ يعقوب: (دَحُوراً) بفتحِ الدَّال[3]؛ أي: يُقذَفون بداحِرٍ وبما يَدحَرُ، فحُذفَ الباءُ، كقولِك: نغالي اللحمَ وباللحم[4].

---

(١) قرأ بها حفص وحمزة والكسائي، والباقون بإسكان السين وتخفيف الميم. انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٦).

(٢) بعدها في (أ): «وحذف»، وهو تكرار لا طائل منه.

(٣) لم أقف على من نسبها ليعقوب، ونسبت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وأبي عبد الرحمن السلمي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٧)، و«المحتسب» (٢/ ٢١٩).

(٤) في (أ): «يغال اللحم باللحم»، والصواب المثبت، والكلام في هذه القراءة منقول من الفراء في «معاني =

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾؛ أي: دائمٌ، وقيلَ: شديدٌ.

* * *

(١٠) ـ ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ ﴾ أخبرَ الرَّبُّ أنَّهم عن استماعِ الوحيِ معزولون، فأمَّا ما عدا الوحيَ فقد يَسترِقُ الواحدُ منهم شيئاً ممَّا يتفاوضُ فيه الملائكةُ ممَّا سيكونُ في العالَم قبلَ أن يعلمَه أهلُ الأرض، وهذا لخفَّةِ أجسامِ الشَّياطين، فيُرجَمون بالشُّهب حينئذٍ، والاستثناءُ يرجعُ إلى غيرِ الوحي.

ويجوزُ أن يكونَ ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ﴾ استثناءً من قولِه: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾.

والخطفُ: الاستلابُ بخفَّةٍ.

﴿فَأَتْبَعَهُ﴾؛ أي: لحقَه ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾؛ أي: نارٌ مضيئةٌ محرِقة، يُقالُ: ثَقَبَ يثقُبُ ثُقُوباً؛ أي: اشتدَّ ضوءُه، والثَّقوبُ: ما تُذكَى به النَّارُ.

= القرآن» (٢/ ٣٨٣)، وعنه الواحدي في «البسيط» (١٩/ ١٨)، قال الفراء: «ومَن فَتَحها جعلها اسمًا كأنه قال: يقذفونَ بداحرٍ وبما يَدْحَرُ، ولست أشتهيها لأنها لو وجِّهت على ذلك على صحةٍ لكانت فيها الباء؛ كما تقول: يقذفون بالحجارة، ولا تقول: يُقذفونَ الحجارة، وهو جائز قال الشاعر:

نُغَالِـي اللحـم للأضيـاف نِيئًا ... وتُرخصـه إذا نَضِـجَ الْقُـدورُ

والكلام: نغالي باللحم». والبيت في «معاني القرآن» للأخفش (١/ ٥٨ و١٥٧ و٣٥٣)، و«المعاني الكبير» لابن قتيبة (١/ ٣٨٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ٢١٠)، و«جمهرة اللغة» (٣/ ١٣١٧) وعزاه لرجل من قيس، و«معجم ديوان الأدب» للفارابي (٤/ ١٢١)، وفيه: وغالَى باللَّحم، وغالَى اللَّحمَ بمعنًى، أي: اشتراه بثمن غالٍ.

فمعنى البيت كما قال ابن قتيبة: نشتريه للأضياف في وقت غلائه فإذا نضج أطعمناه مَن استحقه ومن لم يستحقه.

وقيلَ: أي: يَثقبُ كلَّ شيءٍ ويَنْفُذُ فيه.

وقيلَ: الشِّهابُ عودٌ قد أُشعِلت فيه النَّار.

ثمَّ؛ قيلَ: إنَّ الشَّيطانَ إذا خطفَ الخطفةَ ألقَى ما سمع إلى الكهنةِ، فيزيدُ الشَّياطينُ ويزيدُ الكهنة.

وهذه الشُّهب ليست الكواكبَ النَّائية، بل هيَ أقربُ إلينا، فمِن النُّجومِ زينةٌ، ومنها شهبٌ يُرجَمُ بها الشَّياطين.

* * *

(١١) ـ ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآ﴾؛ أي: أم مَن خلقنا منَ الأممِ الماضيةِ الَّذين كانُوا أشدَّ من هؤلاءِ قوَّةً؛ أي: كذَّبَ المُتقدِّمون الأنبياءَ فانتقمنا منهم بأنواعِ العذابِ، فما يُؤمِّنُ هؤلاءِ مِن العذابِ؟ أي: خلَقْنا الخلقَ من طينٍ لازبٍ، فإذا قدرْتُ على أولئك، فلا أعجزُ عن هؤلاء.

وقيلَ: ﴿أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا﴾ بعد الموت؛ لأنَّهم جحدوا البعث ﴿أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآ﴾ يعني: السَّماوات والأرضينَ والجبالَ؛ أي: ليسَ إعادتُهم بأشدَّ من خَلقِ العالم، و﴿مَّنۡ﴾ على هذا بمعنى: ما.

وقيلَ: ﴿أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآ﴾؛ أي: الملائكةُ والجنُّ والشَّياطينُ وسائرُ خلقِ اللهِ.

﴿مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾؛ أي: لاصقٍ، ثمَّ قيلَ: الباءُ بدلٌ مِن الميم، وقيلَ: «لَزَبَ يَلزِبُ» مثلَ: ضرَبَ يضرِبُ، و«يَلزُبُ» مثلَ: ينصُرُ.

* * *

(١٢ ـ ١٤) ـ ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ قرأَ قومٌ بضمِّ التَّاءِ(١)، كما في الخبرِ: «عَجِبَ ربُّكم من شابٍّ لا صبوةَ له»(٢)، «وعَجِبَ ربُّكم من أَلِّكُم وقُنُوطِكم»(٣).

والعجبُ في حقِّ الله إن أُطلِقَ فيما يُرضى فمعناه الإخبارُ عن الرِّضا، وإن أُطلِقَ فيما يُكرهُ فمعناه الإنكارُ، وأمَّا في حقِّ العبادِ فهو التَّعجُّب من شيءٍ لقلَّةِ وقوعِه وعدمِ العلمِ بأمثالِه، وهذا كما أنَّ السُّخريةَ من العبدِ بمعنًى ومن اللهِ تعالى بمعنًى آخر.

وقيلَ: ﴿عجبتُ﴾ عائدٌ إلى النَّبيِّ ﷺ؛ أي: فاستفتِهم وقل لهم: عجبتُ من إعراضِكم عن هذه الحججِ، وسُخريتِكم بهذا.

وقيلَ: ﴿عجبتُ﴾؛ أي: عَظُمَ عندي وكبُرَ، كما تقولُ: «لا سمعَ اللهُ لك»؛ أي: لا استجابَ، وإن كانَ سمعَ ما تقولُ، وكقولِه: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ٧٧] وإن كانَ يراهم(٤).

---

(١) وهي قراءة حمزة والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٦).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٧٣٧١)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٧٤٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ٣٠٩) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٧٠): «رواه أحمد، وأبو يعلى، والطبراني، وإسناده حسن».

(٣) انظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (٢/ ١١٨)، و«غريب الحديث» للخطابي (٣/ ٢٦٠). قال أبو عبيد: يُروى عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون عن محمد بن عمرو يرفعه عن النبي ﷺ. وقال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ١٧٥): غريب، ثم ذكر كلام أبي عبيد.
قال الخطابيُّ: يرويه المحدِّثون: «من إِلِّكُم» بكسر الألف، والصواب: (أَلِّكُم) بفتحها، يريد: رَفْعَ الصوتِ بالدعاء.

(٤) بعدها في (أ): «إلى» ولا معنى لها.

وقيلَ: ﴿بل عجبتُ﴾؛ أي: هذا ممَّا يَتعجَّبُ منه الخلقُ، وهوَ كقولِه: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

وقُرِئَ: ﴿ بَلۡ عَجِبۡتَ ﴾ بفتحِ التَّاء؛ أي: عجبتَ يا محمَّدُ من نزولِ الوحيِ عليك وتكذيبِهم لك وسخريتِهم.

قالوا: وفي ﴿وَيَسۡخَرُونَ﴾ واوُ الحالِ؛ أي: عجبتَ منهم في حالِ سخريتِهم.

وقيلَ: تمَّ الكلامُ عند قولِه: ﴿ بَلۡ عَجِبۡتَ ﴾، ثمَّ استأنفَ فقالَ: ﴿وَيَسۡخَرُونَ﴾ ممَّا جئتَ به، وقيلَ: ﴿وَيَسۡخَرُونَ﴾ بأنفسِهم.

قولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ﴾؛ أي: إذا وُعِظوا بالقرآنِ؛ أي: واذكر لهم ما حلَّ بالمُكذِّبين من قبلُ، وذُكِرَ لهم عقابُ اللهِ تعالى غداً، أعرضُوا عنه ولم يتدبَّرُوه.

قولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةً يَسۡتَسۡخِرُونَ ﴾؛ أي: يسخرونَ، ويقولون: إنَّها سحرٌ، واسْتَسْخَرَ وسَخِرَ بمعنًى مثلَ: اسْتَعْجَبَ وعَجِبَ بمعنًى.

وقيلَ: ﴿يَسۡتَسۡخِرُونَ﴾؛ أي: يسألون المشركين أن يَسخروا.

وقيلَ: يظنُّون أنَّ تلك الآيةَ سخريةٌ.

***

(١٥ - ١٧) - ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴾؛ أي: إذا عجَزوا عن مقابلةِ المعجزاتِ بشيءٍ قالوا: هذا سحرٌ وتخييلٌ وخداعٌ.

﴿ أَءِذَا مِتۡنَا ﴾؛ أي: أَنُبعثُ إذا مِتْنا؟ فهو استفهامُ إنكارٍ منهم وسخريةٍ[1].

(١) في (أ): «إنكار منهم والحال ما ذكر وسخرية»، والمثبت من «تفسير القرطبي» (١٨/ ٢١).

﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾؛ أي: أَوَيُبعَثُ آباؤُنا، دخلَت ألفُ الاستفهامِ على حرفِ العطفِ، وقرأ نافعٌ: ﴿أوْ آباؤُنا﴾ بسكونِ الواوِ[1]، وقد مرَّ هذا في قولِه: ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [الأعراف: ٩٨].

***

(١٨ ـ ١٩) ـ ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴾؛ أي: نعم تُبعَثون وأنتم صاغِرونَ؛ لأنَّهم إذا رأوا وقوعَ ما أنكرُوه فلا محالةَ يَذِلُّون.

وقيلَ: أي: ستقومُ القيامةُ وإن كرهتُم، فهو أمرٌ واقعٌ على رغمِكم وإن أنكرتموه اليومَ بزعمِكم.

قولُه تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾؛ أي: يترتَّبُ قيامُ السَّاعةِ على صيحةٍ واحدةٍ، وفيه إضمارٌ؛ أي: فإنَّما قصَّةُ البعثِ زجرةٌ واحدةٌ من إسرافيلَ، وهيَ نفخةُ البعثِ، والزَّجرةُ: الصَّيحةُ؛ أي: يُزجَرُ بها كزجرِ الإبلِ والخيلِ عند السَّوقِ.

﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾؛ أي: إلى البعثِ الَّذي أنكروه.

وقيلَ: ﴿يَنظُرُونَ ﴾؛ أي: ينتظرونَ ما يُؤمَرون به.

وقيلَ: أي: فإذا هم قياماً أحياءً يَتصرفُون ويتكلَّمون وينظرون.

***

(٢٠ ـ ٢١) ـ ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾؛ أي: نادَوا على أنفسِهم بالويلِ؛ لأنَّهم يومئذٍ يعلمونَ ما حلَّ بهم.

---

(١) قرأ بها قالونُ عن نافع، وابنُ عامر، والباقون بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٦).

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾؛ أي: يومُ الحسابِ، وقيلَ: يومُ الجزاءِ.

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾؛ أي: يقولُ بعضُهم لبعضٍ: هذا هوَ اليوم الَّذي كذَّبْنا به.

وقيلَ: تقولُ الملائكةُ لهم ذلك؛ أي: هو يومُ الحُكمِ بين النَّاس فيَبِينُ المحقُّ من المبطلِ.

***

(٢٢ ـ ٢٣) ـ ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾؛ أي: يُقالُ للملائكةِ احشرُوا المشركين وأزواجَهم؛ أي: اجمعوهم، والشِّركُ: الظُّلمُ[1]، قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، لأنَّهم وضعوا العبادةَ في غيرِ موضعِها.

والأزواجُ: القُرناءُ. وقيلَ: الأصنافُ؛ أي: أصنافُ المُكذِّبين بالبعثِ مَن أقرَّ بأنَّ الله خالقُ السَّماواتِ والأرضِ وأنكرَ البعثَ، ومَن أنكرَ الابتداءَ أو المعادَ، وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٧]؛ أي: مِن كلِّ صِنفٍ من النَّباتِ.

وقيلَ: وقرناءَهم من الشَّياطين، كما قالَ: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم﴾ [فصلت: ٢٥].

وقيلَ: أي: وأزواجَهم المشركاتِ.

﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من الأصنامِ والشَّياطينِ وإبليسَ

---

(١) كذا قال، والأشهر عكس هذا؛ أي: أن يُفسَّر الظلم بالشرك في مواضع لأنه حمال أوجه بينما الشرك واحد.

﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ أي: سُوقوهم إلى النَّارِ، يُقالُ: هَديتُ العروسَ إلى بيتِ زوجِها؛ أي: مِلْتُ بها إليه(١).

وقيلَ: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ﴾؛ أي: دُلُّوهم. وقيلَ: قَدِّموهم.

* * *

(٢٤ ـ ٢٦) ـ ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ٢٥ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾، يُقالُ: وقفتُ الدَّابَّةَ أَقِفُها وَقفاً، فوَقَفَتْ هيَ وُقوفاً؛ أي: احبسوهم، وهذا يكونُ قبلَ السَّوقِ إلى الجحيمِ، وفيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: قفوهم للحسابِ ثمَّ سُوقُوهم إلى النَّارِ.

وقيلَ: يُساقون إلى النَّارِ أَوَّلاً، ثمَّ يُحبسونَ للسُّؤالِ إذا قَرُبوا من النَّار وعلى الصِّراط.

---

(١) قوله: «ملت بها إليه» كذا في (أ)، ولم أجد من شرحها بهذا اللفظ، والغالب فيها معنى الدلالة: قال الأخفش في «معاني القرآن» (١/ ٣٢٥): وبنو تميم يقولون: «هَدَيْت العروسَ إِلى زَوْجِها» جعلوه في معنى: دَلَلْتُها، وقيس تقول: «أَهْدَيْتُها» جعلوها بمنزلة الهدية.

ونحوه قول الزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ٣٠١): يقال: «هديت الرجل»: إذا دللته، و«هديت العروس إلى زوجها»، و«أهديت الهديَّة»، وكذلك تقول في العروس: «أهديتُها» إذا جعلتَها كالهديَّة.

وقال ابن درستويه في «تصحيح الفصيح» (ص: ١٢٨): «هديت العروس إلى زوجها هداء»، معناه يجوز أن يكون من شيئين: أحدهما: من قولك: هديته السبيل، أي: دللته على السبيل.. ، والآخر: أن يكون من الرفق والتؤدة والتمهيل، كما يقال: هاديت المرأة: إذا ماشيتَها، وتهادتْ في مشيها، أي: تمهلت ولم تسرع؛ ولذلك جاء مصدره على الهداء؛ لأنك تقول: هاديتها هداء ومهاداة، كما تقول: ماشيتها مماشاة ومشاء.

فقد اتفق هؤلاء على أن معنى «هديت العروس» هو: دللتها.

﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾؛ أي: عن أعمالِهم، ويُقالُ لهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، ويُقالُ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾؟

قولُه تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾؛ أي: قولوا لهم: لم لا تَناصرونَ فيمنعَ بعضُكم بعضاً من عذابِ اللهِ، وكنتُم تقولونَ: إنَّ آلهتكم تقرِّبُكم إلى اللهِ زُلفى وتشفعُ لكم، وإنَّ الشَّيطانَ ينفعُكم.

وقيلَ: هوَ إشارةٌ إلى قولِ أبي جهلٍ يومَ بدرٍ: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾.

﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾؛ أي: لا تناصُرَ بينهم ولا دفعَ، بل يستسلمونَ للعذابِ.

* * *

(٢٧ ـ ٣٤) ـ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۖ إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾؛ أي: الكفَّارُ وقرناؤُهم من الشَّياطينِ، أو رؤساءُ الكفَّارِ وأتباعُهم يتعاتبونَ، وهوَ سؤالُ توبيخٍ ولومٍ، يقولُ كلُّ واحدٍ: لم فعلتَ كذا؟ قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤].

﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾؛ أي: قالَ الكفَّارُ للشَّياطينِ، أو الأتباعُ للرُّؤساءِ: إنَّكم كنتم تأتوننا من قِبَلِ الدِّينِ، فتهوِّنون علينا أمرَ الشَّريعة، وتنفِّروننا عنها، فاليمينُ بمعنى الدِّين؛ أي: كنتم تُزيِّنونَ لنا الضَّلالة.

وقيلَ: اليمينُ بمعنى القوَّة؛ أي: كنتم تمنعوننا عن الإيمانِ بقوَّةٍ وغلبةٍ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣]؛ أي: بالقوَّةِ، وقوَّةُ الرَّجلِ في يمينِه.

وقيلَ: العربُ تتفاءلُ بما يأتيها من ناحيةِ اليمينِ؛ أي: إنَّكم كنتم تأتوننا من حيثُ نأمنُ فيه ضررَكم، ومن حيثُ تُرونا أنَّكم تنفعوننا.

وقيلَ: أي: إنَّكم صدَدْتُمونا عن أن نكونَ من أصحابِ اليمينِ.

وقيلَ: أي: حلفتُم لنا أن ما تَدْعوننا إليه هوَ الحقُّ، أو أرادَ: كنتُم تُحلِّفوننا أن لا نُؤمنَ بالرُّسلِ.

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: أجابتْهم الرُّؤساءُ بأنْ قالوا: بل لم تكونوا مؤمنين قطُّ حتَّى ننقلَكم منه إلى الكفرِ، بل كنتُم على الكفرِ فأقمتُم عليه للإلْفِ والعادةِ.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾؛ أي: من تَسلُّطٍ بحجَّةٍ وقهرٍ وإجبار ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾؛ أي: ضالِّين مجاوِزين لحدودِ الشَّرع.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾؛ أي: تحقَّقَ علينا ما قالَ ربُّنا على ألسنةِ الرُّسلِ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

وقيلَ: أي: حقَّ قولُ ربِّنا: إنَّا نذوقُ العذابَ؛ فإنَّه وعَدَ أنَّ مَن وافاه كافراً يذوقُ العذابَ، وفي الكلامِ إضمارٌ؛ أي: إنَّا لذائقون العذابَ.

﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾؛ أي: زيَّنا لكم ما كنتُم عليه من الكفرِ، فاغترَرْتُم عن اختيارٍ منكم، و﴿كُنَّا غَٰوِينَ﴾ مثلَكم.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾ يعني: الأتباعَ والمتبوعين ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يومَ القيامةِ ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾؛ أي: كلُّهم في النَّارِ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: المشركين.

***

(٣٥ ـ ٣٦) ـ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: أنِفُوا عن قولِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ولمَّا قالَ رسولُ اللهِ ﷺ لأبي طالبٍ عند موتِه واجتماعِ قريشٍ: «قولُوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ، تملكُوا بها العربَ، وتدينُ لكم بها العجمُ»(١) أبوا ونفرُوا وأنِفُوا من ذلك.

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾؛ أي: أنتركُ عبادةَ الأصنامِ لهذا الشَّاعرِ، ونسبُوه إلى الجنونِ لأنَّه كانَ يقولُ: إنَّكم تُبعثُونَ بعدَ الموتِ، فظنُّوه جنوناً.

* * *

(٣٧ ـ ٣٩) ـ ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: ليسَ الأمرُ كما قالوا، بل جاءَ محمَّدٌ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالقرآنِ، وقيلَ: بالتَّوحيدِ ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: الَّذين كانُوا قبلَه؛ فإنَّه وافقَهم في التَّوحيدِ.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ هذا الخطابُ لمَن قالَ: أنترك آلهتنا لشاعرٍ مجنونٍ؟! وقيلَ: لأهلِ الموقفِ.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بما عملتُم من الشِّركِ.

---

(١) بهذا اللفظ ذكره مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٦٠٦)، وذكره ابن إسحاق في «سيرته» (ص: ٢٣٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما، ونقله عنه ابن هشام في «سيرته» (٢/ ٤٦)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٣) عن السدي.
وأصله عند الترمذي (٣٢٣٢)، والنسائيِّ في «الكبرى» (٨٧١٦)، والإمام أحمد في «مسنده» (٢٠٠٨)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٤٠ ـ ٤٧) ـ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إلَّا عبادَ اللهِ المخلِصين﴾ استثنى ممَّن يذوقُ العذابَ عبادَه الَّذين أخلصُوا له العبادةَ، وقُرِئَ: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتحِ اللامِ[1]؛ أي: أخلَصَهم اللهُ واصطفاهم.

وقيلَ: هوَ استثناءٌ مُنقطِعٌ؛ أي: إنَّكم أيُّها المجرمونَ ذائقو العذابِ، لكنْ عبادُ اللهِ المخلصون لا يذوقونَ.

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾، يعني المخلصين؛ أي: لهم عطيَّةٌ معلومةٌ لا تنقطعُ.

﴿فَوَاكِهُ﴾ أي: أشياءُ من المطاعمِ والفواكهِ وما يتنعَّمون به؛ أي: هم على نهايةِ اللَّذَّةِ.

﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾؛ أي: ولهم إكرامٌ مِن اللهِ سُبحانَه وتعالى برفعِ الدَّرجاتِ وسماعِ كلامِ اللهِ تعالى ولقائه.

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾؛ أي: مساكنُهم بساتينُ في غايةِ النُّزهةِ.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾؛ أي: هم على الأسرَّةِ كعادةِ الملوكِ.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾ لمَّا ذكَرَ مطاعمَهم ذكَرَ شرابَهم، والكأسُ: الإناءُ بما فيه؛ أي: يُطافُ عليهم بشرابٍ ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾؛ أي: من خَمرةٍ ظاهرةٍ للعيونِ.

وقيلَ: المعينُ: الجاري؛ أي: يُؤخَذُ ذلكَ الشَّرابُ مِن نهرٍ جارٍ صافٍ؛ أي: هوَ في الكثرةِ كالماءِ الجاري.

---

(١) قرأ بها عاصم وحمزة والكسائي ونافع، والباقون بكسرها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٨).

﴿بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ قالَ الحسنُ: خَمرةُ الجنَّةِ أشدُّ بياضاً من اللَّبنِ[١].

﴿لَذَّةٖ﴾ يُقالُ: شرابٌ لَذٌّ ولَذيذٌ، مثلَ: نباتٍ غَضٍّ وغَضيضٍ، فاللَّذَّةُ مصدرٌ جُعِلَ اسماً؛ أي: بيضاءَ لذيذةٍ.

وقيلَ: ﴿لَذَّةٖ﴾؛ أي: ذاتِ لذَّةٍ، فحُذِفُ المضافُ.

وقيلَ: ﴿بَيۡضَآءَ﴾؛ أي: لم يعتصِرْها الرِّجالُ بأقدامِهم.

﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ﴾؛ أي: لا تَغتالُ عقولَهم، والغِيلةُ والغائلةُ والغَولُ واحد.

وقيلَ: الغَولُ الصُّداع، وقيلَ: وجعُ البطنِ.

وأصلُ الكلمةِ من الهلاكِ، يُقالُ: غالَه غَولاً؛ أي: أهلكَه.

وقيلَ: أي: لا غائلةَ فيها من غثيانٍ وهُواعٍ وخُمارٍ كخمرِ الدُّنيا.

﴿وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ﴾ بضمِّ الياءِ وفتحِ الزَّاي؛ أي: لا يَسكرون ولا تذهبُ عقولُهم، يُقالُ: نُزِفَ الرَّجلُ فهو منزوفٌ ونزيفٌ. وقُرِئَ بكسرِ الزَّاءِ[٢]، يُقالُ: أَنزَفَ الرَّجلُ؛ أي: نَفِدَتْ خمرُه؛ أي: لا يَفْنى شرابُهم.

وقيلَ: أَنزَفَ؛ أي: ذهبَ عقلُه من السُّكرِ.

وقيلَ: ﴿لا يُنزِفون﴾ بكسرِ الزَّاءِ؛ أي: لا يَسكرون، ذكره الزَّجَّاجُ وأبو عليٍّ[٣].

والنَّزفُ في اللُّغةِ: الاستخراجُ، ونَزَفتُ البئرَ؛ أي: استقيتُ الماءَ كلَّه، فكأنَّ مَن سَكِرَ نُزِفَ عقلُه واستُخرِجَ.

---

(١) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٦/ ٢٤)، والواحدي في «البسيط» (١٩/ ٤٥).

(٢) قرأ حمزة والكسائي بكسر الزاي، والباقون بفتحها، ولا خلاف في ضم الياء. انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٦).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٠٣)، و«الحجة» لأبي علي الفارسي (٦/ ٥٤).

(٤٨) ـ ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ القصرُ: الحبسُ؛ أي: حَبَسنَ طَرْفَهنَّ على أزواجِهنَّ.

وقيلَ: قَصُرَ طَرْفُهنَّ عن غيرِ أزواجِهنَّ، فالقُصورُ مِن فِعلِ الطَّرفِ، وعلى الأوَّلِ مِن فِعلِ الحورِ العين.

﴿عِينٌ﴾: جمعُ عيناءَ وأَعْيَنَ، والعيناءُ: الواسعةُ العينِ، واللهُ أعلمُ.

* * *

(٤٩) ـ ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾؛ أي: مستورٌ، من كنَنْتُ الشَّيءَ؛ أي: سترتُه، وكذلكَ أكنَنْتُه؛ أي: كأنَّهنَّ بيضٌ لم تمسَّه الأيدي.

وقيلَ: المكنونُ: المصونُ عن الكسرِ؛ أي: أنَّهنَّ عذارى.

وقيلَ: أرادَ بيضَ النَّعامِ أكنَّهُ الرِّيشُ، فلونُه أبيضُ في صُفرةٍ، وهوَ أحسنُ ألوانِ النِّساءِ. وقيلَ: المرادُ بالبيضِ هاهنا اللُّؤلؤُ، كما قالَ: ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤].

* * *

(٥٠ ـ ٥٣) ـ ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ أي: يَتفاوضونَ فيما بينهم أحاديثَهم في الدُّنيا، وهوَ من تمامِ الأُنسِ.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من أهلِ الجنَّةِ ﴿إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾؛ أي: كانَ يدعوني إلى إنكارِ البعثِ؛ أي: كانَ لي صديقٌ مُلازِمٌ.

وقيلَ في التَّفاسيرِ: كانَ أخاه، وهما المذكوران في قولِه: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ [الكهف: ٣٢][١].

وقيلَ: كانا شريكَين، واقتسما المالَ، فأنفقَ أحدُهما نصيبَه في زينةِ الدُّنيا، والآخرُ في سبيلِ اللهِ حتَّى احتاجَ إلى شريكِه، فقالَ شريكُه: وأين مالُك؟ فقالَ: أنفقتُه في سبيلِ اللهِ أرجو الثَّوابَ غداً، فقالَ: إنَّك لمن المصدِّقين بالآخرةِ[٢]؟!

وقيلَ: أرادَ بالقرينِ: قرينَه من الشَّياطينِ كانَ يوسوسُ إليه بإنكارِ البعثِ.

وقيلَ: فيه إضمارٌ؛ أي: إنَّك لمن المصدِّقين بالبعثِ إذا متنا[٣].

﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ تقرأُ مع استفهامٍ، وأمَّا مَن قرأ: ﴿إِنَّا لَمَدِينونَ﴾ من غيرِ استفهامٍ[٤] فيكون[٥] المعنى: أئنَّك لمن المصدِّقين أنَّا لمدينون، ولكن كُسِرَ ﴿إِنَّا﴾ لدخولِ اللامِ في خبرِ (إنَّ).

وفي قراءةٍ عن حمزةَ: (أئنَّك لمَن المصَّدِّقين) بتشديدِ الصَّادِ[٦]، واعتُرِضَ عليه

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٣٤٧).

(٢) روى الطبريُّ في «تفسيره» (١٩/ ٥٤٣) عن ابن عباس قال: هو الرجل المشرك يكون له الصاحب في الدنيا من أهل الإيمان، فيقول له المشرك: إنك لتصدق بأنك مبعوث من بعد الموت أئذا كنا ترابًا؟ فلما أن صاروا إلى الآخرة وأدخل المؤمن الجنة، وأدخل المشرك النار، فاطلع المؤمن، فرأى صاحبه في سواء الجحيم ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾.

(٣) في (أ): «بالبعث إذ قلنا»، والصواب المثبت.

(٤) أي: بهمزة واحدة، قرأ بها نافع والكسائي ويعقوب، والباقون بهمزتين. انظر: «النشر» لابن الجزري (١/ ٣٧٣).

(٥) في (أ): «فنقول»، والصواب المثبت.

(٦) ذكرها ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٥٤٢) من رواية بكر بن عبد الرحمن القاضي عن حمزة، والقرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٣٦) من رواية علي بن كيسة عن سليم (وهو ابن عيسى بن سليم =

بأنَّ هذا منَ التَّصديقِ لا منَ التَّصدُّق. **والاعتراضُ باطلٌ؛ لأنَّ القراءةَ إذا ثبتَت عن النَّبيِّ ﷺ، فلا مجالَ للطَّعنِ فيها**، فالمعنى: إئنَّك لمن المصَّدِّقين بالمالِ طمعاً في ثوابِ الآخرةِ.

قولُه تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾؛ أي: كانَ يقول: أئنَّا لمحاسَبونَ مَجزيُّونَ بعدَ الموتِ؟! على طريقِ التَّعجُّبِ.

***

(٥٤ ـ ٦١) ـ ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾؛ أي: ثمَّ قالَ المؤمنُ لإخوانِه في الجنَّةِ: هل أنتم مُطَّلعون إلى النَّارِ لننظرَ كيفَ حالُ ذلكَ القرينِ؟

وقيلَ: تقولُ الملائكةُ: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾، أو يقولُ اللهُ لهم ذلك.

واطَّلَعَ: افتعَلَ من الطُّلوعِ؛ أي: أشرفَ، وفيه إضمارٌ؛ أي: هل أنتم مُطَّلعون في النَّارِ.

﴿فَاطَّلَعَ﴾ هذا المؤمنُ فرأى أخاه ﴿فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: في وسطِ الجحيمِ، وإنَّما قيلَ للوسطِ: سواءٌ؛ لاستواءِ المسافةِ منه إلى الجوانبِ.

﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾؛ أي: لقد كدتَ تُهلِكُني، والإرداءُ: الإهلاكُ.

وقيلَ: ﴿إِن﴾ للنَّفي؛ أي: ما أردْتَ إلَّا أن تُهلِكَني بإغوائِك إيَّاي.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى﴾؛ أي: بالإسلامِ ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾؛ أي: معك في النَّارِ،

= الكوفي المقرئ) عن حمزة، وهي خلاف المشهور عنه.

وفيه إضمارٌ؛ أي: المحضَرين في النَّار، وفي الخبرِ: «إنَّ هذهِ الحشوشَ مُحتضَرةٌ»(١)؛ أي: تحضرُها الشَّياطينُ، وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم: ١٦].

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ قيلَ: هوَ اعترافٌ من هذا المؤمنِ بعِظَمِ نعمةِ الله؛ أي: قد أمِنَّا الموتَ بعد إذ أحيانا الله من الموتةِ الأولى الَّتي كانَت في الدُّنيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، فكأنَّه يقولُ: أهذا نحنُ وقد أمِنَّا مِن العذابِ والموت؟!

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ والسَّعادةُ الكاملة.

وقيلَ: هذا توبيخٌ من هذا المؤمنِ للمُنكرِ للبعثِ، كأنَّ القرينَ كانَ يقولُ: ليسَ إلَّا الموتُ في الدُّنيا، ولا عقابَ ولا ثوابَ بعدَه، فقالَ المؤمنُ: علمتَ الآنَ أنَّه لم يكنِ الأمرُ كما قلتَ. فالموتةُ الأولى: الموتُ في الدُّنيا.

وقيلَ: الموتةُ الأولى: كونُ الإنسانِ نطفةً؛ أي: لا حياةَ بعدَ الموتِ إلَّا في تلك الموتةِ.

وقيلَ: كانُوا يسمعونَ من المؤمنين أنَّ العبدَ يموتُ ثمَّ يحيا في قبره، ثمَّ يموت عند النَّفخة الأولى، فيقولُ المنكرون للبعثِ: لا موتَ إلَّا الموتة الأولى.

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ هذا من كلامِ ذلكَ المؤمنِ، أو يقولُ الملكُ هذا، أو هوَ مِن قولِ الله تعالى؛ أي: لمثلِ هذا النَّعيمِ ليَعملِ العاملون.

* * *

---

(١) رواه أبو داود (٦)، وابن ماجه (٢٩٦)، من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه، وقوله: (الحشوش): جمع حش، والمراد به: مواضع قضاء الحاجة، وأصل الحش: جماعة النخل الكثيفة، وكانوا كثيراً ما يقضون حوائجهم فيها قبل اتخاذ الكنف في البيوت. وفيه لغتان: ضم الحاء وفتحها. انظر: «جامع الأصول» (٤/ ٣١٤).

(٦٢ ـ ٦٨) ـ ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا ﴾ ذَكرَ ما أُعدَّ لأهلِ النَّارِ وما أُعدَّ لأهلِ الجنَّةِ، ثمَّ قالَ: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ الَّذي أُعدَّ لأهل الجنَّةِ ﴿خَيْرٌ﴾ أم ما أُعدَّ لأهلِ النَّارِ؟ وهذا ابتداءُ خطابٍ مِن اللهِ سُبحانَه وتعالى.

والنُّزُلُ: الفَضلُ، يُقالُ: طعامٌ له نُزُلٌ ونُزْلٌ؛ أي: رَيعٌ.

وقيلَ: النُّزُلُ الرِّزقُ، تقولُ: أقمتُ نُزلَهم؛ أي: هيَّأتُ لهم ما يَصلحُ أن ينزلوا عليه.

﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ وهيَ نزلُ أهلِ النَّارِ، قالَ اللهُ تعالى في (سورةِ الواقعة): ﴿لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ إلى قولِه: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥٢ ـ ٥٦]، وقالَ في صفةِ أهلِ الجنَّةِ: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧].

قيلَ: لمَّا نزلَ هذا لم تعرفْ قريشٌ الزَّقومَ، فقدم عليهم رجلٌ من أفريقيةَ فسألوه فقالَ: هوَ عندنا الزُّبدُ والتَّمرُ، فقالَ ابنُ الزِّبَعْرَى: أكثَرَ اللهُ في بيوتنا الزَّقُّومَ. وقالَ أبو جهلٍ لجاريتِه: زقِّمينا. فأتته بزُبدٍ وتمرٍ(١).

---

(١) ذكر نحوه مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٨٢٥)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٥١). وروى الإمام أحمد في «المسند» (٣٥٤٦)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٢٠)، بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «وقال أبو جهلٍ: أيُخَوِّفُنا محمد بشجرة الزَّقُّوم، هاتوا تَمْرًا وزُبْدًا فتَزَقَّموا». وروى الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٤٨) عنه نحوه، ورواه (١٤/ ٦٥٠) عن قتادة. وكثر في كتب التفسير نحو هذا الخبر عن ابن عباس وقتادة والسدي وغيرهم في الآيات التي ذكر فيها الزقوم والشجرة.

ولا شكَّ أنَّ المقصودَ في الكتابِ غيرُ هذا؛ فقيلَ: الزَّقُّومُ ثمرُ شجرةٍ مُرَّةِ الطَّعمِ، يُقالُ: تزقَّمْ هذا الطَّعام؛ أي: تناولْه على كرهٍ ومشقَّةٍ، فهو إذن شيءٌ مرٌّ يصطبرُ أهلُ النَّارِ على تناولِه على مشقَّةٍ.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ وذلك لأنَّهم قالوا: كيفَ تكونُ في النَّارِ شجرةٌ والنَّارُ تأكلُ الشَّجر. واستخفافُهم في هذا كقولِهم في قولِه تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠]: ما الَّذي يُخصِّصُ هذا العددَ؟ حتَّى قالَ بعضُهم: «أنا أكفيكُم منهم كذا، فاكفوني الباقين»، فقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المدثر: ٣١]، والفتنةُ الاختبارُ.

وكانَ هذا القولُ منهم جهلاً؛ إذ لا يستحيلُ في العقلِ أن يخلقَ اللهُ في النَّارِ شجراً من جنسِها لا تأكلُه النَّار، كما يخلقُ فيها الأغلالَ والقيودَ والحيَّاتِ والعقاربَ وخزنةَ النَّار.

وقيلَ: هذا الاستبعادُ الَّذي وقعَ للكفَّارِ هوَ الَّذي وقعَ الآنَ للمُلحدةِ حتَّى حملوا الجنَّةَ والنَّارَ على نعيمٍ أو عقابٍ تتخيَّلُه الأرواحُ، وحملوا وزنَ الأعمالِ والصِّراطَ واللَّوحَ والقلمَ على معانٍ زوَّرُوها في أنفسِهم، دونَ ما فهمَه المسلمون من مواردِ الشَّرعِ، وإذا وَرَدَ خبرُ الصَّادقِ بشيءٍ موهومٍ في العقلِ فالواجبُ تصديقُه وإن جازَ أن يكونَ له تأويلٌ، ثمَّ التَّأويلُ في موضعٍ أجمعَ المسلمون على أنَّه لا تأويلَ ثَـمَّ لا يجوزُ، والمسلمون مُجمِعون على الأخذِ بهذه الأشياءِ من غيرِ مصيرٍ إلى علمِ الباطن.

وقيلَ: ﴿جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً﴾؛ أي: عقوبةً ﴿لِّلظَّٰلِمِينَ﴾، كما قالَ: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: ١٤].

﴿لِّلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: للمشركين.

قولُه تعالى: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴾؛ أي: تَنبتُ في قرارِ الجحيمِ، ثمَّ هيَ متفرِّعةٌ في جهنَّمَ، هدت[1] بطلعِها أهلَ جهنَّمَ.

﴿ طَلْعُهَا ﴾؛ أي: ثمرُها ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ قُبحاً وسماجةً.

والشَّيطانُ وإن لم يُرَ في العُرفِ فقد ساغَ ضربُ المثلِ بالشَّياطينِ في الأشياءِ القبيحة، وقد قالَ اللهُ: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ [الأنعام: ١١٢]، فمردةُ الإنسِ شياطينُ مُزيِّنةٌ، وقد ادَّعى كثيرٌ من العربِ رؤيةَ الشَّياطينِ والغِيلانِ.

وقالَ الزَّجَّاجُ والفرَّاءُ: الشَّياطينُ حيَّاتٌ لها رؤوسٌ وأعرافٌ، وهيَ من أقبحِ الحيَّاتِ[2].

وقيلَ: رؤوسُ الشَّياطينِ نبتٌ معروفٌ قبيحُ الرَّأسِ.

وتُسمَّى الثَّمرةُ طَلعاً لكونِها تطلعُ في كلِّ سنةٍ.

﴿ فَإِنَّهُمْ ﴾؛ أي: هؤلاءِ الظَّالمون ﴿لَأَاكِلُونَ مِنْهَا﴾ إلى ملءِ البطونِ، فهذا طعامُهم وفاكهتُهم بدلَ رزقِ أهلِ الجنَّةِ.

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا ﴾؛ أي: مزجاً وخلطاً ﴿مِّنْ حَمِيمٍ ﴾، وهوَ الماءُ الحارُّ في نهايةِ الحرارةِ في مقابلةِ شرابِ أهلِ الجنَّةِ، والمعنى: أنَّهم يغلبُهم الجوعُ فيُضطرُّون إلى شجرةِ الزَّقُّوم، ثمَّ يغلبُهم العطشُ فيُضطَّرون إلى الحميمِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥].

والعجبُ أنَّ مع هذا التَّصريحِ يصيرُ أقوامٌ من المصلِّين إلى القِبلةِ إلى أنَّ أحوالَ

---

(١) كذا في (أ)، ولعل الصواب: «كفت».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٨٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٠٦).

الدَّارِ الآخرةِ خيالاً[١] كما يَرى الإنسانُ في النَّوم اليومَ أنَّه يتألَّم أو يلتذُّ، ويرجعُ ذلكَ إلى الرُّوحِ= ثمَّ يتعامَى عنهم المسلمون.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾؛ أي: أنَّهم يكونون في وسطِ الجحيمِ، فإذا جاعُوا جاؤوا إلى الزَّقُّوم فأكلوا منه، وإلى الحميمِ فشربوا منه، ثمَّ يُرَدُّون إلى وسطِ الجحيمِ.

وقالَ مقاتلٌ: الحميمُ خارجُ الجحيمِ فهم يَرِدُون الحميمَ لشُربِه، ثمَّ يُرَدُّون إلى الجحيم؛ لقولِه تعالى: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٣][٢]، ولعله في موضعٍ من جهنَّمَ على طرفٍ منها.

* * *

(٦٩ ـ ٧٤) ـ ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾؛ أي: ذلكَ لأنَّهم وجدوا آباءَهم ضالِّين فاقتدوا بهم.

﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾؛ أي: يُسرِعون، والإهراعُ: عَدْوٌ كالهرولةِ، ويُقالُ: أُهرِعَ إلى كذا؛ أي: استُحِثَّ إليه؛ أي: يتسارعون إلى تقليدِ آبائِهم.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾؛ أي: قبلَ قومِك يا محمَّدُ ﴿أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: الأممِ الخاليةِ.

---

(١) كذا في (أ)، والصواب: «خيال»، أو: «تكون خيالًا».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٠٩) و(٤/ ٢٠٢).

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾؛ أي: فيمن مَضى من الأممِ، والمنذِرُ: الرَّسولُ.

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾؛ أي: الَّذين أُنذِرُوا العذابَ؛ أي: بلغَكَ بالاستفاضةِ ما جرى على عادٍ وثمودَ وقومِ شعيب؛ لأنَّهم كانُوا في بلادِ العربِ، فلم تَخْفَ عليهم أخبارُهم.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ استثنى أهلَ التَّوحيدِ؛ أي: استخلصَهم الله سُبحانَه وتعالى من الكفرِ.

ثمَّ؛ قيلَ: هوَ استثناءٌ من ﴿الْمُنذَرِينَ ﴾.

وقيلَ: هوَ من قولِه: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾.

***

(٧٥ ـ ٨٢) ـ ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾ هذا تفصيلُ قولِه: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾؛ أي: دعانا وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾؛ أي: فنعمَ المجيبون نحن، وفيه إضمارٌ؛ أي: فأجبناه.

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾؛ أي: خلَّصناه وأهلَه، وهم إحدى امرأتيه وبنوه الثَّلاثةُ: سامٌ وحامٌ ويافث، ومَن كانَ معه في الفُلك ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾؛ أي: الغمَّةِ الَّتي كانُوا فيها من أذى الكفَّار ومن الغرق.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ ذرِّيَّتُه هم الَّذين بقُوا في الأرضِ وتوالدوا، ولم يكن

لأحدٍ نسلٌ بعدَ الخروجِ من الفُلكِ من أصحابِ الفُلك إلَّا لأولادِ نوحٍ في ظاهرِ ما يقابلُه[١] ونقلَه المفسِّرون.

وقالَ قومٌ: كانَ لغيرِ ولدِ نوحٍ أيضاً نسلٌ بدليلِ قولِه: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ٣]، وقولِه: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨]، فعلى هذا معنى الآيـةِ الشَّريفةِ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ دونَ ذرِّيَّةِ مَن كفرَ به؛ فإنَّا أغرقْنا أولئك.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾؛ أي: تركنا عليه ثناءً حسناً في كلِّ أمَّةٍ؛ فإنَّه محبَّبٌ إلى الجميعِ حتَّى إنَّ في المجوسِ مَن يقولُ: إنَّه أفريدون.

وقيلَ: ﴿فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾؛ أي: في أمَّةِ محمَّدٍ ﷺ.

وقيلَ: أي: في الأنبياءِ؛ إذ لم يُبعَث بعدَه نبيٌّ إلَّا أُمِرَ بالاقتداءِ به، قالَ اللهُ تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣].

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾؛ أي: تركْنا عليه ثناءً حسناً، وهوَ سلامٌ؛ أي: يُصَلَّى عليه إلى يومِ القيامةِ، وقرأ ابنُ مسعودٍ: (سلاماً على نوح)[٢].

وقيلَ: هوَ ابتداءُ سلامٍ مِن اللهِ سُبحانَه وتعالى على نوحٍ؛ أي: سلامةٌ له مِن أن يُذكَرَ بسوءٍ في الآخرين. وعلى هذا ففي قولِه: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ إضمارٌ؛ أي: تركنا عليه الثَّناءَ الجميلَ.

وقيلَ: أي: قولوا: سلامٌ على نوحٍ، كما قيلَ في قولِه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: قولوا: الحمدُ لله.

---

(١) أي: في ظاهر ما يقابل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾، وهو كون غير ذريته ليسوا من الباقين.

(٢) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٨٨)، و«مشكل إعراب القرآن» لمكي (٢/ ٦١٤)، و«البسيط» للواحدي (١٩/ ٦٨).

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: المحسنين أعمالَهم.

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا بيانُ إحسانِه.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾؛ أي: مَن كفرَ، و﴿ثُمَّ﴾ [ليس][1] للتَّراخي هاهنا، بل هوَ لتعديدِ النِّعمِ، كقولِه: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد: ١٦]؛ أي: ثمَّ أُخبِرُكم أنِّي قد أغرقتُ الآخرين، وهم الَّذين تأخَّروا عن الإيمانِ.

***

(٨٣ ـ ٨٧) ـ ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾؛ أي: ممَّن شايَعَ نوحاً على الهدى، يُقالُ: أشاعَ الخبرَ في النَّاسِ؛ أي: أتبعَ البعضَ البعضَ حتَّى انتشرَ.

وقالَ الكلبيُّ: أي: وإن من شيعةِ محمَّدٍ عليه أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ لإبراهيمُ[2]؛ أي: كانَ على دينِه وإن كانَ سابقاً له.

﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ أي: أخلصَ للهِ العبادةَ مدَّةَ حياتِه حتَّى أتى حينَ توفَّاه الله عزَّ وجلَّ بقلبٍ سليمٍ.

وقيلَ: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ﴾ في الحالِ ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ أي: كانَ سليمَ القلبِ من الشِّركِ.

وقيلَ: القلبُ السَّليمُ هوَ الَّذي سلمَ النَّاسُ من شرِّه وظُلمِه.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: لسلامتِه من الشِّركِ قالَ لقومِه: لم تَعبدونَ الأصنام؟ وهذا استفهامُ توبيخٍ.

---

(١) من «تفسير القرطبي» (١٨/ ٤٩).

(٢) ذكره عنه الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٥٤)، والواحدي في «البسيط» (١٩/ ٦٨).

﴿مَاذَا﴾؛ أي: أيُّ شيءٍ هذا؟ وقيلَ: ما الَّذي تعبدون؟

﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾؛ أي: أكذِباً؛ أي: آلهةً[1] دونَ اللهِ تريدونَ إفكاً؟ والإفكُ: أسوأُ الكذبِ، ﴿تُرِيدُونَ﴾؛ أي: تعبدون.

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هوَ كلمةُ تحذيرٍ، كقولِه: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]؛ أي: فما ظنُّكم بمَن هوَ ربُّ العالمين إذا لقيتُموه وقد عبدْتُم الأصنامَ ماذا يصنعُ بكم؟

وقيلَ: أي: أيُّ شيءٍ توهَّمتُموه حتَّى أشركتُم به غيرَه؟

* * *

(٨٨ ـ ٩٢) ـ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ كانَ أهلُ وقتِه أصحابَ النَّظرِ في النُّجومِ، وحضرَهم عِيدٌ يخرجون فيه في الصَّحراء، فأرادَ أبوه أن يخرجَ معهم ليرى تقرُّبَهم إلى أصنامِهم بالقرابين وتعظيمَهم لدينِهم، وأرادَ إبراهيمُ أن يتخلَّفَ لكسرِ أصنامِهم، فنظرَ في النُّجومِ فِعْلَ مَن يتعرَّفُ الأمرَ من طريقِ التَّنجيم.

﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾؛ أي: إنَّ النُّجومَ تدلُّ أنِّي سأسقمُ في مخرجي إن خرجتُ، فأنا أحترزُ منه، فأراهم من معتقدِهم عذراً لنفسِه.

وقيلَ: كانَ مرادُه: إنِّي سأسقمُ سقمَ الموتِ؛ لأنَّ مَن كُتِبَ عليه الموتُ يسقمُ في الغالبِ ثمَّ يموتُ.

وقيلَ: ما يلحقُ الإنسانَ من سقمٍ خفيٍّ، فيُمكنُ أنَّه أشارَ إلى ذلكَ، وأوهمَهم

(١) كذا في (أ)، ولعل الصواب: «أآلهة».

أَنَّه سقمٌ يحدثُ عند خروجِه، وهذا توريةٌ وتعريضٌ، كما قالَ للملكِ لـمَّا سأله عن سارةَ: «هيَ أختي» (١)، يعني: أخوَّةَ الدِّينِ.

وقيلَ: كانَت الحمَّى تأخذُه في بعضِ ساعاتِ اللَّيلِ والنَّهارِ، فنظرَ في النُّجومِ ليعرفَ متى تكونُ تلك السَّاعةُ، فقالَ: «إنِّي سقيمٌ إذ كانَت السَّاعةُ الَّتي تأخذني الحمَّى»، وكانَ صادقاً، فنظرُه في النُّجومِ إنَّما كانَ ليعرفَ وقتَ الحمَّى.

وفي الخبرِ: «لم يكذبْ إبراهيمُ إلَّا ثلاثَ كذباتٍ؛ قولَه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقولَه: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقولَه لسارةَ: أختي»(٢).

وهذا يعضدُ القولَ الأوَّلَ؛ إذ قلْنا: إنَّ إبراهيمَ عرَّضَ، وهوَ وإن جازَ له ما فعلَ لأنَّه في الذَّبِّ عنِ الدِّينِ، فإنَّه كانَ مُستشعِراً من ذلك، فلهذا قالَ: ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، والأنبياءُ لقُربِ محلِّهم من اصطفاءِ اللهِ يحترِزون عمَّا يُوهِمُ الخطأَ.

وقيلَ: أي: فنظرَ نظرةً فيما نَجمَ من كلامِهم لـمَّا سألوه الخروجَ معهم إلى العيدِ؛ أي: فكَّرَ في طلبِ عُذرٍ للتَّخلُّفِ، فقالَ: إنِّي سقيمٌ من كفرِكم. فالنُّجومُ جمعُ نَجمٍ، وهوَ ما نَجمَ مِن كلامِهم.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾؛ أي: عَذروه، وخرجوا إلى عيدِهم دونَه.

وقيلَ: أوهمَهم أنَّ به الطَّاعونَ، فكانُوا يهربون من هذا الدَّاءِ، فتولَّوا عنه هرباً وخوفاً من العَدوى.

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ ﴾؛ أي: فمالَ إليها في خُفية، يُقالُ: راغَ الثَّعلبُ يروغُ رَوغاناً.

---

(١) سيأتي قريباً.

(٢) رواه البخاري (٢٢١٧)، ومسلم (٢٣٧١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ قيلَ: كانَ بين يدي الأصنامِ طعامٌ تركوه ليأكلوه إذا رجعوا من العيدِ، وإنَّما تركوه لتُصيبَه بركةُ الأصنامِ بزعمِهم، وقيلَ: تركوه للسَّدَنةِ.

وقيلَ: قرَّبَ هوَ إليها طعاماً على جهةِ الاستهزاءِ فقالَ: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؟!

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ وهذا أيضاً استهزاءٌ بها.

* * *

(٩٣ - ٩٨) - ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾؛ أي: كسرَهم، وقالَ في الأوَّلِ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾: مالَ عن قومِه إلى آلهتِهم، وهاهنا قالَ: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأنَّ المرادَ: مالَ بالضَّربِ على الآلهةِ ﴿بِالْيَمِينِ﴾؛ أي: باليدِ اليُمنى؛ لأنَّ الضَّرب باليُمنى أقوى، وقوَّةُ الرَّجلِ في يمينِه في الغالبِ.

وقيلَ: أي: فراغَ عليهم ضرباً بالقوَّةِ، واليمينُ القوَّةُ.

وقيلَ: بسببِ اليمينِ الَّتي هيَ الحَلِفُ؛ إذ قالَ: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧].

على الأصنامِ خطابَ مَن يعقلُ جرياً على اعتقادِ القومِ أنَّها آلهةٌ.

﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾؛ أي: لمَّا سمعوا ما كانَ منه إلى أصنامِهم بادروا إليه.

﴿يَزِفُّونَ﴾ بكسرِ الزَّايِ؛ أي: يُسرِعون، من زفيفِ النَّعامةِ، وهوَ ابتداءُ عَدوِها، وقرأ حمزةُ: ﴿يُزِفُّون﴾ بضمِّ الياءِ(١)، مِن أزفَّ إزفافاً بمعنى: أسرعَ أيضاً.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٨)، و«التيسير» (ص: ١٨٦).

وقيلَ: ﴿يُزِفُّون﴾؛ أي: يحملون غيرَهم على الزَّفيفِ، وعلى هذا فالمفعولُ محذوفٌ؛ قالَ الأصمعيُّ رحمه الله: أزْفَفْتُ الإبلَ؛ أي: حملتُها على أن تَزِفَّ[1].

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ فيه حذفٌ؛ أي: قالُوا: مَن فعلَ هذا بآلهتنا؟ فقالَ: ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾؛ أي: أتعبدونَ أصناماً أنتم تنحتونها بأيديكم من خشبٍ؟

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: وخَلَقَ أعمالَكم، و(ما) مـعَ الفعلِ بمعنى المصدرِ؛ أي: ومَعمولَكم، كقولِه: ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧]؛ أي: المأفوك به، و﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾ [طه: ٦٩]؛ أي: المصنوعَ.

﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا﴾؛ أي: تشاوَروا في أمرِه فقالَوا: ابنوا له بنياناً تملؤونه حطباً فتضرمونه، ثم أَلقوه فيه، وهو الجحيمَ.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: بنَوا حائطاً من حجارةٍ طولُه في السَّماءِ ثلاثون ذراعاً، وعرضُه عشرون ذراعاً، وملؤوه ناراً فطرحوه فيها[2].

والألفُ واللامُ في ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾ بدلٌ عن الكناية؛ أي: في جحيمِه؛ أي: في جحيمِ ذلكَ البنيانِ.

﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾؛ أي: بإبراهيمَ؛ أي: احتالوا لإهلاكِه ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾؛ أي: فصيَّرْنا النَّارَ عليه برداً وسلاماً، وصارُوا الأسفلين المقهورين؛ إذ نفذَت حجَّتُه من حيثُ لم يمكنهم دفعُها، ولم يَنفذ فيه كيدُهم.

***

---

(١) ذكره عنه أبو علي الفارسي في «الحجة» (٦/ ٥٧)، وابن سيده في «المخصص» (٢/ ١٩١)، والواحدي في «البسيط» (١٩/ ٧٦).

(٢) ذكره عنه مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٦١٣)، والواحدي في «البسيط» (١٩/ ٧٨).

(٩٩ ـ ١٠١) ـ ﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٩٩ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾؛ أي: قالَ حين خلَّصَه اللهُ من النَّارِ: إنِّي مهاجرٌ من بلد قومي ومَولدي إلى حيثُ أتمكَّنُ مِن عبادةِ ربِّي؛ فإنَّه سيهدينِ إلى الصَّوابِ فيما نويتُ.

وقيلَ: إنِّي ذاهبٌ إلى حيثُ أمَرني ربِّي.

وقيلَ: إلى رضا ربِّي، يعني: بيتَ المَقدسِ.

وقيلَ: ذاهبٌ بعملي وعبادتي وقلبي ونيَّتي إلى ربِّي، فعلى هذا ذهابُه بالعملِ لا بالبدنِ، وعلى الأوَّلِ بالمهاجرةِ إلى الشَّامِ وبيتِ المَقدسِ.

وقيلَ: خرجَ إلى حرَّانَ، فأقامَ بها مدَّة.

وقولُه: ﴿سَيَهْدِينِ﴾؛ أي: يثبِّتُني على الهدايةِ، وقيلَ: يهديني إلى المهاجَرِ الَّذي آمَنُ فيه شرَّ نمرود.

وقيلَ: قالَ هذا قبلَ الإلقاءِ في النَّارِ.

وقالَ سليمانُ بنُ صُرَد ـ وهوَ ممَّن أدركَ النَّبيَّ ﷺ ـ: لـمَّا أرادوا إلقاءَ إبراهيمَ في النَّارِ جعلوا يجمعون له الحطبَ، فجعلَتِ المرأةُ العجوزُ تحملُ على ظهرِها فتقول: أذهَبُ به إلى هذا الَّذي يذكرُ آلهتَنا، فلمَّا ذُهِبَ به ليُطرَحَ في النَّارِ قالَ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾، فلمَّا طُرِحَ في النَّارِ قالَ: حسبيَ اللهُ ونعمَ الوكيلُ، فقالَ اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فقالَ أبو لوطٍ وكانَ ابنَ عمِّه[1]: إنَّ النَّارَ

---

(١) في «تفسير الطبري»: «فقال ابن لوط أو ابن أخي لوط»، وفي «الدر المنثور»: «عم لوط»، وفي «العقوبات» كالمثبت.

لم تحرقْه مِن أجلِ قرابتِه منِّي، فأرسلَ اللهُ تعالى عُنُقاً مِن نارٍ فأحرقَه في الحالِ[1].

قولُـه تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لـمَّا عرَّفَه اللهُ أنَّـه مخلِّصُه دعا الله تعالى ليعضدَه بولـدٍ يأنـسُ بـه فـي غُربتِـه، وفـي الـكلامِ حـذفٌ؛ أي: هـبْ لي ولـداً من الصَّالحين.

﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾؛ أي: فاستجبنا دعاءَه فبشَّرناه على ألسنةِ الملائكةِ بولدٍ حليمٍ في ذاتِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، صبورٍ على أمرِ الله.

وقيلَ: بغلامٍ في صغرِه حليمٍ في كِبرِه، فكأنَّه بُشِّرَ ببقاءِ ذلكَ الولدِ.

* * *

(١٠٢) ـ ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾؛ أي: فوهَبْنا له الغلامَ، فلمَّا بلغَ المبلغَ الَّذي يسعَى مع أبيه في أمورِه مُعِيناً له على أعمالِه ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾؛ أي: امتحنَهما اللهُ تعالى بالذَّبحِ.

قالَ مجاهدٌ: ﴿بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾؛ أي: شبَّ وأدركَ سعيُه سعيَ إبراهيمَ[2].

وقالَ الفرَّاءُ: كانَ يومَئذٍ ابنَ ثلاثَ عشرةَ سنةً[3].

---

(١) رواه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٥/ ٦٤١)، ورواه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٢٤٠)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٧٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٧٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٢١)، ورواه الحاكم في «المستدرك» (٣٦١٢) من طريق مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٨٩).

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: هوَ الاحتلامُ، فمعنى السَّعيِ هوَ العملُ لله، ويكون ذلكَ بعد البلوغِ[(١)].

وقيلَ: خرجَ به إلى الجبلِ ليحتطِبَ معه، فهو سعيٌ إلى الجبلِ.

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ﴾ قالَ مقاتلٌ: رأى ذلكَ ثلاثَ ليالٍ متتابعاتٍ[(٢)].

وقالَ محمَّدُ بنُ كعبٍ: كانَت الرُّسلُ تأتيهم الوحيُ مِن اللهِ تعالى أيقاظاً ورُقوداً، فإنَّ الأنبياءَ لا تنامُ قلوبُهم[(٣)].

وقيلَ: رؤيا الأنبياءِ وحيٌ لهذه الآية، قالَه ابن عبَّاس[(٤)].

وقالَ السُّدِّيُّ: لما بُشِّرَ إبراهيمُ بإسحاقَ قبلَ أن يُولَد له قالَ: هوَ إذاً للهِ ذبيحٌ، فقيلَ له في منامه: قد نذرتَ نذراً فَفِ بنذرِك[(٥)]. فقولُه: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ﴾؛ أي: أرى ما يُوجِبُ في اليقظةِ الذَّبحَ، فإذاً رأى ما يُوجِبُ الذَّبحَ لا الذَّبحَ، ولهذا قالَ الذَّبيحُ: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾، ولم يقلْ: افعل ما رأيتَ.

ودلَّت الآيةُ على جوازِ النَّسخِ قبلَ الفِعلِ، وعلى هذا فقولُه: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾؛ أي: قد حقَّقتَ ما نبَّهناك عليه، وفعلتَ ما أمكنَك، ثمَّ امتنعْتَ لمَّا منعناك.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٨١) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦١٥).

(٣) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٨٢).

(٤) ذكره عنه الترمذي بعد حديث (٣٦٨٩)، ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٣٠٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦١٣)، وصححه.

ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٢١) عن ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً.

وليس في شيء منها ذكر الآية، وروى ذلك البخاري (١٣٨) عن عبيد بن عمير قال: رؤيا الأنبياء وحي. ثم قرأ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٨٠).

ومَن قالَ: لا يجوزُ النَّسخُ قبلَ الفِعلِ قالَ: لأنَّ إبراهيمَ ما أُمِرَ بالذَّبحِ الحقيقيِّ الَّذي هوَ فريُ الأوداجِ وإنهارُ الدَّمِ، وإنَّما رأى أنَّه أضجعَه للذَّبحِ، فتوهَّمَ أنَّه أُمِرَ بالذَّبحِ الحقيقيِّ، فلمَّا أتَى بما أُمِرَ به من الإضجاعِ قيل له: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾.

وقالَ هؤلاءِ أيضاً: اسمُ الذَّبحِ قد يقعُ على إمرارِ السِّكِّين على الحلقِ من غيرِ قطعٍ، وقد يقولُ الرَّجلُ: ذبحتُ الشَّاةَ فلم تَنذبِح، إذا أمرَّ السِّكِّينَ على حلقِها فلم تقطَع.

وقالوا أيضاً: أمرَّ السِّكِّينَ على حلقِ الابنِ فانقلبَ، فعلمَ أنَّ الأمرَ كانَ مشروطاً بالإمكانِ، كمَن يُؤمرُ[1] بصلاةِ الظُّهرِ مثلاً، فيموتُ قبلَ الزَّوالِ، فإنَّه يعلمُ أنَّ الأمرَ كانَ مشروطاً بالبقاءِ، وقد يقولون: فَرَى الأوداجَ فالتحمَت.

وكلُّ هذا خارجٌ عن المفهومِ من الآيةِ، ولا يُظَنُّ بالخليلِ والذَّبيحِ أن يفهما من هذا الأمرِ ما ليسَ له حقيقةٌ حتَّى يكونَ منهما التَّوهُّمُ، ومَن هذا الخصمُ في المسألةِ الفَهِمُ للحقيقةِ دونَ الخليلِ والذَّبيحِ؟!

وأيضاً لو صحَّت هذه الأشياءُ لَمَا احتيجَ إلى الفداءِ.

واختلفوا في الذَّبيحِ؛ فقالَ قومٌ: هوَ إسماعيلُ؛ لأنَّ إبراهيمَ سألَ الولدَ لمَّا هاجَرَ إلى الشَّامِ ليستأنسَ به في غُربتِه، وأوَّلُ ما وُلِدَ له إسماعيلُ، ثمَّ اتَّصلَ بهذا قولُه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾، فدلَّ على أنَّ ذلكَ هوَ ذلكَ الولدُ.

وفي الآثارِ: أنَّ إسماعيلَ كانَ أكبرَ من إسحاقَ بثلاثَ عشرةَ سنةً[2].

وقيلَ: بخمسَ عشرةَ سنةً.

---

(١) في (أ): «يؤم»، ولعل الصواب المثبت.

(٢) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ١٥٠) دون نسبة، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٦٠) عن الكلبي.

وأيضاً؛ قالَ اللهُ تعالى في البِشارةِ بإسحاقَ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، فكيف يُؤمَرُ بذبحِ إسحاقَ قبلَ إنجازِ الوعدِ في يعقوبَ.

وأيضاً؛ وردَ في الأخبارِ تعليقُ قرنِ الكبشِ في الكعبةِ[١]، فدلَّ على أنَّه ذُبحَ بمكَّةَ، ولو كانَ الذَّبيحُ إسحاقَ لكانَ الذَّبحُ يقعُ ببيتِ المَقدسِ.

وقيلَ: رأى إبراهيمُ هذا المنامَ ليلةَ التَّرويةِ، وأخذ يتروَّى في الأمرِ، فلذلك قيلَ: يومُ التَّرويةِ.

وقيلَ: كانَ هذا لمَّا جاءَ إبراهيمُ مكَّةَ زائراً إسماعيلَ، ثمَّ رأى مرَّةً أخرى ليلةَ عرفةَ، فعَرفَ أنَّها رؤيا حقٌّ، فسُمِّيَ اليومُ يومَ عرفةَ.

ومَن قالَ: «الذَّبيحُ إسحاقُ» احتجَّ بأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾، وهوَ إسحاقُ؛ إذ ليسَ في القرآنِ تبشيرُ إبراهيمَ بولدٍ ذكرٍ إلَّا بإسحاقَ، ثمَّ عقَّبَ هذا بذكرِ الذَّبحِ، فعُلمَ أنَّ الذَّبيحَ إسحاقُ، وقولُه بعدَ هذا: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا﴾؛ أي: بشَّرناه بنبوَّتِه بعد أن كانَ من أمرِه ما كانَ، وجرتْ عليه هذه القصَّةُ وهوَ بالشَّامِ، ولعلَّه أُمِرَ بذبحِ إسحاقَ بعد أن وُلِدَ لإسحاقَ يعقوبُ، أو يُقالُ: لم يَرِدْ في القرآنِ أنَّ يعقوبَ يُولَدُ له مِن إسحاقَ، وأمَّا تعليقُ القَرنِ في الكعبةِ فلعلَّه حُمِلَ من الشَّامِ إلى مكَّةَ.

---

(١) روى الإمام أحمد في «مسنده» (١٦٦٣٧) عن صفية بنت شيبة أم منصور قالت: أخبرتني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا، أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة ـ وقال مرة: إنها سألت عثمان بن طلحة: لم دعاك النبي ﷺ؟ ـ قال: «إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت، فنسيت أن آمرك أن تخمِّرَهما، فخمِّرْهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي»، قال سفيان: لم تزل قرنا الكبش في البيت حتى احترق البيت فاحترقا.

ورواه أبو داود (٢٠٣٠) بلفظ: «إني نسيتُ أن آمرك أن تُخمِّرَ القَرنينِ فإنه ليسَ ينبغي أن يكونَ في البيتِ شيءٌ يَشغَلُ المصلي».

وقالَ سعيدُ بنُ جُبيرٍ: لمَّا رأى في المنامِ ذبحَ إسحاقَ سارَ بـه مسيرةَ شهرٍ في غداةٍ واحدةٍ حتَّى أتى المنحرَ، فلمَّا صَرَفَ اللهُ عنه الذَّبحَ، وذبحَ الكبشَ، سارَ به مسيرةَ شهرٍ في غداةٍ واحدةٍ، وطُوِيَت له الأرضُ والجبالُ والأوديةُ[١].

ومَن قالَ: «الذَّبيحُ إسماعيلُ» قالوا: ذبحُ الكبشِ وقعَ بمكَّةَ بمنى.

وقيلَ: عند مقامِ إبراهيمَ.

وقالَ قومٌ: قصَّةُ ذبحِ إسماعيلَ وقعَت ببيت المَقدسِ.

وقالَ الزَّجَّاجُ: اللهُ أعلمُ أيُّهما الذَّبيحُ[٢]. فهذا مذهبٌ ثالثٌ.

﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ بفتحِ التَّاءِ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿ماذا تُرِي﴾ بضمِّ التَّاءِ وكسرِ الراءِ[٣]؛ أي: تُشيرُ، وإنَّما شاورَ الابنَ ليَعلمَ صبرَه لأمرِ اللهِ تعالى، أو لتَقرَّ عينُه إذا رأى مِن ابنه طاعةً في أمرِ اللهِ.

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾؛ أي: ما تُؤمَرُ به، فحذفَ الجارُّ، فوَصلَ الفعلُ إلى الضَّمير، فصارَ: تُؤمَرُه، ثمَّ حُذِفَت الهاءُ، كقولِه: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩]؛ أي: اصطفاهم.

* * *

(١٠٣ ـ ١١١) ـ ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٨٢٣).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣١١).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٨)، و«التيسير» (ص: ١٨٦).

قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾؛ أي: أخلصا النِّيَّةَ في الانقيادِ لأمرِ اللهِ، وقرأ ابنُ عبَّاسٍ وابنُ مسعودٍ: (فلمَّا سَلَّما)(١).

وقيلَ: أسلمَ إسماعيل مهجتَه للهِ، وأسلمَ إبراهيمُ ابنَه للهِ.

وفي روايةِ ابنِ عبَّاسٍ: أنَّه جرت قصَّةُ الذَّبيحِ قبلَ مَولدِ إسحاقَ(٢).

قولُه تعالى: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾؛ أي: صرعَه، وللوجهِ جبينان والجبهةُ بينهما، والمتلولُ: المصروعُ.

قولُه تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾؛ أي: نادته الملائكةُ بأمرِنا، وقيلَ: هوَ نداءُ الحقِّ، وقالَ الكوفيُّون: الواوُ زائدةٌ، وقولُه: (نادَيناه) جوابُ ﴿فَلَمَّآ﴾، وقالَ البصريُّون: لا يجوزُ إقحامُ الواوِ، والجوابُ مُقدَّرٌ؛ أي: فلمَّا فعلَ ذلكَ سَعِدَ، وآتاه الله نبوَّةَ ولدِه.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ فيه إضمارٌ؛ أي: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ وفدَيْناه بذِبحٍ عظيمٍ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾؛ أي: هذا الَّذي ابتلينا به إبراهيمَ والذَّبيحَ هوَ البلوى الغليظةُ الواضحُ أمرُها، والبلاءُ: الاسمُ من الابتلاءِ أيضاً.

وقيلَ: هوَ مِن البَلاءِ الذي هوَ الغَناءُ، يُقالُ: أبلى فلانٌ في الحربِ بلاءً حسناً؛ أي: هذا الصَّبرُ والتَّسليمُ منهما أثرٌ محمودٌ في الدِّين.

وقيلَ: البلاءُ بمعنى النِّعمة؛ أي: صرفُ الذَّبحِ عنه والفداءُ نعمةٌ عظيمةٌ منَّا عليه.

قولُه تعالى: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾؛ أي: جعلنا الذِّبحَ فداءً له، والذِّبحُ: ما يُذبَحُ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٩)، و«المحتسب» (٢/ ٢٢١)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٦٨). قال القرطبي: أي: فوضا أمرهما إلى الله.

(٢) لم أجده.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: هوَ الكبشُ الَّذي تقرَّبَ به هابيلُ، وكانَ في الجنَّةِ يرعَى حتَّى فدى الله تعالى به إسماعيلَ[(١)].

وقيلَ: أرسلَ اللهُ تعالى كبشاً من الجنَّةِ قد رعى أربعين خريفاً.

وقيلَ: كانَ الذِّبحُ وعلاً انحطَّ عليه من الجبلِ.

قالَ الحسنُ: ما فُدِيَ إسماعيلُ إلَّا بتيسٍ من الأَرْوَى أُهبِطَ عليه من ثَبير، فذبحَه إبراهيمُ فداءً عن ابنِه[(٢)]. وهذا قولُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنه[(٣)].

ولمَّا رآه إبراهيمُ أخذَه فذبحَه واعتنقَ ابنَه، وقال: يا بنيَّ اليومَ وُهِبتَ لي.

﴿عَظِيمٍ﴾؛ أي: عظيمِ القَدْرِ، ولم يُرِدْ عِظَمَ الجثَّةِ، وإنَّما عَظُمَ قَدْرُه لأنَّه فُدِيَ به الذَّبيحُ، أو لأنَّه مُتقبَّلٌ، وقيلَ: أرادَ السِّمنَ.

قولُه تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾؛ أي: على إبراهيمَ ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾؛ أي: ثناءً جميلاً في الأممِ بعدَه.

وقيلَ: هوَ دعاءُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، ولهذا لم ينزل المتروكُ، والقرآنُ كالآيةِ الواحدةِ يُستدلُّ بالبعضِ على البعضِ وإن تفرَّق النُّقصان في السُّورِ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٩٣) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما. وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٦٠١)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٣٩٦)، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٦٠٤). وثبير: من أعظم جبال مكة. انظر: «معجم البلدان» (٢/ ٧٢).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٦٠٠) بلفظ: كبشٍ أبيضَ أقرنَ أعين مربوطٍ بسمرةٍ في ثبير. روى البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٢٩٠) عن علي رضي الله عنه قال: هبطَ الكبشُ الذِي فُدي به إبراهيمُ من هذه الجَنْبَةِ، عن يسار الجمرةِ الوسطى.

وقيلَ: أشارَ بهذا إلى قولِ الخلقِ ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾، وقولُه: ﴿ سَلَٰمٌ ﴾ ارتفعَ بالحكايةِ.

قولُه تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾؛ أي: سلامٌ منَّا، وقيلَ: سلامةٌ له من الآفاتِ.

﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾؛ أي: جزيناه بإحسانِه الثَّناءَ الحسَنَ في النَّاسِ.

قولُه تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ أي: من الَّذين أعطَوا العبوديَّةَ حقَّها حتَّى استحقُّوا الإضافةَ إلى اللهِ تعالى.

* * *

(١١٢ ـ ١١٣) ـ ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا ﴾؛ أي: بنبوَّةِ إسحاقَ في قولٍ، أو بإسحاقَ في قولٍ.

قولُه تعالى: ﴿ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ﴾ يعني: كثرةَ ولدِهما وذرِّيتِهما، وهم الأسباطُ كلُّهم، والبركةُ: إدامةُ النِّعمةِ، وأصلُها من النُّزولِ، وهوَ الاستقرارُ والثَّباتُ.

قولُه تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ لمَّا ذكَرَ البركةَ في الذُّرِّيَّةِ والكثرةَ قالَ: منهم محسنٌ فله جزاءُ المحسنين، ومنهم مسيءٌ فله جزاءُ المسيئين، وبيَّنَ أنَّ اليهودَ والنَّصارى وإن كانُوا من ولدِ إسحاقَ، والعربَ وإن كانُوا من ولدِ إسماعيلَ، فلا بدَّ من الفَرقِ بينَ المحسنِ والمسيءِ والمؤمنِ والكافرِ، فلا تنفعُ المسيءَ بنوَّةُ النُّبوَّةِ.

والمبينُ: الظَّاهرُ؛ أي: منهم من هوَ ظاهرُ المعصيةِ والفسادِ.

* * *

(١١٤ ـ ١٢٢) ـ ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾؛ أي: بالدَّعوةِ وغيرِها من الحفظِ من كيدِ فرعونَ[1].

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا ﴾ وهم بنو إسرائيلَ ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ أي: مِـنَ الغمِّ الشَّديدِ، وذلك بإغراقِ فرعونَ.

﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ ﴾ يعني: موسى وهارونَ وقومَهما.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾؛ أي: التَّوراةَ، يُقـالُ: استبانَ كذا؛ أي: صارَ بيِّناً، واستبانَهُ فلانٌ؛ مثلَ: تبيَّنَ الشَّيءُ بنفسِه وتبيَّنَه فلانٌ.

﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾؛ أي: أرشدناهما إلى الطَّريقةِ الَّتي لا اعوجاجَ فيها.

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾؛ أي: تركنا عليهما الثَّناءَ الجميلَ.

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ ﴾ مضى معناه.

* * *

(١٢٣ ـ ١٣٢) ـ ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

---

(١) بعدها في (أ) كلمتان لم تجودا.

قولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ قالَ المفسِّرون: إلياسُ نبيٌّ من بني إسرائيلَ، وقالَ ابنُ مسعودٍ: هوَ إدريسُ[١]، وقرأ: (وإنَّ إدريسَ)[٢].

وقرأ ابنُ عامر: ﴿وإنَّ الْيَاسَ﴾ من غيرِ همزٍ[٣]، فكأنَّه حذفَ الهمزةَ كما حذفَ ابنُ كثيرٍ في قولِه: ﴿إنَّها لَحْدَى الكُبَرِ﴾[٤]، والأحسنُ الهمزُ لإجماعِهم على ذلكَ في ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ بالهمزةِ.

قولُـه تعالـى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾؛ أي: اذكـرْ يـا محمَّـدُ لقومِـك إذ قـالَ إليـاسُ لقومِـه، وقيلَ: ﴿إِذْ﴾ من صلـةِ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾؛ أي: كانَ من المرسَـلين حين قـالَ لقومِـه كذا.

﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴾؛ أي: ألَا تعبدونَ الله.

قولُه تعالى: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ يعني: صنماً لهم كانُوا يعبدونَه ببعلبكَّ.

قالَ مقاتلٌ: كسرَه إلياسُ وهربَ منهم[٥].

وقيلَ: البعلُ بمعنى الرَّبِّ والسَّيِّدِ؛ أي: أتدعون بعلاً ربّاً، ومنه سُمِّيَ الزَّوج بعلاً، فيُمكنُ أنَّهم سَمَّوا صنمَهم بعلاً لهذا.

وقيلَ: بعلٌ اسمُ امرأةٍ كانُوا يعبدونها.

---

(١) ذكره عنه البخاري قبل حديث (٣٣٤٢)، والنحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٩٤)، ورواه عنه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٨٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٤١٢).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٨)، و«المحتسب» (٢/ ١٢٤).

(٣) ذكرها ابن مجاهد في «السبعة» (ص: ٥٤٨) عن ابن عامر، وذكرها الداني في «التيسير» (ص: ١٨٧) عنه من رواية ابن ذكوان.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٦٥٩).

(٥) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦١٧).

﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾؛ أي: عبادةَ أحسنِ الخالِقين.

﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ قُرِئَ بالرَّفعِ على الابتداءِ؛ أي: أنَّه خالقُكم، فهو الَّذي تحقُّ العبادةُ له دونَ مَن لا يسمعُ ولا يبصرُ، وقُرِئَ بالنَّصبِ[١] صفةً لقولِه: ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أخبرَ عن قومِ إلياسَ أنَّهم كذَّبوه ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾؛ أي: محضرونَ النَّارَ غداً.

﴿إلَّا عِبادَ اللهِ المُخلِصينَ﴾ استثنى من إحضارِ العذابِ مَن أخلَصَ العبادةَ للهِ تباركَ وتعالى، وقُرِئَ: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتحِ اللام[٢]؛ أي: أخلَصَهم اللهُ لدينِه؛ أي: اصطفاهم له.

قولُه تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ يريد: إلياسَ ومَن معه، قاله ابن عبَّاس[٣].

وقالَ الفرَّاءُ: ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ جمعٌ، فجعلَ أصحابَه داخلينَ في اسمِه، كما يُقالُ: الـمَهالِبةُ والـمُهلَّبون، وكما يُقالُ: الأشعَرونَ والخُبَيبونَ[٤]، قالَ: ويجوزُ أن تجعلَه واحداً بمنزلةِ إلياسَ، وقد يفعلُ العربُ هذا بالاسمِ العجميِّ، فيُقالُ: ميكالُ وميكائيلُ وميكائينُ، وبنو أسدٍ يقولون: هذا إسماعين بالنُّون[٥].

---

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي: ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ﴾ بنصب الأسماء الثلاثة والباقون برفعها. انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٨ ـ ٥٤٩)، و«التيسير» (ص: ١٨٧).

(٢) قرأ نافع والكوفيون بفتح اللام، وباقي السبعة بكسرها. انظر: «التيسير» (ص: ١٢٨).

(٣) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٩/ ١٠٠).

(٤) «الخُبيبونَ» أصحاب عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما لأنه كان يكنى: أبا خبيب، والأصل: الخبيبيِّين، ثم حذف الياء كقولهم: الأشعرين. انظر: «المقاصد النحوية» للعيني (١/ ٣٢٨).

(٥) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٩١ ـ ٣٩٢).

وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ: ﴿سلامٌ على آلِ ياسين﴾ ممدودةَ الألفِ[١]؛ لأنَّ (آل) مفصولةٌ في المصحفِ من (ياسين)، وعلى هذا فالأصلُ ياسٌ على ياسين[٢]؛ لأنَّه اسمٌ عبرانيٌّ، والعربُ تزيدُ فيه وتنقصُ مثل: إبْرَهَمَ وإبراهيمَ وأبراهامَ وأبراهيمَ.

وقيلَ: أشارَ بسورةِ ﴿يسٓ﴾ إلى جميعِ القرآنِ؛ أي: سلامٌ على آلِ القرآنِ؛ أي: أهلِ القرآنِ، كما في الخبرِ: «يا أهلَ القرآنِ أَوْتِرُوا»[٣]، وكما نادى منادي رسولِ اللهِ ﷺ يومَ حُنينٍ: يا أصحابَ الشَّجرةِ، يا أصحابَ سورةِ البقرةِ[٤].

وقالَ الكسائيُّ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾ زيدَت الياءُ والنُّونُ لرؤوسِ الآيِ، كقولِه: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩].

وقالَ الكلبيُّ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾؛ أي: على آلِ محمَّدٍ ﷺ[٥]، وهوَ على قولِ مَن يقول: ﴿يسٓ﴾؛ أي: يا إنسانُ، وهوَ محمَّدٌ، وآلُه في قولٍ: قرابتُه المؤمنون من بني هاشمٍ وبني المطَّلبِ، وفي قولٍ: كلُّ مؤمنٍ، وفي قولٍ كما ورد.

وقالَ ابنُ إسحاقَ: كانَ القيِّمُ بأمرِ بني إسرائيلَ بعدَ يوشعَ كالبُ بنُ يُوحنا، ثمَّ

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٩)، و«التيسير» (ص: ١٨٧).

(٢) قوله: «فالأصل: ياسٌ على ياسين» كذا في (أ)، ولعل في الكلام سقطا أو تحريفاً، ويوضحه ما نقله القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٨٨) عن ابن جني من قوله: العرب تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعباً، فياسين وإلياس وإلياسين شيء واحد.

(٣) رواه أبو داود (١٤١٦)، والنسائي (١٦٧٥)، وابن ماجه (١١٦٩)، من حديث علي رضي الله عنه.

(٤) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (١٧٧٥) من حديث العباس رضي الله عنه ضمن حديث، وفيه: «فقال رسول الله ﷺ: يا عباس، ناد يا أصحاب السمرة»، يعني شجرة الرضوان التي بايعوا تحتها، وفي رواية (١٧٧٦): «ناد: يا أصحاب سورة البقرة».

(٥) ذكره عنه الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٣٩٢)، والواحدي في «البسيط» (١٩/ ١٠٣)، واستبعده الواحدي لأن ما قبله من الكلام وما بعده لا يدل عليه.

حزقيلُ، ثمَّ لـمَّا قبض الله حزقيل عظمت الأحداثُ في بني إسرائيلَ، فبعثَ اللهُ إليهم إلياسَ نبيّاً[١].

وقد قدَّمنا أنَّ قوماً قالوا: إلياسُ هوَ إدريسُ.

***

(١٣٣ ـ ١٣٨) ـ ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾؛ أي: أرسلناه إلى قومِه بالإنذارِ.

﴿ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ ﴾؛ أي: واذكر إذ نجَّيناه.

وقيلَ: أي: كانَ رسولاً حينَ نصَرْناه على قومِه، فنصَرْناه لذلك.

وعند أبي عُبيدةَ ﴿إِذْ﴾ زائدة[٢]؛ أي: نجَّيناه ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾ المؤمنينَ به ممَّا أنزلنا على مَن خالفَهم مِن العذابِ، وهوَ الخسفُ.

﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾، يعني: امرأةَ لوطٍ، كانَت من المتخلِّفين عن لوطٍ حتَّى هلكَت فيمَن هلَكَ.

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾؛ أي: أهلكناهم.

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم ﴾ خاطبَ العربَ؛ أي: تمرُّون في ذهابِكم ومجيئِكم إلى الشَّامِ

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٤٨٧)، والقرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٨٤)، ورواه مطولاً الطبري في «تفسيره» (٤/ ٤٣٧) من طريق محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه.

(٢) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٩/ ١٠٣). وذكره أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (١/ ٣٦) في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ ﴾ [البقرة: ٣٤] وعبارته: «معناه: وقلنا للملائكة، و(إذ) من حروف الزوائد».

للتِّجارةِ على قُراهم ومنازِلِهم ﴿مُّصْبِحِينَ﴾؛ أي: نهاراً ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾؛ أي: وتمرُّون بها ليلاً ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ لتعتَبِروا.

* * *

(١٣٩ - ١٤٨) - ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قيلَ: أُرسِلَ إلى أهلِ نينوى، وكانُوا يعبدونَ الأصنامَ.

﴿إِذْ أَبَقَ﴾؛ أي: خرجَ مِن بين ظهرانَي قومِه - لـمَّا كذَّبوه - من غيرِ أمرِ اللهِ تعالى ومِن غيرِ عِلمِ قومِه بخروجِه، فكانَ فاعلاً ما يفعلُه الهاربُ الآبِقُ، ولا يجوزُ للأنبياءِ فراقُ قومِهم من غيرِ أمرِ الله، وكانَ هذا من يونسَ صغيرةً، أو تَرْكَ الأَولى، وقد ذكرنا قصَّتَه في سورةِ الأنبياءِ.

وقيلَ: كانَ يونسُ وعدَ قومَه العذاب، فلمَّا تأخَّرَ عنهم العذابُ خرجَ كالمستورِ عنهم(١)، فقصدَ بلدَه، واحتاجَ إلى ركوبِ السَّفينة، ولم يكن هذا فِراراً مِن اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ لأنَّه كانَ يعلمُ أنَّ اللهَ تعالى يقدرُ عليه حيثُ كان، ولكن كانَ فعلُه كفعلِ الهاربِ الفارِّ.

---

(١) قوله: «كالمستور عنهم» كذا في (أ)، ومثله في «تفسير الرازي» (٢٦/ ٣٥٦)، وفي «تفسير النسفي» (٣/ ١٣٦)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٤): «كالمستور منهم»، وفي «البسيط» (١٩/ ١٠٤): «كالمنشوز عنهم»، وفي «الوسيط» (٣/ ٥٣٢): «كالمنشور عنهم». وكلها تحريف، والصواب ما في «تفسير الثعلبي» (٢٢/ ٤٢٦)، و«تفسير البغوي» (٧/ ٦٠)، و«لباب التفاسير» للكرماني (٧/ ٤٥٦): «كالمتشور منهم»، والمتشور: الخجلان. انظر: «تاج العروس» (مادة: شور).

وقالَ المُبرِّدُ: ﴿أَبَقَ﴾؛ أي: تباعَدَ؛ أي: ذهبَ إلى السَّفينة[١].

﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾؛ أي: الموقَرِ من النَّاسِ والدَّوابِّ ﴿فَسَاهَمَ﴾؛ أي: فقارَعَ، وهوَ مأخوذٌ من السِّهامِ الَّتي تُجالُ للقُرعةِ.

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾؛ أي: من المسهومين المحجوجين، يُقالُ: دحضَتِ الحجَّةُ؛ أي: زلَّت ولم تَثبُتْ، وأدحضَ اللهُ حجَّتَه فدَحَضَت، والدَّحْضُ: الزَّلَقُ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: لمَّا استَهَموا جاءَ حوتٌ إلى السَّفينةِ فاغراً فاهُ ينتظرُ أمرَ ربِّه حتَّى إذا قذفوه منها أخذَه الحوتُ[٢].

﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾؛ أي: ابتلَعَه ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾؛ أي: فَعَلَ ما يُلامُ عليه.

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾؛ أي: لو لا أنَّ يونسَ كانَ قبلَ وقوعِ هذا البلاءِ عليه مِن المسبِّحين؛ أي: من المصلِّين للهِ تعالى، أو من الذَّاكرين له بالتَّسبيحِ.

وقيلَ: عنى بالتَّسبيحِ: الَّذي كانَ منه في بطنِ الحوتِ، قالَ الحسنُ في قولِه: ﴿مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾: إن كانَت إلَّا صلاةً صلَّاها في بطنِ الحوتِ[٣].

﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ﴾؛ أي: عقوبةً له، فكانَ قبرَه إلى يومِ البعثِ، ولم يُرِد أنَّه كانَ يبقى حيّاً في بطنِ الحوتِ؛ إذ لا شكَّ أنَّ ذلكَ الحوتَ وغيرَه كانُوا يموتون قبلَ يومِ القيامةِ.

ثمَّ قيلَ: لبثَ في بطنِ الحوتِ أربعين يوماً، وقيلَ: ثلاثةَ أيَّام، وقيلَ: عشرينَ يوماً، وقيلَ: ساعةً واحدة.

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٩/ ١٠٤).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ١٠٦) عن سعيد بن جبير. وذكره أبو حفص النسفي في «التيسير» (١٠/ ٤٣٣) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٦٣٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٢٩).

وروى أبو هريرةَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «سبَّحَ يونسُ في بطنِ الحوتِ، فسمعَت الملائكةُ تسبيحَه، فقالَوا: ربَّنا إنَّا نسمعُ صوتاً ضعيفاً بأرضٍ غريبةٍ، قالَ: ذاك عبدي يونسُ عصاني فحبستُه في بطنِ الحوتِ في البحرِ، فشفعوا له عند ذلكَ، فأمَرَ الحوتَ فقذفَه في السَّاحلِ»[1].

قولُه تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾؛ أي: أخرجناه من بطنِه بأن ألقاه الحوتُ فرمى به ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ البدنِ، قد رقَّ بدنُه وضعفَ بحيث لا يصبرُ على حرِّ الشَّمس.

والعراءُ: المكانُ الخالي الَّذي لا شجرَ فيه.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: ألقاه على شاطئِ قريةٍ من الموصلِ[2].

وقيلَ: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾؛ أي: مُكتئِبٌ.

قولُه تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ في الخبرِ: «لفظَه الحوتُ في أصلِ

---

(١) رواه البزار في «مسنده» (٨٢٢٧)، من طريق ابن إسحاق عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٨): رواه البزَّار عن بعض أصحابه ولم يُسمِّه، وفيه ابنُ إسحاقَ وهو مُدَلِّسٌ، وبقيةُ رجالِه رجالُ الصَّحيح.
قلت: وفيه أيضاً انقطاع بين ابن إسحاق وعبد الله بن رافع، فقد رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣٨٥) عن ابن إسحاق عمن حدثه عن عبد الله بن رافع به. وإسناده ضعيف لإبهام الراوي عن ابن إسحاق. وذكر له ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٢٢) شاهدًا من طريق يزيد الرقاشي قال: سمعتُ أنسَ بنَ مالكٍ ولا أعلمُ إلا أن أنسًا يرفعُ الحديثَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فذكر نحو حديث أبي هريرة. قال ابن كثير: ويزيدُ الرَّقَاشيُّ ضعيفٌ، ولكنْ يَتقوَّى بحديث أبي هريرة المتقدِّم، كما يَتقوَّى ذاك بهذا. واللهُ أعلمُ.
والشاهد الذي ذكره ابن كثير عن أنس رضي الله عنه رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٥٥٨)، وابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (٣٢)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٦٢٨).

(٢) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٩/ ١١١).

يقطينةٍ»[١]، وهوَ الدُّبَّاءُ، فكانَ يستظلُّ بها وبظلِّها، وهيَّأ الله تعالى له أُرويَّةً من الوحشِ تروحُ عليه بكرةً وعشياً، فيشربُ من لبنِها حتَّى ينبتَ اللَّحمُ.

وقالَ الزَّجَّاجُ: اشتقاقُ اليقطينِ من قَطَنَ بالمكانِ؛ أي: أقامَ به[٢].

وقيلَ: ما كانَ ثَمَّ يقطينٌ، فأنبتَه اللهُ ثَمَّ في الحالِ، وفي الآيةِ ما يدلُّ على أنَّه كانَ معروشاً ليكونَ له ظلٌّ.

قولُه تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قالَ الفرَّاءُ: ﴿أَوْ﴾ بمعنى: بل[٣].

ويجوزُ أن تكونَ بمعنى الواو، وهكذا قولُه: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

وقيلَ: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ عندَ مَن نظرَ إليهم، فأمَّا اللهُ فقد أحصاهم عدداً.

هذا قولُ الفرَّاءِ[٤]، وأنكرَ البصريُّون كونَ ﴿أَوْ﴾ بمعنى: بل، وبمعنى الواو، وقالَ الأخفشُ والزَّجَّاجُ: أي: أو يزيدون [في تقديركم][٥].

ثمَّ؛ قيلَ: أي: كنَّا أرسلناه إلى مئةِ ألفٍ أو يزيدونَ، فآمنوا بعدَ مُفارقتِه إيَّاهم، فقبِلْنا توبتَهم ومتَّعناهم إلى حينٍ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ١٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٢٨)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣١٤).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٩٣).

(٤) يعني كون ﴿أَوْ﴾ بمعنى (بل)، فإن الفراء لم يذكر غيره.

(٥) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (١/ ٣٤) و(٢/ ٤٩١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣١٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٠٧). وما بين معكوفتين من المصادر.

وقيلَ: أي: واعَدْناه بالإرسالِ بعد خروجِه من بطنِ الحوتِ إلى مئةِ ألفٍ أو يزيدونَ، أو خلَّيناه عن الحبسِ إلى مئةِ ألفٍ، يُقالُ: أرسلَ الرَّجلُ طائرَه؛ أي: خلَّى عنه.

ويحتملُ: وأرسلناه إلى قومٍ آخرين سوى القومِ الأُوَلِ، **وفي هذا بُعدٌ**.

وقيلَ: أي: أرسلناه ثانياً كما أرسلناه أوَّلاً.

وقالَ قومٌ: إنَّه كانَ عبداً صالحاً دعا قومَه إلى الإيمانِ فامتنعوا، ففارقَهم، فلمَّا أنجاه اللهُ جعلَه رسولاً إليهم فآمنوا، واستدلَّ هؤلاءِ بأنَّ الرَّسولَ لا يخرجُ مغاضباً لربِّه، فكانَ ما جرى منه قبلَ النُّبوَّةِ.

قولُه تعالى: ﴿فَـَٔامَنُواْ﴾، يعني: القومَ الَّذين هم مئةُ ألفٍ وزيادةٌ قبلَ عَودِه إليهم، ثمَّ جدَّدُوا الإيمانَ بعدَ عودِه وأظهروا إيمانَهم المُتقدِّمَ، أو داموا على إيمانِهم، وذلك أنَّه دعاهم أوَّلاً فامتنعوا ففارقَهم، فلمَّا أحسُّوا بالعذابِ آمنوا فمتَّعَهم اللهُ تعالى ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ أي: بقائِهم في الدُّنيا إلى مُنتهى آجالِهم.

* * *

(١٤٩ ـ ١٥٠) ـ ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ١٤٩ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ ذكَرَ أخبارَ الماضين تسليةً للنَّبيِّ عليه السَّلام، ثمَّ قالَ: فاستفْتِ هؤلاءِ المشركين الَّذين يقولونَ: الملائكةُ بناتُ اللهِ، حتَّى إذا أصرُّوا على الكفرِ فاستيقِنْ أنَّه يحلُّ بهم مِن العذابِ ما حلَّ بالكفرةِ قبلهم؛ أي: استفْتِهم هل في حجَّةِ العقلِ والسَّمعِ أن تكونَ البناتُ لله، ولهؤلاءِ المشركين البنون؟! وكانَت قريشٌ وأحياءٌ من العربِ ـ خُزاعةُ وجُهينةُ وبنو سلمةَ وبنو مليحٍ ـ يقولون: الملائكةُ بناتُ الله.

قولُه تعالى: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا ﴾؛ أي: أتدَّعونَ هذا عن حسٍّ ومعاينةٍ وتقولونَ: إنَّكم حضرتُم خلقَ اللهِ إيَّاهم إناثاً، وهذا كما قالَ: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ﴾ [الزخرف: ١٩].

ومعنى الآية: التَّوبيخُ فيما تَحكَّموا به.

❊ ❊ ❊

(١٥١ ـ ١٥٢) ـ ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾؛ أي: ادَّعوا أنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ، وهوَ كذبٌ وإفكٌ لا برهانَ عليه من عقلٍ وسمعٍ وحسٍّ، فقد وصفوه بالولدِ، وهم كاذبون فيه.

❊ ❊ ❊

(١٥٣) ـ ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴾؛ أي: أيقولون: إنَّه اختارَ البناتِ، فصارَ القِسْمُ النَّاقصُ له باصطفائِه، فما هذا التَّحكُّم؟!

قُرِئَ: ﴿ أَصْطَفَى ﴾؛ أي: أاصطفى، ثمَّ حُذِفَ ألفُ الوصلِ، وهوَ استفهامُ تقريعٍ وتوبيخٍ، وقرأ نافعٌ: ﴿لكاذبونَ اصْطَفَى﴾ موصولةً بغيرِ استفهامٍ، وإذا ابتدأَ كسَرَ الهمزةَ على وجهِ الخبرِ[1]؛ أي: اصطفى البناتِ في زعمِهم، كقولِه: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩]؛ أي: فيما كنتَ تقولُه.

وقيلَ: أي: ﴿لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾، ويقولون: ﴿اصْطَفَى﴾ ، فاستغنى عن حرفِ العطفِ، كقولِه: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٢].

---

(١) قرأ بها ورش بخلف عنه، وأبو جعفر. انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٩)، و«النشر» (٢/ ٣٦٠).

(١٥٤ - ١٥٥) - ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؛ أي: كيفَ تقضون الحقَّ حينَ تزعمون أنَّ له البناتِ ولكم البنين ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: أفلا تتَّعظون؟!

* * *

(١٥٦ - ١٥٧) - ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾؛ أي: حجَّة تتسلَّطون بها على مَن خالَفكم، والمبينُ: الواضحُ الَّذي يُبِينُ عن نفسِه.

﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾؛ أي: بالكتابِ الَّذي فيه حجَّةٌ أنَّ الملائكةَ بناتُ الله.

* * *

(١٥٨ - ١٦٠) - ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾؛ أي: يقولون: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله، وذلك أنَّهم قالُوا: أُمَّهاتُ الملائكةِ بناتُ سرواتِ الجنِّ؛ أي: رؤسائِهم، فجعلوا اللهَ أباً للملائكةِ والجنَّ أُمَّهاتِ الملائكةِ، فصارَت الملائكةُ بناتِ اللهِ نسباً بينَ اللهِ وبينَ الجِنَّةِ بزعمِهم، والجنُّ: الجيلُ المعروفُ؛ أي: تزوَّجَ من الجِنَّةِ، فحصلَ منهم الملائكةُ، ولمَّا قالوا: الملائكةُ بناتُ اللهِ، قالَ لهم أبو بكرٍ: فمَن أُمَّهاتُهم؟ قالوا: سرواتُ الجنِّ، فنزلَتِ الآيةُ[1].

والنَّسبُ هاهنا هوَ المصاهرةُ.

وقيلَ: الجِنَّةُ الملائكةُ، سُمُّوا بهذا لأنَّهم كانُوا على الجِنان، فالمعنيُّ بالنَّسب

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٦٤٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٣١)، عن مجاهد.

على هذا قولُهم: الملائكةُ بناتُ الله، وقيلَ: سُمُّوا جِنَّةً لاجتنانِهم عن الأبصارِ.

وقالَ الحسنُ: أي: عبدوا الشَّيطانَ معَ اللهِ فجعلُوه نسباً له؛ أي: شريكاً حيثُ اعتقدوا طاعتَه[1].

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾؛ أي: سيَحضرونَ الحسابَ والعذابَ، فلو صحَّ قولُهم لَمَا خافَ الجِنَّةُ العذابَ، كما قالَ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨].

وإن حُمِلَتِ الجِنَّةُ على الملائكةِ فالمعنى: إنَّ هؤلاءِ الكفَّارَ لمُحضرون غداً العذابَ.

وقيلَ: إنَّهم توهَّموا أنَّ الجنَّ والشَّياطينَ ملائكةٌ لاستتارِهم عن أعينِ النَّاس، ثمَّ قالوا: الملائكةُ بناتُ اللهِ، فقد صيَّروا الجِنَّةَ بناتِ اللهِ، فهذا هوَ النَّسبُ الَّذي ذكروه.

وقيلَ: كانُوا يقولونَ: الأصنامُ بناتُ اللهِ، قالَ اللهُ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢١]، فكانُوا يزعمون أنَّها تَعقلُ ويُحذَرُ جانبُها، كما قالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٣]، وكانَت الشَّياطينُ تتكلَّمُ من أجوافِ الأصنامِ، فقالَ اللهُ: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧]؛ أي: أنَّهم يتوهَّمون أنَّهم يدعون آلهةً، وإنَّما يدعون الشَّيطانَ، وهو من الجنِّ، فقد ادَّعَوا بينَ اللهِ وبينَ الشَّياطينِ في أنَّه نسبٌ بالبنوَّة.

وقيلَ: اعتقدوا أنَّ أصنامَهم جنٌّ، وكانَ عندهم أنَّها تتكلَّمُ، وعلموا أنَّ الأصنامَ

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٤٣٥)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٧٠).

ليسَت من البشرِ ولا من الملائكةِ؛ لأنَّهم اعتقدوا أنَّ الملائكةَ سُكَّانُ السَّماءِ حتَّى قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨]، فقد اعتقدوا أنَّ أصنامَهم جنٌّ، وإذا كانَت جنّاً عندهم وهيَ بناتُ الله، فقد اعتقدوا بينَ اللهِ وبينَ الجنَّةِ نسباً.

قولُه تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: تنزيهاً للهِ ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ هذا استثناءٌ عن المحضَرين؛ إذ علمُوا أنَّهم يحضرون النَّارَ إلَّا مَن أخلصَ ووحَّدَ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فإنَّهم لا يَجعلونَ له صاحبةً وولداً[1].

فالاستثناءُ على هذا مُنقطِعٌ، وفي الكلامِ شيءٌ محذوفٌ دلَّ عليه ما قبلَه.

***

(١٦١ ـ ١٦٣) ـ ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾؛ أي: فإنَّكم وآلهتكم ما تُضلُّون ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ في حُكمِ اللهِ تعالى، يُقالُ: فتَنَه وأفتَنَه؛ أي: أضلَّه؛ أي: ما أنتم بمضلِّين عليه إلَّا مَن أضلَّه الله، يُقالُ: أضلَّه اللهُ على الشَّيء، كما يُقالُ: أضلَّه به.

وقيلَ: على بمعنى الباء؛ أي: ما أنتم بمضلِّين أحداً بآلهتكم إلَّا مَن قضى اللهُ له بأنَّه من أهلِ النَّارِ، وإفتانُهم بما يعبدونَ: دعاؤُهم النَّاسَ إلى عبادةِ ، وإيهامُهم أنَّها تعقلُ وتتكلَّمُ وتضرُّ وتنفعُ، وأنَّها بناتُ الله.

و(ما) في قولِه: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ بمعنى: الذي، وقيلَ: بمعنى المصدرِ؛ أي: فإنَّكم وعبادتكم لهذه الأصنامِ.

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٩/ ١٢٣).

وقيلَ: أي: فإنَّكم مع ما تعبدونَ مِن دونِ اللهِ، تقولُ: جاءَ فلانٌ وفلانٌ، وجاءَ فلانٌ مع فلانٍ.

***

(١٦٤ - ١٦٦) - ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ١٦٤ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ لـمَّا ذكَرَ أنَّ مِن قولِ المشركين: أنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ، بيَّنَ أنَّ الملائكةَ استعظَموا قولَهم وقالوا: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ لا يتجاوزُه، فحذفَ قائلَ هذا القولِ، وفيه إضمارٌ؛ أي: ما منَّا مَلَكٌ، وفي الخبرِ: «ما في السَّماءِ الدُّنيا موضعُ قدَمٍ إلَّا عليه ملكٌ ساجدٌ أو راكعٌ أو قائمٌ، فذلك قولُ الملائكةِ: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾»[١].

وقيلَ: هذا مِن قولِ الرَّسولِ والمؤمنين والمشركين؛ أي: لكلٍّ واحد منَّا ومنكم في الآخرةِ مقامٌ معلومٌ، وهوَ مقامُ الحسابِ.

وقيلَ: أي: منَّا مَن له مقامُ الخوفِ، ومنَّا مَن له مقامُ الرَّجاءِ، ومنَّا مَن له مقامُ الإخلاصِ، ومنَّا مَن له مقامُ الشُّكرِ، إلى غيرِها مِن المقاماتِ.

﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ قالَ الكلبيُّ: صفوفُهم كصفوفِ أهلِ الدُّنيا في الأرضِ[٢].

---

(١) رواه محمد بن نصر المروزي في «الصلاة» (٢٥٣)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٦٥٢)، والدولابي في «الكنى والأسماء» (١٨٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٣٢)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٥٠٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وروى الترمذي (٢٣١٢) وابن ماجه (٤١٩٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله...»، قال الترمذي: «حديث حسن غريب... ويروى عن أبي ذر موقوفًا».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ١٢٥).

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ في التَّهليلِ والتَّسبيحِ والتَّكبيرِ[1].

وكانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنه يقولُ إذا قامَ إلى الصَّلاةِ: أقيموا صفوفَكم واستووا، إنَّما يريدُ اللهُ بكم هديَ الملائكةِ، ويقرأُ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾[2].

وقيلَ: أي: لنحن الصافُّون أجنحتَنا في الهواءِ وقوفاً ننتظرُ ما نُؤمَرُ به.

وقيلَ: أي: نحنُ الصافُّون حولَ العرشِ.

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾؛ أي: المُصلُّون.

وقيلَ: أي: الممجِّدون الَّذين يُنزِّهون اللهَ عن السُّوء.

والمرادُ: أنَّهم يُخبرونَ أنَّهم يعبدونَ اللهِ بالتَّسبيحِ والصَّلاةِ، وليسُوا معبودينَ ولا بناتِ اللهِ تعالى.

* * *

(١٦٧ ـ ١٧٠) ـ ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ عادَ إلى الإخبارِ عن المشركين؛ أي: كانُوا قبلَ بعثةِ محمَّدٍ ﷺ إذا عُيِّروا بالجهلِ قالوا: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وقيلَ: أي: لو بُعِثَ إلينا نبيٌّ ـ أي: ببيانِ الشَّرائعِ ـ لاتَّبعناه.

﴿ذِكْرًا﴾؛ أي: كتاباً مِن كُتبِ الأنبياءِ، وفي الكلامِ إضمارٌ؛ أي: مِن كُتبِ الأوَّلين.

وقيلَ: أي: لو كانَ عندنا عِلمٌ من أخبارِ الأممِ الخاليةِ كيفَ أهلكُوا. وعلى هذا فلا حاجةَ إلى الإضمارِ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ١٢٥). ورواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٦٥٤) بلفظ: «الملائكة صافون تسبح لله عز وجل».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٦٥٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٣٢).

وقولُه: ﴿وَإِن كَانُوا۟﴾؛ أي: وقد كانُوا، أو: وما كانُوا إلَّا ليقولون.

﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾؛ أي: كانُوا يقولونَ: لو كانَ لنا نبيٌّ لاتَّبعناه.

﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ هذا تعجيبٌ منهم؛ أي: فقد جاءَهم نبيٌّ، وأُرسِلَ إليهم، وأُنزِلَ عليهم كتابٌ فيه بيانُ ما يحتاجونَ إليه فكفرُوا وما وفَّوا بما قالوا ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ما يحلُّ بهم مِن العذابِ.

وقولُه: ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾؛ أي: بالذِّكر؛ لأنَّ كتابَ اللهِ ذِكرٌ، وفيه ذِكرُ الكتبِ المُتقدِّمة، فقد جاءَهم ذلكَ الذِّكرُ بمجيءِ هذا الذِّكرِ، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ما يحلُّ بهم مِن العذابِ.

* * *

(١٧١ ـ ١٧٣) ـ ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾.

قولـه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾؛ أي: تقدَّمَ الوعدُ بأنَّ اللهَ تعالى ينصرُهم بالحجَّةِ وبالظَّفرِ.

وقيلَ: أرادَ بالكلمةِ قولَه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾؛ أي: سبقَ الوعدُ بنصرِهم، وهذا النَّصرُ بالحجَّةِ، والنَّصرُ على العدوِّ في العاقبةِ، والنَّصرُ في الآخرةِ.

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾؛ أي: أنصرُ المؤمنين على الكفَّارِ.

(١٧٤ ـ ١٧٥) ـ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾؛ أي: أعرضْ عن المشركين، واحتمِلْ مَكروهَهم إلى حينٍ يرونَ النَّصرَ والغلبةَ بطريقِ السَّيفِ.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: يعني: القتلَ ببدرٍ[1].

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٩/ ١٢٨).

وقيلَ: يعني: فتحَ مكَّةَ.

وقيلَ: أي: إلى الموتِ.

وقيلَ: الآيةُ منسوخةٌ بآيةِ السَّيفِ.

﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾؛ أي: انتظِرْهم، فإنَّهم ينتظرونَ، و(سوف) و(عسى) مِن اللهِ للوجوبِ، وعبَّرَ بالإبصارِ عن تقريبِ الأمرِ؛ أي: عن قريبٍ تُبصِرُه.

* * *

(١٧٦ ـ ١٧٧) ـ ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ كانُوا يقولونَ من فَرطِ تكذيبِهم: متى هذا العذابُ؟ أي: لا تستعجلوه؛ فإنَّه واقعٌ بكم.

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ السَّاحةُ: مُتَّسعُ الدَّارِ ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾؛ أي: بئسَ صباحُ الَّذين أُنذِرُوا بالعذابِ، وفيه إضمارٌ؛ أي: فساءَ الصَّباحُ صباحُهم؛ لأنَّهم يُصبِحون في العذابِ، وخصَّ الصَّباحَ لأنَّهم كانَت تُصبِّحُهم الغاراتُ، فيقول القائل: واسُوءَ صباحاه، حتَّى سَمُّوا الغارةَ: الصَّباحَ؛ لأنَّها كانَت تُوافي الصَّباحَ.

* * *

(١٧٨ ـ ١٧٩) ـ ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ هذا التَّكريرُ توكيدُ الوعيدِ للكفَّارِ، كقولِك: آدمُ آدمُ هيهاتَ هيهاتَ ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ هذا أيضاً تأكيدٌ.

وقيلَ: أي: وتولَّ بعدَ نزولِ العذابِ بهم؛ أي: دعْ ذكرَهم حتَّى حينٍ آخرَ، وهوَ الحينُ الَّذي ينزلُ بهم عذابُ الآخرةِ، وأبصرْهم يومَ الآخرةِ فترى سوءَ حالِهم، فالأوَّلُ لنزولِ العذابِ بهم في الدُّنيا، والثَّاني لنزولِ العذابِ بهم في الآخرةِ.

وقيلَ: وأبصِرْ؛ أي: كُنْ على بَصيرةٍ مِن أمرِك، فسيصيرونَ إلى بصيرةٍ مِن أمرِهم يومَ القيامةِ.

***

(١٨٠) ـ ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ نزَّهَ نفسَه عمَّا أضافَ إليه المشركونَ.

﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾؛ أي: الغلبةِ والقوَّةِ، يُقالُ منه: عزيزٌ. وقيلَ: أي: منه العزَّة.

***

(١٨١ ـ ١٨٢) ـ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: الَّذين بلَّغُوا عنِ اللهِ التَّوحيدَ والرِّسالةَ.

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: الشُّكرُ له على هلاكِ المشركين، والحمدُ للهِ بإحسانِه في كلِّ حالٍ.

قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنه: مَن أرادَ أن يُكتالَ بالميزان الأوفى مِنَ الأجرِ فليكُنْ آخرُ كلامِه إذا قامَ مِن المجلسِ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

---

(١) رواه موقوفًا على علي رضي الله عنه عبد الرزاق في «مصنفه» (٣١٩٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٤٤٥ ـ ٤٤٦)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٣٦). وفي إسناده الأصبغ بن نباتة رمي بالكذب، ورواياته عن علي لا يتابع عليها كما قال ابن عدي. انظر: «تهذيب الكمال» للمزي (٣/ ٣٠٨).
ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٣٤) عن الشعبي.
وروي نحوه مرفوعاً من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، رواه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (٢٣١٢)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٠٩٧)، وعبد بن حميد كما في «المنتخب» (٩٥٢)، وأبو يعلى في «مسنده» (١١١٨)، وله شاهد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٢٢١)، وآخر من حديث زيد بن أرقم رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٥١٢٤).

سُورَةُ صٓ

تفسيرُ سورةِ ص

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١) ـ ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنه: مرضَ أبو طالبٍ فجاءَت قريشٌ وقالوا: قد حضرَك ما ترى، وقد علمتَ ما بيننا وبينَ ابنِ أخيك، فادْعُه فخُذْ لنا منه وله منَّا، فيكفَّ عنَّا ونكفَّ عنه، فدعاه وقال: يا ابنَ أخي، ما تريدُ من قومِك؟ قالَ: «كلمةٌ تذلُّ لهم بها العربُ، وتُؤدِّي إليهم الجزيةَ العجمُ»، قالَ: كلمةٌ واحدةٌ؟ قالَ: «نعم»، قالَ: فما هي؟ قالَ: «أن يقولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ» فقالوا: أجعلَ الآلهةَ إلهاً واحداً؟! فنزلت فيهم: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ حتَّى بلغ: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾[1].

وقيلَ: شقَّ على قريشٍ إسلامُ عمرَ، فاجتمعُوا إلى أبي طالبٍ، وقالوا: اقضِ بيننا وبين ابنِ أخيكَ، فاستحضَرَه وقال: يا ابنَ أخي، هؤلاءِ قومُك يسألونك السَّواء، فلا تمِلْ كلَّ الميلِ على قومِك، قالَ: «وماذا يسألونني؟» فقالَ: قالُوا: ارفُضْنا وارفُضْ ذِكرَ آلهتِنا، ندعْكَ وإلهَك. فقالَ عليه السَّلام: «أتعطونَني كلمةً واحدةً تملكونَ بها العربَ، وتَدينُ لكم بها العجمُ؟»، فقالَ أبو جهلٍ: للهِ أبوكَ، لنُعطينَّكها وعشرَ أمثالِها. فقالَ عليه السَّلام: «قولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ»، فنفروا من ذلك، وقاموا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ

---

(١) رواه بنحوه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٠٠٨)، والترمذي (٣٢٣٢)، والنسائيُّ في «الكبرى» (٨٧١٦). قال الترمذي: «حسن صحيح».

﴿ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾؟! كيفَ يَسَعُ الخَلقَ كلَّهم إلهٌ واحدٌ؟! ونزلَت الآياتُ إلى قولِه: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾[1].

﴿صٓ﴾ في قولٍ هوَ اسمٌ ممَّا استأثَرَ اللهُ بعلمِه.

وفي قولٍ: صدقَ محمَّدٌ، أو: صدقَ الله.

وفي قولٍ: هيَ فاتحةُ السُّورةِ واسمُها.

وفي قولٍ: اسمٌ من أسماءِ القرآنِ.

وفي قولٍ: اسمٌ من أسماءِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

وفي قولٍ: مفتاحُ اسمِه صمدٌ وصادقُ الوعدِ وصانعُ المصنوعاتِ.

وفي قولٍ: أقسمُ بهذا الحرفِ وبالقرآنِ ذي الذِّكر. **واستبعدَه المُحقِّقون**؛ إذ ليسَ فيه حرفُ القسمِ، وهوَ حرفُ الجرِّ، ولا يجوزُ إضمارُ حرفِ الجرِّ في القسمِ إلَّا في اسمِ اللهِ، تقولُ: اللهِ لأفعلَنَّ، ولا يجوزُ: الكعبةِ لأفعلَنَّ.

﴿صٓ﴾ بسكونِ الدَّالِ؛ لأنَّه من حروفِ الهجاءِ مثل: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿الٓر﴾.

وقُرِئَ بفتحِ الدَّالِ[2] لاجتماعِ السَّاكنين، أو بمعنى: اتلُ ﴿صٓ﴾، وقيلَ: أي: صادَى.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٤٦٠ ـ ٤٦١)، والواحدي في «أسباب النزول» (١٩/ ١٥٤)، من غير راو ولا إسناد. ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٣) عن السدي دون ذكر عمر رضي الله عنه في الخبر.

(٢) نسبت لعيسى الثقفي ومحبوب عن أبي عمرو. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٩)، و«المحتسب» (٢/ ٢٣٠).

وقُرِئَ بفتحِ الدَّالِ لاجتماعِ السَّاكنين أيضاً[1]، والمُصاداةُ: [المعارضة]؛ أي: قابَلوا القرآنَ بالإنكارِ وحقِّ القرآنِ ذي الذِّكر.

وقيلَ: أي: صادَ محمَّدٌ قلوبَ الخَلقِ وحقِّ القرآنِ ذي الذِّكر.

وقرأ الحسنُ: (صَادِ) بكسرِ الدَّال[2]؛ إمَّا لالتقاء السَّاكنين، أو بمعنى: صادِ القرآنَ بعملِك وقابلْه، من المُصاداةِ؛ أي: اعملْ بأوامرِه وانتهِ عن زواجرِه.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ أقسمَ بـالقرآنِ تنبيهاً على جلالةِ قَدْرِه، فإن فيه بيانَ كلِّ شيءٍ، وشفاءً لِمَا في الصُّدور، ومعجزةً للنَّبيِّ عليه أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ.

﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾؛ أي: ذي الشَّرفِ؛ أي: القرآنُ الَّذي مَن آمَنَ به كانَ شرفاً له في الدَّارين، كما قالَ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]؛ أي: شرفُكم، وأيضاً القرآنُ شريفٌ في نفسِه لإعجازِه واشتمالِه على ما لا يشتملُ عليه غيرُه.

وقيلَ: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾؛ أي: فيه ذِكرُ ما يُحتاجُ إليه من أمرِ الدِّين.

وقيلَ: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾؛ أي: فيه ذِكرُ أسماءِ اللهِ تعالى وتمجيدُه.

وقيلَ: أي: ذي الموعظةِ والتَّذكيرِ.

وجوابُ القسمِ مُضمرٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾؛ لأنَّ ﴿بَلِ﴾ نفيٌ لأمرٍ سبقَ وإثباتٌ لغيرِه، فكأنَّه قالَ: والقرآنِ ذي الذِّكرِ إنَّ الَّذين كفروا أعرضُوا

---

(١) قوله: «وقُرِئَ بفتحِ الدَّالِ لاجتماعِ السَّاكنين أيضاً» كذا في (أ)، ولعل الصواب: «بضم الدال»، وهي في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٩) عن الحسن، وفي «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٢) عن هارون الأعور ومحمد بن السميفع، وما سيأتي بين معكوفتين منه.

(٢) نسبت لأبي بن كعب والحسن وابن أبي إسحاق وأبي السمال وابن أبي عبلة ونصر بن عاصم. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٩٦)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٩)، و«المحتسب» (٢/ ٢٣٠)، و«البحر» (١٨/ ٢٢٨).

عنِ الحقِّ، بل الَّذين كفروا في عزَّةٍ وشقاقٍ عن قَبولِ الحقِّ، وعداوةٍ لمحمَّدٍ عليه السَّلام.

أو: والقرآنِ ذي الذِّكرِ ما الأمرُ كما يقولون من أنَّك ساحرٌ؛ لأنَّهم يعرفونَكَ بالصِّدقِ والأمانةِ، بل هم في تكبُّرٍ عن قبولِ الحقِّ، وهوَ كقولِه: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١]؛ أي: والقرآنِ المجيدِ لتُبعثُنَّ، وما بكم أنَّكم تُنكرونَه بحجَّةٍ، بل إنَّما تتعجَّبون أن جاءَكم مُنذِرٌ منكم.

وقيلَ: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ ما بهم التماسُ الحقِّ فيما يَدْعون إليه، بل الَّذين كفرُوا في مشاقَّةٍ لك وتعزُّزٍ عن الانقيادِ.

وقالَ قومٌ: جوابُ القسمِ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، ﴿بَلِ﴾ معناه (إنَّ)؛ لأنَّ ﴿بَلِ﴾ يُؤكَّدُ به إثباتُ ما بعده[1] مِن الخبرِ، ونفيُ ما قبلَه، فلمَّا دخلَه معنى التَّوكيد جازَ وضعُه موضعَ (إنَّ)، فكأنَّه قالَ: والقرآنِ ذي الذِّكرِ إنَّ الَّذين كفروا في عزَّةٍ وشقاقٍ، وكذا ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟﴾ [ق: ٢]؛ أي: لقد عجبُوا، قالَ هؤلاءِ: و﴿بَلِ﴾ وإن لم تَرِدْ بمعنى (إنَّ) في كلامِ العربِ، فيُحتمَلُ أن يكونَ نظماً أحدثه اللهُ لِمَا بيَّنا من احتمالِ ﴿بَلِ﴾ معنى (إنَّ)، فكلٌّ واحدةٍ منهما للتَّأكيدِ، ذكرَه الجُرجانيُّ[2].

وقيلَ: القسمُ مُؤخَّرٌ؛ أي: بل الَّذين كفروا في عزَّةٍ وشقاقٍ والقرآنِ ذي الذِّكر، وهذا قولُ الكوفيِّين[3].

---

(١) في (أ): «تقدم»، والمثبت من «البسيط».

(٢) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٩/ ١٣٩).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ١٤٠)، ثم أعقبه بقول الأخفش: «هذا يقوله الكوفيون وليس بالجيد في العربية لو قلت: والله قام، وأنت تريد: قام والله، لا يحسن».

ومَـن قـالَ: معنى ﴿صٓ﴾: صدقَ محمَّـدٌ وصدقَ الله، أمكنَـه أن يقول: جوابُ القسـمِ ﴿صٓ﴾، كقولِك: وجَبَ واللهِ، ونَزَلَ والله.

وقيلَ: جوابُ القسمِ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾.

وقيلَ: جواب القسمِ ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾.

وقيلَ: جوابُ القسمِ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾؛ أي: لكم أهلكنا، فلمَّا اعترَضَ بين القسمِ وجوابِه كلامٌ طويلٌ حُذِفَت اللامُ.

* * *

(٢) ـ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾.

وقولـه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، يعنـي: كفَّـارَ قريـشٍ ﴿فِى عِزَّةٍ﴾؛ أي: تمنُّـعٍ مـن قَبـولِ الإسـلامِ، كمـا قـالَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ أي: الأَنَفـةُ عـن قَبـولِ الحقِّ.

﴿وَشِقَاقٍ﴾؛ أي: وإظهـارِ خـلافٍ ومُباينـةٍ، وهـوَ مـن الشَّـقِّ، كأنَّ هـذا في شِـقٍّ وذاك فـي شِـقٍّ، ومثلُـه: المعـاداةُ، فيكـون هـذا في عُـدوةٍ، وذاك فـي عُـدوةٍ أُخرى، والعُـدوةُ: الجانـبُ، وكذلـكَ المحـاداةُ، فهذا فـي حدٍّ وذاك فـي حدٍّ، وجانَـبَ فلانٌ فلانـاً؛ أي: صـارَ كلُّ واحـدٍ فـي جانبٍ، وكذلـكَ انحرَفَ فـلانٌ عن فـلانٍ؛ أي: أخذَ فـي حـرفٍ وطرفٍ.

وقيـلَ: أي: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ﴾؛ أي: فـي طلبِ الغَلبةِ والمعـازَّةِ، ويُقالُ: عزَّه؛ أي: غلبَه.

وقيلَ: أي: هم عندَ أنفسِهم في تمنُّعٍ واستغناءٍ عن الدُّخولِ في طاعتِك.

* * *

(٣) ـ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

قولُـه تعالـى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾؛ أي: مـن قـومٍ كانُـوا أمنعَ مـن هؤلاءِ ﴿فَنَادَوا﴾؛ أي: بالاستغاثةِ والتَّوبـةِ، والنِّـداءُ: رفـعُ الصَّـوتِ، ومنـه الخبـرُ: «ألقِـهِ علـى بـلالٍ؛ فإنَّـه أنـدى منـكَ صوتـاً»[1]؛ أي: أرفعُ.

﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ قالَ الكلبيُّ رحمه الله: كانُوا إذا قاتلوا فاضطرُّوا، قالَ بعضُهم لبعضٍ: «مناص»؛ أي: عليكم بالفرارِ والهزيمةِ، فلمَّا أتاهم العذابُ قالوا: «مناص»، فقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾[2]، وعلى هذا التَّقديرُ: فنادوا مناصَ، فحُذِفَ لدلالةِ بقيَّةِ الكلامِ عليه؛ أي: ليسَ الوقتُ وقتَ ما يُنادون به.

وفي هذا نوعُ تحكُّمٍ؛ إذ يَبعدُ أن يُقالَ: كلُّ مَن هلكَ مِن القرونِ كانُوا يقولون: «مناص» عند الاضطرارِ.

وقيلَ: أي: نادَوا لاتَ حينَ مناص؛ أي: لا خلاصَ، فهو نصبٌ بوقوعِ النِّداءِ عليه.

وفيه نظرٌ؛ لأنَّه لا معنى على هذا للواوِ في: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

وقـالَ الجُرجانـيُّ: أي: فنـادَوا حيـنَ لا مناصَ؛ أي: سـاعةَ لا مَنجَـى ولا فَوتَ، فلمَّـا قدَّمَ (لا) وأخَّـرَ ﴿حِينَ﴾ اقتضى ذلكَ الـواوَ، كما يقتضي الحـالُ إذ جُعِلَ ابتداءً وخبـراً، مثـل قولِـك: «جاءنـي زيـدٌ راكبـاً»، فـإذا جعَلْتَـه مبتدأً وخبـراً اقتضـى الواوَ

---

(١) رواه أبـو داود (٤٩٩)، والترمـذي (١٨٩)، وابـن ماجـه (٧٠٦)، مـن حديـث عبـد الله بـن زيـد رضي الله عنه.

(٢) ذكـره عنه السـمرقندي فـي «تفسـيره» (٣/ ١٥٨)، والمـاوردي فـي «النكت والعيـون» (٥/ ٧٨)، والواحـدي فـي «البسـيط» (١٩/ ١٤٣). ووقـع بعده فـي (أ): «فقـال الله تعالى ذلـك»، وهو تكرار لا داعـي له.

مثـل: «جاءنـي زيـدٌ وهـوَ راكـبٌ»، فـ﴿حِينَ﴾ ظـرفٌ لقولِـه: ﴿فَنَادَواْ﴾، والمنـاصُ بمعنـى التَّأخُّـرِ والفـرارِ والخـلاصِ؛ أي: نـادوا لطلبِ الخـلاصِ في وقـتٍ لا يكونُ لهـم فيه خـلاصٌ(١).

قالَ الفرَّاءُ: النَّوصُ: التَّأخُّرُ، يُقالُ: ناصَ ينوصُ، فالمناصُ مَفعَلٌ مثلَ المَقام(٢).

وقالَ أبو عُبيدةَ: هوَ مصدرُ ناصَ ينوصُ(٣).

وأمَّا (لات) فقد قيلَ: التَّاءُ صلةٌ، والأصلُ (لا) بمعنى: ليسَ، وزيادةُ التَّاءِ كثيرٌ، كقولِهم: ما أسطيعُ وما أستطيعُ، وقد يُقالُ: ثُمَّتَ بمعنى: ثُـمَّ، ورُبَّت بمعنى: رُبَّ، ويا ويلتَنا ويا ويلَنا، فكأنَّهم زادُوا في (لا) هاءً، فقالَوا: لاه، كما قالوا في ثُمَّ: ثُمَّه، ثمَّ عندِ الوصلِ صارَت تاءً.

وقالَ أبو عُبيدٍ(٤) وقومٌ: التَّاءُ مزيدةٌ في (حين)، و(لا) داخلةٌ عليها للنَّفيِ، يُقالُ: هذا تَحينَ كانَ ذاك، وكذلكَ تُزادُ التَّاءُ في (أوان)، فيُقالُ: كانَ ذلكَ تَأوانَ كانَ كذا، وكذلك تُزادُ في (الآن)، فيُقالُ: كانَ ذلكَ تَلآنَ، وإن شئتَ (تلانَ) بالهمزِ وغيرِ الهمزِ.

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٩/ ١٤٣).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٩٧).

(٣) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١٧٦).

(٤) في (أ): «عبيدة»، والصواب المثبت. انظر: «تفسير الطبري» (٢٠/ ١٧)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٣٠٣)، و«تفسير الثعلبي» (٢٢/ ٤٥٩)، و«مشكل إعراب القرآن» لمكي (٢/ ٦٢٣)، و«المقنع في رسم مصاحف الأمصار» للداني (ص: ٨١)، و«البسيط» (١٩/ ١٤٧)، و«غرائب التفسير» للكرماني (٢/ ٩٩١)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٩٢)، و«التبيان» للعكبري (٢/ ١٠٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٩)، وقد صرح بعضهم بأنه القاسم بن سلام وهو اسم أبي عبيد، فلا شك أن «عبيدة» تحريف، وهذا القول مشهور عن أبي عبيد، وقد أشار إليه في «غريب الحديث» كما سيأتي.

وسألَ رجلٌ عبدَ اللهِ بنَ عمرَ عن عثمانَ رضيَ اللهُ عنه، فذكرَ مناقبَه، ثمَّ قالَ: اذهبْ بها تَلانَ إلى أصحابِكَ(١).

فالتَّاءُ متَّصلةٌ في مصحفِ عثمانَ بـ(حين)، فالمكتوبُ ثَـمَّ (فلا تَحينَ)(٢)،

---

(١) رواه أبو عبيد في «غريب الحديث» (٥/ ٢٧٧). وزاد: «قال الأموي: قوله: «تلآن» يريد: الآن، وهي لغة معروفة يزيدون التاء في «الآن» وفي «حين» فيقولون: تلآن وتحين، قال: ومنه قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ قال: إنما هي: ولا حين مناص».
قلت: الحديث رواه البخاري (٣٦٩٨) لكن بلفظ: «اذهب بها الآن معك». وقد غلَّط أبا عبيد فيما ذهب إليه كثير من المفسرين والنحويين وسنذكر في التعليق الآتي طرفاً من ذلك، وقد أشبع القرطبي الكلام في هذه المسألة، ومنها الرد على رواية «تلان» في حديث ابن عمر. انظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٢٩ ـ ١٣٢).

(٢) رواه أبو عمرو الداني عن أبي عبيد في «جامع البيان في القراءات السبع» (٢/ ٨٠٥)، و«المقنع في رسم مصاحف الأمصار» (ص: ٨١)، وذكره عنه كثيرون كما تقدم في تصحيح اسمه.
وقال الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٧): «أما زعمه أنه رأى في المصحف الذي يقال له الإمام التاء متصلة بحين، فإن الذي جاءت به مصاحف المسلمين في أمصارها هو الحجة على أهل الإسلام، والتاء في جميعها منفصلة عن حين، فلذلك اخترنا أن يكون الوقف على الهاء في قوله (وَلاتَ حِينَ)».
قال ابن الجزري في «النشر» (٢/ ١٥٠ ـ ١٥١) معقبًا على كلام أبي عبيد: «ثم ذكر غير ذلك من حجج ظاهرة، وهو مع ذلك إمام كبير وحجة في الدين وأحد الأئمة المجتهدين مع أني أنا رأيتها مكتوبة في المصحف الذي يقال له: الإمام، مصحفِ عثمان رضي الله عنه (لا) مقطوعةً والتاء موصولة بـ﴿حِينَ﴾ ورأيت به أثر الدم، وتبعت فيه ما ذكره أبو عبيد فرأيته كذلك، وهذا المصحف هو اليوم بالمدرسة الفاضلية من القاهرة المحروسة».
ونقل أبو عمر الداني عن ابن الأنباري قال: كان الكسائي والفرّاء والخليل وسيبويه والأخفش يذهبون إلى أن ﴿وَلَاتَ حِينَ﴾ التاء منقطعة من حين، ويقولون: معناها: وليست، وكذلك هو في المصاحف الجدد والعتق بقطع التاء من حين. قال أبو عمرو: وهذا مذهب أئمة القراءة وعليه العمل. انظر: «جامع البيان» (٢/ ٨٠٥).

فعُلِمَ أنَّ التَّاءَ أُدخِلَت على (حين) لا على (لا)، فهذا قولُ أبي عبيد(١)، والوقفُ عندَه إذ وقفَ على (لا) من غير تاء، ثمَّ يقولُ: تحينَ مناص.

وقالَ الكسائيُّ: تقفُ على الهاءِ فتقولُ: (ولاه)(٢).

وقالَ الزَّجَّاجُ: على التَّاءِ، فتقولُ: ولاتْ، والكسائيُّ رحمه الله يقولُ: هيَ تاءُ التَّأنيثِ نحو: قاعدٌ وقاعدةٌ، والزَّجَّاجُ يقولُ: الوقفُ على التَّاءِ مثل ذهبَتْ وضربَت(٣)، وهذا اختيارُ أبي عليٍّ؛ لأنَّ هذه التَّاءَ دخلت على الحرف، والحرفُ بالفعلِ أشبهُ منه بالاسمِ من حيثُ كانَ الفعلُ ثانياً والاسمُ أولاً، فالحرفُ بهذا الثَّاني أشبهُ منه بالأصلِ.

وقالَ الكلبيُّ: (لات) بلغةِ اليمنِ بمعنى: ليسَ(٤)، فهذا يشيرُ إلى أنَّ التَّاءَ أصليَّةٌ لا زائدةٌ.

ثمَّ؛ قالَ الفرَّاءُ: ما بعد (لات) منصوبٌ بـ(لات) لأنَّها في معنى: ليسَ؛ أي: ليسَ الوقتُ حينَ مناصٍ(٥).

وقالَ الزَّجَّاجُ: الرَّفعُ جائزٌ على معنى أنَّه اسمُ ليسَ، والخبرُ يُضمَرُ؛ أي: ليسَ حينُ مَنجى [لنا](٦).

قالَ الفرَّاءُ: ومِن العربِ مَن يُضيفُ (لاتَ) فيَخفِضُ بها، فيقولُ:

---

(١) في (أ): «أبي عبيدة» وهو خطأ وتحريف كما تقدم. والكلام من «البسيط» (١٩/ ١٤٧ ـ ١٤٨).

(٢) ﴿وَّلَاتَ﴾ وقف الكسائي عليها بالهاء، والباقون بالتاء. انظر: «التيسير» (ص: ٦٠).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٢٠).

(٤) ذكره عنه السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ١٥٨)، والواحدي في «البسيط» (١٩/ ١٤٥).

(٥) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٩٧).

(٦) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٢٠)، وما بين معكوفتين منه.

ولاتَ ساعـــةِ [مَنْـــدَمِ][١]

وهذا شاذٌّ.

وقـالَ الأخفـشُ: ﴿وَلَاتَ حِينَ﴾ نصـبٌ بـ(لا)، كقولِك: لا رجـلَ فـي الـدَّارِ، ودخلَـتِ التَّـاءُ للتَّأنيـثِ[٢].

***

(٤ ـ ٥) ـ ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ قيلَ: هوَ متَّصلٌ بقولِه: ﴿فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾؛ أي: في عزَّةٍ وشقاقٍ وعجبوا، وقولُه: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾ معترِضٌ.

وقيلَ: لا، بل هذا ابتداءُ كلامٍ؛ أي: ومِن جهلِهم أنَّهم أظهرُوا التَّعجُّبَ مِن أنْ جاءهم منذِرٌ منهم.

﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ﴾؛ أي: يجيءُ بالكلامِ المموَّهِ الَّذي يخدعُ به النَّاس.

وقيلَ: يُفرِّقُ بسحرِه بين الوالدِ وولدِه والرَّجلِ وزوجتِه.

﴿كَذَّابٌ﴾؛ أي: في دعوى النُّبوَّةِ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٩٧)، وما بين معكوفتين منه. وقال: «ولا أحفظ صدره». قلت: تمامه كما في «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص: ٢٨٣):

فلمّـا علمـت أنّنـي قـد قتلته ندمـت عليـه لات سـاعة منـدم

ونسب للقتال الكلابي في «الحماسة» بشرح المرزوقي (١/ ١٤٨) لكن برواية: «أيَّ ساعة مندم» ولا شاهد فيها.

(٢) نقله عنه الزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ٣٢١). وانظر «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٤٩٢).

﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾؛ أي: حكَمَ بأنَّ الإلهَ يجبُ أن يكونَ واحداً، كقولِه: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ [المائدة: ١٠٣]؛ أي: ما حَكَمَ.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الَّذي يقولُه محمَّدٌ ﴿لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾؛ أي: لأمرٌ عجَبٌ، وهيَ لغةُ أَزْدِ شَنُوءَةَ، ويُقالُ: رجلٌ كريمٌ وكُرَّامٌ وكُرَامٌ، وشيءٌ كبيرٌ وكُبَّارٌ [وكُبَار]، وطويلٌ وطُوَّالٌ وطُوَالٌ، وشيءٌ عَجَبٌ وعجيبٌ وعُجابٌ وعُجَّابٌ(١).

وقرأ عيسى بنُ عمرَ بالتَّشديدِ(٢).

* * *

(٦) ـ ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟﴾؛ أي: انطلقَ هؤلاءِ الكافرون من عندِ الرَّسولِ عليه السَّلام يقولُ بعضُهم لبعضٍ: ﴿ٱمْشُوا۟﴾؛ أي: امضُوا على ما كنتُم عليه، ولا تدخلوا في دينِه، بل ﴿اصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾.

وقيلَ: هوَ إشارةٌ إلى مشيهم إلى أبي طالبٍ في مرضِه كما سبق، والملأُ: الأشرافُ، وكانُوا سبعةً وعشرين رجلاً؛ مشَوا إلى أبي طالبٍ وشكَوا إليه محمَّداً عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

﴿أَنِ ٱمْشُوا۟﴾؛ أي: يقولون: ﴿ٱمْشُوا۟﴾.

وقيلَ: ﴿أَنِ﴾ بمعنى (أي)؛ أي: «وانطلقَ الملأُ منهم أي امشوا»، فهذا تفسيرُ انطلاقِهم، لا أنَّهم تكلَّموا بهذا اللَّفظ.

---

(١) انظر: «البسيط» (١٩/ ١٥٣)، وما بين معكوفتين منه.

(٢) ذكرها عنه الواحدي في «البسيط» (١٩/ ١٥٣)، وهي في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٩٨)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٩)، و«المحتسب» (٢/ ٢٣٠)، عن السلمي. وزاد ابن خالويه نسبتها لعلي رضي الله عنه.

وقيلَ: أي: انطلقَ الملأُ منهم بـ﴿أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾؛ أي: اتَّفِقوا على عبادتِها.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ ﴿هَٰذَا﴾ كلمةُ تحذيرٍ؛ أي: إنَّما يريدُ محمَّدٌ بما يقولُ جرَّنا إلى الانقيادِ له ليتحكَّمَ فينا بما يريدُ، فاحذَروا أن تُطيعوه.

وقيلَ: أي: إنَّ هذا لشيءٌ يُرادُ بأهلِ الأرضِ.

***

(٧) - ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ أي: في ملَّةِ النَّصارى، وهيَ آخرُ المللِ، وهم قالوا: ثالثُ ثلاثةٍ.

وقيلَ: عنَوا بـ﴿ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ملَّةَ قريشٍ، والأخيرُ أفضلُ؛ لأنَّ صاحبَه أحاطَ علماً بما تقدَّمَ وتأخَّرَ، واختارَ الأفضلَ.

وقيلَ: أي: ما سمعنا من أهلِ الكتابينِ أنَّ محمَّداً رسولٌ حقٌّ.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾؛ أي: كذبٌ، والاختلاقُ: افْتِعالٌ من الخَلقِ بمعنى: التَّكذيبِ والتَّقوُّلِ، ومنه: ﴿إن هذا إلَّا خَلْقُ الأوَّلين﴾ [الشعراء: ١٣٧][1].

***

(٨) - ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ هوَ استفهامُ إنكارٍ، والذِّكرُ هاهنا: القرآنُ.

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾؛ أي: بل هم في شكٍّ من القرآنِ؛ أي: قد علمُوا أنَّك لم

---

(١) بفتح الخاء وإسكان اللام قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي، والباقون بضمهما. انظر: «السبعة» (ص: ٤٧٢)، و«التيسير» (ص: ١٦٦).

تَزَلْ صدوقاً فيما بينهم، وإنَّما شكُّوا فيما أنزلتُه عليكَ هل هوَ من عندي أم لا؟

﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾؛ أي: إنَّما اغترُّوا بطولِ الإمهالِ، ولو ذاقوا عذابي على الشِّركِ، لزالَ عنهم الشَّكُّ، ولكنْ لا ينفعُ الإيمانُ حينئذٍ، و﴿لَّمَّا﴾ بمعنى: لم، و(ما) زائدةٌ، كقولِه: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠]، و﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

***

(٩) ـ ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾، يعني بهذا مَن قالَ: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾؛ أي: أعندَ هؤلاءِ خزائنُ رحمةِ ربِّك، فيَقسمونَ منها ما يشاؤن، فإن لم تكن لهم هذه الخزائنُ، فاللهُ يُعطي النُّبوَّةَ مَن يشاءُ، وهوَ كقولِه: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وهوَ كقولِه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ الآية [الزخرف: ٣٢].

و﴿أَمْ﴾ قد تردُ بمعنى ألفِ الاستفهامِ في موضعِ التَّقريعِ إذا كانَ الكلامُ متَّصلاً بكلامٍ قبلَه، كقولِه: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [السجدة: ١ ـ ٣].

***

(١٠) ـ ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: أم يدَّعونَ أنَّ مُلكَ السَّماواتِ والأرضِ لهم فهم قادرون على ما أرادوا من إنزالِ الوحيِ على مَن يريدون ومنعِه عمَّن يريدون، فإن ادَّعَوا هذا ﴿فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾؛ أي: فليصعدوا

إلى السَّماءِ من أبوابِها، وليَمنعُوا الملائكةَ من إنزالِ الوحيِ على محمَّدٍ.

وقيلَ: أي: فإن لم يكن لهم ذلكَ فليَجهدُوا جهدَهم في منعِ النُّبوَّةِ عنك، وهوَ كقولِه: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وهذا كلامٌ يُتكلَّمُ به في إخراجِ الشَّيءِ عن أن يُوصَلَ إليه بحيلةٍ.

والأسبابُ: أبوابُ السَّماواتِ الَّتي تنزلُ الملائكةُ منها.

وقيلَ: الأسبابُ: السَّماواتُ؛ أي: فليصعدوا سماءً إلى سماءٍ.

* * *

(١١) ـ ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾؛ أي: فلْيَرْتقوا إلى السَّماءِ فيمَن يشايعُهم مِن إخوانِهم حتَّى يرَوا جنداً مهزومين؛ أي: لو حاولوا الارتقاءَ لمُنِعوا وبَقُوا ممنوعين عن قصدِهم وإن كثرَ جمعُهم، ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارةٌ إلى موضعِ الارتقاءِ.

وقيلَ: أي: هؤلاءِ المشركون لا تمكنُهم هذه الحججُ، بل هم المهزومون بها المغلوبون.

وقيلَ: أي: بل الَّذين كفرُوا في عزَّةٍ وشقاقٍ وهم جندٌ من الأحزابِ مهزومون، فلا تُهمَّنَّك عزَّتُهم وشقاقُهم، فإنِّي أهزمُ جمعَهم وأسلبُ عزَّهم.

وقيلَ: فُعِلَ بهم هذا يومَ بدرٍ؛ أي: مَن هذا حالُه فكيف يرتقي في الأسبابِ؟ و﴿هُنَالِكَ﴾[1] من صلةِ ﴿مَهْزُومٌ﴾، و﴿هُنَالِكَ﴾؛ أي: ببدرٍ، وهوَ موضعُ

---

(١) في (أ): «و﴿مَّا هُنَالِكَ﴾»، والصواب المثبت. انظر: «البسيط» (١٨/ ١٥٩)، و«الدر المصون» (٩/ ٣٦٠)، وفيه: ﴿هُنَالِكَ﴾ يجوز فيه ثلاثةُ أوجهٍ: =

تحزُّبهم لقتالِهم لمحمَّدٍ، و﴿مَا﴾ زائدةٌ كقولِه: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠].

والأحزابُ: الجُندُ، كما يُقالُ: جندٌ من قبائلَ شتَّى.

وقيلَ: أرادَ بالأحزابِ: القرونَ الماضيةَ مِن الكفَّار؛ أي: هؤلاءِ جندٌ على طريقةِ أولئك، كقولِه: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ [البقرة: ٢٤٩]؛ أي: على ديني ومذهبي.

والهَزْمُ: الكسرُ، وفي الخبرِ في ذكرِ زمزم: «أنَّها هَزْمَةُ جبريلَ»[1]؛ أي: دفعَ برجلِه في موضعِ البئرِ، وتهزَّمَتِ القِربةُ؛ أي: تكسَّرَت، والهزمُ: ما يتكسَّرُ من يابسِ الحطبِ.

و﴿جُندٌ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: هم جندٌ مهزومٌ هنالك.

وقالَ القتيبيُّ: أي: حزبُ هذه الآلهةِ مقموعون عندَ إنزالِ العذابِ بهم، فهم لا يقدرونَ على أن يدَّعوا لشيءٍ من آلهتِهم ولا لأنفسِهم شيئاً من خزائنِ رحمةِ ربِّك، ولا مِن ملكِ السَّماواتِ والأرض[2].

***

= أحدُها: أَنْ يكونَ خبراً لـ﴿جُندٌ﴾ و﴿مَّا﴾ مزيدةٌ و﴿مَهْزُومٌ﴾ نعتٌ لـ﴿جُندٌ﴾ ذكره مكيٌّ.

الثاني: أَنْ يكون صفةً لـ﴿جُندٌ﴾.

والثالث: أَنْ يكونَ منصوباً بـ﴿مَهْزُومٌ﴾.

(١) رواه الدارقطني في «سننه» (٢٧٣٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً، ورواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٩١٢٤)، والأزرقي في «أخبار مكة» (٢/ ٥٠)، والفاكهي في «أخبار مكة» (١٠٥٦)، عن مجاهد قوله. وانظر الكلام على الحديث في «لسان الميزان» (٦/ ٧٨).

(٢) انظر: «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص: ٢٠٩).

(١٢ ـ ١٤) ـ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ بيَّنَ أنَّ مُشركي قريشٍ حزبٌ من هؤلاءِ الأحزابِ؛ أي: هؤلاءِ من قومِك يا محمَّدُ جندٌ من الأحزابِ المُتقدِّمين، وقد كانُوا أقوى من هؤلاءِ فأهلكناهم، ووصفَ فرعونَ بأنَّه ﴿ذُو الْأَوْتَادِ﴾:

قيلَ: وصفَه بالأبنيةِ المحكمةِ الثَّابتةِ، من قولِهم: مُلكٌ ثابتُ الأوتادِ، وعزٌّ ثابتُ الأوتادِ، وذلك لأنَّ البيتَ من بيوتِ العربِ إنَّما يَثبتُ ويقومُ بالأوتادِ.

وقيلَ: أي: ذو الجنودِ الكثيرةِ، فسُمِّيَت الجنودُ أوتاداً لأنَّهم يُقوُّونَ أمرَه كما يُقوِّي الوتدُ البيتَ.

وقيلَ: كانَت له أوتادٌ وأرسانٌ وملاعبُ يُلعَبُ عليها له.

وقيلَ: كانَ يمدُّ مَن يريدُ معاقبتَه بينَ الأوتادِ حتَّى يموتَ.

قولُه تعالى: ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ﴾؛ أي: الغيضة، وقد مضى ذكرُها في الشُّعراء ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾؛ أي: الَّذين تحزَّبُوا على أنبيائِهم، يعني: أهلكناهم لـمَّا كفروا، فكذلك نفعلُ بمَن في عصرِك يا محمَّدُ ممَّن يكذِّبُك.

وقيلَ: ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾؛ أي: هم الموصوفون بالقوَّةِ والكثرةِ، كقولِك: فلانٌ هوَ الرَّجلُ؛ أي: مَن سواه مغمورٌ في جنبِه.

قولُه تعالى: ﴿إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾؛ أي: ما منهم مِن حزبٍ إلَّا وقد كذَّبَ الرُّسلَ فوجَبَ عليهم عقابي لذلك التَّكذيبِ، وهذا كقولِه: ﴿يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ [غافر: ٣٠-٣١]، فسمَّى هذه الأممَ أحزاباً.

(١٥) ـ ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾؛ أي: ما ينظرُ هؤلاءِ المتحزِّبون عليك يا محمَّدُ الَّذين هم في عزَّةٍ وشقاقٍ القائلون: ﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا ﴾ إلَّا أن يَنزلَ بهم مثلُ الَّذي نزلَ بأولئك الكفَّارِ.

﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾؛ أي: إلَّا عذاباً يفجَؤُهم، يُقالُ: صاحَ الزَّمانُ بآلِ فلان؛ أي: هلَكوا.

وقيلَ: أي: ما ينتظرون بعد أن أُصيبُوا ببدرٍ إلَّا صيحةَ القيامةِ.

وقيلَ: ما ينتظرُ أحياؤُهم الآنَ إلَّا الصَّيحةَ الَّتي هيَ النَّفخةُ في الصُّورِ، كما قالَ: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ٤٩ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ ﴾ [يس: ٤٩]، وهذا إخبارٌ عن قُربِ القيامةِ والموتِ.

﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ قُرِئَ بفتحِ الفاءِ وضمِّها[١]، ومعناهما واحدٌ، وهوَ ما بين الحَلْبَتين، وهوَ السُّكونُ[٢]، واشتقاقُه من الرُّجوعِ؛ لأنَّه يعودُ اللَّبنُ إلى الضَّرعِ بين الحَلبَتين، يُقالُ: أفاقَ من مرضٍ؛ أي: رجعَ إلى الصِّحَّةِ.

قال أبو عُبيدةَ: مَن قرأ ﴿فَوَاقٖ﴾ بفتحِ الفاء؛ أي: راحة، [ومَن قرأ]: ﴿فُواقٍ﴾ بضمِّ الفاء؛ أي: ما بين الحَلْبَتين[٣].

---

(١) قرأ حمزة والكسائي بضم الفاء، والباقون بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ٥٥٢)، و«التيسير» (ص: ١٨٧).

(٢) انظر: «ياقوتة الصراط» (ص: ٤٣٧)، وفيه: والفواق: السّكُون بَين الحلبتين من النَّاقة ليؤوب اللَّبن. وذكر الأزهري في «تهذيب اللغة» (٩/ ٢٥٤): أن الفُوَاق ما بين الحَلْبتين هو السُّكون، ويجوز فيه الْفَتْح. وهكذا ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ١٦٤ ـ ١٦٥) عن ابن الأعرابي.

(٣) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١٧٩)، وما بين معكوفتين مستفاد منه.

وقيلَ: الفُواقُ ـ بالضَّمِّ ـ: قَدْرُ رجوعِ اللَّبنِ إلى الضَّرع.

و[قيل][1]: الفَواقُ: الاسمُ من الإفاقةِ أُقيمَ مُقامَ المصدرِ، كما يُقالُ: أجادَ جَواباً؛ أي: إجابةً، والفُواقُ ـ بالضَّمِّ ـ: الاسمُ من أفاقَتِ النَّاقةُ: إذا رجعَت فِيقتُها؛ أي: دِرَّتُها، ويُسمَّى ذلكَ اللَّبنُ فُواقاً.

وقيلَ: أي: ما ترجعُ تلك الصَّيحةُ ـ أي: نفخةُ إسرافيلَ ـ إلى السُّكونِ إذا نَفخَ في الصُّورِ، كما يُقالُ: إنَّه لا يُفيقُ عن أمرِ كذا ولا يَستفيقُ؛ أي: يَمدُّ النَّفخةَ ويُطوِّلُها.

فعلى القولِ الأوَّلِ: ما لها من رجوعٍ؛ أي: لا تُردُّ حتَّى يكونَ لها امتناعٌ، أو يكونَ لهم منها خلاصٌ، وما بين ابتدائِها ونهايتِها مقدارُ فواقِ ناقةٍ، فهي تُفاجئُهم.

وقيلَ: لا رجوعَ لها ولا مردَّ لسرعةِ وقوعِها، كقولِه: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ [الأنبياء: ٤٠].

***

(١٦) ـ ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ قيلَ: القِطُّ: الصَّحيفةُ الَّتي تُكتَبُ للإنسانِ، قالوا هذا لمَّا سمعوا أنَّ الكتبَ تتطايرُ غداً إلى الأيمانِ والشَّمائلِ، فاستعجلوا الحسابَ والعذابَ لفرطِ الإنكارِ.

وقيلَ: القِطُّ: النَّصيبُ، وهوَ مِن القَطِّ، وهوَ القَطعُ، فالقِطُّ: اسمُ القطعةِ من الشَّيءِ كالقِسمِ والمُقسَمِ؛ أي: عجِّلْ لنا نصيبَنا مِن العذابِ أو مِن الثَّوابِ إن كانَ الأمرُ على ما تقولُ، وكلُّ هذا استهزاءٌ منهم.

***

(١) زيادة يقتضيها السياق، وانظر: «البسيط» (١٩/ ١٦٦).

(١٧) ـ ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾؛ أي: اصبرْ على أذى المشركين، ثمَّ ذكَرَ أمرَ داودَ والأنبياءِ الَّذين أُوذُوا ثمَّ كانَت العاقبةُ الجميلةُ لهم.

وقيلَ: قولُه: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ منسوخٌ بآيةِ السَّيفِ.

وقيلَ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾؛ أي: لينتهوا ويعلمُوا أنِّي لا أرضَى من أحدٍ بمعصيةٍ؛ إذ لم تُحتمَلْ من داودَ صغيرةٌ.

وقيلَ: اصبرْ على قولِهم واذكرْ لهم أقاصيصَ الأنبياءِ صلواتُ الله تعالى عليهم لتكونَ برهاناً على صحَّةِ نبوَّتِك.

﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾؛ أي: ذا القوَّةِ في العبادةِ، وكانَ يصومُ يوماً ويفطرُ يوماً، وذلك أشدُّ الصَّومِ، وكانَ يُصلِّي نصفَ اللَّيلِ، وكانَ قويّاً في الدُّعاءِ إلى اللهِ تعالى[1].

وقولُه: ﴿عَبْدَنَا﴾ إظهارٌ لشرفِه بهذه الإضافةِ.

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾؛ أي: رجَّاعٌ إلى طاعةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى ورضاه في كلِّ أمرٍ، فهو أهلٌ أن يُقتدَى به، يُقالُ: آبَ يَؤُوبُ؛ أي: رجَعَ.

***

(١٨) ـ ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا﴾ ذكَرَ ما آتاه من البرهانِ والمعجزةِ، وهوَ تسبيحُ الجبالِ معه.

---

(١) روى البخاري (٣٤٢٠)، ومسلم (١١٥٩)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «أحب الصيام إلى الله صيام داود: كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه»، وفي رواية عندهما: «ولا يفر إذا لاقى».

قالَ مقاتلٌ: كانَ داودُ إذا ذكرَ اللهَ ذكرَتِ الجبالُ معه، وداودُ يفقَهُ تسبيحَ الجبالِ[1].

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾؛ أي: يُصلِّينَ[2]. وإنَّما يكونُ هذا معجزةً إذا رآه النَّاس وعَرَفوه.

وقالَ محمَّدُ بنُ إسحاقَ: أُوتيَ من حُسنِ الصَّوتِ ما يكونُ له في الجبالِ دويٌّ حسنٌ، وما يصغي الطَّيرُ لحُسنِهِ ويُصوِّتُ معه، فهذا تسبيحُ الجبالِ والطَّيرِ[3].

﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ يُقالُ: شَرَقَتِ الشَّمسُ وأشرَقَت؛ أي: أضاءَت، يريدُ: غدوّاً وعشيّاً.

***

(١٩) - ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾؛ أي: وسخَّرنا له الطَّيرَ محشورةً.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: كانَ إذا سبَّحَ جاوبَته الجبالُ، واجتمعَت إليه الطَّيرُ فسبَّحَت معه، واجتماعُها إليه: حشرُها[4]، فالمعنى: سخَّرنا الطَّيرَ مجموعةً إليه لتسبِّحَ اللهَ تعالى معه.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٣٩).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ١٧٢)، وروى عبد الرزاق في «تفسيره» (٤٨٧٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لم يزل في نفسي من صلاة الضحى شيء حتى قرأت: ﴿سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ١٥٩). وذكره الرازي في «التفسير الكبير» (٢٦/ ٣٧٤) من قول القفال في «تفسيره».

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ١٧٣)، وذكره دون نسبة الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٤٠١)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٥).

وقيلَ: أي: سخَّرنا الرِّيحَ لتحشرَ الطُّيورَ إليه، أو أمرنا الملائكةَ [أن] تحشرَ الطُّيورَ إليه.

﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾؛ أي: كلُّ الطَّيرِ لداودَ مُطيعٌ، وإنَّما قالَ: ﴿لَّهُۥٓ﴾، ولم يقلْ: إليه؛ لأنَّه أرادَ بالأوْبِ الطَّاعةَ؛ أي: كلٌّ مطيعٌ له بالتَّسبيحِ معه.

* * *

(٢٠) ـ ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾؛ أي: قوَّينا مُلكَه حتَّى ثبتَ، ويكونُ ذلكَ بتكثيرِ رجالِه، وبتعليمِه صنعةَ الدُّروعِ، وبإلقاءِ الرُّعبِ منه في القلوبِ.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: كانَ يحرسُه كلَّ ليلةٍ نيفٌ وثلاثونَ ألفَ رجلٍ، فإذا أصبحَ قيلَ: ارجعوا؛ فقد رضيَ عنكم نبيُّ الله[1].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾؛ أي: الفِقهَ وإحكامَ الأمورِ، أو الإصابةَ في القولِ والعملِ.

وقيلَ: النُّبوَّة. وقيلَ: الزَّبور.

﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾؛ أي: العلمَ بما يَفصلُ به الخصوماتِ بين رعيَّتِه، والفَصلُ: قطعُ الأمرِ بين المتنازعين، وهوَ بمعنى القضاءِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: فصلُ الخطابِ: بيانُ الكلامِ وقطعُ الحقِّ من الباطلِ[2]؛ لأنَّ البيانَ من أبان الشَّيءَ عن الشَّيء.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٤٧٩)، والواحدي في «البسيط» (١٩/ ١٧٤).

(٢) ذكره بنحوه الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٤٨٢)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (١٢/ ٤٧٩).

وقيلَ: فصلُ الخطابِ: إسنادُ الحُكمِ إلى الشُّهودِ والأيمانِ، والبناءُ على أنَّ البيِّنَةَ على المدَّعي واليمينَ على مَن أنكَرَ.

وقيلَ: فصلُ الخطابِ قولُ المتكلِّمِ: «أمَّا بعدُ»، فكأنَّ الخطابَ يُفصَلُ به بعضُه عن بعضٍ.

وقالَ عليٌّ رضي الله عنه: فصلُ الخطابِ: سلسلةٌ أُعطِيَت داودَ عليه السَّلام، فيها فصلُ الخطابِ، وهيَ مشهورةٌ في القصصِ[١].

والخطابُ: ما يَتخاطَبُ به الخُصومُ.

* * *

(٢١) ـ ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ ثمَّ ذَكَرَ من قصَّةِ داودَ ما جرى عليه في قصَّة صورةِ المعصيةِ، فقالَ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾؛ أي: وقد أتاكَ ﴿نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ فاعتبِرْ به.

---

(١) انظر: «البسيط» (١٩/ ١٧٧). وذكر الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٤٨٢)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٥٨)، عن علي رضي الله عنه قال: «هو البينة على المدعي واليمين على من أنكر»، زاد البغوي: «لأن كلام الخصوم ينقطع وينفصل به».

وذكره الكرماني في «غرائب التفسير» (٢/ ٩٩٥) دون نسبة، فقال: «هو قوله: «البينة على المدعي واليمين على المدعَى عليه»، وذلك أن الله علق سلسلة من السماء، وأمره أن يقضي بها بين الناس، من كان على الحق يأخذ السلسلة، ومن كان على الباطل لا يقدر على أخذها، ثم إن رجلاً غصب من آخر لؤلؤاً، فجعل اللؤلؤ في عصا له ثم خاصمه المدعي إلى داود، فقال: إن هذا أخذ مني لؤلؤاً لم يرده وإني صادق في مقالتي، فجاء وأخذ السلسلة ثم قال المدعى عليه: خذ مني العصا، فأخذ عصاه، فقال: إني رددت عليه اللؤلؤ وإني صادق فيمقالتي فجاء وأخذ السلسلة، فتحير داود في ذلك، فرفعت السلسلة وأمره بأن يقضي بالبينة واليمين وذلك فصل الخطاب». وذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٣٠٨) عن وهب بن منبه.

وقيلَ: ﴿هل﴾ للاستفهامِ، وهوَ كما يقولُ الرَّجلُ لغيرِه: هل سمعتَ بما جرى على فلانٍ؟ فيقولُ: لا، فيقولُ: كانَ من أمرِه كَيتَ وكَيتَ.

وقيلَ: تقديرُ الكلامِ: هل أتاكَ نبأُ الخصمِ؛ فإنِّي أعلمُ أنَّه لم يأتِكَ فاستمعْ له لأُخبرَك.

والخصمُ: مصدرُ خَصَمَه يَخصِمُه، ثمَّ يُسمَّى به، ولا يُثنَّى ولا يُجمَعُ، فيُقالُ: هما خصمٌ، وهم خصمٌ؛ أي: هما ذوا خصمٍ، وهم ذوو خصمٍ، والمرادُ من الخصمين هاهنا ملَكينِ تَصوَّرا بصورةِ رجلين مُتخاصِمين.

قالَ مقاتلٌ: بعثَ اللهُ تعالى إلى داودَ ملكَين هما جبريلُ وميكائيلُ للتَّنبيهِ [على التوبة]، فأتياه في المحرابِ(١).

﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ﴾؛ أي: علَوا، يُقالُ: تَسوَّرتُ السُّورَ؛ أي: علَوْتُه، وقال: ﴿تَسَوَّرُواْ﴾ والخصمُ اثنانِ؛ لأنَّ أقلَّ الجمعِ اثنانِ، كقولِه: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤].

وقيلَ: كانُوا جماعةً.

وكانَ داودُ في ذلكَ الوقتِ محجوباً عن الخصومِ لاشتغالِه بالصَّلاةِ؛ إذ كانَ وقتَ تودُّعٍ وترفُّهٍ، فلمَّا لم يجد الخصمان من بابِ داودَ سبيلاً تسوَّروا المحرابَ ونزلوا إليه.

والمحرابُ: موضعُ الصَّلاةِ، وقيلَ: كانَ غُرفةً انفردَ فيها بنفسِه.

* * *

---

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٤٦)، وما بين معكوفتين منه، وانظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٣٩) وليس فيه تسمية الملكين، وفيه: «ليستنقذه بالتوبة».

(٢٢) - ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ فزعَ لـمَّا نزلوا إليه مِن فوقُ؛ أي: من الجدارِ والسُّور ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: ذُعِرَ منهم وكانَ محفوفاً بالحُجَّاب بحيثُ لا يُدخَلُ عليه إلَّا بإذنٍ.

وقال: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا﴾ ثمَّ قالَ: ﴿إِذْ دَخَلُوا﴾ قالَ الفرَّاءُ: وهوَ كقولِك: «ضُرِبتَ إذ دخلْتَ عليَّ إذ اجترأتَ عليَّ»، فيكونُ الدُّخولُ هوَ الاجتراءُ، ويجوزُ أن يكونَ أحدُهما على مذهبِ (لمَّا)، فكأنَّه قالَ: إذ تسوَّروا المحرابَ لـمَّا دخلوا[1].

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ قالَ محمَّدُ بنُ إسحاقَ: بعثَ اللهُ إليه وهوَ في محرابِه ملكَين يختصمانِ إليه، مثلاً ضربَه اللهُ له ولأُوريا، فرآهما واقفَين على رأسِه، فقالَ: ما أدخلَكما عليَّ؟ قالا: ﴿لَا تَخَفْ﴾، لم ندخُلْ لبأسٍ، نحنُ ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فجئناكَ لتقضيَ بيننا[2]. وفيه إضمارٌ؛ أي: نحنُ خصمانِ.

وقيلَ: إنَّهما قالا: لم يأذَنْ لنا الموكَّلونَ والحُجَّابُ فتوصَّلنا إلى الدُّخولِ بالتَّسوُّرِ، وخِفْنا أن يتفاقمَ الأمرُ بيننا. فقبلَ داودُ عُذرَهم وأصغى إلى قولِهم.

وقيلَ: كانُوا جماعةً، وقولهم: ﴿خَصْمَانِ﴾؛ أي: فينا خصمان، ولهذا قالَ: ﴿تَسَوَّرُوا﴾، وقالَ: ﴿إِذْ دَخَلُوا﴾، وقالَ: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾.

وقيلَ: أي: نحنُ فريقانِ من الخصومِ بغى بعضُنا على بعضٍ، وعلى هذا يُحتمَلُ

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤٠١)، وبدأه بقوله: «قد يجاء بإذ مرتين، وقد يكون معناهما كالواحد».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ١٨٠).

أَنَّه كانَت الخصومةُ بين اثنين ومع كلِّ واحدٍ جمعٌ، ويُحتمَلُ أن تكونَ لكلِّ واحدٍ من هؤلاءِ الفريقِ خصومةٌ مع واحدٍ من الفريقِ الآخرِ، فحضرُوا الخصوماتِ، ولكن ابتدأ منهم اثنانِ، فعرفَ داودُ بذِكرِ النِّعاجِ القصَّةَ، وأغنى ذلكَ عن التَّعرُّضِ للخصوماتِ الأُخرِ.

﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: تعدَّى بعضُنا وخرجَ عن الواجبِ، يُقالُ: بَغَى الجرحُ إذا أفرطَ وجعُه وترامى إلى ما يفحُشُ، ومنه: بغَتِ المرأةُ؛ أي: أتَت بالفاحشةِ.

﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: افصِلْ أمرَنا بالحقِّ في دينِ اللهِ.

﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ يُقالُ: شطَّ الرَّجلُ وأشطَّ؛ أي: جازَ الحدَّ، ومنه: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤]، والأصلُ فيه البُعدُ، من شطَّتِ الدَّارُ؛ أي: بَعُدَت.

﴿وَٱهْدِنَآ﴾؛ أي: أرشِدْنا إلى ﴿سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾؛ أي: إلى قصدِ السَّبيلِ، وهوَ طريقُ الحقِّ، و(سواءُ الصِّراط): وسطُه، وهوَ كقولِ الرَّجلِ للملِكِ: «أنصِفْني من خصمي» فيحسُنُ منه هذا الكلامُ، وإن كانَ يَعلمُ أنَّه يَفعلُ ذلك.

* * *

(٢٣) ـ ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾؛ أي: قالَ الملَكُ الَّذي تكلَّمَ عن أُوريا: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾؛ أي: على ديني، وأشارَ إلى المدَّعَى عليه، وقالَ: ﴿أَخِى﴾؛ أي: صاحبي ﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾، النَّعجةُ: الأُنثى من البقرِ الوحشيَّةِ ومن الضَّأنِ، وفي قراءةِ عبدِ اللهِ بن مسعودٍ: (له تسعٌ وتسعونَ نعجةً أُنثى)[1]، وهوَ تأكيدٌ، كما تقول: «هوَ رجلٌ ذكَرٌ»، وهوَ تأكيدٌ،

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٢٨)، و«معاني القرآن» للأخفش (١/ ١٧٥)، و«تفسير الطبري» (٢٠/ ٥٨).

والعربُ قد تُعبِّرُ بالنَّعجةِ والشَّاةِ عن المرأةِ، وفي التَّفسيرِ: له تسعٌ وتسعونَ امرأةً، وهكذا كانَ لداودَ.

ويجوزُ أن يُقالَ: لم يكن له هذا العددُ بعينِه، ولكنَّ المقصودَ ضربُ مثلٍ، كما تقولُ: لو جئتَني مئةَ مرَّةٍ لم أقضِ حاجتَكَ؛ أي: مِراراً كثيرةً.

﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾؛ أي: امرأةٌ واحدةٌ.

﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾؛ أي: انزلْ عنها، واجعَلْني أنا أكفلُها وأضمُّها إليَّ، يُقالُ: أكفلتُ فلاناً المالَ إكفالاً؛ أي: ضمَّنتُه إيَّاه، وكَفِلَ هو به كُفولاً.

وقيلَ: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾؛ أي: اجعلْها كِفلي ونَصيبي حتَّى تكونَ لي مع سائرِ النِّعاجِ.

﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾؛ أي: غَلَبني، يُقالُ: عازَزتُه فعَزَزتُه؛ أي: غالَبْتُه فغلبَني وغلبتُه، وأصلُ الكلمةِ: الشِّدَّةُ، تقولُ: جوزةٌ عزوزةٌ؛ أي: صُلبةٌ[1].

وقيلَ: ﴿وَعَزَّنِي﴾؛ أي: كانَ أعزَّ منِّي؛ أي: أمنَعَ، من عازَزتُه؛ أي: مانَعتُه، وهذا يدلُّ على أنَّ داودَ كانَ قالَ لأُوريا: انزلْ عنها، وقد قالَ ابنُ عبَّاسٍ: ما زادَ داودُ على أن قالَ: أكفِلْنيها؛ أي: تحوَّلْ عنها ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ لأنَّه كانَ الملِكَ، ولم يكن ثَمَّ مغالبةٌ بالحِجاجِ.

ثمَّ رُوِيَ: أنَّ أُوريا لم يُجِبْ، فبعثَه داودُ في غزوةٍ، فقُتِلَ فتزوَّجَ بامرأتِه[2].

---

(١) قوله: «جوزة عزوزة أي صلبة» لم أجد مثل هذا، وقد اتفقت المصادر على أن الصلبة هي العزاز، فيقال للأرض الصلبة الشديدة: عزاز، أما العزوز فتوصف بها الشاة الضيقة الإحليل فيشتد حلبها، ويقال: ما العَزُوز كالفَتُوح، ولا الجَرُور كالمَتُوح، أي: ما الضّيقة الإحليل كالواسعته، والبعيدة القَعْر كالقريبته. انظر: «غريب الحديث» للخطابي (١/ ٨١)، و«الصحاح» (مادة: عزز)، و«مجمل اللغة» (١/ ٦١٣)، و«بصائر ذوي التمييز» للفيروزأبادي (٤/ ٦٢).

(٢) سيأتي الكلام في رد هذا القول وأمثاله.

وكانَ قولُ الملكِ تنبيهاً لا كذباً، كما يقولُ الفقيهُ في تصويرِ المسائلِ: أرأيتَ لو كانَ كذا.

***

(٢٤) ـ ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾؛ أي: بسؤالِه نعجتَكَ، فأضافَ المصدرَ إلى المفعولِ، وألقى الهاءَ من السُّؤالِ، وهوَ كقولِه: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ [فصلت: ٤٩]؛ أي: من دعائِه الخيرَ.

﴿إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾؛ أي: ليضمَّها إلى نعاجِه، فاختصرَ.

وقولُه: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ من غيرِ أن يسمعَ كلامَ الخصمِ الآخرِ مشكِلٌ، فيُمكنُ أن يُقالَ: إنَّما قالَ هذا بعدَ مراجعةِ الخصمِ الآخرِ وبعدَ اعترافِه، وقد رُوِيَ هذا، وإن لم تَثبُت روايتُه فهو معلومٌ من قرائنِ الحالِ.

أو أرادَ: لقد ظلمَك إن كانَ الأمرُ على ما تقولُ، فسكَّتَه بهذا وصبَّرَه إلى أن يسألَ خصمَه.

ويُحتمَلُ أن يُقالَ: كانَ من شرعِهم التَّعويلُ عندَ سكوتِ المدَّعى عليه إذا لم يظهَرْ منه إنكارٌ بالقولِ.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ الخُلَطاءُ: جمعُ الخليطِ، وخليطُ الرَّجلِ: مُخالِطُه؛ كالجليسِ والأكيلِ والرَّفيقِ، وغيرُ الشَّريكِ قد يَظلمُ أيضاً، وخصَّ الشُّركاءَ لأنَّه ظنَّ أنَّهما شريكانِ، فقالَ: إنَّ كثيراً من الشُّركاءِ يظلمونَ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فإنَّهم لا يَظلمونَ أحداً ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾،

يعني: الصَّالحين، وقليلٌ هم، فـ﴿مَا﴾ زائدة، كقولِه: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠].

وقيلَ: ﴿مَا﴾ اسمٌ، و﴿هُمْ﴾ صلةٌ، كما تقولُ: «قد كنتُ أراكَ أعقلَ ممَّا أنتَ فيه»، فتجعلُ «أنت» صلةً لـ«ما»؛ أي: كنتُ أرى عقلَكَ أكثرَ ممَّا هوَ، فالتَّقديرُ: وقليلٌ ما تجدُهم.

﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ قيلَ: لمَّا قضى بينهما نظرَ أحدُهما إلى صاحبِه وضحكَ، فلم يفطنْ لهما داودُ، فأحبَّا أن يعرفَهما، فصعدَا[١] إلى السَّماءِ حيالَ وجهِه، فعلمَ داودُ عليه السَّلام أنَّ اللهَ تعالى ابتلاه بذلك، ونبَّهَه على ما ابتلاه به.

وقيلَ: ﴿ظَنَّ﴾؛ أي: أيقنَ، إلَّا أنَّه ليسَ يقينَ عيانٍ، فأمَّا العِيانُ فلا يُقالُ فيه إلَّا: عَلمَ، قاله الزَّجَّاجُ[٢].

وقيلَ: ذُكرَ بلفظِ الظَّنِّ لأنَّه أدركَه بالاستدلالِ.

والفتنةُ: الامتحانُ، والقراءةُ ﴿فَتَنَّاهُ﴾ بالتَّشديدِ، وفي روايةٍ عن أبي عمرٍو: «فَتَنَاه» بالتَّخفيفِ[٣]؛ أي: أنَّ الخصمينِ فتناه.

﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾؛ أي: فسألَ اللهَ تعالى أن يغفرَ له ذنبَه.

﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾؛ أي: سقطَ على وجهِه مُصلِّياً مُتضرِّعاً إلى اللهِ تعالى.

وقالَ مقاتلٌ: فوقعَ من ركوعِه ساجداً لله[٤]؛ أي: لمَّا أحسَّ قامَ إلى الصَّلاةِ، ثمَّ وقعَ من الرُّكوعِ إلى السُّجودِ.

---

(١) في (أ): «فاختارَ أن يفرِّقَهما فصعدَا»، والمثبت من «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٧٣)، وهو الأنسب بالسياق.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٢٧).

(٣) هي رواية عبد الوهاب عن أبي عمرو، والمشهور عنه مثل الجماعة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٠)، و«المحتسب» (٢/ ٢٣٢).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٤١)، وفيه: «وقع ساجدًا أربعين يومًا وليلة».

وقيلَ: أرادَ بالرُّكوعِ السُّجودَ لاشتمالِهما جميعاً على الانحناءِ.

﴿وَأَنَابَ﴾؛ أي: تابَ من خطيئتِه، ورجعَ إلى اللهِ.

* * *

(٢٥) ـ ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: فغفرنا له ذنبَه، ويجوزُ الوقفُ على ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ﴾، ثمَّ يُبتدأ: ﴿ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ كقولِه: ﴿هَـٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ﴾ [ص: ٥٥]؛ أي: الأمرُ ذلكَ الَّذي ذكرنا.

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾؛ أي: لَدرجةً في الجنَّةِ قريبةً؛ أي: رفيعةً، كما يُقالُ: فلانٌ قريبٌ عندَ الأميرِ؛ أي: جليلُ القَدْرِ، والزُّلفَى: القُربى، والازدلافُ: الاقترابُ.

قالَ مالكُ بنُ دينارٍ: يُوضَعُ في الجنَّةِ غداً منبرٌ رفيعٌ، ثمَّ يُنادى: يا داودُ، مجِّدني بذلك الصَّوتِ الرَّخيمِ الَّذي كنتَ تمجِّدُني به في الدُّنيا[١].

﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾؛ أي: وحُسنَ مصيرٍ إذا رجعَ إلينا في الآخرةِ.

وقيلَ: سجدَ داودُ أربعين يوماً لا يرفعُ رأسَه إلَّا للصَّلاةِ المكتوبةِ، فبكى حتَّى نبتَ العشبُ من دموعِه، وأوحى الله تعالى إليه: قد غفرتُ لك، قالَ: فكيف بالخصمِ؟ قالَ: فإنِّي أستوهبُك منه، فيهبُك لي.

وقيلَ: لم يشربْ في تلك المدَّةِ ماءً إلَّا وثلثاه دمعٌ.

وتكلَّموا في خطيئتِه؛ فقيل: إنَّه نظرَ إلى امرأةٍ من بني إسرائيلَ من غيرِ تعمُّدٍ، ووقعَ في قلبِه منها شيءٌ، فأرسلَ إلى زوجِها يسألُه النُّزولَ عنها، ومثلُ هذا قد يُعتادُ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (٣٢٧)، وأبو عوانة في «مستخرجه» (٤٣٥٩).

ففعلَ ذلكَ الرَّجلُ ما سألَه داودُ مع ميلِه إلى تلك المرأةِ، وهذا خطيئةُ داودَ، وكانَ هذا تركُ الأَولى.

وقيلَ: كانَ أظهرَ من نفسِه الصَّبرَ على ما يُمتحَنُ به، كما صبرَ إبراهيمُ وإسحاقُ ويعقوبُ، فوقعَ له ما وقعَ، ولم يَردْ في خبرٍ يُوثَقُ به أنَّ داودَ تزوَّجَ بتلك المرأةِ، فمِن الممكنِ أنَّ زوجَ تلك المرأةِ ما نزلَ عنها، وكانَت خطيئةُ داودَ في النَّظرِ المجرَّدِ، أو في قولِه: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾.

وقيلَ: إنَّه لمَّا نظرَ إلى امرأةِ أُوريا أحبَّ أن يتزوَّجَها، وأمرَ بأن يُقدِّمَ زوجها أمامَ التَّابوتِ، وأن يُقاتلَ إلى أن يُفتَحَ عليه، وهو التَّابوتُ الَّذي كانُوا يَقدِّمونه في حروبِهم؛ وكانَ رسمُ مَن يكونُ أمامَ التَّابوتِ أن يُقاتلَ إلى أن يُفتَحَ عليه أو يُقتَلَ، وإنَّ أُوريا فُتِحَ عليه في ذلكَ الوجهِ، ففعلَ داود ذلكَ مِراراً إلى أن قُتِلَ، فتزوَّجَ داودُ بها.

وليسَ هذا في خبرٍ صحيحٍ، ونسبةُ مثلِه إلى الأنبياءِ من غيرِ تثبتٍ أمرٌ بعيدٌ.

وقالَ قومٌ: إنَّ الخصمين كانا من الإنسِ، ووقعَت لهما هذه الخصومةُ، واستعجلا الوصولَ إليه، وتسوَّرا الجدارَ، فمالَ إلى المدَّعي للُطفِ شكواه ورقَّةِ كلامِه، فصارَ ذلكَ ذنباً له؛ أي: فوقعَ في قلبِه أنَّه أخطأ فيما فعلَ فتابَ.

وقيلَ: خطيئتُه: أنَّه خطبَ امرأةً فارغةً عن الأزواجِ، ولكنْ قد سبَقَ إلى خطبتِها آخرُ، فأصرَّ داودُ على الخطبةِ مع علمِه بسبقِ الرَّجلِ إلى الخطبةِ، فكُرِهَ لداودَ ذلكَ، وقولُه تعالى: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾؛ أي: غلبَني في الخِطبة، وإنَّما قالَ: ﴿وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ لأنَّه كانَ أشرفَ على التَّزوُّجِ بها بما سبَقَ من الخِطبةِ.

وقيلَ: قالَ داودُ: ربِّ إنَّك آتيتَ آبائي إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ مراتبَ، فأعطني مثلَها، فقالَ: إنِّي ابتليتُهم فصبروا، فقالَ: وأنا أصبرُ أيضاً، فقالَ: «إنِّي أبتليكَ يومَ كذا» ليومِ العبادةِ، وكانَ له يومٌ للعبادةِ، ويومٌ للقضاءِ بينَ الخَلقِ، ويومٌ

يشتغلُ فيه بنفسِه، فلمَّا كانَ يومُ العبادةِ، خلا وأغلقَ الأبوابَ ونصبَ الحُجَّابَ؛ قيلَ: أربعةَ آلافٍ، وقيلَ: ثلاثين ألفاً، أو ثلاثة وثلاثين ألفاً، فبينا هوَ في صلاتِه، أو في قراءةِ الزَّبورِ، أتى طيرٌ ووقعَ بينَ يديه كأنَّه مِن ذهبٍ، فهمَّ داودُ أن يأخذَه ليدفعَه إلى ابنٍ له صغيرٍ، فطارَ ووقعَ على كُوَّةِ البيتِ، فهمَّ بأن يأخذَه، فطارَ، فنظرَ خلفَه، فإذا بامرأةٍ مُتجرِّدةٍ تغتسلُ، فلمَّا أحسَّت به سترَت نفسَها بشعرِها، فافتُتنَ بها، وسألَ عنها، فقيلَ: إنَّها امرأةُ أُوريا، ثمَّ هاهنا اختلفوا؛ فقيلَ: إنَّ أُوريا كانَ خطبَها وما تزوَّجَ بها بعدُ، وقيلَ: كانَ متزوِّجاً بها، فبعثَه داودُ إلى الغزوِ، وقد رُوِيَ أنَّ سليمانَ وُلِدَ له منها، واللهُ أعلمُ(١).

---

(١) جميع هذه الروايات من الإسرائيليات وليست في خبر صحيح كما نصَّ المصنف هنا، وينسب فيها لداود عليه السلام ما ينزه عنه الآحاد من الأتقياء فكيف بنبي من أنبياء الله، وقد ردها كثير من المفسرين والعلماء منهم: النحاس في «معاني القرآن» (٦/ ٩٨)، والقاضي عياض في «الشفا» (٢/ ٣٧١) وابن حزم في «الفصل في الملل والنحل» (٤/ ١٤)، وابن الملقن في «التوضيح» (١٩/ ٥٠٥)، والزمخشري في «الكشاف»، والكرماني في «لباب التفاسير» (٧/ ٥٠١)، والنسفي في «مدارك التنزيل» (٣/ ١٥٠)، والخازن في «تفسيره» (٤/ ٣٦)، والرازي في «مفاتيح الغيب» (٢٦/ ٣٨٠)، وابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآيات، وغيرهم.

قال الزمخشري في «الكشاف»: «هذا ونحوُهُ مما يقبُح أن يُحَدَّثَ به عن بعض المتَّسِمِيْنَ بالصَّلاح من أفناء المُسلمين فضلاً عن بَعضِ أعلام الأَنبياء».

أما ابن حزم فقد ذكر أن ما جاء في الآية لا يدل على شيء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولَّدها اليهود، ثم قال: «وإنما كان ذلك الخصم قوما من بني آدم بلا شك، مختصمين في نعاج من الغنم على الحقيقة بينهم، بغى أحدهما على الآخر على نص الآية، ومن قال: إنهم كانوا ملائكة معرِّضين بأمر النساء، فقد كذب على الله عز وجل وقوَّله ما لم يقل، وزاد في القرآن ما ليس فيه، وكذَّب الله عز وَجل، وَأقر على نَفسه الخبيثة أنه كذَّب الملائكة؛ لأن الله تعالى يقول ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ فقال هو: لم يكونوا قطّ خصمين، ولا بغى بعضهم على بعض، ولا كان قطّ =

(٢٦) - ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: قلْنا: يا داودُ، إنَّا صيَّرناكَ خَلفاً عمَّن كانَ قبلَك من الأنبياءِ.

وقيلَ: جعلناكَ خليفةً مِن قِبَلِنا تُدبِّرُ أمرَ الخلقِ بإذنِنا.

﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالزَّبورِ وبما بيَّنَ الله تعالى لكَ وأمرَك به ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾؛ أي: لا تَقْتَدِ بهواكَ المخالفِ لأمرِ اللهِ ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: اتِّباعُ الهوى يعدلُ بصاحبِه عن طريقِ اللهِ وطاعتِه، والكنايةُ في ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ ترجعُ إلى الهوى، أو إلى اتِّباعِ الهوى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يعدِلون عن الطَّريقِ الموصِلِ إلى رضا اللهِ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ أي: لا تخفيفَ فيه ﴿بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾؛ أي: بما تركُوا من سلوكِ طريقِ اللهِ، فقولُه: ﴿نَسُوا۟﴾؛ أي: تركُوا الإيمانَ به، أو تركُوا العملَ به، فصارُوا كالنَّاسين.

ثمَّ؛ قيلَ: قالَ هذا لداودَ لما أُكرِمَ بالنُّبوَّة.

وقيلَ: بعدَ أن تابَ عليه وغفرَ خطيئتَه.

= لأحدهما تسع وتسْعُونَ نعجة، ولا كان للآخر نعجةٌ واحِدَةٌ، ولا قال له: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾... ثم كل ذلك بلا دليل، بل الدعوى المجردةُ، وتالله إن كل امرئ منا ليصون نفسه وجاره المستور عن أن يتعشق امرأة جاره ثم يعرِّض زوجها للقتل عمداً ليتزوجها، وعن أن يترك صلاته لطائر يراه، هذه أفعال السفهاء المتهوكين الفساق المتمردين لا أفعال أهل البر والتقوى، فكيف برسول الله داود الذي أوحى إليه كتابه وأجرى على لسانه كلامه، لقد نزهه الله عز وجل عن أن يمر مثل هذا الفحش بباله فكيف أن يستضيف إلى أفعاله؟!!...» إلى آخر ما قال.

(٢٧) - ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾؛ أي: كانَ لي أن أخلقَ، وكانَ لي أن أتعبَّدَ الخلقَ، فخلقْتُ وتعبَّدْتُ، وميَّزتُ المطيعَ عن العاصي بوعدِ الثَّوابِ والعقابِ.

﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: الكفَّارُ يظنُّونَ أنَّ الأمرَ هزلٌ، وأن لا حشرَ ولا نشرَ.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: أنكرُوا القيامةَ؛ أي: يُنادَونَ يومَ القيامةِ بالويلِ.

وقد أخبرَ أنَّه خلقَ ما بينَ السَّماواتِ والأرضِ، وأكسابُنا[1] بينهما، فهي مخلوقةٌ للهِ تعالى.

***

(٢٨) - ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: لا نفعلُ ذلكَ ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾؛ أي: نجعلُ أصحابَ محمَّدٍ عليه السَّلام كالفُجَّارِ. قاله ابنُ عبَّاس[2].

وقد ذكرنا معنى ﴿أَمْ﴾ في مثلِ هذا الموضعِ في مواضعَ، وقيلَ: فيه ضميرٌ؛

---

(١) غير واضحة في (أ)، والمثبت هو أقرب ما يكون لرسمها.

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٨/ ٢٦١) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس بلفظ: «الذين آمنوا علي وحمزة وعبيدة بن الحارث والمفسدون في الأرض عتبة وشيبة والوليد، وهم الذين تبارزوا يوم بدر»، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ١٦٥) من رواية الكلبي عن ابن عباس.

أي: وما خلقنا السَّماءَ والأرضَ وما بينهما باطلاً، لم تظنُّوا ذلكَ، ولكن قلتُم: نجعلُ الَّذين آمنوا كالمفسدين.

***

(٢٩) - ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾؛ أي: هذا الكتابُ كتابٌ أنزلناه إليك مباركٌ ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: ليتدبَّروا، فأُدغِمَت التَّاءُ في الدَّال، وفائدةُ التَّدبُّرِ: أن تتقرَّرَ لهم صحَّتُها، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: وليتَّعظَ بما فيه أهلُ العقلِ.

***

(٣٠) - ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ لما ذكَرَ داودَ، ذكَرَ سليمانَ، وذكَرَ بعضَ أخبارِهما؛ أي: رزقناه ابنَه المسمَّى سليمانَ ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ يعني: سليمانَ؛ إذ كانَ أوَّاباً مُطيعاً، وإن ندرَت منه نادرةُ خطيئةٍ لم يُصرَّ عليها.

***

(٣١) - ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على سليمانَ، و﴿إِذْ﴾ صلةُ ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾، أو صلةُ ﴿أَوَّابٌ﴾؛ أي: نعمَ العبدُ هوَ إذ كانَ مِن وصفِه كذا.

﴿عُرِضَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: أُظهِرَ له ﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾؛ أي: بعدَ العصرِ.

﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ يُقالُ: صفَنَ الفرسُ يصفِنُ صُفوناً.

قال أبو عُبيدةَ: الصَّافنُ: الَّذي يجمعُ بينَ يديه ويَثْنِي طرفَ سنبكِ إحدى رجليه[1].

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١٨٢)، وزاد: «والسنبك مقدم الحافر».

وقالَ الفرَّاءُ: أشعارُ العربِ تدلُّ على أنَّ الصُّفونَ: القيامُ خاصَّة[1].

وقيلَ: الصَّافنُ الَّذي يثنِي سنبكَ إحدى رجليه وإحدى يديه.

والجمعُ: صافناتٌ وصوافنُ وصُفُونٌ.

﴿ٱلْجِيَادُ﴾، يُقالُ: فرسٌ جوادٌ من خيلٍ جيادٍ، وهوَ الشَّديدُ الحُضْرِ[2]، كما أنَّ الجوادَ من النَّاسِ: السَّريعُ البذلِ؛ أي: عُرِضَ عليه الخيلُ الَّتي من عادتِها الصُّفونُ عندَ القيامِ وسرعةُ الجري عندَ الإجراءِ، وكانَ سليمانُ مشغوفاً بالخيلِ يُعدُّها للغزوِ، فعُرِضَت عليه مرَّةً فألهته عن صلاةِ العصرِ حتَّى غربَتِ الشَّمسُ.

* * *

(٣٢) ـ ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ قيلَ: قعدَ بعدَ الظُّهرِ تُعرَضُ عليه الخيلُ، ولم يُصلِّ العصرَ حتَّى غابَتِ الشَّمسُ، ونسيَ العصرَ.

وقيلَ: ما كانَ في ذلكَ الوقتِ صلاةُ ظهرٍ وصلاةُ عصرٍ، بل كانَت تلك الصَّلاةُ نافلةً يأتي بها في ذلكَ الوقتِ فشُغِلَ عنها، وكانَ سليمانُ رجلاً مَهيباً فلم يُذكِّره أحدٌ ما نسيَه من الفرضِ والنَّفلِ، أو ظنُّوا التَّأخيرَ مُباحاً، فتذكَّرَ سليمانُ، وأدَّى تلك الصَّلاةَ الفائتةَ، وقالَ على سبيلِ التَّلهُّفِ: ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾: عن الصَّلاةِ، وأمرَ بردِّ تلك الإفراسِ إليه، وأمرَ بضربِ عَراقيبها وأعناقِها، ولم يكن ذلكَ معاقبةً للأفراسِ؛ إذ ذبحُ البهائمِ جائزٌ إذا كانَت مأكولةً، بل عاقَبَ نفسَه حتَّى لا تشغلَه الخيلُ بعد ذلكَ عن الصَّلاةِ، ولعلَّه عرقبَها ليذبحَها، فحبسَها بالعرقبةِ عن

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤٠٤).

(٢) هو ارتفاع الفرس في عدوه. انظر: «القاموس» (مادة: حضر).

النِّفارِ، ثمَّ ذبحَها في الحالِ ليتصدَّقَ بلحمِها، أو لأنَّ ذلكَ كانَ مباحاً في شرعِه، فأتلفَها لمَّا شغلَته عن ذكرِ اللهِ حتَّى يقطعَ عن نفسِه ما يشغلُه عن ذكرِ اللهِ، وأثنى عليه بهذا، وبيَّنَ أنَّه أثابَه بأن سخَّرَ له الرِّيحَ، فكانَ يقطعُ عليها من المسافةِ في يومٍ ما يُقطَعُ مثلُه على الخيلِ في شهرين غدوّاً ورواحاً.

﴿أَحْبَبْتُ﴾؛ أي: آثرتُ حبِّي للخيرِ، والحُبُّ مصدرُ حَبَّ أُضيفَ إلى المفعولِ؛ أي: أحببتُ الخيرَ حُبّاً.

وقيلَ: ﴿أَحْبَبْتُ﴾ مِن أحَبَّ الجَملُ؛ أي: بَرَكَ، وأحَبَّ فلانٌ؛ أي: طَأطَأَ رأسَه، وأحْبَبْتُ بالأرضِ؛ أي: ألصَقتُ؛ أي: طأطأتُ رأسي عن الصَّلاةِ وتغافلتُ حبّاً للمالِ والخيلِ، كما تقولُ: هربَ فلانٌ خوفَ القتلِ، و: خوفاً للقتلِ.

والخيرُ: المالُ، كقولِه: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]؛ أي: مالاً، وقولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، والخيلُ مالٌ.

وقيلَ: أرادَ بـ﴿ٱلْخَيْرِ﴾ الخيلَ، والرَّاءُ واللامُ تتعاقبانِ؛ مثل: دمعٍ مُنهمرٍ ومُنهملٍ، وخيَّلتُه وخيَّرتُه؛ أي: خدعتُه.

﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾؛ أي: على ذكرِ ربِّي، و(عن) و(على) بمعنًى، يُقالُ: رضيتُ عن فلانٍ، وعلى فلانٍ، وراودته عن نفسِه ومالِه، وعلى نفسِه ومالِه.

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾؛ أي: توارَت الشَّمسُ بما حجبَها عن الأبصارِ، ولم يجرِ للشَّمسِ ذِكرٌ كقوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]؛ أي: على ظهرِ الأرضِ، وتقولُ: هاجَت باردةً؛ أي: هاجَت الرِّيحُ باردةً، وقالَ اللهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣]؛ أي: بلغَتِ النَّفسُ الحلقومَ، وقال: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ﴾ [المرسلات: ٣٢] ولم يتقدَّم للنَّارِ ذِكرٌ.

وقالَ الزَّجَّاجُ: إنَّما يجوزُ الإضمارُ إذا جرى ذكرُ الشَّيءِ، أو دليلُ الذِّكرِ، وقد جرى هاهنا الدَّليل، وهوَ قولُه: ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾، والعشيُّ: ما بعدَ الزَّوالِ(١).

والتَّواري: الاستتارُ عن الأبصارِ.

* * *

(٣٣) ـ ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾؛ أي: رُدُّوا الخيلَ، وقد سبقَ ذكرُها إذ قالَ: ﴿ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾، ﴿فَطَفِقَ﴾؛ أي: فرُدَّت فطفقَ، كقولِه: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ﴾ [البقرة: ٦٠]، يُقالُ: طَفِقَ يطفَقُ مثل حَمِدَ يحمَدُ، هذا هوَ الصَّحيحُ.

﴿مَسْحًا﴾؛ أي: يمسحُ مسحاً، والمسحُ: الضَّربُ، يُقالُ: مسحَ عِلاوتَه(٢)؛ أي: ضربَ عُنقَه، وكانَ سليمانُ أمرَ بضربِ سُوقِها وأعناقِها.

وقالَ الحسنُ: قطعَ عراقيبَها وأعناقَها(٣).

ولا يُظنُّ سليمانُ أن يُقدِمَ على ذبحِها أو قتلِها إلَّا وقد أباحَ اللهُ له ذلك.

وفي روايةٍ عن ابنِ عبَّاسٍ: أي: جعلَ يمسحُ أعرافَ الخيلِ وعراقيبَها حبًّا لها(٤)؛ أي: لمَّا قضى الصَّلاةَ قالَ لمن حولَه: إنِّي بحبِّي الخيلَ وإعدادِها للجهادِ اشتغلتُ عنِ الصَّلاةِ، والآنَ قد صلَّيتُ، فرُدُّوها؛ لِأستتمَّ النَّظرَ فيها،

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٣٠).

(٢) قوله: «علاوته»، العلاوة رأس الإنسان ما دام في عنقه، يقال: ضرب علاوته، أي: رأسه.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٨٦).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٨٧) ورجحه فقال: وهذا القول الذي ذكرنا عن ابن عباس أشبه بتأويل الآية؛ لأن نبي الله لم يكن ـ إن شاء الله ـ لِيُعذبَ حيواناً بالعرقبة، ويُهلك مالاً من ماله بغير سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها في اشتغاله بالنظر إليها..

واكتسابَ العينِ بمسحِها، وإنَّما أثنى اللهُ عزَّ وجلَّ عليه لجدِّهِ في الجهادِ.

وقيلَ: لم يكن ثَمَّ صلاةٌ ولا تركٌ لها، ولكنَّه اشتغلَ بفرض الخيل حتَّى غابَتِ الشَّمسُ، وقالَ لمن حضرَه: هذا الحبُّ للخيلِ مِن حبِّ الخيرِ؛ لأنِّي أحببتُ الخيلَ للجهادِ، وقولُه: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾؛ أي: إنَّما أُحِبَّ الخيلَ عن جهةِ العبادةِ وذكرِ الله؛ أي: مِن أجلِ أنَّ اللهَ تعالى أمرَني بالجهادِ في كفايةٍ، فالمرادُ بالذِّكرِ التَّوراةُ أو الزَّبورُ، ثمَّ أمَرَ بردِّها عليه، ومسحَ بيدِه أعناقَها وسوقَها.

وقيلَ: أي: كوى سوقَها وأعناقَها، وحبسَها في سبيلِ الله.

وقيلَ: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ ليسَ يريدُ به الشَّمسَ، بل يريدُ به حتَّى غابَت الخيلُ عن عينِه فاستترَت بحجابٍ، فقالَ: ردُّوها عليَّ.

وإنَّما صارَ إلى هذا قومٌ لأنَّ مثلَ سليمانَ لا يَنسى الفرضَ، ولا يقتُلُ الأفراسَ معاقَبةً، وقد سبقَ الجوابُ عن هذا، وبيَّنا أنَّه لم يكن ثَمَّ صلاةٌ، وإن كانَت فما كانَت مفروضةً، ثمَّ إن كانَت فرضاً أيضاً فالنِّسيانُ جائزٌ على البشرِ، وبيَّنا أنَّ ذبحَ الأفراسِ كانَ للتَّصدُّقِ باللَّحمِ.

وقيلَ: أرادَ إدخالَ الألمِ على قلبِ نفسِه لئلا يشتغلَ عن ذكرِ الله تعالى بسببِ المالِ، وكانَ ذلكَ مُباحاً له كما أُبيحَ لنا ذبحُ البهائمِ.

والباءُ في قولِه: ﴿بِٱلسُّوقِ﴾ باءُ الإلصاقِ، كقولِه: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، ويُقالُ: ساقٌ وسُوقٌ، مثل: بَدَنةٍ وبُدْنٍ، وقارَةٍ وقُورٍ(١).

* * *

---

(١) القارة: الجبيل الصغير المنقطع عن الجبال، أو الصخرة العظيمة، أو السوداء، أو الأرض ذات الحجارة السود، ويجمع على: قور وقارات وقار وقيران. انظر: «القاموس» (مادة: قور).

(٣٤) ـ ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾ أخبرَ أنَّه فتنَ سليمانَ كما فتنَ داودَ، ثمَّ إنَّه تابَ إلى اللهِ فغفرَ له، ووهبَ له الملكَ العظيمَ، وكانَت فتنتُه من جهةِ امرأةٍ اسمُها جرادةُ، عبدَت في بيتِه التَّماثيلَ من غيرِ علمِه أربعين أو خمسين يوماً، وكانَ قُتلَ أبوها فجزعَت، فأذنَ لها سليمانُ في أن تصنعَ لها مثالَ أبيها لتنظرَ إليه، فجعلَت تعبدُ التِّمثال[1].

وقيلَ: كانَ سببُ فتنتِه أنَّه كانَت لـه جاريةٌ يُقالُ لها: جرادةُ، وكانَ لقومِها خصومةٌ مع إنسانٍ، فقضى سليمانُ بينهم بالحقِّ، إلَّا أنَّه أحبَّ أن يكونَ الحقُّ لأهلِها، فأوحى الله تعالى إليه أنَّه ستُصيبُك فتنةٌ بسببِ الميلِ إلى أهلِ الجارية.

وقيلَ: احتجَبَ عن النَّاسِ ثلاثةَ أيَّامٍ، فسُلِبَ ملكُه، وأُلقِي على كُرسيِّه جسدٌ عقوبةً له.

﴿جَسَدًا﴾ قيلَ: شيطاناً، وهوَ شيطانٌ قعدَ على كرسيِّه يحكمُ في مُلكِه أربعين أو خمسين يوماً.

قالَ مجاهدٌ: هو شيطانٌ يُقالُ له: آصفُ، قالَ له سليمانُ: كيفَ تفتنونَ النَّاسَ؟ قالَ: أرني خاتمَكَ، فلمَّا أعطاه إيَّاه نبذَه في البحرِ، فذهبَ مُلكُه، وقعدَ هذا الشَّيطانُ على كرسيِّه، ولم يكن له يدٌ على نساءِ سليمانَ، فكانَ سليمانُ يستطعمُ ويقولُ: أنا سليمانُ، فلا يصدِّقونه، فاعترضَ يوماً حوتاً، فشقَّ بطنَه، فوجدَ خاتمَه في بطنِه، فرجعَ إليه ملكُه، وفرَّ ذلكَ الشَّيطانُ.

وقيلَ: لمَّا عبدَت تلك المرأةُ الصَّنمَ في دارِه من غيرِ علمِه امتُحِنَ بشيطانٍ يُقالُ

---

(١) وهذا من الخرافات المَوْضُوعَة المكذوبة التي لم يَصح إسنادها قطّ. وسيأتي مزيد كلام عليها.

له: صخرٌ، قالَ ابنُ عبَّاسٍ: كانَ مارداً لا يقوَى عليه جميعُ الشَّياطينِ، فلم يزل يحتالُ حتَّى ظفِرَ بخاتمِ سليمانَ، وكانَ سليمانُ لا يدخلُ الكنيفَ بخاتمِه، فجاءَ صخرٌ في صورةِ سليمانَ حتَّى أخذَ الخاتمَ من امرأةٍ من نساءِ سليمانَ، فقامَ أربعين يوماً على ملكِ سليمانَ، وسليمانُ هاربٌ، حتَّى ردَّ اللهُ عليه الخاتمَ والملكَ.

﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾؛ أي: رجعَ بعدَ أربعين يوماً إلى مُلكِه[1].

وقيلَ: أنابَ إلى اللهِ ورجعَ بالتَّوبةِ.

* * *

(٣٥) - ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾؛ أي: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ ذنبي ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ لا يُسلَبُ منِّي فيكونَ لغيري، كما سلبتَه الآنَ عقوبةً على خطيئتي.

---

(١) ذكره مطولًا الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٥٣٢ - ٥٤٧) عن وهب بن منبه، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٩١) عن السدي، وهو من خرافات بني إسرائيل.

قال ابن حزم في «الفصل في الملل» (٤/ ١٥): معنى قَوْله تَعَالَى: ﴿فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾؛ أي: آتيناه من الملك مَا اختبرنا به طاعته... فهذه فتنة الله تعالى لسليمان إنما هي اختباره حتَّى ظهر فضله فقط، وما عدا هذا فخرافات ولدها زنادقة اليهود وأشباههم، وأما الجسد الملقى على كرسيه فقد أصاب الله تعالى به ما أراد نؤمن بهذا كما هو، ونقول: صدق الله عز وَجل كلٌّ مِن عند الله رَبِّنا، ولو جاء نصٌّ صحيح في القرآن أَو عن رسول الله ﷺ بتفسير هذا الجسد ما هو لقلنا به، فإذا لم يَأْتِ بتفسيره ما هو نصٌّ ولا خبر صحيح فلا يحل لأحد القول بالظَّنِّ الذي هو أكذب الحديث في ذلك، فيكون كاذبًا على الله عز وَجل، إِلَّا أننا لا نشك الْبَتَّةَ في بطلان قول من قال: إنه كانَ جنيًّا تَصَوَّر بصورته، بل نقطع على أنه كذب، واللهُ تعالى لا يهتك ستر رسوله ﷺ هذا الهتك، وكذلك نبعد قَول من قال: إنه كانَ ولداً له أرْسله إلى السَّحاب ليربيَه، فسليمان عَلَيْهِ السَّلَام كانَ أعلمَ من أن يُربي ابْنه بغيرِ ما طبع الله عز وَجل بِنْيَةَ البشر عليه من اللَّبن والطَّعَام، وهذه كلها خرافات موضوعة مكذوبة لم يَصح إسنادها قطّ.

وقيلَ: سألَ اللهَ تعالى العِصمةَ من الذُّنوب حتَّى لا يُعاقَبَ، لا أنَّه[1] تشوَّفَ لملكِ الدُّنيا.

وقيلَ: طلبَ مُلكاً لا يكونُ لأحدٍ مثلُه، فلم يُعطَ أحدٌ بعدَه ما أُعطِيَ.

﴿لَّا يَنۢبَغِى﴾؛ أي: لا يكونُ ﴿لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِىٓ﴾؛ أي: لأحدٍ سواي، وقيلَ: من بعدِ موتي.

وقيلَ: لم يُرِدْ طلبَ الدُّنيا، بل أرادَ أن يكونَ مُلكُه آيةً لنبوَّتِه ﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِىٓ﴾؛ أي: لا يُعارِضُني أحدٌ في معجزتي، ولم يكن لأحدٍ من المُلكِ ما لِسليمانَ من تسخيرِ الجنِّ والإنسِ والطَّيرِ والشَّياطينِ له.

وعند المعتزلةِ: لا يجوزُ في الحِكمةِ أن يتسلَّطَ شيطانٌ على ملكِ سليمانَ، وإنَّما أُلقِيَ على كرسيِّه لدله[2] من الولدِ النَّاقصِ؛ إذ رُوِيَ أنَّه قالَ مرَّة: لأطوفَنَّ اللَّيلةَ على مئةٍ، فتحملُ كلُّ واحدةٍ غلاماً يجاهدُ في سبيلِ اللهِ، وكنَّ في عددٍ، فلم يقلْ: إن شاءَ اللهُ، فما حملَت منهنَّ إلَّا واحدةٌ، وَلَدَت نصفَ إنسانٍ، وقيلَ: إنساناً ميتاً، فأُلقِيَ ذلكَ على كرسيِّه عقوبةً له على تركِ الاستثناءِ[3]، فلمَّا علمَ تابَ.

---

(١) في (أ): «إلا أنه» والصواب المثبت.

(٢) كذا في (أ). والذي في روايات في الصحيحين: «شق غلام» وفي رواية: «بشق رجل» وفي أخرى: «بنصف إنسان».

(٣) رواه البخاري (٢٧١٩) وأطرافه، ومسلم (١٦٥٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعدم قوله: (إن شاء الله)؛ قال ابن حجر في «فتح الباري» (٦/ ٤٦١): أي: بلسانه، لا أنه أبى أن يفوض إلى الله، بل كان ذلك ثابتاً في قلبه، لكنه اكتفى بذلك أولاً ونسي أن يجريه على لسانه.

وليس في الحديث ذكر الآية، لكن المفسرين حملوها عليه، فقالوا: إن هذا هو الجسد الذي أخبر الله سبحانه وتعالى عنه. وهو أظهر ما قيل في تفسير فتنته عليه السلام كما قال الآلوسي في «روح المعاني» (٢٣/ ٢٨٧).

وهـذا مـن جائزاتِ العقولِ، وكـذا جلـوسُ الشَّيطانِ على سريرِ مُلكِ سليمانَ جائزٌ أيضاً[١].

وقيلَ: كانَ لسليمانَ مكانٌ من الرِّيحِ[٢] حتَّى حملتْه وغذَتْه في السَّحابِ خوفاً عليه من الشَّياطينِ، فماتَ الولدُ، فأُلقيَ جسداً على كُرسيِّه، فكانَ ذنبُه تخوُّفَه من الشَّياطينِ، وكانَ الواجبُ أن يُسْلِمَه إلى اللهِ، فلمَّا ماتَ الولدُ انتبهَ للقصَّةِ فتابَ[٣].

وقيلَ: ذنبُه أنَّه وَطِئَ امرأةً في حالِ الحيضِ.

وقيلَ: أُمرَ بأن لا يتزوَّجَ إلَّا بنساءِ بني إسرائيلَ، فتزوَّجَ بامرأةٍ من غيرِ بني إسرائيلَ، وهيَ الَّتي عبدَت الصَّنمَ في دارِه.

---

(١) بل هو محال من القول كما قال أبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» (١٢/ ٥٠٢): وذكروا أشياء لا تقبلُها العقول السليمة، وتردُّها العقائد المستقيمة، ولا يجوز على نبي الله سليمان ولا على سائر الأنبياء الرضا بعبادة الأصنام، ولا التَّرْكُ بعد العلم، فإنْ فعلَتْ ذلك امرأته بغير علمه، فما معنى عِتاب سليمان به وهو لا يَعْلَم به؟!
وكيف يجوز تسليط الشيطان أن يحكُمَ بين الناس بالباطل، ويأتيَ النساء، ويُصَوِّرَ أنه نبي، وأنَّ أحكامَه أحكامُ الله تعالى، وهذا تلبيس على المسلمين طريقَ الدين؟!
فكيف تصوَّرَ بصورة سليمان وعلى الناس الإيمانُ بسليمان، والشيطانُ تَصَوَّر بصورة سليمان وهم يعتقدونه نبيَّ الله، ولا يصلون إلى حقيقة ذلك ألبتَّة؟! هذا مُحالٌ مِن القول.
وكيف يسلُبُ الله سليمان مُلْكه في حياته وقد بقَّاه عليه سنة كاملة بعد وفاته؟!
وكيف ينزعه منه وهو يقول: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾، واستجاب الله له في قوله: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾.

(٢) قوله: «كانَ لسليمانَ مكانٌ من الرِّيحِ» كذا في (أ)، وانظر لفظ الخبر في التعليق الآتي.

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٥٤٣) عن الشعبي قال: وُلِد لسليمان عليه السلام ابن، فاجتمعت الشياطين، فقال بعضهم: إن عاش له ولد لم ننفك مما نحن فيه من البلاء والسخرة فسبيلنا أن نقتل ولده ونخبله، فعلم سليمان عليه السلام بذلك فأمر السحاب حتى حملته الريح وغذا ابنه في السحاب خوفًا من مَعَرةِ الشياطين فعاقبه الله بخوفه من الشياطين ومات الولد، فألقي ميتًا على كرسيه جسدًا وهو الجسد الذي قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾.

ولمَّا جلسَ الشَّيطانُ على سريرِه جعلَ يقضي ويجورُ، وأنكرَ النَّاسُ فنشروا التَّوراةَ بين يديه وقرؤوا، فطارَ في الهواءِ ورمى الخاتمَ في البحرِ، فلمَّا تمَّ بلاءُ سليمانَ وكانَ يعملُ للملَّاحين في روايةٍ، فأُعطيَ سمكةً بالأجرةِ، فشقَّ عن بطنِها فإذا خاتمُه في بطنِها، وعادَ إليه ملكُه، وأمَرَ بذلك الشَّيطانِ فصُفِّدَ، وألقاه في البحرِ[1].

* * *

(٣٦) ـ ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ﴾؛ أي: بإرادتِه.

وقيلَ: عندَ أمرِه إيَّاها، ومُجريها هوَ الله تعالى عند قولِ سليمانَ لها: اجري.

﴿رُخَآءً﴾؛ أي: سهلةً ليِّنةً، من الرخاوةِ. وقيلَ: مطيعةً. وقيلَ: طيِّبةً.

﴿حَيۡثُ أَصَابَ﴾؛ أي: حيثُ أرادَ وقصدَ، يُقالُ: أصابَ اللهُ بك خيراً؛ أي: أرادَ.

* * *

(٣٧) ـ ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾؛ أي: وسخَّرنا له الشَّياطينَ، وما سُخِّرَت لأحدٍ قبلَه.

﴿كُلَّ بَنَّآءٖ﴾ ﴿كُلَّ﴾ بدلٌ مِن ﴿الشَّياطين﴾؛ أي: كلَّ بنَّاءٍ منهم يبنونَ له ما يشاءُ.

﴿وَغَوَّاصٖ﴾ كانُوا يغوصون في البحارِ، ويستخرجونَ له الدُّرَّ، فسليمانُ أوَّلُ مَن استخرجَ اللُّؤلؤَ مِن البحرِ.

* * *

(٣٨) ـ ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾؛ أي: وسخَّرنا له آخرينَ مِن الشَّياطينِ ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مِن

---

(١) وكل هذه القصص لا تصح في حق نبي الله، وانظر ما تقدم من كلام أبي حفص النسفي وغيره فيها.

مردتِهم، يَقرنُهم في الأغلالِ، فكانَ يجعلُ اثنينِ أو ثلاثةً منهم في سلسلةٍ، وكانَ ذلكَ زجراً لهم من مخالفته، والأصفادُ: الأغلالُ، واحدُها: صفدٌ، فمَن قيَّدْتَه تقولُ: صفَّدْتُه، ومَن أعطيتَه تقولُ: أصفدتُه، كأنَّك أعطيتَه ما تَربطُه به.

وقيلَ: ﴿مُقَرَّنِينَ﴾؛ أي: قُرِنَت يدُ كلِّ واحدٍ منهم إلى عنقِه.

***

(٣٩ ـ ٤٠) ـ ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ (٣٩) وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾.

قولُه تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾؛ أي: لمَّا أكرمناه بما أكرمناه به قلْنا له: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾؛ أي: نحنُ المنعمونَ عليكَ بما تَرى فامتثِلْ أمرَنا فيه ﴿فَٱمۡنُنۡ﴾؛ أي: أعطِ مُتفضِّلاً ﴿أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾، فليس عليك فيه تبعةٌ أعطيتَ أو لم تُعطِ.

وقيلَ: هذا في أمرِ الشَّياطينِ؛ أي: احبِسْ في العملِ والقيدِ مَن شئتَ منهم.

وقيلَ: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾؛ أي: أعطيناك تفضُّلاً لا مُجازاةً.

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾؛ أي: إن أنعَمْنا عليه في الدُّنيا، فله عندنا في الآخرةِ قُربةٌ وحسنُ مآبٍ.

***

(٤١) ـ ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ بالاقتداءِ به في الصَّبرِ على المكارهِ؛ أي: اذكُرْه ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ أي: فقالَ: إنِّي مسَّنيَ الشَّيطانُ، فحُذفَ وأُوقعَ ﴿نَادَىٰ﴾ على (أنَّ) ففُتِحَ.

﴿بِنُصۡبٖ﴾ قيلَ: النُّصْبُ والنَّصَبُ بمعنًى؛ مثل: حُزْنٍ وحَزَنٍ، ورُشْدٍ ورَشَدٍ،

وقُـرِئَ: ﴿بنَصَـبٍ﴾[1]، والنَّصَبُ: مـا أصابَه من المـرضِ والعَناءِ فيه.

وقيلَ: النُّصْبُ ـ بضمِّ النُّون والتَّخفيفِ ـ: المرضُ، والنَّصَبُ: العناءُ في الأمرِ.

﴿وَعَذَابٍ﴾ قيلَ: أرادَ إهلاكَ المالِ. وقيلَ: كانَ أيُّوب يغزو، فداهَنَ ملكاً من الملوكِ كافراً كانَت مواشيه في ناحيتِه فلم يغزُه، فابتُلي.

وقيلَ: كانَ كثيرَ المالِ حسنَ العبادةِ، فحسدَه إبليسُ، وقال: ربِّ لو سلبتَه مالَه وصحَّتَه لم يَعبدْكَ، فسلَّطَه الله تعالى على مالِه وبدنِه وأهلِه سوى قلبِه وبصرِه، وإنَّ إبليسَ بثَّ عفاريتَه، فأتلفوا عليه أموالَه وولدَه وأهلَه إلَّا امرأةً واحدةً كانَت تعودُ عليه بقُوْتِه من مسألةِ النَّاسِ، ونفخَ الشَّيطانُ في جسدِ أيُّوبَ نفخةً، فأصابَه مرضٌ تناثرَ منه لحمُه، وطُرِحَ على مزبلةٍ، فقالَ عند ذلكَ: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

وقيلَ: إنَّما قالَ ذلكَ لإنحاء الشَّيطانِ عليه بالوسوسةِ، وكانَ الشَّيطانُ ينفِّرُ عنه مَن آمنَ به، ويقول: لو كانَ له جاهٌ عندَ اللهِ وقَدْرٌ لَمَا حلَّ به ما حلَّ.

وقيلَ: كـانَ النَّاسُ يُبعِدون امـرأتَه ويقـولون: نخشى العدوى، ولهذا كانُوا يستقذرونها، فلهذا قالَ: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

* * *

(٤٢) ـ ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

قولُـه تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ فسـمعَ اللهُ تعالى دعاءَه وشـفاه، وقـالَ له: اركض برجلِـكَ، والرَّكضُ: الدَّفـعُ بالرِّجلِ، يُقالُ: ركَـضَ الدَّابَّةَ وركَضَ ثوبَـه برجلِه؛ أي: اركضِ الأرضَ برجلِك.

﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ﴾؛ أي: فركضَ فنبعَت عينُ ماءٍ، فقلنا: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ﴾، والمغتسَلُ: ما يُغتَسلُ به من الماءِ ﴿وَشَرَابٌ﴾ وهوَ ما يُشرَبُ منه.

---

(١) قرأ بضمهما أبو جعفر، وبفتحهما يعقوب، والباقون بضم فسكون. انظر: «النشر» (٢/ ٣٦١).

ثمَّ قيلَ: ظهرَت عينٌ واحدةٌ، وقيلَ: عينان.

قالَ مقاتلٌ: نبعَت عينٌ حارَّةٌ واغتسلَ فيها فخرج صحيحاً، ثمَّ نبعَت عينٌ أخرى فشربَ منها ماءً عذباً بارداً(١).

قال الحسنُ رضيَ اللهُ عنه: غسلَت كلَّ قَذَرٍ في جوفِه(٢).

وقد مضَت القصَّةُ في سورةِ الأنبياءِ.

وقيلَ: أُمِرَ بالرَّكضِ بالرِّجلِ ليتناثَرَ عنه كلُّ داءٍ في جسدِه.

والمغتسلُ: الماءُ الَّذي يُغتسَلُ به، ويجوزُ أن يكونَ الموضعَ الَّذي يُغتسَلُ فيه.

ثمَّ؛ قيلَ: بقيَ في البلاءِ سبعَ سنين وسبعةَ أشهرٍ وسبعةَ أيَّامٍ وسبعَ ساعاتٍ.

وقيلَ: عشرَ سنين، وقيلَ: ثماني عشرَ سنةً(٣)، وقيلَ: أربعين سنةً.

* * *

(٤٣) ـ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ ظاهرُ هذا يدلُّ على أنَّ أهلَه ماتوا في حالِ البلاءِ ليَكثرَ ثوابُه في احتسابِهم.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٤٨).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٦٠٤).

(٣) رواه البزار (٢٣٥٧ ـ كشف)، وأبو يعلى في «مسنده» (٣٦١٦)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٦٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٨٩٨)، والضياء في «المختارة» (٢٦١٧)، عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ نبيَّ الله أيوبَ لَبِثَ به بلاؤهُ ثماني عشرة سنة، فرَفَضه القريبُ والبعيدُ إلا رجلانِ مِن إخوانه... » الحديث. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٠٨): رواه البزار وأبو يعلى ورجال البزار رجال الصحيح.

ورواه الحاكم في «المستدرك» (٤١١٥)، ووقع فيه: «خمس عشرة سنة».

ثمَّ؛ قالَ قومٌ: أحيا له مَن كانَ ماتَ مِن أهلِهِ فردَّهم عليه ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ بأن عاشوا حتَّى وَلَدوا مثلَهم، وكانَ له سبعُ بناتٍ وثلاثةُ بنين.

وقالَ قومٌ: آتاه أهلَه في الآخرةِ، وأُعطِيَ مثلَهم في الدُّنيا بأن عمَّرَه فتزوَّجَ مثلَ مَن كانَ متزوِّجاً بها من النِّساءِ، ووُلِدَ له مثلُ أولادِه.

وقيلَ: أحيا له أهلَه في الدُّنيا، وأُوتِيَ مثلَهم في الآخرةِ.

وقيلَ: كانَ قومُه(١) تفرَّقُوا وغابوا، فردَّهم الله تعالى عليه.

وليسَ في الآيةِ ردُّ المالِ، ولكنَّ ردَّ الأهلِ والولدِ يدلُّ على ردِّ المالِ، وفي الخبرِ: «أنَّ أيُّوبَ خرَّ عليه جرادٌ مِن ذهبٍ بعدَ أن عُوفِيَ، فجعلَ يأخذُه في ثوبِه، فأوحَى اللهُ إليه: ألم يكفِكَ ما أعطيناك؟ فقالَ: يا ربِّ، ومَن يشبعُ مِن فضلِكَ؟!»(٢).

﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾؛ أي: فعَلْنا ذلكَ رحمةً منَّا ﴿وَذِكْرَىٰ﴾؛ أي: وتذكرةً للعقلاءِ.

***

(٤٤) ـ ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ كانَ حلفَ ليضربَنَّ امرأتَه الَّتي كانَت تسعى عليه أيَّامَ محنتِه كذا ضربةً، فرخَّصَ له الرَّبُّ في أن يأخذَ ضِغثاً عليه من الأغصانِ بعددِ ما كانَ حلفَ عليه، فيضربَها به دفعةً واحدةً حتَّى لا يَحنثَ.

---

(١) لعل المراد: أهله أو ولده.

(٢) رواه البخاري (٢٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «بينا أيوب يغتسل عرياناً، فخر عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحتثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى وعزتك، ولكن لا غنى بي عن بركتك».

والضِّغثُ: ملءُ الكفِّ من الشَّجرِ والحشيشِ والشَّماريخِ[١].

وقالَ الخليلُ: قبضةُ قضبانٍ يجمعُها أصلٌ واحدٌ[٢].

قالَ سعيدُ بنُ المسيِّبِ: كانَت امرأةُ أيُّوبَ تأتيه كلَّ يومٍ بقَدْرٍ معلومٍ من الطَّعامِ، فجاءَت يوماً بأكثرَ من المعتادِ، فخافَ أن تكونَ قارفَت شرّاً، وأقسمَ ليضربنَّها مئةَ ضربةٍ[٣].

وقيلَ: كانَ النَّاسُ يستَقْذِرونها ويستخدمونها، فقالَ لها إبليسُ: إلى متى هذا الشَّقاءُ؟ لو أطاعني زوجُكِ في كلمةٍ واحدةٍ لأَزَلْتُ عنه ما به. فذكرَت ذلكَ لأيُّوبَ وقالَت: ما عليك لو تكلَّمتَ بكلمةٍ ثمَّ استغفَرْتَ ربَّكَ.

وقيلَ: قالَت: لو تقرَّبتَ إلى الشَّيطانِ فذبحتَ له عناقاً، فحلفَ ليضربَنَّها إن عُوفيَ ما به.

وقيلَ: باعَت ذُؤابتَها برغيفينِ إذ لم تجد شيئاً تحملُه إلى أيُّوب، وكانَ أيُّوبُ يتعلَّقُ بها إذا أرادَ القيامَ، فلهذا حلفَ يضربُها[٤].

---

(١) الشماريخ: جمع شُمْرُوخ، وهو غصن دقيق يكون في أعلى الغصن الغليظ. انظر: «تهذيب اللغة» (٧/ ٢٦٣)

(٢) انظر: «العين» (٤/ ٣٦٣).

(٣) ذكره بنحوه عنه الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١٠٣)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٥٨)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (١٢/ ٥١١).

(٤) وهذه الأقوال من خرافات الإسرائيليات وأباطيلها، والقرآن يبطلها حيث أظهر كرامتها بأن أمر رسوله بالإبرار بيمينه بهذه الطريقة المذكورة ليمنع عنها المشقة وعن أيوب الحنث، وفي هذا إقرار بفضلها، ومن كانت كذلك فهي بعيدة عما ألصقته بها هذه الإسرائيليات من إيهام طاعة الشيطان أو طلب القربان له. والأولى السكوت عما سكت عنه القرآن ولم يبينه لعدم الحاجة إليه.

ثـمَّ؛ قيـلَ: ضَربَ أَيُّوبُ بكباسـةٍ فيها مئـةُ شـمراخٍ، وقيلَ: بالمكانـسِ، وقيلَ: بالإذخرِ، وقيـلَ: بثُمامٍ.

وقيلَ لعطاءٍ: هل يُعمَلُ بهذا اليومَ؟ فقالَ: ما أُنزلَ القرآنُ إلَّا ليُعمَلَ به(١).

وقالَ مجاهدٌ: ذلكَ لأيُّوبَ خاصَّة(٢).

وعند الشَّافعيِّ: إذا حلفَ ليضربَنَّ فلاناً مئةَ جلدةٍ أو ضربةٍ، ولم يَقلْ: ضرباً شديداً، ولم ينوِ ذلكَ بقلبِه، يكفيه مثلُ هذا الضَّربِ المذكورِ في الآيةِ، ولا يَحنثُ(٣).

يُقالُ: حَنَثَ في يمينِه يحنَثُ: إذا لم يَبْرَرْها. وعندَ الكوفيِّين الواوُ مُقحَمةٌ؛ أي: فاضربْ لا تحنَثْ.

﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾؛ أي: أنعَمْنـا عليـه بمـا أنعَمْنا إنَّـا وجَدْناه صابـراً على البلاءِ ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾؛ أي: إلى اللهِ مُطيعٌ له.

* * *

(١) رواه بنحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٦١٣٢)، ولفظه: «عن عبيد بن عمير عن أبيه أنه قد رآه يتحلل يمينه في ضرب نذره بأدنى ضربة، فقال عطاء: قد نزل في ذلك كتاب الله قال: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾، فقال رجل: في كم ذلك؟ قال: بلغنا أنه كان حلف ليجلدنها مائة سوط». ورواه بنحوه سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (٧/ ١٨٦)، ولفظه: «عن عطاء قال: أتاه رجل، فقال: إني حلفت ألا أكسو امرأتي درعا حتى تقف بعرفة؟ فقال: احملها على حمار، ثم اذهب فقف بها عرفة. فقال: إنما عنيت يوم عرفة. فقال له عطاء: وأيوب حين حلف ليجلدن امرأته مئة جلدة؛ أنوى أن يضربها بالضغث؟ إنما أمره الله أن يأخذ ضغثاً فيضربها به. قال عطاء: إنما القرآن عبر، إنما القرآن عبر».

(٢) ذكره النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٦٤٤)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١٠٣).

(٣) انظر: «الأم» (٧/ ٨٥).

(٤٥) ـ ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾؛ أي: اذكر بقلبك هؤلاءِ وما صبروا عليه من البلاءِ في الدُّعاءِ إلى اللهِ، فإنَّهم كانُوا أولي القوَّةِ والبصيرةِ في جهادِ أعداءِ اللهِ.

وقيلَ: المراد بذكرهم: تلاوةُ قصصِهم على الأُمَّةِ ليَعتبروا.

وقراءةُ المعظَمِ: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ﴾، وقرأ ابنُ كثيرٍ: ﴿عَبْدَنا﴾[1] فيرجعُ إلى إبراهيمَ.

﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي﴾؛ أي: القوَّةِ، والأيدي: جمعُ اليدِ، وهيَ ما يقعُ به البطشُ، والقوَّةُ إنَّما تكونُ فيها، فسُمِّيَت القوَّةُ باسمِ الجارحةِ لاتِّصالِ إحداهما بالأخرى، وقولُه: ﴿دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾ فالأيدُ: القوَّةُ، وليسَ فيها ياءٌ بعدَ الدَّالِ، وهو كقولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ [الذاريات: ٤٨]؛ أي: بقوَّةٍ.

﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾: جمعُ بصرٍ، وهوَ بصرُ القلبِ، ويرجعُ إلى العلمِ والعقلِ.

وقيلَ: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي﴾؛ أي: أولي الأفضالِ على النَّاسِ بالدُّعاءِ إلى اللهِ.

وقيلَ: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي﴾ عند اللهِ بالأعمالِ بالصَّالحةِ.

* * *

(٤٦ ـ ٤٧) ـ ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ﴾ قُرِئَ ﴿بِخَالِصَةٖ﴾ بالتَّنوينِ، وهيَ فاعِلةٌ من الخُلوصِ؛ أي: جعَلْناهم لنا خالِصين؛ أي: خالِصة لهم ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾؛ أي:

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٥٤)، و«التيسير» (ص: ١٨٨).

تذكيرُ الدَّارِ الآخرةِ، فـ﴿ذِكۡرَى﴾ رفعٌ لأنَّه فاعلٌ؛ أي: يُذكِّرون الخَلقَ الدَّارَ الآخرةَ ليتأهَّبوا لها.

ويجوزُ أن تكونَ الذِّكرى بمعنى الذِّكر؛ أي: ليتذكر(١) الدَّار الآخرة؛ ليَرغَبُوا فيها وليُرغِّبوا النَّاسَ، أو ليتذكَّروا الدُّنيا ويزهدُوا فيها، وليخلصَ لهم ذكرُ الدُّنيا، وهوَ الثَّناءُ الحسنُ عليهم، كما قالَ: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ [مريم: ٥٠]؛ أي: ثناءً حسناً.

وقيلَ: الخالصةُ مصدرٌ بمعنى الإخلاصِ؛ أي: أخلصناهم بإخلاصٍ ذكرى الدَّارِ، فالذِّكرى في محلِّ النَّصبِ بالمصدرِ، ثمَّ الذِّكرى بمعنى التَّذكيرِ، أو بمعنى الذِّكر، فالذِّكرى على الأوَّلِ رفعٌ بأنَّها فاعلةٌ، وعلى الثَّاني نصبٌ لأنَّها مفعولةٌ.

وقيلَ: ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ بدلٌ مِن ﴿خالصةٍ﴾؛ أي: أخلصناهم بذكرى الدَّارِ، فلا همَّ به لهم إلَّا ذكرُ الدَّارِ الآخرةِ وتذكيرُ الخلقِ بها.

وقُرِئَ: ﴿بخالِصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ بالإضافةِ(٢)، فالخالصةُ على هذا مصدرٌ بمعنى الإخلاصِ، والذِّكرى مفعولٌ به أُضيفَ إليه المصدرُ؛ أي: بإخلاصِهم ذكرى الدَّارِ، ويجوزُ أن يكونَ المصدرُ مضافاً إلى الفاعلِ، والخالصةُ مصدرٌ بمعنى الخُلوصِ؛ أي: خَلُصَت لهم ذكرى الدَّارِ، وهيَ الدَّارُ الآخرةُ، أو الدَّارُ الدُّنيا؛ ليُزهَدَ فيها.

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾؛ أي: اصطفيناهم للنُّبوَّةِ، و﴿ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ والخِيارُ: جمعُ خَيْرٍ وخَيِّرٍ، وهوَ مثلُ الأشرارِ والشِّرارِ.

* * *

---

(١) كذا في (أ)، ولعل الصواب: «ليذكروا» أو «لذكر».

(٢) قرأ بها نافع. انظر: «السبعة» (ص: ٥٥٤)، و«التيسير» (ص: ١٨٨).

(٤٨) ـ ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ﴾ مضى ذكرُ اليسعِ في سورةِ الأنعامِ والصَّافاتِ، قيلَ: هذا مِن أتباعِ إلياسَ، فلمَّا ماتَ إلياسُ نبِّئَ اليسعُ.

﴿وَذَا ٱلۡكِفۡلِ﴾ مضى ذكرُه في (سورةِ الأنبياءِ)، قيلَ: لمَّا ماتَ أيُّوبُ أرسلَ اللهُ ابنَه بشرَ بنَ أيُّوب، فهو ذو الكفلِ[1] عاشَ خمساً وسبعين سنةً، ثمَّ بعثَ اللهُ بعدَه شُعيباً.

وأصلُ اليسعِ: يسعٌ، فأُدخِلَ عليه الألفُ واللامُ، وقد يَدخلانِ على الأعلامِ، مثل:

يا ليتَ أمَّ العَمْرِ كانَت صاحِبِي[2]

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿واللَّيسعَ﴾ بلامينِ[3]، والأصلُ: لَيْسَعٌ، مثلَ: ضَيغمٍ، فأُدخلَ عليه لامُ التَّعريفِ مثلَ الحارث والقاسم.

وإنَّما أُمِرَ بذكرِهم لنقتديَ بهم.

﴿وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ ممَّن اختيرَ للنُّبوَّةِ.

***

(١) في (أ): «فهو وذو الكفل»، والصواب المثبت، فقد روى الحاكم في «المستدرك» (٤١١٨) عن وهب بن منبه قال: كان عمر أيوب ثلاثاً وتسعين سنة وأوصى عند موته إلى ابنه حومل، وقد بعث الله بعده ابنه بشر بن أيوب نبيًّا وسماه ذا الكفل، وأمره بالدعاء إلى توحيده، وأنه كان مقيماً بالشام عُمرَه حتى مات، وكان عمره خمساً وسبعين سنة، وإن بشراً أوصى إلى ابنه عبدان، ثم بعث الله بعدهم شعيباً.

(٢) الرجز لأحمد بن يحيى كما في «الحجة» لأبي علي الفارسي (٣/ ٣٤٨)، و«المحكم» (٣/ ٦٩)، و«لسان العرب» (مادة: حجر).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٠٤).

(٤٩ ـ ٥٤) ـ ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾؛ أي: الَّذي تلَوْناه عليك ذكرٌ لك ولسائرِ النَّاس ليَعتبروا. وقيلَ: أي: شرفٌ وذكرٌ جميلٌ لهؤلاءِ يُذكَرون به أبداً.

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾؛ أي: مرجعٍ؛ أي: وللمتَّقين أيضاً حُسنُ المنقلَبِ وإن لم يكونوا أنبياءَ.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ هذا تفسيرٌ لحسنِ المآب ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾؛ أي: لا يحتاجونَ إلى استفتاحٍ، بل تنفتحُ لهم.

وقيلَ: تَفتحُ الملائكةُ لهم الأبوابَ.

وقالَ الزَّجَّاجُ: أي: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ منها(١).

وقالَ الفرَّاءُ: مُفتَّحةً لهم أبوابُها(٢).

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ هوَ حالٌ قُدِّمَت على العاملِ فيها، وهوَ قوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾؛ أي: يَدعُون في الجنَّاتِ متكئين فيها ﴿بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾؛ أي: بألوانِ الفواكهِ ﴿وَشَرَابٍ﴾؛ أي: وشرابٍ كثيرٍ، فحُذفَ لدلالةِ الدَّالِّ(٣) عليه، والمرادُ: الاتِّكاءُ على الوسائدِ.

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾؛ أي: نساءٌ قاصراتُ الطَّرفِ؛ أي: لا تمتدُّ أعينُهنَّ إلى غيرِهم.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٣٧).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤٠٨).

(٣) كذا في (أ)، وله وجه، ولعل المراد: الحال.

﴿أَتْرَابٌ﴾؛ أي: على سنٍّ واحدٍ، كأنَّهنَّ أترابٌ، وقد تساوَينَ في الحُسنِ والشَّبابِ.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: يريدُ: الآدميَّاتِ[1].

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ قُرِئَ بالياءِ والتَّاءِ[2] ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾؛ أي: ليومِ الجزاءِ.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾؛ أي: عطاؤُنا ما له من انقطاعٍ.

***

(٥٥ - ٥٦) - ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ لـمَّا ذكَرَ ما للمتَّقين ذكَرَ ما للطَّاغين، قالَ الزَّجَّاجُ: ﴿هَٰذَا﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ[3]؛ أي: الأمرُ هذا، ثمَّ قالَ: ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ وهم الَّذين كذَّبوا الرُّسلَ ﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾.

وقيلَ: أي: هذا الَّذي وصفْتُ لهؤلاءِ المتَّقين، ثمَّ قالَ: وإنَّ للطَّاغينَ لشرَّ مَرجعٍ.

قولُه تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ هذا تفسيرُ ﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾؛ أي: هوَ جهنَّمُ يصلونها؛ أي: يكونون وقوداً لها ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾؛ أي: بئسَ ما مَهَدوا لأنفسِهم، أو: بئسَ الفِراشُ لهم، ومنه: مهدُ الصَّبيِّ.

وقيلَ: فيه حذفٌ؛ أي: بئسَ موضعُ المهاد.

***

---

(١) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٣٦١) في تفسير قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦]، وذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٢٣٥) في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ [الواقعة: ٣٥].

(٢) قرأ بالياء ابن كثير وأبو عمرو، والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٥٥٥)، و«التيسير» (ص: ١٨٨).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٣٨).

(٥٧ ـ ٥٨) ـ ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿هذا فلْيَذُوقُوه حَمِيمٌ وغَسَاقٌ﴾ فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: هذا حميمٌ وغسَاقٌ فليذوقوه.

وقيلَ: أي: هذا فليذوقوه؛ منه حميمٌ، ومنه غسَاقٌ.

والحميمُ: الماءُ الحارُّ، والغسَاقُ قيل: الباردُ الَّذي قد انتهى بردُه، وقيل للَّيلِ: غاسقٌ، لأنَّه أبردُ من النَّهارِ، والبردُ يُؤذي ويُحرقُ كما أنَّ النَّار تُحرقُ.

وقيل[١]: الغسَاقُ: النَّتنُ، وفي الخبرِ: «لو أنَّ دَلْواً من غساقٍ يُهراقُ في الدُّنيا لأنتنَ أهلُ الدُّنيا»[٢].

وقيلَ: الغسَاقُ: ما سالَ من أهلِ النَّارِ من القيحِ، يُقالُ: غسَقَ؛ أي: سالَ، وسُمِّيَ اللَّيلُ غاسقاً لأنَّه ينصبُّ على الأرضِ والجبالِ والآكامِ.

وقالَ كعبٌ: الغسَاقُ عينٌ في جهنَّمَ يسيلُ إليها سُمُّ كلِّ ذي حُمَةٍ من جسدِ حيَّةٍ وعقربٍ[٣].

وقيلَ: هوَ مأخوذٌ من الظُّلمةِ والسَّوادِ.

وقُرِئَ: ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ بالتَّشديدِ[٤]، وهوَ نعتٌ مثلُ سيَّالٍ.

---

(١) في (أ): «وفيه»، والصواب المثبت. انظر: «البسيط» (١٩/ ٢٣٦).

(٢) رواه الترمذي (٢٥٨٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وقال الترمذي: هذا حديث إنما نعرفه من حديث رشدين بن سعد، وفي رشدين مقال، وقد تُكُلم فيه من قبل حفظه. قال ابن الأثير في «جامع الأصول» (١٠/ ٥١٧): الغساق: الزمهرير، ويقال: ما يسيل من غسالة أهل النار، يخفف ويشدد، وقد قرئ بهما.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «صفة النار» (٩١)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٢٩).

(٤) قرأ بها حمزة والكسائي وحفص، والباقون بالتخفيف. انظر: «السبعة» (ص: ٥٥٥)، و«التيسير» (ص: ١٨٨).

قولـه تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ قُـرِئَ: ﴿وأُخَرُ﴾ بضمِّ الهمـزةِ، وقُرِئَ: ﴿وَءَاخَرُ﴾ على الواحـدِ[1]؛ أي: وعـذابٌ آخرُ سـوى الحميـمِ والغسـاقِ ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾؛ أي: مثـلِ الأوَّلِ.

ومَن قرأ: ﴿وأُخَرُ﴾؛ أي: وأنواعُ أخرُ، قيلَ: هوَ الزَّمهريرُ ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾؛ أي: مِن ضَربِ العذابِ الَّذي أشارَ إليه بقولِه: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾.

﴿أَزْوَٰجٌ﴾؛ أي: أصنافٌ وألوانٌ مِن العذابِ.

***

(٥٩ ـ ٦١) ـ ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾؛ أي: يُقالُ للطَّاغين رؤساءِ الكفرِ إذا دخلوا النَّارَ: هذا فوجٌ مقتحِمٌ معكم، يعني: الأتباعَ، يعني: انظروا إلى أفواجِ أُممِ الكفرِ الَّذين أضلَلْتموهم، هل يمكنُكم دفعُ العذابِ عنهم وعن أنفسِكم؟!

والفوجُ: الجماعةُ من النَّاسِ، والاقتحامُ: الدُّخولُ بجرأةٍ، كأنَّ الزَّبانيةَ تقمعُهم بالمقامعِ فيَهْوُونَ في النَّارِ، ولفظُ الفوجِ اسمٌ مفردٌ، فلهذا قالَ: ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾ وإن أُريدَ به الجمعُ.

﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾؛ أي: يقولُ الطَّاغون: لا مرحباً بهؤلاءِ الأتباعِ، فيُقالُ لهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾.

---

(١) قرأ أبو عمرو بضم الهمزة وفتح الخاء على الجمع، والباقون بفتحها وألف بعدها وفتح الخاء على الواحد. انظر: «السبعة» (ص: ٥٥٥)، و«التيسير» (ص: ١٨٨).

والمَرحَبُ والرَّحبُ: السَّعةُ، وانتصبَ لأنَّ المعنى: صادفتَ رَحباً وسعةً.

﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾؛ أي: قالوا: هم مثلُنا، وقد أُدخِلوا النَّار، فلا فرحَ لنا فيهم.

قولُه تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾؛ أي: قالَ الأتباعُ للطَّاغين: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾؛ فإنَّكم حمَلْتُمونا على الكفرِ.

﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾؛ أي: زيَّنتُم الكفرَ لنا، والهاءُ في ﴿قَدَّمْتُمُوهُ﴾ ترجعُ إلى الطُّغيانِ، أو إلى العذابِ.

﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾؛ أي: قالَت الأتباعُ: ربَّنا مَن أمَرنا بالكفرِ ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾؛ أي: مُضعَّفاً؛ أي: ذا ضِعفٍ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ رحمه الله: أرادوا إبليسَ[1]. وعلى هذا قالَ الأتباعُ والمتبوعون ذلك.

***

(٦٢ ـ ٦٤) ـ ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ عنوا المؤمنين.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: يريدون أصحابَ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، يقولُ أبو جهلٍ: أين بلالٌ؟ أين صُهيبٌ؟ أين عمَّار[2]؟

﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ قُرِئَ: ﴿مِن الأشـرارِ اتَّخذناهُـم﴾ بوصلِ ألفِ ﴿اتَّخذناهُم﴾،

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٢٤٥) من رواية عطاء عن ابن عباس.

(٢) ذكره عنه السمعاني في «تفسيره» (٤/ ٤٥١)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (١٢/ ٥٢١)، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٣٦) عن مجاهد

وقُـرِئَ: ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ﴾ بقطعِ الألـفِ علـى الاسـتفهامِ[١]؛ ليعـادلَ قولَـه: ﴿أَمۡ زَاغَتۡ﴾، والمعنـى: أمفقـودونَ ﴿أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ وهـم معنا فـي النَّارِ.

وأهلُ النَّارِ يعرفون بالضَّرورةِ أنَّ المؤمنين ليسوا في النَّارِ، ولكن هذا استخفافٌ وتهكُّمٌ يجري بين أهلِ النَّارِ، فيقولُ الأتباعُ للمتبوعين: أينَ[٢] مَن كنتُم تَعُدُّونهم مِن الأشرارِ؟ أو يقولون[٣] هذا مع أنفسِهم على طريقِ التَّأسُّفِ واللَّومِ.

قُـرِئَ: ﴿سِخۡرِيًّا﴾ بضـمِّ السِّينِ وبكسِـرها[٤]، مـن السُّـخرِ ومـن السُّـخريةِ بمعنـى الهُـزء.

وقيلَ: ﴿أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ في الدُّنيا؛ [أي][٥]: أم ازدريناهم في الدُّنيا.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: لكائنٌ، فقولُه: ﴿تَخَاصُمُ﴾ بدلٌ.

وقيلَ: كأنَّه قيلَ: إنَّ ذلكَ لحقٌّ، فقيلَ: ما هو؟ فقيلَ: تخاصمُ أهلِ النَّارِ.

***

(٦٥ ـ ٦٦) ـ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞ﴾؛ أي: أعرِّفُ النَّاسَ ما أُعدَّ للكفَّارِ من طريقِ الاستدلالِ، لَا أنِّي أُكرِهُهم، أو أخلقُ الإيمانَ في قلوبِهم، أو أُنزِلُ العذابَ بهم، كلُّ

---

(١) بالإخبار أبو عمرو وحمزة والكسائي، والباقون بالاستفهام. انظر: «السبعة» (ص: ٥٥٦)، و«التيسير» (ص: ١٨٨).

(٢) في (أ): «إن»، والصواب المثبت.

(٣) في (أ): «ويقولون»، والصواب المثبت.

(٤) نافع وحمزة والكسائي بضم السين والباقون بكسرها. انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٨)، و«التيسير» (ص: ١٦٠).

(٥) زيادة لضرورة السياق.

هذا إلى اللهِ ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾، فهو القادرُ على خلقِ الإيمانِ في القلوبِ، وإنزالِ العذابِ إذا شاء.

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: خالقُ كلِّ شيءٍ.

* * *

(٦٧ ـ ٦٨) ـ ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾.

قولُـه تعالـى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾؛ أي: مـا أنذرُكـم بـه مِـن العذابِ والحسـابِ والثَّـوابِ خبـرٌ عظيـمُ القَـدْرِ، فلا ينبغـي أن يُسـتَخفَّ به، وهذا القـرآنُ ومـا بُيِّنَ فيه نبأٌ عظيـمٌ ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾.

* * *

(٦٩ ـ ٧٠) ـ ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٦٩ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ هم الملائكةُ إذ قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]، وقالَ إبليسُ لعنه الله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، والخصومةُ: البحثُ عن الأسبابِ[١]، وفي هذا بيانُ أنَّ محمَّداً عليه أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ أخبرَ عن قصَّةِ آدمَ وغيرِه وما تعلَّمَ، فلا يُتصوَّرُ ذلكَ إلَّا بتأييدٍ إلهيٍّ، فقد قامَت المعجزاتُ على صدقِه فما بالُهم أعرضُوا عن تدبُّرِ القرآنِ ليعرفوا صدقَه، ولهذا وُصِلَ هذا بقولِه: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧ ـ ٦٨].

قولُه تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

* * *

(١) انظر: «البسيط» (٤/ ٧٦)، وفيه: وحقيقة الخُصومة: التَّعَمُّق في البحث عن الشيء والمضايقةُ فيه.

(٧١ ـ ٧٤) ـ ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ﴿إِذْ﴾ من صلةِ ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾.

وقيلَ: كانَ في اختصامِ الملائكةِ إذ قالَ اللهُ: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، ومِن ذلكَ أنِّي أبعثُ فيهم الرُّسلَ وأختمُهم بمحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بشيراً ونذيراً، فنبوَّتُه إنَّما أُظهِرَت للملائكةِ ذلكَ اليوم، ولهذا قيل: متى كنتَ نبيّاً؟ فقالَ: «وآدمُ بينَ الرُّوحِ والجسدِ»[1]؛ أي: أظهرَ ذلكَ للملائكةِ يومئذٍ.

قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾؛ أي: فإذا سوَّيتُه وخلقتُه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾؛ أي: من الرُّوحِ الَّذي أملكُه، ولا يملكُه غيري، وهذا معنى الإضافةِ.

﴿فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ هوَ أمرٌ من الوقوعِ؛ أي: فخرُّوا على وجوهِكم ساجدين له مُعظِّمين بالسُّجودِ لأمري إيَّاكم بالسُّجودِ له.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾؛ أي: امتثلوا الأمرَ، وسجدوا خضوعاً له، وتعظيماً للهِ تعالى بتعظيمِه ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ﴾؛ أي: أنِفَ من السُّجودِ له جهلاً بأنَّ السُّجودَ له طاعةٌ للهِ، ولا أنفةَ من طاعةِ اللهِ.

﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قيلَ: أي: وصارَ مِن الكافرِين باستكبارِه عن أمرِ اللهِ.

وقيلَ: كانَ في عِلمِ اللهِ ممَّن يكفرُ.

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٠٩)، وقال: «هذا حديث حسن غريب من حديث أبي هريرة لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

(٧٥ ـ ٧٦) ـ ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ۝٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ أضافَ خلقَه إلى نفسِه تكريماً له، وإن كانَ خالقَ كلِّ شيء، وهذا كما أضافَ إلى نفسِه الرُّوحَ والبيتَ والنَّاقةَ والمساجدَ، وخاطَبَ الخلقَ بما يعرفونه في تعاملِهم فإنَّ الرَّئيسَ من المخلوقين لا يباشرُ شيئاً بيدِه إلا على سبيلِ الإعظامِ والتَّكريمِ، فذكرُ اليد هنا بهذا المعنى.

وقيلَ: أرادَ باليدِ القدرةَ، يُقالُ: ما لي بهذا الأمرِ يدٌ، وما لي بالحملِ الثَّقيلِ يدان، ويدلُّ عليه أنَّ الخلقَ لا يقعُ إلَّا بالقدرةِ بالإجماعِ.

وقالَ مجاهدٌ: [اليدُ هاهنا بمعنى] التَّوكيدِ و[الـ]ـصِّلةِ[1]. وهذا هوَ التَّأويلُ الأوَّلُ.

وتخصيصُ آدمَ بالذِّكرِ تشريفٌ له، والذِّكرُ والتَّنبيهُ عادةُ العربِ.

﴿أَسۡتَكۡبَرۡتَ﴾ قُرِئَ: (بيدي اسْتكبرْتَ) موصولاً[2]، وليسَت ﴿أَمۡ﴾ معادِلةً للهمزةِ، وقولُه: ﴿أَمۡ كُنتَ﴾ مُنقطِعٌ، كقولِه تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ [يونس: ٣٨]، ولو كانَت ﴿أَمۡ﴾ معادِلةً للهمزةِ لكانَ المعنى: استكبرْتَ أم استكبرْتَ؛ لأنَّ العلوَّ استكبارٌ.

وقُرِئَ: ﴿أَسۡتَكۡبَرۡتَ﴾ على الاستفهامِ، وقالَ هؤلاء: الاستكبارُ أذهَبُ في بابِ الطُّغيانِ من العلوِّ، فجازَ معادَلةُ ﴿أَمۡ﴾ بالهمزةِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٥٧٢)، والواحدي في «البسيط» (١٩/ ٢٥١)، وما بين معكوفتين منهما.

(٢) هي رواية عن ابن كثير في غير المشهور عنه. انظر: «السبعة» (ص: ٥٥٦)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣١).

وقيلَ: هوَ استفهامُ توبيخٍ؛ أي: أستكبرْتَ بنفسِكَ حتَّى أبيتَ السُّجودَ لآدمَ، أم كنتَ من القومِ الَّذين يتكبَّرون، فتكبَّرتَ لهذا؟

قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أجابَ بدعوى الفضيلةِ، وقالَ: طِينَتي خيرٌ من طينتِه. وما ذَكَرَ لا يُسقِطُ عنه أمرَ الله.

وقيلَ: أي: أتكبَّرتَ على آدمَ، أم كنتَ ممَّن يعلو أو يَجلُّ قَدْرُه عن طاعةِ اللهِ؟ فأجابَ بأنَّه لم يتكبَّر على اللهِ، ولكنَّه علمَ فضلَ جوهرِه، وهوَ النَّارُ، وهذا جهلٌ منه؛ لأنَّ الجواهرَ متجانسةٌ، والتَّفاضلُ بالأعراضِ، فالامتناعُ من طاعةِ اللهِ تعالى علوٌّ على اللهِ، لا على آدمَ عليه السَّلام.

* * *

(٧٧ ـ ٧٨) ـ ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾؛ أي: من الجنَّةِ، أو من السَّماواتِ الَّتي هيَ مسكنُ الملائكةِ ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾؛ أي: متى همَمْتَ بالعودِ إلى السَّماءِ طُردتَ ورُميتَ بالشُّهبِ.

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؛ أي: أمرتُ الخَلقَ بلعنتِك إلى أن تُوافيَني يومَ الدِّينِ، فأدخلَك النِّيرانَ، ويَظهرُ به تحقيقُ اللَّعنِ.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ تعريفٌ بإصرارِه على الكفرِ؛ لأنَّ اللَّعنَ منقطعٌ حينئذٍ.

* * *

(٧٩ ـ ٨١) ـ ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: أخِّرْ عقابي إلى يومِ القيامةِ.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ عندي أنِّي أعذِّبك فيه.

وعلى الجملةِ: لا بدَّ له من الموتِ، وإنَّما قالَ: أُمهل إلى النَّفخةِ الأولى.

* * *

(٨٢ ـ ٨٣) ـ ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لـمَّا طردَه بسببِ آدمَ حلفَ بعزَّةِ اللهِ أنَّه يضلُّ بني آدمَ بتزيينِ الشَّهواتِ وإدخالِ الشُّبَهِ عليهم.

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾؛ أي: إلَّا مَن أعطى العبوديَّةَ حقَّها، وهم المخلِصون أعمالَهم، أو الَّذين أخلَصْتَهم لعبادتِك.

* * *

(٨٤ ـ ٨٥) ـ ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴾ قُرِئَ: ﴿فالحقَّ﴾ بالنَّصبِ، كما تقولُ: «حقًّا لأفعلَنَّ كذا»، وتقولُ: «حمداً للهِ» بمعنى: الحمدُ لله.

وقالَ أبو عليٍّ: الحقُّ الأوَّلُ منصوبٌ بفعلٍ مضمرٍ؛ أي: يُحقُّ اللهُ الحقَّ، أو على التَّشبيهِ بالقَسمِ [فيكونُ الناصبُ للحقِّ ما يَنصِبُ القَسَم] في مثلِ: [الله لأفعلنَّ، فيكون التقدير: الحقَّ لأملأن، وأمَّا الحقُّ الثاني فيجوزُ أن يكون الأولَ وكرَّره على وجهِ التوكيد] وانتصبَ مثلَ الأوَّلِ إذا قلْنا: الأوَّلُ قسمٌ، ويجوزُ أن يكونَ منصوباً بـ﴿أَقُولُ﴾ تأكيداً لقصِّه الحقَّ[1].

وقُرِئَ: ﴿فَٱلْحَقُّ﴾ بالرَّفعِ ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ بالنَّصبِ[2]، ﴿فَٱلْحَقُّ﴾ مرفوعٌ لأنَّه خبرُ

---

(١) انظر: «الحجة» للفارسي (٦/ ٨٧)، و«البسيط» للواحدي (١٩/ ٢٥٤)، وما بين معكوفتين مستفاد منهما.

(٢) قرأ عاصم وحمزة: ﴿فَٱلْحَقُّ﴾ بالرفع ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ بالنصب، وقرأ الباقون كليهما بالنصب. انظر: =

مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: أنا الحقُّ، وقيلَ: هوَ مبتدأٌ والخبرُ محذوفٌ؛ أي: الحقُّ منِّي، كما قالَ: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [البقرة: ١٤٧].

* * *

(٨٦ ـ ٨٨) ـ ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: ليسَ غرضي الدُّنيا حتَّى أُتَّهمَ ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾؛ أي: عرفتُم أحوالي، وأنِّي لستُ مُتكلِّفاً مُتصنِّعاً، والتَّكلُّفُ: إدخالُ الكلفةِ والمشقَّةِ على نفسِك من غيرِ داعٍ إليها.

وقيلَ: أي: لستُ في إنذاري إيَّاكم مُتكلِّفاً شيئاً ليسَ عليَّ، بل أنا مأمورٌ بالتَّبليغِ.

وقيلَ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ لتخرُّصِ هذا القرآنِ.

وقيلَ: أي: لا أقولُ ما أقولُ عن غيرِ علمٍ.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: إنَّ هذا القرآنَ ذِكرٌ؛ أي: تذكيرٌ وموعظةٌ للخَلقِ.

وقيلَ: ذِكرٌ للخلقِ؛ أي: شرفٌ إذا عملوا به.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾؛ أي: لتَظهرَنَّ لكم حقيقةُ ما أقولُ بعدَ حينٍ؛ أي: في المستأنَفِ إذا أخذَتْكم فِرَقُ المؤمنين، أو بعدَ الموتِ، أو بعدَ قيامِ السَّاعةِ.

واللهُ تعالى أعلم، والحمدُ للهِ وحدَه، وحسبُنا اللهُ، ونعمَ الوكيلُ.

* * *

= «السبعة» (ص: ٥٥٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٨).

سُورَةُ الزُّمَرِ

تفسيرُ سورةِ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾

بسمِ اللّه الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١) ـ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

قـولُـه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ما أنزلَ اللهُ من القرآنِ على محمَّدٍ ﷺ تنزيلٌ من الله، نزَّلَه علـى ألسُنِ ملائكتِه إلى محمَّدٍ شيئاً فشيئاً، فليس من كلامِ الشَّياطينِ والكهنةِ، ولا كلامِ البشر، فـ﴿تَنزِيلُ﴾ رفعٌ بأنَّه مبتدأٌ، وقولُه: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبرُ المبتدأ؛ أي: تنزيلُ الكتابِ مِن اللهِ لا من غيرِه، كما تقولُ: استقامةُ النَّاسِ من الأنبياءِ؛ أي: أنَّها لا تكونُ إلَّا منهم.

وقيلَ: ﴿تَنزِيلُ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوف؛ أي: هذا تنزيلُ الكتابِ.

﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ صفةُ اللهِ تعالى.

وقيلَ: أي: تنزيلُ الكتابِ العزيزِ الحكيمِ من الله، فهو صفةُ الكتاب.

* * *

(٢) ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: هذا تنزيلُ الكتابِ مِن اللهِ، وقد أنزلناه بالحقِّ، فليس بباطلٍ وهَزْل ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: هوَ المستحِقُّ للطَّاعة الخالصة الَّتي لا يَشوبُها شِرك.

وقيلَ: أي: لا يَقبلُ الشِّرك، وإنَّما يقبلُ الدِّينَ الخالص.

* * *

(٣) - ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾؛ أي: آلهةً وأنداداً، والخبرُ محذوف؛ أي: يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾؛ أي: إلَّا ليَشفعوا لنا إلى اللهِ، والزُّلفى: القُربةُ؛ أي: ليقرِّبونا إليه تقريباً، فوضعَ ﴿زُلْفَىٰ﴾ موضعَ المصدرِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بين هذه الأديان يومَ القيامةِ فيجازي كلًّا منهم بما يستحقُّ.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾؛ أي: مَن سبقَ له القضاءُ بالكفرِ لم يهتدِ.

* * *

(٤) - ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ بيَّنَ جهلَهم في قولِهم: الملائكةُ بناتُ الله، وأنَّهم يعبدونهم طمعاً في شفاعتهم؛ أي: لو جازَ عليه اتِّخاذُ الأولادِ لكانَ يختارُ ما هوَ الأفضلُ، ولم يكن بأدوَنَ اختياراً منكم في اصطفائِكم الذُّكورَ على الإناثِ.

﴿مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾؛ أي: ما يشاءُ من البنين.

وقيلَ: ﴿مَا﴾ بمعنى: مَن؛ أي: مَن يشاء.

وقيلَ: لو أرادَ أن يتَّخذ ولداً من طريق التَّبني لاصطفى الملائكةَ، لا مَن يتغيَّرُ الطَّعامُ والشَّرابُ في جوفِه.

ثمَّ؛ الإرادةُ لا تتعلَّقُ بالمحالِ، ويستحيلُ أن يكونَ للهِ تعالى ولد، ولكنْ قد يُذكَرُ المحالُ لتقريرِ الحجَّةِ كقولِه: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾: تنزيهاً له.

* * *

(٥) - ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: هوَ القادرُ على الكمالِ المستغني عن الصَّاحبةِ والولد، ومَن كانَ هكذا فحقُّه أن يُشكَرَ لا أن يُشرَك به، ونبَّه أيضاً بهذا على أنَّ له أن يَتعبَّد العباد بما شاءَ، وقد فعلَ.

﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: ينقصُ من أحدهما ويزيدُ في الآخر؛ أي: يُبدِلُ أحدهما بالآخر، والتَّكويرُ: طرحُ الشَّيءِ بعضِه على بعضٍ، يُقالُ: كوَّرَ المتاع؛ أي: ألقى بعضَه على بعض، ومنه: «كارةُ القصَّارِ» للثِّياب الَّتي يجمعُها، والكُورة: البلدُ يجتمعُ فيه النَّاس، ومنه: «نعوذُ باللهِ من الحَورِ بعدَ الكَورِ»(١)؛ أي: النَّقصانِ بعد الاجتماعِ.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾؛ أي: للطُّلوعِ والغروبِ لمنافعِ العباد ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ هوَ الوقتُ الَّذي ينتهي فيه سيرُ الشَّمس والقمر؛ أي: المنازلُ المرتَّبةُ لغروبِها وطلوعِها.

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه» (١٣٤٣) من حديث عبد الله بن سَرْجِس رضي الله عنه، وفيه روايتان: «الكون» بالنون و«الكور» بالراء، وقد فصَّل الكلامَ فيهما النووي في «شرح مسلم» (٩/ ١١١). وقال ابن الأثير في «جامع الأصول» (٤/ ٢٨٦١): من رواه بالنون فهو مصدر كان يكون كوناً، من كان التامة دون الناقصة، يعني: من النقصان، والتغيير بعد الثبات والاستقرار، ومن رواه بالراء فهو الزيادة، من تكوير العمامة، يعني: من الانتقاص بعد الزيادة والاستكمال.

قالَ الكلبيُّ: يسيران إلى أن يبلغا أقصى منازلِهما، ثمَّ يرجعان إلى أدنى منازلِهما لا يُجاوزانه[1].

﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ ﴿أَلَا﴾ تنبيهٌ؛ أي: تنبَّهوا؛ فإنِّي أنا العزيزُ الغالبُ الَّذي لا يُغلَب، الغفَّارُ لأهلِ طاعتِه.

***

(٦) - ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾؛ أي: آدمَ، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ليحصلَ التناسُلُ، وقد وردَت الأخبارُ بأنَّ حوَّاءَ خُلِقَت من قُصَيرَى آدمَ[2].

وقالَ ابنُ زيد: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يريد: خلقَنا أوَّلاً في ظهرِ آدمَ، فإنَّه أخرجَ الذُّرِّيَّة من ظهرِ آدمَ يومَ الميثاقِ، ثمَّ خلقَ بعد ذلكَ حوَّاء[3].

فإذاً هاهنا أقوال:

أحدها: أي: خلقَكم من نفسٍ خلقَها وحدَها، ثمَّ جعل منها زوجَها فصارا اثنين، فصحَّ العطف بـ﴿ثُمَّ﴾ على المعنى.

---

(١) ذكره عنه السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٤٧٠)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٢٨٥).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٣٩)، والطبري في «تفسيره» (٦/ ٣٤١)، وابن المنذر في «تفسيره» (١٣٠٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٨٥٣)، من قول مجاهد، وهو في «تفسيره» (ص: ٢٦٥).

قوله: «قصيرى آدم»: هو الضلع الأسفل، وهو أقصر الضلوع.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٩٢).

والثَّاني: أنَّ ﴿ثُمَّ﴾ لعطفِ الخبرِ الثَّاني على الأوَّل، لا لعطفِ الخلقِ على الخلقِ؛ أي: ثمَّ إنِّي أخبرُكم بعد هذا أنِّي خلقتُ من آدمَ حوَّاء، كما تقول: «بلغني ما كانَ منك اليوم، ثمَّ ما كانَ بالأمسِ أعجبُ»، وقد قالَ اللهُ: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ إلى قولِه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٣ ـ ١٧]، والإيمانُ يتقدَّم فكَّ الرقبة.

والثَّالث: ما ذكرناه عن ابنِ زيدٍ.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾؛ أي: مِن كلِّ جنسٍ ذكراً وأنثى، وإنَّما ذكرَ لفظَ الإنزالِ لأنَّ قِوامَ الأنعامِ بالنَّباتِ، ولا نباتَ إلَّا بالماءِ، والماءُ منزَّلٌ من السَّماء، ومثلُه: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ [الأعراف: ٢٦]؛ لأنَّ اللباسَ من القطنِ والصُّوفِ، ولا يكونان إلَّا بالماءِ.

وقيلَ: إنَّ اللهَ تعالى خلقَ هذه الأنعامَ في الجنَّةِ، ثمَّ أنزلها إلى الأرض، كما قيلَ في قولِه: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٥٧]؛ أي: أنَّ آدمَ لمَّا أُهبِطَ إلى الأرضِ أَنزلَ معه الحديد.

وقيلَ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾؛ أي: أعطاكم.

وقيلَ: جعلَ الخلقَ إنزالاً؛ لأنَّ الخَلقَ إنَّما تكوَّنَ بأمرٍ يَنزلُ من السَّماءِ، فالمعنى: خلقَ لكم كذا بأمرِه النَّازلِ من السَّماءِ.

﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾؛ أي: نطفةً ثمَّ علقةً إلى سائرِ الأطوار.

وقيلَ: ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ إشارةٌ إلى الخلقِ في صُلبِ آدمَ، ثمَّ الوصولِ إلى بطونِ الأُمَّهاتِ.

﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ قالَ ابنُ عبَّاسٍ: ظُلمةُ المشيمةِ، وظلمةُ الرَّحمِ، وظلمةُ البطنِ(١)؛ أي: لم يخفَ على اللهِ شيءٌ كما يَخفَى على الخَلقِ في الظُّلماتِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٤٨).

وقيلَ: الظُّلماتُ الثَّلاثُ: أصلابُ الرِّجالِ، ثمَّ أرحامُ النِّساءِ، ثمَّ بطونُهنَّ.

وقالَ ابنُ جُبيرٍ: ظُلمةُ المشيمةِ، وظلمةُ الرَّحمِ، وظلمةُ اللَّيلِ.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: الَّذي خلقَ هذه الأشياءَ هوَ ربُّكم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ حتَّى تعبدوا الأصنامَ المخلوقة.

* * *

(٧) - ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾؛ أي: أمرَ بالطَّاعةِ لا لحاجتِه إليها، فمَن أطاعَ فقد أحسنَ إلى نفسِه.

﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾؛ أي: لا يرضى للمؤمنين، فالمعنيُّ بالعبادِ المؤمنون، كقولِه: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]؛ أي: المؤمنون، وهذا على قولِ مَن لا يفرِّق بين الرِّضا والإرادةِ(١).

---

(١) وهم المعتزلة؛ فالإرادةُ عندهم بمعنى الرضا، وهذا يندرج في المسألة التي اصطُلحَ على تسميتها بمسألة: «التَّحسين والتَّقبيح»، وهي من أهم المسائلِ التي قالوا بها، والمراد بها: القول بوجوبِ الأصلحِ عليه تعالى، ونفي إرادتِه القبيحَ، وأنَّ الله يستحيلُ عليه أن يريدَ من عباده شيئاً مما نعاهُ عليهم، أو أن يعذِّبهم بشيءٍ أراده لهم، ومن ثَمَّ ينفونَ عن الله أنه يخلُق الشرَّ أو الضلالَ لأنَّه عندهم لا يريده، ويترتَّب على هذا اعتقادُهم بأنَّ الإنسانَ هو الذي يخلقُ الضلالَ لنفسه، ثم إنهم يخلطون بين الرضا والإرادةِ فيجعلونهما بمعنى واحدٍ، وعند أهلِ السنَّةِ الرضا غير الإرادة، ومن أمثلة الخلطِ بين الرضا والإرادة عند المعتزلة قول الزمخشري عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]: «ويجوز أن يكون معناهُ كمعنى قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]؛ أي: لا يُرِيْد =

وقيلَ: لا يرضى الكفرَ وإن أرادَه، فالرِّضا على هذا: إمَّا ثوابُه فيكونُ صفةَ فعلٍ، وإمَّا ثناؤُه فهو صفةُ ذاتٍ.

﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾؛ أي: يرضى الشُّكرَ لكم؛ أي: مَن شكَرَ فلأنَّ اللهَ أرادَ منه الشُّكرَ ووفَّقَه لذلك، أو (يرضى) بمعنى أنَّه يُثيبُه، أو يُثنِي عليه.

قُرِئَ: ﴿يَرضَهُو لكم﴾ بإشباعِ الهاءِ حتَّى يلحقَ به واوٌ، وقُرِئَ بتحريكِ الهاءِ من غيرِ إلحاقِ واوٍ به، وقُرِئَ بإسكانِ الهاءِ(١).

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ أي: لا تحملُ نفسٌ ذنبَ نفسٍ غيرِها، والوِزرُ: الثقلُ.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بما يُكنُّه القلبُ، وذاتُ الصُّدورِ: الفِكَرُ الَّتي تشتملُ عليها الصُّدورُ، يُقالُ: ألقتِ المرأةُ ما بطنِها؛ أي: ألقَت حَملَها.

* * *

= لَهُم أن يَظلِمُوا» فهذا الكلامُ منه واضحٌ في جعلهِ الإرادةَ بمعنى الرضا، وقد ردَّ عليه التفتازانيُّ بقوله: أما الرضا بالقبائحِ فلا نقولُ به، وأما إرادةُ القبائحِ، فسبحان مَن تَنزَّه عن أن يقعَ شيءٌ بخلافِ إرادته. انظر: «حاشية التفتازاني على الكشاف» (و١٥٧أ).

(١) قرأ نافع وعاصم ويعقوب وحمزة بضم الهاء من غير صلة، وابن كثير وابن ذكوان والكسائي وابن وردان وخلف في اختياره بالضم مع الصلة، والسوسي وابن جماز بإسكانها، ولدوريِّ أبي عمرو وجهان: الإسكان والضم مع الصلة، ولهشام وجهان أيضاً: الإسكان والضم من غير صلة. انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٠ ـ ٥٦١)، و«التيسير» (ص: ١٨٩)، و«النشر» (١/ ٣٠٥)، و«البدور الزاهرة» (ص: ٢٧٤).

(٨) - ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾؛ أي: مِن جهلِهم أنَّه إذا أصابَ واحداً منهم بلاءٌ وضُرٌّ فزعَ إلى اللهِ بالدُّعاءِ دونَ الأصنامِ؛ لعلمِه بأنَّ الصَّنم لا يضرُّ ولا ينفعُ، ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾ اللهُ ﴿نِعْمَةً﴾ فكشفَ عنه الضرَّ ﴿نَسِيَ﴾ وتركَ الدُّعاء، فالتَّخويلُ: الإعطاءُ، والخَوَلُ: ما أُعطيَ الإنسانُ من العبيدِ ومن النَّعَم.

﴿نَسِيَ﴾؛ أي: نسيَ ربَّه، أو نسيَ الدُّعاء الَّذي كانَ يتضرَّعُ به إلى اللهِ.

وقيلَ: أي: نسيَ الَّذي كانَ يدعوه إذا مسَّه الضرُّ، و﴿مَا﴾ بمعنى: مَن، كقولِه: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣]؛ أي: اللهَ تعالى، وقولِه: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]؛ أي: مَن طابَ لكم.

ثـمَّ قالَ: ﴿مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ ويُقالُ: دعوتُ الله، ولا يُقالُ: إلى اللهِ، فلعلَّه أرادَ: نسيَ ما كانَ يدعو مُتقرِّباً به إلى اللهِ في كشفِ الضرِّ عنه، وفي الخبرِ في دعاءِ الاستفتاحِ: «الخيرُ إليك والشرُّ ليسَ إليك»[1]؛ أي: ليسَ ممَّا يُتقرَّبُ به إليك.

وقيلَ: أي: نسيَ الضرَّ الَّذي كانَ يدعو الله إلى كشفِه.

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾؛ أي: وعادَ إلى كفرِه، فجعلَ عندَ نفسِه أمثالاً ونُظراءَ ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾؛ أي: ليقتديَ به الجُهَّال.

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾؛ أي: قل لهذا الإنسان: تمتَّع، وهوَ أمرُ تهديدٍ؛ فمتاعُ الدُّنيا قليلٌ، ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: مصيرُك إلى النَّار.

* * *

(١) رواه مسلم (٧٧١) من حديث علي رضي الله عنه، بلفظ: «والخير كله في يديك، والشر ليس إليك».

(٩) ـ ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ﴾ بيَّنَ أنَّ المؤمنَ ليسَ كالكافرِ الَّذي مضى وصفُه.

قُرِئَ ﴿ أَمَّنْ ﴾ بالتَّشديدِ؛ أي: هذا أفضلُ أم الَّذي هوَ قانتٌ؟ فالجملةُ الَّتي عادلَتْ (أم) محذوفة؛ أي: الجاحدُ الكافرُ خيرٌ أو مَن هوَ قانتٌ خيرٌ؟ والأصلُ: (أم مَن هو)، فأُدغِمَت الميم في الميم.

وقُرِئَ ﴿أَمَنْ﴾ بالتَّخفيفِ[1]، قالَ الفرَّاءُ: الألفُ بمنزلةِ (يا)، تقولُ: «أزيدُ»، و: «يا زيدُ»، فالمعنى: أنَّه ذكرَ النَّاسيَ الكافرَ، ثمَّ ذكرَ الصَّالح القانتَ بالنِّداء، كما تقولُ: «فلانٌ لا يصومُ ولا يُصلِّي، فيا مَن تصومُ وتُصلِّي أبشِرْ»؛ أي: يا مَن هوَ قانتٌ أبشِرْ.

قالَ: ويجوزُ أن تكونَ الألفُ للاستفهام بمنزلةِ (أم)؛ أي: أمَن هوَ قانتٌ كالنَّاسي الكافرِ[2]، فهو استفهامُ إنكارٍ.

والقانِتُ: المقيمُ على الطَّاعةِ.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: هو أبو بكرٍ[3].

وقالَ ابنُ عمرَ: هوَ عثمانُ بنُ عفَّان[4].

---

(١) قرأ بها ابن كثير ونافع وحمزة والباقون بالتشديد. انظر: «السبعة» (ص: ٥٦١)، و«التيسير» (ص: ١٨٩).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤١٦)، و«البسيط» (١٩/ ٢٧٥) والكلام منه.

(٣) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١١٧)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص/ ٣٦٨)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٠).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٤٨)، وابن المنذر وابن مردويه وغيرهم كما في «الدر المنثور» (٧/ ٢١٤).

وقالَ مقاتلٌ: هوَ عمَّارُ بنُ ياسر[١].

﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾؛ أي: أوقاتَ اللَّيلِ ﴿سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾؛ أي: في الصَّلاةِ؛ يعني: يسجدُ تارةً ويقومُ أخرى، ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾؛ أي: عذابَ الآخرةِ ﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: الجنَّةَ، وفي الكلامِ إضمارٌ؛ أي: مَن هوَ قانتٌ يحذرُ العذابَ ويرجو الثَّوابَ كمَن لا يفعلُ ذلك؟

﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: المؤمنُ والكافرُ ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾؛ أي: المؤمنون.

* * *

(١٠) - ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾؛ أي: قل يا محمَّدُ للمؤمنين: اتَّقوني؛ فإنِّي أنا ربُّكم.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: يريدُ جعفرَ بنَ أبي طالبٍ والذين خرجُوا معه إلى الحبشةِ[٢].

ثمَّ قالَ: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ﴾، يعني بالحسنةِ الأولى: الطَّاعةَ، وبالثَّانيةِ: الثَّوابَ في الجنَّةِ.

وقيلَ: للذين أحسنوا في الدُّنيا حسنةٌ في الدُّنيا، وهيَ الصِّحَّةُ والعاقبةُ والظَّفَرُ والغنيمةُ.

والأوَّل أصحُّ؛ لأنَّ الكافرَ قد ينالُ نِعمَ الدُّنيا.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٧١ - ٦٧٢).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٢٧٨).

﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾؛ أي: والجنَّةُ الَّتي جعلَها اللهُ مسكناً لأوليائِه واسعةٌ في نعيمِها، وعرضُها السَّماواتُ والأرض، والجنَّةُ قد تُسمَّى أرضاً، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ [الزمر: ٧٤].

وقيلَ: أي: في البلادِ سعةٌ لمن ضَعُفَ عن الصَّبرِ على فتنةِ المشركين له عن دينِه، فهو أمرٌ بالهجرةِ؛ أي: ارحلوا مِن مكَّةَ إلى حيثُ تأمَنون.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم﴾ يعني: الصابرين على الطَّاعةِ ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: فوقَ ما يصفُه واصفٌ، وفي التَّفسيرِ: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: بغير مِكيالٍ ولا مِيزانٍ.

* * *

(١١ ـ ١٣) ـ ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾؛ أي: قل يا محمَّد: إنِّي أُمِرتُ بالإخلاصِ للهِ دونَ الشِّرك، نزلَت لـمَّا دعاه المشركون إلى دينِ أسلافِه وقومِه.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: من هذه الأُمَّة.

قالَ الجُرجانيُّ رحمه الله: زيدَت اللامُ في ﴿لِأَنْ أَكُونَ﴾ لأنَّ التَّأويلَ: أن أعبدَ اللهِ مُخلِصاً، وأُمِرتُ بذلك لأن أكونَ أوَّلَ المسلمين؛ أي: إذا عبدتُه مُخلِصاً كنتُ أوَّلَ المسلمين في الجزاءِ والثَّوابِ[1]، واللامُ لامُ (أجْلٍ).

وقيلَ: هوَ كقولِك: أُمِرتُ أن أفعلَ كذا، وأُمرتُ بأن أفعلَ كذا، ثمَّ تقربُ اللامُ من الباءِ، تقولُ: أخذتُه بجريرتِه ولجريرتِه.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٢٨١).

وقيلَ: يُقالُ: أُمِرتُ أن أفعلَ كذا، وأُمِرتُ لأفعلَ كذا، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]؛ أي: أن نُسلِمَ، وقد تجمعُ بينهما فتقولُ: أُمِرتُ لأن أفعلَ كذا، وهذا كما تقولُ: ما فعلتُ كذا، وإن فعلتُ كذا، ثمَّ تقول: ما إن فعلتُ.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: أُمِرتُ بعبادةِ الله، والآمرُ هوَ اللهُ، وإن عصيتُه خِفتُ عذابَ يومِ القيامةِ، وهوَ يومٌ عظيمٌ، فعذابُه عظيم.

* * *

(١٤ ـ ١٦) ـ ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾؛ أي: أعبدُه كما أمرني لا أشركُ به شيئاً ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ فإنَّكم إن عبدتُم غيرَه نالَكم العذابُ الأليم، وهذا وعيدٌ يخرجُ مَخرجَ الإباحةِ، والمعنى النَّهيُ.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: اعبدوا ما شئتم، فإنَّ مَن عبدَ شيئاً غيرَ اللهِ خَسِرَ نفسَه وأهلَه يومَ القيامةِ، والخسرانُ: الهلاكُ، وقيلَ: النَّقصُ.

وقيلَ: مَن استعمَلَ نفسَه في غيرِ طاعةِ اللهِ فقد خَسِرَ نفسَه إذ ضاعَ كدُّه، وخَسِرَ أهلَه إذ لم يجتمعْ معهم في النَّعيمِ المقيمِ.

وقيلَ: أي: إنَّ الخاسرين الَّذين سنُّوا لأولادِهم الكفرَ حتَّى اقتدى هؤلاءِ الأولادُ بأسلافِهم الكفَّارِ فخسروا جميعاً؛ لأنَّ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: تنبَّهوا لِمَا تُوعِّدتُم به؛ فإنَّه الخسرانُ المبين.

قولُه تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: تُحيطُ النَّارُ بجوانبِ هؤلاءِ الخاسرين بهيئةِ الظُّللِ المنتنةِ، وهوَ كما قالَ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقالَ: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

وقيلَ: أي: أطباقُ النَّارِ تشتملُ عليهم، فمِهادُ هؤلاءِ سقفُ مَن تحتهم، وهكذا إلى القعر.

وقيلَ: ما فوقَهم كالظُّللِ وما تحتَهم كالظُّللِ لكثرةِ النَّار، وهذا كقولِه: ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ﴾ [المرسلات: ٣٢]، فشبَّهَ النَّارَ بالقصرِ المبنيِّ، وفي هذه الآية بالظُّللِ المبنيَّةِ.

﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾؛ أي: ذلكَ الَّذي وُصِفَ مِن العذابِ يُخوِّفُ اللهُ به عبادَه. قالَ ابنُ عبَّاسٍ: أولياءَه[1] ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾؛ أي: يا أوليائي فخافونِ.

وقيلَ: هوَ عامٌّ في المؤمنِ والكافرِ.

وقيلَ: خاصٌّ بالكفَّارِ.

***

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾؛ أي: تباعَدُوا من الطاغوتِ وكانُوا منها على جانبٍ.

والطاغوتُ: الأوثانُ وكلُّ ما عُبِدَ مِن دونِ الله.

وقيلَ: الشَّيطان.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٢٨٣).

وقيلَ: الكاهن.

وقيلَ: إنَّه اسمٌ أعجميٌّ، مثلَ: طالوتَ وجالوتَ وهاروتَ وماروتَ.

وقيلَ: هوَ من الطُّغيان.

وقد يكون الطاغوت جمعاً كقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: رجعُوا إليه بالطَّاعة.

﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾؛ أي: بالجنانِ بدلاً عمَّا للخاسرين من النَّارِ ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: آمَنَ أبو بكرٍ بالنبيِّ ﷺ وصدَّقَه، فجاءه عثمانُ وعبدُ الرَّحمنِ بنُ عوفٍ وطلحةُ والزُّبيرُ وسعيدُ بنُ زيدٍ وسعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ، فسألوه فأخبرَهم بإيمانِه فآمنوا، ونزلَت هذه الآيةُ، وهيَ: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ﴾؛ أي: مِن أبي بكرٍ ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾(١).

قالَ ابنُ زيدٍ: نزلَ قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ في ثلاثةِ نفرٍ كانُوا في الجاهليَّة يقولونَ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ»؛ زيدُ بنُ عمرٍو وأبو ذرٍّ وسلمانُ(٢).

﴿يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ﴾؛ أي: القرآنَ، وقيلَ: القرآنَ وأقوالَ الرَّسول، فيتَّبعون أحسنَ ما يُؤمرونَ به فيَعملونَ به.

وقيلَ: يستمعون ما يُخبِرُ به كلُّ فريقٍ عن دينِه فيتَّبعونَ ما فيه طاعةُ الله.

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٦٩) من رواية عطاء عن ابن عباس. قلت: ونزولها بخصوص هؤلاء لا يمنع عمومها لهم ولغيرهم ممن ذكرتهم الآية.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٨٥).

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: هوَ الرَّجلُ يسمعُ الحسنَ والقبيحَ، فيتحدَّثُ بالحسنِ وينكفُّ عن القبيحِ، فلا يُحدِّثُ به[١].

وقيلَ[٢]: الأحسنُ بمعنى الحَسَنِ؛ أي: يتَّبعونَ حَسَنَه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: لِمَا يرضاه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: الَّذين انتفعوا بعقولهم.

* * *

(١٩) ـ ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾.

قوله سُبحانَه وتعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ كانَ النَّبيُّ عليه السَّلام يحرصُ على إيمانِ أقوامٍ، وقد سبقَت لهم مِن اللهِ الشقاوةُ، فنزلَت هذه الآيةُ؛ أي: فهل تقدرُ على إنقاذِ مَن حَكمَ الله بكفرِه؟!

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: يريد: أبا لهب وولدَه ومَن تخلَّفَ مِن عشيرةِ النَّبيِّ ﷺ عن الإيمانِ به[٣].

﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: مَن حقَّت عليه كلمةُ العذابِ.

وقال: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾، وقالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ

---

(١) ذكره عن ابن عباس رضي الله عنهما الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١٢١)، وذكره الجرجاني في «درج الدرر» (٤/ ١٤٩٦) عن الكلبي. وذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٢٨٤) عنهما.

(٢) في (أ): «وقال»، وهذا الكلام ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٢٨٥) تعقيباً على خبر ابن عباس المتقدم في سبب النزول، فعقب بهذا ما جاء في الخبر المذكور من قوله: «﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾؛ أي: مِن أبي بكرٍ ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾».

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٢٨٦) من رواية عطاء عن ابن عباس، وفي «الوسيط» (٣/ ٥٧٦) عن عطاء.

﴿ٱلْعَذَابِ﴾ [الزمر: ٧١]؛ لأنَّ الفعلَ إذا تقدَّمَ ووقعَ بينه وبين الموصوفِ به حائلٌ جازَ التَّذكيرُ والتَّأنيثُ، على أنَّ التَّأنيثَ هاهنا ليسَ بحقيقيٍّ، بل الكلمةُ في معنى الكلامِ والقولِ؛ أي: أفمَن حقَّ عليه قولُ العذابِ؟

قالَ الكسائيُّ: الاستفهامُ الأوَّلُ محذوفُ الجوابِ؛ أي: أفمَن حقَّت عليه كلمةُ العذابِ كالمؤمنِ؟ والاستفهامُ الثَّاني لا تعلُّقَ له بالأوَّلِ[1].

وقالَ الزَّجَّاجُ: في الكلامِ معنى الشَّرط والجزاءِ، والمعنى: مَن حقَّت عليه كلمةُ العذابِ لم تُنقذْه، فالاستفهامُ الأوَّل تقريرٌ، والثَّاني إنكارٌ بمعنى: لا تُنقذُه، ولا تقدرُ على ذلك[2].

* * *

(٢٠) - ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ لمَّا بيَّنَ أنَّ للكفَّارِ ظُلَلاً من النَّارِ مِن فوقِهم ومِن تحتِهم بيَّنَ أنَّ للمتَّقين غُرفاً فوقَها غرفٌ؛ لأنَّ الجنَّةَ درجاتٌ يعلو بعضُها بعضاً، و﴿لَٰكِنِ﴾ ليسَ للاستدراك؛ لأنَّه لم يأتِ بعدَ نفيٍ كقولِه: «ما رأيتُ زيداً لكن عَمراً»، بل هوَ لتركِ قصَّةٍ إلى قصَّةٍ مُخالفةٍ للأولى، نحو: «جاءني زيدٌ لكنْ عمرٌو لم يأتِ».

﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ قالَ ابنُ عبَّاسٍ: من زَبَرجدٍ وياقوتٍ[3].

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ أي: هيَ جامعةٌ لأسبابِ النُّزهةِ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٢٨٧)، وقوله: «والاستفهامُ الثَّاني لا تعلُّقَ له بالأوَّلِ» من الواحدي تعقيباً على كلام الكسائي.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٤٩).

(٣) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٢٨٨).

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾ نصبٌ على المصدرِ؛ أي: وعـدَهم اللهُ غرفاً وعدَ اللهِ ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾؛ أي: ما وعدَ اللهُ الفريقين.

***

(٢١) ـ ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ ﴾؛ أي: أنَّه لا يُخلفُ الميعاد في إحياءِ الخلقِ والتَّمييزِ بينِ المؤمنِ والكافر، وهوَ قادرٌ على ذلكَ، كما أنَّه قادرٌ على إنزالِ الماءِ من السَّماء.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾؛ أي: من السَّحابِ، أو من جهةِ السَّماءِ ﴿مَآءٗ ﴾؛ أي: المطرَ ﴿فَسَلَكَهُۥ ﴾؛ أي: فأدخلَه في الأرضِ، والسُّلوكُ: الدُّخولُ، ومنه: ﴿ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [الحجر: ١٢]، ومنه: سِلكُ الإبرةِ للخيطِ الَّذي يدخلُ فيها، ومنه: سلوكُ الطَّريقِ.

﴿يَنَٰبِيعَ ﴾ هيَ جمعُ يَنبُوعٍ، وهوَ يَفعُولٌ، من نَبَعَ ينبُع وينبَع وينبِع، بالرَّفعِ والنَّصبِ والخفضِ، والينبوعُ المكانُ الَّذي ينبعُ منه الماءُ، ومعنى إدخالِ الماءِ الأرضَ: إسكانُه فيها، كما قالَ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [المؤمنون: ١٨].

﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ ﴾؛ أي: بذلك الماءِ الخارجِ من ينابيعِ الأرضِ ﴿زَرۡعٗا ﴾ هوَ الجنس؛ أي: زُروعاً شتَّى لها ألوانٌ مختلفةٌ.

قيلَ: اللَّونُ: الصِّنفُ، يُقالُ: هذا لونٌ من الثِّيابِ ولونٌ من الطُّعومِ.

وقيلَ: عنى اللَّونَ الَّذي هوَ عَرَضٌ كالصُّفرةِ والحُمرةِ والبياضِ والخُضرةِ.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ ﴾؛ أي: يَيبَسُ هذا الزَّرع فيصيرُ أصفرَ، يُقالُ: هاجَ النَّبتُ يهيجُ هيجاً؛ أي: جفَّ وذَوَى ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًا ﴾؛ أي: يتساقطُ ويتناثرُ ويتكسَّرُ، فيُقالُ لذلك

المنكسِرِ: حُطامٌ ورُفاتٌ ودرين، والمعنى: أنَّ مَن قدرَ على هذا قدرَ على الإعادةِ.

وقيلَ: هوَ مثلٌ ضربَه اللهُ للقرآنِ ولصدورِ مَن في الأرضِ؛ أي: أنزلَ مِن السَّماءِ قرآناً فسلكَه في صدورِ المؤمنين، ثمَّ يُخرجُ زرعاً مختلفاً بعضُه أفضلُ من بعضٍ، فأمَّا المؤمنُ فيزداد إيماناً ويقيناً، وأمَّا الَّذي في قلبِه مرضٌ فإنَّه يهيجُ كما يهيجُ الزَّرعُ.

وقيلَ: هوَ مثلٌ ضربَه اللهُ للدُّنيا؛ أي: كما يتغيَّرُ النَّبتُ الأخضرُ فيصفرُّ، فكذا الدُّنيا بعدَ بهجتِها.

* * *

(٢٢) ـ ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ وصفَ الَّذين يتذكَّرونَ وهم أولو الألبابِ إذ قالَ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وبيَّنَ أنَّ اللهَ شرحَ صدورَهم للاستدلالِ بآياتِ اللهِ على أنَّه القادرُ الواحدُ الَّذي لا يجوزُ عبادةُ غيرِه؛ أي: أفمَن وسَّعَ الله صدرَه للتَّدبُّرِ والعلمِ.

وهذا الشَّرحُ يخلقُ الإيمانَ في القلبِ، قالَ ابنُ مسعودٍ: تلا رسولُ اللهِ ﷺ هذه الآيَةَ، فقيلَ: يا رسولَ اللهِ، وما هذا الشَّرحُ؟ فقالَ: «نورٌ يقذفُه اللهُ في القلبِ، فيَنفتِحُ القلبُ»، فقيلَ: فهل لذلك من أمارةٍ؟ قالَ: «نعم»، قيلَ: وما هي؟ قالَ: «الإنابةُ إلى دارِ الخلودِ، والتَّجافي عن دارِ الغرورِ، والاستعدادُ للموتِ قبلَ لقاءِ الموتِ»(١).

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٣١٥)، والحاكم في «المستدرك» (٧٨٦٣)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٣٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٠٦٨). قال الذهبي: «عدي بن الفضل ساقط».

ورواه عبد الرزاق في «التفسير» (٨٥٢)، وسعيد بن منصور في «سننه» (٩١٨ ـ تفسير)، والبيهقي =

﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قالَ قتادةُ: النُّورُ كتابُ الله(١).

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: على بصيرةٍ ويقينٍ من ربِّه(٢).

والجوابُ مضمَرٌ؛ أي: كمَن ليسَ كذلك، ولهذا قيلَ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾.

وقيلَ: نزلَتِ الآيةُ في حمزةَ وعليٍّ وأبي لهبٍ وولدِه(٣).

وقيلَ: نزلَت في النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وأبي جهلٍ(٤).

وقيلَ: نزلَت في عمَّارِ بنِ ياسرٍ(٥).

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ القسوةُ: صلابةُ القلبِ، ونُبوِّه عن قَبول الحقِّ.

﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: قسَت قلوبُهم فجعلُوا القرآنَ كذباً، فهي مُعْرِضةٌ عن ذكرِ الله.

و(ويلٌ) كلمةٌ يَتكلَّمُ بها الواقعُ في الأمرِ العظيمِ والمحنةِ الشَّديدةِ؛ أي: مصيرُهم إلى أن ينادوا على أنفسِهم بالويلِ، وقد أخبرَ أنَّهم يقولونَ في القيامة: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢]، و: ﴿يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الصافات: ٢٠].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: هؤلاءِ القاسيةِ قلوبُهم ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

* * *

= في «الأسماء والصفات» (٣٢٦) عن عبد الله بن المسور عن النبي ﷺ مرسلاً.

وذكر له الدارقطني في «علله» (٥/ ١٨٩) طرقاً ثم قال: وكلها وهم، والصواب عن عمرو بن مرة، عن أبي جعفر عبد الله بن المسور مرسلاً عن النبي ﷺ، وعبد الله بن المسور هذا متروك.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٨٩)،

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٢٩٢) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٢٩٢) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٢٩٢) عن مقاتل.

(٥) ذكره مكي بن أبي طالب في «الهداية» (١٠/ ٦٣٢٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٦٩).

(٢٣) - ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ لـمَّا قالَ: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ بيَّنَ أنَّ أحسَنَ ما سُمِعَ ما أنزلَه الله[1]، وهوَ القرآنُ.

قالَ سعدُ بنُ أبي وقَّاص: قالَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ: لو حدَّثْتَنا يا رسولَ اللهِ، [فنزلَ][2]: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾، فقالَوا: لو قصَصْت علينا، فنزلَ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، فقالَوا: لو ذكَّرْتَنا، فنزلَ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦][3].

والحديثُ: ما يُحدِّثُ به المحدِّثُ، ويُسمَّى القرآنُ حديثاً لأنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يحدِّثُ به أصحابَه وقومَه، وهوَ كقولِه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقولِه: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ [النجم: ٥٩]، وقولِه: ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقولِه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقولِه: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤].

وتوهَّمَ قومٌ أنَّ الحديثَ من الحُدوثِ، فيدلُّ على أنَّ كلامَه مُحدَثٌ، وهوَ وهمٌ؛ لأنَّه لا يزيدُ لفظُ الحديثِ على ما في قولِه: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، وقد قدَّمنا أنَّ الحدوثَ يرجعُ إلى التِّلاوةِ لا إلى المتلوِّ، وهوَ كالذِّكرِ مع المذكورِ إذا ذكرنا اسمَ الرَّبِّ تعالى، ثمَّ الحديثُ ما يُتحدَّثُ به ويُخبَرُ.

---

(١) في (أ): «بيَّنَ أنَّ أحسَنَ الحديثِ ما سُمِعَ وأنزلَه الله»، والمثبت من «تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٦٧).

(٢) زيادة لضرورة السياق.

(٣) رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٦/ ٣٧٤)، والبزار في «مسنده» (١١٥٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢٠٩)، وأبو يعلى في «مسنده» (٧٤٠)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣١٩) وصححه، والضياء في «المختارة» (١٠٦٩).

﴿كِتَٰبًا﴾ نصبٌ على البدلِ من ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾.

﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾؛ أي: لا تناقضَ فيه؛ لأنَّ المتناقض لا يُشبِهُ بعضُه بعضاً، وهوَ كقولِه: ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١]، وقولِه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقولِه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨].

وقيلَ: ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾: يُصدِّقُ بعضُه بعضاً، ويشهدُ بعضُه لبعض.

وقيلَ: متشابهاً في الفضلِ؛ لأنَّ كلَّه معجزٌ.

﴿مَّثَانِيَ﴾؛ أي: ثُنِّي فيه الأنباءُ والقصصُ والتَّرغيبُ والتَّرهيبُ والأمرُ والنَّهيُ.

ثمَّ قيلَ: هيَ جمعُ (مَثْنِيٍّ) بمعنى: مفعول، فخُفِّفَ كما تُخفَّفُ (الأمانيُّ).

وقيلَ: هيَ جمع (مَثنَى) بمعنى مَفعَلٍ.

وقيلَ: ﴿مَّثَانِيَ﴾ من ثنَّيتُ الشَّيءَ؛ أي: أضفتُ إليه مثلَه، فلمَّا صارَت أوائلُ الآيِ متماثلةً سُمِّيَت المثاني، والغرضُ: أن يبيِّنَ أنَّه على نهايةِ البيانِ والتَّكريرِ والتَّقريرِ.

﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾؛ أي: تأخذُهم قشعريرةٌ، وهيَ تغيُّرٌ يحدثُ في جلدِ الإنسانِ عندَ الوجلِ والخوفِ؛ أي: تقشعرُّ جلودُهم خوفاً من آيةِ العذابِ ﴿ثُمَّ تَلِينُ﴾ عندَ آيةِ الرَّحمة.

وقيلَ: إنَّه في غايةِ الجزالةِ والبلاغةِ، فإذا رأوا عجزَهم عن معارضتِه اقشعرَّت الجلودُ منه إعظاماً له، وتعجُّباً من حُسنِ ترصيعِه، وتَهَيُّباً لِمَا فيه، وهوَ كقولِه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، فالتَّصدُّعُ قريبٌ من الاقشعرارِ، والخشوعُ قريبٌ من قولِه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾، ومعنى لينِ القلبِ: الطُّمأنينةُ والسُّكونُ والعملُ بما في القرآنِ وقَبولُ موعظتِه.

﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: تطمئنُّ القلوبُ إلى ذكرِه، وطمأنينةُ القلبِ في العلمِ باللهِ.

وقيلَ: أي: إلى ذكرِ اللهِ الجنَّةَ والنَّارَ، فحُذفَ المفعولُ للعلمِ به.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: القرآنُ هدى الله.

وقيلَ: أي: الَّذي وهبَه اللهُ لهؤلاءِ من خشيةِ عذابِه ورجاءِ ثوابِه هدى الله.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾؛ أي: مَن خذلَه الله فلا مرشدَ له.

* * *

(٢٤) ـ ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ هوَ إخبارٌ عن هذا الَّذي أضلَّه اللهُ فما له مِن هادٍ؛ أي: أفمَن يُلقَى في النَّارِ يومَ القيامةِ مغلولَ اليدِ لا يمكنُه أن يتَّقيَ العذابَ إلَّا بوجهِه، فإن كانَ الوجهُ لا يُتَّقى به فهو إذاً لا يتَّقي العذابَ، والمعنى: أفمَن يُلقى في النَّارِ فتُحرِقَ بدنَه كلَّه، ولا يمكنُه أن يردَّها عن أشرفِ أعضائِه ـ وهوَ الوجهُ ـ كمَن ليسَ كذلك؟!

وقالَ مجاهدٌ: اتِّقاؤُهم النَّارَ بالوجوهِ: أنَّهم يُجرُّون على وجوهِهم بالنَّار[١].

وقالَ مقاتلٌ: يُلقى الكافرُ في النَّارِ وفي عنقِه حجرٌ عظيمٌ ضخمٌ مثلُ الجبلِ من الكبريتِ تشتعلُ فيه النَّار، وهو لا يُطيق أن يدفعَها عن وجهِه لأنَّه مغلولٌ[٢].

والخبرُ محذوفٌ؛ أي: أفمَن هذا وصفُه كمَن هوَ في نعيمِ الجنَّةِ، كما قالَ: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾؛ أي: قالَ خزنةُ النَّارِ لهم، أو قالَ اللهُ سُبحانَه وتعالى لهم: ﴿ذُوقُوا۟﴾؛ أي: هذا جزاءُ ما كسبتم من المعاصي، ومثلُه:

---

(١) علقه البخاري بعد حديث (٤٨٠٩)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٩٤).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٧٥).

﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٥].

وقولُه: ﴿قيل﴾ بمعنى الاستقبالِ؛ أي: يُقالُ لهم ذلك، ومثلُه كثيرٌ لا سيَّما فيما يتعلَّقُ بأحوالِ الآخرة، كقولِه: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١١٠].

وقالَ قومٌ: هوَ في معنى الحالِ؛ أي: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وقد قيل للظَّالمين: ﴿ذُوقُوا﴾؛ أي: في هذه الحالة، كما يُقالُ: «كانَ ذلكَ والزمانُ زمانٌ»؛ أي: في هذا الحالِ.

وقيلَ: أي: نذيقُهم العذابَ، وليسَ ثَـمَّ قولٌ، وهوَ كقولِه: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ﴾ [سبأ: ١٨]؛ أي: وكانُوا يسيرون.

***

(٢٥ ـ ٢٦) ـ ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ﴾؛ أي: لا تأمنوا أيُّها الكفَّارُ أن يحلَّ بكم العذابُ في الدُّنيا أيضاً كما حلَّ بأقوامٍ ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: العذابَ الَّذي أخزاهم به، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾؛ أي: ممَّا أصابهم في الدُّنيا لو علمُوا ذلك، ولكنَّهم لا يعلمونَ.

والخزيُ: المكروهُ، يُقالُ: خَزِيَ فلانٌ؛ أي: وقعَ في المكروه.

***

(٢٧ ـ ٢٨) ـ ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾؛ أي: ما ذكرنا من إهلاكِ الأممِ السَّابقةِ مَثَلٌ لهؤلاء، وضربُ المثلِ لتقريبِ الكلامِ من الأفهام،

و﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾؛ أي: مِن كلِّ ما لهم إليه حاجةٌ، كقولِه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]؛ أي: ممَّا لهم حاجةٌ إليه من أمرِ الدِّين، وكقولِه: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]؛ أي: ممَّا يَحتاجُ إليه الملوكُ.

قولُه تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نصبٌ على الحالِ؛ أي: في حالِ عربيَّتِه، وقولُه: ﴿قُرْءَانًا﴾ توكيدٌ، كما تقول: جاءني زيدٌ رجلاً صالحاً.

﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾؛ أي: أنَّه مستقيمٌ.

وأشارَ بقولِه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ إلى أنَّه مُعجِزٌ؛ أي: أنَّه بلسانِهم وقد عجزُوا عن معارضتِه، فثبتَ أنَّه مِن عندِ الله.

* * *

(٢٩) - ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾؛ أي: شبهاً للمشركين والموحِّدينَ ﴿رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾؛ أي: رجلاً يخدمُ جماعةً متشاكسين؛ أي: مُتشاحِنينَ مُتعاسِرين، كلُّ واحدٍ يريدُ أن ينفردَ به، فهو مثلُ مَن عبدَ آلهةً، فكلُّ إلهةٍ وإلهٍ لو كانَ حيّاً يريدُ أن يُخلصَ له خدمتَه، وإن لم يُخلِص يَعْزُبُ نفسَه عنه، ولو أفردَ واحداً بالخدمةِ لكانَ أرضى للمخدومِ لا سيَّما إذا كانَ فيهم رئيسٌ يعترفون له بالتَّقديم.

ثمَّ ضربَ مثلَ الموحِّدِ فقالَ: ﴿ورجلاً سالِماً لرجلٍ﴾؛ أي: مُخلَصاً له بحيثُ لا يشوبُ بخدمتِه خدمةَ غيرِه، ولا يميلُ إلى سواه، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾؛ أي: هل يستوي هذان الرَّجلانِ في الوصفِ.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: المستحِقُّ للمدحِ هوَ اللهُ.

وقيلَ: أوضحَ الدَّليلَ وأزالَ الشُّبهَ ولكن أكثرَهم لا يتدبَّرُون ليتعلَّموا فهُم كمَن لا علمَ له.

﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ من شَكِسَ يشكَسُ مثل حَمِدَ يحمَدُ؛ أي: عَسُرَ، ورجلٌ شَكِسٌ؛ أي: عَسِرٌ.

وقيلَ: التَّشاكسُ: التَّنازعُ.

قُرِئَ: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾، وهوَ مصدرٌ، يُقالُ: سَلِمَ سَلَماً وسِلْماً، ورَبِحَ رَبحاً ورِبْحاً، وقُرِئَ ﴿سالماً﴾[1] وهوَ صفةُ الرَّجل، يُقالُ: هذا سالمٌ لك؛ أي: مُخلَصٌ لك، وقُرِئَ: (سِلْماً)[2] وهو مصدرٌ.

ثمَّ إذا جعَلْنا السَّلَمَ والسِّلْمَ مصدراً، فالمعنى: رجلاً ذا سَلَمٍ لرجلٍ.

* * *

(٣٠-٣١)- ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾؛ أي: المآلُ الموتُ، ثمَّ يومَ القيامةِ بيَّنَ ما يستحقُّه كلُّ إنسان.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ يعني: المحِقَّ والمبطِلَ، ولمَّا نزلَت هذه الآيةُ قالَ الزُّبير: يا رسولَ اللهِ، أيكرَّرُ علينا ما كانَ بيننا في الدُّنيا مع خواصِّ الذُّنوب؟ قالَ: «نعم، ليُكرَّرَنَّ حتَّى يُؤدَّى إلى كلِّ ذي حقٍّ حقُّه» فقالَ الزُّبير: واللهِ إنَّ الأمرَ لشديدٌ[3].

---

(١) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو، وباقي السبعة: ﴿سَلَمًا﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٨٩).

(٢) بكسر السين وسكون اللام نسبت لسعيد بن جبير كما في «تفسير الثعلبي» (٢٣/ ٥٣)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٥٣٠)، و«البحر» (١٨/ ٣٣٢).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٤٣٤)، والترمذي (٣٢٣٦)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٣٢ ـ ٣٥) ـ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قولُـه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾؛ أي: لا أحـدَ أظلـمُ ممَّـن جعـلَ للهِ شـريكاً، وكذَّب بالصِّـدق الَّذي جـاءَه من عنـدِ اللهِ على لسـانِ رسلِه.

وقيلَ: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾؛ أي: بالتَّوحيدِ، وقيلَ: بالقرآنِ، وقيلَ: بالحقِّ.

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: مقامٌ للجاحدين، وهوَ استفهامُ تقريرٍ.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ قيلَ: الَّذي جاءَ بالصِّدقِ محمَّدٌ عليه أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ، وصدَّقَ به أبو بكرٍ والصَّحابةُ، وفيه إضمارٌ؛ أي: مَن جاءَ بالصِّدقِ ومَن صدَّقَ به، وقرأ مجاهدٌ (جاءَ بالصِّدقِ وصدَّقُوا به)(١).

وقيلَ: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾؛ أي: قرأ القرآنَ ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾: واتَّبعَ ما فيه.

وقيلَ: الَّذي قالَ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ» وصدَّق به.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ أي: الَّذين اتَّقوا الشِّركَ، وقيلَ: عقوبةَ اللهِ.

---

(١) رواه سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن الضريس والطبري وابن المنذر كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٢٢٨)، عن مجاهد أنه كان يقرأ: (والذي جاء بالصدق وصدقوا به) قال: هم أهل القرآن يجيئون بالقرآن يوم القيامة يقولون: هذا ما أعطيتمونا قد اتبعنا ما فيه.

وفي المطبوع من «تفسير الطبري» (٢٠/ ٢٠٦): «﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٣] قال: «هم أهل القرآن يجيئون به يوم القيامة يقولون: هذا الذي أعطيتمونا، فاتبعنا ما فيه»، فذكر الآية كما هي قراءة السبعة، وكذا في «سنن سعيد بن منصور ـ التفسير» (١٨٦٩).

وقولُه: ﴿وَالَّذِى جَآءَ﴾ بمعنى الجمعِ، ولهذا قالَ: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، وفي قراءةِ عبدِ اللهِ: «والذي جاؤُوا بالصِّدقِ وصدَّقُوا به»[1].

قولُه تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾؛ أي: لهم ما يشتهونَه في الجنَّةِ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: من فضلِ ربِّهم، كما يُقالُ: لك إكرامٌ عندي؛ أي: ينالُك منِّي ذلك.

قولُه تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾؛ أي: يكرمَهم ولا يُؤاخذَهم بما عملوا قبلَ الإسلامِ ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾؛ أي: يُثيبَهم على الطَّاعاتِ.

* * *

(٣٦ ـ ٣٧) ـ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ سألَ اللهُ نبيَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ووعدَه النَّصرَ وعرَّفَه أنَّه يكفيه الكفَّارَ فلا يَصلِون إليه بمكروهٍ، وهذا استفهامُ تقريرٍ، وجوابُه: بلى، إنَّ اللهَ كافٍ عبدَه.

وقُرِئَ: ﴿بكافٍ عِبادَه﴾ على الجمعِ[2]؛ يعني: الأنبياءَ، أو الأنبياءَ والمؤمنين بهم، ومَن قرأ ﴿بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ فالمرادُ محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ويُحتمَلُ أن يكونَ (العبدُ) لفظَ الجنسِ كقولِه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، وعلى هذا يعني: الأنبياءَ، أو الأنبياءَ والمؤمنين بهم.

والكفايةُ: كفايةُ شرِّ الأصنام، فإنَّهم كانُوا يُخوِّفون المؤمنين بالأصنام، حتَّى قالَ إبراهيمُ عليه السَّلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٨١]، ومِن الكفايةِ: كفايةُ عداوةِ جميعِ الأعداء.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤١٩)، و«تفسير الطبري» (٢٠/ ٢٠٦).

(٢) قرأ بها حمزة والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٨٩).

وقالَ الجُرجانيُّ: إنَّ اللهَ كافٍ عبدَه المؤمنَ وعبدَه الكافرَ؛ هذا بالثَّوابِ وهذا بالعقابِ[١].

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ قيلَ: خوَّفوه بأصنامِهم أن تَخبلَه.

وقالَ قتادةُ: مشى خالدُ بنُ الوليدِ إلى العزَّى ليكسرَها بالفأسِ، فقالَ له سادنُها: أُحذِّرُكَها يا خالدُ؛ فإنَّ لها شدَّةً لا يقومُ لها شيءٌ، فعمدَ خالدٌ إلى العزَّى فهشمَ أنفَها حتَّى كسرَها بالفأسِ[٢].

وتخويفُهم لخالدٍ تخويفٌ للنَّبيِّ ﷺ لأنَّه الَّذي وجَّهَ خالداً، ويدخلُ في الآيةِ تخويفُهم النَّبيَّ عليه السَّلامُ بكثرةِ جمعِهم وقوَّتِهم، كما قالَ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ بيَّنَ أنَّ سببَ ضلالتِهم إضلالُ اللهِ إيَّاهم؛ أي: لولا خلقُ اللهِ الضَّلالَ فيهم لَمَا خوَّفوك بأنفسِهم أو بأوثانِهم.

قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾؛ أي: وقد هَدَى المسلمين، فلا يقدرُ أحدٌ على إضلالِهم ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾؛ أي: اثبتْ أنتَ على ما أنتَ عليه فإنَّ اللهَ تعالى عزيزٌ لا يُغالبُ، وإنَّه ينتصرُ لك.

❊ ❊ ❊

(٣٨) - ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾؛ أي:

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٣٠٨).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٦٣٣)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٣٩٤)، عن قتادة.

فيهم مَن يعترفُ بأنَّ خالقَ السَّماواتِ والأرضِ هوَ اللهُ، واتَّفقوا على أنَّ هذه الأصنامَ لم تخلقْها، فكيف يُخوِّفونك بآلهتِهم الَّتي هيَ مخلوقةٌ للهِ تعالى، وأنتَ رسولُ اللهِ الَّذي خلقَها وخلقَ السَّماواتِ والأرضَ؟

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم﴾؛ أي: قل لهم يا محمَّدُ بعد اعترافِهم بهذا: ﴿أَفَرَءَيْتُم ... إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ وبلاءٍ في بدني، هل في قدرةِ أصنامِكم كشفُ ذلكَ الضرِّ عنِّي؟ أو أرادني برحمةٍ هل في قدرتِها صرفُ تلك النِّعمة عني؟

﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أنَّهم لا يدَّعون لأصنامِهم شيئاً من هذا، بل يُقرُّون بأنَّ اللهَ تعالى لا يُنازَعُ ولا يُعارَض، فقل لهم: حسبيَ اللهُ إذاً؛ أي: لا أخافُ غيرَه ولا أحذرُ آلهتكم الَّتي لا تبصرُ ولا تسمعُ، ولا تدفعُ عن نفسِها فضلاً أن تدفعَ عن عائذِها.

قُرِئَ ﴿كاشِفاتٌ﴾ و﴿مُمسِكاتٌ﴾ بالتَّنوينِ، وقُرِئَ ﴿كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ و﴿مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ بالإضافةِ[1] طلباً للخفَّة، وقالَ: ﴿كاشِفاتٌ﴾ و﴿مُمسِكاتٌ﴾ لأنَّهم كانُوا يُسمُّون الأصنامَ باسمِ الإناثِ، كما قالَ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩].

* * *

(٣٩ ـ ٤٠) ـ ﴿قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾؛ أي: اثبتُوا على ما أنتم عليه، وهذا أمرُ تهديدٍ ﴿إِنِّى عَـٰمِلٌ﴾ على مكانَتي؛ أي: ثابتٌ على ما أنا عليه من التَّوحيدِ والدُّعاءِ؛ لأنَّه ستتبيَّنُ الأمورُ في المآلِ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾؛ أي: يُهينُه ويُذلُّه ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾؛ أي: ويَحِقُّ عليه ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾؛

---

(١) قرأ أبو عَمْرو: ﴿كاشِفَاتٌ ضُرَّه﴾ و﴿مُمْسِكاتٌ رَحمتَه﴾ بالتنوينِ فيهما ونصب ﴿ضُرَّه﴾ و﴿رَحمتَه﴾، والباقون بغير تنوين وخفضِ ﴿ضُرِّهِۦٓ﴾ و﴿رَحْمَتِهِۦ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٨٩).

أي: يخلدُ فيه، والعذابُ المخزي هاهنا هوَ عذابُ الدُّنيا، والعذابُ المقيمُ هوَ عذابُ الآخرةِ، ويجوزُ أن يعودَ إلى عذابِ الآخرةِ؛ فإنَّه مُهينٌ.

ويُقالُ: مكانٌ ومكانةٌ، مثل مقامٍ ومقامةٍ، ومنزلٍ ومنزلةٍ، ومَنهلٍ ومنهلةٍ.

وقيلَ: المكانةُ مصدرُ المَكِين، كما قالَ: ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٣]؛ أي: متمكِّنٍ؛ أي: اعملوا متمكِّنين ممَّا أنتم عاملون له، ويقربُ هذا من الأوَّل.

وقيلَ: القومُ كانُوا ينكرون البعثَ، فقيل لهم: اعملُوا على أنَّ الأمرَ كما تقولون، فإنِّي عاملٌ على أنَّ الأمرَ كما أقولُ، إلى أن تنكشفَ الحقائقُ.

***

(٤١) ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ هوَّنَ أمرَ المشركين على النَّبيِّ عليه السَّلام.

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: القرآنَ ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ أي: ليُرَدُّوا بالقرآنِ عن الضَّلالِ إلى الهدى ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بيانِ ما هوَ حقٌّ.

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: له ثمرةُ الإيمانِ ونفعُه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ فالعاقبةُ المذمومةُ عائدةٌ إليه ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: لا يمكنك أن تتوكَّلَ بهم حتَّى يؤمنوا، وإنَّما أنتَ نذيرٌ.

***

(٤٢) ـ ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾؛ أي: الأمرُ موكولٌ إلى اللهِ فهو الَّذي يميتُ ويُحيي ويُضلُّ ويَهدي، وبيَّنَ أنَّه كما يستيقظُ النائمُ ـ والنَّومُ هوَ الموتُ الأصغرُ ـ فكذلك الميِّتُ يُبعَثُ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: لكلِّ إنسانٍ نفسان(١). ومعنى كلامِه: أنَّ المقبوضَ في حالِ النَّوم: التَّمييزُ والعقلُ لا الرُّوح، والمقبوضَ عند الموت: العقلُ والرُّوح، وهذا قولُ ابنِ الأنباريِّ والزَّجَّاجِ(٢).

وفي هذا بعدٌ إذ المفهوم من الآيةِ أنَّ النَّفسَ المقبوضةَ في الحالين شيءٌ واحد، ولهذا قالَ: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، فإذاً يقبضُ اللهُ [الروح] في الحالَين: في حالةِ الموتِ وحالةِ النَّومِ، فما قبضَه في حالِ النَّومِ فمعناه: أنَّه يَغمرُه بما يحبسُه عن التَّصرُّفِ، فكأنَّه شيءٌ مقبوضٌ، وما قبضَه في حالِ الموتِ فهو يمسكُه ولا يرسلُه إلى يومِ القيامةِ، وقولُه: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾؛ أي: يزيلُ الحابسَ عنه فيعودُ كما كان، فتَوَفِّي الأنفُسِ في حالِ النَّومِ بإزالةِ الحسِّ وخلقِ الغفلةِ والآفةِ في محلِّ الإدراكِ، وتَوفِّيها في حالةِ الموتِ: خلقُ الموتِ وإزالةُ الحسِّ [بالكلية]، ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ بأن لا يخلقَ فيها الإدراكَ، كيفَ وقد خلقَ فيها الموتَ؟ ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ بأن يعيدَ إليها الإحساسَ(٣). وهذا في المعنى يقرُبُ ممَّا تقدَّمَ، والخلافُ في اللَّفظِ.

﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾: عند فراقِ الرُّوحِ الجسدَ على ما تقدَّم.

وقيلَ: أي: حينَ موتِ أبدانِها.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٣١٢) وزاد: أحدهما نفس العقل الذي به التمييز، والآخر نفس الروح الذي به الحياة.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٥٦)، و«الزاهر» (٢/ ٣٧٥).

(٣) انظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٨٥) وما بين معكوفتين منه.

ثمَّ عند قومٍ الرُّوحُ عينُ الحياةِ، والحياةُ معنًى كسائرِ المعاني، وضدُّه الموتُ، وعند قومٍ الرُّوحُ جوهرٌ، ولا بدَّ أن يكونَ مُتحيِّزاً، والمخلوقُ إمَّا عرضٌ، أو قائمٌ بنفسِه متحيِّزٌ، ثمَّ الحيُّ يَحيا بالحياةِ لا بالرُّوحِ، وأجرى اللهُ سُبحانَه وتعالى العادةَ بأن يخلقَ الحياةَ في الحيوانِ إذا خلقَ فيه الرُّوحَ الَّذي هوَ جوهرٌ لطيف، وذلك الجوهرُ إذ كانَ حيّاً فهو حيٌّ بحياة، وكلُّ جزءٍ من الحيوانِ حيٌّ بحياة، والحيوانُ أحياءٌ مُسخَّرون سخَّرَ الله بعضَها لبعضٍ.

وقيلَ: أي: قل: حسبيَ اللهُ عليه فليتوكَّلِ المُتوكِّلون؛ فإنَّه الَّذي يتوفَّى الأنفسَ، وهوَ الَّذي يبعثُها من نومِها، وهوَ الَّذي يحفظُ النُّفوسَ في اليقظةِ والمنامِ، ويُميتُها إذا جاءَ أجلُها، ويتَّصلُ هذا بقولِه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٦].

وقالَ الأصمعيُّ رحمه الله: سمعتُ مُعتمِراً يقولُ: روحُ الإنسانِ مثلُ كُبَّةِ الغزْلِ، فتُرسَلُ الرُّوحُ فتمضي ثمَّ تمضي، ثمَّ تُطوَى فتجيءُ فتدخل، فمعنى الآيةِ: أنَّه يُرسَلُ من الرُّوحِ شيءٌ في حالِ النَّومِ ومعظمُها في البدنِ متَّصلٌ بما يخرجُ منها اتِّصالاً خفيّاً، فإذا استيقظَ المرءُ جَذَبَ [معظمُ الروح] ما انبسطَ منها فعاد(١).

وقيلَ: التَّوفِّي بمعنى: الاستيفاءِ والعدد، يُقالُ: توفَّاه واستوفاه بمعنًى، مثل تكبَّرَ واستكبَرَ، فمعنى ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ معناه: أنَّه يستوفي عِدَّةَ أيَّامِ عمرِها، وقولُه: ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾؛ أي: حينَ يجيءُ أجَلُها، وقولُه: ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ﴾ أيَّامَ عمرِها ﴿فِى مَنَامِهَا﴾؛ أي: ويستوفي عدَّةَ ما مضى مِن عُمرِ [مَن] لم يحضُرْه الموتُ، ثمَّ قالَ: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾؛ أي: مَن ماتَ لا يزيدُه على ما استوفاه عليه، ثمَّ قالَ: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: ويُطلقُ النَّفسَ الَّتي وقعَ الاستيفاءُ على ما مضى من مدَّةِ عمرِها من غيرِ حضورِ أجلِها إلى أجلٍ مُسمَّى، فتستوفي فيه مدَّةَ أجلِها وعمرِها.

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٨٨) وما بين معكوفتين منه.

قُرِئَ ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾؛ أي: قَضَى عليها اللهُ، وقُرِئَ ﴿فيُمسكُ الَّتي قُضِيَ عليها﴾ على ما لم يُسمَّ فاعلُه[1].

وقولُه: ﴿فَيُمْسِكُ﴾؛ أي: عن الجسدِ، وقولُه: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾؛ أي: ويرسلُها إلى الجسدِ.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: إلى أن تمضيَ الأيَّامُ الَّتي علمَ اللهُ وحكَمَ أنَّها مدَّةُ حياتِه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾؛ أي: لدلالاتٍ ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في كمالِ قدرةِ اللهِ تبارك وتعالى.

* * *

(٤٣ ـ ٤٤) ـ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾؛ أي: بل اتَّخذُوا؛ يعني: عبدةَ الأصنامِ، قالوا: هؤلاءِ شفعاؤنا، وفي الكلامِ ما يتضمَّنُ (لم)؛ [أي]: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لم يتفكَّروا ولكنَّهم اتَّخذوا آلهتَهم شفعاءَ[2].

﴿أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾؛ أي: قل لهم: أتتَّخذونهم شفعاءَ وإن كانُوا لا يملكونَ شيئاً، وهيَ جماداتٌ لا تُدركُ ما الشَّفاعاتُ، وهذا استفهامُ إنكارٍ، والجوابُ محذوفٌ.

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾؛ أي: لا يُقدِمُ عليها أحدٌ إلَّا بإذنِه.

* * *

---

(١) قرأ حمزة والكسائي بالمبني للمجهول، والباقون بالمبني للمعلوم. انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٩٠).

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٨٨) وما بين معكوفتين منه.

(٤٥) ـ ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ﴾؛ أي: انقبضَت واستوحشَت ونفرَت، وكانَ المشركونَ إذا قيلَ لهم: «لا إلهَ إلَّا اللهُ» نفروا وكفروا ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ ﴾؛ أي: وإذا ذُكِرَ الأصنامُ ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾؛ أي: يَظهرُ في وجوهِهم البشرُ والسُّرورُ.

***

(٤٦) ـ ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أمرَه بأن يُحاكمَهم إلى اللهِ تعالى؛ أي: قل: يا إلهَ الخَلقِ، ويا مَن هوَ عالمٌ بما غابَ عن العبادِ وما حضرَ ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ ﴾؛ أي: قد علمْتَ حالي في الإبلاغِ وحالَ هؤلاءِ في الإعراضِ، فأنجزْ لي وعدَك.

***

(٤٧ ـ ٤٨) ـ ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾؛ أي: أنتَ تحكمُ بينَ عبادِك يومَ القيامةِ، وحينئذٍ يودُّ الَّذي كفر لو يفتدي من عذابِ ذلكَ اليومِ بشيءٍ، والظُّلمُ هاهنا: الشِّركُ؛ لقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ ﴾؛ أي: مِن العذابِ الشَّديدِ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾؛ أي: في يومِ القيامةِ.

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ظهرَ من أمرِ اللهِ ما لم يكونوا يظنُّونه؛ لأنَّهم كانُوا مُنكِرين للقيامةِ.

وقيلَ: ظنُّوا أنَّ أعمالَهم تنفعُهم، فأبطلَ اللهُ أعمالَهم.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾؛ أي: ظهرَت أعمالُهم القبيحةُ.

وقيلَ: أي: بدا لهم جزاءُ أعمالِهم القبيحةِ.

وقيلَ: هوَ شهادةُ جوارِحِهم عليهم.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي: حلَّ ونزلَ بهم العذابُ الَّذي كانُوا يستهزئون به.

* * *

(٤٩ ـ ٥١) ـ ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾؛ أي: هم مُغترُّون بالدُّنيا، فإذا وجدوا النِّعمةَ ظنُّوا أنَّ ذلكَ لفضلٍ لهم ومنزلةٍ لهم عندَ الله، ولو كانُوا مُبطِلين لَمَا آتاهم اللهُ الدُّنيا، وهذا باطلٌ؛ لأنَّ مخالفيهم كانَ فيهم أغنياءُ أيضاً، والإنسانُ هاهنا: الكافرُ.

﴿عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾؛ أي: على علمٍ مِن اللهِ بفضلي.

وقيلَ: على علمٍ منِّي بجمعِه واكتسابِه؛ أي: حصلَ لي المالُ بجهدي.

﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ ليسَ كما يتوهَّمُه هذا الإنسانُ ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: بل هذه النِّعمةُ امتحانٌ مِن اللهِ له ليتبيَّنَ شُكرُه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لا فكرَ لهم، ولو فكَّروا لعلِمُوا أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لو أرادَ سَلَبَهم قوَّةَ الاكتسابِ، وأرسلَ على أموالِهم ما يتلفُها، وأنَّ كثيراً ممَّن يخالفونهم في الدِّينِ قد أُوتوا من المالِ مثلَ ما أُوتوه، فكيف يُدِلُّون ويَستدلُّون بتلك الأموالِ على أنَّ الحقَّ معهم، ولعلمُوا أيضاً أنَّ كثيراً من النَّاسِ أكثرُ اجتهاداً منهم ثمَّ لا ينالونَ بجهدِهم شيئاً.

﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ ذُكِّرَ لأنَّه أرادَ بالنِّعمةِ الإنعامَ.

وقيلَ: ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمونَ أنَّ ذلكَ استدراجٌ ومكرٌ.

قولُه تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: الكفَّارَ قبلَهم ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ﴾ (ما) للجحد؛ أي: لم تُغنِ عنهم أموالُهم.

وقيلَ: أي: فما الَّذي أغنى عنهم أموالُهم؟

قولُه تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾؛ أي: جزاءُ سيِّئاتِ أعمالِهم، وقد يُسمَّى جزاءُ السَّيِّئةِ سيِّئةً[1].

﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾؛ أي: لا يعجزونني في الدُّنيا والآخرةِ.

* * *

(٥٢) - ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ أي: ألم يعلموا أنَّ تفاوتَ الرِّزقِ مِن اللهِ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾؛ أي: في بسطِ الرِّزق وتقديرِه ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنَّ المؤمنَ هوَ الَّذي يتدبَّرُ الآياتِ.

* * *

(١) في (أ): «جزاء سيئة».

(٥٣) - ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بيَّنَ أنَّ الوعيدَ الَّذي سبقَ ذكرُه للمُصرِّين على الكفرِ، فأمَّا مَن تابَ وأسلمَ فله الثَّوابُ الجسيم. نزلَت في قومٍ خافُوا إن أسلموا أن لا يُغفَرَ لهم ما جَنَوا من الشِّركِ والذُّنوبِ.

﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إن أسلمتم.

وقالَ ابنُ عمرَ: نزلَتِ الآيةُ في عيَّاشِ بنِ أبي ربيعةَ والوليدِ بنِ الوليدِ ونفرٍ مِن المُسلِمين فُتِنوا وعُذِّبوا فارتدُّوا، وكنا نقول: لا يقبلُ الله من هؤلاءِ صرفاً ولا عدلاً أبداً، فنزلَت هذه الآيةُ، فكتبَ عمرُ بها إلى عيَّاشِ بنِ أبي ربيعةَ والوليدِ بنِ الوليدِ أولئك النَّفرِ، فأسلموا وهاجروا[1].

ولمَّا نزلَت هذه الآيةُ فرحَ رسولُ اللهِ ﷺ[2]، ورآها أصحابُه من أوسعِ الآياتِ في مغفرةِ الذُّنوب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾؛ أي: لمن تابَ.

وقيلَ: نزلَتِ الآيةُ في وحشيٍّ قاتلِ حمزةَ رضيَ اللهُ عنه[3].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٢٧).

(٢) روى الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٣٦٢)، والطبراني في «الأوسط» (١٧٤)، عن ثوبان رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية». قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ١٤٤): «فيه ابن لهيعة عن أبي قبيل وهما ضعيفان». وأبو قبيل: هو حيي بن هانئ المعافري.

(٣) رواه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٦٤٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.
ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٣١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٢٥) عن عطاء بن يسار.

وفي روايةٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قرأ: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ولا يبالي، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾»(١).

قُرِئَ ﴿لَا تَقْنَطُوا۟﴾ بكسرِ النُّونِ وفتحِها(٢).

* * *

(٥٤) - ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ لـمَّا بيَّنَ أنَّ مَن تابَ من الشِّركِ يُغفَرُ له أمرَ بالتَّوبةِ والرُّجوعِ إلى اللهِ، والإنابةُ: الرُّجوعُ إلى اللهِ بالإخلاصِ.

﴿وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾؛ أي: أخلِصُوا له بالتَّوحيدِ ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾؛ أي: لا تُمنَعون من عذابِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

وقيلَ: ﴿وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾؛ أي: ادخلوا في سِلمِه بالطَّاعةِ له، واللهُ أعلمُ.

* * *

(٥٥) - ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾؛ أي: اتَّبعوا طاعةَ اللهِ، فإنَّ ذلكَ أحسنُ ما أُنزلَ إليكم في الكتابِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٢). ورواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٣١١)، والإمام أحمد في «مسنده» (٢٧٥٦٩)، والترمذي (٣٢٣٧)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٨٥)، من حديث أسماء بنت يزيد. قال الترمذي: حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث ثابت عن شهر بن حوشب.

(٢) قرأ أبو عمرو والكسائي بكسر النون والباقون بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٣٦).

وقيلَ: ﴿أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾ من أخبارِ الأممِ الماضيةِ.

وقيلَ: ما علَّمَ اللهُ النَّبيَّ عليه السَّلام وليسَ بقرآنٍ فهو حسنٌ، وما أوحَى إليه من القرآنِ فهو الأحسنُ.

وقيلَ: أنزلَ اللهُ كتباً ثمَّ أنزلَ القرآنَ، فأمرَ باتِّباعِ القرآنِ، فهو الأحسنُ، وهوَ المعجِزُ.

وقيلَ: هوَ أحسنُ؛ لأنَّه ناسخٌ لِمَا قبلَه من الكتب.

وقيلَ: اتِّبعوا الأحسنَ وهوَ المحكَماتُ، ودعوا علمَ المتشابِهِ إلى العالِمِ به.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً﴾؛ أي: الموتُ، فإنَّ العقابَ يُوافيهم عقيبَ الموتِ ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ وقتَ الموتِ.

وقيلَ: أرادَ بالعذابِ عذابَ الآخرةِ.

* * *

(٥٦ ـ ٥٩) ـ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ عند الكوفيِّين: لئلا تقولَ نفسٌ، وعند البصريِّين: حذرَ أن تقولَ نفسٌ.

وقيلَ: أي: من قبلِ أن تقولَ نفسٌ؛ لأنَّه قالَ قبلَ هذا: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً﴾.

﴿يَٰحَسْرَتَىٰ﴾؛ أي: يا نَدامتا، وحرفُ النِّداء يدلُّ على شدَّةِ النَّدامةِ.

﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ضيَّعتُ من الطَّاعةِ، أو ضيَّعتُ من ثوابِ اللهِ تعالى.

وقالَ أبو عُبيدةَ: ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في ذاتِ اللهِ تعالى[1]، ثمَّ يُقدَّرُ المضافُ؛ أي: على ما فرَّطتُ في أمرِ اللهِ.

وقالَ الفرَّاءُ: الجنبُ: القُربُ والجِوارُ، يُقالُ: فلانٌ يعيشُ في جنبِ فلان؛ أي: في جِوارِه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء: ٣٦]؛ أي: على ما فرَّطتُ في طلبِ جوارِه وقربِه، وهوَ الجنَّة[2].

وقالَ الزَّجَّاجُ: أي: على ما فرَّطتُ في الطَّريقِ الَّذي هوَ طريقُ اللهِ الَّذي دعاني إليه[3]، [وعلى هذا الجنب بمعنى الطريق] والجنبُ بمعنى الجانبِ كثيرٌ؛ أي: في الجانبِ الَّذي يؤدِّي إلى رضا اللهِ عزَّ وجلَّ[4].

ويُقالُ: ما فعلتُ في جنبِ حاجتي؛ أي: في حاجتي.

﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾؛ أي: وما كنتُ إلَّا مِن المستهزئين بالقرآنِ وبالرَّسول في الدُّنيا وبأولياءِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ أي: وما كنتُ إلَّا في سخريةٍ ولعبٍ وباطلٍ؛ أي: كانَ سعيي في عبادةِ غيرِ اللهِ سعياً باطلاً.

قولُه تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾؛ أي: أرشدَني إلى دينِه ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: الشِّركَ، وهذا القولُ ـ وهوَ «لو أنَّ اللهَ هداني لاهتديتُ» ـ قولُ

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١٩٠).

(٢) ذكر عنه الأزهري في «تهذيب اللغة» (١١/ ٨٠)، وعنه تلميذه الهروي في «الغريبين» (١/ ٣٧٤)، والواحدي في «البسيط» (١٩/ ٣٢٦).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٥٩).

(٤) انظر: «البسيط» (١٩/ ٣٢٦) وما بين معكوفتين منه.

صدقٍ، ولكن ليسَ للكافرِ الاحتجاجُ به؛ لأنَّ اللهَ أمرَه بما لو أرادَ أن يفعلَه لفعلَه، وليسَ مُجبَراً، وهوَ قريبٌ من احتجاجِ المشركين فيما أخبرَ الرَّبُّ عنهم في قولِه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فهي كلمةُ حقٍّ أُريدَ به باطلٌ، كما قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنه لـمَّا قالَ قائلٌ من الخوارجِ: لا حُكمَ إلَّا لله(١).

قولُه تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾؛ أي: رَجعةً إلى الدُّنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: من الموحِّدين، قالَ الفرَّاءُ: ﴿فَأَكُونَ﴾ نصبٌ على جوابِ ﴿لَوْ﴾، [أ]و على تأويلِ: لو أنَّ لي أن أكرَّ [فأكونَ](٢).

قولُه تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ قالَ الزَّجَّاجُ: ﴿بَلَىٰ﴾ جوابُ النَّفي، وليسَ في الكلامِ لفظُ النَّفي، ولكن معنى ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾: إنِّي ما هُدِيتُ، فكأنَّ هذا القائلَ قالَ: «ما هُدِيتُ» فقيلَ: بلى، قد بيَّنَ اللهُ تعالى لك طريقَ الهدى فكنتَ بحيث لو أردتَ أن تؤمنَ أمكنَكَ أن تُؤمنَ، والقولُ مضمرٌ؛ أي: يُقالُ لهذا القائلِ: بلى، للهِ الحجَّةُ عليك(٣).

﴿ءَايَٰتِى﴾؛ أي: آياتُ القرآنِ ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾؛ أي: قلت: إنَّها ليسَت من اللهِ.

وقيلَ: عنَى بالآياتِ المعجزاتِ؛ أي: وَضَحَ الدَّليلُ فأنكرتَه.

﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾؛ أي: تكبَّرتَ عن الإيمانِ ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وقال:

---

(١) رواه مسلم (١٠٦٦) عن عبيد الله بن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤٢٢)، و«البسيط» (١٩/ ٣٢٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٠٠)، وما بين معكوفتين مستفاد من هذه المصادر، واستدل الفراء للوجه الثاني بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ﴾ [الشورى: ٥١] المعْنَى: «ما كَانَ لبشرٍ أن يُكلمه الله إلا أن يُوحي إِلَيْهِ أو يرسل»، واستدل غيره بقول ميسون بنت بحدل الكلابية:

لَلُبْسُ عَبَاءةٍ وتَقَرَّ عَيْنِي ... أحبُّ إلي من لبس الشُّفوف

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٥٩).

﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ﴾ وهوَ خطابُ الذَّكرِ؛ لأنَّ النَّفسَ تقعُ على الذَّكرِ والأنثى، يُقالُ: ثلاثةُ أنفُسٍ.

وقالَ المُبرِّدُ: تقولُ العربُ: هوَ نَفْسٌ واحدٌ؛ أي: إنسانٌ واحد(1).

وحيث قالَ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]، و﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾ [طه: ٩٦]، فليسَ المرادُ هاهنا بالنَّفسِ الإنسانَ.

ثمَّ قولُه: ﴿بَلَىٰ﴾ يرجعُ إلى الأمورِ الثَّلاثةِ، وقيلَ: إلى قولِه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾.

***

(٦٠) - ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌ﴾؛ أي: الَّذين قالوا: إنَّ اللهَ لم يُزحِ العِلَلَ، ولو هدانا لاهتدينا، واتَّخذوا الشُّركاءَ لله، وقالوا: لا يبعثُ اللهُ مَن يموتُ.

﴿وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌ﴾، قيلَ: هوَ بتحقيقِ السَّوادِ، وهوَ علامةُ الكفَّارِ غداً، وتبيضُّ وجوهُ المؤمنين، ويكونُ هذا قبلَ دخولِ النَّار، ويجوزُ أن يكونَ بعدَ دخولِها، كما قالَ: ﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

وقيلَ: سوادُ الوجهِ مَثَلٌ، كما قالَ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾ [النحل: ٥٨]، ويُقالُ لمَن انقطعَت حجَّتُه: رجعَ بوجهٍ أسودَ، ولمن كانَ له الفلاحُ: رجعَ بوجهٍ أبيضَ.

﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾؛ أي: عن قَبولِ الإيمانِ.

***

(١) انظر: «المقتضب» (٢/ ١٨٧)، و«البسيط» (١٩/ ٣٢٩).

(٦١) ـ ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾؛ أي: اتَّقوا الشِّرك، قُرِئَ: ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾؛ أي: بما فازوا به من أعمالِ الخيرِ؛ أي: يُنجِّيهم غداً من سوادِ الوجهِ بالإيمانِ؛ أي: يُنجِّيهم اللهُ بما نجَوا من الوقوعِ في الشِّركِ؛ يعني: يُنجِّيهم مِن العذابِ بإنجائِهم أنفسَهم من الشِّركِ.

وقيلَ: أي: يُنجِّيهم بمَنجاتِهم؛ أي: بما استحقُّوا النَّجاةَ به، وهوَ الإيمانُ.

والمفازةُ: مَفْعَلةٌ من الفوزِ، وهوَ السَّعادةُ.

وقُرِئَ: ﴿بمفازاتِهم﴾[1]، وهيَ جمعٌ، كما يُقالُ: سعادةٌ وسعاداتٌ.

وقيلَ: ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾؛ أي: يُنجِّيهم اللهُ تعالى بما سبقَ لهم من السَّعادةِ والفوزِ.

﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾؛ أي: العذابُ، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ أي: لا يصيبُهم الموتُ، ولا همٌّ من الهمومِ.

***

(٦٢ ـ ٦٣) ـ ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ أي: مُنشِئُ كلِّ شيءٍ أنَّى يُتَّخذُ شريكٌ دونَه؟

والوكيلُ: الحفيظُ، وقيلَ: الأشياءُ موكولةٌ إليه، وهوَ المُتوكِّلُ بتدبيرِها.

قولُه تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: خزائنُ السَّماواتِ والأرضِ، يفتحُ على عبادِه منها ما يشاءُ، والمقصودُ: أنَّ قدرتَه شاملةٌ لكلِّ شيء، والأشياءُ

---

(١) قراءة حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر، والباقون: ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ على التوحيد. انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٩٠).

متيسِّرةٌ[١] في قدرتِه كالأشياءِ المخزونةِ عند الملكِ، ومَن أخرج شيئاً من الخزانةِ فتحَ البابَ بالمفتاحِ، فأشارَ بالمقاليدِ إلى ابتداءِ الأشياءِ.

وقد يُقالُ: أُلقِي إلى فلانٍ مفاتيحُ كذا، ومقاليدُ كذا، وأزمَّةُ كذا، وواحدُ المقاليدِ: مِقلِيدٌ ومِقلادٌ، ويُقالُ أيضاً: إقليدٌ وأقاليدُ.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: يريدُ الرِّزقَ والرَّحمةَ[٢]؛ أي: أنَّ اللهَ تعالى يفتحُ بابَ الرِّزقِ والرَّحمة.

وقيلَ: المقاليدُ: الطَّاعةُ، يُقالُ: ألقى فلانٌ إلى فلانٍ بالمقاليدِ؛ أي: أطاعَه فيما يأمرُه به، فمعنى الآيةِ: له طاعةُ مَن في السَّماواتِ والأرضِ.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾؛ أي: بالقرآنِ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ أي: خسروا الجنَّةَ.

* * *

(٦٤) - ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾ كانُوا يَدْعونَ النَّبيَّ ﷺ إلى ما هم عليه مِن عبادةِ الأصنامِ، ويقولون: هوَ دينُ آبائِكَ، قل: أتأمروني بعبادةِ غيرِ اللهِ واللهُ هوَ الخالق، وهذا توبيخٌ لهم.

قُرِئَ: ﴿تَأْمُرُونَنِي﴾ بنونين، وقُرِئَ: ﴿تَأْمُرُونِّي﴾ بنونٍ مشدَّدةٍ للإدغامِ، وقُرِئَ

---

(١) غير واضحة في (أ) والمثبت أقرب ما يكون لرسمها وللمعنى.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٣٣٣) بلفظ: «يريد مفاتيح السماوات والأرض بالرزق والرحمة»، وفي «الوسيط» (٤/ ٤٥)، بلفظ: «يريد مفاتيح الرزق في السماوات والأرض». وروى الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٤٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مقاليد السموات والأرض: مفاتيحها».

بنونٍ مخفَّفةٍ على حذفِ النُّونِ الثَّانيةِ[1]، وإنَّما قدَّرنا المحذوفةَ الثَّانيةَ لأنَّ التَّكريرَ والتَّثقيلَ واقعٌ بها، وأيضاً حذفُ الأُولى لا يجوزُ لأنَّها دلالةُ الرَّفعِ.

﴿أَعْبُدُ﴾؛ أي: أن أعبدَ، فلمَّا حُذفَ (أن) رُفِعَ.

وقيلَ: أي: أفغيرَ اللهِ أعبدُ تأمروني.

***

(٦٥ ـ ٦٦) ـ ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: عرِّفْهم أنَّ عبادةَ غيرِ اللهِ لا تجوزُ، وكيف لا وقد أُوحِيَ إليك ﴿وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾؟

قالَ الأخفشُ: لم يقل: أشركتم؛ لأنَّ المعنى على الأوَّلِ، والثَّاني معطوفٌ عليه فاستُغنيَ عنه، وهوَ كما تقول: «لقد قيل لزيدٍ وعمرٍو: ليذهبَنَّ»؛ أي: قيلَ لزيد: ليذهبنَّ و[لـ]ـعمرو [ليذهبن، فاستغنَى قولُك: «عمرو» عن أن يقالَ فيه: «ليذهبنَّ»][2].

وقيلَ: أي: أُوحِيَ إلى كلِّ واحدٍ منهم: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾[3].

وقالَ مقاتلٌ: أي: أُوحِيَ إليك وإلى الأنبياءِ قبلَك بالتَّوحيدِ[4]. فالتَّوحيدُ

---

(١) قرأ ابن عامر بنونين الأولى مفتوحة، ونافع بواحدة مخفَّفة، والباقون بواحدة مشدَّدة. انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٩٠).

(٢) انظر: «البسيط» (١٩/ ٣٣٦) وما بين معكوفتين منه.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٣٣٥) قبل كلام الأخفش السابق، وجعله في معنى قول الأخفش.

(٤) ذكره هكذا الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٣٣٧)، وهو في «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٨٥) بلفظ: «﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ من الأنبياء ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ بعد التوحيد ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾».

محذوفٌ، ثمَّ قالَ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ يا محمَّدُ ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الَّذي كانَ قبلَ الشِّركِ من الطَّاعات.

يُقالُ: ليَحبطَنَّ؛ أي: ليَبطلَنَّ عملُك، ويُقالُ: حَبِطَت الشَّاةُ: إذا أكلَت ما ينفخُ بطنَها ولا يُشبعُها، ويُقالُ: بها حَبَطٌ، وفي الخبرِ: «إنَّ ممَّا يُنبتُ الرَّبيعُ ما يَقتلُ حَبطاً أو يُلِمُّ»(١)، فمَن ارتدَّ لم تنفعْه طاعاتُه السابقة، ولكنَّ إحباطَ الرِّدَّةِ العملَ مشروطٌ بالموافاة على الكفرِ، ولهذا قالَ: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧]، فالمطلَقُ هاهنا محمولٌ على المقيَّدِ، ولهذا قالَ بعضُهم: مَن حجَّ ثمَّ ارتدَّ ثمَّ عادَ إلى الإسلامِ لا يجبُ عليه إعادةُ الحجِّ.

﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ أي: صارَ نعتُك هذا، فتكونُ كمَن ذهبَ مالُه هدراً.

قولُه تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾؛ أي: بل أخلِص العبادةَ لله، ففي قولِه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ معنى النَّهي عن الشِّركِ، فلهذا قُوبِلَ بـ﴿بَلِ﴾.

وتقولُ: زيداً فاضرب؛ أي: زيداً اضرب.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: ﴿فَٱعْبُدْ﴾؛ أي: فوحِّدْ(٢)، وقالَ غيرُه: بل اللهَ أطِعْ، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لنعمِه بخلافِ المشركين.

* * *

(٦٧) ـ ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾؛ أي: هؤلاءِ المشركون ما قَدَرُوا الله

---

(١) رواه البخاري (٦٤٢٧)، ومسلم (١٠٥٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) ذكره عن ابن عباس الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٣٣٨). وذكره في «الوسيط» (٣/ ٥٩٢) عن عطاء ومقاتل.

حـقَّ قَـدرِه؛ لأنَّهـم أشـركوا به، واللهُ هـوَ القـادرُ على ما فـي السَّـماوات والأرضِ، وهـوَ يطويهما ويبعـثُ الخَلقَ للحسـابِ.

وقالَ ابنُ مسعودٍ: قالَ رجلٌ من أهلِ الكتابِ: بلغَكَ يا أبا القاسمِ أنَّ اللهَ تعالى يحملُ الخلائقَ على إصبعٍ، والأرضينَ على إصبعٍ، والثَّرى على إصبعٍ؟ فضحكَ رسولُ اللهِ ﷺ حتَّى بدَت نواجذُه، وأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[1]؛ أي: قبضُه قبضُ قُدرةٍ، لا أنَّه يحتاجُ إلى عضوٍ، ويُتصوَّرُ أن يكونَ له عضوٌ.

ويُقالُ: قَدَرَ فلانٌ كذا؛ أي: عَرَفَ أنَّ مقدارَه خطيرٌ، فوقَّرَ حقَّه من التَّعظيم، والمعنى: ما عظَّموا اللهَ تعالى حقَّ تعظيمِه، ولا اعتقدوا فيه ما يجبُ اعتقادُه من القدرةِ على البعثِ.

﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾؛ أي: وهـوَ القادرُ على كـلِّ شـيءٍ، فيُبدِّلُ الأرضَ يومَ القيامةِ كما قالَ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

﴿وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ هوَ كما قالَ: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، والمراد بالقبضِ والطَّيِّ: كمالُ القدرةِ، وأهلُ العُرفِ معتقدون أنَّ كمالَ القوَّةِ في اليمينِ، كالرَّجلِ يقول: كيفَ تنكرُ قدرتي وأنا الَّذي فعلتُ كذا وكذا؟! ومثلُه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

وإنَّمـا قـالَ: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وإن كانَـت قدرتُـه شـاملةً لـكلِّ شـيءٍ الآن أيضاً؛ لأنَّ الدَّعـاوي تنقطعُ ذلكَ اليومَ، كمـا قالَ: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، وقال: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

واليمينُ تأكيدُ الملكِ، كقولِه: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣]، ولم يُرِدِ اليمينَ المقابلةَ بالشِّمالِ، ولهذا قالَ في الخبرِ: «كلتا يديه يمينٌ»[2].

---

(١) رواه البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦).

(٢) رواه مسلم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

وقيلَ: ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾؛ أي: بقَسَمِه، والطَّيُّ: الفناءُ، فهو يُفني الأجسامَ بعد إماتةِ الحيواناتِ، كما قالَ: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] ثمَّ يعيدُها، فكأنَّه أقسمَ أنَّه يُفنيها.

* * *

(٦٨) - ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بيَّنَ ما يكونُ إذا بُدِّلَت الأرضُ وطُوِيت السَّماواتُ والأرض، وهوَ النَّفخُ في الصُّورِ، وإنَّما هما نفختان، يموتُ الخَلقُ في الأوَّلِى منهما، ويَحيون في الثَّانية، والصُّورُ: قرنٌ يَنفخُ فيه إسرافيلُ، وهوَ النَّاقورُ المذكورُ في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨].

﴿فَصَعِقَ﴾؛ أي: ماتَ من الفزعِ وشدَّةِ الهولِ مَن كانَ مِن الأحياءِ في ذلكَ اليومِ.

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قالَ أبو هريرةَ: قالَ النَّبيُّ ﷺ: «همُ الشُّهداءُ مُتقلِّدينَ أسيافَهم حولَ العرشِ»(١).

وفي خبرٍ: «هو جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ وملكُ الموتِ»(٢).

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (٢٣٧)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ١٢٥)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٩٣)، ورواه الحاكم في «المستدرك» (٣٠٠٠) بلفظ: «أن رسول الله ﷺ سأل جبريل عليه السلام عن هذه الآية: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ من الذين لم يشأ الله أن يصعقهم؟ قال: هم شهداء الله عز وجل»، وصححه. وعزاه ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية إلى أبي يعلى، وقال: «رجاله كلهم ثقات إلا شيخ إسماعيل بن عياش فإنه غير معروف».

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الأهوال» (٥٥)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٣٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ضمن حديث طويل وهو حديث الصور المشهور. قال ابن كثير في تفسيره عند الآية (٧٣) من سورة الأنعام: «هذا الحديث مشهور، وهو غريب جدًّا، ولبعضه شواهد في الأحاديث =

وقالَ جابرٌ: موسى ممَّن قد استثناه الله، فلا يَصعقُ؛ لأنَّه صَعِقَ مرَّة[١].

وقالَ قتادةُ: اللهُ أعلمُ بثُنياه[٢].

وقد يكونُ هذا على تأخيرِ إماتتِهم عن النَّفخةِ الأولى إلى وقتٍ آخرَ بعدَه، وهم يموتونَ لا محالةَ قبلَ النَّفخةِ الثَّانية.

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ يعني: النَّفخةَ الثَّانية، وفي الآثارِ: أنَّ بينَ النَّفختينِ أربعينَ سنةً[٣].

= المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة، تفرد به إسماعيل بن رافع قاص أهل المدينة، وقد اختلف فيه: فمنهم من وثقه، ومنهم من ضعَّفه، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة كأحمد بن حنبل وأبي حاتم الرازي وعمرو بن علي الفلاس، ومنهم من قال فيه: هو متروك، وقال ابن عدي: أحاديثه كلها فيها نظر إلا أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء، قلت: وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة، وقد أفردتها في جزء على حدة، وأما سياقه فغريب جدًّا ويقال: إنه جمعه من أحاديث كثيرة وجعله سياقاً واحداً فأنكر عليه بسبب ذلك».

ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٥٥)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ١٢٩)، والبيهقي في «البعث» (٢٣٩)، من حديث أنس رضي الله عنه، ضمن حديث طويل أيضاً، وفيه يزيد الرقاشي وهو ضعيف. وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٢٥٠) إلى الفريابي وعبد بن حميد وأبي نصر السجزي في «الإبانة» وابن مردويه. قال ابن حجر في «فتح الباري» (١١/ ٣٧١): «وسنده ضعيف».

ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٥٤) عن السدي.

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٠٠٤) ط دار كنوز إشبيلية، والثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ١٣٠).

وروى البخاري (٢٤١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لا تُخَيِّروني على موسى، فإن الناس يَصعَقون يومَ القيامة فأَصْعَقُ معهم، فأكونُ أولَ مَن يُفِيق، فإذا موسى باطِشٌ جانبَ العرش، فلا أدري: أكان فيمَن صَعِق فأفاق قَبْلي، أو كان ممَّن استَثْنَى اللهُ؟».

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٥٠)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٧٩).

(٣) الذي رواه البخاريُّ (٤٩٣٥) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون»، =

﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾؛ أي: فإذا الأمواتُ مِن أهلِ الأرضِ والسَّماءِ أحياءٌ قد بُعِثُوا من قبورِهم، وأُعيدَت إليهم أبدانُهم وأرواحُهم، فقامُوا يَنظرون ماذا يُؤمرون، وماذا يُنادى به فيهم.

وقيلَ: هذا النَّظرُ بمعنى الانتظارِ؛ أي: ينتظرونَ ما يُفعَل بهم.

وقيلَ: ينظرُ بعضُهم إلى بعضٍ في حالِ اجتماعِ الأجزاءِ المتفرِّقة.

وقيلَ: الاستثناءُ في قولِه: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ يرجعُ إلى مَن ماتَ قبلَ النَّفخةِ الأولى؛ أي: فيموتُ مَن في السَّماواتِ والأرضِ إلَّا مَن سبقَ موتُه؛ لأنَّهم كانُوا قد ماتوا.

وقيلَ: يرجعُ الاستثناءُ إلى حَمَلةِ العرشِ.

وقيلَ: إلى الحورِ العِينِ والولدانِ في الجنَّةِ.

والملَكُ الَّذي ينفخُ في الصُّورِ مستثنًى لا محالةَ.

وفي الخبرِ: «ثم يُنفَخُ فيه أُخرى، فأكونُ أوَّلَ مَن رفعَ رأسَه، فإذا موسى وهوَ آخذٌ بقائمةٍ مِن قوائمِ العرشِ، فلا أدري أكانَ ممَّن استثنى الله، أو رفعَ رأسَه قبلي»[1].

ومَن حملَ الاستثناءَ على موسى أو الشُّهداءِ، فهؤلاءِ قد ماتوا مرَّةً غيرَ أنَّهم أحياءٌ عندَ الله، فيجوزُ أن تكونَ الصَّعقةُ بزوالِ العقلِ دونَ زوالِ الحياة، ويجوزُ أن تكونَ بالموتِ، **فلا يبعدُ تكرُّرُ الموتِ والحياة، فكلُّ ذلكَ ممَّا يُجوِّزُه العقل، والأمرُ في وقوعِه موقوفٌ على ورودِ خبرٍ صِدقٍ به**، وبحقٍّ قالَ قتادةُ: اللهُ أعلمُ بثُنياه.

***

= قيل: أربعون يوماً يا أبا هريرة؟ قال: أَبَيْتُ. قيل: أربعون شهراً؟ قال: أَبيتُ. قيل: أربعون سنة؟ قال: أَبيتُ.... الحديث.

(١) رواه البخاري (٣٤١٤)، ومسلم (٢٣٧٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه البخاري (٢٤١٢)، ومسلم (٢٣٧٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٦٩ ـ ٧٠) ـ ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾؛ أي: إذا بُعِثوا في النَّفخةِ الثَّانيةِ سِيقُوا إلى موقفِ الحسابِ، وهوَ الأرضُ المذكورةُ هاهنا؛ أي: أنارَت وأضاءَت ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾؛ أي: بعدلِ اللهِ وقضائِه بالحقِّ بينَ عبادِه، والظُّلمُ ظلماتٌ، والعدلُ نورٌ.

قيلَ: يزولُ اللَّيلُ يومَ القيامةِ فيبدو النُّورُ واتِّصالُه خارجاً عن العادةِ في الدُّنيا.

وقيلَ: يخلقُ اللهُ في القيامة نوراً تُشرِقُ الأرضُ به، وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: النُّورُ المذكورُ هاهنا ليسَ من نورِ الشَّمسِ والقمرِ، بل هو نورٌ يخلقُه اللهُ فتُضيءُ به الأرض[1].

وقد ضلَّ قومٌ هاهنا فتوهَّموا أنَّ اللهَ مِن جنسِ النُّورِ والضِّياءِ المحسوسِ، وهوَ مُتعالٍ عن مناسبةِ المحسوساتِ، بل هوَ مُنوِّرُ السَّماواتِ والأرض، فمنه كلُّ نورٍ خَلقاً وإنشاءً.

وقد تهوَّشَ قومٌ فقالَوا: كلُّ موجودٍ سواه فهو شعاعُ نورِه. وهوَ كفرٌ، ومصيرٌ إلى أنَّما تقدُّمُه على العالمِ تقدُّمُ الرُّتبةِ، كتقدُّمِ العلَّةِ على المعلولِ، وإن لم يكن وجودٌ إلَّا وللعالمِ وجود، وهوَ قولٌ بحوادثَ لا أوَّلَ لها.

ثمَّ؛ كيفَ تكونُ الأبالسةُ والشَّياطينُ والأنوارُ والظُّلماتُ شعاعَ نورِه؟!

ثمَّ؛ يجبُ أن لا يكونَ لحجمِ العالمِ نهايةٌ؛ إذ كانَ أثرَ القديمِ الَّذي لا نهايةَ له وشعاعَه، والبِدَعُ فنونٌ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٣٤٢)، وهذا معنى قوله على ما صرح الواحدي، أما لفظه كما أورده الواحدي: «يريد: لا شمس ولا قمر، قد بدلت الأرض غير الأرض إلى أرض فضة لم يعص الله عليها».

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ أي: الكتبُ الَّتي فيها أعمالُ العبادِ في الدُّنيا، كما قالَ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩]؛ ليتأمَّلَ ما يخرجُ من تلك الكتبِ.

وقيلَ: وُضِعَ الكتابُ في أيدي النَّاسِ؛ ليقرأَ كلُّ إنسانٍ صحيفةَ عملِه.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: يريدُ اللَّوحَ المحفوظَ(١).

﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾؛ أي: وأُحضِرَ النَّبيُّون موقفَ الحسابِ ليَشهدوا على أممِهم، ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ يعني: الَّذين يشهدونَ على الكفَّارِ بأعمالِهم من المؤمنين، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فهذه الأمَّةُ يشهدونَ لسائرِ الأنبياءِ بالتَّبليغِ.

وقيلَ: يعني بالشُّهداءِ الحفظةَ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١]، فالسائقُ مَلكٌ يسوقُها إلى الحساب، والشَّهيدُ مَلكٌ يشهدُ عليها، وهوَ الملكُ الموكَّلُ بالإنسان.

وقيلَ: أرادَ بالشُّهداءِ الَّذين استُشهدوا في سبيلِ اللهِ، فيَشهدونَ يومَ القيامةِ لمن ذبَّ عن دينِ اللهِ.

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالصِّدقِ والعدلِ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ أي: لا يُنقَصون من أجورِهم شيئاً.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾؛ أي: يُوصَلُ إلى كلِّ نفسٍ جزاءُ عملِها على التَّمامِ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فلا حاجةَ به إلى كتابٍ ولا إلى شاهدٍ، ومع ذاك تشهدُ الكتبُ والشُّهودُ ليكونَ آكَدَ وأبلغ.

***

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٣٤٣) من رواية عطاء عن ابن عباس.

(٧١ ـ ٧٢) ـ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ هذا بيانُ توفيةِ كلِّ نفسٍ عملَها، فيُساقُ الكافرُ إلى النَّارِ والمؤمنُ إلى الجنَّةِ، والزُّمرُ: الجماعاتُ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾؛ أي: جاؤوا جهنَّم ﴿فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ السَّبعةُ، فيدخلُ كلُّ قومٍ البابَ الَّذي قُسِمَ لهم.

﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾؛ أي: خزنةُ النَّارِ: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾؛ أي: من أنفسِكم ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾؛ أي: ما أنزلَ اللهُ على الأنبياءِ؟

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ هذا اعترافٌ منهم بقيامِ الحجَّةِ عليهم ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ أي: قولُه تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [هود: ١١٩].

﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: فيُقالُ لهم: ادخلوا النَّارَ فهي مَثواكم.

* * *

(٧٣) ـ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا﴾؛ أي: قُضِيَ بينهم بالحقِّ، فسِيقَ الكفَّارُ إلى النَّارِ، والمؤمنون إلى دارِ الـمَبارِّ، والمتَّقونَ يُحشَرون مُكرَمين ركباناً، والمجرِمون يُدَعُّون إلى النَّارِ دعّاً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ﴾، ولم يقل: فُتِحَت، وقالَ المُبرِّدُ: حتَّى إذا جاؤوها سُعِدوا. فصار هوَ أيضاً إلى أنَّ الجوابَ محذوفٌ.

قالَ الزَّجَّاجُ: يعني: إذا جاؤوها دخلوها[1]، وهذا قريبٌ ممَّا تقدَّم.

وقيلَ: أي: حتَّى إذا جاؤوها جاؤوها وفُتِحَت أبوابُها؛ أي: وقعَ مجيئُهم مع فتحِ أبوابِها، وقد يكونُ الحذفُ في مثلِ هذا الموضعِ أبلغَ؛ لاحتمالِ المحذوفِ أموراً كثيرة.

وقالَ الأخفشُ: حتَّى إذا جاؤوها وفُتِحَت أبوابُها قالَ لهم خزنتُها، فالواوُ لغوٌ في قولِه: ﴿وَقَالَ﴾[2]، هذا مذهبُ الكوفيِّين، فإنَّهم يُجوِّزون إدخالَ الواوِ زيادةً.

قُرِئَ: ﴿وَفُتِحَتْ﴾ بالتَّشديدِ والتَّخفيفِ[3].

ثمَّ؛ يفتحُها الموكَّلون بها كالبوَّابين، وذلك قولُه: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: تلقاهم الملائكةُ الموكَّلون بأبوابِ الجنَّةِ بالتَّحيَّةِ والتَّسليمِ؛ أي: السَّلامةِ مِن كلِّ مكروهٍ.

﴿طِبْتُمْ﴾؛ أي: طابَ لكم المقامُ في الجنَّةِ.

ثمَّ؛ هذا إخبارٌ لهم وبشارةٌ.

وقيلَ: دعاءٌ، كما تقولُ: طيَّبَ اللهُ عيشَك.

وقيلَ: طِبتُم في الدُّنيا إذ كنتم طيبين مطيعين، فادخلوا الجنَّة لذلك.

وقيلَ: ﴿طِبْتُمْ﴾؛ أي: طُيِّبُوا قبلَ دخولِهم الجنَّةَ بالمغفرةِ، والطَّيِّبُ: الَّذي زالَت الأقذارُ عنه، ولم يَشُبْهُ ما يُكرَه، فمعنى ﴿طِبْتُمْ﴾: زالَ عنكم شوائبُ الفسادِ فصرتُم بحيث تصلحونَ لجِوارِ الأنبياءِ ولدخولِ الجنَّةِ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٦٣).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (١/ ١٣٢).

(٣) قرأ عاصم وحمزة والكسائي بالتخفيف في الموضعين، وباقي السبعة بالتشديد. انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٤)، و«التيسير» (ص: ١٩٠).

(٧٤) ـ ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾؛ أي: إذا دخلُوا الجنَّةَ قالُوا هذا ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: أرضَ الجنَّةِ، ومعنى الإيراث: أنَّه صارَ إليهم ما كانَ يصيرُ إلى الكفَّارِ لو أسلمُوا.

﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ وذلك أنَّها جنَّاتٌ كثيرة، ولكلِّ واحدٍ جنَّةٌ في غايةِ ما يعلمُه اللهُ من السَّعةِ؛ أي: نتقلَّبُ فيها كما نشاءُ لا يَعترِضُ علينا معترِضٌ.

﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ قيلَ: هذا من قولِهم؛ أي: نعمِ الثَّوابُ هذا.

وقيلَ: مِن قولِ الله عزَّ وجلَّ؛ أي: نعمَ ثوابُ المحسنينِ هذا الَّذي أعطيتُهم.

* * *

(٧٥) ـ ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ وترى يا محمَّدُ الملائكةَ في ذلكَ اليومِ مُحدِقينَ بالعرشِ يُسبِّحونَ اللهَ تعالى ويَحمدونَه عبادةً له وتلذُّذاً بذِكرِه.

قالَ أبو عُبيدةَ: ﴿حَآفِّينَ﴾؛ أي: أطافوا بحِفافَيهِ[1]، والحِفَافُ: ما حفَّ الشَّيءَ؛ أي: أطافَ وأحدَقَ به، وجمعُه: أحِفَّة.

وقالَ الأخفش: ﴿مِنْ﴾ زائدةٌ؛ أي: حافِّينَ حولَ العرشِ، وهوَ كقولِك: ما جاءني من أحدٍ، فـ(من) توكيدٌ[2].

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١٩٢).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٤٩٦).

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾؛ أي: بينَ الخلائقِ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالعدلِ.

﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: حالةُ الملائكةِ يومئذٍ التَّسبيحُ، وحالةُ المؤمنين في الجنَّةِ الحمدُ لله، وقولُه: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: باعترافِهم بأنَّه المستحقُّ للعبادةِ والثَّناءِ والمجدِ، والباءُ عاملةٌ؛ أي: يُسبِّحونَ وبحمدِ اللهِ يُسبِّحونه، كقولِك: سبحانَ اللهِ وبحمدِه؛ أي: وبحمدِه كانَ ذلك.

وقيلَ: جعلَ حمدَهم للهِ من قبيلِ التَّسبيحِ على طريقِ التَّوسُّعِ.

واللهُ تعالى أعلمُ، وحسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ، والحمدُ للهِ وحدَه.

* * *

سُورَةُ غَافِرٍ

تفسيرُ سورةِ غافر

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

قوله ﴿حمٓ﴾ مضى معنى الحروفِ المقطَّعةِ في أوائلِ السُّورِ.

قولُه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: نزلَتْ كتاباً ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾، وسمَّاها كتاباً ليبيِّنَ أنَّها ممَّا يُكتَبُ ويُقرأ ويُتدبَّرُ، وقولُه: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ يرجعُ إلى ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: هيَ كتابٌ من عندِ الله، ويجوزُ أن يرجعَ إلى (التَّنزيلِ)؛ أي: هيَ تنزيلٌ مِن اللهِ كتاباً.

ومَن قالَ: ﴿حمٓ﴾ تعريفٌ للسُّورةِ، كما يُقالُ: بابُ كذا، وبابُ كذا؛ أي: هذا بابُ كذا، فكأنَّه قالَ: هذه حم، ثمَّ ابتدأ فقالَ: تنزيلُ الكتابِ مِن اللهِ يا محمَّدُ عليك، فـ﴿تَنزِيلُ﴾ مبتدأ، وقولُه: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبرُ المبتدأ، كما يُقالُ: تمامُ الفضلِ منك.

ويجوزُ أن يكونَ ﴿تَنزِيلُ﴾ خبرَ مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: هذا تنزيلُ الكتابِ.

ويجوزُ أن يكونَ ﴿حمٓ﴾ مبتدأ و﴿تَنزِيلُ﴾ خبرَه، والمعنى: أنَّ القرآنَ أنزلَه اللهُ، وليسَ مُتقوَّلاً ولا ممَّا يجوزُ أن يُكذبَ به.

* * *

(٣) ـ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾؛ أي: هوَ ساترُ الذَّنب على المُذنِبين، فلا يعاجِلُ الكفَّارَ، ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ لمن يقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ.

وقالَ أبو عُبيدةَ: يجوزُ أن يكونَ ﴿ٱلتَّوۡبِ﴾ مصدراً، يُقالُ: تابَ يتوبُ توباً وتوبةً، مثل: قالَ يقولُ قولاً وقولةً، ويجوزُ أن يكونَ جمعاً للتَّوبةِ[1]؛ أي: يقبلُ التَّوباتِ.

﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ لمن أصرَّ على الكفرِ.

قالَ الكسائيُّ رحمه الله: [﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ نعت للنكرة، تقول: «مررتُ برجلٍ شديدِ البطش»، ولا تقولُ]: «مررتُ بعبدِ اللهِ شديدِ البطشِ» على النَّعتِ، ولكن لـمَّا جاء معَ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ صَلحَ، كما قالَ: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٤ ـ ١٦][2].

وقالَ الزَّجَّاجُ: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ خفضٌ على البدلِ؛ لأنَّه ممَّا يُوصَفُ به النَّكرةُ[3].

﴿ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾؛ أي: ذي الفضلِ على العبادِ، يُقالُ: طالَ على فلانٍ طَولاً؛ أي: تفضَّلَ عليه تفضُّلاً.

وقيلَ: الطَّولُ: الغِنى، كما قالَ: ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا﴾ [النساء: ٢٥]، فقولُه: ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾؛ أي: ذي الغنى عمَّن لا يقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، قاله ابن عبَّاسٍ[4].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ أي: لا يعدلُ طَولَه طولٌ ولا قدرتَه قدرةٌ، وإلى حكمتِه يصيرُ الكلُّ يومَ القيامةِ.

* * *

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١٩٤).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٣٥٦) وما بين معكوفتين منه.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٦٦).

(٤) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ١٦١)، وروى الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٢٦٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٦٤)، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ذي الطول: ذي السعة والغنى».

(٤) ـ ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بيَّنَ أوَّلاً أنَّ القرآنَ منزَّلٌ من عندِ اللهِ، ثمَّ قالَ: لا يُخاصمُ بكتابِ اللهِ الَّذي فيه آياتُه وعلاماتُه على وحدانيَّتِه وصدقِ محمَّدٍ إلَّا الَّذين كفروا، والجدالُ يرجعُ إلى التَّكذيبِ به والجحدِ له.

﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾؛ أي: تصرُّفُهم للتِّجاراتِ؛ فإنِّي وإن أمهلتُهم لا أهمِلُهم، بل أعاقبُهم. قالَ ابنُ عبَّاسٍ: يريدُ تجارتَهم مِن مكَّةَ إلى الشَّامِ وإلى اليمنِ(١).

وقيلَ: لا يغررْكَ ما هم فيه من الخيرِ والسَّعةِ في الرِّزقِ؛ فإنَّه متاعٌ قليلٌ في الدُّنيا.

وقالَ الزَّجَّاجُ: لا يغررْكَ سلامتُهم بعد كفرِهم؛ فإنَّ عاقبتَهم الهلاكُ(٢).

* * *

(٥) ـ ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾؛ أي: كذَّبوا نوحاً ﴿وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾؛ أي: والأممُ الَّذين تحزَّبوا على أنبيائِهم بالتَّكذيبِ نحو عادٍ وثمودَ فمَن بعدَهم، كقولِه: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ [ص: ١٢ ـ ١٣].

---

(١) ذكره عن ابن عباس الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٣٥٦)، وذكره السمعاني في «تفسيره» (٥/ ٦) عن ابن جريج.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٦٦).

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ ﴿كُلُّ﴾ بمعنى الجماعةِ، فلهذا قالَ: ﴿وَهَمَّتْ﴾.

﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾؛ أي: ليقتلوه، والأخذُ يَرِدُ بمعنى الإهلاكِ، كقولِه: ﴿أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٤].

وقيلَ: ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾؛ أي: ليَحبسُوه ويُعذِّبوه.

وقالَ قتادةُ: فيه إضمارٌ؛ أي: ليأخذوه فيقتلوه.

﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾؛ أي: جادلوا رُسلَهم بما لا حقيقةَ له، فقالَوا: ما أنتم إلَّا بشرٌ مثلُنا، ولستُم رسلَ الله.

﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾؛ أي: ليُبطِلوا به الحقَّ الَّذي جاءَت به الرُّسلُ، يُقالُ: موضعٌ دَحْضٌ؛ أي: مزلقةٌ، فالباطلُ داحضٌ لأنَّه ينزلِقُ ويزلُّ فلا يستقرُّ.

﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾؛ أي: بالعذابِ، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؛ أي: عاقبةُ الأممِ المُكذِّبة؛ أي: أليس وجدوه حقّاً.

* * *

(٦) - ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: كالذي حقَّ على الأممِ السَّالفةِ [من][1] العقابِ حقَّت كلمتي على هؤلاءِ أيضاً، فهم عرضةُ العذابِ، ثمَّ فسَّرَ الكلمةَ بقولِه: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: لأنهم، أو بأنهم.

* * *

(١) زيادة لضرورة السياق.

(٧) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ رغَّبَ المجادلين في آياتِ اللهِ في تركِ الجدالِ وفي الإنابةِ إلى اللهِ، وبيَّنَ فضلَ المؤمنين بأنَّ الملائكةَ تستغفرُ لهم، وبيَّنَ أنَّ مِن الملائكةِ مَن يحملُ عرشَه، ومنهم مَن يُطيفُ في العرشِ، والكلُّ يُنزِّهونه عمَّا يصفُه به المشركون.

﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: يسألون لهم المغفرةَ مِن اللهِ ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾؛ أي: يقولونَ: ربَّنا وسعتَ؛ أي: وسعَت رحمتُك وعلمُك كلَّ شيء، فلمَّا نقلَ الفعلَ عن الرَّحمةِ والعلمِ نُصِبَا على التَّفسيرِ.

﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾؛ أي: من الشِّركِ والمعاصي، والمغفرةُ: سترُ الذُّنوبِ.

﴿وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾؛ أي: دينَ الإسلامِ ﴿وَقِهِمۡ﴾؛ أي: اصرفْ عنهم واجعلْ لهم ساتراً من ﴿عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ حتَّى لا يصلَ إليهم.

* * *

(٨) ـ ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ﴾؛ أي: المؤمنين ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾؛ أي: على ألسنةِ رسلِكَ ﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ﴾؛ أي: وأدخلْ معهم الجنَّةَ مَن يَتمُّ سرورُهم به من أقاربِهم ونسائِهم؛ ليكملَ لهم الأُنسُ.

(مَنْ صَلَحَ)؛ أي: مَن وحَّدَ الله.

(٩) - ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: اعصمْهم عن الشِّركِ، وقيلَ: مِن العذابِ.

﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يومَ القيامةِ.

وقيلَ: أي: في الدُّنيا فقد رحمتَه يومئذٍ، ففيه تقديمٌ وتأخيرٌ.

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ أي: دعاءُ الملائكةِ؛ أي: لحوقُ رحمتِك بالعبدِ هوَ الفوزُ العظيم.

* * *

(١٠) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ﴾ ذكرَ حالَ المجادِلين في آياتِ الله؛ أي: تُناديهم الملائكةُ إذا دخلوا النَّارَ فأبغضُوا أنفسَهم أشدَّ البغضِ ورجعُوا عليها باللَّومِ في[١] التَّقصيرِ.

قالَ الكلبيُّ: يقولُ كلُّ إنسانٍ من أهلِ النَّارِ لنفسِه: مقتُّكِ يا نفسُ، فتقولُ الملائكةُ لهم وهم في النَّارِ: لمقتُ اللهِ إيَّاكم إذ أنتم في الدُّنيا وقد بُعِثَ إليكم الرُّسلُ فلم تؤمنوا أشدُّ من مقتِكم أنفسَكم اليومَ[٢].

ويُقالُ: «ناديتُ إنَّ زيداً قائم»، و: «ناديتُ لزيدٌ قائم»، فلهذا قالَ: ﴿يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾، وفيه حذفٌ؛ أي: لمقتُ اللهِ إيَّاكم، وفيه أيضاً تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي:

---

(١) في (أ): «وفي»، ولعل المثبت هو الصواب.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٣٦٢).

لمقتُ اللهِ إيَّاكم إذ تُدعَون إلى الإيمانِ فتكفرونَ أكبرُ من مقتِكم أنفسَكم، ومقتُ اللهِ لهم: ذمُّه لأعمالِهم وإعدادُ العذابِ لهم.

وقيلَ: أي: لمقتُ اللهِ إيَّاكم أكبرُ من مقتِكم أنفسَكم حينَ كنتُم تكفرون إذا دُعيتم إلى الإيمانِ، فجعلَهم ماقِتين لأنفسِهم حينَ كفروا، وهذا كقولِك للغيرِ: إذا أهنتَ نفسَك فغيرُك أشدُّ إهانةً منك لها، وهوَ لم يُهِن نفسَه، ولكنَّه فَعَلَ فِعلَ مَن يهينُ نفسَه.

وقيلَ: أي: لمقتُ اللهِ لكم أكبرُ من مقتِ بعضِكم بعضاً؛ يعني: إذا دخلوا النَّار، فإنَّهم إذا دخلوها تبرَّأ بعضُهم من بعضٍ، وضررُ مقتِ اللهِ إيَّاهم أكبرُ من ضررِ مقتِ بعضِهم لبعضٍ، وهوَ كقولِه: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحجرات: ١١]؛ أي: إخوانكم.

* * *

(١١) ـ ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾؛ أي: لـمَّا نُودوا بما سبقَ وعاينوا ما عاينوا من الحسابِ والعقابِ اعترفوا حينئذٍ بالبعثِ، وببطلانِ قولهم: إنَّما هيَ موتةٌ واحدةٌ وحياةٌ واحدةٌ، وقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾؛ أي: إماتَتَينِ، قيلَ: الموتةُ الأولى كونُهم نطفاً ثُمَّ أحياهم [بنفخِ الرُّوحِ، ثمَّ أَماتهم عند انقضاءِ الأَجَلِ، ثمَّ أَحياهم عند][1] البعثِ، وهوَ كـقـولِه: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٨]؛ أي: كنتم أمواتاً في أصلابِ الآباءِ وأرحامِ الأُمَّهاتِ فأحياكم بنفخِ الرُّوحِ فيكم، ثمَّ يُميتكم ثمَّ يُحييكم يومَ القيامةِ.

---

(١) ما بين معكوفتين وقع مكانه في (أ) كلمة لم تجود، وهو مستفاد من كتب التفسير. انظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٣٥) وعزاه لابن مسعود وابن عباس وقتادة والضحاك، وثمة أقوال أخر في الآية ذكرها المفسرون ومنهم القرطبي في الموضع المذكور.

وقالَ السُّدِّيُّ: أُميتوا في الدُّنيا ثمَّ أُحيُوا في قبورِهم، ثمَّ أُميتوا في قبورِهم ثمَّ أُحيُوا في الآخرةِ[1].

وإنَّما صارَ إلى هذا لأنَّ لفظَ (الميِّتِ) لا ينطلقُ في العُرفِ على النُّطفة، واستدلَّ العلماء بهذا في إثباتِ سؤالِ القبر، ولو كانَ الثَّوابُ والعذابُ للرُّوحِ دونَ الجسدِ فما معنى الإحياءِ والإماتةِ، والروحُ عند مَن يَقصرُ أحكامَ الآخرةِ على الأرواحِ لا يموتُ ولا يتغيَّرُ ولا يفسدُ، وهوَ حيٌّ لنفسِه، ولا يتطرَّقُ[2] إليه موتٌ ولا غشيةٌ ولا فناء.

﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ ومنها إنكارُ البعثِ ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾؛ أي: هل مِن خروجٍ مِن جهنَّم، وهل نردُّ إلى الدُّنيا لنعملَ بطاعتِك؟

* * *

(١٢) ـ ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾؛ أي: لا تُجابُون إلى الردِّ إلى الدُّنيا، ويُقالُ لهم: ذلكَ المقتُ ـ أو: ذلكَ الخلودُ في النَّارِ ـ إنَّما كانَ بأنَّكم كنتُم إذا دُعيتم إلى التَّوحيدِ كفرتم.

﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ﴾؛ أي: الحُكمُ للهِ اليومَ، وقد حكمَ عليكم بالعذابِ.

﴿ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾؛ أي: هوَ المتعالي عن أن يكونَ له شريكٌ، أو لغيرِه حُكمٌ، والعليُّ بمعنى الرَّفيعِ والقاهرِ للأشياءِ، والكبيرِ الَّذي له الأمرُ فما دونَه صغيرٌ مسخَّرٌ له.

* * *

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٩٢).

(٢) في (أ): «ينظرون».

(١٣ ـ ١٤) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ (١٣) فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ جمعَ بينَ إظهارِ الآياتِ وإنزالِ الرِّزقِ لأنَّ بالآياتِ قوامُ الأديانِ وبالرِّزقِ قوامُ الأبدانِ، وهذه الآياتُ هيَ السَّماواتُ والأرضون والشَّمسُ والقمرُ والنُّجومُ والرِّياحُ والسَّحابُ وآثارُ قومٍ هلكوا، وقيلَ: آياتُ القرآنِ.

﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾؛ أي: المطرَ ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾؛ أي: لا يتَّعظُ بهذه الآياتِ فيُوحِّدَ اللهَ إلَّا مَن يتَّعظُ وينيبُ ويرجعُ إلى طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: فكونوا من المنيبين المتذكِّرين.

* * *

(١٥) ـ ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: أنَّه عالي القَدْرِ، وكلُّ خصلةٍ من خصالِ الرِّفعةِ درجةٌ، ولله نهايةُ الكمالِ، فهذا معنى ﴿ٱلدَّرَجَٰتِ﴾.

وقيلَ: أي: يرفعُ درجاتِكم في الجنَّةِ وفي الدُّنيا.

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: خالقُه ومالكُه لا أنَّه محتاجٌ إليه.

وقيلَ: هوَ من قولِهم: ثُلَّ عرشُ فلانٍ؛ أي: زالَ عِزُّه، فهو ذو العرشِ بمعنى ثبوتِ مُلكِه وسلطانِه.

﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾؛ أي: الوحيَ والنُّبوَّةَ والقرآنَ، كما قالَ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وسمَّاه روحاً لأنَّه تقعُ به

الحياةُ في الدِّينِ، ويُقالُ: ألقيتُ عليك حديثَ كذا؛ أي: أفهمتُكه.

﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾؛ أي: من قضائِه.

﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾؛ أي: إنَّما يبعثُ الرُّسلَ للإنذارِ بيومِ البعثِ، وقولُه: ﴿لِيُنذِرَ﴾ يرجعُ إلى الرَّسول، وقيلَ: أي: لينذرَ اللهُ ببعثةِ الرُّسلِ إلى الخلقِ يومَ التَّلاقِ.

وقرأ ابنُ عبَّاس: (لتُنذِرَ) يخاطبُ النَّبيَّ عليه السَّلام[1].

و﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾؛ أي: يوم القيامة؛ أي: يتلاقى أهلُ السَّماءِ وأهلُ الأرضِ.

وقيلَ: يتلاقى العابدون والمعبودون.

وقيلَ: الظَّالمُ والظلومُ.

وقيلَ: يلقى كلُّ إنسانٍ جزاءَ عملِه.

وقيلَ: يلتقي الأوَّلون والآخرون على صعيدٍ واحد.

* * *

(١٦) - ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ يعني: الكافرين، وقيلَ: جميعُ الخَلقِ.

والبروزُ: الخروجُ من القبرِ لا يسترُهم شيءٌ؛ لأنَّ الأرضَ يومئذٍ قاعٌ صفصفٌ.

وقيلَ: أي: لا يستترُ أحدٌ منهم من الله، واليومَ كذلك أيضاً، ولكنَّه خصَّ يومَ القيامةِ بالذِّكرِ لعظمِ ذلكَ اليومِ.

﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾؛ أي: منهم ومِن أعمالِهم.

---

(١) هي رواية عن نافع في غير المشهور عنه. انظر: «جامع البيان في القراءات السبع» للداني (٤/ ١٥٥٠)، ونسبت في «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٢١)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٣)، للحسن، وزاد ابن خالويه نسبتها لليماني، وهو محمد بن السميفع.

﴿لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: يقولُ الله: ﴿لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؟ ثمَّ يجيبُ فيقولُ: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ وقيلَ: يجيبُ العبادُ كلُّهم المؤمنُ والكافر.

وقيلَ: ينادي منادٍ: ﴿لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؟

وخصَّ يومَ القيامةِ لانقطاعِ الدَّعاوي يومئذٍ.

* * *

(١٧) ـ ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾؛ أي: يُقالُ لهم إذا أقرُّوا بالملكِ للهِ وحدَه: يُكافأ كلُّ إنسانٍ بعملِه، يُقالُ: هذا يَجزِي عنك؛ أي: يَقضِي عنك ما لزِمَكَ.

﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: لا يُنقَصُ أحدٌ شيئاً ممَّا عملَه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لا يُؤخِّرُ جزاءَ أحدٍ للاشتغالِ بغيرِه؛ لأنَّه العالِمُ الَّذي لا يعزُبُ عن علمِه شيءٌ.

* * *

(١٨) ـ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾؛ أي: يومَ القيامةِ، والقيامةُ قريبةٌ لأنَّ ما هوَ آتٍ لا محالةَ فهو قريبٌ، والآزفةُ: القريبةُ، من أزِفَ فلانٌ: إذا قربَ، وأسماءُ السَّاعةِ تجري على التَّأنيثِ كالطَّامَّةِ والحاقَّةِ والكاظمة[1]، وكأنَّها ترجعُ إلى الدَّاهيةِ، وأُضيفَ اليومُ

(١) كذا في (أ)، ولم أجد من أسماء القيامة «الكاظمة» وفي كتاب الله ما يغني عنها كـ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ و﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾.

إلى الآزفةِ على تقديرِ: يومَ القيامةِ الآزفةِ، أو يومَ المجادَلةِ الآزفةِ، وعند الكوفيِّين هوَ من بابِ إضافةِ الشَّيءِ إلى نفسِه، مثل: مسجدُ الجامعِ، وصلاةُ الأولى.

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾؛ أي: تزولُ القلوبُ عن أماكنِها لشدَّةِ الأهوالِ فتكونُ عند الحناجرِ، وهيَ الحلاقيمُ.

﴿كَٰظِمِينَ﴾ نصبٌ على الحالِ؛ أي: في حالِ كظمِهم، والكظمُ: الغمُّ والكرب، والكاظمُ: السَّاكتُ على امتلائِه غمّاً وغيظاً، ومنه الكِظامةُ، وفيه توسُّعٌ لأنَّ القلوبَ لا يُقالُ لها: كاظمون، وإنَّما الكاظمون أصحابُ القلوبِ.

وقيلَ: هذا إخبارٌ عن نهايةِ الجزع، كما يُقالُ: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠].

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾؛ أي: من قريبٍ ينفعُ وشفيعٍ يُطاعُ.

* * *

(١٩) - ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾؛ أي: لا يخفَى عليه شيءٌ من أحوالِ العبادِ، والخائنةُ والخيانةُ بمعنًى؛ أي: يعلمُ خيانةَ الأعينِ، وهيَ نظرُ الإنسانِ مُسارَقةً.

وقيلَ: أرادَ النَّظرةَ الخائنةَ، فالخائنةُ صفةٌ للنَّظرةِ وليسَت مصدراً على هذا القولِ.

﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾؛ أي: الضَّمائرُ الَّتي هيَ أخفى من خائنةِ الأعينِ.

* * *

(٢٠) - ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: يُجازي على الطَّاعةِ والمعصيةِ ﴿وَٱلَّذِينَ

﴿يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ قُرِئَ بالياء والتَّاء[1]؛ أي: الأصنامُ ومَن عُبِدَ مِن دونِ اللهِ ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾؛ أي: يومَ القيامةِ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾؛ أي: هوَ القادرُ على المجازاةِ.

ودلَّت الآيةُ على أنَّ المخلوقَ ليسَ له قدرةُ الإيجادِ.

* * *

(٢١) - ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ثمَّ حذَّرَ الكفَّارَ أن ينزلَ بهم من عذابِ الدُّنيا ما نزلَ بالكفَّارِ من قبلُ؛ أي: ما تسيرون في الأرضِ لتُبصروا مساكنَ أقوامٍ كذَّبوا الرُّسلَ فحلَّ بهم العقاب؛ لتعتبروا بذلك، فإنَّ ديارَ أقوامٍ هلكوا كانَت قريبةً من ديارِ العرب، وبلغَهم أيضاً بالاستفاضةِ أخبارُ أقوامٍ هلكُوا كقومِ نوحٍ وقومِ فرعونَ، وكانُوا أشدَّ من هؤلاءِ قوَّةً وأكثرَ أموالاً.

وقرأ ابنُ عامرٍ ﴿**وكانُوا أشدَّ منكم**﴾[2]، وهوَ انصرافٌ من الغيبةِ إلى الخطابِ.

﴿وَءَاثَارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني: الأبنيةَ الَّتي بنوها.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ﴾؛ أي: عذَّبهم بها ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من عذابِه ﴿مِن وَاقٍ﴾ يقيهم العذابَ.

وقال: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ﴾ ولم يقل: كانَت؛ لتقدُّمِ الفعلِ، ولأنَّ تأنيثَ العاقبةِ ليسَ بحقيقيٍّ.

* * *

(١) نافع وهشام عن ابن عامر بالتاء والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٨)، و«التيسير» (ص: ١٩١).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٨)، و«التيسير» (ص: ١٩١).

(٢٢) - ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾؛ أي: حلَّ بهم العقابُ لهذا السَّببِ ﴿فَكَفَرُوا ﴾؛ أي: بآياتِ الله، أو بالشَّرائعِ ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ﴾؛ أي: فأهلَكَهم، ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾؛ أي: قادرٌ على ما يريدُ، والعقوبةُ الشَّديدةُ هيَ المهلكةُ.

***

(٢٣) - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ ذكرَ لهم أمرَ موسى وفرعون، وكانَ بلغَهم ذلك، أو كانَ يمكنُهم معرفةُ ذلك مِن أهلِ الكتابِ.

﴿بِآيَاتِنَا﴾؛ أي: بعلاماتِنا الدَّالةِ على صدقِ موسى ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾؛ أي: حجَّةٍ أبانَت لهم الحقَّ.

ثمَّ؛ قيلَ: هذا السُّلطانُ بالآياتِ والمعجزاتِ، وقيلَ: بالتَّوراةِ.

***

(٢٤) - ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾.

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ﴾ ذكَرهم لأنَّ مدارَ التَّدبيرِ في عداوةِ موسى كانَ عليهم؛ ففرعونُ الملكُ، وهامانُ الوزيرُ، وقارونُ صاحبُ الأموالِ والكنوزِ، وكانَ موسى يطلبُ من فرعونَ تخليةَ بني إسرائيلَ ليخرجوا معه من مصر.

﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ لمَّا عجزُوا عن معارضتِه حملوا المعجزاتِ على السِّحرِ.

***

(٢٥) ـ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾؛ أي: لم يزيدوا على العنادِ، بل عادوا إلى قتلِ بني إسرائيلَ؛ لئلا يَكثرَ جمعُهم فيعتضِدوا بالذُّكورِ من أولادِهم، وليتركوا اتِّباعَ موسى خوفاً على أولادِهم، وكانَ فرعونُ أمرَ بقتلِ الأولادِ وقتَ ولادةِ موسى، ثمَّ تركوا، ثمَّ عادوا الآن إلى ذلكَ عقوبةً لبني إسرائيلَ، فشغلَهم اللهُ عن ذلكَ بما أنزلَه عليهم من أنواعِ العذابِ كالضَّفادعِ والقُمَّلِ والدمِ والطُّوفانِ إلى أن خرجُوا من مصرَ فأغرقهم الله، وهذا معنى قوله: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴾؛ أي: لا يصلون إلى مقصودِهم.

***

(٢٦) ـ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾؛ أي: همَّ بقتلِ موسى، وكأنَّه كانَ في قومه مَن يمنعُه عن قتله فقالَ فرعون: دعوني أُمضي رأيي في قتله، فلا يَهُولنَّكم ما يَذكُرُ من ربِّه فإنَّه لا حقيقةَ له وأنا ربكم الأعلى.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾؛ أي: عبادتَكم إلى عبادة ربِّه ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾؛ أي: إن لم يبدل دينكم فإنَّه يُظهر الفسادَ إذ يقعُ بين النَّاس بسببه الخلافُ.

وقُرِئَ: ﴿وأنْ يُظْهِر﴾؛ أي: أخافُ إبطالَ دينِكم والفسادَ معه، فكأنَّه خاف الأمرين، أو هما شيءٌ واحدٌ فلوَّن العبارة له.

وقُرِئَ: ﴿أو أنْ يَظهرَ﴾ بفتحِ الياء ﴿الفسادُ﴾ بالرَّفعِ[(1)].

* * *

(٢٧) - ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ لمَّا هدَّدَه فرعونُ بالقتلِ استعاذَ موسى باللهِ ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾؛ أي: مُتعظِّمٍ عن الإيمانِ باللهِ، وصفتُه أنَّه ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

* * *

(٢٨) - ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ لـمَّا تشاوروا في قتلِه علمَ به مؤمنُ آلِ فرعونَ فوعظَهم، قيلَ: كانَ رجلاً من قراباتِ فرعونَ، ولهذا قالَ: ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، ولم يؤمنْ منهم إلَّا رجلٌ واحد، وفيه تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ؛ أي: لا تتعجَّب ممَّن آمَنَ من مشركي قومِك، وكانَ هذا رجلٌ له وجاهةٌ عند فرعونَ فلهذا لم يتعرَّض له بسوءٍ.

وقيلَ: كانَ هذا الرَّجلُ من بني إسرائيلَ، وكانَ يكتمُ إيمانَه من آلِ فرعون، وفي الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: وقالَ رجلٌ مؤمنٌ يكتمُ إيمانَه مِن آلِ فرعون.

---

(١) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر بالواو، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿أَوْ أَن﴾ بألف قبل الواو. وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص: ﴿يُظْهِرَ﴾ بضم الياء وكسر الهاء ﴿فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ بالنصب والباقون بفتح الياء والهاء و﴿الفسادُ﴾ بالرفع. انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٩)، و«التيسير» (ص: ١٩١).

وفيه بعدٌ؛ لأنَّه يُقالُ: كتمَه أمرَ كذا، ولا يُقالُ: كتمَه منه، قالَ اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، وأيضاً ما كانَ فرعونُ يَحتمِلُ من بني إسرائيلَ مثلَ هذا القول.

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: رجلاً لا ذنبَ له، وإنَّما يقولُ: مالكي ومدبِّري إلهٌ واحدٌ، وقد بيَّنَ صحَّةَ ما قالَه بأن جاءَكم بالمعجزاتِ من العصا واليدِ البيضاءِ وغيرِهما من الحججِ الواضحةِ العقليَّة.

﴿أَن يَقُولَ﴾؛ أي: لأنْ يقولَ، ومِن أجلِ أن يقولَ.

﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾؛ أي: لا يضرُّكم كذبُه ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾؛ أي: يُصبْكم العذابُ بعضُ الَّذي يعدُكم، قيلَ: ﴿بَعْضُ﴾ بمعنى: كلٍّ؛ لأنَّ البعضَ إذا أصابَهم أصابَهم الكلُّ لا محالةَ لدخولِه في الوعدِ، وهذا ترقيقُ الكلامِ في الوعظِ.

وقيلَ: أي: يصبْكم هذا العذابُ الَّذي يقولُه في الدُّنيا، وهوَ بعضُ الوعدِ، ثمَّ يترادفُ العذابُ في الآخرةِ أيضاً.

وقيلَ: أخبرَ موسى فقالَ: ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٨] فعمَّم، فإذا كذَّبَه فرعونُ وقومُه وأصابَهم العذابُ، فهوَ بعضُ العذابِ الَّذي توعَّدَ به جملةَ المُكذِّبين.

وقيلَ: وعدَهم العذابَ إن كفروا، والثَّوابَ إن آمنوا، فإذا كفرُوا يصيبُهم بعضُ ما وعدَ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾؛ أي: مُفترٍ.

* * *

(٢٩) - ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ﴾ أضافَهم إلى نفسِه فقالَ: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ ليكونوا أقربَ إلى قَبولِ وعظِه.

﴿لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: فاشكروا اللهَ على ذلكَ ﴿ظَٰهِرِينَ﴾ نُصِبَت على الحالِ؛ أي: في حالِ ظهورِكم، وأرادَ: إنَّكم غالبون جميعَ ملوكِ الأرضِ.

وقيلَ: أرادَ بالأرضِ أرضَ مصرَ، كقولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١]؛ أي: في أرضِ مصرَ.

﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فمَن يمنعُنا من عذابِ الله ﴿إِن جَآءَنَا﴾ إن كانَ موسى صادقاً، فلمَّا سمعَ فرعونُ هذا قال ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ لنفسي، وقيلَ: أي: ما أُريدُ لكم إلَّا ما أُريدُ لنفسي ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾؛ أي: ما أدعوكم إلَّا إلى طريقِ الهدى.

ثمَّ؛ قيلَ: هذا الرَّجلُ كانَ يكتمُ إيمانَه ويُظهرُ أنَّه على رأيِ فرعون؛ أي: الوجهُ أن يُؤخَّرَ أمرُه؛ فإن كانَ كاذباً فعن قريبٍ ينكشفُ للنَّاسِ كذبُه إنَّ اللهَ لا يهدي المسرف الكذاب؛ أي: أوهَمَ فرعونَ أنَّه يريدُ به موسى، وهوَ يريدُ في نفسِه فرعون.

وقيلَ: لا، بل أظهرَ الإيمانَ؛ أي: أنَّه كانَ يكتمُه قبلَ هذا، ولهذا قالَ: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾، وذكَرَ من أمرِ يوسفَ ما ذكَرَ، وكلُّ ذلكَ تصريحٌ بتصديقِ الأنبياءِ والإيمانِ بالبعثِ، وكانَ مُعترفاً بشيءٍ من ذلك، وأظهرَ هذا الرَّجلُ ما أظهرَ إمَّا مُستسلِماً مُوطِّناً نفسَه على القتلِ، أو واثقاً بأنَّهم لا يقصدونه بشرٍّ.

ومَن قالَ بالأوَّلِ قالَ: لعلَّ قولَه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ مِن قولِ موسى، **وهذا بعيدٌ**.

واسمُ مؤمنِ آلِ فرعونَ حزقيلُ، وقيلَ: سمعان، وقيلَ: حبيب.

(٣٠) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ﴾؛ أي: زادَهم في الوعظِ فقالَ: إنِّي أخافُ أن يحلَّ بكم ما حلَّ بالأحزابِ الَّذين كذَّبوا الرُّسلَ، فتجمَّعُوا عليهم بالتَّكذيب وتحزَّبُوا.

* * *

(٣١) ـ ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾؛ أي: مثلَ السُّنَّةِ والعادةِ في قومِ نوحٍ والعذابِ[١] ﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾؛ أي: لا يُعذِّبُ قبلَ اتِّخاذَ الحجَّةِ عليهم بإرسالِ الرُّسلِ، والظُّلمُ ـ وإن استحالَ منه ـ فيجوزُ أن يُقالَ: لا يريدُه، كما أنَّ الولدَ محالٌ في وصفِه، وجازَ أن يقولَ: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [الزمر: ٤]؛ لأنَّ المرادَ في الموضعين تحقيقُ نفيِ الظُّلمِ والولدِ.

وقيلَ: وما اللهُ يريدُ ظلماً للمؤمنين الَّذين علمَ أنَّهم لا يَظلِمون، فهو عامٌّ أُريدَ به التَّخصيصُ، كقولِه تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦].

وقال: ﴿يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ ولم يقل: أيَّامِ الأحزابِ؛ لأنَّه أرادَ الزَّمان، والزَّمانُ عامٌّ للأوقات، ولو قالَ: «أيَّام» لجازَ، ولو نزلَ بهم العذابُ ليلاً لجاز أن يقولَ: أخافُ عليكم مثلَ يومِهم، فعُلِمَ أنَّ المرادَ باليومِ الزَّمانُ.

* * *

(٣٢) ـ ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾؛ أي: التَّنادي يومَ القيامةِ، فيُنادي أهلُ الجنَّةِ أهلَ النَّارِ، وأهلُ النَّارِ أهلَ الجنَّةِ.

---

(١) أي: مثل حالهم في العذاب. انظر: «البسيط» (١٩/ ٣٨٤).

وقيلَ: هذه المناداةُ أن يُدْعى كلُّ قوم[1] بإمامهم.

قالَ أبو عليٍّ: ويجوزُ أن يكونَ هذا مخفَّفاً من التَّنادِّ، وهوَ التَّنافُرُ، يُقالُ: ندَّ فلانٌ؛ أي: هربَ[2].

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ وقرأ: (التَّنادِّ)[3] بالتَّشديدِ: يَنِدُّون كما تنِدُّ الإبلُ[4]؛ أي: إذا سمعوا زفيرَ النَّار ندُّوا هراباً، فلا يأتون قطراً إلَّا وجدوا الملائكةَ صفوفاً، فيرجعونَ إلى المكانِ الَّذي كانُوا فيه.

وقيلَ: فيه إضمارٌ؛ أي: أخافُ عليكم عذابَ يومِ التَّنادِ.

وقيلَ: سُمِّيَ يومُ القيامةِ يومَ التَّنادِ؛ لأنَّ الكافرَ ينادي على نفسِه بالويلِ والثُّبورِ والاستغاثة.

***

(٣٣) ـ ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾؛ أي: تلتمسونَ الفِرارَ مِن العذابِ.

وقيلَ: تنصرفونَ من الحسابِ إلى النَّارِ.

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ قيلَ: أي: مَن ضلَّ عن أمرِ اللهِ وبيانِه، فلا يهديه؛ إذ لا بيانَ أشفى من بيانِ القرآن.

وقيلَ: مَن ضلَّ عن ثوابِ اللهِ وعن الجنَّةِ فلا يهديه أحدٌ.

والصَّحيحُ: مَن خلقَ اللهُ في قلبِه الضَّلالَ فلا هاديَ له.

---

(١) في (أ): «نفس»، والتصويب من «تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٥٣).

(٢) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٦/ ١٠٤).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٣)، و«المحتسب» (٢/ ٢٤٣).

(٤) رواه ابن الأنباري في «الزاهر» (٢/ ٣٥٩) من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣٤) - ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ هذا من تمامِ وعظِ مؤمنِ آلِ فرعونَ، ذكَّرَهم قديمَ عُتوِّهم على الأنبياءِ، وأرادَ يوسفَ بنَ يعقوبَ جاءَهم من قبلُ بالبيِّناتِ: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، أو جاءَهم بالمعجزاتِ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: هوَ يوسفُ بنُ إبراهيمَ [بن يوسف] بنِ يعقوبَ [1].

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: بالمعجزاتِ ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبلِ مُوسى.

﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ﴾؛ أي: أسلافُكم كانُوا في شكٍّ ﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ﴾ مَن يدَّعي الرِّسالةَ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثلَ ذلكَ الضلالِ ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾؛ أي: مشرِكٌ ﴿مُّرْتَابٌ﴾؛ أي: شاكٌّ في توحيدِ اللهِ تبارك وتعالى.

* * *

(٣٥) - ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ قالَ الزَّجَّاجُ: أي: كذلك يضلُّ اللهُ الَّذين يجادلونَ في آياتِ الله، فـ﴿الَّذِينَ﴾ نصبٌ.

---

(١) ذكره الكرماني في «لباب التفاسير» (٨/ ٩٤)، والقرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٣٥٦)، ودون نسبة مكي في «الهداية» (١٠/ ٦٤٣١)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤/ ٥٥٩). وما بين معكوفتين من هذه المصادر، ووقع عند القرطبي فقط: «إفرائيم» بدل «إبراهيم»

قال: ويجوزُ أن يكونَ رفعاً؛ أي: هم الَّذينَ يجادلون[1].

أو ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأٌ، وخبرُه ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾.

ثمَّ؛ قيلَ: هذا من كلامِ مؤمنِ آلِ فرعونَ.

وقيلَ: ابتداءُ خطابٍ مِن اللهِ.

﴿يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في إبطالِ آياتِ اللهِ تبارك وتعالى ودفنِها.

﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾؛ أي: كبُرَ جدالُهم مقتاً، كقولِه: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ [الكهف: ٥]، ومقتُ اللهِ: ذمُّه ولعنُه لهم وإحلالُ العذابِ بهم.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: كما طبعَ على قلوبِهم يطبعُ ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾؛ أي: يختمُ عليه ويقفلُ حتَّى لا يعقلَ الرَّشادَ ولا يقبلَ الحقَّ، ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾؛ أي: عن التَّوحيدِ ﴿جَبَّارٍ﴾ قيلَ: قتَّالٍ من غيرِ حقٍّ.

قُرِئَ: ﴿قَلْبٍ﴾ بالتَّنوينِ، وقُرِئَ: ﴿قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ بالإضافةِ[2].

***

(٣٦ ـ ٣٧) ـ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾ لـمَّا قالَ مؤمِنُ آلِ فرعونَ ما قالَ، وخافَ فرعونُ أن يتمكَّنَ كلامُ هذا المؤمنِ في قلوبِ القومِ، أوهَمَ أنَّه يمتحِنُ ما جاءَ به موسى من التَّوحيدِ، فإنْ بانَ له صوابُه لم يُخْفِه عنهم، وإنْ لم يصحَّ ثبَّتَهم على دينِهم.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٧٤).

(٢) قرأ بالتنوين أبو عمرو وابن ذكوان، والباقون بترك التنوين. انظر: «السبعة» (ص: ٥٧٠)، و«التيسير» (ص: ١٩١).

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ إمَّا جاهلاً بأنَّه لا يمكنُه الوصولُ إلى السَّماءِ وبأنَّ اللهَ لا يحتاجُ إلى مكانٍ، وإمَّا مغالِطاً للضَّعفةِ من قومِه ليتمكَّنَ منهم: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ﴾ هوَ وزيرُ فرعونَ ﴿ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾؛ أي: قصراً عالياً ظاهراً.

﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ يعني: الطُّرقَ من سماءٍ إلى سماءٍ، وقيلَ: لعلِّي أبلغُ أبوابَ السَّماءِ والطُّرقَ الموصلةَ إليها.

﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾؛ أي: فأنظرَ إليه نظرَ مُشرِفٍ عليه؛ توهُّماً أنَّه جسمٌ تحويه الأماكنُ، وكانَ فرعونُ يدَّعي الإلهيَّةَ، ويرى تحقيقَها بالجلوسِ في مكانٍ مُشرِفٍ.

ثمَّ قالَ: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾، وإنَّما أفعلُ ما أفعلُ لإزاحةِ العلَّةِ، وهذا يُوجِبُ شكَّ فرعونَ في أمرِ الله.

وقيلَ: إنَّ الظنَّ بمعنى اليقينِ؛ أي: وأنا أتيقَّنُ أنَّه كاذب، وإنَّما أقولُ ما أقولُه لإزاحةِ الشُّبهةِ عمَّن لا يُتقنُ ما أتقنُه.

قُرِئَ: ﴿فأطَّلعُ﴾ بالرَّفعِ عطفاً على قوله: ﴿أَبْلُغُ﴾، وقُرِئَ: ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ بالنَّصبِ[1]، وهوَ جوابُ ﴿لَّعَلِّىٓ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾؛ أي: مثلَ ما وصَفْنا زَيَّنَ الشَّيطانُ ـ أو زَيَّنَ اللهُ ـ لفرعونَ سوءَ عملِه؛ أي: الشِّركَ والتَّكذيبَ بالأنبياءِ.

﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: صدَّه الشَّيطانُ ـ أو صدَّه الله[2] ـ عن سبيلِ الهدى.

وقُرِئَ: ﴿وصَدَّ﴾ بفتحِ الصَّادِ[3]؛ أي: صَدَّ فرعونُ النَّاسِ عن السَّبيلِ.

---

(١) هي قراءة حفص، والباقون بالرفع. انظر: «السبعة» (ص: ٥٧٠)، و«التيسير» (ص: ١٧٢).

(٢) في (أ): «أو صده الشيطان» وهو تكرار لا معنى له، والمثبت مما ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٣٩٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) قرأ عاصم وحمزة والكسائي بضم الصاد؛ والباقون بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ٥٧١)، و«التيسير» (ص: ١٣٣).

﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ يعني بناءَه الصَّرحَ، ومجادلتَه موسى، وقولَه: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٤]، وإيهامَه أنَّه يطَّلعُ على اللهِ ﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾؛ أي: خسارٍ وهلاكٍ، ومنه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١]، وقولُه: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١]، وفي موضعٍ: ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣].

***

(٣٨ ـ ٤٠) ـ ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ﴾ هذا من تمامِ ما قالَه مؤمِن آلِ فرعونَ؛ أي: اقتدُوا بي في الدِّينِ ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾؛ أي: طريقَ الهُدى.

﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾؛ أي: لا تغترُّوا بالدُّنيا؛ فإنَّ التَّمتُّعَ بها في أيَّامٍ قليلةٍ ثمَّ ينقطعُ ويزولُ ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ﴾؛ أي: في الجنَّةِ ﴿هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ الَّتي لا تزولُ، وعنى بالآخرةِ: الجنَّةَ والنَّارَ؛ لأنَّهما لا تفنيان.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾؛ أي: مَن عملَ معصيةً فله العقابُ، وهوَ ممَّا يَسوؤُه.

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ قالَ ابنُ عبَّاسٍ: يريدُ قولَه: لا إلهَ إلَّا الله[١] ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ صدَّق بقلبِه الله والأنبياء ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ على اللهِ لأحَدٍ؛ لأنَّه المالكُ وهوَ المعطي.

وقيلَ: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: بغيرِ خوفٍ أن ينقصَ ما عنده بالعطاءِ.

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٤).

(٤١ ـ ٤٤) ـ ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: عاقبةُ ما تدعون إليه النَّارُ، وعاقبةُ ما أدعو إليـ[ـه] الجنَّةُ، فبيَّنَ أنَّ ما قالَ فرعونُ سبيلُ الغيِّ.

قولُـه عـزَّ وجـلَّ: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ﴾ وعاقبتُـه النَّـارُ، ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾؛ أي: إلـى ديـنِ الله، وقولُـه: ﴿لِأَكْفُرَ﴾؛ أي: إلـى أن أكفـرَ، يُقـالُ: دعوتُـه لكذا وإلـى كذا.

﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ أي: لا عِلمَ لي بأنَّه شريكٌ له.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ أي: تدعونني إلى عبادةِ غيرِ اللهِ، ولا نفعَ فيه، وما لا نفعَ فيه فوجودُه وعدمُه سواءٌ.

﴿لَا جَرَمَ﴾؛ أي: حقّاً، وهيَ كلمةُ تحقيقٍ تُستعمَلُ بعدَ كلامٍ قد سبق؛ أي: قد تحقَّقَ أن ما تدعونني إليه ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾؛ أي: الدُّعاءُ إلى عبادتِه لا يجلبُ نفعاً، فالدُّعاءُ إليه باطلٌ، فدخولُ ﴿لَا﴾ لردِّ قولِهم، و(جَرَمَ) بمعنى: وَجَبَ، و﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾؛ أي: لا يستجيبُ لأحدٍ ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ أي: ليسَ له دعوةُ استجابةٍ، فحُذِفَ المضاف.

وقيلَ: ليسَ له دعاءٌ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ؛ لأنَّه جمادٌ لا ينطقُ.

وقيلَ: لأنَّ الأصنامَ لم تأمرْ في الدُّنيا بعبادتِها ولم تَدْعُ أحداً إلى نفسِها، وهيَ في الآخرةِ تتبرَّأُ مِن عابديها.

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: وحقّاً أنّا نُردُّ إليه يومَ القيامةِ، فلا حُكمَ فينا لغيرِه، ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ الَّذين تعدَّوا حدَّ اللهِ ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾؛ أي: إذا قاسيتُم العذابَ، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: أتوكَّلُ عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: كلُّ هذا من قولِ حزقيلَ مؤمِنِ آلِ فرعونَ[1].

قالَ مقاتلٌ: ثمَّ هربَ هذا المؤمنُ إلى الجبلِ، وطلبوه فلم يَقْدِروا عليه[2].

* * *

(٤٥ ـ ٤٦) ـ ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾؛ أي: طلبوه فما وجدوه؛ لأنَّه فوَّضَ أمرَه إلى اللهِ فوقاه اللهُ شرَّ آلِ فرعونَ ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: أحاطَ بأتباعِ فرعونَ ما ساءَهم مِن عذابِ اللهِ.

وقيلَ: الكنايةُ في ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ ترجعُ إلى موسى، والمرادُ بهذا العذابِ أنَّهم غرقُوا في البحرِ، ثمَّ حقَّت كلمةُ العذابِ عليهم، فأُدخِلوا النَّارَ.

قولُه تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: بعد أن غرقوا يُعرَضُون على النَّارِ

---

(١) ذكر الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٣٩٦) عن الكلبي.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧١٥).

﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ ما دامُوا في البرزخِ، فإذا صارُوا في الآخرةِ أُدخِلوا حينئذٍ أشدَّ العذابِ، وهذا لأنَّه يدلُّ[1] على سؤالِ القبرِ.

وقالَ ابنُ مسعودٍ: أرواحُ آلِ فرعونَ في أجوافِ طيورٍ سودٍ يُعرضون على النَّارِ كلَّ يومٍ مرَّتين، فيُقالُ: يا آلَ فرعونَ هذه دارُكُم[2].

وقيلَ على هذا: روحُ كلِّ كافرٍ ومؤمنٍ تُعرَضُ على النَّارِ والجنَّة، ولكنَّ آلَ فرعونَ يُخصُّون بأشدِّ العذاب في العرضِ كما يُخصُّون في الآخرةِ بأشدِّ العذابِ، كما قالَ: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

وقالَ قومٌ: تُردُّ إليهم أرواحُهم حينَ العرضِ غدوًّا وعشيًّا ثمَّ يُعرَضون على النَّارِ.

وفي قدرةِ اللهِ تبارك وتعالى مُتَّسعٌ، فإذا وردَ الظاهرُ وكانَ مُمكِناً في العقلِ فيجبُ التَّصديقُ، ويجوزُ التَّأويلُ إذ لم يمنعْ منه إجماعٌ، والسَّلفُ ما كانُوا يُؤوِّلون هذا، فأمَّا الموضعُ الَّذي يستحيلُ في العقلِ الإجراءُ على الظَّاهرِ فيجبُ التَّأويلُ.

وعند المعتزلةِ: الزَّجرُ والوعيدُ والتَّحذيرُ على أهلِ التَّكليفِ ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ ما داموا في الدُّنيا أحياءً، فإذا قامَت القيامةُ أُدخِلوا أشدَّ العذاب، ففي الدُّنيا يُكرَّرُ عليهم ذكرُ النَّار، ثمَّ في الآخرةِ يُقاسُون النَّار. . . إلى أمثالِ هذا التَّأويلِ ممَّا يستخفُّ به العاقل.

قولُه تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ﴾؛ أي: يُقالُ للملائكةِ: أدخِلُوهم النَّارَ، وقُرِئَ: ﴿ٱدْخُلُوا﴾ بضمِّ الألفِ[3]؛ أي: يُقالُ لهم: يا آلَ فرعونَ، ادخُلوا النَّارَ، وإذا دخلَ آلُ فرعونَ النَّارَ

---

(١) كذا في (أ)، ولعلها: «وهذه الآية تدل»، ولكل وجه.

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٦٨٤)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤١٦٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٤٣٥).

(٣) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة عن عاصم بوصل الهمزة وضم الخاء، وقرأ =

وهم الأتباعُ، ففرعونُ أَولى بذلك، قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨].

وقيلَ: آلُ فرعونَ قومُه.

وقيلَ: أهلُ دينِه.

و﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ إشارةٌ إلى الدَّركِ الأسفلِ من جهنَّمَ، فهم والمنافقون ثَـمَّ.

وقيلَ: عذابُهم أشدُّ من عذابِ كفَّارِ أمَّتنا.

***

(٤٧ ـ ٤٨) ـ ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: يُقالُ لهم: ادخُلوا النَّارَ يومَ تقومُ السَّاعةُ ويومَ يتحاجُّونَ في النَّارِ؛ لأنَّ (إذ) اسمٌ للوقت.

وقيلَ: واذكر إذ يتحاجُّون.

والمعنى: أهلُ النَّارِ يُخاصِمُ بعضُهم بعضاً في النَّارِ ﴿فَيَقُولُ﴾ الأتباعُ ﴿ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ عن الانقيادِ للأنبياءِ: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في ما دعوتُمونا إليه من الشِّركِ، ﴿فَهَلْ أَنتُم﴾ مُتحمِّلون عنَّا قَدراً مِن العذابِ ليَلحَقَنا تخفيفٌ، فيقولُ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾: إنَّا معكم في النَّارِ فليس لنا على أنفسِنا وعليكم حُكمٌ، فلا يتحمَّلُ أحدٌ عن أحدٍ شيئاً ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾؛ أي: مُجتمِعون فيها.

= نافع وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم بقطع الهمزة مفتوحة وكسر الخاء. انظر: «السبعة» (ص: ٥٧٢)، و«التيسير» (ص: ١٩٢).

(٤٩ ـ ٥٠) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ إذا أَيِسَ بعضُهم من بعضٍ أَمَّلُوا الفرجَ عندَ خزنةِ جهنَّمَ، فقالَوا لهم: سلُوا ربَّكم أن يُزيلَ عنَّا مقدارَ يومٍ من أيَّامِ الدُّنيا العذابَ. والخَزَنةُ: جمعُ خازنٍ، مثلَ: ظالمٍ وظَلَمةٍ.

﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم﴾؛ أي: فتُجيبُ الخزنةُ ويقولون: ألم تأتِكم الأنبياءُ بالمعجزاتِ؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾، أتتنا الرُّسلُ، ولكنَّا كذَّبنا، فيقولون: ﴿فَٱدْعُوا۟﴾ أنتم، فقد لزمَتكم الحجَّةُ، وحقَّت كلمةُ العذابِ، ولا تبديلَ لكلماتِ اللهِ، ولا سبيلَ لنا إلى الدُّعاءِ والشفاعةِ إلَّا بإذنِ الله.

﴿وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾؛ أي: ما دعاؤُهم لأنفسِهم بالتَّخفيفِ إلَّا في بُطلانٍ، وهذا مِن قولِ خزنةِ النَّارِ، أو مِن قولِ اللهِ سُبحانَه وتعالى.

* * *

(٥١) ـ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: نصَرْنا موسى والمؤمنَ الَّذي وَعَظَ، ونحنُ ننصرُ رسلَنا والمؤمنين ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾، والنُّصرةُ: المنعُ والانتقامُ لهم من الأعداءِ.

وقيلَ: هذا النَّصرُ بإعلاءِ الحججِ وإنارةِ الدَّلائلِ، فأمَّا الظفرُ فقد لا يكونُ في الدُّنيا كزكريا ويحيى وجرجيس، فإنَّهم قُتِلوا في الدُّنيا، وإنَّما ينتقمُ من الأعداءِ في الآخرةِ، أو بعد انقضاءِ زمانِهم.

وقيلَ: هوَ خاصٌّ بالرُّسلِ الَّذين نصرَهم اللهُ عزَّ وجلَّ في الدُّنيا فأهلكَ قومَهم مثل نوحٍ وإبراهيمَ وموسى وعيسى ومحمَّدٍ عليهم السَّلام.

﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾؛ أي: يومَ القيامةِ، والأشهادُ: الحَفَظةُ من الملائكةِ يشهدونَ للرُّسلِ بالتَّبليغِ وعلى الكفَّارِ بالتَّكذيبِ، وكذلكَ الأشهادُ من الأنبياءِ والمؤمنين.

وقيلَ: أي: يقومُ من القبرِ مَن يحضُرُ القيامةَ فهم الأشهادُ؛ أي: يظهرُ حالُ كلِّ إنسانٍ على رؤوسِ الأشهادِ.

قالَ المُبرِّدُ: ﴿ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾: جمعُ شاهدٍ، مثلَ طائرٍ وأطيارٍ، أو جمعُ شهيدٍ، مثلَ شريفٍ وأشرافٍ، ويتيمٍ وأيتامٍ[1].

***

(٥٢) - ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾؛ أي: لا تنفعُ المشركين توبتُهم، ﴿وَلَهُمُ﴾؛ أي: وللظَّالمين ﴿ٱللَّعْنَةُ﴾ مِن اللهِ والملائكةِ والأنبياءِ والمؤمنين ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾؛ أي: سوءُ المنقلَبِ، وهوَ النَّار.

***

(٥٣ - ٥٤) - ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۝ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ هذا داخلٌ في نُصرةِ الرُّسل؛ أي: آتيناه التَّوراة والحكمة ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾؛ أي: جعلنا التَّوراةَ لهم ميراثاً يتوارثونه، ويُسمَّون أهلَ الكتاب.

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٣٠١).

[﴿هُدًى﴾ بدل من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾][1].

وقيلَ: ﴿هُدًى﴾؛ أي: هوَ هدى؛ يعني: ذلكَ الكتاب.

﴿وَذِكْرَىٰ﴾؛ أي: موعظة.

* * *

(٥٥) ـ ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ كما نَصرتُ موسى وبني إسرائيلَ أنصرُكَ، فاصبرْ على الدُّعاءِ إلى ديني فإنَّ وعدي في نصرِك حقٌّ.

وقيلَ: نُسِخَ هذا بآيةِ السَّيفِ.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾؛ أي: الصَّغائرِ على قولِ مَن يُجوِّزُها على الأنبياءِ، ومَن قالَ: «لا تجوزُ» قالَ[2]: هذا تعبُّدٌ للنَّبيِّ عليه السَّلام بالدُّعاءِ، كما قالَ: ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا﴾ [آل عمران: ١٩٤]، والفائدةُ: زيادةُ الدَّرجاتِ وأن يصيرَ الدُّعاءُ سنَّةً لـمَن بعدَه.

وقيلَ: فاستغفرِ اللهَ من ذنبٍ صدرَ منك قبلَ النُّبوَّة.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ يعني: صلاةَ الفجرِ وصلاةَ العصرِ.

وقيلَ: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾؛ أي: بالشُّكرِ له وبالثَّناءِ عليه.

وقيلَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾؛ أي: استدمِ التَّسبيحِ في الصَّلاةِ وخارجاً منها؛ لتشتغلَ بذلك عن استعجالِ النَّصرِ.

* * *

---

(١) ما بين معكوفتين من «تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٧١).

(٢) في (أ): «أي»، والمثبت «تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٧١).

(٥٦) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾؛ أي: من غيرِ حجَّةٍ، ولكن للتكبُّرِ عن قَبولِ الحقِّ، وما هم ببالغي هذا الكبرِ الَّذي في صدورِهم؛ أي: هذا التَّعظُّمُ لا يتمُّ لهم، بل أنصرُك حتَّى ينقادوا لك أو أهلكَهم.

وقيلَ: أي: يتوهَّمون أنَّ العزَّ في تركِ الانقيادِ لك وما هم ببالغي ذلكَ الظنِّ، بل أُصيِّرُهم إلى الذُّلِّ والهوانِ في الدُّنيا والآخرة.

وقيلَ: أي: يحسدونَكَ على النُّبوَّةِ وما هم ببالغي هذه المرتبةِ.

وقيلَ: الكِبرُ يعني: الأمرَ الكبيرَ؛ أي: يطلبونَ النُّبوَّةَ، أو أمراً كبيراً يصلونَ به إليك من القتلِ ونحوِه، ولا يبلغون ذلك، أو يتمنَّون موتَك قبلَ أن يَتمَّ دينُك ولا يَبلُغونه.

وقيلَ: نزلَت في اليهودِ تعظَّموا عن اتِّباعِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وقالوا: إنَّ الدَّجَّالَ منَّا، وسيخرجُ عن قريبٍ فيردُّ الملكَ إلينا[1]؛ أي: إنَّهم لا يبلغون خروجَ الدَّجَّالِ.

﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ من فتنةِ الدَّجَّالِ على القولِ الأخيرِ، أو من شرِّ الكفَّار.

وقيلَ: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ مِن مِثلِ ما ابتُلوا به مِن الكُفرِ والكِبرِ.

* * *

(١) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٧١٧)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٦٨) عن أبي العالية.

(٥٧ ـ ٥٩) ـ ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: قد اعترفُوا بهذا، وهوَ أعظمُ من الإعادةِ بعدَ الإماتةِ فلمَ اعتقدوا عجزاً عنها؟!

قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾؛ أي: المطيعُ والعاصي.

﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ قُرِئَ بالتَّاءِ والياءِ[1]؛ أي: قل لهم: قليلٌ تذكُّرُكُم.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾؛ أي: لو تذكَّروا لعلمُوا أنَّ السَّاعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها، وحينئذٍ يتبيَّنُ فرقُ ما بينَ العاصي والمطيعِ.

* * *

(٦٠) ـ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؛ أي: إنَّ اللهَ هوَ القادرُ على كلِّ شيءٍ، وهوَ يقولُ لكم: ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾؛ فإنِّي القادرُ على إجابتِكم.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: أي: وحِّدوني أُثِبْكم[2].

وفيه إضمارٌ؛ أي: أستجِبْ لكم إن شئتُ، كقولِه: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن

---

(١) بالتاء حمزة والكسائي وعاصم، والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٥٧٢)، و«التيسير» (ص: ١٩٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٥٢)، وأبو الشيخ في «العظمة» (١٦٧)، بلفظ: «وحدوني أغفر لكم».

شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١]، وفي الخبرِ: «الدُّعاءُ هوَ العِبادةُ»(١)؛ أي: يتكبَّرونَ عن التَّوحيدِ وعبادةِ اللهِ تعالى.

﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾؛ أي: أذلَّاءَ صاغِرين.

قُرِئَ: ﴿سَيَدْخُلُونَ﴾ و: ﴿سيُدخَلون﴾ بضمِّ الياء(٢).

***

(٦١ ـ ٦٣) ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾؛ أي: اللهُ الَّذي لا يستحقُّ العبادةَ غيرُه هوَ الَّذي جعلَ لكم اللَّيلَ والنَّهار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وقد أوجَبَ عليكم الشُّكرَ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، كما قالَ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أكَّدَ التَّعريفَ بهذا، ثمَّ قالَ: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ أي: مُنشِئُه ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا يستحقُّ العبادةَ غيرُه ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: العجبُ منكم أيُّها الذَّاهِبونَ عن هذا.

قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؛ أي: كما انصرفتُم

---

(١) رواه أبو داود (١٤٧٩)،والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما. قال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) قرأ بضم الياء ابن كثير وأبو بكر، وباقي السبعة بفتح الياء. انظر: «السبعة» (ص: ٥٧٢)، و«التيسير» (ص: ١٩٢).

عنِ الحقِّ انصرَفَ مَن قبلَكم من الأممِ الكافرةِ، وفيه إضمارٌ؛ أي: كذلك يُؤفَكُ مَن كانَ قبلَكم، كقولِه: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ أي: ما كانَت تتلو.

***

(٦٤ ـ ٦٥) ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ زادَ في تأكيدِ التَّعريفِ؛ أي: جعلَ لكم الأرضَ مستقرّاً لكم في حياتِكم وبعدَ الموتِ، وجعلَ السَّماءِ فوقَ الأرضِ كالسَّقفِ والبناءِ، وأنزلَ منها الرِّزقَ؛ أي: المياهَ.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾؛ أي: خلقَكم في أحسنِ صُورةٍ.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: خالقُكم، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: هوَ الموصوفُ بالبركاتِ ومواصلةِ الخيراتِ.

وقيلَ: هذا خبرٌ والمرادُ الأمرُ؛ أي: فمجِّدُوه وعظِّمُوه.

قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ الَّذي لا يموت ولا يَحيا بالرُّوحِ.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حمِدَ نفسَه، وأمَرَ العبادَ بحمدِه.

***

(٦٦) ـ ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ﴾؛ أي: نهانيَ اللهُ الَّذي هوَ الحيُّ ولا إلهَ غيرُه عن أن

أعبدَ غيرَه ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾؛ أي: حينَ جاءَتني البيِّناتُ الَّتي أبانَت دلائلَ التَّوحيدِ ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: أنقادَ لأمرِه وأفوِّضَ أمري إلى اللهِ؛ إذ هوَ ربُّ العالمين.

* * *

(٦٧ ـ ٦٨) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾؛ أي: خلَقَ مَن أنتم مِن نسلِه ـ وهوَ آدمُ ـ من ترابٍ، ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾؛ أي: ثمَّ خلَقَ ولدَه من نطفةٍ، ثمَّ جعلَ النُّطفةَ علقةً، ثمَّ مضغةً.

﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾؛ أي: أطفالاً صغاراً ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ وهيَ حالةُ اجتماعِ القوَّةِ وتمامِ العقلِ ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾؛ أي: ثمَّ يرفعُكم عن هذا إلى الهرم بعد الشباب.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: مِن قبلِ أن يبلغَ الهرمَ، أو قبلَ أن يبلغَ الأشُدَّ، أو قبلَ أن يخرجَ من بطنِ أُمِّه.

﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾؛ أي: فعلتُ هذا ليبلغَ كلٌّ منكم أجلاً سمَّيتُه له في سابقِ علمي، فاللامُ لامُ العاقبةِ.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: صرَّفتُكم لتعلمُوا أنَّكم مخلوقون لخالقٍ له أن يتعبَّدَ عبادَه بما يريدُ، وقد وعَدَ وأوعَدَ وتعبَّدَ.

قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ ثمَّ زاد في التَّنبيهِ؛ أي: هوَ الَّذي يقدرُ على

الإحياءِ والإماتةِ ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾؛ أي: أرادَ فعلَه من إحياءٍ وإماتةٍ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ لا يحتاجُ إلى آلةٍ ولا إلى أعوانٍ.

***

(٦٩ ـ ٧٢) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ عجَّب من هؤلاءِ المشرِكين المجادِلين في آياتِ اللهِ ـ أي: القرآنِ ـ بقولِهم: إنَّه ليسَ من عندِ الله، وفي المعجزاتِ بقولِهم: إنَّها مخاريقُ وسحرٌ ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾؛ أي: أين يُذهَبُ بهم عنِ الحقِّ بعد قيامِ الدَّلائلِ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: أي: ألم ترَ كيفَ أصرِفُ قلوبَهم إلى غيرِ مرضاتي وديني[1]؟

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ هذا وصفُ المجادِلين؛ أي: كذَّبوا بالقرآنِ، وقيلَ: الكتابُ اسمُ جنسٍ؛ أي: بالكتبِ المنزلةِ.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾؛ أي: عن قريبٍ يعلمونَ بُطلانَ ما هم فيه إذا دخلُوا النَّارَ وغُلَّت أيديهم إلى أعناقِهم وجُعِلَت فيها السَّلاسلُ ﴿يُسْحَبُونَ﴾؛ أي: تسحبُهم وتخرجهم وتجرُّهم خزنةُ جهنَّمَ.

﴿فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ الآني، وهوَ المتناهي في الحرِّ ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾؛ أي: يُطرَحون فيها فيكونون وَقوداً لها، يُقالُ: سجَرْتُ التَّنُّورَ؛ أي: أوقدْتُه.

***

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٤١٠).

(٧٣ ـ ٧٤) ـ ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ وهذا توبيخٌ، ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾؛ أي: ضاعُوا وهلكُوا، مِن ضلَّ اللَّبنُ في الماءِ؛ أي: خَفِيَ.

وقيلَ: أي: صاروا بحيث لا نجدُهم.

﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾؛ أي: شيئاً ينفعُ؛ أي: لو وجدنا أصناماً أيضاً لم ينفعونا؛ لأنَّا عبدْنا ما لا نفعَ فيه ولا ضرَّ، وليسَ هذا إنكارُ العبادةِ والصَّنمِ، بل هوَ اعترافٌ بأنَّ عبادتَهم للأصنامِ كانَت باطلةً.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾؛ أي: كما فعلَ بهؤلاءِ من الإضلال يَفعَلُ بكلِّ كافرٍ.

وقيلَ: كما أضلَّ هؤلاءِ الَّذين ضلَّ عنهم أصنامُهم في النَّارِ يُضِلُّ أهلَ الكفرِ عن رحمتِه فلا يرحمُهم، أو يُضلُّهم عن الجنَّةِ وثوابِها.

* * *

(٧٥ ـ ٧٧) ـ ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: يُقالُ لهم توبيخاً: إنَّما نالَكم هذا بما كنتُم تفرحون وبما كنتُم تُظهِرون في الدُّنيا من السُّرورِ بأموالِكم وصحَّتِكم وأتباعِكم، وكانَ ذلكَ باطلاً ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾؛ أي: بما كنتُم تفعلونَه من أفعالِ المتكبِّرين من الخيلاءِ والإعجابِ بالنَّفسِ.

قولُه تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: يُقالُ لهم ذلكَ يومَ القيامةِ، وقد قالَ اللهُ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر: ٤٤].

قولُه تعالى: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾؛ أي: بئسَ مقامُهم غداً.

قولُه تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ هذا تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ؛ أي: إنَّا ننتقمُ لك منهم؛ إمَّا في حياتِك، أو في الآخرةِ.

* * *

(٧٨) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾؛ أي: فجادَلوهم كما جادلَك هؤلاءِ.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: اقترحُوا الآياتِ كما اقترحُوا عليكَ، فلم يتمكَّن أحدٌ من أن يأتيَ بآيةٍ مِن قِبَلِ نفسِه، بل أتى بما آتاه اللهُ.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: إذا جاءَ الوقتُ المسمَّى لعذابِهم أهلكَهم الله، وإنَّما التَّأخيرُ لإسلامِ مَن عَلمَ اللهُ إسلامَه منهم، ولِمَن في أصلابِهم من المؤمنين.

وقيلَ: أشارَ بهذا إلى القتل ببدرٍ.

وقيلَ: ﴿أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾؛ أي: بآيةٍ مُستأصِلةٍ.

وقيلَ: سألُوا آيةً يحصلُ معها العلمُ الضَّروريُّ، فإذا صارَت المعارفُ ضروريَّةً في الآخرةِ قُضِيَ بينهم بالحقِّ، والحقُّ على هذا: ما ينزلُ بهم مِن العذابِ.

* * *

(٧٩ ـ ٨١) ـ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ ﴾ هذا أيضاً ممَّا مَنَّ اللهُ به على العِبادِ، وبيَّنَ به كمالَ قُدرتِه؛ أي: المستحِقُّ للعبادةِ هوَ اللهُ الَّذي خلقَ لمنافعِكم الأنعامَ وغيرَها ممَّا أُبيحَ اقتناؤُه ﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾؛ أي: لتركبوا بعضَها وتأكلُوا لحومَ بعضِها.

قولُه تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾؛ أي: من الصُّوفِ والوبرِ والجلدِ والشَّعرِ ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ ﴾ يعني: الأسفارَ، ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾؛ أي: تُحمَلونَ على الأنعامِ في البرِّ، وعلى الفُلكِ في البحرِ.

قولُه تعالى: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾؛ أي: يريكم بهذه النِّعمِ الَّتي أباحَها لكم آياتِه ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾؛ أي: إذا كنتم لا تُنكرون أنَّ هذه الأشياءَ مِن اللهِ سُبحانَه وتعالى فلم تُنكرونَ قدرتَه على البعثِ والنَّشرِ؟

* * *

(٨٢) ـ ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: حتَّى يُشاهدوا آثارَ الأممِ السَّالفةِ، ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ ﴾ عدداً ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾.

﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ من الأبنيةِ والأموالِ وما أَدْلَوا به من الأولادِ والأتباعِ، وعلى هذا (ما) للجحدِ.

وقيلَ: (ما) للاستفهامِ؛ أي: أيَّ شيءٍ أغنى عنهم.

* * *

(٨٣ ـ ٨٥) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالشَّرائعِ ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾؛ أي: أُعجِبوا بما كانَ عندهم من تقليدِ آبائِهم في الشِّركِ، وتوهَّموا أنَّ معجزاتِ الأنبياءِ سحرٌ، وكانَ ذلكَ عندهم عِلماً، وهوَ جهلٌ في الحقيقةِ.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾؛ أي: أحاطَ بهم ما استهزؤوا به مِن العذابِ الَّذي توعَّدَهم به الرُّسلُ.

وقيلَ: حاقَ بهم ضررُ استهزائِهم بالأنبياءِ.

﴿بِهِۦ﴾ هوَ كنايةٌ عن الشَّيءِ الَّذي كانُوا يفعلونَه قاصدينَ به الهُزء.

ولم يقل: فرحُوا بما هوَ علمٌ، بل قالَ: ﴿بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾؛ أي: بما ظنُّوه علماً، وكانَ جهلاً، وهوَ كقولِه: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ﴾ [الشورى: ١٦]؛ فهي حجَّةٌ عندهم لا على الحقيقةِ.

وقيلَ: ﴿فَرِحُواْ﴾؛ أي: الرُّسلُ فرحوا ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾؛ أي: بالكفَّارِ ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، وقد تقدَّمَ الكلامُ على ذلك.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾؛ أي: عاينوا العذابَ ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾؛ أي: كفرُوا بالأوثانِ.

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾؛ أي: حُكْمَنا بأنَّه لا يُقبَلُ الإيمانُ بعدَ رؤيةِ العذاب.

﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾؛ أي: كسُنَّةِ اللهِ في الكفَّارِ، وهيَ أنَّ التَّوبةَ لا تُقبَلُ بعدَ رؤيةِ العذابِ وحصولِ العلمِ الضَّروريِّ.

وقيلَ: أي: احذروا يا أهلَ مكَّةَ سنَّةَ اللهِ في إهلاكِ الكفَّارِ.

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ أي: هلكَ؛ أي: يتبيَّنُ لهم خسرانُهم إذ رأَوا العذابَ.

وقيلَ: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: لم يكُ ينفعُهم إيمانُهم لمَّا رأوا بأسَنا وخسرَ هنالك الكافرونَ كسُنَّتِنا في جميعِ الكافرين.

واللهُ تعالى أعلمُ، وصلَّى الله على سيِّدِنا محمَّدٍ وعلى آلِه وصحبِه وسلَّم.

* * *

سُورَةُ فُصِّلَتْ

تفسيرُ سورةِ السَّجدةِ

بسمِ اللّه الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١ ـ ٤) ـ ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾.

قولُه عز وجل: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ أي: هذه السُّورةُ والقرآنُ منزَّلٌ من الرَّحمنِ الرَّحيمِ، لم يتقوَّلْها محمَّد.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ أي: هذه السُّورةُ والآياتُ والقرآنُ كتابٌ فُصِّلَت آياتُه، فـ﴿كِتَٰبٞ﴾ خبرٌ للمبتدأِ، كما تقولُ: عندَ البيتِ صالحٌ، والخبرُ الأوَّلُ ﴿تَنزِيلُ﴾.

ويجوزُ أن يُقالَ: ﴿كِتَٰبٞ﴾ بدلٌ مِن قولِه: ﴿تَنزِيلُ﴾، وقيلَ: نعتٌ لقولِه: ﴿تَنزِيلُ﴾.

وقيلَ: ﴿حمٓ﴾؛ أي: هذه ﴿حمٓ﴾، كما تقول: باب كذا؛ أي: هوَ باب كذا، فـ﴿حمٓ﴾ خبرُ ابتداءٍ مضمرٌ؛ أي: هوَ ﴿حمٓ﴾.

وقيلَ: قولُه: ﴿تَنزِيلُ﴾ مبتدأٌ آخرُ، وقولُه: ﴿كِتَٰبٞ﴾ خبرُه.

﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ أي: بُيِّنَت آياتُه في حال كونِه ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾.

وقالَ الأخفشُ: هوَ نصبٌ على المدحِ؛ أي: ذكرنا قرآناً عربيًّا بشيراً ونذيراً[1].

وقيلَ: ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ أي: الدَّلائلُ الَّتي احتجَّ بها على الكفَّار، فلا يذهبُ

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٠٤).

صوابُها على عاقلٍ متأمِّلٍ ممَّن يفهمُ الوثبة[1]، وممَّن لا يفهمُ إذا تُرجِمَ له عنه.

وقيلَ: معنى هذا التَّفصيلِ: تحسينُ النَّظم.

وقيلَ: كلُّ آيةٍ منفصِلةٌ عن الأخرى لتُدبَّر كلُّ آيةٍ على حدةٍ.

والآياتُ: القرآنُ، أو المعجزاتُ والدَّلائلُ الَّتي احتجَّ الله بها على عبادِه.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لسانَ العربِ، أو ما تُرجِمَ لهم عن لسانِ العرب.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: لقومٍ أعطاهم الله العلمَ بتوحيدِه وربوبيَّته[2].

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾؛ أي: بشيراً لأولياءِ اللهِ نذيراً لأعدائِه ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ يعني: أهلَ مكَّةَ ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾؛ أي: يطيعون لأمرِه.

* * *

(٥) ـ ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾؛ أي: أغطيةٍ وسواترَ ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ يا محمَّدُ؛ أي: مِن فهمِ ذلكَ ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾؛ أي: صممٌ، فكلامُك لا يدخلُ أسماعَنا ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾؛ أي: بيننا حجابٌ، فنحن لا نبصرُك فنُقبِلَ عليك.

﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾؛ أي: فلا تطمعْ في قلوبِنا، كما تقول: واشتغلْ بما عندَك فإنَّا مشتغلونَ بما عندنا.

وقيلَ: قالوا هذا احتجاجاً على المؤمنين؛ أي: عندكم أنَّ الله يهدي مَن يشاءُ ويضلُّ مَن يشاء، وقد جعلَ قلوبَنا في أكنَّةٍ، فأيُّ معنى لدعائِكم إيَّانا؟!

---

(١) كلمة «الوثبة» كذا وقعت في (أ) ولا يظهر لها معنى هنا، ولا يختل الكلام بحذفها.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٤١٨ ـ ٤١٩).

ولـم يعلمُـوا أنَّ مشـيئتَه غيـبٌ، ولـو آمنوا لـكانَ يعلـمُ إيمانَهـم ويريدُه.

وقيلَ: عنَوا بالحجابِ والساترِ: الحجابَ من جهةِ اختلافِ الدِّين.

وقيلَ: فاعملْ في هلاكِنا فإنَّا عاملون في هلاكِك.

وقيلَ: رفعَ أبو جهلٍ ثوبَه بينَه وبينَ رسولِ اللهِ ﷺ وقال: يا محمَّدُ، أنتَ من ذلكَ الجانبِ ونحن من هذا الجانبِ، فالحجابُ: الثَّوبُ الَّذي رفعَه أبو جهلٍ[1].

* * *

(٦ - ٧) - ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؛ أي: لا تَدَعْ دعاءَهم إلى اللهِ مع قولِهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾، وقل: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ من حيثُ الجنسِ والطَّبعِ، وأنا حقيقٌ بأن أشفقَ عليكم فتقولوا بقولي، ولستُ بملَكٍ فتنفِروا عنِّي لتعظُّمي عليكم، وإنَّما يُوحى إليَّ من السَّماءِ على أيدي الملائكةِ أن ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، وأنتم تشركون به، فلا تفعلُوا وآمنُوا به.

﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾؛ أي: وجِّهوا وجوهَكم بالدُّعاءِ له والمسألةِ إليه، كما تقولُ للرَّجل: استقِمْ إلى منزلِك؛ أي: لا تُعرِّجْ على شيءٍ غيرِ القصدِ إلى منزلِك.

﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾؛ أي: من شِركِكم.

﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: لا يُقـرُّون بهـا. وقـالَ ابـنُ عبَّـاسٍ: لا يقولـون: لا إلـهَ إلَّا اللهُ[2]؛ أي: لا يُطهِّـرون أنفسَـهم عـن الشِّـرك بـاللهِ.

---

(١) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٧٣٦)، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١٦٨) عن النقاش.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٧٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٧٠)، والبيهقي في =

وقيلَ: كانَ المشركون ينفقونَ النَّفقاتِ ويَسقُون الحجيجَ ويُطعمونهم، فحَرَمُوا ذلكَ مَن آمنَ منهم، فنزلَت هذه الآيةُ فيهم.

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ فلهذا لا ينفقونَ في الطَّاعةِ، ولا يستقيمونَ، ولا يستغفرون.

***

(٨) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾؛ أي: ثوابُ الآخرةِ غيرُ ممنونٍ؛ أي: مقطوعٍ ولا منقوصٍ.

وقيلَ: غيرُ ممنونٍ عليهم؛ أي: غيرُ مُكدَّرٍ بالإمنان، فحذفَ الصِّلةَ وهيَ قوله: (عليهم).

***

(٩) - ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ أمرَه بتوبيخِهم والتَّعجُّبِ من قولِهم وفعلِهم؛ أي: لم تكفرونَ باللهِ وهوَ خالقُ السَّماواتِ والأرضِ؟! وكانَ القومُ بينَ مُعترِفٍ بذلك وبين مُنكِرٍ لو تأمَّلَ أدنى تأمُّلٍ لعلمَ أنَّه لم يخلقِ السَّماواتِ والأرضَ، ولم تخلقها الأصنامُ أيضاً، وهيَ مخلوقةٌ، فلا بدَّ لها من خالقٍ.

﴿بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ قالَ السُّدِّيُّ: خلقَ اللهُ ماءً، وكانَ عرشُه على الماءِ،

= «الأسماء والصفات» (٢٠٥)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٢٥١).

ثمَّ أخرجَ من الماءِ دُخاناً فارتفعَ فوقَ الماءَ، فخلقَ منها سماءً واحدة، ثمَّ أيبسَ ذلكَ الماءَ فجعلَه أرضاً واحدة، ثمَّ فتقَ الأرضَ فجعلها سبعَ أرضين في يومين؛ الأحدِ والإثنين، وخلقَ فيها الجبالَ والأشجارَ وأقواتَ أهلِها في يومين آخرين؛ الثلاثاءِ والأربعاء[1].

***

(١٠) ـ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾؛ أي: الجبالَ ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾؛ أي: بالأشجارِ والنَّباتِ ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾؛ أي: أقواتَ أهلِها، وقيلَ: أي: أسبابَ أقواتِها، وقيلَ: أي: أقواتَ الأرضِ؛ أي: المطرَ ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾؛ أي: في مدَّةِ أربعةِ أيَّامٍ، يعني: الثلاثاء والأربعاء مع الأحد والإثنين؛ فإنَّها أربعة.

وقالَ ابنُ الأنباريِّ: هوَ كقولِك: أتيتُ واسطَ في خمسةِ أيَّام، والبصرةَ في عشرةِ أيَّام، والخمسةُ من جملةِ العشرة[2].

﴿سَوَآءً﴾؛ أي: مُسوَّياتٍ، فهي أربعةُ أيَّامٍ لا زيادةَ ولا نقصانَ فيها ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾؛ أي: لمن سألَ عن عددِ الأيَّامِ الَّتي خلقَ فيها الأرضين، وهوَ كما تقولُ لمن تخبرُه

---

(١) رواه عن السدي: ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٧٤)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٤٦٢)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٢/ ٨٨٦ ـ ٨٨٧)، في خبر طويل من طريق السدي عن أشياخه عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم. وهذا إسناد فيه مقال، فقد قال الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٧٥) عن هذا الإسناد: ولست أعلمه صحيحًا، إذ كنت بإسناده مرتابًا.

(٢) ذكره بنصه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٢٥٧) دون نسبة. وانظر: «الأضداد» لابن الأنباري (ص: ١٠٩ ـ ١١٠).

بشيء: «هوَ كما أخبرتُك به مُستوٍ»؛ أي: صحيحٌ مستقيمٌ لا اعوجاجَ فيه، وقد خلقَ السَّماواتِ في يومين كما ذكرَ بعدَ هذا، فذلك ستَّةُ أيَّام.

وقيلَ: أي: قدَّرَ الأقواتَ فيها سواءً لمن سألَ الله منها شيئاً؛ أي: خلقَ الأقواتَ في الأرضِ على قدرِ الحاجات، وقدرِ ما يسألونه من المصالحِ.

و﴿سَوَآءً﴾ هوَ نصبٌ على المصدرِ؛ أي: استوَت سواءً واستواءً، وقُرِئَ بالخفضِ: ﴿سواءٍ﴾، وهوَ صفةُ الأيَّامِ؛ أي: مُستوياتٍ، فجعلَ المصدرَ في معنى الاسمِ، كما تقولُ: «اشتريتُه بدرهمٍ تمامٍ»؛ أي: تامٍّ، وقُرِئَ بالرَّفعِ[1]؛ أي: هم سواءٌ.

* * *

(١١) ـ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾؛ أي: قصدَ إلى خلقِ السَّماءِ فسوَّاها سبعةَ أطباقٍ، يُقالُ: استوِ إلى كذا؛ أي: اجعلْه قصدَك، وقصدُه: إرادتُه، وهيَ قديمةٌ؛ أي: أرادَ في الأزلِ أن يخلقَ السَّماواتِ في وقتٍ معيَّنٍ، و﴿ثُمَّ﴾ ترجعُ إلى الإخبارِ.

ومَن قالَ: «استواؤُه فعلٌ» قالَ: فعلَ أفعالاً في السَّماءِ.

ومَن قالَ: «إنَّه صفةٌ ذاتيَّةٌ زائدةٌ» قالَ: استوى في الأزلِ بصفاتِه، و﴿ثُمَّ﴾ ترجعُ إلى نقلِ السَّماءِ من صفةِ الدُّخان إلى حالةِ الكثافةِ.

﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ قالَ ابنُ عبَّاسٍ: قالَ اللهُ للسَّماواتِ: أَطْلِعي شمسَك وقمرَك ونجومَك، وقالَ للأرضِ: شُقِّي أنهارَك وأخرجي ثمارَك[2]، فمعنى

---

(١) بالرفع أبو جعفر، وبالجر يعقوب، والباقون بالنصب. انظر: «النشر» (٢/ ٣٦٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٩١)، والحاكم في «المستدرك» (٧٣) وصححه.

الآيـة: ائتيـا مـا آمركمـا؛ أي: افعـلا، يُقـالُ: ايـتِ مـا هـوَ الأحسـنُ؛ أي: افعلْه.

ثمَّ؛ قيلَ: ركَّبَ فيهما الحياةَ والعقلَ، وأمرَهما فأطاعَتا وأجابَتا، وقالَتا: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، وفيه حذفٌ؛ أي: أتينا أمرَكَ طائعين.

ولـمَّا خُوطبَت السَّماءُ والأرضُ أُجرِيت مُجرى ما يعقلُ فقالَ: ﴿طَآئِعِينَ﴾، وهوَ كقولِه: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

وقيلَ: أرادَ توجيهَ الأمرِ على أهلِ السَّماءِ والأرضِ.

وقيلَ: معنى هذا الأمرِ التَّسخيرُ؛ أي: كونا فكانَتا، ولم يكن ثمَّ امتناعٌ واعتياص، وهوَ المرادُ بقولِه: ﴿طَآئِعِينَ﴾.

وقال: ﴿أَتَيْنَا﴾، ثمَّ قالَ: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، ولم يقل: طائعتين؛ لأنَّ المعنى: أتينا وأهلَنا طائعين، واللهُ أعلمُ.

***

(١٢) ـ ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾؛ أي: فأتمَّ خلقَهنَّ في يومين؛ ثمَّ استوى إلى الأربعةِ أيَّامِ الَّتي خلقَ فيهنَّ الأرضَ، فوقعَ خلقُ السَّماواتِ والأرضِ في ستَّةِ أيَّامٍ، كما قالَ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤].

والقضاءُ: الفراغُ من الشَّيءِ، ومنه: قضاءُ الحاكم؛ وهوَ فراغُه من أمرِ الخصمَين بفصلِ الحُكمِ بينهما، ومنه: قضيتُ الصَّلاةَ.

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾؛ أي: وخلقَ في كلِّ سماءٍ ما أرادَ خلقَه فيها من الملائكةِ وغيرِها، والإيحاءُ قد يكون أمراً، كقولِه: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥]،

وقولِه: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة: ١١١]؛ أي: أمرتُهم، وهوَ أمرُ تكوينٍ.

وقيلَ: الوحيُ قد يَرِدُ بمعنى الإيماء إلى الشَّيءِ والإشارةِ إليه، كقولِه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ [مريم: ١١]؛ أي: أشارَ إليهم بالرَّمزِ، وعلى هذا ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢]؛ أي: ألقى في كلِّ سماءٍ ما أرادَ مِن الخلقِ كالإيماءِ الَّذي يُسمَّى إيحاءً لأنَّه إلقاءٌ في النَّفسِ، تقولُ: أُلقِيَ في رُوعي كذا.

وقيلَ: أي: فأوحى إلى أهلِ كلِّ سماءٍ من الملائكةِ ما تعبَّدَهم به من أمرِه.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: يعني: ما أثبتَ في كلِّ سماءٍ من الملائكةِ والبَرَدِ والثُّلوجِ[1].

وللهِ في كلِّ سماءٍ بيتٌ يُحجُّ إليه، وتطوفُ به الملائكةُ بحذاءِ الكعبةِ، والذي في السَّماءِ الدُّنيا هوَ البيتُ المعمورُ.

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾؛ أي: السَّماءَ الَّتي هيَ أقربُ إلى الأرضِ بالنُّجومِ والشَّمسِ والقمرِ، والمصابيحُ: السُّرجُ، وأصلُها: الضَّوءُ، ومنه: الصُّبحُ؛ لزوال الظُّلمة، ومنه: فلانٌ صَبيحُ الوجهِ.

ثمَّ؛ قيلَ: في كلِّ سماءٍ كواكبُ، وقيلَ: بل هيَ مختصَّةٌ بالسَّماءِ الدُّنيا.

﴿وَحِفْظًا﴾: أي: وحفظناها حفظاً من استماعِ الشَّياطينِ، وهذا الحفظُ بالكواكبِ الَّتي تُرجَمُ بها الشَّياطين.

وظاهرُ هذه الآيةِ: أنَّ الأرضَ خُلقَت قبلَ السَّماء، وقالَ في آيةٍ أخرى: ﴿ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٤٦٢)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٢/ ٨٨٦ ـ ٨٨٧)، في خبر طويل من طريق السدي عن أشياخه عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم. وقد تقدم طرف منه وبينا حالَه ثمةَ.

وذكره الواحدي في «الوسيط» (٤/ ٢٧) من طريق عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ٢٩ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٠]، وهذا يدلُّ على خلقِ السَّماءِ أوَّلاً؛ فقالَ قومٌ: خُلِقَت الأرضُ قبل السَّماءِ، وأمَّا قولُه: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾، فالدَّحوُ غيرُ الخلق، واللهُ خلقَ الأرضَ في موضعِ الكعبةِ، ثمَّ خلقَ السَّماواتِ، ثمَّ دحا الأرضَ؛ أي: مدَّها وبسطَها، قالَه ابن عبَّاس(١).

وقالَ مجاهدٌ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾؛ أي: مع ذلكَ دحاها(٢)؛ أي: وأنا أُخبِرُ أنِّي دحوتُ الأرضَ، فالإعلامُ متأخِّرٌ وإن كانَ الدَّحوُ مُتقدِّماً.

وقيلَ: أي: والأرضَ بعد ذلكَ قد كانَ دحاها، كقولِه: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ أي: ما كانَت تتلو.

وقالَ ابنُ الأنباري: يجوزُ أن يكونَ قولُه: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ معناه: قبلَ ذلك(٣)، كقولِه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]؛ أي: من قبلِ الذِّكرِ؛ لأنَّ الذِّكرَ هوَ القرآنُ.

وقالَ قومٌ: خلقَ السَّماءَ قبلَ الأرضِ، وهوَ مذهبُ مقاتل(٤)؛ لقولِه: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾، فأمَّا قولُه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾، فالتَّقديرُ: أئنَّكم لتكفرون بالذي استوى إلى السَّماءِ وهيَ دخانٌ، ثمَّ خلقَ الأرضَ في يومين، والتَّقديمُ والتَّأخيرُ في كلامِ العربِ كثيرٌ، فقدَّمَ خَلقَ الأرضِ هاهنا والمرادُ التَّأخيرُ، قالَ اللهُ: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]؛ أي: رافعُك ومُتوفِّيك.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٤٦٤)، (٢٤/ ٩٢)، ولفظه: «إن الله خلق الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات، ثم دحا الأرض بعد ذلك فذلك قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]».

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٥٨٩)، والطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٩٤).

(٣) انظر: «الأضداد» (ص: ١٠٨).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٧٨)، وذكره عنه ابن الأنباري في «الأضداد» (ص: ١١١).

وقيلَ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ﴾؛ أي: ثمَّ كانَ قد استوى إلى السَّماءِ وهيَ دخان، فأضمرَ (كانَ)، كقولِه: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ﴾ [يوسف: ٧٧]؛ أي: إن يكن قد سرقَ.

ثمَّ؛ هذه الأيَّامُ السِّتَّةُ الَّتي خلقَ فيها السَّماءَ والأرضَ عندَ قومٍ كلُّ يومٍ منها ألفُ سنةٍ من سِنِي الدُّنيا، فهي من أيَّامِ الآخرةِ، والربُّ قادرٌ على إنشائِها في لحظةٍ، ولكنْ لا علَّةَ لصنعِه.

وقيلَ: هذه الأيَّامُ السِّتَّةُ من أيَّامِ الدُّنيا.

ثمَّ؛ قد بيَّنا أنَّ ابتداءَ السِّتَّةِ يومَ الأحدِ، وميلُ اليهودِ إلى هذا، وقالَت النَّصارى: إنَّ ابتداءَ الخلقِ يومَ الاثنين، والفراغُ يومَ الأحد، وفي قولِ المسلمين: ابتداءُ الخلقِ يومَ السَّبتِ، والفراغُ يومَ الجمعةِ، وأكثرُ الرِّواياتِ أنَّ الابتداءَ يومَ الأحد.

ولا معنى للفراغِ والاشتغالِ والاستراحةِ في حقِّ الله؛ إذ لا يعتاصُ عليه شيء.

وقد وردَ في أخبارٍ أنَّ اللهَ ابتدأ خلقَ السَّماواتِ والأرضين يومَ السبتِ.

واليومُ عبارةٌ عمَّا بينَ طلوعِ الشَّمسِ وغروبِها، ومعنى اليومِ قبلَ خلقِ الشَّمسِ: مقدارُ اليومِ بعدَ خلقِ السَّماوات.

***

(١٣ - ١٤) - ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ بيَّنَ أنَّه لا تستفزُّهُ العجلةُ، بل خلقَ السَّماواتِ والأرضَ في مدَّةٍ طويلةٍ في ستَّةِ أيَّامٍ، وكلُّ يومٍ كذا سنةً، وكذا إن أخَّرَ عذابَ الكفَّارِ فليس ذلكَ لعجزٍ، ولكنْ لِمَا فيه المصلحةِ للعبادِ.

ثمَّ؛ قيلَ: فإن أعرضوا يا محمَّدُ عمَّا تَدْعوهم إليه وتركوا التَّوحيدَ فقل لهم: استعدُّوا لعذابٍ عاجلٍ كما نزلَ بعادٍ وثمودَ.

﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾؛ أي: هلاكاً مثلَ هلاكِ ﴿عَادٍ وَثَمُودَ﴾.

﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فجادلُوا بالباطل لـمَّا دعتهم رسلُهم.

﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: الرُّسلُ الَّذين أَتَت أسلافَهم وآباءَهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾؛ أي: الرُّسلُ الَّذين أتوهم، فهم خَلْفَ الرُّسلِ الَّذين أَتَوا آباءَهم، فقولُه: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾؛ أي: من خلفِ الرُّسلِ المُتقدِّمين إلى آبائِهم.

وقيـلَ: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: قبـلَ أن خلقَهـم الله ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾؛ أي: مـن بعـدِ أن أماتهـم الله، وذلـك أنَّ مَـن أرسـلَه الله بالتَّوحيدِ فهو مرسَـلٌ إلى أهـلِ عصرِه ومَن بعدَهـم، ولهذا قـالَ: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦]، و﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠]، فالمعنى: إذ جاءَتهم الرُّسـلُ بالتَّوحيدِ وجاءَت الرُّسـلُ خلفَهـم بمثلِ ذلـكَ أيضاً.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾؛ أي: بأنْ لا تعبدُوا.

وقيلَ: أي: جاءَتهم الرُّسلُ بالإنذارِ بالعذابِ في الدُّنيا والآخرةِ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾؛ أي: لئلا تعبدوا ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

وقيلَ: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: لا ترتكبوا المعصيةَ في الدُّنيا ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾؛ أي: آمِنُوا بالبعثِ في الآخرةِ.

﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ فيه إضمارٌ؛ أي: لو شاءَ ربُّنا دعوةَ الخلقِ لأنزلَ ملائكةً ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

وقيلَ: هذا استهزاءٌ.

وقيلَ: هذا إقرارٌ منهم بإرسالِهم، ثمَّ مِن بعدِه جحودٌ وعنادٌ.

* * *

(١٥) - ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ أي: نزلَت بهم الصَّاعقةُ والعذابُ المبيدُ لأنَّهم بعد مجيءِ هودٍ إليهم استكبرُوا على هودٍ وتركوا الحقَّ؛ أي: الدِّينَ الحقَّ.

﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؛ أي: اغترُّوا بأجسامِهم حين تهدَّدَهم هودٌ بالعذابِ، وقالوا: نحنُ نقدرُ على دفعِ العذابِ عن أنفسِنا بفضلِ قوَّتنا.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾: أولم يعلمُوا ذلك، والعبدُ إنَّما يقدِرُ بإقدارِ الله تعالى، فاللهُ أقدرُ إذاً.

﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ مُغترِّين بقوَّةِ أبدانِهم.

* * *

(١٦) - ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ هذا تفسيرُ الصَّاعقةِ الَّتي أرسلَها عليهم؛ أي: ريحاً باردةً، وقيلَ: شديدةَ الصَّوتِ، يُقالُ: صَرْصَرَ الأخطبُ فيها والصَّقرُ يُصرصِرُ.

وقالَ ابنُ السِّكِّيتِ: (صرصر) يجوزُ أن يكونَ من الصِّرِّ وهوَ البردُ، ويجوزُ أن

يكـونَ مـن صريرِ البابِ، ومـن الصَّرَّةِ، وهـيَ الصَّيحة، ومنـه: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩].

﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ كمـا قـالَ: ﴿فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٦]، والنَّحِسـاتُ: الـواردةُ بالهـلاكِ، الخاليـةُ مـن المنافعِ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: أي: في أيَّام كانُوا يتشاءَمون بها[1].

قُرِئَ: ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ بكسرِ الحاءِ، وقُرِئَ بسكونِ الحاءِ[2].

﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾؛ أي: المذلَّةَ والخزيَ حالَ نزولِ العذابِ.

﴿أَخْزَىٰ﴾؛ أي: أعظمُ ذلّاً وأقلُّ حيلةً ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ إذا نزلَ العذابُ بهم؛ أي: فهكذا أفعلُ بكفَّارِ قريشٍ إن أصرُّوا على كفرِهم.

* * *

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝١٧ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾؛ أي: دعَوْناهم إلى الحقِّ، فاختاروا الكفرَ على الإيمانِ، وذلك أنَّه أخرجَ لهم النَّاقةَ من الصَّخرِ، كما قالَ: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]؛ أي: فيها بصيرةٌ لمن تدبَّرَ.

وقيل: ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾؛ أي: خلقنا المعرفةَ في قلوبِهم فارتدُّوا عن الدِّين؛ لأنَّ هذه الدَّعوةَ والبيانَ لا تختصُّ بهم دونَ غيرِهم.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٤٤١).

(٢) قرأ بالسكون ابن كثير ونافع وأبو عمرو، والباقون بالكسر. انظر: «السبعة» (ص: ٥٧٦)، و«التيسير» (ص: ١٩٣).

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ ﴿ٱلْهُونِ﴾: الهوانُ، وأُضيفَت الصَّاعقةُ إلى ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ لأنَّ الصَّاعقةَ اسمٌ للمُبيدِ المهلِكِ، فكأنَّه قالَ: مُهلِكُ العذابِ؛ أي: العذابُ المهلكُ، و﴿ٱلْهُونِ﴾ وإن كانَ مصدراً فمعناه الإهانةُ، والإهانةُ عذابٌ، فجازَ أن يُجعَلَ أحدُهما وصفاً للآخرِ، فكأنَّه قيلَ: صاعقة الهون، وهوَ كقولِك: عندي علمُ اليقينِ، وعندي العلمُ اليقينُ.

ويجوزُ أن يكونَ ﴿ٱلْهُونِ﴾ اسماً مثلَ الدُّونِ، يُقالُ: عذابٌ هونٌ؛ أي: مُهين، كما قالَ: ﴿مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

وقيلَ: أي: صاعقةُ العذابِ ذي الهونِ، وهوَ الَّذي يُخزيهم.

﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ من تكذيبِهم صالحاً، وعقرِهم النَّاقة.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: ميَّزناهم عن الكفَّار، فلم يحلَّ بهم ما حلَّ بالكفَّارِ، وهكذا نفعلُ يا محمَّدُ بمؤمني قومِك وكفَّارِهم.

* * *

(١٩) - ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ لـمَّا ذكَرَ حالَ عادٍ وثمودَ في الدُّنيا ذكَرَ أحوالَهم في الآخرةِ أيضاً وأحوالَ سائرِ الكفَّار؛ أي: ثمَّ إنَّهم يُجمَعون إلى النَّارِ لعداوتِهم للهِ وتكذيبِهم أنبياءَه ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ أي: يُساقون إليها سَوقاً عنيفاً، حتَّى إذا رأى أوائلُهم ما ينالُهم من الاستعجالِ ينقطع عن آخرِهم، فيُحبَسُ الأوَّلون على الآخرين المُنقطِعين عنهم حتَّى يجتمعوا.

والوَزْعُ: الكفُّ والحبسُ، ومنه قولُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها: «ما يزعُ السُّلطانُ أكثرُ ممَّا يزعُ القرآن»[١]، ....

(١) لم أقف عليه من قول عائشة رضي الله عنها، ورواه ابن شبة في «تاريخ المدينة» (٣/ ٩٨٨) من =

وقولُهم: لا بدَّ للناسِ من وَزَعةٍ؛ أي: من ولاةٍ يكفُّونهم، فإذاً معنى ﴿يُوزَعُونَ﴾: يُوقَفون.

قُرِئَ: ﴿يُحْشَرُ﴾ بضمِّ الياءِ، وقرأ نافعٌ بالنُّونِ ﴿أعداءَ اللهِ﴾ بالنَّصبِ[1].

***

(٢٠) - ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾؛ أي: يُساقون حتَّى إذا حضَروا النَّار حُوسِبوا على أعمالِهم توبيخاً لهم، وشَهِدَت عليهم جوارحُهم، فقالَت العينُ: رأيتَ آياتِ اللهِ فما اعتبرتُ، ونظرتُ إلى ما لا يجوزُ، وقالَ السَّمعُ: سمعتُ الحقَّ وما وَعيت، وسمعتُ ما لا يجوزُ من المعاصي، وكذا كلُّ عضوٍ، وهذه الشَّهادةُ قد تقعُ بأن يُسألوا، فلا يذكرونَ بعضَ أعمالِهم لنسيانِهم إيَّاه ولكتمانِهم، وبيَّنَ بهذهِ الآيةِ أنَّ كلَّ جزءٍ فيه الحياةُ فهو مُدرَجٌ تحتَ التَّكليف، وليسَ التَّكليفُ مختصّاً بالرُّوح دونَ البِنيةِ، وبيَّنَ أنَّ الإنسانَ أحياءٌ[2] قد سخَّرَ اللهُ اليومَ البعضَ للبعضِ، وقد يزولُ هذا التَّسخيرُ غداً في بعضِ الأحوالِ، فينطقُ كلُّ عضوٍ بما عملَ.

***

(٢١ - ٢٣) - ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

= قول عثمان رضي الله عنه، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/ ١٠٧) من قول عمر رضي الله عنه، وذكره ابن السكيت في «إصلاح المنطق» (ص: ١٨٥)، وابن قتيبة في «أدب الكاتب» (ص: ٣٤٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٧/ ١٩٥) مرفوعًا من غير إسناد.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٧٦)، و«التيسير» (ص: ١٩٣).

(٢) بعدها في (أ) كلمة لم تجود، ولم يظهر لي معناها.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ لـمَّا خاطبَت وخُوطِبت أجراها مجرى ما يعقلُ.

﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾؛ أي: خلقَ فينا قوَّةَ النُّطقِ حتَّى نطقْنا، كما أنطَقَ الأشخاصَ.

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أي: ركَّب الحياةَ فيكم بعد أن كنتُم نُطفاً، فمَن قدَرَ عليه قدَرَ على أن يُنطقَ الجلودَ.

وقيلَ: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ﴾ ابتداءُ كلامٍ من الله.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: ثمَّ أماتكم، ثمَّ أحياكم بعد الموتِ، فصِرتم إلى حُكمِه.

ومَن قالَ: المكلَّفُ والمحاسَبُ والمثابُ والمعاقَبُ الروحُ، فلا موتَ للرُّوحِ عنده، فأينَ الإحياءُ بعدَ الإماتةِ؟! وأين قولُه: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]؟!

قولُه تعالى عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾ يجوزُ أن يكونَ هذا مِن قولِ الجوارحِ بعدُ، ويجوزُ أن يكونَ مِن قولِ الله، أو الملائكةِ.

والاستتارُ: الاتِّقاء؛ أي: ما كنتم تتَّقون في الدُّنيا أن تشهدَ عليكم جوارحُكم في الآخرةِ فتتركوا المعاصيَ خوفاً من هذه الشَّهادةِ؛ أي: كنتُم تظنُّون أنَّ اللهَ يخفى عليه بعضُ الأشياء.

وقيلَ: الاستتارُ بمعنى الاستخفاءِ؛ أي: ما كنتم تَستَخْفونَ من أنفسِكم حَذَراً من شهادةِ الجوارحِ عليكم؛ لأنَّ الإنسانَ لا يمكنُه أن يخفيَ من نفسِه عملَه، فيكون الاستخفاءُ بمعنى تركِ المعصيةِ.

﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أخبرَ عن قومٍ كانُوا من جملتِهم أنَّهم ظنُّوا أنَّ اللهَ يعلمُ بعضَ الأمورِ، ويخفَى عليه بعضُها، وقالوا: يعلمُ ما ظهرَ ولا يعلمُ ما في النُّفوسِ وما أُخفِيَ.

قالَ عبدُ اللهِ بن مسعودٍ: كنتُ مُستتِراً بأستارِ الكعبة، فجاء ثلاثةُ نفرٍ كثيرٌ شحمُ بطونِهم قليلٌ فقهُ قلوبِهم؛ قرشيٌّ وختناه ثقفيَّان، أو ثقفيٌّ وختناه قرشيَّان، فتكلَّموا بكلامٍ لم أفهمه، ثمَّ قالَ بعضُهم: أترونَ اللهَ سمعَ كلامَنا هذا؟ فقالَ الآخر: إنَّا إذا رفعنا أصواتَنا سمعَ، وإذا لم نرفع لم يسمع، وقالَ بعضُهم: إن سمع منَّا شيئاً سمعَه كلَّه، قالَ: فذكرتُ ذلكَ للنَّبيِّ ﷺ، فنزلَ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ الآيةَ[1].

﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ﴾؛ أي: كانَ عملُكم عملَ مَن ظنَّ أنَّ اللهَ لا يعلمُ كثيراً من أفعالِكم.

وقيلَ: كانُوا يُطعِمون الطَّعامَ ويُقدِمون على أشياءَ من الخيرِ، فجُعِلوا في هذا النَّوعِ عالِمين بأنَّ اللهَ تعالى يعلمُ ذلك، وجُعِلوا في معاصيهم كالظَّانِّين بأنَّ اللهَ لا يعلمُ ذلك.

قولُه تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾؛ أي: هذا الظنُّ هوَ الَّذي سهَّلَ عليكم المعاصيَ وأوردَكم النَّارَ ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ أي: فصرتُم، يُقالُ: أصبحَ فلانٌ ملكاً؛ أي: صارَ، والإرداءُ: الإهلاكُ، والرَّدى: الهلاكُ.

* * *

(٢٤) ـ ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾؛ أي: لا محيصَ لهم من النَّارِ، فإن صبروا فالنَّارُ، ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾؛ أي: طلبوا الرِّضا، لم ينفعْهم ذلك، بل لا بدَّ لهم من النَّارِ.

وفي التفاسيرِ: وإن يَستقيلُوا ربَّهم لم يُقِلهم[2].

---

(١) رواه البخاري (٤٨١٦)، ومسلم (٢٧٧٥). وذُكر عن النقاش أن الثلاثة: صفوان بن أمية وفرقد بن ثمامة وأبو فاطمة. وقال ابن بشكوال في «الأسماء المبهمة» (٢/ ٧١٣): «القرشي هو الأسود عبد يغوث، والثقفي الواحد الأخنس بن شريق»، وقيل غير ذلك. انظر: «عمدة القاري» (١٩/ ١٥٥).

(٢) ذكره الأزهري في «تهذيب اللغة» (٢/ ١٦٥)، والواحدي في «البسيط» (١٩/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠)، عن =

وقيلَ: أي: ﴿فَإِن يَصْبِرُواْ﴾ على معاصيهم ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ يُحشرون إليها ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ﴾ - أي: إذا ثوَوا في النارِ - لم يُعتَبوا.

***

(٢٥) - ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾؛ أي: سلَّطنا عليهم في الدُّنيا قرناءَ يُزيِّنون عندهم المعاصيَ، وهؤلاءِ القرناءُ من الجنِّ ومن الشَّياطينِ ومن الإنسِ أيضاً؛ أي:

= أبي معاذ النحوي. واستحسن الأزهري هذا القول وزاد: «تَقول: استعتبتُ فلَاناً فَمَا أعتبني؛ كَقَوْلِك: استقلتُه فَمَا أقالني».

وقد سبق إلى هذا مقاتل؛ ففي «تفسيره» (٣/ ٧٤٠): ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ﴾ في الآخرة ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ يقول: وإن يستقيلوا ربهم في الآخرة فما هم من المقالين، لا يقبل ذلك منهم.

وقد شرح العلماء الاستقالة بالرد إلى الدنيا، فقال الهروي في «الغريبين» (مادة: عتب): ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ أي: إن يستقيلوا ربهم لم يقلهم؛ أي: لا يردهم إلى الدنيا. وقال أبو عبد الله الرازي في «أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل» (ص: ٤٠٢): معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ أي: ولا هم يقالون عثراتهم بالرد إلى الدنيا، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾؛ أي: وإن يستقيلوا فما هم من المقالين. وقال السمين الحلبي في «عمدة الحفاظ» (٣/ ٢٤): ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾؛ أي: وإن يستقيلوا ربهم بردهم إلى الدنيا مما هم فيه من العذاب لم يقلهم.

ونحوه قال صاحب «القاموس» (مادة عتب)، وزاد في «التاج»: لأنه سَبَقَ في علم الله أنَّهم لو رُدُّوا لَعادُوا لِمَا نُهُوا عنه.

وقد ذكر الأزهري عن أبي معاذ أيضاً قوله: قرىء: (وإن يُسْتَعْتَبوا) قال: ومعناه: إنْ أقالهم الله وردَّهم إِلَى الدُّنْيَا (لم يُعتِبوا)، يَقُول: لم يعملوا بطَاعَة الله؛ لِمَا سبق لَهُم فِي علم الله من الشَّقَاء، وهو قول الله جلّ وعزّ: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

سبَّبنا لهم، أو ألزمناهم قرناءَ، يُقالُ: قيَّضَ اللهُ لي رزقاً؛ أي: أتاحَه بدلاً عمَّا كنتُ أطلبُه، فالتَّقييضُ: الإبدالُ، ومنه المقايضةُ.

﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم﴾؛ أي: زيَّـنَ هـؤلاءِ القرناءُ لهـؤلاءِ المشـركين ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: أمرُ الآخرة؛ لأنَّه لم يأتِ بعدُ، وقيلَ: أمرُ الدُّنيا، كما يُقالُ للشَّيءِ الحاضرِ: هوَ بين يديك.

﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ قيلَ: الآخرةُ، وقيلَ: الدُّنيا؛ لأنَّهم يُخلِّفونها إذا ماتوا.

والمعنى: دَعَوهُم إلى إنكارِ البعثِ، وزيَّنوا لهم المعاصيَ.

وليسَ قوله: ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ عطفاً على ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، بل المعنى: وأنسَوهم ما خلفَهم؛ ففيه هذا الإضمارُ.

وقيلَ: أي: زيَّنوا لهم الدُّنيا حتَّى اشتغلُوا بها، وزيَّنُوا لهم الآخرةَ، فقالَوا: لا بعثَ.

وقالَ الزَّجَّاجُ: زيَّنُوا لهم أعمالَهم الَّتي هم فيها، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾؛ أي: وما يُقدِمون عليه في المستقبلِ من قبيحِ الأعمالِ(١).

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ﴾؛ أي: مـع أمـمٍ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾؛ أي: مضت كقومِ نوحٍ وغيرِهم.

* * *

(٢٦) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ أخبرَ عن كفرِ قومِ هودٍ وصالحٍ وغيرِهم، ثمَّ أخبرَ عن مشركي قريشٍ، وأنَّهم كذَّبوا القرآنَ؛ أي: قالَ بعضُهم

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٨٤).

لبعضٍ: لا تُصغُوا إلى ما يقرؤه محمَّدٌ من الكتابِ الَّذي يزعُمُ أنَّه أُنزِلَ عليه.

نزلَتِ الآيةُ لـمَّا قالَ أبو جهلٍ: إذا سمعتُم القرآنَ من محمَّدٍ فارفعُوا أصواتَكم بالأشعارِ والكلامِ في وجوهِهم حتَّى يلتبسَ عليهم فيسكتوا(١).

وقيلَ: ﴿لَا تَسْمَعُوا﴾؛ أي: لا تُطيعوا، تقول: سمعتُ لك؛ أي: أطعتُ.

﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾؛ أي: بالمكاءِ والصَّفيرِ والتَّخليطِ في النُّطقِ، يُقالُ: لغا يَلغو لغواً فهو لاغٍ، ولغِي يَلغَى لغًى فهو لغٍ، فقولُه: ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ من لغِي يلغَى، وقرأ عيسى بنُ عمرَ: (والغُوا) بضمِّ الغينِ(٢) من لغا يلغو.

﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾؛ أي: لتغلبوا محمَّداً على القراءةِ، فلا تَظهرُ قراءتُه ولا يستميلُ القلوب.

***

(٢٧ ـ ٢٨) ـ ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾؛ أي: بما تواصَوا به في القرآنِ، والعذابُ الشَّديدُ: ما يَتوالى فلا ينقطعُ.

وقيلَ: هوَ العذابُ في جميعِ أجزائِهم، وقد فُعِلَ هذا بهم يومَ بدر وهوَ مُنتظَرٌ لهم في الآخرةِ.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٤١)، وذكره ابن أبي زمنين في «تفسيره» (٤/ ١٥١) عن السدي.

(٢) ذكرها عنه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٢٨١)، ونسبها ابن جني في «المحتسب» (٢/ ٢٤٦) لبكر بن حبيب السهمي، ونسبها الهذلي في «الكامل» (ص: ٦٣٢) للزعفراني، وقتادة، وأبي حيوة، وأبي السمال.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: لنجزينَّهم في الآخرةِ جزاءَ أقبحِ أعمالِهم الَّتي عملوها في الدُّنيا، وأسوأُ الأعمالِ: الشِّركُ.

﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ﴾؛ أي: جزاءُ المشركين النَّارُ مع الخلودِ.

* * *

(٢٩) ـ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾؛ أي: قالَ هؤلاءِ الكفَّارُ إذا أدخلوا النَّارَ، وذُكِرَ بلفظِ الماضي والمرادُ المستقبل؛ أي: لـمَّا علمَ الأتباعُ أنَّ قرناءَهم الدَّاعينَ لهم إلى الكفرِ كانُوا على ضلالٍ سألُوا اللهَ أن يريَهم إيَّاهم لينتقموا منهم بأن يجعلوهم تحت أقدامِهم؛ ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ في النَّارِ، وهوَ أن يصيروا في الدَّركِ الأسفلِ، فكأنَّهم سألوا اللهَ أن يُضعِّفَ عذابَ مَن كانَ سببَ ضلالِهم من الجنِّ والإنس، فكانَ لكلِّ واحدٍ من الكفَّارِ قرينَانِ في الإضلالِ؛ قرينٌ من الجنِّ، وقرينٌ من الإنس.

وفي التَّفسيرِ: المضلَّانِ: إبليسُ وقابيلُ الَّذي قتلَ أخاه.

* * *

(٣٠) ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ لـمَّا ذكَرَ أحوالَ الكفَّارِ في النَّارِ ذكَرَ أحوالَ الموحِّدين في الآخرةِ؛ أي: إنَّ الَّذين نطقُوا بالتَّوحيدِ ثمَّ استقامُوا عليه؛ أي: لم يُشرِكوا حتَّى الوفاةِ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: ثمَّ استقامُوا على شهادةِ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ[١].

وقالَ الصِّدِّيقُ: ثمَّ لم يلتفتوا إلى إلهٍ غيرِه[٢].

وقالَ عمرُ: ثمَّ لم يَروغوا رَوَغانَ الثَّعلبِ[٣].

وقالَ عثمانُ: ثمَّ أخلصُوا العملَ لله[٤].

وقالَ عليٌّ: ثمَّ أدَّوا الفرائضَ[٥].

وقالَ الإمامُ أبو بكرِ بنُ فُورك: السِّينُ سينُ الطَّلبِ مثل ﴿ٱسْتَسْقَىٰ﴾ [البقرة: ٦٠]؛ أي: سألوا مِن اللهِ تعالى أن يُثبِّتَهم على الدِّين[٦].

وكانَ الحسنُ إذا قرأ هذه الآيةَ قالَ: اللَّهمَّ أنتَ ربُّنا فارزقنا الاستقامةَ[٧].

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قيلَ: عندَ الموتِ، وقيلَ: إذا قامُوا من قبورِهم.

ثمَّ؛ قيلَ: هم من الحفظةِ؛ لأنَّ المؤمنَ إذا خرجَ من قبرِه رأى ملكَه قائماً على رأسِه يقول: أنا الَّذي أرفعُ عملَك، لا تخفْ ولا تحزنْ، وأبشرْ بالجنَّةِ.

---

(١) رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ٢٧١)، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٧٥).

(٢) رواه أبو داود في «الزهد» (٣٨)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٢٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٤٨)، وروى عنه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٧٠٩) أنه قال: «الاستقامة: ألا يشركوا بالله شيئًا».

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٣٢٥)، والإمام أحمد في «الزهد» (٦٠١)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٢٥)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٢٨٧)، عن الزهري عن عمر رضي الله عنه.

(٤) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٢٨٧)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٧٢)، وأبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» (١٣/ ١٧٥).

(٥) انظر المصادر السابقة.

(٦) ذكره عنه سماعاً والد المصنف في «الرسالة القشيرية» (٢/ ٣٥٧).

(٧) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٧٠٧).

وقالَ ابنُ زيدٍ: هذه البشارةُ في ثلاثةِ مواطنَ: عند الموتِ، وفي القبرِ، وعند البعثِ[1].

﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾؛ أي: بأن لا تخافوا، فحُذفَ الجارُّ؛ أي: لا تخافوا من الموتِ ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما خلَّفتم من أهلٍ وولدٍ؛ فإنَّ اللهَ خليفتُكم عليهم.

وقيلَ: لا تخافوا ما تُقدِمون عليه.

وقيلَ: لا تحزنوا لمَا بين أيديكم؛ فإنَّ اللهَ يكفيكم كلَّ خوف.

* * *

(٣١ ـ ٣٢) ـ ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ﴾ يجوزُ أن يكونَ مِن قولِ الملائكةِ؛ أي: نحنُ أنصارُكم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إلى أن تخرجوا منها ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ إذا بعثكم اللهُ حتَّى نوصلَكم إلى الجنَّةِ.

وقيلَ: أي: نحنُ الَّذين كنَّا معكم في الدُّنيا، وهوَ مِن قولِ الحفظةِ؛ أي: نشهدُ لكم بالطَّاعاتِ يومَ القيامةِ، ويجوزُ أن يكونَ هذا مِن قولِ اللهِ، واللهُ وليُّ المؤمنين ومولاهم.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾؛ أي: في الجنَّةِ، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾؛ أي: ما التَمَسْتُموه وتمنَّيتموه ﴿نُزُلًا﴾؛ أي: رزقاً أقامَه اللهُ لكم لإنزالِه إيَّاكم في الجنَّةِ، والنُّزُلُ: ما يجري على النازلِ مدَّةَ نزولِه.

---

(١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٤/ ٤٢)، ومكي بن أبي طالب في «الهداية» (١٠/ ٦٥٢٠).

﴿نُزُلًا﴾ نصبٌ على المصدرِ؛ أي: أنزلناه نزلاً، وقيلَ: على الحالِ؛ أي: مُنزَلاً، تقولُ: جاءَ زيد مشياً؛ أي: ماشياً، وقيلَ: هوَ جمعُ نازلٍ؛ أي: لكم ما تَدَّعونَ نازلين.

* * *

(٣٣) ـ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هذا توبيخٌ للذين تواصَوا باللَّغو في القرآنِ؛ أي: أيُّ كلامٍ أحسنُ من القرآنِ؟ ومَن أحسنُ قولاً مِن الداعي إلى اللهِ وطاعتِه وهوَ محمَّدٌ عليه أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ، فلمَ يتواصَون بالاعتراضِ عن قولِه؟!

﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾؛ أي: مع دعائِكم إلى اللهِ يعملُ بما يدعوكم إليه، فلا يُتَّهمُ لأنَّه إنَّما يُريدُ بكم من الخيرِ ما يُريد بنفسِه.

وقالَ الحسنُ: هوَ في كلِّ مَن دعا إلى اللهِ[1].

وقالَت عائشة: نزلَت في المؤذِّنينَ[2].

وقالَ أبو أمامةَ: ﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾؛ أي: صلَّى ركعتين بينَ الأذانِ والإقامةِ[3].

﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: دعا إلى دينٍ شعارُه الإسلامُ، وهوَ دينُ إبراهيمَ، والإسلامُ: الخضوعُ للهِ والانقيادُ له.

* * *

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٦/ ٢٦٧)، وفيه: «مذهب الحسن أنها عامة لجميع المؤمنين»، وذكر نحوه مكي بن أبي طالب في «الهداية» (١٠/ ٦٥٢٢).

(٢) رواه ابن وهب في «جامعه» (١١٨)، وأبو نُعيم الفضل بن دُكين في «الصلاة» (١٩١)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٣٤٧)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٢٩٨).

(٣) ذكره عنه الثعلبي في في «تفسيره» (٢٣/ ٢٩٧).

(٣٤) - ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾؛ أي: لا يستوي ما أنتَ عليه من التَّوحيدِ وما المشركون عليه مِن الشِّركِ؛ أي: أنت على حقٍّ وهم على باطلٍ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: الحسنةُ لا إلهَ إلَّا اللهُ، والسَّيِّئة الشِّركُ[1].

و﴿لا﴾ في قولِه: ﴿وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ زائدةٌ، كقولِه: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩]، وقولِه: ﴿لَا أُقْسِمُ﴾ [القيامة: ١].

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ أي: ادفعِ السَّيِّئةَ بالتي هيَ أحسنُ كدفعِ الغضبِ بالصَّبرِ والإساءةِ بالعفو.

﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾؛ أي: لو استعملتَ ما أُمِرتَ به لانَت لكَ جوَّانِيَّاتُ عِداتكَ، ومالَت قلوبُهم بالمودَّةِ.

وقالَ مجاهدٌ: ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، يعني السَّلامَ إذا لقيَ مَن يُعاديه[2].

قالَ مُقاتلٌ: هوَ أبو سفيانَ بنُ حربٍ؛ فإنَّه لانَ للمسلمين بعد عداوتِه بالمصاهرةِ الَّتي وقعَت بينه وبين النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ أسلمَ فصارَ وليًّا في الإسلامِ حميماً بالقرابةِ[3].

وقيلَ: هذا كانَ قبلَ الأمرِ بالقتالِ.

---

(١) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٢/ ٥٢٤) عن أبي صالح، وفي «إعراب القرآن» (٤/ ٤٣) عن عطاء، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١٨٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «الحسنة الإيمان والسيئة الشرك».

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٤٢٠)، وسعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (١٨٩٤)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ١٠٥).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٣٠٠)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٣٤) وفيه: مقاتل بن حيان.

والحميمُ: القريبُ، وحامَّةُ[١] الرَّجلِ: قرابتُه.

* * *

(٣٥) ـ ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾؛ أي: لا ينتفعُ بهذه الموعظةِ إلَّا مَن وطَّنَ نفسَه على احتمالِ المكارهِ في اللهِ، فالتَّأنيثُ في ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾ للكلمةِ، أو للفِعلةِ الَّتي أشارَ إليها، وهيَ الدفعُ بالأحسنِ. يُلقَّى؛ أي: يُؤتَى ويُعطَى.

﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ من العلمِ والحلمِ والدِّينِ والعقلِ، وقيلَ: من ثوابِ اللهِ.

* * *

(٣٦) ـ ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾؛ أي: وإن أخطرَ الشَّيطانُ ببالِك ما يصدُّك عن تلقِّي هذه الموعظةِ فلا تمكِّنْ وسوستَه من نفسِك واستعذْ باللهِ مِن شرِّه.

وقيلَ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ في أنِّي أؤخِّرُ العذابَ لعجزٍ ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾.

* * *

(٣٧ ـ ٣٨) ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ ذكَرَ مِن دلائلِ وحدانيَّتِه ما يحرِّضُ على التزامِ العبوديَّةِ، فقالَ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾.

---

(١) في (أ): «وخاصة»، والصواب المثبت.

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ لأنَّهما وإن كانَا خلقَين عجيبين فليس ذلكَ لفضيلةٍ لهما في أنفسِهما فيستحقَّا بها العبادةَ معَ اللهِ؛ لأنَّ خالقَهما هوَ الله، ولو شاءَ لأعدمَهما أو طمسَ نورَهما؛ أي: ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾، والكنايةُ ترجعُ إلى الشَّمسِ والقمرِ واللَّيلِ والنَّهار.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: شرطُ عبادةِ اللهِ أن لا تَسجُدَ لشيءٍ من دونِه.

﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾؛ أي: إن استكبرَ الكفَّارُ عن عبادة اللهِ، فالملائكةُ يُسبِّحونَ له.

وقولُه: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾؛ أي: لهم قُربُ الكرامةِ والعصمة، وهم سُكَّانُ السَّماءِ، ومنها يصدرُ أمرُ الرَّبِّ ونهيُه، وهم المطَّلِعون على ملكوتِ السَّماواتِ والأرض.

﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ﴾ قيلَ: يسجدونَ له بالتَّسبيحِ تقرُّباً إليه، وطلباً للزُّلفى عنده. وقولُه: ﴿لَهُ﴾؛ أي: لوجهِه، يُقالُ: فعلتُ هذا لله؛ أي: لوجهِه.

وقيلَ: أرادَ بالتَّسبيحِ الصَّلاةَ.

﴿وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾؛ أي: لا يملُّونَ عبادتَه. وقيلَ: هؤلاءِ المشركون.

* * *

(٣٩) - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ الخطابُ لكلِّ عاقلٍ ﴿خَاشِعَةً﴾؛ أي: مُقشعرَّةً، وقيلَ: غبراءَ متهشِّمةً ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ زالَ عنها السُّكونُ، و﴿اهْتَزَّتْ﴾ بالنَّباتِ، ﴿وَرَبَتْ﴾؛ أي: ازدادَت وانتفخَت، فينمو النَّباتُ في جوفِها إلى أن يخرجَ منها بانصداعِها عنه، والاهتزازُ والرُّبوُّ قد يكونانِ قبلَ الخروجِ

من الأرضِ، وقد يكونان بعدَ خروجِ النَّباتِ إلى وجهِ الأرضِ، فربوُّها: ارتفاعُها، ويُقالُ للموضعِ المرتفِعِ: رابيةٌ وربوةٌ، فالنَّباتُ يتحرَّكُ للبروزِ، ثمَّ يُزدادُ في جسمِه بالكبرِ طولاً وعرضاً.

وقيلَ: ﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾: استبشرَت بالمطرِ ﴿وَرَبَتۡ﴾؛ أي: انتفخَت بالنَّباتِ، والأرضُ إذا انشقَّت بالنَّباتِ وُصِفَت بالضَّحكِ، فيجوزُ وصفُها بالاستبشارِ أيضاً، ويجوزُ أن يُقالَ: الرُّبوُّ والاهتزازُ في حالةٍ واحدةٍ، وهيَ حالةُ خروجِ النَّباتِ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ﴾؛ أي: للحسابِ ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

* * *

(٤٠) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ يرجعُ هذا إلى الَّذين قالوا: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾، وهم الَّذين ألحدُوا في آياتِه؛ أي: إنَّ الَّذين يميلون عنِ الحقِّ في آياتِنا فيقولون: ليسَ القرآنُ من عندِ اللهِ، وهوَ شِعرٌ وسحرٌ، فالآياتُ آياتُ القرآنِ.

وقيلَ: هيَ آياتُ الإلهيَّةِ والمعجزاتُ.

﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ﴾؛ أي: نحنُ عالمون بهم وبإلحادِهم، وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: الملحِدُ العائدُ عن الإيمانِ المستحِلُّ لِمَا حرَّمَ اللهُ[1].

قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ﴾ قالَ ابنُ عبَّاسٍ: يعني أبا جهلٍ[2]؛ أي:

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٤٦٤)، وفيه: «.. المعاند عن الإيمان.. ».

(٢) رواه عنه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٧/ ٣٣٠)، ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٣/ ٣٧٨) عن عكرمة.

بعدما علِمْتُم أنَّهما لا يستويان فـ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾، فلا بدَّ لكم من الجزاءِ، وهذا أمرُ تهديدٍ.

* * *

(٤١ ـ ٤٢) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ﴾؛ أي: جحدُوا القرآنَ، وأَمرُوا بتركِ الإصغاءِ إليه، والذِّكرُ هوَ القرآنُ؛ لأنَّ فيه ذِكرَ ما يُحتاجُ إليه مِن الأحكامِ، والجوابُ محذوفٌ؛ أي: (إنَّ الَّذين.. يُجازَونَ).

وقيلَ: الجوابُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [٤٤]، واعترَضَ قولُه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ [٤٣]، ثمَّ رجعَ إلى الذِّكر، وقالَ: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا﴾ [٤٤]، ثمَّ قالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ﴾ الآيَةَ.

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾؛ أي: أعزَّه، فلا يتطرَّقُ إليه باطلٌ.

وقيلَ: أي: كريمٌ على اللهِ.

وقيلَ: أي: ينبغي أن يُعزَّ وأن يُجلَّ وأن لا يُلغَى فيه.

وقيلَ: أي: مُعجِزٌ يمتنعُ على مَن رامَ معارضتَه.

﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾؛ أي: لا يُكذِّبُه شيءٌ ممَّا أنزلَ اللهُ من قبلُ، ولا يَنزِلُ بعدَه كتابٌ يبطلُه، بل هوَ الحجَّةُ إلى يوم القيامةِ.

وقيلَ: لا كذبَ فيه؛ لا فيما أخبرَ عمَّا مضى، ولا فيما أخبرَ عمَّا سيكونُ.

﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾؛ أي: نزلَ من عندِ اللهِ تعالى.

* * *

(٤٣) - ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾؛ أي: إن قالوا: إنَّ القرآنَ سحرٌ، فقد قيلِ للرُّسلِ مِن قبلِك مثلُ هذا، فاصبر كما صبروا فلن يتأخَّرَ عنك النَّصرُ؛ لأنَّ ربَّك لذو مغفرةٍ لمَن تابَ وآمَنَ، وإنَّه ذو عقابٍ لمن صبرَ على الكفر.

وقيلَ: ما يُقالُ لك من إخلاصِ العبادةِ إلَّا ما قد أُوحِيَ إلى مَن قبلَك، فلا خلافَ بينَ الشَّرائعِ فيما يتعلَّقُ بالتَّوحيد، وهوَ كقولِه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر: ٦٥]؛ أي: لـمْ تدعُهم إلَّا إلى ما دعا إليه جميعُ الأنبياءِ قبلَك، فلا معنى لإنكارِهم عليك.

وقيلَ: هوَ استفهامٌ؛ أي: أيُّ شيءٍ يُقالُ لك إلَّا ما قد قيل للرُّسلِ مِن قبلِك؟

﴿إِنَّ رَبَّكَ ﴾ كلامٌ مبتدأٌ، وقيلَ: هوَ متَّصلٌ بـ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ ﴾؛ أي: إنَّما يُقالُ لك: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ ﴾؛ أي: إنَّما أُمِرتَ بالإنذارِ.

***

(٤٤) - ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا ﴾ بيَّنَ أنَّه أنزلَ القرآنَ بلسانِ العربِ ليفهمَ قومُ النَّبيِّ عليه السَّلام ذلك؛ أي: جعلناه عربيّاً ليتقرَّرَ به معنى الإعجازِ فيصيرَ آيةً للعربِ؛ لأنَّه إذا نزلَ بلسانِهم وهم أعلمُ النَّاسِ بأنواعِ الكلامِ نظماً ونثراً، ثمَّ عجَزُوا عن معارضتِه، كانَ من أدلِّ الدَّليلِ على أنَّه من عندِ اللهِ، ولو كانَ بلسانِ العجمِ لقالوا: لا علمَ لنا بهذا اللِّسانِ.

﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾؛ أي: بُيِّنَت بالعربيَّةِ حتَّى نفهمَها، وقالَ: ﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ﴾، ولم يقلْ: عَجَميٌّ؛ لأنَّ الأعجمَ ضدُّ الفصيح، وهوَ الَّذي لا يتبيَّنُ كلامُه، ويُقالُ للحيوانِ غيرِ النَّاطقِ: أعجم، ومنه: «صلاةُ النَّهارِ عجماءُ»[1]؛ أي: لا يُجهَرُ فيها بالقراءةِ.

وكانَت النِّسبةُ إلى الأعجمِ آكدَ لأنَّ الرَّجلَ العجميَّ الَّذي ليسَ من العربِ قد يكونُ فصيحاً بالعربيَّة، والعربيُّ قد يكونُ غيرَ فصيحٍ، فالنِّسبةُ إلى الأعجميِّ آكدُ في نفيِ البيان.

﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾؛ أي: أقرآنٌ أعجميٌّ ونبيٌّ عربيٌّ؟ وهوَ استفهامُ إنكار.

وقالَ أبو عليٍّ: الأعجميُّ بمعنى العجميِّ، ولهذا قُوبِلَ به العربيُّ[2].

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾، فقد أَزَحْنا هذه العلَّةَ، وختَمْنا هذا البابَ في القدحِ في القرآنِ، فأنزلناه بلغةِ العربِ، وعجَزُوا عن معارضتِه.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾؛ أي: صممٌ عن سماعِ القرآنِ، ولهذا تواصَوا باللَّغوِ فيه.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٤١٩٩)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٦٤)، عن الحسن.
ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٤٢٠٠) عن مجاهد.
ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٤٢٠١)، (٤٢٠٢)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ١٧٠)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٦٥)، عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود.
وذكره بعضهم مرفوعاً إلى النبي ﷺ كالماوردي في «الحاوي الكبير» (٢/ ٤٣٥)، وابن عبد البر في «الاستذكار» (٢/ ٤١٤) قال النووي في «المجموع» (٣/ ٤٦): «قال الدارقطني وغيره من الحفاظ: هذا ليس من كلام النبي ﷺ يروى عنه، وإنما هو قول بعض الفقهاء. قال الشيخ أبو حامد وسألت عنه أبا الحسن الدارقطني فقال: لا أعرفه عن النبي ﷺ صحيحًا ولا فاسدًا، مع أن المراد معظم صلوات النهار ولهذا يجهر في الجمعة والعيد». وقال في موضع آخر (٣/ ٣٨٩) عن هذا الحديث: «باطل غريب لا أصل له».

(٢) انظر: «الحجة» (٦/ ١٢١)، و«البسيط» (١٩/ ٤٧٠)، وعنه نقل.

ثمَّ؛ قيل: هوَ كلامٌ مبتدأٌ.

وقيلَ: متَّصلٌ بما تقدَّمَ؛ أي: هوَ للَّذين آمنوا هدًى وللذين لا يؤمنون وقرٌ.

﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾؛ أي: أعمى اللهُ قلوبَهم فهم لا يَفقهونَ؛ أي: هوَ عليهم ذو عمًى، فحُذفَ المضافُ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ فينقطِعُ صوتُ المنادي عنه، وهوَ لم يسمعْ.

وقالَ مجاهدٌ: أي: بعيدٍ من قلوبِهم[1].

وفي التَّفاسيرِ: كأنَّما يُنادَونَ من السَّماءِ، فلا يسمعونَ.

قُرِئَ: ﴿ءَاْعْجَمِيٌّ﴾ على الاستفهامِ، وقُرِئَ بألفٍ واحدةٍ[2]، والمعنى معنى الاستفهامِ أيضاً.

وقالَ سعيدُ بنُ جُبيرٍ: المعنى: لولا فُصِّلَت آياتُه منها عربيٌّ تعرفُه العربُ، ومنها أعجميٌّ تعرفُه العجمُ، حتَّى يكونَ دلالةً للجميعِ[3]، فقيل لهم: هؤلاءِ الَّذين آمنوا به اهتدَوا وشُفُوا من مرضِ الجهلِ، ومَن لم يتدبَّرْه فقد صارَ عليه عجميّاً لإعراضِه عنه، وأنتم عربٌ وكلُّه نازلٌ بلسانِكم، فما الَّذي ينفعُكم لو كانَ بعضُه بغيرِ لسانِكم؟ ولكنَّكم جُهَّالٌ لا تفهمون، كأنَّكم تُنادَون من مكانٍ بعيد.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٥١).

(٢) هي رواية هشام عن ابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ١٩٣)، ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١١) من طريق مجاهد عن طاوس.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٤٨) بلفظ: «قالت قريش: لولا أنزل هذا القرآن أعجميًّا وعربيًّا «فأنزل الله ﴿لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ » فأنزل الله بعد هذه الآية كل لسان، فيه: ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢] قال: فارسية عربت: سنك وكل».

(٤٥) ـ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ هوَ تسليةٌ للنَّبيِّ عليه السَّلام؛ أي: أقرَّ به قومٌ دونَ قوم، والكنايةُ ترجعُ إلى ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ فقالَ بعضُهم: إنَّه سحرٌ.

وقيلَ: ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾؛ أي: في موسى، فلا عجبَ أن اختلفَ قومُك في كتابِك وفيك.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: ليسَ تأخيرُ العذابِ عنهم لعجزٍ، ولكن سبقَ الحُكمُ بأنِّي لا أعاجِلُ هذه الأمَّةَ بالعذابِ المستأصِلِ لعلمي بمن يخرجُ مِن أصلابِهم من المؤمنين، ولأنَّ لكلِّ شيءٍ أجلاً مضروباً.

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾؛ أي: ليسَ كفرُهم على استبصارٍ؛ فيُجوِّزون كونَ كتابِك حقًّا، ويُجوِّزون أن لا يكونَ حقّاً، وهكذا في إنكارهم الحشر قالَ اللهُ: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

﴿مُرِيبٍ﴾: مُوقعٍ للرِّيبةِ، وهوَ ما يَريبُ الإنسانَ من أمرٍ فيتخوَّفُ مكروهَ عاقبتِه، وريَبُ الدَّهرِ: أحداثُه ومخاوفُه، وقد أخبرَ عنهم فقالَ: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٤]، وهذا في فريقٍ منهم كانُوا متردِّدين.

وقالَ الخليلُ: الرَّيبُ: الشَّكُّ، والرَّيبُ: صرفُ الدَّهرِ [وعَرَضُه وحَدَثُه]، والرَّيبُ: ما رابَك مِن أمرٍ تخوَّفتَ عاقبتَه(١).

وقالَ الكلبيُّ رحمه الله في هذه الآيةِ: لولا أنَّ اللهَ أخَّرَ عذابَ هذه الأمَّةِ

(١) انظر: «العين» (٨/ ٢٨٧) وما بين معكوفتين منه.

إلـى يـومِ القيامـةِ لأتاهـم العـذابُ، كمـا فُعـلَ بغيرِهم من الأمـمِ[١].

***

(٤٦) ـ ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: إنَّ اللهَ ليسَ محتاجاً إلى طاعةِ الخَلقِ، فمَن أطاعَ فالثَّوابُ له، ومَن عصى فالعقابُ عليه.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ لأنَّ له أن يتصرَّفَ في مُلكِه بما يريد.

***

(٤٧) ـ ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ لـمَّا أخبرَ أنَّ العذابَ يحلُّ بهم غداً، وبه جرى القضاءُ، قالوا: متى السَّاعةُ؟ فبيَّنَ أنَّ علمَها مُنطوٍ عن الخَلقِ، فلا يعلمُه إلَّا الله.

﴿وما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَةٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾؛ أي: من أوعيتِها، فالأكمامُ: أوعيةُ الثَّمرةِ، والواحدةُ: كُمَّةٌ وكُمٌّ، ويُقالُ أيضاً: كِمامٌ، والجمعُ: أكِمَّةٌ، مثلَ: عِنانٍ وأعِنَّةٍ.

قُرِئَ: ﴿مِن ثَمَرَٰتٍ﴾، وقُرِئَ: ﴿مِن ثمرةٍ﴾[٢] والمرادُ الجمع، كقولِه: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ والمرادُ الجمع؛ أي: تجري الأمورُ على ما علمَه الله وقدَّرَه.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾؛ أي: فـي هـذا اليـوم الَّذي لـم يَطَّلـع عليه أحدٌ

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ١٨٧)، والواحدي في «البسيط» (١٩/ ٤٧٢)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٢٧).

(٢) قرأ نافع وابن عامر وحفص على الجمع، والباقون على التوحيد. انظر: «السبعة» (ص: ٥٧٧)، و«التيسير» (ص: ١٩٤).

ينـادي اللهُ الكفَّـارَ فيقـولُ لهـم: أين شـركائيَ فـي زعمِكم الَّذيـن كنتُم تشـركونهم فيَّ، وتقولـون: هؤلاءِ شـفعاؤنا؟

فيقولون: ﴿ءَاذَنَّكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾؛ أي: نُعلمُك ما منَّا من أحدٍ يشهدُ بأنَّ لك شريكاً؛ أي: يعترفون حينئذٍ بأنَّهم كانُوا على ضلالٍ في الدُّنيا.

وقيلَ: أي: قالَ الشِّركاءُ: ما منَّا من أحدٍ يشهدُ بصحَّةِ ما قالَ هؤلاءِ، بل نشهدُ بأنَّ اللهَ لا شريكَ له.

وقيلَ: ﴿ءَاذَنَّكَ﴾؛ أي: أسـمعناك، ومنه: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشـقاق: ٢]؛ أي: سمِعَت.

وقيلَ: ﴿ءَاذَنَّكَ﴾؛ أي: أعلَمناك.

* * *

(٤٨) ـ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾؛ أي: بطَلَ وذهَبَ ﴿مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: ما كانُوا يعبدون في الدُّنيا.

﴿وَظَنُّوا﴾ قيلَ: علمُوا وتيقَّنُوا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾؛ أي: فِرارٍ عن النَّارِ.

وقيلَ: هوَ الظَّنُّ الَّذي هوَ أغلبُ الرَّأيِ؛ أي: لا يشكُّونَ في أنَّهم أصحابُ النَّار، ولكن يطمعونَ أن يَخرجوا منها، وليسَ يَبعدُ أن يكونَ لهم ظنٌّ ورجاءٌ إلى أن يُيَّسُوا.

وقيلَ: ﴿ءَاذَنَّكَ﴾؛ أي: نُؤذِنُك؛ كقولِك: سألتُكَ باللهِ لا تفعلْ كذا؛ أي: أَنْشُدُك باللهِ.

وقيلَ: هوَ إخبارٌ عن قومٍ سبقَ منهم التَّبرُّؤُ عن الشِّركاءِ قبلَ مشاهدةِ النَّار؛ أي: سبقَ علمُنا بهذا حينَ قُمنا من قبورِنا.

(٤٩ ـ ٥٠) ـ ﴿لَا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾؛ أي: هم معرِضونَ عن الإيمانِ بالآخرةِ، ثمَّ لا يملُّون من دعاءِ اللهِ في توسعةِ المالِ عليهم وتيسيرِ الحياةِ.

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾؛ أي: نالَه المكروهُ في النَّفسِ والمالِ والجاهِ ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾؛ أي: يَئِسَ من زوالِ ما به من المكروهِ ﴿قَنُوطٌ﴾؛ أي: يظنُّ أنَّه يدومُ.

قولُه تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى﴾؛ أي: إن أزلْنا عنه ذلكَ الشَّرَّ قالَ: هذا شيءٌ أنا أستحقُّه على اللهِ لرضاه بعملي، فيرى النِّعمةَ حتماً واجباً على اللهِ، ولم يَعلم أنَّه ابتلاه بالنِّعمة والمحنة ليتبيَّنَ شكرُه وصبرُه.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: ﴿هَـٰذَا لِى﴾؛ أي: هذا من عندي[1].

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾؛ أي: هوَ شاكٌّ في القيامةِ، ثمَّ يقولُ لفرطِ جهلِه: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: إن وقعَ حسابٌ فلي عنده الحُسنى؛ لأنَّه أكرمني في الدُّنيا بالأموال.

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾؛ أي: فعن قريبٍ نخبرُهم بما عملُوا في الدُّنيا.

* * *

(٥١) ـ ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ﴾؛ أي: إذا أنعمنا على الكافرِ بَطِرَ

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٤٧٥).

واستهانَ بنِعمِ اللهِ على معاصيه، وأعرضَ عن ذكرِ الله ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾؛ أي: ترفَّعَ عن الانقيادِ للحقِّ، وتكبَّرَ على أنبياءِ الله.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾؛ أي: أصابَه المكروهُ ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾؛ أي: كثيرٍ.

* * *

(٥٢) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ حثَّهم على النَّظرِ بألطفِ ما يكونُ[1]؛ أي: قل لهم يا محمَّدُ: أرأيتم إن كانَ ما أخبرُكم به حقّاً وكفرتُم به، فمَن أضلُّ منكم حينئذٍ.

﴿مَنْ أَضَلُّ﴾؛ أي: لا أحد أضلُّ منكم لفرطِ شقاقِكم وعدائِكم.

وقوله: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يرجعُ إلى الكتابِ المذكورِ في قولِه: ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾، فإنَّ محمَّداً أيضاً أُوتيَ الكتابَ، ويَحتمِلُ أن يرجعَ إلى قولِه: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾.

* * *

(٥٣) ـ ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ﴾؛ أي: سنُظهِرُ عليهم وعلى بلادِهم محمَّداً عليه السَّلام، ويقهرُهم بالسَّيف.

وقيلَ: سنُعلِمهم ما جعلناه دلالةً على صحَّةِ نبوَّةِ محمَّدٍ وصدقِه ﴿فِى ٱلْـَٔافَاقِ﴾

---

(١) تحرفت العبارة في (أ) إلى: «على أنَّ البطر بالظن ممَّا يكون».

في القرى والبلاد الَّتي تُجاوِرُ بلادَهم، وهوَ إشارةٌ إلى إجلاءِ اليهودِ عن حدودِ المدينةِ وقتلِهم، وإلى ما فعلَه بخيبرَ وفَدكَ، وإلى ما فتحَ اللهُ على المسلمين من البلاد.

﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ يعني: أمرَ مكَّة، وقد كانَ النَّبيُّ عليه السَّلام أخبرَ بهذه الغيوبِ فكانَت كما أخبرَ، وكانَ ذلكَ معجزةً، وأيضاً هذه الغلبةُ بعد الانفرادِ والوحدةِ لا تكونُ إلَّا بقدرةٍ سماويَّةٍ.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾؛ أي: حتَّى يتَّضحَ لهم الدَّليلُ ويزولَ كلُّ عذرٍ، ثمَّ الشَّقيُّ لا يزدادُ إلَّا عناداً وشقاوة.

وقيلَ: أي: سنُريهم آياتِ قدرتِنا في السَّماواتِ والأرضِ وفي أنفسِهم ليعلموا أنَّ مَن قدَرَ على هذه الأشياءِ قدَرَ على البعثِ.

و﴿ٱلۡأٓفَاقِ﴾: جمعُ أفقٍ، وهوَ النَّاحيةُ من نواحي الأرض، وآفاقُ السَّماءِ: أطرافُها.

﴿أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ الكنايةُ ترجعُ إلى القرآنِ، أو: حتى يعلمُوا أنَّ ما جئتَ به حقٌّ.

﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾؛ أي: أوَلم يكفِ بربِّكَ شهيداً على كلِّ شيءٍ ممَّا يفعلُه العبد، والشَّهيدُ بمعنى العالِم، أو هوَ من الشَّهادةِ الَّتي هيَ الحضورُ.

وقيلَ: أولم يكفِ بربِّكَ شاهداً على أنَّ القرآنَ من جهةِ الله.

***

(٥٤) ـ ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡ﴾؛ أي: في شكٍّ من لقاءِ ربِّهم؛ أي: من البعثِ ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾؛ أي: عالمٌ.

***

سُورَةُ الشُّورَىٰ

تفسيرُ سورةِ ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾

بسمِ اللّه الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾.

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ هـذه الحروفُ اسـمُ السُّـورةِ؛ أي: هذه الحروفُ المسـمَّاةُ ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾، كما يُقالُ: هذا الكتابُ المسمَّى التَّوراةَ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: (ع)؛ أي: فيها عذابٌ، (س)؛ أي: فيها مسخٌ، (ق)؛ أي: فيها قذفٌ[1].

وقد رُويَ عن النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّه لـمَّا نزلَت هذه الآيةُ عُرِفَت الكآبةُ في وجهِه، فسُئِلَ عن ذلكَ فقالَ: «أُخبِرتُ ببلاءٍ ينزلُ على أمَّتي من خسفٍ ومسخٍ وريحٍ تقذفُهم في اليمِّ»[2].

ورُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ أيضاً أنَّه قالَ: (ح) حُكمُه، (م) مجدُه، (ع) علمُه، (س) سناؤُه، (ق) قُدرتُه[3].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٣٢٩)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (١٣/ ٢٠٧)، من رواية أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ذكره بهذا السياق الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٣٢٩)، وأصل الحديث دون ذكر الآية ثابت بأسانيد صحيحة، فقد رواه مسلم (٢٩٠١)، والترمذي (٢١٨٣)، والإمام أحمد في «مسنده» (١٦١٤٣) عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٣٢٩)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٢)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (١٣/ ٢٠٧)، من رواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيلَ: أي: ﴿حمٓ﴾ مثلُ ﴿عٓسٓقٓ﴾ أو: هوَ ﴿عٓسٓقٓ﴾، فـ﴿حمٓ﴾ مبتدأٌ و﴿عٓسٓقٓ﴾ خبرُه؛ أي: هيَ الحروفُ المعجَمةُ كلُّها في المعنى واحدٌ من حيثُ إنَّها أُسٌّ للبيانِ وقاعدةٌ للكلام. ذكره الجُرجانيُّ[١].

وكُتِبَ ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ مُنفصِلاً و﴿كٓهيعٓصٓ﴾ متَّصلاً؛ لأنَّه قيل: ﴿حمٓ﴾؛ أي: حُمَّ ما هوَ كائنٌ، ففصَلوا بينَ ما يُقدَّرُ فيه فعلٌ، وبينَ ما لا يُقدَّرُ، ثمَّ لو فُصِلَ هذا ووُصِلَ ذلكَ؛ لجازَ.

* * *

(٣) ـ ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ أي: كالذي أُبيِّنُه لك في هذه السُّورةِ وأوحيهِ إليك فيها أُبيِّنُ في سائرِ السُّورِ وأُوحي إليك في سائرِ ما أُنزلُه من القرآن، وكذلكَ أوحينا إلى مَن قبلَك مِن الأنبياءِ، وهوَ الأمرُ بالتَّوحيدِ والنَّهيُ عن الشِّرك.

وقيلَ: أي: كالوحيِ الَّذي تقدَّمَ يُوحَى إليك، ووجهُ التَّشبيهِ: أنَّ بعضَ القرآنِ كالبعضِ في الحججِ والمواعظِ الَّتي هيَ مصالحُ الخلق.

وقيلَ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ من تمامِ ما سبقَ؛ أي: جاءَك ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ كذلك، كما تقولُ: جاءَ زيدٌ وعمرٌو كذلك، ثمَّ ابتدأَ ﴿يُوحِيٓ إِلَيۡكَ.. ٱللَّهُ﴾.

قُرِئَ: ﴿يُوحِيٓ﴾ بكسرِ الحاءِ ﴿ٱللَّهُ﴾، وهوَ رفعٌ لأنَّه الفاعلُ، وقُرِئَ: ﴿يُوحَى﴾ بضمِّ الياءِ وفتحِ الحاءِ[٢]، وعلى هذا فقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ بيانُ الفاعلِ، فكأنَّه قيل: مَن

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٤٨٣).

(٢) الثانية قراءة ابن كثير، والأولى قراءة باقي السبعة. انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٩٤).

يُوحِي؟ فقيل: ﴿ٱللَّهُ﴾، ومثلُه: ﴿يُسبَّحُ لهُ فيها بالغُدُوِّ والآصالِ﴾ ثمَّ قالَ ﴿رِجَالٌ﴾ [النور: ٣٥ ـ ٣٦]؛ أي: قيل: مَن يُسبِّحُ؟ فقالَ: يسبِّحُ رجالٌ.

* * *

(٤) ـ ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾.

قـولُه تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: هوَ مالكُ ما فـي السَّماواتِ وما في الأرضِ ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾؛ أي: العالي في مُلكِه القاهرُ لِمَا دونه ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾؛ أي: الَّذي يَجِلُّ عن أن يكونَ له شريكٌ.

* * *

(٥) ـ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾؛ أي: تكادُ السَّماواتُ كلُّ واحدةٍ منهنَّ تنفطرُ فوقَ الَّتي تليها مِن قولِ المشركين: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦].

وقيلَ: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾؛ أي: فوقَ الأرضين من خشيةِ اللهِ لو كُنَّ ممَّا يعقلُ.

وقيلَ: أي: يتفطَّرنَ من هيبةِ اللهِ وعظمتِه.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: ممَّن فوقَهنَّ مِن الملائكةِ(١).

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٧٤) مقتصراً على قوله: «ممن فوقهن»، ومثله في «البسيط» (١٩/ ٤٨٧)، وهكذا رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٦١٣)، وزاد: «يعني: الرب تبارك وتعالى».

وفي رواية رواها أبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٦١٤)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٥٣) قال: «﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ من الثقل».

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: يُنزِّهونه عمَّا لا يجوزُ في وصفِه.

وقيلَ: أي: يتعجَّبون من جراةِ المشركين، ويُذكَرُ التَّسبيحُ في موضعِ التَّعجُّب.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: للمؤمنين.

* * *

(٦) - ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: عبدوا الأصنامَ ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: شاهدٌ عليهم ليجازيَهم بأعمالِهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: لا تُؤاخَذُ بهم، وهذا قبلَ الأمرِ بالقتالِ.

وفي الخبرِ: «أطَّتِ السَّماءُ وحُقَّ لها أن تَئطَّ»(١)؛ أي: صَوَّتَت مِن ثقلِ سُكَّانِها لكثرتِهم؛ أي: فهم مع كثرتِهم لا يَفْتُرونَ مِن عبادةِ الله سُبحانَه وتعالى، وهؤلاءِ الكفَّارُ يشركون به.

وقيلَ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾؛ أي: تكادُ القيامةُ تقومُ حتَّى يُعجَّلَ عقابُ هؤلاءِ الكفَّارِ على كفرِهم؛ لأنَّ تشقُّقَ السَّماءِ يكونُ يومَ القيامةِ.

وقيلَ: تكادُ السَّماواتُ تسقطُ عليهم لإهلاكِهم.

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٢) وابن ماجه (٤١٩٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً، وتمامه: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله» الحديث، قال الترمذي: حديث حسن غريب... ويروى عن أبي ذر موقوفاً.

(٧) ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾؛ أي: ومثلَ ما ذكرنا أن أوحينا إليك وإلى مَن قبلَك أوحينا إليك بلسانِ قومِك، فأنزلنا عليك قرآناً عربيّاً، كما أرسلنا كلَّ رسولٍ بلسانِ قومِه.

﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ ﴾؛ أي: لتنذرَهم وهم سُكَّانُ أمِّ القُرى، وهيَ مكَّةُ وما حولها، ومكَّةُ أمُّ القرى لأنَّ الأرضَ دُحِيَت مِن تحتها.

﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾؛ أي: بيومِ الجَمعِ، وهوَ يوم القيامةِ.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾؛ أي: ذلكَ اليومُ لا ريبَ فيه ولا شكَّ في كونِه.

وقيلَ: لا ريبَ في أنَّه يومُ الجمعِ، فيُبعَثُ فيه الجميعُ.

﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾؛ أي: يجتمعون، ثمَّ يُفرَّقون تفرُّقاً لا يجتمعون بعده، والمعنى: فريقٌ منهم كذا وفريقٌ كذا.

* * *

(٨) ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾؛ أي: فريقاً واحداً على دينٍ واحدٍ، ولكنَّه فعلَ ما فعلَ ليُدخلَ أقواماً الجنَّةَ وأقواماً النَّار.

﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ﴾؛ أي: في الجنَّةِ ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ﴿الظَّالمون﴾ رفعٌ على الابتداءِ.

* * *

(٩ ـ ١٠) ـ ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾؛ أي: بل اتَّخذُوا.

﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾؛ أي: فأخبِرْهم أنَّ اللهَ هوَ الوليُّ يومَ القيامةِ لا وليَّ غيرُه.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: هوَ يحكمُ في هذا اليومِ الَّذي هوَ الوليُّ فيه وحدَه.

وقيلَ: أرادَ أنَّ أمورَ الشَّرائعِ تُتلقَّى مِن بيانِ اللهِ.

قولُه تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾؛ أي: الموصوفُ بهذه الصِّفاتِ هوَ ربِّي وحدَه لا إلهَ سواه، وفيه إضمارٌ؛ أي: قـل لهم: ذلكمُ اللهُ الَّذي يُحيي الموتى ويحكمُ بين المختلفين هوَ ربِّي.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ أي: فوَّضتُ إليه أمري ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾؛ أي: وإلى اللهِ أَرجعُ بإيماني، لا أقصدُ بعملي سواه. وقيلَ: أي: إليه مَرجِعي غداً.

***

(١١) ـ ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: ذلكمُ اللهُ ربِّي الَّذي هـوَ فاطرُ السَّماواتِ والأرض؛ أي: مُبدِئُهما، يُقالُ: فَطَرَ النَّابُ؛ أي: طلعَ، وفطرتُ هذه البئرَ؛ أي: شققتُها وأطلعتُ ماءَها.

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾؛ أي: أزواجاً من الأهلِ.

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾؛ أي: أصنافاً ذكوراً وإناثاً للتناسُلِ، ويُقالُ: للانتفاع بها.

﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِ﴾؛ أي: يُكثِّرُكم في هذا التَّزويجِ، ولولا هذا التَّزويجُ لم يكثر النَّسل، يُقالُ: ذرأَ اللهُ الخَلقَ؛ أي: خلقَهم، وقولُه: ﴿فِيهِ﴾ يرجعُ إلى الجعلِ في قولِه: ﴿جَعَلَ لَكُم﴾.

وقالَ الفرَّاءُ: ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِ﴾؛ أي: به[1]؛ أي: بجعلِه أزواجاً.

وقالَ القُتَبيُّ: المعنى؛ أي: يخلقُكم في الرَّحِمِ[2]، فهو كنايةٌ عن غيرِ مذكورٍ، والرَّحمُ يُذكَّرُ ويُؤنَّثُ، **وهذا بعيد.**

﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾؛ أي: لا يشبهُ شيئاً ولا يُشبِهُه شيءٌ.

وقيلَ: الكافُ زائدةٌ في قولِه: ﴿كَمِثۡلِهِۦ﴾.

وقيلَ: (مثل) صِلةٌ، تقول: «لا يُقالُ هذا لمثلي»؛ أي: لي.

وقيلَ: هذا التَّشبيهُ يحصلُ بحرفين؛ الكاف والمثل، فجَمعَ بينهما، ونفى التَّشبيهَ بهما عن نفسِه للتَّأكيدِ.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ لمَّا نفى التَّشبيهَ بيَّنَ أنَّه سميعٌ بصيرٌ؛ لنعلمَ أنَّ الاشتراكَ في هذا لا يُوجِبُ التَّماثُل.

* * *

(١٢) ـ ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: مفاتيحُ الرِّزقِ، قيل: هيَ خزائنُ

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٢).

(٢) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٣٩١). وقال القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٤٤٩): وفيه بعد، لأن الرحم مؤنثة ولم يتقدم لها ذكر.

المطرِ، وفي الأرضِ خزائنُ النَّباتِ، يُقالُ: مفتاحُ هذا الأمرِ بيدِ فلانٍ؛ أي: هوَ يملكُ فتحَه؛ أي: هوَ القادرُ على تيسيرِ الأمورِ.

وقيلَ: أشارَ بهذا إلى القدرةِ، وفي الخبرِ: «مقاليدُ السَّماواتِ والأرضِ: سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ ولا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبرُ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ العليِّ العظيمِ؛ فإنَّها من كنوزِ الجنَّةِ»[1].

***

(١٣) - ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾؛ أي: اللهُ الَّذي له مقاليدُ

---

(١) رواه العقيلي في «الضعفاء» (١/ ١١٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٩) عن عثمان رضي الله عنه. وضعفه العقيلي بأغلب بن تميم المسعودي. وقال: «وليس يُتابع أغلبَ عليه إلا من هو دونه».

ورواه مطولًا بزيادة فيه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٧/ ٢٤٤)، والعقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٢٣١)، والدينوري في «المجالسة» (٢٩٢٣)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٧٣)، والطبراني في «الدعاء» (١٧٠٠)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٩)، والثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٥٤) وغيرهم.

قال ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ١١٢): غريب جدًّا، وفي صحته نظر.

وقال المنذري كما في «إتحاف الخيرة المهرة» (٦٠٨٨): فيه نكارة، وقد قيل فيه: موضوع، وليس ببعيد.

لكن نقل ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (١/ ١٩٢) عن ابن حجر قوله: «عندي أنه منكر من جميع طرقه، وأما الجزم بكونه موضوعاً فأتوقف عنه؛ إذ لم أر في رواته من وصف بالكذب».

السَّماواتِ والأرضِ شرعَ لكم من الدِّينِ ما شرعَ لقومِ نوحٍ وإبراهيمَ وموسى وعيسى، وهوَ التَّوحيدُ.

﴿شَرَعَ﴾؛ أي: نهجَ وأوضَحَ وبيَّنَ المسالكَ، ويُقالُ: شُرِعَ الإهابُ؛ أي: شُقَّ، وشَرَعْتُ الجلدَ؛ أي: شقَقْتُ ما بينَ الرِّجلين وسَلَختُه.

و﴿ٱلدِّينِ﴾ الطَّاعةُ، ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾؛ أي: التَّوحيد.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾؛ أي: وشرعَ الَّذي أوحينا إليك: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾؛ ﴿أَنْ﴾ في محلِّ الرَّفعِ؛ أي: هوَ أن أقيموا.

وقيلَ: هوَ نصبٌ؛ أي: شرعَ لكم إقامةَ الدِّينِ.

وقيلَ: هوَ جرٌّ بدلاً من الهاءِ في قولِه تعالى: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ﴾، كأنَّه قالَ: بأن أقيموا الدِّينِ.

ويعني بهذا: التَّوحيد ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾؛ أي: لا تختلفوا في التَّوحيدِ.

وقالَ الكلبيُّ: من إقامةِ الدِّينِ: إقامةُ الصَّلواتِ والزَّكواتِ، والإقرارُ بطاعةِ اللهِ في كلِّ شيءٍ[1].

وخصَّ نوحاً وإبراهيمَ وموسى وعيسى لأنَّهم أربابُ الشَّرائعِ.

﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾؛ أي: استعظَموا دعاءَك إيَّاهم إلى التَّوحيد، ومعنى ﴿كَبُرَ﴾؛ أي: شَقَّ عليهم ذلك.

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ الاجتباءُ: الاختيارُ، وأصلُه: الجمعُ، يُقالُ: جَبَى الخراجَ، وجَبَى الماءَ في الحوضِ؛ أي: يختارُ اللهُ للتَّوحيدِ مَن يشاءُ.

وقيلَ: يصطفي لرسالتِه مَن يشاءُ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٤٩٨).

وقيلَ: ﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى.

﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى الدِّينِ الحقِّ والتَّوحيدِ، أو إلى اللهِ ﴿مَن يُنِيبُ﴾؛ أي: يتوبُ عن الشِّركِ.

***

(١٤) - ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾؛ أي: ما تفرَّقَ الخَلقُ إلَّا مِن بعدِ ما جاءَهم البيانُ على ألسنةِ الرُّسلِ، فليس تفرُّقُهم لقصورٍ في البيانِ والحججِ، ولكن للبغيِ والظُّلمِ والاشتغالِ بالدُّنيا، والمشركون قالوا: لم خُصَّ محمَّدٌ بالنبوَّة، واليهودُ حسدوه لـمَّا بُعِثَ، وكذا النَّصارى.

﴿بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: ظلماً منهم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ في تأخيرِ العذابِ عن هؤلاءِ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بينَ مَن آمَنَ وبينَ مَن كفَرَ.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قيلَ: عنى اليهودَ والنَّصارى.

وقيلَ: عنى العربَ وأُمَّةَ محمَّدٍ ﷺ؛ كقولِه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢].

﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ مِن بعدِ إتيانهم.

وقيلَ: التَّفرُّقُ المذكورُ في هذه الآيةِ: تفرُّقُهم في محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

وقيلَ: هوَ تفرُّقُ قومِ كلِّ نبيٍّ، فإنَّهم فيما بينهم اختلفوا لـمَّا طالَ بهم الهدى، فآمَنَ قومٌ، وكفَرَ قومٌ، واللهُ أعلمُ.

(١٥) - ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾؛ أي: قد بيَّنتُ نهجَكم، فادعُ إلى اللهِ، ولا تكن أنتَ في مِريةٍ، ولا تلتفتْ إلى تفرُّقِ الأهواء.

وقيلَ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾؛ أي: إلى ذلكَ فادعُ، وهوَ الشَّرعُ الَّذي بعثَ اللهُ به الرُّسلَ، يُقالُ: «دعوتُ لفلانٍ» و«دعوتُ إلى فلانٍ».

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: أي: إلى القرآنِ فادعُ الخَلقَ.

﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾؛ أي: بالتَّوحيدِ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾؛ أي: لا تنظرْ إلى خلافِ مَن خالَفَ ذلك ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾؛ أي: بكتبِ اللهِ كلِّها؛ فإنَّ اليهودَ آمنوا بالبعضِ، وكذا النَّصارى.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾؛ أي: لكي أعدلَ بينكم؛ أي: أُمِرتُ أن لا أحيفَ عليكم، وهذا العدلُ هوَ العدلُ في الأحكامِ.

وقيلَ: العدلُ بينَ أهلِ الكتابِ: أن يُؤمِنَ بأنبيائِهم وكتبِهم جميعاً.

قالَ مُقاتلٌ: عدلُه بينهم أن يدعوَهم إلى التَّوحيدِ.

وقيلَ: أي: قل: آمنتُ بما أنزلَ اللهُ من كتابٍ، فلا أفرِّقُ بين نفسي وبينكم، ولا آمرُكُم إلَّا بما ألتزِمُه، بل أُسوِّي بينكم وبينَ نفسي، فهذا هوَ العدلُ.

﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ فيه قولان:

أحدُهما: أنَّه نزلَ قبلَ الأمرِ بالقتالِ؛ أي: لنا ثوابُ أعمالِنا، ولكم ثوابُ أعمالِكم.

والثَّاني: أنَّه ليسَ بمنسوخٍ؛ أي: ظهرَتِ الحججُ، ولم يبقَ منكم إلَّا العنادُ، وبعدَ العنادِ ﴿لَا حُجَّةَ﴾ ولا جدالَ ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾؛ أي: إذا صارَ الأمرُ إلى اللهِ فهو يحكمُ بيننا، فلا يبقى لكم حينئذٍ عنادٌ.

* * *

(١٦) - ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾؛ أي: هؤلاءِ الَّذين أخبرَ اللهُ أنَّه لا حجَّةَ بيننا وبينهم كانُوا مع هذا يُحاجُّونَ المسلمينَ، وهم اليهودُ والنَّصارى، وكانُوا يرَونَ لأنفسِهم الفضيلةَ بأنَّهم أهلُ الكتابِ، وأنَّهم أولادُ الأنبياء، وكانَ المشركون يقولون: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣]، فقالَ اللهُ: إنَّ هؤلاءِ الَّذين يُحاجُّون مَن أسلمَ ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾؛ أي: لا ثباتَ لها، كالشَّيءِ يزلُّ عن موضعِه.

وقيلَ: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾؛ أي: من بعدِ ما وحَّدُوا اللهَ وشهدُوا له بالوحدانيَّة؛ أي: يحاجُّونَ في اللهِ بالباطلِ بعد أن كانُوا مؤمنين يستفتحونَ بمحمَّدٍ عليه السَّلام قبلَ بعثتِه، ثمَّ حسدوه لـمَّا بُعِثَ وكفروا، يعني: اليهودَ.

وعلى الأوَّلِ: يحاجُّون في اللهِ بعدما أسلمَ أقوامٌ واستجابوا.

وقيلَ: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ يومَ الذَّرِّ.

وقيلَ: من بعدِ ما استُجِيبَ لمحمَّدٍ في دعوتِه من أهلِ بدرٍ، ونصرِ اللهِ المؤمنين.

وقيلَ: أي: مِن بعدِ ما استجابَ للهِ جميعُ الأشياءِ من جهةِ الخِلقةِ.

* * *

(١٧) ـ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾؛ أي: القرآنَ، أو سائرَ الكتبِ المنزَلةِ.

﴿وَٱلْمِيزَانَ ﴾؛ أي: العدلَ، والعدلُ يُسمَّى ميزاناً لأنَّ الميزانَ آلةُ الإنصافِ والعدلِ.

وقيلَ: الميزانُ: ما بُيِّنَ في الكتبِ ممَّا يجبُ على كلِّ إنسانٍ أن يعملَ به.

وقيلَ: ﴿وَٱلْمِيزَانَ ﴾؛ أي: ألهمَ العبادَ اتِّخاذَ الميزانِ، وإذا كانَ الأمرُ بالعدلِ مُنزَلاً، كانَ[1] ما اتُّخِذَ آلةً له مُنزَلاً أيضاً، وقد قالَ اللهُ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ قالَ الزَّجَّاجُ: لم يقلْ: قريبةٌ؛ لأنَّ تأنيثَ ﴿ٱلسَّاعَةَ ﴾ غيرُ حقيقيٍّ، والمعنى: لعلَّ البعثَ، أو: لعلَّ مجيءَ السَّاعةِ قريبٌ[2].

* * *

(١٨) ـ ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ﴾؛ أي: بالسَّاعةِ، فكان استعجالُ الكفَّارِ إيهاماً للضَّعفةِ أنَّ السَّاعةَ لا تكونُ.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ لاستقصارِهم أنفسَهم مع الجهدِ في الطَّاعةِ، كما قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

---

(١) في (أ): «وكان» والصواب المثبت.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٩٦).

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: الصِّدقُ الَّذي لا كذبَ فيه، وأنَّها آتيةٌ لا ريبَ فيها.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾؛ أي: يَشكُّون فيها ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾؛ إذ لو فكَّرُوا لعلمُوا أنَّ الَّذي أنشأهم من ترابٍ ثمَّ من نُطفةٍ إلى أن بلغوا ما بلغوا قادرٌ على بعثِهم.

* * *

(١٩) ـ ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ كانَ الكفَّارُ يعتقدونَ أنَّ الغنى لهم فضيلةٌ، وكانَ في مُخالفيهم أيضاً مَن هوَ غنيٌّ، ومَن هوَ أغنى منهم، فغفلوا عن تفضيلِه على أنفسِهم، وبيَّنَ الرَّبُّ أنَّ ذلكَ صادرٌ عن المشيئةِ، فيرزقُ اللهُ مَن يشاءُ ويحرمُ مَن يشاءُ، وفي تفضيلِ قومٍ بالمالِ حكمةٌ؛ ليحتاجَ البعضُ إلى البعضِ، كما قالَ: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]، وكانَ هذا لطفاً بالعبادِ، وكانَ ﴿لَطِيفٌۢ﴾؛ أي: عالمٌ بغوامضِ أمورِهم.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: أي: لطيفٌ بأوليائِه وأهلِ طاعتِه[1]. وعلى الأوَّلِ: لطيفٌ بالبرِّ والفاجرِ، يرزقُهم جميعاً.

* * *

(٢٠) ـ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الحرثُ: الكسبُ؛ أي: مَن طلبَ

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٥٠٦) عن عطاء. وذكر الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٣٣٩)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٨٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «﴿لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ حفي بهم».

فيما رزقناه حَرثاً لآخرتِه، فأدَّى حقوقَ اللهِ، وأنفقَ في إعزازِ الدِّينِ، فإنَّا نُعطيه ثوابَ ذلكَ للواحدِ عشرٌ إلى سبعِ مئةٍ فأكثرَ.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: مَن طلبَ بالمالِ الَّذي آتاه اللهُ رئاسةَ الدُّنيا والتوصُّلَ إلى المحظوراتِ، فإنَّا لا نحرمُه الرِّزقَ أصلاً، ولكن لا حظَّ له في الآخرةِ مِن مالِه، قالَ اللهُ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ١٩].

وقيلَ: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾؛ أي: نُوفِّقْه للعبادةِ ونُسهِّلْها عليه.

وقيلَ: حرثُ الآخرةِ: الطَّاعةُ؛ أي: مَن أطاعَ فله الثَّوابُ.

وقيلَ: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾؛ أي: نُعطيه الدُّنيا مع الآخرةِ.

وقيلَ: هذا فيمَن غزا مع النَّبيِّ عليه السَّلامُ وأنفقَ في الجهادِ؛ أي: إن قصدَ به الآخرةَ فله الثَّوابُ العظيمُ، وإن قصدَ الغنيمةَ فهو غيرُ محرومٍ عنها، أرادَ المنافقين؛ فإنَّ النَّبيَّ عليه السَّلام كانَ يُؤتيهم سهامَهم، ولكن لا نصيبَ لهم في الثَّوابِ.

والظاهرُ أنَّ الآيةَ في الكافرِ تُوسَّعُ عليه الدُّنيا؛ أي: لا ينبغي أن يغترَّ بذلك؛ لأنَّ الدُّنيا لا تبقى.

* * *

(٢١) ـ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ هذا متَّصلٌ بقولِه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾، وقولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ

ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: إن كانُوا لا يؤمنونَ به فهل لهم آلهةٌ شرعوا لهم الشِّركَ الَّذي لم يأذَنِ اللهُ به؟! وإذا استحالَ هذا، واللهُ لم يَشرعِ الشِّركَ، فمِن أين يَدينونَ به؟!

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: لولا القولُ السَّابقُ مِن اللهِ أنَّه لا يُنزِلُ بهم العذابَ في هذا الوقتِ لحلَّ بهم العذابُ.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: عذابُهم مُؤخَّرٌ إلى يومِ القيامةِ، ولكنَّه عذابٌ شديد.

* * *

(٢٢ـ٢٣) ـ ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟﴾؛ أي: إذا رأوا العذابَ أشفقُوا ممَّا قدَّمُوا من المعاصي في الدُّنيا ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾؛ أي: والعذابُ واقعٌ بهم، أو: جزاءُ ما كسبُوا واقعٌ بهم، والمعنى: أنَّهم إذا شاهدوا العذابَ من بعيدٍ غلبَ على ظنونِهم أنَّه ممَّا أُعِدَّ لهم، فيُحقِّقُ الله ذلكَ عليهم، ويُلقيهم في النَّارِ.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾؛ أي: ويدخلُ اللهُ المؤمنين الجنَّةَ، والرَّوضةُ: الموضعُ النَّزِهُ الكثيرُ الخُضرة.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: من النَّعيم.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الَّذي ينبغي أن يُرغَب فيه.

قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فيه حذفٌ؛ أي: يُبشِّرُ اللهُ به عبادَه؛ ليتعجَّلوا السُّرورَ به، ويَزدادوا جِدًّا في الطَّاعةِ.

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾؛ أي: قل يا محمَّدُ: لا أسألُكم على ما أُبلِّغُكم عنِ اللهِ عوضاً، إنَّما أجري على اللهِ.

﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾؛ أي: إلَّا أن تَوَدُّوني لقرابتي فيكم؛ أي: مِن أجلِ قرابتي منكم؛ فإنَّ ذلكَ يدعوكم إلى النَّظرِ إليَّ بعينِ المودَّةِ، وبزوالِ الظِّنَّةِ عنكم، وتعلمونَ أنِّي أنذرتُكم وأريدُ بكم الخيرَ فيما أدعوكم إليه.

قالَ الشَّعبيُّ: أكثرَ النَّاسُ علينا في هذه الآيةِ، فكتبنا إلى ابنِ عبَّاسٍ نسأله عنها، فكتبَ أنَّ رسولَ اللهِ كانَ واسطةَ النَّسبِ في قريشٍ، فليس بطنٌ من بطونِهم إلَّا وقد ولدَه، فقالَ اللهُ: قل لا أسألكم عليه أجراً إلَّا أن تودُّوني في قرابتي منكم[1]؛ أي: تُراعوا ما بيني وبينكم فتصدِّقوني.

و﴿ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ هاهنا: قرابةُ الرَّحمِ، كأنَّه قالَ: اتَّبعوني للقرابةِ؛ أي: إن لم تتبعوني للنُّبوَّةِ.

وقيلَ: ﴿ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾: قرابةُ الرَّسولِ عليه السَّلام؛ أي: لا أسألُكم أجراً إلَّا أن تودُّوا قرابتي وأهلَ بيتي، وهوَ كما أُمِرَ بإعطاءِ سهمِ ذوي القُربى.

وقيلَ: ﴿ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ هاهنا: القُربةُ إلى اللهِ تعالى؛ فالقُربةُ والقُربى بمعنًى كالزُّلفةِ والزُّلفى؛ أي: لا أسألُكم أجراً إلَّا أن تتوادُّوا فيما بينكم فيما يُقرِّبُكم إلى اللهِ تعالى.

وقالَ قومٌ: الآيةُ منسوخةٌ بقولِه: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍ فَهُوَ لَكُمۡ﴾ [سبأ: ٤٧]، وقولِه: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

وقالَ الزَّجَّاجُ: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ﴾ استثناءٌ ليسَ مِن الأوَّل، وليسَ المعنى: أسألُكم

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٦٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ١٨٥).

المودَّةَ في القُربى؛ لأنَّ الأنبياءَ لا يسألون أجراً على تبليغ الرِّسالةِ، بل المعنى: ولكن أذكُرُ لكم المودَّةَ في القُربى؛ أي: أذكُرُ لكم قرابتي، فهو في اللَّفظِ أجرٌ، وليسَ بأجرٍ، والمعنى: لا أسألُكم عليه أجراً، لكن أسألُكم المودَّةَ في القُربى(١).

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾؛ أي: مَن يكسبْ حسنةً نضاعِفْ له الحسنةَ الواحدةَ بعشرٍ فصاعداً.

* * *

(٢٤) - ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ لـمَّا قالَ: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾، وقالَ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾، قالَ إتماماً للبيان: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ أي: أيَقبلونَ منك ما تدعوهم إليه، أم يقولون: افترى على اللهِ كذباً؛ أي: يقولون: إنَّ هذا الكتابَ الَّذي تدعوهم إليه إنَّما افتريتَه على اللهِ، فهو مِن عندك، ولو كانَ الأمرُ كما ظنُّوا لما خلَّاكَ اللهُ وافتراءَكَ عليه، ولأمكنَهم مُعارضتُكَ، وظهورُ المعجزِ على يدي الكاذبِ في دعوى النُّبوَّةِ مُحالٌ.

﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فلا يخرجْ منه على لسانِك شيءٌ من الكلامِ الَّذي تقرؤه عليهم، ولا يدخلُه من الكلامِ شيءٌ؛ كالكتابِ المختومِ الَّذي لا يُوقَفُ على ما في جوفِه، ولا يُمكنُ إدخالُ شيءٍ فيه مع بقاءِ خَتمِه.

وقالَ مجاهدٌ: أي: إن يشأِ اللهُ يربطْ على قلبِك بالصَّبرِ على أذاهم حتَّى لا يَدخلَ قلبَكَ مشقَّةٌ من قولِهم: إنَّه افترى على اللهِ(٢).

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٩٨).

(٢) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٣٦٢)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٩٢).

وتمَّ الكلامُ، ثمَّ قالَ:

﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾؛ أي: الشِّركَ؛ أي: يَذهبُ به وبقولِهم: إنَّ محمَّداً لكذَّابٌ.

﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾؛ أي: الإسلامَ، فيُثبِّتُه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾؛ أي: بما أنزلَه من القرآنِ في المصحفِ.

﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ﴾ من غيرِ واوٍ؛ [لا][1] لأنه عطفٌ على قولِه: ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، ولكنَّه كما كتبُوا ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الإسراء: ١١]، و﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، وإنَّما حذفُوا الواوَ لسقوطِها في اللَّفظ.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: بما في قلوبِ العبادِ.

وقيلَ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾؛ أي: بل يقولون.

وقيلَ: أي: فإن يشأِ اللهُ يختمْ على قلوبِ الكفَّارِ وعلى ألسنتِهم، ويعاجلْهم بالعقابِ، فالخطابُ له والمرادُ الكفَّارُ.

* * *

(٢٥) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾؛ أي: هؤلاءِ الَّذين يَنسبونَ محمَّداً إلى الفِريةِ يستحقُّونَ العقوبةَ، ثمَّ ندبَهم إلى التَّوبةِ؛ فمَن تابَ عن شِركِه فالإسلامُ يجبُّ ما قبلَه، وإنَّما أخَّرَ عذابَ هذه الأمَّةِ ليتوبَ تائبُهم ويؤمنَ مؤمنُهم.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾؛ أي: عن أوليائِه وأهلِ طاعتِه[2]. **والآيةُ عامَّةٌ.**

---

(١) زيادة يقتضيها السياق مستفادة من «البسيط» (١٩/ ٥١٣).

(٢) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٥١٤)، و«الوسيط» (٤/ ٥٣)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٩٣).

﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: عن الشِّركِ قبلَ الإسلام ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾؛ أي: مِن الخيرِ والشَّرِّ، وقُرِئَ بالياء والتَّاء[1]؛ أي: إن لم يتوبوا لم تَخفَ عليه معاصيهم، فهو يُجازيهم.

***

(٢٦) ـ ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: يقبلُ عبادةَ مَن أخلَصَ له بقلبِه وأطاعَ هديَه.

وقيلَ: يُعطيهم مسألتَهم، يُقالُ: أجابَ واستجابَ بمعنًى، ويُقالُ: استجابَ له، وأجابَه، واستجابَه كقولِه: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين: ٣]؛ أي: كالوا لهم.

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: سوى ثوابِ أعمالِهم تفضُّلاً منه عليهم.

وقيلَ: يُشفِّعُهم في إخوانِهم ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: في إخوانِ إخوانِهم.

***

(٢٧) ـ ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بيَّنَ أنَّه يرزقُ مَن يشاءُ، ثمَّ بيَّنَ أنَّه مَن ضُيِّقَ عليه الرِّزقُ فليس ذلكَ لهوانِه، بل الدُّنيا دارُ ابتلاء، وأفعالُ الرَّبِّ لا تخلو عن مصالح، وإن لم يجبْ عليه الاستصلاح[2]، فقد يَعلمُ مِن حالِ عبدٍ أنَّه

---

(١) حفص وحمزة والكسائي بالتاء والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٩٥).

(٢) لعلَّه رد على المعتزلة في قولهم بوجوب الأصلح على الله تعالى.

لو بسطَ الرِّزقَ عليه لأدَّى ذلكَ إلى الفساد، فيَزوي عنه الدُّنيا مصلحةً، فليس ضِيقُ الرِّزقِ هواناً، ولا سعةُ الرِّزقِ فضيلةً.

قالَ خبَّابُ بنُ الأرتِّ: نزلَتِ الآيةُ فينا ـ يعني: أصحابَ الصُّفَّةِ ـ وذلك أنَّا نظرنا إلى أموالِ بني قريظةَ والنَّضيرِ فتمنَّيناها، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ[1].

وقيلَ: أرادَ: لو أعطاهم الكثيرَ لطلبُوا ما هوَ أكثرُ منه، كقولِه: «لو كانَ لابنِ آدمَ واديانِ مِن ذهبٍ لابتغى إليهما ثالثاً»[2]، وهذا هوَ البغيُ.

وقيلَ: أي: لو جعلناهم سواءً في المالِ لما انقادَ بعضُهم لبعضٍ، ولتعطَّلَت الصَّنائعُ.

والبغيُ: طلبُ ما ليسَ لك طلبُه.

﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هوَ ظرفٌ للعبادِ، وقيلَ: للبغي.

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾؛ أي: يُنزِّلُ ما يشاءُ من الرِّزقِ نظراً منه لأوليائِه.

وقيلَ: أرادَ بالرِّزق: المطرَ الَّذي هوَ سببُ الرِّزق؛ أي: لو دامَ المطرُ لتشاغلوا به عن الدُّعاءِ، فيُقبَضَ تارةً ليتضرَّعوا، ويُبسَطُ أخرى ليشكروا.

وقيلَ: كانُوا إذا أخصبُوا أغارَ بعضُهم على بعضٍ، فلا يبعدُ حَملُ البغي على هذا، وقد أعطى أقواماً مع علمِه بأنَّهم يستعملونَهم في الفسادِ، ولو فعلَ بهم خلافَ ما فعلَ لكانُوا أقربَ إلى الصَّلاحِ، والأمرُ على الجملةِ مُفوَّضٌ إلى مشيئتِه، ولا يُمكنُ مذهبُ الاستصلاحِ في كلِّ فعلٍ من أفعالِ الله.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٣٧٢)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥٤)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٩٤).

(٢) رواه البخاري (٦٤٣٩)، ومسلم (١٠٤٨)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢٨) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾؛ أي: بعدَ قنوطِ العبادِ؛ أي: مَن قدرَ على ذلكَ قدرَ على أن يَعمَّ جميعَ العبادِ بسعةِ الرِّزقِ، ولكنه يفعلُ ما يريدُ.

﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾؛ أي: المطرَ والنِّعم.

﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾؛ أي: وليُّ أمورِ الخَلقِ على ما يشاءُ.

قالَ مُقاتلٌ: نزلَت حينَ حبسَ اللهُ المطرَ عن أهلِ مكَّةَ سبعَ سنين حتَّى قَنطوا، ثمَّ أنزلَ اللهُ المطرَ(١).

وقيلَ: نزلَت في الأعرابِيِّ الَّذي سألَ رسولَ اللهِ عليه السَّلامُ المطرَ يومَ الجمعةِ في خبرِ الاستسقاءِ(٢).

* * *

(٢٩) ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾؛ أي:

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٧٠).

(٢) يعني ما رواه البخاري (٩٣٣)، ومسلم (٨٩٨)، عن أنس رضي الله عنه قال: أصابت الناس سنة على عهد النبي ﷺ، فبينا النبي ﷺ يخطب في يوم جمعة، قام أعرابي فقال: يا رسول الله، هلك المال، وجاع العيال، فادع الله لنا. فرفع يديه، وما نرى في السماء قزعة، فوالذي نفسي بيده، ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته ﷺ، فمطرنا يومنا ذلك، ومن الغد، وبعد الغد، والذي يليه حتى الجمعة الأخرى، وقام ذلك الأعرابي، أو قال غيره، فقال: يا رسول الله، تهدم البناء، وغرق المال، فادع الله لنا. فرفع يديه فقال: «اللهم حوالينا ولا علينا». فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت، وصارت المدينة مثل الجوبة، وسال الوادي قناة شهرًا، ولم يجئ أحد من ناحية إلا حدث بالجود.

مِن أصنافِ الخليقةِ الَّتي تَدبُّ؛ أي: تتحرَّكُ بالحياةِ من جنٍّ وإنسٍ وبهائمَ وحشراتٍ، فمَن اعترفَ بأنَّ اللهَ خالقُها فمِن المحالِ أن لا يعترفَ بقُدرتِه على الإعادةِ، ومَن لم يعترف بخلقِها قُرِّرَ عليه ذلكَ بأهونِ سَعْيٍ.

وقالَ مجاهدٌ: يدخلُ في هذا الملائكةُ والنَّاس[1].

وقيلَ: أي: بثَّ في الأرضِ خاصَّةً دونَ السَّماءِ، كقولِه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وإنَّما يخرجُ من الملحِ دونَ العذب.

وقالَ أبو عليٍّ: تقديرُه: وما بثَّ في أحدِهما، فحذفَ المضاف، وقولُه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾؛ أي: من أحدِهما[2].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾؛ أي: يومَ القيامةِ ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾.

* * *

(٣٠) ـ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ﴾؛ أي: ما أصابَكم مِن نقصٍ في نفسٍ وأهلٍ ومالٍ فهو عقوبةٌ على بعضِ الذُّنوب، وفي الخبرِ: «ما خدشُ عُودٍ، ولا عثرةُ قدمٍ، ولا اختلاجُ عِرقٍ، إلَّا بذنبٍ، وما يَعفو اللهُ أكثرُ» ثمَّ قرأ هذه الآيةَ[3].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٥١٢)، وزاد السيوطي نسبته في «الدر المنثور» (٧/ ٣٥٤) إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) انظر: «الحجة» (٦/ ٢٤٧)، و«البسيط» (١٩/ ٥١٩)، وعنه نقل المصنف.

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٧٤٢)، وهناد في «الزهد» (٤٣١)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٣٧٧)، عن الحسن عن النبي ﷺ، وهو مرسل.

ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٥١٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٣٥٨)، عن قتادة عن النبي ﷺ، وهو مرسل أيضاً.

=

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾؛ أي: يتجاوزُ عن كثيرٍ من الذُّنوبِ فلا يُعاقبُ بها.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: ما عفا عنه في الدُّنيا فاللهُ أعزُّ وأكرمُ مِن أن يعودَ في عَفوِه، وما عاقَبَ عليه في الدُّنيا فاللهُ أكرمُ مِن أن يُعيدَ العذابَ عليه في الآخرةِ(١).

ورُوِيَ هذا مرفوعاً إلى النَّبيِّ عليه السَّلام عن علي، ثمَّ قرأ هذه الآيةَ(٢).

وهذا في حقِّ المؤمنين، وأمَّا الكافرُ فعقوبتُه مُؤَخَّرةٌ إلى الآخرةِ.

وقيلَ: هذا خطابٌ للكفَّارِ، وكانُوا إذا أصابهم شرٌّ قالوا: هذا شؤمُ محمَّدٍ، فرَدَّ عليهم، وقالَ: بل ذلكَ بشؤمِ كفرِكم.

* * *

= ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٧٤١) من طريق قتادة عن الحسن قال: «بلغنا أنه ليس من أحد...» فذكره.

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٥٢٠).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦٤٩)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤٥٣)، من طريق أبي سخيلة عن علي رضي الله عنه مرفوعاً، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٠٤): فيه أزهر بن راشد وهو ضعيف.

وروي دون ذكر الآية بإسناد حسن، رواه الترمذي (٢٦٢٦)، وابن ماجه (٢٦٠٤)، من رواية أبي جحيفة عن عليٍّ رضي الله عنه مرفوعاً أيضاً بلفظ: «من أصاب ذنبًا في الدنيا فعوقب به فالله أعدل من أن يثني على عبد عقوبته، ومن أذنب ذنباً فستر الله عليه وعفا عنه فالله أكرم من أن يعود في شيء عفا عنه»، قال الترمذي: حسن غريب.

وروى البخاري (٦٧٨٤)، ومسلم (١٧٠٩)، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ في مجلس فقال: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا ولا تزنوا، وقرأ هذه الآية كلها، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً، فعوقبَ به فهو كفارته، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه».

(٣١) - ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: لا تُعجزونني حيثُ ما كنتُم، وإن أخَّرتُ العذابَ، فلا يفوتُني شيء.

***

(٣٢ - ٣٥) - ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٣٢ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ٣٣ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ٣٤ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ يعني: السُّفنَ الجاريةَ في البحرِ كأنَّها مِن عظمتِها أعلامٌ؛ أي: راياتٌ تُنشَرُ، وقيلَ: أرادَ بالأعلامِ الجبالَ، جعلَها ليَستعينَ بها العبادُ ويقطعوا عليها المسافةَ البعيدةَ في المدَّةِ اليسيرةِ للتِّجاراتِ، فمَن قدَرَ على هذا قدَرَ على أن يرزقَ مَن يشاءُ.

﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ﴾؛ أي: الَّتي بهبوبِها تسيرُ السُّفنُ، فتظلُّ السُّفنُ ﴿رَوَاكِدَ﴾؛ أي: سواكنَ على ظهرِ البحرِ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾؛ أي: لكلِّ راضٍ بتدبيرِ اللهِ مُستسلِمٍ لقضائِه، وذكرَ الصبَّارَ والشَّكورَ لاتِّصالِ الكلامِ ببسطِ الرِّزقِ وقبضِه، وحقُّ مَن بُسِطَ عليه الرِّزقُ أن يشكرَ، وحقُّ من ضُيِّقَ عليه الرِّزقُ أن يصبرَ.

والرُّكودُ: السُّكون، يُقالُ: ركد الماء، وركدَت الرِّيحُ.

﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾؛ أي: وإن يشأْ يجعلِ الرِّياحَ عواصفَ فيُوبِقِ السُّفنَ.

وقيلَ: يُوبِقْ أهلَ السُّفنِ بالغرقِ، يُقالُ: أوبقَه؛ أي: أهلكَه، يُوبِقُه إيباقاً، ووَبَقَ يَبِقُ؛ أي: هلَكَ، مثلَ: وَمِقَ يَمِقُ.

﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾؛ أي: ويتجاوزُ عن كثيرٍ من الذُّنوبِ فيُنجِّيهم اللهُ من الهلاكِ.

والقراءةُ الفاشيةُ ﴿وَيَعْفُ﴾ بالجزمِ، **وفيها إشكالٌ**؛ لأنَّ المعنى: إن يشأْ يسكنِ الرِّيحَ فتبقى تلك السُّفنُ رواكدَ، أو يهلكْها بذنوبِ أهلِها، ولا يحسنُ عطفُ ﴿يعف﴾ على هذا؛ لأنَّه يصيرُ المعنى: إن يشأ يعفُ، وليسَ المعنى ذلكَ، بل المعنى الإخبارُ عن العفوِ من غيرِ شرطِ المشيئةِ، فهو إذاً عطفٌ على المجزومِ من حيثُ اللَّفظُ لا من حيثُ المعنى، وقد قرأَ قومٌ (ويعفو) بالرَّفعِ[1]، **وهيَ جيِّدةٌ في المعنى**.

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾؛ أي: فإذا فعلَ ذلكَ، وبقيَتِ السُّفنُ راكدةً علمَ الكفَّارُ أنَّه لا ملجأَ لهم سوى الله، ولا دافعَ لهم إن أرادَ اللهُ إهلاكَهم، فيُخلِصون له العبادةَ.

قُرِئَ: ﴿ويعلمُ﴾ بالرَّفعِ، وهوَ عطفُ جملةٍ على جملةٍ؛ أي: والذين يُجادلونَ في آياتِنا يعلمونَ ما لهم من محيصٍ، وهوَ كقولِك: «إن تأتِني آتِك، وينطلقُ عبدُ اللهِ يومَ الجمعةِ، وأنا آتيكَ غداً»، فهو عطفُ الحديثِ بعضه على بعضٍ.

وقُرِئَ: ﴿وَيَعْلَمَ﴾ بالنَّصبِ[2] ردّاً على الجزمِ، إلَّا أنَّه صُرِفَ، والجزمُ إذا صُرِفَ عنه معطوفُه نُصِبَ، قالَه الفرَّاءُ، قالَ: ولو جُزِمَ (ويعلمْ) جازَ[3]

وقالَ الزَّجَّاجُ: نُصِبَ على إضمارِ (أنْ)؛ لأنَّ قبلَها جزاءٌ، تقولُ: «ما تصنعْ أصنعْ مثلَه وأكرمَك»، وإن شئتَ قلتَ: وأكرمُك؛ أي: وأنا أكرمُك، وإن شئتَ قلتَ: «وأكرمْك» بالجزم[4].

---

(١) قراءة الأعمش كما في «البحر» (١٩/ ٣٨).

(٢) قرأ نافع وابن عامر بالرفع، والباقون بالنصب. انظر: «السبعة» (ص: ٥٨١)، و«التيسير» (ص: ١٩٥).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٤ ـ ٢٥).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٩٩).

وقالَ أبو عليٍّ والمُبرِّدُ: النَّصبُ بإضمارِ (أن) على أن يُجعَلَ الأوَّلُ في تقديرِ المصدرِ؛ أي: ويكونُ منه عفوٌ وأن يعلمَ، فلمَّا حملَه على الاسمِ أضمرَ (أن)، كما تقولُ: «إن تأتِني وتعطيَني أُكرمْك»، فتنصبُ «تعطيَني»؛ أي: إنَّه يكن منك إتيانٌ وأن تعطيَني[١].

وفي بعضِ المصاحفِ: (وليعلمَ)[٢]، فهذا يدلُّ على أنَّ النَّصبَ بمعنى: وليعلمَ، أو: لأنْ يعلمَ، كما ذكرنا عن الزَّجَّاجِ.

***

(٣٦) ـ ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: ما أُعطِيتُم من الدُّنيا فما ذلكَ [بدائم][٣]، وإنَّما هوَ متاعٌ في أيَّامٍ قليلةٍ ستمضي، فلا ينبغي أن يُتفاخَرَ به.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: ينبغي أن يَشغلوا عمرَهم بطاعةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى لينالوا النَّعيمَ الَّذي لا يَفنى.

***

(٣٧) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ هذا من صفاتِ المؤمنينَ المُتوكِّلينَ على اللهِ؛ أي: أنَّهم يجتنبونَ الفواحشَ والكبائرَ.

---

(١) ذكره عنهما الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٥٢٥). وانظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٦/ ١٣٠ ـ ١٣٢).

(٢) نقلها عن المصنف أبو شامة في «إبراز المعاني» (ص: ٦٧٧)، والقرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٤٨٣).

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

قالَ مُقاتلٌ: كبائرُ الإثمِ: كلُّ ذنبٍ خُتِمَ بنارٍ(١).

وقرأ حمزةُ: ﴿كَبيرَ الإثمِ﴾(٢)، والواحدُ قد يُرادُ به الجمعُ عندِ الإضافةِ، كقولِه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، وكما في الخبرِ: «مَنَعَتِ العراقُ درهمَها وقفيزَها»(٣).

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: يريدُ الشِّركَ(٤).

وقالَ قومٌ: كلُّ ذنبٍ كبيرةٌ، ونعتُ الشَّيءِ قد يُضافُ إليه، تقول: انظرْ إلى عظيمِ ما نزلَ بفلانٍ؛ أي: إلى الأمرِ العظيمِ النَّازلِ به، فالمعنى: والذين يجتنبونَ الآثامَ كلَّها.

وقيلَ: كبائرُ الإثمِ: ما أصرَّ عليه الإنسانُ، ولم يتبْ منه(٥).

وقالَ قومٌ: كبائرُ الإثمِ: ما تقعُ الصَّغائرُ مغفورةً عندَ اجتنابِها.

والفواحشُ داخلةٌ في الكبائرِ، ولكنَّها تكونُ أفحشَ وأشنَعَ كالقتلِ بالنِّسبةِ إلى الجَرحِ، والزِّنى بالنِّسبةِ إلى الـمُراودات.

وقيلَ: الفواحشُ والكبائرُ بمعنًى واحدٍ، فكُرِّرَ لتعدُّدِ اللَّفظ؛ أي: يجتنبون المعاصيَ لأنَّها كبائرُ وفواحشُ.

وقيلَ: الفواحشُ: الزِّنى، وقيلَ: ما يُقامُ عليه الحدُّ في الدُّنيا.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٧٢).

(٢) قراءة حمزة والكسائي، والباقون: ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٥٨١)، و«التيسير» (ص: ١٩٥).

(٣) رواه مسلم (٢٨٩٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) ذكره الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٢٥)، والنحاس في «معاني القرآن» (٦/ ٣١٩)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٣٨٦).

(٥) في (أ): «ولم يثبت منه شيء» ولا معنى لها، ولعل المراد ما أثبت.

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾؛ أي: يعفُون. نزلَت في عمرَ حين شُتمَ بمكَّةَ(١).

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: شتَمَ رجلٌ من المشركين أبا بكرٍ، فلم يردَّ عليه بشيءٍ، فنزلَتِ الآيةُ وما بعدَها(٢).

و﴿هُمْ﴾ تأكيدٌ؛ أي: يَغفرونَ هم.

***

(٣٨) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾؛ أي: أطاعُوا الله فيما دعاهم إليه.

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: أدَّوها لمواقيتِها وشرائطِها وهيئاتِها.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: يتآلَفون على نصرِ الدِّين، ويتشاورونَ فيما بينهم في الجهادِ معَ الكفَّار، والشُّورى: فُعْلَى من المشاورةِ يقامُ مُقامَ المصدرِ، ويُقالُ: صارَ الأمرُ شُورى بينَ القومِ؛ أي: تشاوروا فيه.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾؛ أي: لا يبخلونَ في أداءِ حقوقِ اللهِ تبارك وتعالى.

---

(١) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٧٧٢)، والواحدي في «البسيط» (١٩/ ٤٩٦).

(٢) ذكره أبو حفص النسفي في «تفسيره» (١٣/ ٢٥٠) عن السدي، وأصل الحديث دون ذكر النزول رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٩٦٢٤)، والبزار في «مسنده» (٨٤٩٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢١٠٩٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٣٦٩٨): رجال أحمد رجال الصحيح.

وذكر مقاتل في «تفسيره» (١/ ٤١٨) أن هذه القصة سبب نزول قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [النساء: ١٤٨]، وذكرها الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٣٤) عن قتادة عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ [فصلت: ٣٥]، وسيذكره المصنف بعد آيتين عند قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾، وكذا فعل الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٢٥)، والسمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٤٧).

(٣٩ - ٤٣) - ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾؛ أي: أصابَهم بغيٌ من عدوِّهم عليهم انتصروا لأنفسِهم، ودفعُوا بغيَ عدوِّهم بالجهادِ معهم.

وقيلَ: هوَ عامٌّ في بغيِ كلِّ باغٍ من كافرٍ وغيرِه؛ أي: إذا نالَهم ظلمٌ من ظالمٍ لم يستسلمُوا الظلمِه. وهذا إشارةٌ إلى الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المُنكرِ وإقامةِ الحدودِ.

وقيلَ: ﴿هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾؛ أي: يتناصرونَ فيما بينهم، وينصرُ بعضُهم بعضاً، كما تقولُ: اقتتَلَ القومُ واختَصَموا؛ أي: تقاتلوا وتخاصموا.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: نزلَت في أبي بكرٍ شتمَه رجلٌ فسكَتَ ولم يردَّ عليه، وكانَ بحضرةِ النَّبيِّ عليه السَّلام، فلـمَّا طالَ شتمُه إيَّاه انتصرَ منه[١].

وقالَ في روايةٍ: نزلَت في المؤمنين أخرجَهم الكفَّارُ مِن مكَّةَ وبغَوا عليهم، ثمَّ مكَّنَهم اللهُ في الأرضِ حتَّى انتصروا ممَّن ظلَمَهم[٢].

وقيلَ: جعلَ المؤمنين صِنفين؛ صنفٌ يعفونَ عن الظَّالمِ، فبدأ بذكرِهم، وصنفٌ ينتصرون من ظالمِهم.

والانتصارُ: امتناعٌ مِن أن يُذلُّوا أنفسَهم، ومِن أن يَجترئَ عليهم الفُسَّاق، وإن كانَ العفوُ أحسن.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٥٣٠) من رواية الكلبي عن ابن عباس، وتقدمت إشارة إليه قريباً.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٥٣٠) من رواية عطاء عن ابن عباس، وذكره في «الوسيط» (٤/ ٥٧) عن عطاء.

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ الجملةُ: أنَّ الانتصارَ مِن الكافرِ حتمٌ، ومِن المُسلمِ مباحٌ، والعفوُ مندوبٌ إليه، وجزاءُ سيِّئةٍ سيِّئةٌ، والجروحُ قصاصٌ.

وقيلَ: هوَ أن يقولَ لمَن قالَ: «أخزاهُ الله» مثلَ هذا القولِ من غيرِ زيادةٍ، وأمَّا القذفُ الموجبُ للحدِّ فجزاؤُه الحدُّ.

ويُسمَّى جزاءُ السَّيِّئةِ سيِّئةً لأنَّ الأوَّلَ ساءَه في مالٍ أو بدنٍ، فهو في الاقتصاصِ يسوءُهُ كمِثْلِ ذلكَ أيضاً.

﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ضمِنَ له أجرَ العفوِ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: مَن بدأ بالظُّلمِ.

وقيلَ: لا يحبُّ مَن يتعدَّى في الاقتصاصِ ويُجاوزَ الحدَّ.

﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ ﴾؛ أي: المسلمُ إذا انتصرَ مِن الكافرِ الظَّالمِ له فلا سبيلَ إلى لومِه، بل يُحمَدُ على ذلكَ مع الكافرِ، ولا لومَ إن انتصرَ من الظَّالمِ المسلمِ.

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ ﴾؛ أي: لهم اللَّومُ في الدُّنيا والعذابُ الأليمُ في الآخرةِ.

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ هذا فيمَن ظلمَه مسلمٌ، فنُدِبَ هاهنا إلى العفوِ.

﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾؛ أي: من التَّيقُّنِ بالثَّوابِ والخُلفِ من الله.

وقيلَ: هذه الآياتُ في المشركين، وكانَ هذا في ابتداءِ الإسلامِ قبلَ الأمرِ بالقتالِ، ثمَّ نسخَتها آيةُ القتالِ.

* * *

(٤٤) ـ ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ هذا فيمَن أعرضَ عن النَّبيِّ

عليه السَّلام فيما دعاه إليه من الإيمانِ باللهِ والمودَّةِ في القُربى، ولم يصدِّقْه في البعثِ وأنَّ الدُّنيا متاعٌ قليلٌ؛ أي: مَن أضلَّه اللهُ عن هذه الأشياءِ ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾؛ أي: من بعدِ اللهِ، فلا يهديه هادٍ.

وقيلَ: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾؛ أي: من بعدِ إضلالِ اللهِ إيَّاه.

﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾؛ أي: يطلبونَ أن يُردُّوا إلى الدُّنيا ليعملُوا بطاعةِ اللهِ، فلا يُجابونَ إلى ذلكَ، والـمَرَدُّ: مَفْعَلٌ من الرَّدِّ، وهوَ بمعنى الرَّدِّ.

* * *

(٤٥) ـ ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾؛ أي: على النَّارِ؛ لأنَّها عذابُهم، فكنَى عنِ العذابِ المذكَّرِ بحرفِ التَّأنيثِ لأنَّ ذلكَ العذابَ هوَ النَّارُ، وأيضاً فلا يكون في الكتابِ أنَّ الكفَّارَ يُعرَضونَ غداً على النَّارِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وقالَ: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ [الكهف: ١٠٠]، وقالَ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ [غافر: ٤٦]، وهوَ كقولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١]؛ أي: أنزلنا القرآنَ، وإن لم يَجرِ للقرآنِ ذِكرٌ.

﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾؛ أي: مُنكسِرين ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾؛ أي: لا يرفعون أبصارَهم للنَّظرِ رفعاً تامًّا لأنَّهم ناكسو الرُّؤوس، والعربُ تصفُ الذَّليلَ بغضِّ الطَّرفِ.

وقيـلَ: أي: ينظـرونَ إلى النَّـارِ بقلوبِهم؛ لأنَّهم يُحشَـرون عُميـاً، وعينُ القلبِ طـرفٌ خفي.

وقيـلَ: أي: يفزعـون أن ينظـروا إليها بجميـعِ أبصارِهم لِمَا يـرونَ من أصنافِ العذاب.

قولُـه تعالـى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾؛ أي: بـاللهِ: ﴿إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي: يقـولُ المؤمنـون لـمَّا عاينُـوا مـا حـلَّ بالكفَّـارِ: إنَّ الخسـرانَ فـي الحقيقـةِ مـا صـارَ إليه هؤلاء، فإنَّهم خسـروا أنفسَـهم لأنَّهـم في العـذابِ المخلَّد، وخسـروا أهليهـم؛ لأنَّ الأهـلَ إن كانَ فـي النَّارِ فلا انتفـاعَ بهـم، وإن كانَ في الجنَّةِ فقـد حِيـلَ بينـه وبينهم.

وقيلَ: خسرانُ الأهلِ: أنَّهم لو آمنوا لكانَ لهم أهلٌ في الجنَّةِ من الحورِ العين.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾؛ أي: هم الَّذين ظلمُوا أنفسَهم فوضعوها غيرَ موضعِها، أو وضعُوا العبادةَ غيرَ موضعِها، أو نقصُوا حظوظَهم من الثَّوابِ، فهم غداً في عذابٍ مقيمٍ.

ثـمَّ؛ يجـوزُ أن يكـونَ هـذا مِـن قـولِ المؤمنين، ويجـوزُ أن يكـونَ ابتـداءَ قولٍ مِـن قـولِ اللهِ سُـبحانَه وتعالى.

* * *

(٤٦) ـ ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴾.

قولُـه تعالـى: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا يدفـعُ العـذابَ عنهـم دافـعٌ.

* * *

(٤٧) ـ ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾؛ أي: أجيبُوه إلى ما دعاكم إليه ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾ القيامة؛ فإنَّه إذا أتى فـ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾؛ أي: لا رجوعَ لكم بعدَه إلى الدُّنيا.

وقيلَ: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾؛ أي: لا شكَّ فيه.

وقيلَ: أي: قد أخبرَ الرَّبُّ بوقوعِه ولا خُلفَ في قولِه.

﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾؛ أي: شيءٍ تَلتجِئُونَ إليه ﴿يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾؛ أي: مِن قُدرةٍ على ما ينزلُ بكم مِن العذابِ لتُغيِّروه، يُقالُ: أنكرتُ على فلانٍ؛ أي: غيَّرتُ عليه، وعاتبتُه على ما نواه.

وقيلَ: النَّكيرُ بمعنى المنكِرِ كالأليمِ بمعنى المؤلِم؛ أي: لا تجدون يومئذٍ مُنكِراً لِمَا ينزلُ بكم مِن العذابِ وناصراً.

***

(٤٨) ـ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾؛ أي: حافظاً لأعمالِهم حتَّى تحاسبَهم، وإنَّما أمرناك بالتَّبليغِ.

﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾؛ أي: ما عليكَ إلَّا البلاغُ وقد بلَّغْتَ، ونحن نحفظُ أعمالَهم لنحاسبَهم بها.

وقيلَ: أي: وما أرسلناك مُوكَّلاً بهم لا تفارقُهم دونَ أن يُؤمنوا؛ أي: ليسَ لك إكراهُهم على الإيمانِ.

وقيلَ: نُسِخَ هذا بآيةِ القتالِ.

﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾؛ أي: غرَّتهم الصِّحَّةُ والغنى، والإنسانُ اسمُ جنسٍ، يعني: كفَّارَ مكَّةَ، وهوَ كقولِه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]؛ فإنَّ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ اسمُ جنسٍ، فلهذا استثنى فقالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [العصر: ٣].

وأرادَ بالرَّحمةِ: المطرَ والنِّعمةَ.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: قَحْطٌ ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾؛ أي: لِمَا تقدَّمَ من النِّعمةِ، فيُعدِّدُ المصائبَ وينسى النِّعم.

* * *

(٤٩ ـ ٥٠) ـ ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

قولُـه تعالـى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾؛ أي: لا يعجزُ عن عقابِهم.

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾؛ أي: يرزقُ بعضَ النَّاسِ أولاداً ذكوراً، والبعضَ أولاداً إناثاً، والبعضَ أولاداً ذكوراً وإناثاً.

وقالَ: ﴿لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾، ولم يقلْ: ذكوراً؛ لمراعاةِ رؤوسِ الآيِ، واللهُ أعلمُ.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾؛ أي: يجمعُ الذُّكورَ والإناثَ لمن أرادَ.

ثمَّ؛ قيلَ: أرادَ التَّوأمين، وقيلَ: ذكوراً وإناثاً في بطنٍ، أو أبطنٍ، والكنايةُ في ﴿يُزَوِّجُهُمْ﴾ تعودُ إلى الإناثِ والذُّكورِ الَّتي في الآيةِ الأولى؛ أي: يقرنُ الإناثَ إلى الذُّكورِ فيجعلُهم أزواجاً.

﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ العقيمُ: الَّذي لا يُولَدُ له من الرِّجالِ والنِّساء، يُقالُ: رجلٌ عقيمٌ، وامرأةٌ عقيم، و«عَقَمَتِ المرأةُ تَعْقُمُ عَقْماً»، و«عَقِمَتْ تَعْقَمُ عَقَماً»؛ مثل حَمِدَ يحمَدُ، و«عَقُمَتْ تَعْقُمُ» مثلَ: عَظُمَ يَعظُمُ، وأصلُه: القطعُ، ومنه: «الملكُ العقيمُ»؛ أي: تُقطَعُ فيه الأرحامُ بالقتلِ والعقوقِ.

نبَّهَ بهذهِ الآيةِ على أنَّ الأمرَ إليه في قبضِ الرِّزقِ وبسطِه، وتعجيلِ العقابِ وتأجيلِه، كما أنَّ الأمرَ إليه في خلقِ الذُّكورِ والإناثِ.

***

(٥١) ـ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾؛ أي: أنَّ اللهَ هوَ الَّذي أرسلَكَ فأنتَ رسولُه، وقد أجراكَ على ما أجرى عليه الرُّسلَ في تعريفِهم أمرَه ونهيَه بأحدِ أشياءَ:

إمَّا الوحيُ الَّذي هوَ الإيماءُ والإشارةُ الَّتي يقعُ بها العلمُ؛ مثلَ الإلهامِ الَّذي هوَ نفثٌ في الرُّوعِ، كقولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «إنَّ رُوحَ القُدسِ نَفَثَ في رُوعي أنَّ نفساً لن تموتَ حتَّى تستكملَ أجلَها ورزقَها، فاتَّقوا اللهَ، وأجمِلُوا في الطَّلب»[1]،

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٣٣٢)، والحاكم في «المستدرك» (٢١٣٦)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١١٥١)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ٢٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧٦٩٤)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤/ ٣٩٣)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

ورواه البزار في «مسنده» (٢٩١٤) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

ورواه ابن ماجه (٢١٤٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٢٣٩)، والحاكم في «المستدرك» (٢١٣٥)، من حديث جابر رضي الله عنهما، وليس فيه: «إن روح القدس نفث في روعي». وجميعها فيها كلام.

ومثلَ الرُّؤيا في المنامِ؛ إذ في الخبرِ: «رؤيا الأنبياءِ وحيٌ»[١]، وليسَ في هذين الوجهين إسماعُ كلامٍ، بل هوَ إشاراتٌ وتعريفاتٌ.

والوحيُ: إيماءٌ وتلويحٌ بسرعةٍ، يُقالُ: هذا أمرٌ وحيٌ؛ أي: سريعٌ.

وإمَّا أن يقعَ التَّعريفُ من وراءِ حجابٍ، وهوَ الكلامُ بإسماعٍ من وراءِ حجابٍ كما كانَ لموسى عليه السَّلام، فإنَّه أسمعَه كلامَه بلا واسطةٍ، ولم يشاهِدِ الرَّبَّ تعالى، والحجابُ كانَ في بصرِ موسى، لا أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يحتجبُ بشيءٍ حتَّى يكونَ وراءَه، وحتى يكونَ محدوداً، وهذا الحجابُ هوَ منعٌ عن الرُّؤيةِ يُخلَقُ في الأبصارِ.

وقيلَ: ﴿مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾؛ أي: حجبَ كلامَه عن إسماعِ مَن سواه، فسمعَ موسى كلامَ الله دونَ غيرِه.

وإمَّا أن يقعَ التَّعريفُ بواسطةِ ملكٍ، وهوَ قولُه: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾، وهوَ أن يرسلَ ملكاً إلى نبيِّه، فيلقيَ الملَكُ إلى النَّبيِّ بإذنِ اللهِ ـ أي: بأمرِه وعلمِه ـ ما شاءَ اللهُ، كما كانَ جبريلُ عليه السَّلام يوحي إلى محمَّدٍ ﷺ، وكانَ محمَّدٌ ﷺ يفهمُ الكلامَ من جبريلَ ويسمعُه، ولا بدَّ مِن أن تُرى مِن جبريلَ معجزاتٌ يَعرفُ بها الأنبياءُ[٢] أنَّ هذه الخواطرَ من جهةِ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أجرى العادةَ بكونِ المعارفِ في الدُّنيا نظريَّةً، فلا بدَّ من دليلٍ.

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ١٠٤) إلى ابن أبي حاتم مرفوعًا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ورواه الطبراني في «الكبير» (١٢٣٠٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦١٣) وصححه، عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا.

ورواه البخاري (٨٥٩)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٨٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٢٠)، من قول عبيد بن عمير.

(٢) في (أ): «الا» ولعل الصواب هو المثبت.

وصارَ قومٌ إلى أنَّ المعارفَ ـ أعني معارفَ الأنبياءِ ـ ضروريَّةٌ، وهذا يصدمُه الإجماعُ في أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كانَ مأموراً بمعرفةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، ولهذا قيلَ له: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، وقيلَ له: ﴿ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤].

ويجوزُ في العقلِ رؤيةُ اللهِ وتلقِّي الأمرِ والنَّهيِ منه، ولكن لم يثبت هذا في حقِّ مخلوقٍ اليومَ، وإنَّما هوَ موجودٌ في الجنَّةِ.

وقيلَ: قالَت اليهودُ: ألا تكلِّمُ اللهَ وتنظرُ إليه إن كنتَ نبيّاً كما كلَّمَه موسى ونظرَ إليه؟ فقالَ النَّبيُّ عليه السَّلام: «إنَّ موسى لم ينظرْ إلى اللهِ»، ونزلَت هذه الآيةُ[٣].

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ بالرَّفعِ والنَّصبِ[٤]، تقديرُ الرَّفعِ: أو هوَ يرسلُ.

وهذا الَّذي ذُكِرَ في الدُّنيا، وليسَ في الآيةِ دليلٌ على نفيِ الرُّؤيةِ وإسماعِ اللهِ العبدَ الكلامَ القديمَ في حالِ الرُّؤيةِ غداً.

* * *

(٥٢) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾؛ أي: وكالذي أوحينا إلى الأنبياءِ قبلَكَ أوحينا إليكَ هذا القرآنَ الَّذي هوَ مِن أمرِنا روحاً؛ أي: روحَنا، يعني: النُّبوَّة.

---

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٣٩٨) دون سند ولا عزو، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢١٢) وعزاه للنقاش.

(٤) قرأ بالرفع نافع والباقون بالنصب. انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٢)، و«التيسير» (ص: ١٩٥). وذكر في «السبعة» خلافاً عن ابن عامر.

وقيلَ: الرُّوحُ جبريلُ، وفي مصحفِ أُبيٍّ: (وكذلك أنزلنا إليك روحاً من أمرنا)[(١)].

وقيلَ: أرادَ القرآنَ، وسمَّاه روحاً لأنَّ فيه حياةً مِن موتِ الجهلِ، وجعلَه مِن أمرِه بمعنى أنَّه أنزلَه كما شاءَ وعلى ما شاءَ مِن النَّظمِ المعجِزِ والتَّأليفِ المعجِبِ، ويُمكنُ أن يُحملَ قولُه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ [الإسراء: ٨٥] على القرآنِ أيضاً ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥]؛ أي: يسألونَكَ: من أينَ لك هذا القرآنُ؟ قل: إنَّه مِن أمرِ اللهِ أنزلَه عليَّ مُعجِزاً.

﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ ﴾ ظاهرُ هذا يدلُّ على أنَّه ما كانَ قبلَ الإيحاءِ إليه متَّصفاً بالإيمانِ، وهوَ مِن مُجوَّزاتِ العقلِ، والذي صارَ إليه المعظَمُ أنَّ اللهَ ما بعثَ نبيّاً إلَّا كانَ مؤمناً به قبلَ البعثةِ. **وفيه تحكُّمٌ، إلَّا أنْ يثبتَ ذلكَ بتوقيفٍ مقطوعٍ.**

وتكلَّمَ العلماءُ في أنَّه هل كانَ مُلتزِماً بشرعٍ قبلَ الوحيِ إليه، فقالَ قومٌ: بلى، ثمَّ قيل: كانَ على شرعِ إبراهيمَ، وقيلَ: على شرعِ موسى[(٢)]، وقيلَ: على شرعِ عيسى، وليسَ عندنا في ذلكَ أمرٌ مقطوعٌ به، والعقلُ يجوِّزُ خُلوَّه عن التزامِ شرعٍ، واتصافِه بشرعٍ آخرَ، ولا يصيرُ إلى أنَّه كانَ على شريعةِ العقلِ؛ **إذ ليسَ للعقلِ شريعةٌ وتصرُّفٌ في تحسينٍ وتقبيحٍ.**

والمفسِّرون يقولونَ: معنى الإيمانِ في هذه الآيةِ: تفاصيلُ هذا الشَّرعِ؛ أي: كنتَ غافلاً عن هذه التَّفاصيلِ، ويجوزُ إطلاقُ لفظِ الإيمانِ على تفاصيلِ الشَّرعِ.

وقالَ ابنُ خُزيمةَ: عنى بالإيمانِ الصَّلاةَ كقولِه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٣][(٣)]؛ أي: صلاتكم إلى بيتِ المَقدسِ، فيكونُ اللَّفظُ عامًّا والمرادُ الخصوصُ.

---

(١) لم أجدها.

(٢) في (أ): «إبراهيم»، وهو تكرار.

(٣) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٣٩٩)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٦١).

وقـال الحسـينُ بـنُ الفضـلِ: أي: مـا كنتَ تـدري قبـلَ الوحيِ مـا الكتابُ ولا أهـلُ الإيمـانِ(١)، فهـو مِن بـابِ حـذفِ المضـافِ؛ أي: مَن الَّـذي يُؤمِنُ أبـو طالبٍ والعبَّـاسُ وغيرُهما.

وقيلَ: ما كنتَ تدري ما الكتابُ ولا دعوةُ الإيمانِ؛ لأنَّه كانَ قبلَ الوحيِ لا يقدرُ أن يدعوَ إلى الإيمانِ باللهِ.

وقيلَ: ما كنتُ تدري شيئاً إذ كنتَ في المهدِ وقبلَ البلوغِ.

وقيلَ: أي: كنتَ من قومٍ أميِّين لا يعرفونَ الكتابَ ولا الإيمانَ حتَّى تكونَ قد أخذتَ ما جئتَهم به عمَّن كانَ يعلمُ ذلكَ منهم، وهوَ كقولِه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

﴿وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا﴾؛ أي: جعلنا القرآنَ نوراً وضياءً، ولم يقلْ: جعلناهما؛ لأنَّ المعنى: جعلنا الكتابَ نوراً وهوَ دليلُ الإيمان.

وقيلَ: أي: جعلنا هذا الوحيَ نوراً.

﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾؛ أي: مَن نختارُه للنُّبوَّةِ، كقولِه: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ١٠٥].

وقيلَ: ترجعُ الكنايةُ إلى الكتابِ والإيمانِ، وهما شيئان، ويجوزُ أن يجتمعا في كنايةٍ واحدةٍ كقولِك: إقبالُك وإدبارُك يعجبُني.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: لتدعو، وهذه شهادةٌ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالتَّبليغِ.

* * *

(١) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٣٩٩)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٦١).

(٥٣) ـ ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: لتدعو إلى الطَّريقِ المؤدِّي إلى رضا اللهِ ودينِه، فاثبتْ عليه.

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾؛ أي: هوَ الَّذي يقضي لكَ بالحقِّ، ويكفيكَ في الدُّنيا شرَّ الأعداء، ويُجازي الكلَّ في الآخرةِ.

* * *

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

تفسيرُ سورةِ الزُّخرفِ

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾.

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾؛ أي: هذه ﴿حمٓ﴾، وقيلَ: أقسمُ بهذه الحروفِ وبالكتابِ المبينِ أنَّه إنَّما أُنزِلَ بلسانِ العربِ ليفهموه، و﴿ٱلۡمُبِينِ﴾: هوَ الَّذي يُبيِّنُ الشَّرائعَ.

* * *

(٣) ـ ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾؛ أي: صيَّرنا قراءةَ هذا الكتابِ بلسانٍ عربيٍّ.

وقيلَ: المرادُ بـ﴿الكتاب المبين﴾ جميعُ الكتبِ المنزلةِ على الأنبياءِ؛ لأنَّ الكتابَ اسمُ جنسٍ، فكأنَّه أقسمَ بجميعِ ما أُنزِلَ من الكتبِ أنَّه جعلَ القرآنَ عربيّاً، والكنايةُ في قولِه: ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾ ترجعُ إلى القرآنِ وإن لم يَجرِ له ذكرٌ في هذه السُّورةِ، كقولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١].

* * *

(٤) ـ ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾؛ أي: وإنَّ هذا القرآنَ في اللَّوحِ المحفوظِ الَّذي تُنسَخُ منه الكتبُ، وقد أُثبتَ فيه الأمورُ كلُّها ﴿لَعَلِيٌّ﴾؛ أي: رفيعُ القَدرِ في كتبِ اللهِ ﴿حَكِيمٌ﴾؛ أي: مُحكَمٌ لا يعترضُ عليه نسخٌ من كتابٍ يأتي بعدَه، ولا يُوجَدُ فيه اختلافٌ وتناقضٌ.

وأمُّ الكتابِ: أصلُ الكتابِ الَّذي تُنسَخُ منه الكتبُ كلُّها، قالَ اللهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٨]، وقالَ: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج: ٢١]، وكلُّ هذا تحريضٌ على تدبُّرِه والإيمانِ به.

وقيلَ: هوَ إخبارٌ بأنَّ القرآنَ محفوظٌ عندَ اللهِ جعله لملائكته إنَّما ينزلون إليه في إنزالِ ما يُنزِلونه، وإنَّما يُؤدُّونه إلى محمَّدٍ على حقيقتِه، فليسَ فيه غلطٌ ولا تغييرٌ.

***

(٥) - ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا﴾؛ أي: لا نتركُ مواصلةَ التَّنبيهِ بآياتِ القرآنِ وإن كنتُم مُسرِفين على أنفسِكم بالشِّركِ باللهِ. يُقالُ: ضربْتُ عنه وأضربْتُ عنه؛ أي: تركتُه.

﴿صَفۡحًا﴾؛ أي: إعراضاً، يُقالُ: صفحْتُ عنه؛ أي: أعرضْتُ عنه، وأصلُه: أن تولِّيَه صفحةَ عنقِكَ، و﴿ٱلذِّكۡرَ﴾: القرآن.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: أي: أفنضربُ عنكم الموعظةَ(١).

وقيلَ: أي: أفنضربُ عنكم الوحيَ فلا نأمرَكم ولا ننهاكم ولا نرسلَ إليكم رسولاً مِن أجلِ أنَّكم لا تُؤمنون.

وقيلَ: أي: أفنضربُ عنكم ذكرَ العذابِ والعذابَ بأنْ أسرفتُم(٢).

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٩)، وروى الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٥٤٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية قال: «أحسبتم أن نصفح عنكم ولما تفعلوا ما أمرتم به».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٤٠٥) وهو منقول منه بحرفه.

قُـرِئَ ﴿أَن كُنتُمْ﴾ بالفتـحِ، وقُـرِئَ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ بالكسـرِ[١] على أنَّه شـرطٌ استغنَى عـن جوابِه بمـا تقدَّمَه مثـلَ قولِك: أنـتَ ظالـمٌ إن فعلتَ.

وقيلَ: أي: إنْ تكونوا قوماً مُسرِفين[٢].

***

(٦) ـ ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

قـولُه تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: وقد أسرفَ قبلَ هؤلاءِ أقوامٌ فلم يمنعْنا ذلكَ من متابعةِ الرُّسلِ إليهم تأكيداً للحجَّةِ، والمعنى: ما أكثرَ ما أرسلْنا في الأمم[٣] مِن الأنبياءِ، كما قالَ: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: ٢٥]؛ أي: ما أكثرَ ما تركُوا.

***

(٧ ـ ٨) ـ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي: لم يكن يأتيهم نبيٌّ إلَّا استهزؤُوا به، فتابعْنا مع ذلكَ الرُّسلَ.

---

(١) قرأ نافع وحمزة والكسائي بكسر الهمزة، والباقون بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٤)، و«التيسير» (ص: ١٩٥).

(٢) في (أ): «وقيل: أي: إن كنتم قوماً مسرفين»، ولعل الصواب المثبت، فقد جاء في «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٤٠٥): ومَن كسرها فعلى معنى الاستقبال، على معنى: إن تكونوا مسرفين نضرب عنكم الذكر.

(٣) في (أ): «من الآية» بدل: «في الأمم»، ولعل الصواب هو المثبت.

قولُه تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾؛ أي: أهلكنا الأوَّلين، فحذفَ المفعولَ، ﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾؛ أي: وكانُوا أشدَّ من كفَّارِ قريشٍ بطشاً، والكنايةُ في ﴿مِّنْهُم﴾ ترجعُ إلى المشرِكين المخاطَبين بقولِه: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾، فكنَّى عنهم بعد أن خاطبَهم.

وقولُه: ﴿أَشَدَّ﴾ نصبٌ على الحالِ، وقيلَ: هوَ مفعولٌ؛ أي: فقد أهلكنا أقوى من هؤلاءِ المشركين في أبدانهم وأتباعِهم.

﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: بيَّنَّا ما نزلَ بالأوَّلين مِن العذابِ لـمَّا كفروا، والمثلُ: الوصفُ والخبرُ؛ أي: مضى مثلُ الأوَّلينَ لهم وبيَّناه لكَ، والمعنى: سبقَ فيما أنزلنا عليكم تشبيهُ حالِ الكفَّارِ الماضيةِ بحالِ هؤلاءِ في التَّكذيبِ، وكما هلكَ أولئك فحالُ هؤلاءِ كحالِهم أيضاً.

***

(٩ ـ ١٠) ـ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ذكرَ جهلَهم في إشراكِهم باللهِ بعدَ إقرارِهم بأنَّه خالقُ السَّماواتِ والأرض.

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ وصفَ نفسَه بكمالِ القُدرةِ، وهذا ابتداءُ إخبارٍ منه عن نفسِه، ولو كانَ هذا إخباراً عن قولِ الكفَّارِ لقالَ: الَّذي جعلَ لنا الأرضَ، فمعنى الكلامِ: ليقولُنَّ خلقَهنَّ العزيزُ العليمُ، والعزيزُ العليمُ الَّذي

اعترفُوا به هوَ الَّذي جعَلَ لكم الأرضَ مهداً، و﴿مهاداً﴾[1]: موضعَ تمهُّدٍ واستقرارٍ.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾؛ أي: وصيَّرَ لكم في الأرضِ طُرقاً لتَسلكُوا منها إلى حيثُ أردتم ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ هذا اهتداءُ الطَّريقِ.

وقيلَ: أي: لتهتدوا بما خلقَ لكم من ذلكَ إذا فكَّرتُم فتعرفُوا أنَّه قادرٌ على ما يُريدُ.

* * *

(١١) ـ ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ قالَ ابنُ عبَّاسٍ: أي: لا كما أنزلَ على قومِ نوحٍ بغيرِ قَدَرٍ حتَّى أغرقَهم، بل هوَ بقَدَرٍ حتَّى يكونَ معاشاً لكم ولأنعامِكم[2].

﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾؛ أي: مُقفِرةً من النَّباتِ ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾؛ أي: كما أنَّ البلدةَ الميتةَ تحيا بالمطرِ كذلك يُحييكم بعدَ موتِكم فتخرجونَ من قبورِكم؛ لأنَّ مَن قدرَ على هذا قدرَ على ذاك.

* * *

(١٢ ـ ١٤) ـ ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾؛ أي: واللهُ هوَ الَّذي خلقَ الأصنافَ.

وقيلَ: أرادَ أزواجَ النَّباتِ، كما قالَ: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٧]، و: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧].

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿مَهْدًا﴾ بغير ألفٍ، والباقون: ﴿مهاداً﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤١٨)، و«التيسير» (ص: ١٥١).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ١٦).

وقيلَ: أرادَ جميعَ الأصنافِ مِن الأشياءِ، ويدخلُ فيه الذَّكرُ والأنثى.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ﴾؛ أي: السُّفنِ، والفُلكُ الواحدُ والجمعُ.

﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾؛ أي: ومن الإبلِ وغيرِها.

﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ في أسفارِكم وحوائجِكم.

﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾؛ أي: هيَّأنا لكم أسبابَ المعيشةِ لتنتفعُوا بها، ولتشكرُوا اللهَ على ما يسَّرَ لكم، وقولُه: ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ يرجعُ إلى ما في قولِه: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾، قالَه أبو عُبيدةَ[١].

وقالَ الفرَّاءُ: أضافَ الظُّهورَ إلى واحدٍ، وهوَ بمعنى الجمعِ بمنزلةِ الجيشِ والجندِ، فلذلك ذكَّرَ وجمعَ الظُّهورَ[٢].

﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على النِّعمةِ بتسخيرِ ذلكَ في البرِّ والبحرِ ﴿وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ المركبَ ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾؛ أي: مُطيقينَ للإبلِ والسُّفنِ في البحرِ، ويُقالُ: فلانٌ مُقرِنٌ لفلانٍ؛ أي: ضابطٌ له، وأقْرَنتُ لكذا؛ أي: أطقْتُه[٣].

وهذا خبرٌ والمرادُ به الأمرُ؛ أي: قولوا كذا، ولو كانَ خبراً لذكرَهما كلُّ راكبٍ.

﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾؛ أي: لم يسخِّرْ لنا هذه المراكبَ عبثاً، بل كلَّفَنا الشُّكرَ عليها؛ ليجازيَ الشاكرَ، ويعاقبَ الكافر.

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٢٠٢).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٨).

(٣) قوله: «ويُقالُ: فلانٌ مُقرِنٌ لفلانٍ؛ أي: ضابطٌ له، وأقْرَنتُ لكذا؛ أي: أطقْتُه» إشارة إلى أن ﴿مُقْرِنِينَ﴾ فسر بـ«مطيقين» كما رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٥٥٩) عن ابن عباس وقتادة والسدي وابن زيد. وفسر بـ«ضابطين» كما فسره أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (٢/ ٢٠٢)، والأخفش كما في «النكت والعيون» (٥/ ٢١٨).

(١٥) ـ ﴿ وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ عجَّبَ المؤمنين مِن جهلِ هؤلاءِ؛ إذ اعترفُوا بأنَّ خالقَ السَّماواتِ والأرضِ هوَ اللهُ، ثمَّ جعلُوا له من عبادِه ولداً، يقالُ: أجْزَأَ؛ أي: وَلَدَ؛ لأنَّ الولدَ بعضٌ مِن الوالدِ، ولم يعلمُوا أنَّ مَن قدرَ على خلقِ السَّماواتِ والأرضِ لا يحتاجُ إلى ولدٍ يعتضِدُ به؛ أي: يستأنسُ به؛ لأنَّ هذا من صفاتِ النَّقصِ.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ يعني: جنسَ الكفَّار؛ أي: إن لم يشكر نعمَ اللهِ فأشركَ به ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: هوَ مُظهِرٌ للكفرِ.

وفيه حذفٌ؛ أي: جعلُوا له من عبادِه ومِن الملائكةِ جزءاً؛ أي: ولداً، ويُحتمَلُ أنَّهم اعتقدُوا أنَّ للهِ بعضاً؛ أي: جزءاً، وهوَ الولدُ، والجَعلُ يعني الحُكمَ.

* * *

(١٦ ـ ١٧) ـ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾ عجَّب من إضافتِهم إلى اللهِ اختيارَ البناتِ مع اختيارِهم لأنفسِهم البنين، وهوَ مقدَّسٌ عن أن يكونَ له ولدٌ، وإن توهَّمَ جاهلٌ أنَّه اتَّخذَ لنفسِه ولداً، فهلَّا أضافَ إليه أرفعَ الجنسين، ولمَ جعلَ هؤلاءِ لأنفسِهم أشرفَ الجنسين، وله الأخسَّ، وهذا كما قالَ: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ [النجم: ٢٢].

﴿وَأَصْفَىٰكُم﴾؛ أي: اختصَّكم وأخلصَكم ﴿بِٱلْبَنِينَ﴾، يُقالُ: أصفَيتُه بكذا؛ أي: آثَرْتُه، ومنه: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾ [الإسراء: ٤٠].

قوله: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ﴾؛ أي: بأنَّه وُلِدَ له بنتٌ اسودَّ وجهُه من الحزنِ.

﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾؛ أي: بما جعلَ له شبيهاً، فإنَّ مَن أجازَ أن يكونَ الملائكةُ بناتِ اللهِ فقد جعلَ الملائكةَ شبهاً للهِ؛ لأنَّ الولدَ من جنسِ الوالدِ وشِبهه، ومَن اسودَّ وجهُه بما يُضافُ إليه ممَّا لا يَرضى أولى أن يَسودَّ وجهُه بإضافةِ مثلِ ذلكَ إلى مَن هوَ أجلُّ منه، فكيف إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؟!

* * *

(١٨) ـ ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَوَمَنْ يَنْشَأُ في الحِلْيةِ﴾؛ أي: أومَن يُنبَتُ في الزِّينةِ، يعني: الإناثَ، وهذا استفهامُ توبيخٍ، و﴿مَن﴾ في محلِّ النَّصبِ؛ أي: اتَّخذوا له مَن يُنشَّأُ في الحِليةِ.

ويجوزُ أن يكونَ رفعاً على الابتداءِ والخبرُ مضمرٌ.

وإن شئتَ قلتَ: خفضَ ردًّا إلى أوَّلِ الكلامِ، وهوَ قولُه: ﴿بِمَا ضَرَبَ﴾.

وقراءةُ حمزةَ والكسائيِّ: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا﴾ بالتَّشديدِ[1]؛ أي: أفمَن يُربَّى في الزِّينةِ ليُنفَّقَ بالحليةِ والحيلةِ، وهذا علامةُ النَّقصِ.

﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ﴾؛ أي: في المخاصمةِ ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾؛ أي: لا يتكلَّمُ بالحجَّةِ.

ومعنى الآيةِ: أتصْرِفوا إلى اللهِ مَن هذا وصفُه؛ أي: لا يجوزُ ذلكَ.

وقيلَ: المنشَّأُ في الحليةِ أصنامُهم الَّتي صاغُوها من ذهبٍ وفضَّةٍ وحلَّوها وهيَ جماداتٌ لا تنطقُ.

* * *

---

(١) قرأ بها حفص وحمزة والكسائيّ، وقرأ باقي السبعة بفتح الياء وسكون النُّون وتخفيف الشين. انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٤)، و«التيسير» (ص: ١٩٦).

(١٩) - ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾؛ أي: قالوا في الملائكةِ: إنَّهم إناثٌ، وهم بناتُ اللهِ، عابَهم بجهلين: أحدُهما: نسبةُ الأولادِ إلى اللهِ، والثَّاني: تحكُّمُهم بأنَّ الملائكةَ إناثٌ، وهم بناتُ اللهِ، وذِكرُ العبادِ مدحٌ لهم؛ أي: كيفَ عبدوا مَن هوَ في نهايةِ العبادةِ؟ ثمَّ كيفَ حكمُوا بأنَّهم إناثٌ من غيرِ دليلٍ دلَّ عليه؟

والجعلُ هاهنا بمعنى القولِ والحُكمِ، تقولُ: جعلتُ زيداً أعلمَ النَّاس؛ أي: حكمتُ له بذلك.

وقُرِئَ: ﴿عِندَ الرَّحمنِ﴾[1]، كما في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وهوَ عِنديَّةُ القُربةِ والمنزلةِ؛ أي: الملائكةُ ليسوا عندَهم ولم يروهم، فكيف حكمُوا بأنَّهم إناثٌ؟ ولهذا قالَ: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾؛ أي: حضروا حالةَ خلقِهم.

وقيلَ: إنَّ النَّبيَّ عليه السَّلام سألَهم وقالَ: «فما يُدريكم أنَّهم إناثٌ؟» فقالَوا: سمعنا ذلكَ مِن آبائِنا، ونحن نشهدُ أنَّهم لم يكذبوا في أنَّهم إناثٌ[2]، فقالَ اللهُ تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾؛ أي: ستُحفَظُ ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عنها في الآخرةِ.

* * *

---

(١) قرأ بها ابن كثير ونافع وابن عامر، والأولى قراءة الباقين. انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٤)، و«التيسير» (ص: ١٩٦).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٥) عن الكلبي ومقاتل. وهو في «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٩١).

(٢٠ ـ ٢٢) ـ ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾؛ أي: لو شاءَ اللهُ أن لا نعبدَهم لَمَا عبدناهم، وهذا منهم كلمةُ حقٍّ أُريدَ بها باطلٌ، وكلُّ شيءٍ بإرادةِ الله عزَّ وجلَّ، وإرادتُه غيبٌ، وكذا علمُه، فلا يُمكنُ الاحتجاجُ بهما، وخلافُ المعلومِ والمرادِ مقدورٌ وإن لم يَقع، ولو عبدُوا اللهَ بدلَ الأصنامِ لعلمنا أنَّ اللهَ تعالى قد أرادَ منهم ما حصلَ منهم، وقد أطنبْنا في هذا في قولِه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾؛ أي: هم كاذبونَ، ولا عذرَ لهم في عبادةِ غيرِ الله، وكأنَّ في ضمنِ كلامِهم: إنَّ اللهَ أمرَنا بهذا، أو: رضيَ عنَّا، ولهذا لم ينهَنا ولم يُعاجِلنا بالعقوبةِ.

قولُه تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾؛ أي: مِن قبلِ القرآنِ، ومِن قبلِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ أي: ليسَ معهم حجَّةُ عقلٍ ولا نقلٍ.

قولُه تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾؛ أي: ليسَ عندهم حجَّةٌ، بل يُقلِّدون آباءَهم ﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾؛ أي: على أمرٍ مجتمَعٍ عليه في آرائِهم.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾؛ أي: باتِّباعِنا إيَّاهم.

* * *

(٢٣ ـ ٢٥) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾؛ أي: وكما قالَ هؤلاءِ فقد قالَ مَن قبلَهم.

﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾؛ أي: مُلوكها وجبابرتُها.

﴿قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾؛ أي: قلْ لهؤلاءِ المقلِّدين: أرأيتُم لو جئتُكم بما هوَ أرشدُ وأقومُ طريقةً منَ التَّقليدِ، فبانَ عندَكم بالدَّليلِ أنَّه أقومُ وأهدى، أتبقونَ على تقليدِكم وتتركونَ الدَّليلَ الواضحَ؟ ولا بدَّ لهم مِن أن يقولوا: نتَّبعُ الدَّليلَ، فقل: فهلمُّوا إلى الدَّليلِ فتأمَّلُوه، وحينئذٍ يبطلُ التَّقليدُ.

وقُرِئَ: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ﴾[1]، أعادَ ذِكرَ القولِ فقالَ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾؛ أي: أصرُّوا على التَّقليدِ فانتقمنا منهم بالعذابِ الَّذي استحَقُّوه، ﴿فَٱنظُرۡ﴾ يا محمَّد ـ يعني: بقلبك ـ كيفَ أمرُ مَن كذَّبَ الرُّسلَ.

***

(٢٦) ـ ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ﴾؛ أي: إن كنتُم مِن أولادِه معاشرَ العربِ فلمَ رغبتُم عن دينِه؟ ويحتملُ أن يكونَ المرادُ: قالوا لكلِّ رسولٍ: إنَّا وجدنا آباءَنا على أُمَّة، وكذلكَ قالوا إذ قالَ إبراهيمُ لهم: لا تعبدوا الأصنامَ.

وقيلَ: واذكر إذ قالَ إبراهيمُ: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ﴾.

﴿بَرَآءٞ﴾ مصدرٌ لا يُثنَّى ولا يُجمَع مثل عَدْلٍ ورِضاً، تقولُ: إنا لَبراءٌ منك، ولخَلاءٌ منك، ونحن براءٌ منك، ولا يُقالُ: لَبراآن، ولَبراؤون؛ لأنَّ المعنى: ذوا البراءِ، وذوو البراء.

(١) قرأ بها ابن عامر وحفص، والباقون: ﴿قُلْ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٥)، و«التيسير» (ص: ١٩٦).

(٢٧) - ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ أي: اللهُ الَّذي خلقَني، وإنَّه مُثبِّتي على التَّوحيدِ، والمعنى: أتبرَّأُ ممَّا تعبدون إلَّا مِن اللهِ تعالى.

وقيلَ: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى لكن؛ أي: لكنْ الذي فطرَني، فهو يهديني.

* * *

(٢٨) - ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ وهم ولدُه وولدُ ولدِه؛ أي: أنَّهم توارثُوا البراءَ عن عبادةِ غيرِ الله، وأوصَى بعضُهم بعضاً في ذلكَ، كما قالَ: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ [البقرة: ١٣١ - ١٣٢].

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: ليرجعَ المشرِكونَ من قولِهم إلى عبادةِ اللهِ.

وفي التَّفاسيرِ: الكلمةُ الباقيةُ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ».

وقيلَ: لم يَزَلْ في عقبِ إبراهيمَ مَن يُوحِّدُ ولا يشركُ، وإن كانَ فيهم مَن يشركُ.

* * *

(٢٩ - ٣٠) - ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾؛ أي: أمهلتُهم ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: محمَّدٌ عليه السَّلامُ بالتَّوحيدِ والإسلامِ الَّذي هوَ أصلُ دينِ إبراهيمَ، وهوَ الكلمةُ الَّتي بقَّاها الله في عقبِه.

﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: يُبيِّنُ لهم ما بهم إليه حاجةٌ.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: ولمَّا جاءَهم الدِّينُ الحقُّ على لسانِ محمَّدٍ ﴿قَالُوا۟﴾: إنَّه ﴿سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ﴾؛ أي: بالقرآنِ، أو بمحمَّدٍ وبهذا الدِّينِ ﴿كَٰفِرُونَ﴾.

(٣١ ـ ٣٢) ـ ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾؛ أي: لِمَ أُرسِلَ محمَّدٌ وليسَ من عظماءِ القريتينِ مكَّةَ والطَّائفِ؟ يعنون بالعِظَمِ: الرِّئاسةَ والغنى بكثرةِ المالِ والأتباعِ.

قولُه تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾؛ أي: ليسَ أمرُ النُّبوَّةِ إلى شهواتِهم.

وقالَ مُقاتلٌ: قالَ الوليدُ بنُ المغيرةِ: لو كانَ هذا القرآنُ حقًّا لنزلَ عليَّ، أو على أبي مسعودٍ عمرِو بنِ عُميرٍ الثَّقفيِّ جدِّ المختار[1]، وكانَ بالطَّائفِ، والوليدُ بمكَّةَ، وهما القريتان.

وقالَ قتادةُ: عظيمُ الطَّائفِ عروةُ[2].

وقالَ الزَّجَّاجُ: أي: على رجلٍ من رجُلي القريتين[3].

وقالَ أبو عليٍّ رحمه الله: أي: على رجلٍ مِن إحدى القريتين[4].

والرَّحمةُ هاهنا: النُّبوَّةُ.

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾؛ أي: أفقرْنا قوماً وأغنَينا قوماً، فإذا لم يكن أمرُ الدُّنيا إليهم، فكيف نُفوِّضُ أمرَ النُّبوَّة إليهم.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٩٣)، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٧٦٢)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٥٨١)، عن قتادة، وفيه أن أبا مسعود الثقفي هو عروة بن مسعود.

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٤٠٩).

(٤) انظر: «الحجة» (٤/ ١١٢)، وعبارته: «على رجل من أحد رجلي القريتين».

وقيلَ: أي: أعطينا عَظِيمي القريتين ما أعطينا لا لكرامتِهما عليَّ، وأنا قادرٌ على نزعِ النِّعمةِ عنهما، فأيُّ فضلٍ وقَدرٍ لهما؟

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾؛ أي: فاضلنا بينهم، فمِن مالكٍ ومملوكٍ ورئيسٍ ومَرؤوسٍ.

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾؛ أي: ليُسخِّرَ الأغنياءُ الفقراءَ.

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾؛ أي: أفضلُ ممَّا يجمعونَ من الدُّنيا، فهي أَولى بأن لا تكونَ باختيارِ الخلقِ؛ أي: ما آتى اللهُ تعالى محمَّداً مِن النُّبوَّةِ وما آتى المسلمين مِن الإسلامِ خيرٌ ممَّا يجمعونَ مِن الدُّنيا، فيجبُ على النَّاسِ الانقيادُ لمن خصَّه اللهُ بهذه الرَّحمةِ.

وقيلَ: أي: الجنَّةُ للمؤمنينَ خيرٌ ممَّا يجمعُ أهلُ الدُّنيا مِن الدُّنيا.

* * *

(٣٣ - ٣٥) - ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ ذكَرَ حقارةَ الدُّنيا؛ أي: لو آتيناه أجلَّ المراتبِ في الدُّنيا كافَّةً لم يرتفِعْ قَدْرُه بذلك، ولكنْ لو فعلنا ذلكَ لافتتنَ به النَّاسُ وكفروا، والمعنى: لولا أن يكفرَ جميعُ النَّاسِ ميلاً إلى الدُّنيا ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مِن المالِ كذا وكذا.

وقيلَ: لو ما أردنا مِن أن يكونَ النَّاسُ كلُّهم أمَّةً واحدةً مجتمِعةً في الأرزاقِ بأن يكونَ في المؤمنين فقيرٌ وغنيٌّ، وفي الكافرينَ فقيرٌ وغنيٌّ، لجعلْنا للكافرينَ كذا وكذا؛ لهوانِ الدُّنيا علينا.

﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا﴾؛ أي: جُذوعاً من الفضَّة، وقيلَ: يعني سماءَ البيتِ.

قُرِئَ ﴿سَقْفاً﴾ وهوَ للواحدِ، و﴿سُقُفًا﴾[1]، وهوَ للجمعِ، مثل رَهْنٍ ورُهُنٍ.

وقيلَ: ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾؛ أي: على بيوتهم.

وقيلَ: اللامُ في ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بدلٌ، كما تقولُ: جعلتُ هذا لزيدٍ لكرامتِه، قالَ اللهُ: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء: ١١]، كذلك قالَ هاهنا: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ﴾.

﴿وَمَعَارِجَ﴾، يعني: الدَّرجَ، مِن عرَجَ يعرُجُ، والواحدُ: مِعرَجٌ ومِعراجٌ، والجمعُ: معارجُ ومعاريجُ.

﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾؛ أي: على المعارجِ يَرتقون، يُقالُ: ظَهَرتُ على البيت؛ أي: عَلَوتُ سطحَه، وهوَ لأنَّ مَن علا شيئاً وارتفعَ عليه ظهرَ للنَّاظرين، يُقالُ: ظَهَرتُ على الشَّيء؛ أي: علمتُه، وظَهَرتُ على العدوِّ؛ أي: غَلَبتُه.

قولُه تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾؛ أي: ولجعلنا لبيوتِهم أبواباً من فضَّةٍ وسُرراً، وهيَ جمعُ السَّريرِ.

وقيلَ: جمعُ الأسرَّة، والأسرَّةُ: جمعُ السَّريرِ؛ أي: أبواباً وسرراً من فضَّةٍ.

﴿يَتَّكِـُٔونَ﴾ أصلُ اتَّكَأَ: اِوْتَكَأَ، ففُعِلَ به ما فُعِلَ بـ: اتَّزَنَ واتَّعَدَ، والاتِّكاءُ والتَّوكُّؤُ: التَّحامُلُ على الشَّيءِ، ومنه: ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٨].

قولُه تعالى: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ قيلَ: هوَ الذَّهبُ، وقيلَ: متاعُ البيتِ، وأصلُه الزِّينةُ، يُقالُ: زخرفتُ الدَّارَ؛ أي: زيَّنتُها، وتَزَخْرَفَ فلانٌ؛ أي: تزيَّنَ؛ أي: لجعلنا لهم كلَّ

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (سَقْفًا) بفتح السين وسكون القاف، والباقون بضمهما. انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٥)، و«التيسير» (ص: ١٩٦).

شيءٍ من فضَّةٍ ومن ذهبٍ، فلمَّا حذَفَ (مِن) قالَ: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ فنصبَ؛ أي: وزخرفاً نجعلُ ذلكَ لهم.

وقيلَ: أي: ونجعلُ لهم مع ذلكَ ذهباً وغنًى.

﴿وإنْ كلُّ ذلكَ لَمَا مَتَاعُ الحياةِ الدُّنيا﴾ ﴿لَمَا﴾ مُخفَّفةٌ، وهيَ لغوٌ[1]؛ أي: متاعُ الدُّنيا، و(إنْ) في قولِه: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ مخفَّفةٌ من الثَّقيلةِ؛ أي: وما كلُّ ذلكَ إلَّا متاعٌ[2]؛ أي: كلُّ ذلكَ لمتاعٌ، و(ما) و(إن) قد يُزادانِ في الكلامِ.

وقُرِئَ: ﴿لَمَّا﴾ بالتَّشديدِ[3] بمعنى: إلَّا، وحكى سيبويهِ: «نشدتُكَ الله لمَّا فَعَلتَ» بمعنى: إلَّا فعلتَ[4]؛ أي: ما كلُّ ذلكَ إلَّا متاعُ الحياةِ الدُّنيا.

***

(٣٦ - ٣٧) - ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ هذا متَّصلٌ بقولِه: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾؛ أي: نواصلُ لكم الذِّكرَ، فمَن يَعشُ عن ذلك الذِّكرِ، فلم يتأمَّل ما يَرِدُ عليه، بل نظرَ بعينٍ ضعيفةٍ فعَشَا عنه، كالنَّاظرِ إلى شيءٍ

---

(١) قوله: «وهي لغو» يقصد بـ«هي»: (ما) وحدها كما في «البسيط» (٢٠/ ٤٠).

(٢) قوله: «وما كلُّ ذلكَ إلاَّ متاعٌ» كذا في (أ)، ولعل الصواب: «وإن كل ذلك لمتاع» لأن (إن) مخففة وليست نافية حتى توضع (ما) موضعها، و(ما) في (لَمَا) لغو كما تقدم، فلا يصح أن تقدر (لَمَا) بـ«إلا»، وإنما التي تقدر بـ(إلا) هي (لمَّا) بالتشديد كما سيأتي.

(٣) قرأ عاصم وحمزة وهشام بخلاف عنه بفتح اللام وتشديد الميم، والباقون بفتح اللام وتخفيف الميم. انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٦)، و«التيسير» (ص: ١٩٦).

(٤) انظر: «الكتاب» (٣/ ١٠٥)، و«الحجة» للفارسي (٦/ ١٤٩).

في ظُلمةٍ، أو لضعفِ بصرٍ كالأعشى ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ حتَّى نستزلَّهُ بوسوستِهِ.

يُقالُ: عشَا يَعشُو عَشْواً وعُشُوّاً؛ أي: أتى ناراً للمضافةِ ببصرٍ ضعيفٍ، وعشَا يعشُو؛ أي: ضعُفَ بصرُه، والعاشيةُ: كلُّ شيءٍ يعشو باللَّيلِ إلى ضوءِ نارٍ كالفراشِ وغيرِه، والعِشاءُ: أوَّلُ ظلامِ اللَّيلِ، وقولُه: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾؛ أي: ضعُفَ بصرُه.

وقالَ الأزهريُّ: عَشَوتُ إلى كذا؛ أي: قصدتُه، وعَشَوتُ عن كذا؛ أي: أعرضتُ عنه، فيُفرقُ بينَ (إلى) و(عن) مثل: مِلتُ إليه ومِلتُ عنه.

﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ قيلَ: في الآخرةِ إذا قامَ مِن قبرِه.

وقيلَ: في الدُّنيا، ثمَّ الشَّيطانُ يدعوه بوسوستِهِ إلى الكفرِ، واللهُ يُوصلُ ذلكَ إلى القلبِ.

ومَن حملَ على الآخرةِ، يقولُ: يُقرَنُ به الشَّيطانُ في السَّلاسلِ في النَّارِ.

وقُرِئَ: ﴿يُقَيِّض﴾ بالياءِ[1]؛ أي: يُقيِّض له الرَّحمنُ شيطاناً.

﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ قيلَ: في الدُّنيا، وقيلَ: في النَّارِ.

والصَّحيحُ: فهو له قرينٌ في الدُّنيا والآخرةِ.

وقولُه: ﴿فَهُوَ لَهُۥ﴾ كنايةٌ عن الشَّيطانِ، وقيلَ: عن المعرِضِ عن القرآنِ؛ أي: هوَ قرينُ الشَّيطانِ، واللهُ أعلمُ.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: وإنَّ الشَّيطانَ ليُصدُّهم عن سبيلِ الهدى، وذُكِرَ بلفظِ الجمعِ لأنَّ (مَن) في قولِه: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ في معنى الجمعِ.

﴿وَيَحْسَبُونَ﴾؛ أي: ويحسبُ الكفَّارُ أنَّهم مُهتدون.

وقيلَ: ويحسبُ الكفَّارُ أنَّ الشَّياطينَ مُهتدونَ فيطيعونَهم[2].

---

(١) قراءة يعقوب. انظر: «النشر» (٢/ ٣٦٩).

(٢) في (أ): «ويحسبُ الكفَّارُ أنَّ الشياطين مُهتدون، وقيلَ: ويحسبُ الكفَّارُ أنَّ الشَّياطينَ مُهتدونَ فيطيعونَهم»، وفيه تكرار لعله سهو من الناسخ، والصواب المثبت.

(٣٨) - ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا ﴾ على لفظِ الواحدِ؛ أي: حتَّى إذا جاءَنا الكافرُ يومَ القيامةِ، وقُرِئَ: ﴿حتَّى إذا جاءانا﴾[١] أي: الكافرُ والشَّيطانُ وقد جُعِلا في سلسلةٍ واحدةٍ، فيقولُ الكافرُ:

﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ قالَ مقاتلٌ: يتمنَّى الكافرُ أنَّ بينهما بُعدَ مَشرِقِ أطولِ يومٍ في السَّنةِ إلى مَشرِقِ أقصرِ يومٍ في السَّنةِ، فلذلك قالَ: ﴿بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾.

وقالَ الفرَّاءُ: أرادَ المشرقَ والمغربَ، كما يُقالُ: القَمرانِ؛ للشَّمسِ والقمرِ[٢]، والعُمَرانِ لأبي بكرٍ وعُمرَ، والبَصرتانِ للكوفةِ والبَصرةِ، والعَصرانِ للغداةِ والعصرِ.

﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾؛ أي: بئسَ الصاحبُ أنت.

***

(٣٩) - ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ ﴾؛ أي: يقولُ اللهُ للكافرين: لن ينفعَكم اليومَ إذ أشركتُم في الدُّنيا هذا الكلامُ، وهوَ قولُ الكافرِ: ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾؛ أي: لا تنفعُ النَّدامةُ اليومَ، وهذا إذا قُرِئَ ﴿إنَّكم في العذابِ﴾ بالكسرِ، وقد قُرِئَ بالفتح[٣]، والمعنى: لا ينفعُكم اشتراكُكم في العذابِ مع الشَّياطينِ وكنتُم تظنُّونَ أنَّ الشِّركَ ينفعُكم.

---

(١) قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر، والباقون: ﴿جَآءَنَا﴾ على التوحيد. انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٦)، و«التيسير» (ص: ١٩٦).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٣٣).

(٣) قرأ ابن عامر بالكسر كما في «السبعة» (ص: ٥٨٦)، ولم يذكرها الداني في «التيسير».

وقيلَ: أي: إنَّ الاشتراكَ في العذابِ لا يُخفِّفُ عنكم؛ لأنَّ لكلِّ واحدٍ النَّصيبَ الأتمَّ مِن العذابِ.

***

(٤٠ ـ ٤٢) ـ ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ فيه تسليةٌ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ أي: مَن أعمَينا قلبَه فلا هاديَ له، فلا يَضِقْ قلبُك إن كفرُوا.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾؛ أي: لا تظنَّنَّ أنَّا لا ننتقمُ منهم؛ فإن قبضناكَ قبلَ الانتقامِ فاستيقِنْ أنَّا ننتقمُ منهم.

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ وهوَ الانتقامُ منهم في حياتِك ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ قادرون قالَ ابنُ عبَّاسٍ: قد أراهُ اللهُ ذلكَ يومَ بدرٍ[١].

وقيلَ: وإمَّا نُرِينَّكَ في المؤمنين ما وعدناهم فنحنُ قادرونَ عليه.

***

(٤٣ ـ ٤٥) ـ ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: فلا يُخطرَنَّ الشَّيطانُ عليكَ ريباً في أمرِكَ، فإنَّكَ على الحقِّ، فاستمسكْ بالقرآنِ وإن كذَّبَ به مَن كذَّبَ، فإنَّكَ على طريقٍ مستقيمٍ يُوصلُكَ إلى اللهِ ورضاه وثوابِه.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٩).

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾؛ أي: وهذا القرآنُ بيانٌ لك ولأمَّتِك فيما بكم إليه حاجةٌ، ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ عن العملِ بمواجبِه.

وقيلَ: أي: وهذا الَّذي أوحينا إليك شرفٌ لك ونَباهةٌ وصِيتٌ؛ لأنَّه معجِزٌ ومعجِبٌ ونازلٌ بلسانِك ولسانِ قومِك.

وقولُه: ﴿وَلِقَوْمِكَ ﴾ يعني: العربَ، وقيلَ: قريشاً، وقيلَ: كلَّ مَن آمَنَ به.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: كانَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إذا سُئِلَ: لـمَن هذا الأمرُ بعدَك؟ لم يُخبرْ بشيءٍ حتى نزلَت هذه الآيةُ، فكان إذا سُئِلَ قالَ: «لقريشٍ»[1]. وهذا يدلُّ على أنَّ الأئمَّةَ من قريش.

وقيلَ: سوف تُسألون عن أنسابِكم، فإذا أخبرتُم أنَّكم مِن قومِ مَن نزلَ عليه القرآنُ، ووُجِدتم مُكذِّبين له، لم تُعْذَروا.

وقيلَ: وسوف تُسألون عن شكرِ ما جعلَه اللهُ لكم من الشَّرفِ.

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾؛ أي: لستَ تدعوهم إلى شيءٍ مُبتَدعٍ، بل تدعوهم إلى دينٍ أطبقَت عليه الأنبياءُ، وهوَ التَّوحيدُ، فلا معنى لإنكارِهم ذلكَ.

ثمَّ قيلَ: سَلْ مؤمني أهلِ الكتابِ: هل جاءَتْكم الرُّسلُ إلَّا بالتَّوحيدِ؟

وفيه حذفٌ؛ أي: سَلْ أُممَ مَن أرسلنا حتَّى يُخبروا عن كتبِ الرُّسلِ، فكأنَّه سؤالُ الرُّسل، فكانَت العربُ تُراجِعُ أهلَ الكتابِ لا سيَّما في أمرِ النَّبيِّ عليه السَّلام، فإذا

---

(١) رواه العقيلي في «الضعفاء» (٢/ ١٧٥)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ٥٠٨)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٤٤٦ ـ ٤٤٧)، عن علي وابن عباس رضي الله عنهم، وفيه: «كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل بمكة، ويعدهم الظهور، فإذا قالوا: لمن الملك بعدك؟ أمسك، فلم يخبرهم بشيء، لأنه لم يؤمر في ذلك بشيء، حتى أنزلت ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ فكان بعد إذا سئل قال: «لقريش»، فلا يجيبونه حتى قبلته الأنصار»، وأعله العقيلي وابن عدي بسيف بن عمر الضبي.

شهدوا بنفيِ عبادةِ الأصنامِ فهو أقوى الحجج آمنوا بالنَّبيِّ عليه السَّلام أو لم يؤمنوا.

وقيلَ: أي: سَل مَن أرسلنا إليهم مِن قبلِك رُسلاً مِن رُسلِنا، فحذفَ الصِّلةَ، كقولِه: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥]؛ أي: يخوِّفُكم أولياءَه، وقولِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ [الشورى: ٢٣]؛ أي: يُبشِّرهم به، قالَه القُتيبيُّ[١].

وخطَّأه ابنُ الأنباريِّ، وقالَ: لا يُقالُ: «الَّذي جَلستُ عبدُ اللهِ» بمعنى: الَّذي جلستُ إليه عبدُ اللهِ؛ لأنَّ «إليه» حرفٌ منفصلٌ، والمنفصلُ لا يُضمَرُ في صلةِ الموصولِ لانفصالِه مِن الفعلِ، وإنَّما الإضمارُ في المتَّصلِ نحو: «الَّذي أكلتُ طعامُك»؛ أي: أكلتُه، فتُحذَفُ الهاءُ لطولِ الكلام[٢].

فمعنى الآية: سَل أتباعَ مَن أرسلْنا، فهو مِن بابِ حذفِ المضافِ، وسؤالُ أتباعِ الأنبياءِ كسؤالِ الأنبياءِ، كقولِه: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣] فجعلَ ما أُنزلَ إلى النَّبيِّ ـ عليه أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ ـ مُنزَلاً إليهم، وما أُنزلَ إليهم مُنزَلاً إليه.

وقيلَ: أي: وسَل عمَّن أرسلْنا قبلَكَ مِن رُسلِنا، فحذفَ الصِّلةَ، كقولِه: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾؛ [الإسراء: ٣٤] أي: مسؤولاً عنه، ثمَّ هذا السُّؤالُ مِن أممِهم، فيرجعُ المعنى إلى سؤالِ الأتباعِ والأممِ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنه: لمَّا أُسرِيَ بالنَّبيِّ عليه أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ إلى المسجدِ الأقصى بعثَ اللهُ له آدمَ ومَن وَلَدَ من المرسَلين، فأذَّنَ جبريلُ ثمَّ أقام، وقالَ: يا محمَّدُ تقدَّمْ فصلِّ بهم، فلمَّا فرغَ رسولُ اللهِ ﷺ من الصَّلاةِ قالَ له جبريلُ:

---

(١) انظر: «غريب القرآن» (ص: ٣٩٩)، و«تأويل مشكل القرآن» (ص: ١٦٧)، كلاهما لابن قتيبة.

(٢) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٥٢)، وذكر هذا الرد على ابن قتيبة دون تسمية قائله المرتضى في «أماليه» (٢/ ٨١).

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾ الآيةَ، فقالَ رسولُ اللهِ: «لا أسألُ، قد اكتفيتُ»، فلم يشكُكْ ولم يسألْ[1].

وقيلَ: الخطابُ للنَّبيِّ عليه أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ والمرادُ غيرُه ممَّن يشكُّ في ذلك؛ أي: سلوا يا معاشرَ العربِ أهلَ الكتابِ: هل أتى الرُّسلُ بدينٍ غيرِ التَّوحيدِ؟

❊ ❊ ❊

(٤٦ ـ ٥٠) ـ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ لمَّا سكَّنَ قلبَ النَّبيِّ عليه أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ بأنَّه منتقمٌ، وأقامَ الحجَّةَ باستشهادِ الأنبياءِ واتِّفاقِ الكلِّ على التَّوحيدِ، أكَّدَ ذلكَ بقصَّةِ موسى وفرعونَ، وما كانَ من فرعونَ من التَّكذيبِ، وما نزلَ به وبقومِه من الإغراقِ والتعذيبِ؛ أي: أرسلنا موسى بالمعجزاتِ فكُذِّبَ، فجعلْتُ العاقبةَ الجميلةَ له، فكذلكَ أنت.

قولُه تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾؛ أي: استهزَؤُوا به وتهاوَنُوا، وأوهَمُوا أتباعَهم أنَّها سحرٌ وتَخييلٌ، وأنَّهم قادرونَ عليها.

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾؛ أي: كانَتْ آياتُ موسى من كبارِ الآياتِ، وكانَت كلُّ واحدةٍ أعظمَ ممَّا قبلَها في الأعجوبةِ، ومعنى الأخوةِ:

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٥٣)، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٦٠٥) عن ابن زيد.

المشـاكَلةُ، كمـا يُقالُ: هـذه صاحبةُ هـذه؛ أي: هما قريبتـان في المعنى، فالمناسـبةُ بيـنَ الآيـاتِ: اجتماعُها فـي التَّعجُّب.

وقيلَ: ﴿إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَا﴾ لأنَّ الأولى تقتضي علماً، والثَّانيةَ تقتضي علماً، فتنضمُّ الثَّانيةُ إلى الأولى، فيزدادُ الوضوحُ.

﴿وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ﴾؛ أي: على تكذيبِهم بتلك الآياتِ، وهوَ كقولِه: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ الآيةَ [الأعراف: ١٣٠]، وكانَت هذه الآياتُ الأخيرةُ عذاباً لهم وأماناً لموسى.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ قالَ ابنُ عبَّاسٍ: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾؛ أي: يا أيُّها العالمُ[1]، وكانَ السَّاحرُ فيهم عظيماً يُوقِّرونَه، ولم يكن السِّحرُ صفةَ ذمٍّ.

وقيلَ: قالوه جهلاً منهم بصفتِه.

وقيلَ: بنَوه على معتقدِهم فيه، فلم يُناقشهم موسى في مخاطبتِهم إيَّاه رجاءَ أن يُؤمنوا.

وقيلَ: يُقالُ: ساحَرْتُه فسَحَرتُه؛ أي: غالَبتُه فغَلَبتُه؛ أي: يا أيُّها الغالبُ بالسِّحرِ.

﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾؛ أي: بما عَهِدَ عندكَ فيمَن آمَنَ به مِن كشفِ العذابِ عنه.

وقيلَ: كانَ اللهُ عَهِدَ إلى موسى: لئن آمنوا أو ضمنوا الإيمانَ كشفتُ عنهم.

وقيلَ: عهدُ اللهِ إليه: ما أعطاه مِن النُّبوَّةِ.

﴿إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ﴾؛ أي: نؤمنُ بك.

قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾؛ أي: فدعا فكشفنا عنهم.

---

(١) ذكره عنه الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٩/ ١٧١)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٥٥).

﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾؛ أي: يَنقضون العهدَ الَّذي جعلُوه على أنفسِهم، فلم يُؤمنوا.

وقيلَ: قولُهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ إخبارٌ منهم عن أنفسِهم بالإيمانِ، فلـمَّا كُشِفَ عنهم العذابُ ارتدُّوا.

***

(٥١ - ٥٣) - ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ﴾ قيل: لـمَّا رأى تلك الآياتِ خافَ مَيلَ القومِ إليه، فجمَعَ قومَه بأن أمَرَ فنُودِيَ فيهم، فلـمَّا اجتمعوا جدَّدَ عليهم العهودَ.

وقيلَ: جمعَهم أولاً، ثمَّ نادى فيهم بهذا القولِ:

﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾؛ أي: أملِكُ غلَّتَها، فأصرفُها على ما أشاء ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾؛ أي: تصرُّفي نافذٌ فيها من غيرِ صانعٍ، يعني: أنهارَ النِّيلِ.

وقيلَ: ﴿مِن تَحْتِيٓ﴾؛ أي: تحت قصوري، أو: من بين يدي.

وقيلَ: كانَ إذا أمسَكَ عنانَه أمسكَ النِّيلُ عن الجريانِ، ويجوزُ ظهورُ خوارقِ العادةِ على مُدَّعي الرُّبوبيَّةِ؛ إذ لا حاجةَ في تمييزِ الإلهِ من غيرِ الإلهِ إلى فعلِ خارقٍ للعادةِ.

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؛ أي: عظمتي وفضلي على موسى.

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ قالَ أبو عُبيدةَ: أي: بل أنا خيرٌ[1].

وقيلَ: هوَ عطفٌ على ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؛ لأنَّ المعنى: أم تبصرون، كأنَّه قالَ:

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٢٠٤).

أفلا تُبصرونَ أم تُبصرون؛ لأَنَّهم إذا قالوا له: أنتَ خيرٌ منه، فقد صاروا عنده بصراءَ، فكأَنَّه قالَ: أفلا تبصرونَ أم أنتم بصراءُ.

﴿أَنَا۠ خَيْرٌ﴾؛ أي: أنا أفضلُ من هذا الَّذي هوَ حقيرٌ ضعيفٌ، ليسَ له من الملكِ شيء، وليسَ له تَبَعٌ، وهوَ لا يكادُ يُبينُ عن نفسِه ما يريدُ من الكلام، وكانَ في لسانِ موسى رُتَّةٌ؛ أي: لَثْغة.

وقيلَ: الَّذي كانَ بلسانِه من الآفةِ أذهبَه اللهُ لـمَّا قالَ: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ [طه: ٢٧]، ولكن بنى فرعونُ على ما عرفَه منه في الصِّبا، وأرادَ: لا يُبينُ حجَّتَه الَّتي تدلُّ على صدقِه في دعوى النُّبوَّةِ، وهذا من قولِ فرعونَ كانَ عناداً وكذباً بعدما شاهدَ الآياتِ.

وقيلَ: كانَت العُجمةُ ذهبَت وبقيَت بقيَّةٌ، فلهذا قالَ: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾.

والمهينُ: الحقيرُ، يُقالُ: مَهُنَ مَهانةً؛ أي: ضعُفَ.

قولُه تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾؛ أي: لو كانَ كما يقولُ لكانَ له أموالٌ وأتباعٌ كالعبدِ الَّذي يكرمُه الملكُ فيُطوِّقُه ويُسوِّرُه.

﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾؛ أي: هلَّا ضمَّ إليه الملائكةَ الَّتي يزعمُ أَنَّها عندَ ربِّه حتَّى يتكثَّرَ بهم ويصرِّفُهم على أمرِه ونهيِه، فيكونَ ذلكَ أهيبَ في القلوبِ، فأوهَمَ قومَه أنَّ رسلَ اللهِ ينبغي أن يكونوا كرسلِ الملوكِ في الشَّاهدِ، ولم يعلم أنَّ تأييدَ اللهِ رسلَه إنَّما يكونُ بالجنودِ السَّماويَّةِ، وكلُّ عاقلٍ يعلمُ أنَّ حفظَ اللهِ موسى مع تفرُّدِه ووحدتِه مِن فرعونَ مع كثرةِ أتباعِه، وإنقاذَ موسى، وإمدادَه بالعصا واليدِ البيضاءِ، كانَ أبلغَ من أن يكونَ له أسورةٌ من ذهبٍ، فكذلك لا عبرةَ بقولِ مَن قالَ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

ثمَّ إنَّ جملةَ الأمرِ: أنَّ فرعونَ اقترحَ على موسى آياتٍ، وليسَ للأمَّةِ الاقتراحُ، بل

يكفي النَّبيَّ آيةٌ واحدةٌ، ثمَّ لو حصلَتِ الآيةُ الَّتي ترفعُ الرَّيبَ وتُوجِبُ العلمَ الضَّروريَّ ففيها البوارُ والاستئصالُ في الحالِ لو لم يُؤمنوا، فإنَّ سنَّةَ اللهِ قد جرَت بذلك.

وقيلَ: إنَّ فرعونَ ما كانَ يقرُّ بإلهٍ، وإنَّما قالَ ما قالَ إلزاماً لموسى؛ أي: إن كانَ الأمرُ على ما يقولُ فهلَّا ضَمَّ إلهُه إليه ملائكةً.

وقُرِئَ: ﴿أَسْوِرَةٌ﴾ و﴿أَسَاوِرَةٌ﴾[1]، والأَسوِرةُ: جمعُ السِّوارِ،

ومَن قالَ في سِوارٍ: «إسوارٌ» بكسرِ الهمزةِ، فجمعُه: أساويرُ وأساورةٌ، والهاءُ عوضٌ من الياءِ نحو: بطاريقَ وبطارقةَ، فالأساورةُ جمعُ إسوارٍ، وقيلَ: جمعُ أَسوِرةٍ، كما يُقالُ: «أساقٍ» في جمعِ أَسقِيةٍ.

***

(٥٤) - ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾؛ أي: هذا التَّمويهُ من فرعونَ أثَّرَ فيهم وأطاعوه لخفَّةِ أحلامِهم وقلَّةِ عقولِهم، يُقالُ: استخفَّه الفرحُ؛ أي: أزعجَه، واستخفَّه؛ أي: حملَه على الجهلِ، ومنه: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

وقيلَ: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾؛ أي: وجدَهم خِفافَ العقولِ، وهذا لا يدلُّ على أنَّه يجبُ أن يُطيعوه، فلا بدَّ من أن يدَّعي على هذا القولِ إضماراً بعيداً، فيقولُ: وجدَهم خِفافَ العقولِ، فدعاهم إلى الغوايةِ فأطاعوه.

وقيلَ: أي: استخفَّ بقومِه وقهرَهم حتَّى اتَّبعُوه.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾؛ أي: خارجينَ عن طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

***

---

(١) قرأ حفص: ﴿أَسْوِرَةٌ﴾، وباقي السبعة: (أساورة). انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٧)، و«التيسير» (ص: ١٩٧).

(٥٥) ـ ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ قالَ ابنُ عبَّاسٍ: أي: غاظُونا وأغضبُونا[١]، والآسفُ يغيظُ المنتقِمَ، والأسَفُ هاهنا بمعنى الغضب، والغضبُ مِن اللهِ إمَّا إرادةُ العقوبةِ فيكونُ من صفاتِ الذات، وإمَّا عينُ العقوبةِ فيكونُ من صفاتِ الفعل.

وقيلَ: أي: آسفوا أولياءَنا، وهوَ كقولِه: ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٥٧] و﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ﴾ [المائدة: ٣٣]؛ أي: أولياءَه.

* * *

(٥٦) ـ ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا﴾؛ أي: جعلنا قومَ فرعونَ سلفاً إلى النَّارِ؛ أي: مُقدِّمةً إليها لمن تأخَّرَ عنهم من الأممِ الماضية ﴿وَمَثَلًا﴾ لهم؛ أي: يعتبرون بهم ما داموا أحياء، وهوَ كقولِه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، فالسَّلفُ المُتقدِّمُ كالإمامِ في قولِه: ﴿أَئِمَّةً﴾، يُقالُ: سَلَفَ يسلُفُ؛ أي: تقدَّمَ ومضى، وسَلَفَ له عملٌ صالح؛ أي: تقدَّمَ.

وقُرِئَ: ﴿سَلَفًا﴾ بالفتحِ، وهوَ جمعُ سالِفٍ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿سُلُفاً﴾ بالضَّمِّ[٢]، وهيَ جمعُ سَليفٍ مِن سَلُفَ بضمِّ اللامِ، وقد نقلَه الليث، يُقالُ: سَلُفَ يسلُفُ ـ مثل: عَظُمَ يعظُمُ ـ سُلوفاً فهو سَليفٌ؛ أي: تقدَّمَ[٣].

---

(١) ذكر الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٦٢) عن ابن عباس من رواية عطاء: «غاظونا»، ومن رواية الكلبي: «أغضبونا». وهذه الأخيرة رواها الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٦١٧) من رواية عطية.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٧)، و«التيسير» (ص: ١٩٧).

(٣) انظر: «العين» (٧/ ٢٥٩).

وقـالَ المُبرِّدُ: يُمكنُ أن يكونَ (سُـلُفٌ) جمعُ (سَـلَفٍ) كقولك: أُسُـدٌ وأَسَـدٌ، ووُثُـنٌ ووَثَنٌ[١].

﴿وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾؛ أي: عِظةً لمن بعدَهم.

***

(٥٧ ـ ٥٩) ـ ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

قولُـه تعالـى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ لمَّـا قـالَ: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ تعلَّـقَ المشـركون بأمـرِ عيسـى، وقالـوا: قالَـت النَّصـارى: إنَّـه إلـهٌ وابـنُ الإلـه، وجعلوا عبادتَهـم الملائكـةَ كعبـادةِ النَّصـارى اللهَ والمسيحُ بزعمِهـم هـوَ اللهُ، أو جعلـوا قولَهـم فـي الملائكةِ: إنَّها بنـاتُ اللهِ، كقولِ النَّصارى: إنَّ المسيحَ ابـنُ اللهِ، فأرادوا بهـذا القـدحَ فـي قـولِ النَّبـيِّ عليـه السَّـلام: إنَّ دينَ المشـركين لـم يأتِ في شـيءٍ من الشَّـرائعِ.

فمعنى الآية: لمَّا عبدَ قومُ عيسى [عيسى][٢] وضربُوه مثلاً لله؛ أي: جعلُوه شبهاً له في العبادةِ ﴿إذا قومُكَ منه يَصُدُّون﴾؛ أي: يحتجُّون به[٣].

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٦٣).

(٢) زيادة يقتضيها السياق وسيأتي قريباً شبيه لها.

(٣) قوله: «يحتجون به» كذا في (أ)، ولعل مراده أن (من) سببية كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ﴾ [نوح: ٢٥]، ولذلك فسر ﴿مِنْهُ﴾ بـ«به»؛ أي: بسببه، لكن لم أجد من فسر ﴿يَصِدُّونَ﴾ بـ«يحتجون»، ولم أقف على صد بمعنى: احتج، فلعله تفسير للمعنى لا للفظ، والله أعلم، أي: جعلوا شرك النصارى في =

وقُرِئَ: ﴿يَصِدُّونَ﴾ بكسرِ الصَّادِ؛ أي: يضجُّونَ.

ومن قرأ بالرَّفعِ(١) قالَ: صدُّوا النَّاسَ بهذا عن عبادةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وحدَه صدًّا، وصدُّوا بأنفسِهم صُدوداً، وقيلَ: ﴿يَصِدُّونَ﴾ بالكسرِ بمعنى ﴿يَصُدُّون﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾؛ أي: إن جازَ أن يكونَ المسيحُ إلهاً وهوَ أرضيٌّ سُفليٌّ فالملائكةُ أولى وهم سُكَّانُ السَّماواتِ.

وقيلَ: وجهُ النَّظمِ: أنَّه بيَّنَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ينتقمُ من أعداءِ محمَّدٍ كما انتقمَ ممَّن كفرَ في وقتِ موسى، وكما ينتقمُ ممَّن قالَ في عيسى ما لا يليقُ بوصفِه.

وقالَ مجاهدٌ: وقالوا: إنَّما يريدُ محمَّدٌ أن نعبدَه كما عبدَ قومُ عيسى [عيسى](٢)، لمَّا ذَكَرَ رسولُ اللهِ ﷺ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩] فهذا القول منهم ضجيجُهم وصدُّهم.

وقيلَ: نزلَتِ الآيةُ في ابن الزِّبعرى لمَّا قالَ لمَّا نزلَ قولُه: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]: لقد خصمْتُ محمَّداً، وقالَ: لقد عُبِدَ عيسى مِن دونِ اللهِ(٣)، فهذا ضجيجُهم وصدودُهم وشُبهتُهم، وكانَ هذا الكلامُ منهم لَجاجاً وتعنُّتاً وجَدَلاً.

= عبادتهم للمسيح حجة لما هم فيه من الشرك فهو الصدود.

(١) بضم الصاد قراءة ابنِ عامر ونافع والكسائيِّ، والباقون بكسر الصاد. انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٧)، و«التيسير» (ص: ١٩٧).

(٢) رواه عنه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٦٢١).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٩٨)، و«تفسير السمرقندي» (٢/ ٢٦١)، و«أسباب النزول» للواحدي (١/ ٣٧٦).

وقيل: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَ ﴾؛ أي: رضينا أن تكونَ آلهتُنا بمنزلةِ عيسى، والاستفهامُ على هذا للإنكارِ، أو قالوا: آلهتُنا الملائكةُ، وهم سُكَّانُ العُلا خيرٌ مِن عيسى، وقد قيلَ: إنَّه ولدُ الإلهِ، وقد قلْنا: الملائكةُ بناتُه، وعلى هذا فالاستفهامُ للتَّقريرِ.

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا ﴾؛ أي: ما قالوا ما قالوا إلَّا للجدالِ.

ومَن قالَ: إنَّهم قالوا: إنَّ محمَّداً يريدُ أن نعبدَه، قالوا: أآلهتُنا خيرٌ أم محمَّدٌ؟ أي: لا ندعُ عبادةَ آلهتِنا لعبادةِ محمَّدٍ، وهوَ استفهامُ تقريرٍ في أنَّ آلهتَهم خيرٌ.

﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴾ الخَصِمُ: الشَّديدُ الخصومةِ.

وبيِّنٌ أنَّ هذا الجدالَ باطلٌ؛ لأنَّ عيسى لا يجوزُ أن يكونَ إلهاً، ومَن اعتقدَ إلهيَّتَه فهو محجوجٌ بحججِ العقلِ، فكيف يُحتجُّ بقولِه؟!

قولُه تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ ﴾؛ أي: ما عيسى إلَّا عبدٌ أنعَمَ اللهُ عليه بالنُّبوَّةِ وجعلَه ﴿مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾؛ أي: آيةً وعِبرةً يُستدلُّ بها على قدرةِ اللهِ، فكيف يجوزُ أن يكونَ معبوداً، وظهورُه من غيرِ أبٍ وأمٍ لا يُوجِبُ له الإلهيَّةَ، كما أنَّ ظهورَ آدمَ من غيرِ أبٍ وأمٍّ لم يُوجِب له الإلهيَّة.

* * *

(٦٠) - ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ﴾؛ أي: لجعلنا بدلَكم ملائكةً يكونونَ خلفاً عنكم، ويخلُفُ بعضُهم بعضاً.

قالَ الأزهريُّ: (مِن) قد يكونُ للبدلِ بدليلِ هذه الآيةِ[1].

وقيلَ: ولو نشاءُ لجعلنا من الإنسِ ملائكةً، وإن لم تَجرِ العادةُ بذلك، والجواهرُ جنسٌ واحدٌ، والاختلافُ بالأوصافِ، والمعنى: لو نشاءُ لأسكنَّا الأرضَ الملائكةَ، وليسَ في إسكانِنا إيَّاهم السَّماءَ شرفٌ حتَّى يُعبَدوا أو يُقالَ: إنَّهم بناتُ الله.

***

(٦١ ـ ٦٢) ـ ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾؛ أي: إنَّ عيسى مِن أعلامِ السَّاعةِ لأنَّ اللهَ ينزلُه مِن السَّماءِ قبلَ قيامِ السَّاعة، كما أنَّ خروجَ الدَّجَّالِ مِن أعلامِ السَّاعة، فإذاً أنا أُحيي عيسى وأنتم تُنكرونَ الإحياءَ بعدَ الموتِ، وأجعلُه أمامَ السَّاعة، فهو كسائرِ الخَلقِ في أنَّه في تصريفِ الرَّبِّ جلَّ وعلا.

وقيلَ: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يرجعُ إلى القرآنِ؛ أي: إنَّ هذا الكتابَ يدلُّ على قُربِ مجيءِ السَّاعة، أو به تُعلَمُ السَّاعةُ وأهوالُها وأحوالُها.

وقُرِئَ: (وإنَّه لَعَلَمٌ) بفتحِ اللامِ والعينِ [2]؛ أي: لَدلالةٌ.

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾؛ أي: لا تُكذِّبوا بها، ولا تُجادلوا فيها؛ أي: في السَّاعةِ؛ فإنَّها كائنةٌ لا محالةَ.

﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾؛ أي: في التَّوحيدِ وفيما أبلِّغُكم عنِ اللهِ.

---

(١) انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (١٥/ ٣٤٠).

(٢) نسبت لابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهم وقتادة ومالك بن دينار والضحاك، كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٦)، و«تفسير الثعلبي» (٢٣/ ٤٧٢).

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾؛ أي: اتِّباعي طريقٌ قويمٌ يوصلُكم إلى رضا اللهِ عزَّ وجلَّ.

قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ أي: لا تغترُّوا بوساوسِه وشُبهِ الكفَّارِ المجادلين؛ فإنَّ شرائعَ الأنبياءِ لم تختلفْ في التَّوحيد.

***

(٦٣ ـ ٦٤) ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: جاءَ رسولاً إلى بني إسرائيلَ فقالَ: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾؛ أي: أُبيِّنُ لكم الصَّوابَ؛ أي: بالبيِّناتِ، وقيلَ: بالإنجيلِ، وقيلَ: الحكمةُ: النُّبوَّةُ، وقيلَ: الإنجيلُ.

﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قالَ أبو عُبيدةَ: ﴿بَعْضَ﴾ بمعنى كلٍّ[(١)]، وقد ذكرنا هذا في قولِه: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨].

وقيلَ: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ يعني: أحكامَ التَّوراةِ، وقيلَ: يعني اختلافَ اليهودِ والنَّصارى، وقيلَ: لأُبيِّنَ لك لكم أمرَ دينِكم لا أمرَ دُنياكم.

وقالَ مُقاتلٌ: هوَ كقولِه: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، يعني: ما أُحِلَّ في الإنجيلِ ممَّا كانَ محرماً في التَّوراة كلحمِ الإبلِ والشَّحمِ مِن كلِّ حيوانٍ وصيدِ السَّمكِ يومَ السَّبتِ[(٢)].

وقالَ الزَّجَّاجُ: إنَّما ذَكَرَ في الإنجيلِ بعضَ ما اختلفوا فيه، وبيَّنَ لهم في غيرِ الإنجيلِ البعضَ[(٣)].

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٢٠٥).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٨٠٠).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٤١٧).

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: اتَّقوا الشِّركَ، ولا تعبدوا إلَّا اللهَ وحدَه، فإذا كانَ هذا قولَ عيسى، فكيف يجوزُ أن يكونَ إلهاً أو ابناً للإله؟!

﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه من التَّوحيدِ وغيرِه.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾؛ أي: أنا عبدُ اللهِ، والواجبُ عبادةُ اللهِ، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾؛ أي: عبادةُ اللهِ، وما سواه مُعوجٌّ لا يؤدِّي سالكَهُ إلى الحقِّ، واللهُ أعلمُ.

* * *

(٦٥) - ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾؛ أي: إنَّما دعاهم عيسى إلى هذا، ولكنَّ رُؤساءَ الفرقِ الَّذين آمنوا به افترقوا في الدِّين، فقالَوا في عيسى ما قالوا، وظلموا أنفسَهم، فويلٌ لهم في الآخرةِ مِن العذابِ.

وقيلَ: أي: فاختلفَ اليهودُ والنَّصارى في المسيحِ، فويلٌ لهم؛ أي: لهم عذابٌ يُنادُونَ فيه بالويلِ.

﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: يومٍ أليمٍ عذابُه، ومثلُه: ليلٌ نائمٌ؛ أي: يُنامُ فيه.

﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾؛ أي: من جملتِهم؛ أي: بانَ عنهم قومٌ بمذاهبَ وتميَّزُوا.

* * *

(٦٦) - ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾؛ أي: هؤلاءِ الأحزابُ لا ينتظرونَ إلَّا السَّاعةَ.

وقيلَ: أي: لا ينتظرُ مُشرِكو العربِ إلَّا السَّاعةَ، ويتَّصلُ بقولِه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ

﴿إِلَّا جَدَلَۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾؛ أي: إنهم يُخاصمونَ لا على حجَّةٍ، فهل ينتظرونَ إلَّا السَّاعةَ؛ إذ كانُوا في الدُّنيا أصحابَ لَجاجٍ وعنادٍ.

﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾؛ أي: فجأةً، والمعنى: هل ينتظرُهم إلَّا هذا؟ أي: مَآلُهم القيامةُ، وهيَ كائنةٌ لا محالةَ وإن كانُوا غيرَ مُعترِفين بها.

***

(٦٧) - ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: هم في الدُّنيا بحيثُ يتمنَّى بعضُهم لبعضٍ النُّبوَّةَ، ويراه أحقَّ بها، وهذا يزولُ في الآخرةِ، فتصيرُ المحابَّةُ مُباغضةً؛ إذ لم تكن على تقوى الله وطاعتِه.

***

(٦٨ - ٦٩) - ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: يُقالُ: للمتَّقينَ يومَ القيامةِ: ﴿يَٰعِبَادِ﴾؛ أي: يا مَن ارتضيتُهم لعبادتي ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: منَ العذاب.

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾، قالَ مُقاتلٌ: يُنادي مُنادٍ في العَرَصاتِ: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ فيرفعُ أهلُ العَرْصةِ رؤوسَهم، فيقولُ المُنادي: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾، فينكُسُ أهلُ الأديانِ رُؤوسَهم غيرَ المُسلمين[1].

قالَ الزَّجَّاجُ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نصبٌ على النَّعتِ لـ﴿عبادي﴾؛ لأنَّ ﴿عبادي﴾ مُنادًى مُضافٌ[2].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٨٠٢)، وعنه الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٧٣) وعنه نقل المصنف.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٤١٩).

وقيلَ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ابتداءٌ، وخبرُه محذوفٌ؛ أي: الذين آمنوا يُقالُ لهم: ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ ﴾، أو: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ﴾، أو التَّقديرُ: هم الذين آمنوا.

* * *

(٧٠) ـ ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ ﴾؛ أي: يُقالُ لهم: ﴿ ٱدْخُلُواْ ﴾، أو: يا عبادي الذين آمنوا ادخلوا.

والأزواجُ: زوجاتُهم في الدُّنيا.

وقيلَ: زوجاتُهم منَ الحُورِ العِينِ.

﴿ تُحْبَرُونَ ﴾؛ أي: ادخلوا الجنَّةَ محَبورينَ مسرورينَ.

وقيلَ: ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾؛ أي: تُكرَمونَ.

وقيلَ: هو السَّماعُ، قالَ أبو موسى: لو علمتُ بمكانكَ لحبَّرتُه لكَ تحبيراً(١).

* * *

(٧١) ـ ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ﴾ والصِّحافُ: القِصاعُ، واحدتُها: صَحفةٌ، والأكوابُ: الأباريقُ الَّتي ليسَ لها عُرًى، الواحدُ: كوبٌ؛ أي: بأطعمةٍ في صِحافٍ

---

(١) رواه البزار في «مسنده» (٣١٦٠)، وأبو يعلى في «مسنده» (٧٢٧٩)، وتمامه: عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو رأيتني البارحة، وأنا أستمع لقراءتك لقد أوتيتَ من مزامير آل داود» قال: قلت: لو علمت أنك تستمع لقراءتي لحبرتها لك تحبيرًا. وأول الحديث دون قول أبي موسى رواه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣).

من ذَهبٍ وأشربةٍ في أكوابٍ مِن ذَهبٍ، ولم يَذكرِ الأطعمةَ والأشربةَ؛ لأنَّهُ يُعلمُ أنَّهُ لا معنًى للإطافةِ بالصِّحافِ والأكوابِ عليهم من غيرِ أن يكونَ فيها شيءٌ، وذكرَ الذَّهبَ في الصِّحافِ، فاستغنى بهِ عنِ الإعادةِ في الأكوابِ، كقولِه: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

﴿وفيها ما تَشْتهِي الأنفسُ﴾؛ أي: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾[1]، تقولُ: الَّذي ضربتَ زيدٌ؛ أي: الَّذي ضربتَه زيدٌ.

﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ تقولُ: لذَّ الشَّيءُ يَلَذُّ لَذاذاً ولَذاذةً، فإذا كُنتَ الفاعلَ قلتَ: لَذِذتُ الشَّيءَ لَذَّةً؛ بالكسرِ في الماضي، والفتحِ في الغابرِ، مثل: استَلَذَذتُه؛ أي: في الجنَّةِ ما تَستلِذُّهُ العينُ.

قال سعيدُ بن جُبيرٍ: ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾: النَّظرُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، كما في الخبرِ: «أسألُكَ لذَّةَ النَّظرِ إلى وجهِكَ»[2].

﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لأنَّها لو انقطعَتْ لتبغَّضَتْ.

***

(٧٢) ـ ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾؛ أي: يُقالُ لهم: هذه هي تلك الجنَّةُ الَّتي كانَت تُوصَفُ لكم في الدُّنيا ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾؛ أي: جعلَها اللهُ لكم ميراثاً عن الكفَّار الذين لو عملُوا مثلَ عملِكم كانُوا من أهلِها.

---

(١) وهكذا قرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وحفصٌ، والباقون ﴿تشتهي﴾ دون هاء. انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٨)، و«التيسير» (ص: ١٩٧).

(٢) المرفوع رواه النسائي (١٣٠٥) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما.

قـال ابنُ عبَّاس: خلقَ اللهُ لكلِّ نفسٍ جنّةً وناراً، فالكافرُ يرثُ نارَ المسلمِ، والمسلمُ يرثُ جنّةَ الكافر[1].

* * *

(٧٣) ـ ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾؛ أي: لكم سوى الطَّعامِ والشَّرابِ فاكهةٌ كثيرةٌ تأنسونَ بها ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾؛ أي: ما اشتَهيتُم.

* * *

(٧٤ ـ ٧٦) ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ لـمَّا ذكرَ أحوالَ أهلِ الجنَّةِ ذكرَ أحوالَ أهلِ النّار أيضاً ليُبيِّنَ فضلَ المطيعِ على العاصي.

قولُه: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾؛ أي: لا يُخفَّفُ عنهم ذلك العذابُ لا بالتَّقليلِ ولا بالقطعِ، وهم في العذابِ يائسونَ من الفرجِ، والإبلاسُ: اليأسُ.

قولُه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾؛ أي: ما ظلمْنا هؤلاء المجرمينَ لأنَّا تصرَّفنا في ملكِنا، وإنَّما عذَّبناهم بذنوبِهم.

* * *

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٧٦)، وروي معناه مرفوعًا؛ رواه ابن ماجه (٤٣٤١) ـ وهو آخر حديث فيه ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا له منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠]. قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٤/ ٢٦٦): «هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين».

(٧٧) - ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾؛ أي: بالموتِ؛ أي: ليُمِتنا ربُّك، وهذا تمنٍّ، فيقولُ: ﴿إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾؛ أي: لابثون في العذابِ أبداً، لا خلاصَ عنه بالموت.

قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه: يسكتُ عنهم مالكٌ إذا سألوه أن يسألَ الله عزَّ وجلَّ أن يُميتَهم ألفَ سنةٍ كلُّ يومٍ منها كألفِ سنةٍ ممَّا تعدُّون، ثمَّ يقولُ: ﴿إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾[١]؛ أي: مُقيمونَ في العذاب.

* * *

(٧٨) - ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ﴾ يحتملُ أن يكونَ هذا من قولِ مالكٍ لهم: إنَّكم ماكثونَ في النَّارِ لأنَّا جئناكم في الدُّنيا بالحقِّ فلم تقبلوا، ويحتملُ أن يكونَ هذا الخطابُ مِن الله عزَّ وجلَّ للمشركين؛ أي: بيَّنا الأدلَّةَ ولكنَّكم كرهتُم الانقيادَ للحقِّ.

قالَ ابنُ عبَّاس: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ﴾؛ أي: ولكنَّ كلَّكم[٢].

وقيلَ: أرادَ بالأكثرِ الرُّؤساءَ والقادةَ منهم، وأمَّا الأتباعُ فما كانَ لهم أثرٌ.

* * *

---

(١) رواه بنحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٧٩٠)، وابن أبي الدنيا في «صفة النار» (٨٥)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٦٤٩)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٧٧)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٧٨).

(٧٩ ـ ٨٠) ـ ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

قولُه: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا﴾؛ أي: أم أبرمُوا أمراً تركوا لذلك تدبُّر هذا الحق ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾؛ أي: فإبرامُنا غالبٌ.

والإبرامُ: إحكامُ الأمرِ، و﴿أَمْ﴾ استفهامٌ متوسِّطٌ للكلام؛ قيل: معناه: بل؛ أي: بل أبرموا.

وقيل: أي: لقد جئناهم بالحقِّ فلم يسمعُوا، أم سمعُوا فأعرضُوا لأنَّهم في أنفسِهم أبرمُوا أمراً أمِنوا به العذابَ.

والإبرامُ من الله: الحكمُ بعذابِهم.

قالَ مقاتلٌ: نزلَت في تدبيرِهم المكرَ بالنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في دارِ النَّدوة[1].

قولُه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾؛ أي: ما يسرُّونه من غيرِهم ويتناجَونَ به، بل نسمعُ ذلك ﴿وَرُسُلُنَا﴾ من الحفَظةِ ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

وقيلَ: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟﴾ عطفٌ على قولِه: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾.

* * *

(٨١) ـ ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ لمَّا قالَ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، فذكرُوا عيسى وأنَّ قوماً قالُوا: إنَّه إلهٌ، فأبطلَ ذلك التَّمويهَ، وبيَّنَ أنَّ ما قالَه النَّصارى كذبٌ زخرفَه الأحزابُ، ولم يَدْعُ عيسى إلى ذلك، ساقَ الكلامَ إلى أن قالَ: قلْ يا محمَّدُ: إن ثبتَ لله ولدٌ فأنا

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٨٠٣).

أوَّلُ مَن يعبدُ ولدَه، ولكن يستحيلُ أن يكونَ له ولدٌ، وهو كما يقولُ لـمن يُناظرُه: إن ثبتَ ما قُلتَ بالدَّليلِ فأنا أوَّلُ مَن يعتقدُه. وهذا مبالغةٌ في الاستبعادِ؛ أي: لا سبيلَ إلى اعتقادِه، وهذا ترقيقٌ للكلامِ كقولِه: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

والمعنى على هذا: فأنا أوَّلُ العابدين لذلك الولدِ؛ لأنَّ تعظيمَ الولدِ تعظيمٌ للوالدِ.

وقيلَ: فأنا أوَّلُ العابدينَ للرَّحمنِ؛ على اعتقادِ أنَّ له ولداً، ولكنَّ الولدَ مستحيلٌ له.

وقيلَ: فأنا أوَّلُ العابدينَ للرَّحمنِ؛ على أنَّه يستحيلُ أن يكونَ له ولدٌ؛ أي: فأنا أوَّلُ مَن يُخالفُكم في هذا.

وقيلَ: ﴿إن﴾ بمعنى: ما؛ أي: ما كانَ للرَّحمنِ ولدٌ، وأنا أوَّلُ المخلصينَ له، إذ لم يكن له ولدٌ ولا يكونُ.

وقيلَ: ما كانَ للرَّحمنِ ولدٌ، وأنا أوَّلُ الآنِفينَ من اعتقادِ أنَّ له ولداً ومِن عبادةِ مَن له ولدٌ؛ لأنَّه أمارةُ الحدوث، ويجوزُ على هذا أن يكونَ بمعنى الشَّرط؛ أي: إن كانَ عندهم أنَّ لله ولداً فأنا أوَّلُ مَن يأنفُ من هذا ويغضبُ منه، يُقال: عَبِدَ يَعبَد؛ أي: غضِبَ وأنِفَ، والعَبَدَةُ: الأَنَفَة.

وسُئِلَ ابنُ عُيَينةَ عن هذه الآيةِ فقالَ: يقولُ: كما أنِّي لستُ أوَّلَ مَن عبدَ الله، فكذلك ليسَ لله ولدٌ، وهو كما تقولُ: إن كنتَ كاتباً فأنا حاسبٌ؛ أي: لستَ كذلك ولا أنا[1].

***

---

(١) ذكره الأزهري في «تهذيب اللغة» (٢/ ١٣٦)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٨٢)، والكرماني في «غرائب التفسير» (٢/ ١٠٦٩) وعده من العجائب.

وذكره السمعاني في «تفسيره» (٥/ ١١٩) عن سفيان بن عيينة والسدي بلفظ: إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين، وليس له ولد ولا أنا أول عابد، وهذا كالرجل يقول لغيره: «إن كنت كاتبًا...».

(٨٢) ـ ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ نزَّهَ نفسَه عن كلِّ ما يقتضي الحدوثَ، وأمرَ النَّبيَّ عليه السَّلامُ بالتَّنزيهِ ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ﴾؛ أي: عمَّا يقولونَ منَ الكذب.

***

(٨٣) ـ ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ ﴾ يعني: كفَّارَ مكَّةَ حينَ كذَّبوا بعذابِ الآخرةِ، ﴿يَخُوضُواْ ﴾؛ أي: في باطلِهم، ﴿وَيَلْعَبُواْ ﴾؛ أي: يَلهوا في دُنياهم فسيعلمون في القيامةِ عاقبةَ أمرِهم.

***

(٨٤) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ هذا تكذيبٌ لهم في أنَّ للهِ شريكاً وولداً؛ أي: هو المستحقُّ للعبوديّةِ في السَّماءِ والأرض.

وقيلَ: هو إلهُ مَن في السَّماءِ وإلهُ مَن في الأرضِ.

قالَ أبو عليٍّ: ﴿إِلَٰهٌ﴾ رُفِعَ بأنَّه خبرُ مبتدأٍ محذوف؛ أي: وهو الَّذي في السَّماء هو إلهٌ، وحَسُنَ حذفُ هذه الصِّلة لطولِ الكلام، وهذه الآيةُ كما تقولُ: الأميرُ في هذه البلدةِ فلانٌ؛ أي: الولايةُ له، فهو إخبارٌ عن الإلهيّةِ في السَّماءِ والأرضِ، لا عن الكونِ في السَّماءِ والأرض(١).

وقيلَ: ﴿في﴾ بمعنى: على، كقولِه: ﴿فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ [طه: ٧١]؛ أي: على جذوعِ النَّخلِ؛ أي: هو القادرُ على السَّماءِ والأرض.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٨٣ ـ ٨٤)، و«الوسيط» (٤/ ٨٣).

(٨٥) ـ ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: تعالى ودامَ مَن له ملكُ السَّماواتِ والأرضِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الموصوفَ بهذه الصِّفاتِ ليس بأهلٍ أن يُشركَ به أو يُضافَ إليه ولدٌ.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ﴾؛ أي: له الملكُ وهو عالمٌ بما يجري في مُلكِه، وهو القادرُ على ما يُريدُ مِن إقامةِ السَّاعة ونقضِ تركيبِ السَّماءِ والأرض.

﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾؛ أي: هو المستأثِرُ بعلمِها.

* * *

(٨٦) ـ ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: اعتَقدُوا أنَّ الملائكةَ أو الأصنامَ أو الجنَّ والشَّياطينَ لن تشفعَ لهم، ولا شفاعةَ لأحَدٍ يومَ القيامةِ ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: المؤمنين إذا أُذِنَ لهم.

وقيلَ: أي: إنَّ الملائكةَ وعيسى لا يملكون غداً لأحدٍ شفاعةً إلا لمَن شهدَ بالحقِّ، فالمشفوعُ له ينبغي أن يكونَ مؤمناً.

وفي الكلام إضمارٌ؛ أي: لا يملكون الشَّفاعةَ لأحدٍ يدعونَ مِن دونه؛ أي: يعبدون.

وقيلَ: أي: لا يملكُ هؤلاء العابدونَ من دونِ الله أن يَشفعَ لهم أحدٌ إلا مَن شهدَ بالحقِّ؛ فإنَّ مَن شهدَ بالحقِّ يُشفعُ له، ولا يُشفعُ لـمُشركٍ، و﴿إِلَّا﴾ بمعنى: لكن؛ أي: لا تنالُ المشركين الشَّفاعةُ، لكن تنالُ الشَّفاعةُ مَن شهدَ بالحقِّ.

﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: يشهدونَ بالحقِّ ـ وهو التَّوحيدُ ـ على علمٍ ويقينٍ.

وقيلَ: وهم يعلمونَ بالحقِّ وهو التَّوحيد.

وقيلَ: إلا مَن تشهدُ له الملائكةُ بأنَّه كانَ على الحقِّ في الدُّنيا مع علمِهم بذلك منه؛ بأن يكونَ اللهُ أخبرَهم به أو بأنْ شاهدوه على الإيمان.

وقيلَ: أي: وهؤلاء الملائكةُ يعلمونَ أنَّهم لا يملكونَ الشَّفاعةَ عند اللهِ إلا لـمن شهدَ بالحقِّ.

وجوَّزَ قومٌ «شفعتُه» و«شفعتُ له» مثل «كِلْتُه» و«كِلْتُ له»، ومَن لـم يجوِّز قالَ: اللامُ مضمرةٌ؛ أي: لا يملكون الشَّفاعةَ إلا لـمَن شهدَ بالحقِّ.

وقيلَ: أي: لا يملكُ مَن يعبدُه الكفَّارُ لأحدٍ شفاعةً، ثمَّ استثنى عيسى وعُزيراً والملائكةَ بأنَّ لهم منزلةً عند الله.

وقالَ ابنُ عبَّاس: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: شهدَ أنَّه لا إله إلا الله وأنَّ محمَّداً رسولُ الله[1].

* * *

(٨٧) ـ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾؛ أي: لأقرُّوا بأنَّ الله خلقَهم ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾؛ أي: فلمَ يُشركونَ به غيره رجاءَ شفاعتِهم لهم، فإذا لـم يكن له شريكٌ في الخَلقِ فلمَ جعلُوا له شريكاً في العبادة.

وقيلَ: أي: ولئن سألتَ الملائكةَ وعيسى: مَن خلقَهم؟ لقالوا: الله، فأنَّى يُؤفَكُ هؤلاء في ادِّعائِهم إيَّاهم آلهةً، وهذا السؤالُ هو الرُّجوعُ إلى آثارِهم في الكتبِ الَّتي

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٨٥).

أنزلَها اللهُ على عيسى وغيرِه من الأنبياءِ مع الملائكةِ، وهو كقولِه: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الزخرف: ٤٥].

* * *

(٨٨) - ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

قولُه: ﴿وقِيْلَهُ يا ربِّ إنَّ هؤلاءِ قومٌ لا يُؤمنونَ﴾ وقد قالَ الرَّسول شاكياً لقومِه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: وقد سمعتُ هذا القولَ منه وعلمتُه.

قال الفرَّاءُ: ﴿وقيلَه﴾ نصبٌ على المصدرِ؛ أي: وقالَ قيلَه وشكا شكواه إلى ربِّه يعني: النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فانتصبَ ﴿قيلَه﴾ بإضمارِ (قالَ)، ويجوزُ أن يكونَ ﴿قيلَه﴾ عطفاً على قولِه: ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ [الزخرف: ٨٠][١].

وقال الزجَّاجُ: أي: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ يعلمُ السَّاعةَ ويعلمُ قيلَه[٢].

وقرأ عاصم وحمزةُ: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ بالجرِّ[٣]؛ أي: وعنده علمُ السَّاعةِ وعلمُ قيلِه.

وقُـرِئَ: (وقيلُـه) بالرفـع[٤]؛ أي: وقيلُـه هذا القـولَ؛ أي: وقيلُـه: ﴿يَٰرَبِّ...﴾ مسموعٌ.

و(القيلُ) مصدرٌ كالقول، ومنه الخبرُ: «نهى عن قيلٍ وقالٍ، وكثرةِ السُّؤال، وإضاعةِ المال»[٥]، ويُقال: قلتُ قولاً وقيلاً وقالاً.

---

(١) أي: نسمعُ سرَّهم ونجواهم ونسمعُ قيله. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٣٨).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٤٢١).

(٣) والباقون بالنصب. انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٩)، و«التيسير» (ص: ١٩٧).

(٤) نسبت لأبي قلابة والحسن وقتادة كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٧).

(٥) رواه البخاري (٢٤٠٨)، ومسلم (٥٩٣)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

والكنايـة فـي ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ ترجـعُ إلى النَّبـيِّ ﷺ، وقد جرى ذكـرُه إذ قالَ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾.

***

(٨٩) ـ ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

قولُ تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ قيل: نزلَت قبلَ الأمرِ بالقتالِ ثمَّ نُسخَت.

وقيلَ: لـم تُنسخ، بل المعنى: أعرِضْ عنهم.

﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾؛ أي: أُرْدُدْ عليهم بالمعروف.

وقالَ الفرَّاء: ﴿سَلَٰمٌ﴾ رفعٌ بإضمار (عليكم)(١).

﴿فسَوْفَ تَعْلَمُون﴾ بالتاء والياء(٢)؛ أي: قل لهم سلام وسيعلمون، وهذا وعيدٌ؛ أي: سيعلمون أنَّ ما دعوتَ إليه حقٌّ.

والله تعالى أعلمُ بالصَّوابِ، وإليه المرجعُ والمآب.

***

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٣٨).

(٢) قرأ نافع وابن عامر بالتاء، والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٩)، و«التيسير» (ص: ١٩٧).

سُورَةُ الدُّخَانِ

تفسيرُ سورةِ الدُّخان

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾.

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾؛ أي: إنَّ هـذه السُّورةَ المسمّاةُ ﴿حمٓ﴾، كما تقولُ: كتابُ كذا، ثمَّ ابتدأ القسمَ بالقرآنِ تعظيماً لشأنِه؛ أي: وحقِّ القرآنِ.

وقيلَ: أرادَ جنسَ الكتبِ المنزَلة.

﴿ٱلۡمُبِينِ﴾؛ أي: بيَّنَ الحلالَ والحرام.

* * *

(٣) ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أَقسم بالقرآنِ، لقد أنزلنا القرآنَ[١].

وقيلَ: جوابُ القسمِ ﴿حمٓ﴾، وتمَّ الكلامُ عند قولِه: ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾، ثمَّ ابتدأ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾.

وقالَ بعضُهم: أقسم بالقرآنِ، وجوابُ القسمِ ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

---

(١) واعترض هذا بأن ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ صفة للمقسم به، ولا تكون صفة المقسم به جواباً للقسم، قال صاحب «النظم»: لولا أن قوله ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ صفة القرآن والذي أقسم به وأخبر عنه؛ لاحتمل أن يكون جوابًا للقسم، ولكن ليس من عادتهم أن يقسموا بنفس الشيء إذا أخبروا عنه. انظر: «البسيط» (٢٠/ ٩٣).

﴿فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾؛ أي: ليلةِ القدرِ، وصفَها بالبركةِ لمَا ينزِّلُ اللهُ فيها على عبادِه من البركاتِ والخيراتِ والثوابِ.

ثمَّ؛ قيل: أُنزلَ القرآنُ كلُّه إلى السَّماءِ الدُّنيا في هذه اللَّيلة، ثمَّ أُنزلَ نجماً نجماً في سائرِ الأيَّام على حسبِ اتِّفاقِ الأسباب.

وقيلَ: يُنزلُ في كلِّ ليلةِ القدرِ ما يَنزلُ في سائرِ السَّنة[1].

وقيلَ: كانَ ابتداءُ الإنزالِ في هذه اللَّيلة.

وقالَ عكرمةُ: اللَّيلةُ المباركةُ هاهنا ليلةُ النِّصفِ من شعبان[2].

---

(١) وهذا قول مقاتل، قال: كان ينزل من اللوح المحفوظ كل ليلةِ قدرٍ من الوحي على مقدار ما ينزل به جبريل على النبي ﷺ في السَّنَة كلها إلى مثلها من العام المقبل، حتى نزل القرآن كله في ليلة القدر. انظر: «البسيط» (٢٠/ ٩٤).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٨٧) بلفظ: «﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾: في ليلة النصف من شعبان، يبرم فيه أمر السنة، وتنسخ الأحياء من الأموات، ويكتب الحاج فلا يزاد فيهم أحد، ولا ينقص منهم أحد».

وقد رد العلماء هذا القول وأثبتوا أنها ليلة القدر، فقال ابن العربيِّ: «وجمهورُ العلماءِ على أنها ليلةُ القدر، ومنهم مَن قال: إنها ليلةُ النصف من شعبان؛ وهو باطل؛ لأن الله تعالى قال في كتابه الصَّادق القاطع: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فنَصَّ على أن ميقات نزوله رمضانُ، ثُم عبَّر عن زمانيَّة الليل هاهنا بقوله: ﴿فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ فمَن زعم أنه في غيره فقد أَعظم الفِرْيةَ على الله». انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ١١٧).

وقال الملا علي القاري: «قال جماعةٌ من السَّلف: إنَّ المراد في الآية هي ليلةُ النصف من شعبان، إلَّا أن ظاهر القرآن ـ بل صريحُه ـ يَرُدُّه؛ لإفادته في آيةٍ أنه نَزَل في رمضانَ، وفي أخرى أنه نَزَل ليلةَ القدر، ولا تَخَالُفَ بينهما؛ لأن ليلةَ القدر من جملة رمضان... وإذا ثَبَت أن هذا النزولَ ليلةَ القدر ثَبَت أن الليلة التي يُفْرَقُ فيها كلُّ أمرٍ حكيم في الآية هي ليلةُ القدر، لا ليلةُ النصف من شعبان...». انظر: «مرقاة المفاتيح» (٣/ ٩٧٤).

وقيلَ: أي: أنزلناه على جبريلَ في اللَّيلةِ المباركةِ لينزلَ به على التَّفاريق.

ومَن قالَ: أقسمَ بسائرِ الكتب، فقولُه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ كنايةٌ عن القرآنِ من غيرِ تقدُّمِ ذكرِه في هذه السُّورةِ؛ إذ كانَ ذلك مذكوراً في مواضعَ أُخرَ، وهو كقولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١].

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾؛ أي: أنزلناه عليك لتُنذرَ به قومَك؛ إذ مِن شِيمنا إنذارُ العبادِ ودعاؤُهم إلى الإيمان.

* * *

(٤) ـ ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾؛ أي: في هذه اللَّيلةِ المباركةِ يُفصَّلُ كلُّ أمرٍ يُظهرُ اللهُ به حكمتَه لعبادِه من أنواعِ ما يَجري عليهم من أقضيتِه في أرزاقِهم وآجالِهم، يُقالُ: فَرَقتُ الشَّيءَ أَفْرُقه فَرقاً وفُرقاناً، والأمرُ الحكيمُ: المحكَمُ، وهو كالبديع بمعنى: المبدَع، فيُبيِّنُ في هذه اللَّيلةِ ما هو كائنٌ في جميعِ السَّنةِ من الخيرِ والشَّرِّ.

وقالَ ابنُ عبَّاس: يكتبُ من أمِّ الكتابِ في ليلةِ القدرِ ما يكونُ في السّنةِ من موتٍ وحياةٍ ورزقٍ ومطرٍ حتَّى الحجُّ، يُقالُ: يحجُّ فلانٌ ويحجُّ فلان[1].

وقالَ في هذه الآيةِ: إنَّك لترى الرَّجلَ يمشي في الأسواقِ وقد وقعَ اسمُه في الموتى[2].

وهذه الإبانةُ لأحكامِ السَّنةِ إنَّما هي للملائكةِ الموكَّلينَ بأسبابِ الخَلق.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٨٧). ورواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٠) بلفظ: «يفرق فيها أمر الدنيا من السنة إلى السنة».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٨٧)

(٥) ـ ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾؛ أي: يُفرَقُ في هذه اللَّيلةِ كلُّ أمرٍ حكيمٍ أمراً من عندنا؛ أي: يقولُ له: كن، فيكونُ، وهذا هو القضاءُ والتَّسخير؛ أي: إنَّما يتكوَّنُ الأمرُ بقضائِنا، فلا يمتنعُ علينا شيء.

وقال الزَّجَّاجُ: ﴿أَمْرًا﴾ نَصبٌ بـ﴿يُفْرَقُ﴾ مثل قولِك: يُفرَقُ فرقاً؛ لأنَّ ﴿أَمْرًا﴾ بمعنى: فرقاً(١).

وقيلَ: أي: أنزلناه أمراً مِن عندنا.

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾؛ أي: سببَ إرسالِ الرُّسلِ منَ الملائكةِ إلى الأنبياءِ، وإرسالِ الأنبياءِ إلى الخَلق.

***

(٦ ـ ٧) ـ ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾؛ أي: إنَّما نُرسِلُ الرُّسلَ رحمةً منَّا للخلقِ، و﴿رَحْمَةً﴾ نُصِبَ بما انتصبَ به ﴿أَمْرًا﴾.

وقيلَ: مفعولٌ له؛ أي: أنزلناه رحمةً؛ أي: للرَّحمةِ.

قولُه: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قُرِئَ بالرَّفعِ؛ أي: رحمةً من اللهِ الَّذي هو ربُّ السَّماواتِ والأرض، فهو عطفٌ على قولِه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، أو رفعٌ على الابتداء(٢)؛ [أي]: هو ربُّ السَّماواتِ والأرض.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٤٢٣)، و«البسيط» للواحدي (٢٠/ ٩٦).

(٢) أي: على أن ﴿رَبِّ﴾ خبر مبتدأ محذوف كما سيأتي في المثال لا أنها هي المبتدأ، أو المراد: على =

وقيلَ: ﴿رَبِّ﴾ مبتدأٌ، وخبرُه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وقرئ: ﴿ربِّ﴾ بالخفضِ[1] على البدلِ من ﴿رَبِّكَ﴾.

﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ يعني: الهواءَ وغيرَه من أصنافِ الخَلق.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾؛ أي: إن تيقَّنْتُم أنَّه لا إلهَ إلا هو.

ثمَّ؛ يحتمِلُ أن يكونَ هذا الخطابُ مع المعترِفِ بأنَّ اللهَ خالقُ السَّماواتِ والأرض؛ أي: إن كنتم مُوقِنين به فاعلمُوا أنَّ له أن يُرسلَ الرُّسلَ، ولا تسرعوا[2] إلى تكذيبِ محمَّدٍ، ويحتملُ أن يكونَ الخطابُ مع مَن لا يعترفُ بأنَّه الخالقُ؛ أي: ينبغي أن يعرفُوا أنَّه الخالق.

وقيلَ: الموقِنُ هاهنا هو الَّذي يريدُ اليقينَ ويطلبُه، كما تقولُ: فلانٌ يُنجِدُ؛ أي: يريدُ نجداً، ويُتهِمُ؛ أي: يريدُ تِهامة.

***

(٨) - ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

قولُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ أي: هو خالقُ العالمِ، فلا يجوزُ أن يُشرَكَ به غيرُه ممَّن لا يقدرُ على خلقِ شيء، وهو يحيي ويميتُ فلو أحياهم بعدَ الإماتةِ لـم يَبتدِع.

= الاستئناف؛ قال الواحدي: وإن شئت على الاستئناف على معنى: هو رب السموات، هذا قول الفراء والزجاج. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٣٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٤٢٤)، و«البسيط» (٢٠/ ٩٦).

(١) قرأ بالجر عاصـم وحمزة والكسائي، والباقون بالرفع. انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٢)، و«التيسير» (ص: ١٩٨).

(٢) في (أ): «يسترعوا»، والمثبت هو المناسب للمعنى.

﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: مالكُكم ومالكُ مَن تقدَّمَ منكم، فاتَّقوا تكذيبَ محمَّدٍ لئلا ينزلَ بكم العذابُ.

* * *

(٩) ـ ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾.

قولُه: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: ليسُوا على يقينٍ فيما يُظهِرونه من الإيمانِ بأنَّ اللهَ خالقُهم، وإنَّما يقولونه لتقليدِ الآباءِ من غيرِ علم، ولذلك توهَّمُوا أنَّ اللهَ تعالى غيرُ قادرٍ على إحيائِهم بعدَ الموت، فهم في شكٍّ وإن توهَّمُوا أنَّهم مؤمنون، فهم يلعبونَ في دينِهم، يقولون بما يَعنُّ لهم من غيرِ حجَّة.

وقيلَ: ﴿يَلْعَبُونَ﴾: يُضيفون إلى النَّبيِّ عليه السَّلامُ الافتراءَ والاستهزاءَ، ويُقالُ لمن أعرضَ عن الوعظ: لاعبٌ، وهو كالصَّبيِّ الَّذي يلعبُ فيفعلُ ما لا يدري عاقبتَه.

* * *

(١٠) ـ ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾.

قولُه: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: لا يغرَّنك تأخيرُ العذابِ عنهم، فانتظر يومَ تأتيهم فيه السَّماءُ ﴿بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: ظاهرٍ، أو ذلك الدُّخانُ يُظهرُ نفسه بظهورِه، وفيه حذفٌ؛ أي: ارتقبْ عذابَهم يومَ تأتي السَّماءُ بالدُّخان.

ثم؛ قيل: الدُّخانُ آيةٌ من آياتِ الله عزَّ وجلَّ يُرسلُه على العبادِ قبلَ مجيءِ السَّاعةِ، فيدخلُ هذا الدُّخانُ في أسماعِ الكفَّار، ويأخذُ المؤمنين منه شِبهُ زُكمة.

وقال عليٌّ رضي الله عنه: الدُّخانُ لم يمضِ بعدُ، يأخذُ المؤمنَ منه كهيئةِ الزُّكام، وينتفخُ الكافرُ حتَّى يَنقَدَّ[1].

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ١٨١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٨٨)، وفيه: «ينفد» =

وقيلَ: هذا الدُّخانُ من آثارِ جهنَّم يوم القيامةِ، وقالَ: ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ﴾؛ لأنَّ ذلك الدُّخانَ يملأُ الهواءَ، والسَّماءُ: ما علاكَ فأظلَّكَ، فالدُّخانُ ممَّا يُعذَّبُ به الكافرُ في النَّارِ، فيأخذُ أسماعَهم وأبصارَهم.

وقال قومٌ: هذا الدُّخانُ قد مضى، وذلك أنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ دعا على قومِه بمكَّةَ لـمَّا بالغوا في التَّكذيب، وقالَ: «اللَّهمَّ سبعاً كسنِي يوسفَ»، فانقطعَ المطرُ، وأجدبَت الأرضُ، وأصابَ قريشاً مَجاعةٌ عظيمةٌ حتَّى أكلوا الطَّعامَ والكلابَ والجِيَفَ، وكانَ الرَّجلُ لـمَا به من الجوعِ يرى بينه وبينَ السَّماءِ كالدُّخانِ، فالدُّخانُ: الظُّلمةُ الَّتي كانَت في أبصارِهم من شدَّةِ الجوعِ[1]، ثمَّ إنَّ قريشاً أتوا النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وقالوا: إنْ كشفَ الله هذا عنَّا أسلمْنا، ثمَّ نقضوا هذا القول.

وقد يُقالُ للجوعِ والقحط: [دخان][2]؛ لتيبُّسِ الأرضِ في سنةِ القحطِ وارتفاعِ الغبارِ بسببِ قلَّةِ الأمطارِ، ولهذا يُقالُ لسنةِ الجدبِ: الغبراءُ، ويُقالُ: جوعٌ أغبرُ،

= بالدال، وهكذا ذكره ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية عن ابن أبي حاتم، ومثله في «الدر المنثور» (٧/ ٤٠٧) وزاد نسبته لعبد بن حميد.

(١) وهذا قول ابن مسعود رضي الله عنه، كما رواه عنه البخاري (٤٧٧٤)، ومسلم (٢٧٩٨).
قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٩/ ٢٦٥): «وهذا التفسير غريب جدًّا، ولم ينقل مثله عن أحد من الصحابة غيره، وقد حاول بعض العلماء المتأخرين رد ذلك، ومعارضته بما ثبت في حديث أبي سريحة حذيفة بن أسيد: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات»، فذكر فيهن الدخان، وكذلك في حديث أبي هريرة: «بادروا بالأعمال ستًّا»، فذكر فيهن الدخان، والحديثان في «صحيح مسلم» مرفوعان، والمرفوع مقدم على كل موقوف، وفي ظاهر القرآن ما يدل على وجود دخان من السماء يغشى الناس، وهذا أمر محقق عام، وليس كما روي عن ابن مسعود أنه خيال في أعين قريش من شدة الجوع...».

(٢) ما بين معكوفتين من المصادر. انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٤٠٢)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٢٠٢)، و«البسيط» (٢٠/ ٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٠٩).

وقيلَ لقحطٍ جرى في زماننا وفي زمانِ عُمرَ: عام الرَّمادة، فمعنى الآيةِ على هذا: فارتقب ما بينَ أيديهم من القحطِ عقوبةً لهم.

* * *

(١١) ـ ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قولُـه: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: يطرأُ عليهـم ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: يقولُ اللهُ لهم: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقيلَ: ﴿هَٰذَا﴾ بمعنى: ذاك.

وقيلَ: أي: يقولُ النَّاس لذلك الدُّخانِ: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقيلَ: هو إخبارٌ عن دنوِّ الأمرِ، كما تقولُ: هذا الشِّتاءُ فأَعِدَّ له.

* * *

(١٢ ـ ١٤) ـ ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾.

قولُه: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: يقولون ذلك اليومَ: اكشفْ عنَّا العذابَ، فإنَّا نؤمنُ بك إن كشفتَ عنَّا.

قولُه تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾؛ أي: كيف يتذكَّرونَ بذلك ولم يتذكَّروا بالرَّسولِ الَّذي جاءَهم بالمعجزاتِ، بل تولَّوا عنه وقالوا: هو شيءٌ علَّمَه الكهنةُ والشَّياطينُ، أو علَّمَه بشرٌ.

وقـالَ ابـنُ عبَّاس: أي: متـى يتَّعظـون واللهُ أبعدَهم عـن الاتِّعـاظِ والتَّذكُّرِ بعدَ

تولِّيهـم عن محمَّـدٍ عليه السَّـلامُ وتكذيبِهـم إيَّاه(١)؟

﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: يُبيِّنُ لهم الرِّسالة، أو يُبيِّنُ لهم الأحكام.

وقيلَ: أي: أنَّى ينفعُهم قولُهُم: ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ بعدَ رؤيةِ العذابِ غداً أو بعدَ ظهورِ أعلامِ السَّاعةِ وقد صارَت المعارفُ ضروريَّةً، وهذا إذا جعلتَ الدُّخانَ آيةً مرتقبة.

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾؛ أي: جاءَهم محمَّدٌ فتولَّوا عنه ﴿وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ﴾؛ أي: علَّمَه بشرٌ أو علَّمَه الكهنةُ. والله أعلم.

* * *

(١٥ ـ ١٦) ـ ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ﴾ وعدَ أن يكشفَ عنهم ذلك العذابَ ﴿قَلِيلًا﴾؛ أي: في زمانٍ قليلٍ؛ ليُعلمَ أنَّهم لا يَفُونَ بقولِهم، بل يعودونَ إلى الكفر، والتَّقديرُ: إنَّا كاشفون العذابَ؛ لأنَّه إخبارٌ عمَّا لـم يمضِ، فحُذفَ النُّون ـ كقولِه: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥] ـ طلباً للتَّخفيفِ.

وقيلَ: أي: يكشفُ عذابَ الجوعِ ﴿قَلِيلًا﴾؛ أي: إلى يومَ بدرٍ(٢).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٢) مقتصرًا على قوله: «﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾: كيف لهم».

(٢) وهـذا قول مقاتل. انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٨١٩)، وفيه: فدعا النبي ﷺ فقال: «اللهم اسـقنا غيثاً مغيثاً عاماً طبقاً...»، فكشـف الله تعالى عنهم العذاب، فذلك قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ﴾ يعني: الجوع ﴿قَلِيلًا﴾ إلـى يـوم بدر ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ إلى الكفـر، فعادوا فانتقم الله منهم ببـدر فقتلهم، فذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ يعنـي: العظمـى، فكانت البطشـة في المدينة يوم بـدر أكثر مما أصابهم مـن الجـوع بمكـة، فذلـك قولـه: ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ بالقتـل وضـربِ الملائكـةِ وجوهَهـم وأدبارَهـم وعجل الله أرواحهم الى النار.

ومَن قالَ: [إنَّ الدخانَ منتظرٌ، قال: أشارَ بهذا إلى ما يكونُ من الفُرجةِ بين آيةٍ وآيةٍ من آياتِ] قيامِ السَّاعة، ثمَّ [مَن] قُضِيَ بالكفرِ عليه يستمرُّ على كفرِه، ومن قالَ: هذا في القيامةِ، قالَ: أي: لو كشفنا عنكم العذابَ لعدتُم إلى الكفر[1].

[ويجوزُ أنْ يكونَ المعنى: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ فإذا عُدْتُم أنتَقِمُ مِنكم] ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ ولهذا وَصلَ هذا بقصَّةِ فرعونَ، فإنَّهم وعَدوا موسى الإيمانَ إن كشفَ عنهم العذابَ، ثمَّ لـم يُؤمنوا حتَّى غرقوا[2].

وقيلَ: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ كلامٌ تامٌّ، ثمَّ ابتدأ ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾؛ أي: ننتقمُ من جميعِ الكفَّارِ يومَ القيامةِ؛ أي: فارتقبِ الدُّخانَ وارتقبْ يومَ نبطشُ، فحذفَ واو العطفِ، كما تقولُ: اتَّقِ النّارَ اتَّقِ العذابَ.

والبطشةُ الكبرى في قولٍ: يومُ بدرٍ، وفي قولٍ: يومُ القيامةِ، وفي قولٍ: دخانٌ سيقعُ في الدُّنيا وجوعٌ وقحطٌ سيقعُ قبلَ يومِ القيامةِ.

* * *

(١٧) ـ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ بيَّنَ أنَّهم كفروا فأُهلِكوا؛ أي: فهكذا أفعلُ بأعدائِك يا محمَّدُ، ومعنى هذه الفتنةِ والابتلاءِ: الأمرُ بالطَّاعة، والمعنى: عامَلْناهم معاملةَ المختبرِ ببعثةِ موسى إليهم.

﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾؛ أي: موسى، وكانَ كريماً على اللهِ إذِ اختصَّه بالنُّبوَّةِ وإسماعِ الكلامِ.

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٠٩ ـ ١١٠)، وما بين معكوفتين منه.

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٠)، وما بين معكوفتين منه.

وقيلَ: ﴿كَرِيمٌ﴾؛ أي: حسنُ الخُلق.

وقيلَ: كريمٌ في قومِه واسطٌ فيهم؛ لأنَّه ما بُعِثَ نبيٌّ إلا مِن سَرَاةِ قومِه في النَّسب.

وقيلَ: في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: ولقد جاءَ آلَ فرعونَ رسولٌ كريمٌ وفتناهم؛ لأنَّ الفتنةَ كانَت بعدَ مجيءِ الرَّسول.

* * *

(١٨) ـ ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

قولُه: ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: جاءَهم بأنْ أدُّوا؛ أي: أرسلُوا معيَ بني إسرائيلَ وأطلقوهم منَ العذابِ.

وقيلَ: أي: أدُّوا إليَّ يا عبادَ اللهِ ما أمرَكم اللهُ به، فـ﴿عِبَادَ﴾ نصبٌ على النِّداء.

وقيلَ: أي: أدُّوا إليَّ سمعَكم عبادَ الله حتَّى أبلِّغَكم رسالةَ ربِّكم.

﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾؛ أي: ائتمنني اللهُ على وحيِه فاقبَلوا نُصحي.

* * *

(١٩) ـ ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

قولُه: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا تتكبَّروا عليه ولا ترفَّعوا عن طاعتِه، فإنِّي رسولٌ من اللهِ وآتيكم بالمُعجزةِ لتعرفوا صِدقي، ثمَّ أتاهم بها.

* * *

(٢٠) ـ ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾.

قولُه: ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ كأنَّهم توعَّدُوه بالقتلِ، فقالَ: إنِّي عُذتُ باللهِ أن تقتلوني رجماً بالحجارةِ، وكانوا يعتادون ذلك.

وقيلَ: أي: ترجموني بالقولِ فتقولوا: ساحرٌ كذَّاب؛ أي: لا يؤثِّرُ هذا القولُ فيَّ.

ثمَّ؛ قيلَ: إنِّي عذتُ باللهِ فيما مضى؛ لأنَّ اللهَ وعَدَه وقالَ: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: ٣٥].

وقيلَ: إنِّي أعوذُ، كما تقولُ: نشدتُكَ الله، وأقسمتُ عليك بالله؛ أي: أُقسمُ.

***

(٢١) - ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي﴾؛ أي: لم تصدقوني ولم تؤمنوا باللهِ لأجلِ بُرهاني، فاللامُ في ﴿لِي﴾ لامُ أَجْل.

وقيلَ: أي: وإن لم تُؤمنوا بي، كقولِه: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦]؛ أي: آمنَ به.

﴿فَاعْتَزِلُونِ﴾؛ أي: فاعتزلوا أذاي، فحذفَ المضاف.

وقالَ الكلبيُّ: أي: فاتركوني لا معي ولا عليَّ.

وقيلَ: أي: كونوا بمعزلٍ منِّي وأنا بمعزلٍ منكم إلى أن يحكمَ الله بيننا.

***

(٢٢) - ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ فيه حذفٌ؛ أي: إنَّهم كفروا فدعا موسى ربَّه: ﴿أَنَّ هَؤُلَاءِ﴾ بفتح ﴿أَنَّ﴾؛ أي: بأنَّ هؤلاء ﴿قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾؛ أي: مشركون قد امتنعوا من إطلاقِ بني إسرائيلَ والانقيادِ لأمرِك.

***

(٢٣) ـ ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾.

قولُه: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى﴾؛ أي: فأجبنا دعاءَه، وأوحينا إليه أن أسرِ بعبادي؛ أي: بمَن آمَنَ باللهِ من بني إسرائيلَ ﴿لَيْلًا﴾؛ أي: قبلَ الصَّباح.

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾؛ أي: إنَّ فرعونَ وقومَه يتَّبعونكم ليردُّوكم إلى قهرِكم، فيكونُ ذلك سبباً لإغراقِهم، وفي الخبرِ: أنَّه ماتَ تلك اللَّيلةَ كلُّ بكرٍ من أولادِ قومِ فرعونَ، فاشتغلوا بذلك عن خروجِ موسى وبني إسرائيلَ[1]. والله أعلم.

* * *

(٢٤) ـ ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أمرَهم بأن يأخذوا في طريقِ البحرِ ﴿رَهْوًا﴾؛ أي: ساكناً، قالَ الليث: الرَّهوُ: مشيٌ في سكونٍ[2]، يُقال: رها يرهو رهواً فهو راهٍ، وعيشٌ راهٍ؛ أي: وادعٌ خافضٌ، وافعل ذلك سهواً رهواً؛ أي: ساكناً بغيرِ شدَّة.

وقيلَ: إنَّ موسى لمَّا دخلَ البحرَ عَجِلَ، فقالَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾؛ أي: سِرْ ساكناً على هِيْنَتِك، فالرَّهوُ من نعتِ موسى وقومِه، لا مِن نعتِ البحر.

وعلى الأوَّلِ هو من نعتِ البحرِ؛ أي: اتركه ساكناً كما هو قد انفرقَ، فلا تأمرْه بالانضمامِ حتَّى يدخلَ فرعونُ وقومُه.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٦٨) عن السدي.

(٢) ذكره اللأزهري في «تهذيب اللغة» (٦/ ٢١٣)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ١٠٦)، وانظر: «العين» (٤/ ٨٣).

وقالَ قتادةُ: أرادَ موسى أن يضربَ البحرَ - لـمَّا قطعَه - بعصاه حتَّى يلتئِمَ، وخافَ أن يتبعَه فرعونُ، فقيلَ له هذا[١].

وقيلَ: ليس الرَّهوُ من السُّكونِ، بل هو الفرجةُ بين الشَّيئين، يُقال: رها ما بين الرِّجلين؛ أي: فرَّجَ، فقولُه: ﴿رَهْوًا﴾؛ أي: مُنفرِجاً.

﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إنَّ فرعونَ وقومَه ﴿جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾، أخبرَ موسى بذلك ليسكنَ قلبُه.

***

(٢٥ - ٢٩) - ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾.

قولُه: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾؛ أي: من البساتينِ والعيونِ الفوَّارةِ بالماءِ، و﴿كَمْ﴾ للتَّكثيرِ.

قولُه: ﴿وَزُرُوعٍ﴾؛ أي: ممَّا يخرجُ في الأوقاتِ للأقواتِ ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾؛ أي: محافلِ الاجتماعاتِ للتَّدبيرِ في الأمورِ.

قالَ عطاءٌ: عنى بالمقامِ: منابرَ كانَت بمصرَ، كانُوا يُثنون عليها على فرعونَ وهامانَ[٢].

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٨١٤)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٤).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ١٠٩)، وكذا فسره بالمنابر مجاهد وابن جبير كما روى ذلك الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٩)، وابن عباس رضي الله عنهما كما روى ذلك ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٨٨).

وقيلَ: عنَى المجالسَ الحِسَانَ من مجالسِ الملوك.

قولُه: ﴿وَنَعْمَةٍ﴾؛ أي: تنعُّمٍ في العيشِ كانُوا يتقلَّبونَ فيه لاهينَ مازحين، يُقال: إنَّه لفاكِهٌ؛ أي: مَزَّاحٌ، و: فيه فُكاهةٌ؛ أي: مَزْحٌ.

وقيلَ: ﴿فَٰكِهِينَ﴾؛ أي: متفاكهين، والفاكهةُ: فضلٌ على القوتِ الَّذي لابدَّ منه.

قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ قالَ الزَّجَّاج: أي: الأمرُ كذلك(١). وقالَ الكلبيُّ: كذلك أفعلُ بـمَن عصاني(٢).

وقيلَ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كانَ أمرُهم، فأهلكناهم وأورثنا ديارَهم ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾؛ أي: بني إسرائيلَ، ومعنى ﴿أورثناها﴾: نقلناها إلى قومٍ آخرين.

قولُه: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ كانَت العربُ تقولُ عند موتِ السَّيِّدِ منهم: بكَت له السَّماءُ والأرض؛ أي: عمَّت مصيبتُه الأشياءَ حتَّى بكَت السَّماواتُ والأرضُ؛ أي: لو كانَ لهما بكاءٌ لوُجِدَ ذلك منهما عليه؛ أي: إنَّ أحداً لـم يغتمَّ بموتِ فرعونَ وقومِه.

وقيلَ: فيه إضمارٌ؛ أي: ما بكى عليهم أهلُ السَّماءِ والأرضِ، كقولِه: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

وقيلَ: أي: ما طلبَ واحدٌ من أهلِ السَّماءِ والأرضِ الثَّأر.

وروى أنسٌ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «ما مِن عبدٍ إلا وله في السَّماءِ بابانِ:

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٤٢٦).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ١٠٩)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٣٢)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٣٣٩).

بـابٌ يخـرجُ منـه رزقُـه، وبـابٌ يدخـلُ فيـه عملُه، فـإذا مـاتَ فقـداه وبكيـا عليه»، وتلا هـذه الآية[١].

وعلى هذا فالمعنى: لـم يكن لهم عملٌ صالحٌ على الأرضِ حتَّى تبكيَ الأرضُ عليهم، ولا صعدَ لهم إلى السَّماءِ كلامٌ طيِّبٌ فيُبكَى عليهم.

﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾؛ أي: لـم يُمهَلوا لـمَّا حانَ وقتُ العذاب.

* * *

(٣٠ ـ ٣١) ـ ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾؛ أي: مِن استعبادِ القبطِ إيَّاهم، وكانَ فرعونُ يكلِّفُهم الأعمالَ الشَّاقَّةَ ويقتلُ أبناءَهم ويستحيي نساءَهم.

قولُه: ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: نجَّاهم منَ العذابِ ومن فرعونَ؛ أي: منَ العذابِ الَّذي كانَ يلحقُهم من جهةِ فرعون.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: جبّاراً من المشركين، وليس هذا علوَّ مدحٍ، بل علوٌّ في الإسرافِ؛ لقولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤].

وقيلَ: هذا العلوُّ هو الترفُّعُ عن عبادةِ الله تعالى.

* * *

---

(١) رواه أبو يعلى في «مسنده» (٤١٣٣) واللفظ له، والترمذي (٣٢٥٥)، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه، وموسى بن عبيدة ويزيد بن أبان الرقاشي يضعفان في الحديث».

(٣٢ ـ ٣٣) ـ ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾؛ أي: اخترنا بني إسرائيلَ ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ كانَ لنا بهم ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: على عالَـمِي زمانِهم، بدليلِ قولِه لهذه الأمَّةِ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [القصص: ٤].

وقيـلَ: يرجـعُ هـذا الاختيارُ إلـى تخليصِهم من الغـرقِ وإيراثِهـم الأرضَ بعدَ فرعون.

قولُـه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ أي: مـن معجـزاتِ موسـى ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾؛ أي: مـا يُعلـمُ بـه إنعامُنـا عليهـم.

وقيلَ: أي: كانَ في بعضِ تلك الآياتِ بلاءٌ لهم مِن الجرادِ والقمَّلِ. **وفيه بُعدٌ، وإن ذكره الفرَّاء**[1]؛ لأنَّ البلاءَ كانَ على القِبْطِ لا على بني إسرائيل.

وقالَ ابنُ عبَّاس: هو السِّلسلةُ الَّتي كانَت في زمانِ داودَ، والسَّاريتان اللتان مَن زنى يُدخَلُ بينهما، فإن اعترفَ رُجِم، وإن لـم يَعترف الْتَقَيا عليه فقتلاه، وكانَ يعملُ الرَّجلُ الذَّنبَ، فيصبحُ ومكتوبٌ على بابِ دارِه: فعلَ كذا وكذا[2].

* * *

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٤٢): وليس فيه سوى إجازة أن يكون البلاء بمعنى العذاب، كما أجاز أن يكون البلاء أيضاً بمعنى النعم المسبغة عليهم من إنجائهم من آل فرعون، وتظليلهم بالغمام، وإنزال المنّ والسلوى عليهم.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ١١٣ ـ ١١٤) من رواية عطاء عن ابن عباس.

(٣٤ ـ ٤٦) ـ ﴿إِنَّ هَٰؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: إنَّ الَّذي مضى ذكرُهم في أوَّلِ السُّورةِ أنَّهم في شكٍّ يلعبون يقولون: لا بعثَ ولا حسابَ إلا موتتَنا الأولى؛ أي: ما الموتةُ إلا موتةٌ نموتُها في الدُّنيا، ثمَّ لا بعثَ بعدها، فالموتةُ الأولى: الموتةُ الَّتي يموتها النَّاسُ، والمعنى: أنَّهم يقولون: ما بعد الحياة إلا موتةٌ واحدةٌ، فذِكرُ الأولى على معنى: أنَّه لـم يكن قبلها موتةٌ.

وقيلَ: كانَ الله عرَّفهم مضمونَ قولِه تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] فقالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾؛ أي: ليس ثَمَّ حياةٌ بعد موتٍ إلا في الموتة الأولى الَّتي كنّا فيها أمواتاً في أصلابِ آبائِنا، فأمّا الموتةُ الثانيةُ فلا حياةَ بعدها.

وقيلَ: سمعوا قولَ الله في عذابِ جهنَّم: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧]، فقالوا: ما نرى بعد هذه الموتةِ المعتادةِ شيئاً ممَّا تقولون. وفي هذا بُعدٌ؛ لأنَّهم سمعوا مع هذا ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

قولُه: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ هذا الاقتراحُ منهم تحكُّم، ولا يجبُ على العادةِ على النَّبيِّ أن يفعلَه بعد ما ثبتَ بالقطعِ أنَّه قادرٌ عليه.

* * *

(٣٧) ـ ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هذا استفهامُ إنكارٍ؛ أي: إنَّهم مستحقُّون في هذا

القولِ العذابَ؛ إذ ليسوا خيراً من قومِ تُبَّعٍ والأممِ المهلَكةِ، فإذا أهلكنا أولئك فكذا هؤلاء.

وقيلَ: أي: كانَ الكفَّارُ المتقدِّمون أقوى وأشدَّ وأمنعَ من هؤلاء وأكثرَ أموالاً وعدداً وعُدَّة، ثمَّ لـم يُعجِزوا عن إهلاكِهم، فأيُّ خطرٍ لهؤلاءِ؟ سيقَ للوعدِ بنزولِ العذابِ.

وليـس المرادُ بتُبَّـعٍ رجلاً واحـداً، بل المرادُ به ملـوكُ اليمنِ، وكانوا يُسـمَّون: التَّبابعـة، فتُبَّـعٌ لقبُ الملـكِ منهم، كالخليفة للمسـلمين، وكسـرى للفرس، وقيصر للروم.

وقالَ أبو عبيدة: سُمِّيَ كلُّ واحدٍ منهم تبَّعاً لأنَّه يتبعُ صاحبَه(١).

قالَت عائشةُ رضي الله عنها: كانَ تُبَّعٌ رجلاً صالحاً(٢).

وقالَ كعبٌ: ذمَّ الله قومَه ولـم يذمَّه(٣).

وفي خبرٍ: أنَّه كانَ على دينِ إبراهيم.

وقال الكلبيُّ: هو أبو كربٍ أسعدُ بن ملكِيكرب، فكأنَّهم سمَّوا بعضَ الملوك

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٢٠٩).

(٢) رواه عبـد الرزاق في «تفسـيره» (٢٨١٩)، والحاكـم في «المسـتدرك» (٣٦٨١)، وصححه ووافقه الذهبي.

وروى الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٨٨٠) عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تسبوا تبعاً؛ فإنه قد كان أسلم».

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٨١٩)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٤٩) عقب قول عائشة رضي الله عنها السابق، ورواه الحاكم في «المستدرك» (٣٦٨١) من قول عائشة رضي الله عنها.

تُبَّعاً ثمَّ أجرَوا هذا الاسمَ على كلِّ ملكٍ بعده منهم، وافتخرَ أهلُ اليمنِ بهذه الآيةِ إذ جعلَ الله قومَ تبَّعٍ خيراً من قريش.

وقيلَ: سُمِّيَ أوَّلهم تبَّعاً لأنَّه اتَّبعَ قرنَ الشَّمس، وسافرَ في الشَّرقِ معَ العساكر.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ يحتمل أن يرجعَ إلى قومِ تبَّعٍ، ويحتمل أن يرجعَ إلى جميعِ الكفَّارِ، ويحتمل أن يرجعَ إلى مَن قالَ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾.

***

(٣٨ ـ ٣٩) ـ ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾؛ أي: ما خلقنا شيئاً لعباً، بل كانَ لنا أن نفعلَ ما فَعَلْنا.

وقيلَ: أي: لسنا لاعبينَ كما صاروا في دينِهم يلعبون، سيُهملون أنفسَهم.

قولُه: ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾؛ أي: إلا بالأمرِ الحقِّ.

وقيلَ: أي: إلا للحقِّ؛ أي: لإقامةِ الحقِّ.

وقيلَ: للثَّوابِ والعقابِ، تقولُ: فعلت هذا لأمرِك وبأمرِك.

وفي الآية بيانٌ أنَّه يقعُ في[1] الحشرِ والنَّشرِ لا محالةَ.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولو علموا لتدبَّروا وذكروا أنَّه لـم يخلقْهم باطلاً، بل عرَّضَهم للثَّوابِ والعقابِ.

---

(١) قوله: «في» كذا في (أ)، ولعل المراد: أن الثواب والعقاب يقع في الحشر لا محالة، أو الأولى حذف «في».

ومعنى ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: أنَّهم لا ينتفعونَ بعلمِهم، وذكرَ الأكثرَ لأنَّه كانَ فيهم مَن يعلمُ الحقَّ، ولكن أقامَ على الشِّركِ عناداً.

* * *

(٤٠) ـ ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: ما خلقنا العالمَ باطلاً ولعباً، بل القيامةُ حقٌّ، فيومُ الفصلِ ـ وهو يومُ القيامةِ ـ ميقاتُ الكلِّ؛ أي: الوقتُ المجعولُ لتمييزِ المسيءِ من المحسنِ، والفصلِ بينهما.

* * *

(٤١ ـ ٤٢) ـ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا﴾؛ أي: قريبٌ عن قريبٍ؛ أي: لا يدفعُ عنهم عذاباً، والمولى: الوليُّ، وهو ابنُ العمِّ والناصرُ.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ أي: لا ينصرُ المؤمنُ الكافرَ لقرابتِه.

قولُه: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ أي: إلا المؤمنين، فإنَّهم يُؤذَنُ لهم في شفاعةِ بعضِهم لبعض.

وقيلَ: أي: لكنْ مَن رحمَ الله لا ينالُهم ما يحتاجون فيه إلى مَن يعينُهم من المخلوقين، فهو استثناءٌ منقطع.

وعلى الأوَّل؛ أي: لا يُغني قريبٌ عن قريبٍ إلا المؤمنُ، فهو استثناءٌ متَّصلٌ[1].

---

(١) فيكون قوله: ﴿مَوْلًى عَن مَّوْلًى﴾ على العموم، ثم استثنى المؤمنين فقال: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ فيكون: ﴿مَن﴾ =

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: الشَّديدُ على الأعداءِ الرَّحيمُ بالمؤمنين، كما قالَ: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِ﴾ [غافر: ٣]، فقرنَ الوعدَ بالوعيد.

* * *

(٤٣ ـ ٤٤) ـ ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ﴾ ثمَّ بيَّنَ وصفَ العذاب؛ أي: ممَّا أُعِدَّ للكافرِ هذا الطَّعامُ.

وشجرةُ الزَّقومِ: الشَّجرةُ الَّتي خلقَها الله تعالى في جهنَّم، وسمَّاها الشَّجرةَ الملعونةَ، فإذا جاعَ أهلُ النَّارِ التجؤوا إليها فأكلوا منها، تغلي بطونُهم كما يغلي الماءُ الحارُّ، وشبَّه ما يصيرُ منها إلى بطونهم بالمهلِ، وهو النُّحاسُ المذابُ.

والأثيمُ: الآثِمُ، مِن أثِمَ يأثمُ إثماً، ثمَّ قيل: عنى بالأثيمِ: أبا جهل.

* * *

(٤٥ ـ ٤٦) ـ ﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِى فِى ٱلۡبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلۡىِ ٱلۡحَمِيمِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِى فِى ٱلۡبُطُونِ﴾؛ أي: تغلي في بطونهم كالمهلِ، وهو النُّحاس المذاب.

وقيلَ: المهلُ: دُرْدِيُّ الزَّيتِ.

﴿يَغۡلِى﴾ بالتاء، والياء[1] حملاً على الطَّعام، أو يرجع الياء إلى المُهل.

= في موضع رفع كما تقول: لا يقوم أحدٌ إلا فلان، والمعنى: لا يغني قريبٌ إلا المؤمن. انظر: «البسيط» للواحدي (٢٠/ ١١٧).

(١) قرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ﴿يَغۡلِى﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٢)، و«التيسير» (ص: ١٩٨).

﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾؛ أي: الماءِ الَّذي يشتدُّ غليانه. والله أعلم.

* * *

(٤٧) ـ ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

قولُه: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: يُقالُ للزَّبانية: ﴿خُذُوهُ﴾، يعني: الأثيمَ، فجرُّوه إلى وسطِ الجحيم.

﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ قُرِئَ بكسر التَّاء وضمِّها(١).

والعتلُ: أن تأخذَ بتلابيبِ الرَّجلِ فتَعْتِلَه؛ أي: تجرَّه إليك لتذهبَ به إلى حبسٍ أو بليَّة.

و﴿سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾: وسط الجحيم.

* * *

(٤٨ ـ ٥٠) ـ ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾.

قولُه: ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ﴾ قالَ مقاتلٌ: يضربُ مالكٌ خازنُ النّارِ ضربةً على رأسِ أبي جهلٍ بمقمعٍ من حديد فينقبُ رأسَه عن دماغِه، فيجري دماغُه على جسده، ثمَّ يصبُّ الملَك فيه ماءً حميماً قد انتهى حرُّه فيقعُ في بطنِه، فيقولُ الملكُ: ذقِ العذاب(٢).

ونظيرُه: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩].

---

(١) قرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وابنُ عامرٍ بضم التاء، والباقون بكسرها. انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٢)، و«التيسير» (ص: ١٩٨).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٨٢٥)، و«البسيط» للواحدي (٢٠/ ١٢٠)، وعنه نقل المصنف.

قولُـه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ قـالَ عكرمـةُ: التقـى النَّبـيُّ ﷺ وأبـو جهـل، فقـالَ النَّبيُّ عليه السَّـلامُ: «إنَّ اللهَ أمرَنـي أن أقولَ لـك: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤]» فقـالَ: بـأيِّ شـيءٍ تهدِّدُنـي؟ والله ما تستطيعُ أنـت ولا ربُّكَ أن تَفعلا بي شـيئاً، ألا إنِّـي لمِـن أعزِّ هـذا الـوادي وأكرمِه على قومِـه. فقتلَه الله يـومَ بدر وأذلَّـه، ونزلَت هذه الآية(١).

أي: يقول له الملكُ: ذق إنَّك أنت العزيزُ الكريمُ بزعمِك، على معنى التنقيض؛ أي: يُقالُ له: ذق إنَّك أنت الذَّليلُ المهانُ، وهو كما قالَ قومُ شعيبٍ لشعيبٍ: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] يعنون: السَّفيهَ الجاهلَ.

قُرِئَ ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾ بالكسرِ على الابتداءِ، وقرأ الكسائيُّ ﴿أنك﴾ بالفتحِ؛ أي: بأنَّك؛ أي: بهذا القولِ الَّذي قاله في الدُّنيا.

قولُه: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾؛ أي: تقول الملائكةُ لهم: إنَّ هذا ما كنتم تشكُّون فيه في الدُّنيا.

***

(٥١ ـ ٥٧) ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ ثمَّ ذكرَ مُستقرَّ المؤمنين؛ أي: إنَّ الذين اتَّقوا

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٨٢٤) و(٣٤١٦)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٦١) و(٢٣/ ٥٢٤)، عن قتادة.

الشِّركَ واتَّقَوا عذابَ الله بطاعتِه هم غداً في موضعِ إقامةٍ، ووصفَ ذلك الموضعَ بأنَّه يأمَنُ فيه صاحبُه الخوفَ والحزنَ والآفاتِ.

قُرِئَ ﴿مَقَامٍ﴾ بالفتحِ، وهو المشهدُ والمجلسُ، وقرأ نافعٌ وابنُ عامر بضمِّ الميم(١)، فيُمكنُ أن يُرادَ به المكانُ مِن (أقامَ)، ويمكنُ أن يكونَ مصدراً ويُقدَّرَ فيه المضاف؛ أي: في موضع إقامة.

قولُه: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾؛ أي: في مواضعِ غايةِ النُّزهة.

قولُه: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾؛ أي: لباسُهم من أنواعِ الحرير، والسُّندسُ: نوعٌ من الحرير، والإستبرقُ: نوعٌ منه أغلظُ من اللِّباسِ، وكانَ الإستبرقُ للفرشِ.

﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾؛ أي: وجوهُ بعضِهم إلى بعض.

وقيلَ: متقابِلين بالمحبّةِ غيرَ مُتدابِرين بالبُغضة.

وقيلَ: لا يرى في الجنَّةِ أحدٌ قفا صاحبِه يدورُ بهم مجلسُهم حيثُ داروا.

قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾؛ أي: الأمرُ كذلك الَّذي ذكرناه ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾؛ أي: جعلناهم أزواجاً.

وقيلَ: قرنَّاهم بهم، وبنو تميمٍ يقولون: تزوَّجتُها وتزوَّجتُ بها، وقد حكاه الكسائيُّ، والباقون يقولون: تزوَّجتُها.

والحَوَرُ: شدَّةُ سوادِ الحدقةِ مع بياضِ العين.

وقالَ ابنُ عبَّاس رضي الله عنه: الحُورُ في كلام العرب: البِيضُ(٢).

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٣)، و«التيسير» (ص: ١٩٨).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ١٢٥).

والعِينُ: الحسانُ الأَعْيُنِ. وقيلَ: النِّساءُ العظيمةُ العينين.

وقالَ الحسن: الحورُ العينُ عجائزُكم الدُّرْدُ يُنشِئهنَّ الله خلقاً آخرَ(١).

وقال أبو هريرةَ: لسنَ من نساءِ الدُّنيا(٢).

قولُه: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾؛ أي: يستدعون كلَّ ما يشتهون مِن الفاكهة كلِّها آمنينَ من أن ينالَهم من أكلِها أذًى أو مكروهٌ، أو تنقطعَ عنهم الفاكهةُ كما تنقطعُ فواكهُ الدُّنيا.

قولُه: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾؛ أي: في الجنَّة ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ بعد أن كانُوا ذاقوا في الدُّنيا الموتةَ الأولى، و﴿إِلَّا﴾ بمعنى: بَعد، كما تقولُ: لا أكلِّمُ اليومَ رجلاً إلا زيداً، ولا أكلِّمُ اليومَ رجلاً بعدَ زيدٍ.

وقيلَ: الاستثناءُ منقطعٌ؛ أي: لا يذوقون في الجنَّة الموتَ، لكنَّ الموتةَ الأولى فذاقوها في الدُّنيا.

وقيلَ: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى: سوى، كقولِه: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢]، وقولِه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧]؛ أي: سوى ما شاءَ ربُّك لهم من الزيادة على مقدار الدُّنيا من الخلود.

وقالَ القُتيبيُّ: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ معناه: أنَّ المؤمنَ إذا أشرفَ على

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٨٢٦)، وعبد الله بن الإمام أحمد في «العلل» (٢/ ٥٣٤).
الدرد: جمع الأدرد، درد الرجل فهو أدرد: إذا سقطت أسنانه وظهرت درادرها. انظر: «تهذيب اللغة» (١٤/ ٤٤).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٨٢٧).

الموتِ استقبلَه ملائكةُ الرَّحمةِ، ويلقَى الرَّوحَ والرَّيحانَ، فكان موتُه في الجنَّة لاتِّصافِه بأسبابِها[١].

فهو استثناءٌ صحيحٌ غيرُ منقطِعٍ.

والموتُ عَرَضٌ لا يُذاقُ، ولكن جُعِلَ كالطَّعام الَّذي يُكرَهُ ذَوقُه، واستُعيرَ فيه لفظُ الذَّوق.

وأهلُ النَّارِ لا يموتون كما [لا][٢] يموتُ أهلُ الجنَّة، ولكنَّ حياةَ أهلِ الجنَّةِ هنيَّةٌ فبُشِّروا بالخلودِ لذلك، وأمَّا أهلُ النَّارِ فلهم في كلِّ ساعةٍ موتٌ، فلهم موتاتٌ كثيرةٌ لِمَا يُقاسونه منَ العذابِ، ولكن لهم الخلودُ على ذلك الوصفِ حتَّى تزدادَ عقوبتُهم؛ إذ لو فَنُوا لتخلَّصُوا.

﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: صَرَفَ عنهم الرَّبُّ ما حلَّ بغيرِهم منَ العذابِ.

قولُه: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾؛ أي: فعلَ بهم ذلك فضلاً؛ أي: تفضُّلاً ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ أي: الخلاصُ العظيمُ من المكاره.

وقيلَ: هو من قولِك: فازَ بكذا؛ أي: نالَه.

* * *

(٥٨ ـ ٥٩) ـ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ ختمَ السُّورةَ بالحثِّ على اتِّباعِ الكتابِ، كما قالَ في مفتتحِ السُّورة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾؛ أي: أزحنا العللَ ليذَّكَّروا ويتَّعظُوا.

---

(١) انظر: «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص: ٥٣ ـ ٥٤).

(٢) ما بين معكوفتين زيادة يقتضيها السياق مستفادة من «البسيط» (٢٠/ ١٢٦).

﴿يَسَّرْنَـٰهُ﴾؛ أي: هوَّنَّاهُ على لسانِك.

قولُه تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾؛ أي: إنَّهم بصددِ ما ينزلُ بهم منَ العذابِ.

وقيلَ: ﴿مُّرْتَقِبُونَ﴾ أن تدورَ بكم الدَّوائرُ.

وقيلَ: أي: فارتقب يومَ القيامةِ؛ فإنَّه يومُ الفصل، وهم وإن لم يعتقدوا وقوعَ يومِ القيامةِ جُعِلوا كالمرتقبين؛ لأنَّ عاقبتَهم ذلك.

والله تعالى أعلمُ بالصَّوابِ، وإليه المرجعُ والمآبُ، وصلَّى الله على سيِّدِنا محمَّد.

* * *

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

تفسيرُ سورةِ الجاثية

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

قوله: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: هذه السُّورةُ المُسمَّاةُ حـم ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ فليس بشعرٍ ولا كهانةٍ ولا بقـولِ شيـطانٍ، و﴿حمٓ﴾ مبتدأٌ و﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبرُه.

* * *

(٣) ـ ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: مَن تَدبَّرَ ما فيها من العجائبِ علمَ أنَّه لا بدَّ لهما من صانعٍ قادرٍ على الكمالِ، وأنَّ له بعثةَ الرُّسل، فلا يجوزُ أن يُشركَ به، وخَصَّ المؤمنين لأنَّهم المنتفِعون بالآيات.

* * *

(٤) ـ ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾؛ أي: من ترابٍ ثمَّ من نطفةٍ ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾؛ أي: يفرِّقُ على الأرضِ من الحيوانات ﴿ءَايَٰتٌ﴾؛ أي: دلالاتٌ على التَّوحيد ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ لا لمَن يشكِّكُ نفسَه.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿آياتٍ﴾ بالكسرِ[1] على العطفِ على قولِه: ﴿إِنَّ فِي السَّمَٰوَٰتِ﴾[2]، وهذا حسنٌ في قولِه: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾، فأمَّا في قولِه: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَٰحِ﴾ فيحتاجُ إلى العطفِ على عاملين: ﴿إِنَّ﴾ و﴿فِي﴾ في قولِه: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾[3]، والتَّقديرُ: وإنَّ في اختلاف اللَّيل والنَّهار، فلا يجوزُ العطفُ على عاملين عند سيبويهِ، فلا يجوزُ: «مِن زيدٍ لعمرٍو وبكرٍ خالدٍ» بالكسر.

وقد قالَ قومٌ: إنَّه ليس بعطفٍ، بل هو تكريرٌ، كما تقولُ: ضربت زيداً [زيداً][4]؛ أي: إنَّ في السَّماواتِ والأرضِ لآياتٍ لآياتٍ.

---

(١) أي: بالنصب والباقون بالرفع، وكذا في الآية بعدها. انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٤)، و«التيسير» (ص: ١٩٨).

(٢) على معنى: وإن في خلقكم آياتٍ. انظر: «البسيط» (٢٠/ ١٣٣).

(٣) قوله: «فمن العطف على عاملَيْنِ»، قال السمين في «الدر المصون» (٩/ ٦٣٦): وتحقيقُه: على معمولَيْ عاملين؛ وذلك أنَّك عَطَفْتَ (اختلافِ) على (خَلْقِ) وهو مجرورٌ بـ(في) فهو معمولُ عاملٍ، وعَطَفْتَ (آيات) على اسمِ (إنَّ) وهو معمولُ عاملٍ آخرَ، فقد عَطَفْتَ بحرفٍ واحدٍ وهو الواوُ معمولين وهما (اختلاف) و(آيات) على معمولَيْن قبلَهما وهما: (خَلْق) و(آيات)، وبظاهرِها استدلَّ مَن جَوَّز ذلك كالأخفشِ. وفي المسألة أربعةُ مذاهب: المَنْعُ مطلقاً، وهو مذهبُ سيبويه وجمهورِ البصريين. قالوا: لأنه يُؤَدِّي إلى إقامة حرفِ العطفِ مقامَ عاملين وهو لا يجوزُ؛ لأنه لو جاز في عامِلَين لجاز في ثلاثةٍ ولا قائل به، ولأنَّ حرفَ العطفِ ضعيفٌ فلا يَقْوَى أَنْ ينوبَ عن عاملَينِ، ولأنَّ القائلَ بجوازِ ذلك يَسْتَضْعِفُه، والأحسنُ عنده أن لا يجوزَ، فلا ينبغي أَنْ يُحْمَلَ عليه كتابُ اللهِ، ولأنه بمنزلةِ التعديتَيْنِ بمُعَدٍّ واحد، وهو غيرُ جائزٍ، قال ابن السراج: «العطفُ على عاملَيْن خطأٌ في القياسِ، غيرُ مَسْموع من العرب» ثم حَمَل ما في هذه الآيةِ على التكرارِ للتأكيد. وانظر باقي المذاهب ثمة. وانظر: «الأصول في النحو» لابن السراج (٢/ ٦٩) وما بعدها، (باب العطف على عاملين).

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

(٥) - ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: وفي اختلافِهما، ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾؛ أي: مطرٍ، ﴿و﴾ في ﴿تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ﴾ لمَن استعملَ عقلَه وفكَّرَ وتأمَّل. والله أعلم.

* * *

(٦) - ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: هذه الآياتُ الَّتي تلوناها عليك وأمثالُها علاماتٌ يضعُها الله للتَّنبيهِ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: إن لم يؤمنوا بها فبأيِّ شيءٍ يُؤمنون.

قُرِئَ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالياء والتَّاء[1].

والحديثُ: الخبرُ والكلام.

* * *

(٧) - ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ ثمَّ توعَّدَ مَن تركَ الاستدلالَ بآياتِه؛ أي: ويلٌ لكلِّ كذَّابٍ، والإفكُ: الكذبُ، والأفَّاكُ: الَّذي يَصرِفُ القولَ عن حقيقتِه، وهو الكذَّاب، فيقولُ لمَا أنزل الله: إنَّه من قولِ الشَّيطانِ، وإنَّه شعرٌ أو سحرٌ.

---

(١) قرأ ابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي بالتاء والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٤)، و«التيسير» (ص: ١٩٨).

﴿أَثِيمٍ﴾؛ أي: مرتكِبٍ للمأثَمِ.

نزلَتِ الآيةُ في النَّضرِ بنِ الحارث[١].

***

(٨) ـ ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

قولُه: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾؛ أي: يُقرأُ عليه القرآنُ بما فيه من الدَّلالات ويصرُّ على الكفرِ متعظِّماً في نفسِه عن الانقياد.

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: أخبِرْه يا محمَّدُ بأنَّ له عذاباً أليماً من اللهِ في الدُّنيا والآخرة.

***

(٩) ـ ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾؛ أي: إذا سمعَ شيئاً من آياتِ القرآنِ استهزأَ به فيما بينَ أتباعِه، كقولِ أبي جهلٍ لمَّا سمعَ الوعيدَ بالزَّقوم: زقِّمينا يا جاريةُ؛ أي: لا يعرفُ منه غير الرُّطَبِ والزُّبد[٢].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٨٣٦)، وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٩٧) من رواية أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، ودون عزو السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٧٦)، والسمعاني في «تفسيره» (٥/ ١٣٦).

(٢) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٦٠٩)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٥١). وروى الإمام أحمد في «المسند» (٣٥٤٦)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٢٠)، بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما: «وقال أبو جهلٍ: أَيُخَوِّفُنا محمد بشجرة الزَّقُّوم، هاتوا تَمْرًا وزُبْدًا فتزقَّموا». وروى الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٤٨) عنه نحوه، ورواه (١٤/ ٦٥٠) عن قتادة. وكثر في كتب التفسير نحو هذا الخبر عن ابن عباس وقتادة والسدي وغيرهم في الآيات التي ذكر فيها الزقوم والشجرة.

وكقولِ النَّضرِ بنِ الحارثِ لـمَّا سمعَ ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠]: أنا أكفيكُمُ العشرةَ، فاكفوني التِّسعة[١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ يرجعُ هذا إلى معنى الكلِّ في قولِه: ﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾.

﴿مُّهِينٞ﴾: مُذِلٌّ.

***

(١٠) ـ ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: مِن وراءِ ما هم فيه من التَّعزُّزِ بالدُّنيا والتَّكبُّرِ عن الحقِّ جهنَّمُ يُهانون فيها ﴿وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا﴾؛ أي: لا ينفعُهم ما جمعُوا من المالِ والولد ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾ يعني: الأصنامَ الَّتي اعتقدُوها أنصاراً لهم.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: دائمٌ مؤلمٌ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: أمامَهم جهنَّم[٢].

***

---

(١) ذكره أبو حفص النسفي في «التيسير» (١٣/ ٣٥٠)، والمشهور في كتب التفاسير أن القائل ذلك أبو جهل وأبو الأشد، فقد روى الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٤٣٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ [المدثر: ٣٠ ـ ٣١] فلما سمع أبو جهل بذلك قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟

وذكر مقاتل في «تفسيره» (٤/ ٤٩٧) عن أبي الأشد ـ اسمه أسيد بن كلدة بن خلف الجمحي ـ قوله: أنا أكفيكم سبعة عشر، أحمل منهم عشرة على ظهري، وسبعة على صدري، واكفوني منهم اثنين.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٣٠/ ١٣٥).

(١١) ـ ﴿هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾؛ أي: الَّذي تلوناه عليكم هدًى وإرشادٌ إلى الحقِّ، وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: يعني: كلَّ ما جاءَ به محمَّد عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[١].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: ستروها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾؛ أي: مَن تركَ الهدى فله عذابٌ مؤلم، والرِّجزُ: العذابُ.

وقُرِئَ: (ولهم عذابٌ من عذابٍ أليم)[٢].

قُرِئَ ﴿أليمٍ﴾ بالخفض نعتاً للعذاب، وقُرِئَ بالرَّفعِ[٣]؛ أي: لهم عذابٌ أليمٌ من رجزٍ.

وقيلَ: الرِّجزُ بمعنى الرِّجسِ الَّذي هو النَّجاسةُ، وهو كقولِه: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦]؛ أي: لهم عذابٌ من تجرُّعِ الشَّرابِ النَّجس.

* * *

(١٢) ـ ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ ذكرَ كمالَ قُدرتِه، ثمَّ تمامَ مِنَّتِه على العباد، وبيَّنَ أنَّه خلقَ ما خلقَ لمنافعِهم.

﴿سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾؛ أي: صيَّره بحيث لا يَمتنِعُ ركوبُه بما علَّمَ العبادَ من صنعةِ السُّفنِ، وسخَّرَ لكم الرِّياحَ لسوقِها في الماء.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ١٣٦).

(٢) لم أجدها.

(٣) قرأ ابنُ كثيرٍ وحفص بالرفع؛ والباقون بالجر. انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٤)، و«التيسير» (ص: ١٨٠).

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (لعلَّ) ترقيقُ الوعظِ، كما يقولُ الرَّجلُ لغيرِه: الْزَمْني لعلَّكَ تفلح.

وقيلَ: ليس ذلك تردُّداً بل هو ترديدٌ؛ أي: كونوا على رجاءٍ من الشُّكر إذا نظرتُم في هذه الآياتِ، فيجري الطَّريقان في أمثالِ هذا.

***

(١٣) ـ ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾؛ أي: كلُّه لمنافعِكم في دينكم ودنياكم ﴿مِّنْهُ﴾؛ أي: ذلك سُخِّرَ منه لا من غيرِه، فهو فضلُه وإحسانُه.

***

(١٤) ـ ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾

قولُه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ أمرَنا بالصَّبرِ على أذى المشركين.

﴿يَغْفِرُواْ﴾ خبرٌ بمعنى الأمر؛ أي: قل لهم يغفروا، وجُزِمَ تشبيهاً بالشَّرطِ والجزاءِ، كقولِك: قمْ تُصبْ خيراً، وليس بشرطٍ وجزاءٍ في المعنى، ولكنِ العربُ إذ أخرجوا الكلامَ في مثالِ غيرِه وهو مقاربٌ له أعربُوه بإعرابِه.

وقال عليُّ بن عيسى: ﴿يَغْفِرُواْ﴾ جوابُ أمرٍ محذوفٍ دلَّ الكلامُ عليه؛ أي: قل للذين آمنوا اغفروا يغفروا.

قيلَ: نزلَتِ الآيةُ في عمرَ مع عبدِ اللهِ بن أُبيٍّ في غزوةِ بني المصطلِق، فإنَّهم

نزلوا على بئرٍ يُقالُ لها: الـمُرَيْسيع، فأرسل عبدُ الله غلامَه ليسقي فأبطأ عليه، فقالَ: ما حبسَك؟ فقالَ: غلامُ عمرَ، قعدَ ثَمَّ فما تركَ أحداً يستقي حتَّى ملأ قِرَبَ النَّبيِّ وقِرَبَ أبي بكرٍ ومَلأ لـمولاه. فقالَ عبدُ الله: مَثَلُنا معهم كما قيلَ: سمِّنْ كلبَكَ يأكلْك. فبلغ قولُه عمرَ، فاشتملَ على سيفه يريد التَّوجُّهَ إليه ليقتلَه، فنزلَت الآية[1].

وقيلَ: لمَّا نزلَ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالَ فنحاص اليهوديُّ: احتاجَ ربُّ محمَّدٍ! فخرج عمرُ في طلبِه ليقتلَه، فنزلَتِ الآيةُ، فبعثَ رسولُ اللهِ ﷺ في طلبِ عمرَ، فلمَّا جاءَ قالَ: ضع سيفَك؛ فإنَّ ربَّك يقولُ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾[2]؛ أي: لا يرجون ثوابَه.

وقيلَ: الرَّجاء بمعنى الخوفِ، كقوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]؛ أي: لا تخافون له عظمةً، فالمعنى: لا يخشون مثلَ عذابِ الأممِ الخاليةِ، والأيَّامُ يُعبَّرُ بها عن الوقائعِ.

وقيلَ: لا يأمنون نصرَ الله لأوليائِه وإيقاعَه بأعدائِه.

ونزلَت هذهِ الآيةُ قبلَ آيةِ القتالِ، فهي منسوخةٌ[3].

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٧٨)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٩٧)، من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورويت نحو هذه القصة في سبب نزول قوله تعالى: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ١٤ ـ ١٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٧٨)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وفيه محمد بن زياد اليشكري قال الحافظ في «التقريب»: كذبوه.

(٣) رواه أبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» (١/ ١٩٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٨١ ـ ٨٣) عن ابن عباس وقتادة والضحاك وأبي صالح وابن زيد. وانظر: «الناسخ والمنسوخ» لقتادة (ص: ٤٥).

وفي روايةٍ عن ابنِ عبَّاس: نزلَت في غزوةِ بني المصطلقِ[1]، فليست منسوخةً.

﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًا﴾؛ أي: ليجزيَ كلَّ قوم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ فيجازي الذين أحسنُوا بالجنَّة والذين أساؤوا بالنّار؛ أي: لا تُكافِئوهم أنتم لنكافِئَهم نحن.

قُرِئَ ﴿لنَجْزِيَ﴾ بالنُّون والياء[2]، وقُرِئَ ﴿ليُجزَى﴾ بضمِّ الياء وفتح الزاي؛ أي: يُجزى الجزاءُ ﴿قوماً﴾[3].

* * *

(١٥) ـ ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

قولُه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: لكلِّ عاملٍ جزاءُ عملِه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: لا حُكمَ يومَ القيامةِ لغيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

* * *

(١٦) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾؛ أي: أنعمنا عليهم، فأعرضوا عن الرُّسلِ والكتب، فلا تَستبعدْ يا محمَّدُ إعراضَ قومِك أيضاً.

و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: التَّوراةُ والإنجيلُ وغيرُهما من الكتبِ المنزلة على الأنبياءِ منهم.

﴿وَٱلْحُكْمَ﴾؛ أي: الفهمَ في الكتاب.

---

(١) تقدم ذكرها في سبب نزول الآية، وهي من طريق عطاء عن ابن عباس، وإسناده ساقط.

(٢) قرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو بالياء وباقي السبعة بالنون. انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٤ ـ ٥٩٥)، و«التيسير» (ص: ١٩٨).

(٣) قراءة أبي جعفر. انظر: «النشر» (٢/ ٣٧٢).

وقيلَ: الحُكمَ على النَّاس والقضاءَ.

﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ يعني: الأنبياءَ من وقتِ يوسفَ إلى زمانِ عيسى.

﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ أي: المنَّ والسَّلوى في التِّيه.

وقيلَ: الأقواتَ والثِّمارَ والأطعمةَ الَّتي كانَت بالشَّام.

﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: على عالَمي زمانِهم.

***

(١٧) ـ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾؛ أي: شرائعَ واضحاتٍ في الحلالِ والحرامِ ومعجزاتٍ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: يعني: ما بُيِّنَ لهم من أمرِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ وأنَّه يهاجرُ من تِهامةَ إلى يثربَ وينصرُه أهلُ يثرب(١).

﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾؛ أي: لـم يختلف بنو إسرائيلَ إلا بعدَ إزاحةِ عِلَلِهم في البيانِ والإرشاد.

﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾؛ أي: بغى بعضُهم على بعضٍ بطلبِ الفضلِ والرِّئاسةِ، وقتلوا الأنبياءَ، فكذا مشركو عصرِك(٢) يا محمَّدُ؛ قد جاءتهم البيِّناتُ ولكن أعرضوا عن تدبُّرِها للمنافسةِ في الرِّئاسة.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ١٤١).

(٢) في (أ): «مشركون عصرك»، والصواب المثبت.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ أي: فيما اختلفُوا فيه، فيفضحُ المبطِلَ ويكرمُ المحقَّ[1].

***

(١٨) ـ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾؛ أي: على منهاجٍ واضحٍ من أمرِ الدِّينِ يَشْرَعُ بك إلى الحقِّ، فاتَّبعْ هذه الشَّريعةَ ولا تتَّبع أهواءَ المشركين، ولا أهواءَ بقايا بني إسرائيلَ، والشَّرائعُ في الأرضِ: المذاهبُ الَّذي شَرَعَها الله لخلقِه.

***

(١٩) ـ ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾؛ أي: إنَّ الكفَّار لا يُغنون عنك، و﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، وهم مُتَّفقون على عدواتِك.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: يريد أنَّ المنافقين أولياءُ اليهود[2].

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: الذين اتَّقوا الشِّركَ، وهم أمَّةُ [محمَّدٍ][3] عليه السَّلام.

***

(٢٠) ـ ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

قولُه: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: هذا الَّذي أنزلتُ عليك دلائلُ في أمرِ الدِّين.

---

(١) في (أ): الحق، والصواب المثبت.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ١٤٣).

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

﴿وَهُدًى﴾؛ أي: رشدٌ وطريقٌ يُؤدِّي إلى الحقِّ.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾؛ أي: ونعمةٌ من الله.

﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ أي: المنتفِعُ به الموقنون.

* * *

(٢١) ـ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

قولُه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾؛ أي: اقترفوا المعاصيَ وكذَّبوا بآياتِ الله ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ﴾ كالمؤمنين حتَّى نُسوِّيَ بين الفريقين في المحيا والممات؟ وهذا استفهامُ إنكارٍ. والاجتراحُ: الاكتسابُ.

قُرِئَ ﴿سَوَاءً﴾ رفعاً، ونصباً[1] أي: أَحَسِبوا أن نجعلَهم وهؤلاءِ الذين آمَنوا سواءً؛ أي: مستوياً. ومَن رفَع قالَ: خبرُ ابتداءٍ مقدَّم؛ أي: محياهُم ومماتُهم سواءٌ.

والضَّميرُ في ﴿مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ يعود على الكفَّار؛ أي: مَحياهم مَحيا سوءٍ[2]، ومماتُهم كذلك، ويجوزُ أن يكونَ الضَّميرُ للقَبيلين؛ أي: يموتُ المؤمنُ على إيمانِه ويُبعَثُ عليه، ويموتُ الكافرُ على كفرِه ويُبعَثُ عليه، فيستوي محيا القبيلين ومماتُهم، والكفَّارُ يعيشون ويموتون كافرين، والمؤمنون على الضِّدِّ منه.

﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: بئس ما حكمُوا.

نزلَتِ الآيةُ في قومٍ من المشركين قالوا: إنَّهم يُعطَون في الآخرةِ خيراً ممَّا

---

(١) قرأ بالنصب حمزةُ والكسائيُّ وحفص، والباقون بالرَّفع. انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٥)، و«التيسير» (ص: ١٩٨).

(٢) في (أ): «سواء»، والتصويب من «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٦).

يُعطاه المؤمنون[1]، كما أخبرَ الرَّبُّ عنهم في قولِه: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

وقولُه: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ استفهامٌ معطوفٌ، وأهلُ العربيَّةِ يُجوِّزونَ ذلك من غيرِ عطفٍ إذا كانَ متوسِّطاً للخطابِ، وقومٌ يقولون: فيه إضمارٌ؛ أي: واللهُ وليُّ المتَّقين، أفيعلمُ المشركون ذلك أم حسبُوا أنَّا نسوي بينهم؟ وقد تكرَّرَ هذا في مواضع.

***

(٢٢) ـ ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالأمرِ الحقِّ، ولجزاءِ[2] كلِّ نفسٍ بما كسبَت.

***

(٢٣) ـ ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

قولُه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾؛ أي: عبَدُوا على حسبِ أهوائِهم، فكانَ يعبدُ الرَّجلُ منهم حجراً، ثمَّ يرى شيئاً أحسنَ منه فيرمي بالأوَّل ويعبدُ الآخر.

وقيلَ: أرادَ الَّذي يتَّبعُ هواه فيفعلُ ما يشتهي وإن كانَ اللهُ نهى عنه.

﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ قالَ ابنُ عبَّاس: علمَ الله ما يكونُ منه قبلَ أن يخلقَه[3].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٨٣٩)، و«البسيط» للواحدي (٢٠/ ١٤٣).

(٢) في (أ): «أي للأمر والجزاء»، والمثبت من «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٨).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ١٤٨)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٩٣)، وابن أبي حاتم =

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ﴾؛ أي: طَبعَ على سمعِه فلم يسمعِ الهدى، وقلبِه فلم يعقل الهدى ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾؛ أي: ظُلمةً، فلم يُبصرِ الهدى، وهذا تصريحٌ بمنعِهم عن الهدايةِ ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: من بعدِ إضلالِ الله إيَّاه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ لتَعرفوا أنَّه قادرٌ على ما يشاءُ. والله أعلم.

* * *

(٢٤) - ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾؛ أي: قالُوا: لا بعثَ ولا حسابَ، ولم يقصدُوا بذكرِ الدُّنيا إثباتَ آخرةٍ، ولكن خاطبوا المسلمين بألفاظِ المسلمين؛ أي: قالوا ليس إلا هذه الحياةَ الواحدةَ الَّتي تُسمُّونها دُنيا، فأمَّا الآخرة فلا[1] حقيقةَ لها.

﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾؛ أي: يموتُ ناسٌ ويحيا آخرون، ويموتُ أولئك ويحيا آخرون، فليس الأمرُ إلا هكذا أبداً.

وقيلَ: أي: يحيا مرَّةً ثمَّ يموتُ وليس وراءَه حياةٌ.

﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾؛ أي: إلا طولُ العمرِ.

وقالَ ابنُ عُيَينةَ: كانَ أهلُ الجاهليَّةِ يقولون: الدَّهرُ هو الَّذي يُهلكُنا، وهو الَّذي يُميتنا ويُحيينا[2].

= في «تفسيره» (٨/ ٢٧٠٠)، بلفظ: «أضله الله في سابق علمه».

(١) في (أ): «فأما آخرة ولا»، والصواب المثبت.

(٢) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٥٧١٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٩٠) بلفظ: «كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، هو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا، قال الله: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا =

قالَ اللهُ: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾؛ أي: قالوا ما قالوه شاكِّين ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾؛ أي: ما هم إلا يتكلَّمون بالظَّنِّ.

وكـانَ المشركون أصنافاً؛ منهم هؤلاء، ومنهم مَن كانَ يُثبتُ الصَّانعَ وينكرُ البعثَ، ومنهم مَن كانَ يشكُّ في البعثِ ولا يقطعُ بإنكارِه، وحدثَ في الإسلامِ أقوامٌ ليس يمكنُهم إنكارُ البعثِ خوفاً من المسلمين، فيُؤوِّلون ويَرون القيامةَ موتَ البدن، ويردُّون الثَّوابَ والعقابَ إلى خيالاتٍ تقعُ للأرواحِ بزعمهم، فشرُّ هؤلاء أضرُّ من شرِّ جميعِ الكفَّار؛ لأنَّ هؤلاء يُلبِّسُون على الخَلقِ ويُغترُّ بتلبيسِهم الظَّاهر، والمشركُ المجاهِرُ بشركِه يحذرُه المسلم.

وقيلَ: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾؛ أي: نموتُ وتحيا آثارُنا، فهذه حياةُ الذِّكر.

وقيلَ: أشاروا إلى التَّناسُخِ، يموتُ الرَّجلُ، فتُجعَلُ روحُه في مَواتٍ، فتحيا به.

***

(٢٥) ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: وإذا تُقرأُ على هؤلاء المشركين آياتُنا المنزلةُ في جوازِ[1] البعثِ لـم يكن ثَمَّ دفعٌ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ﴾؛ أي: عجِّلوا لنا، كما قالوا: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، وهذا جهلٌ؛ لأنَّ تأخيرَ البعثِ إلى الوقتِ الَّذي قضاه لا يُوجبُ العجزَ عن إقامتِه، كما أنَّه يُحيي الأرضَ في الوقتِ

= ﴿ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، ثم رويا عن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه: «يقول الله جل وعلا: يؤذيني بن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب ليله ونهاره، فإذا شئت قبضتهما».

(١) في (أ): «في جميع جواز»، والمثبت من «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٧).

المقدَّرِ له، ويوردُ على الإنسانِ أحوالَه المتغايرةَ من صغرٍ وكبرٍ[1] وشبابٍ وهرمٍ في أوقاتها، فليس كلُّ قادرٍ على شيءٍ يجبُ أن يفعلَ ما يقدرُ عليه في الحالِ، وليس كلُّ مقدورٍ لله يقعُ في حالةٍ واحدةٍ؛ إذ يستحيلُ وجودُ ما لا يتناهَى دفعةً واحدة.

* * *

(٢٦) ـ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: لو اجتمعَ النَّاسُ على أن يخلُقوا من نطفةٍ إنساناً حيّاً لـم يقدروا، فثبتَ أنَّه لا يجوزُ أن يكونَ الخالقُ إلا مَن هو قادرٌ على الكمال، فهو قادرٌ على إحيائهم بعد أن كانُوا نُطفاً أمواتاً، وفيه أكملُ البيانِ على جوازِ أن يجمعَ الرَّبُّ النَّاسَ إلى يومِ القيامةِ.

* * *

(٢٧) ـ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: هو مالكُها ومدبِّرُها على ما يشاءُ، فلا يعجزُ عن جمعِ الخلائقِ ليومِ القيامةِ، وإذا فعلَ ذلك فحينئذٍ ﴿يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ وهم أصحابُ الأباطيل، **ومنهم كلُّ مَن يَطلبُ للقيامةِ ولِمَا وردَ في القرآنِ من ذكرِها تأويلاتٍ فاسدةً**، وقالَ: ليس ثَمَّ يومٌ يُجمَعُ فيه الخلائقُ إلى صعيدٍ واحدٍ، ويُنصَبُ الميزانُ، ويَرِدُ أقوامٌ النّارَ وممرُّهم على الصِّراطِ الممدودِ على متنِ النّارِ، ويُحشَرُ أقوامٌ بأشخاصِهم إلى الجنَّةِ الَّتي فيها الدُّورُ والقصورُ والحورُ العين، بل هي ضربُ أمثالٍ وخيالاتٌ تقعُ للأرواحِ كما في المنام.

---

(١) في (أ): «صغير وكبير»، والصواب المثبت.

(٢٨ ـ ٢٩) ـ ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾؛ أي: على رُكَبِها مستوفِزةً؛ لِمَا يرونه من هولِ ذلك اليوم.

وقيلَ: جاثيةً على الرُّكبِ للحسابِ، والجثوُّ: الجلوسُ على الرُّكب.

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾؛ أي: ما كتبَ عليهم الملَكُ ليعامَلوا بكتبهم.

وقيلَ: كلُّ أمَّةٍ تُدعى إلى كتابها المنزَّلِ عليها؛ ليُنظرَ هل عملوا به؟ فيُقال: هذا كتابنا يقضي عليكم بالحقِّ؛ أي: يُقالُ لهم: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ﴾.

وقيلَ: الكتابُ هاهنا: اللَّوحُ المحفوظ.

قولُه: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: يُقالُ لهم: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ﴾؛ أي: يشهدُ، وهو استعارةٌ، يُقال: نطقَ الكتابُ بكذا؛ أي: بيَّنَ.

وقيلَ: إنَّهم يقرؤونه فيذكِّرُهم الكتابُ بما عملوا فكأنَّه ينطقُ عليهم.

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾؛ أي: نأمرُ الملائكةَ بنسخِ ما عملتم وإثباتِه.

وقيلَ: أي: نأمرُ بانتساخِ ما كنتُم تعملون من أمِّ الكتاب.

قالَ ابنُ عبَّاس: إنَّ اللهَ وكَّلَ ملائكةً مطهَّرين، فينسخون من أمِّ الكتابِ كلَّ عامٍ في رمضانَ ما يكونُ من أعمالِ بني آدمَ، فيُعارضون حفظةَ الله على العبادِ كلَّ خميسٍ، فيجدون ما جاءَ به الحفظةُ من أعمالِ العبادِ موافقاً لـمَا في كتابهم الَّذي استنسخوا من ذلك الكتابِ، لا زيادةَ فيه ولا نقصان(١).

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٥٩٥)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٩٠): =

قالَ ابنُ عبَّاس: وهل يكونُ النَّسخُ إلا من كتاب[1]؟

وقيلَ: تحملُ الحفظةُ كلَّ يومٍ ما كتبوا على العبدِ، ثمَّ إذا عادوا إلى مكانهم يُنسخُ منه الحسناتُ والسَّيِّئات، ولا تُحوَّلُ المباحاتُ إلى النُّسخة [الثانية][2].

وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٨ هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ من قولِ اللهِ لهم، وقيلَ: من قولِ الملائكة.

***

(٣٠) - ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾.

قولُه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: صدَّقُوا بالغيب ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: بالجوارحِ ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾؛ أي: إذا حُوسِبوا دخلوا الجنَّة، والرَّحمةُ: الجنَّةُ.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: فازوا بنعيمِ الأبد.

***

(٣١) - ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى﴾؛ أي: فيُقالُ لهم ذلك، وهو استفهامُ توبيخٍ.

﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن قَبولها ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾؛ أي: مذنبين، يُقالُ: فلانٌ جريمةُ أهله؛ أي: كاسبُهم، فالمجرمُ: مَن أكسبَ نفسَه المعاصيَ، وقد قالَ الله جلَّ ذِكرُه: ﴿أَفَنَجْعَلُ

= «رواه الطبراني، وفيه الضحاك، ضعفه جماعة ووثقه ابن حبان، وقال: لم يسمع من ابن عباس، وبقية رجاله وثقوا».

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ١٤٣) بلفظ: «وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل؟».

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٧١) وما بين معكوفتين منه.

ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]، فجعلَ المسلمَ ضدَّ المجرمِ، فهو المذنبُ بالكفرِ إذاً.

* * *

(٣٢) ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾؛ أي: البعثُ كائنٌ ﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾؛ أي: القيامةُ كائنةٌ لا شكَّ فيها.

﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾ قُرِئَ رفعاً ونصباً(١)، والرفعُ على تقدير: وقيلَ: السَّاعةُ لا ريبَ فيها.

﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾؛ أي: لا ندري شيئاً من ذلك، وهم كانُوا بين شاكِّين في القيامةِ وبين قاطعين بنفيِها، والقاطعُ بالنَّفيِ من غيرِ دليلٍ وإن صمَّمَ عزمُه على الإنكارِ عارضَه الشَّكُّ.

* * *

(٣٣ ـ ٣٤) ـ ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾؛ أي: ظهرَ للمشركين ما عملوه في الدُّنيا ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾؛ أي: أحاطَ بهم العذابُ الَّذي تُوُعِّدُوا به.

قولُه: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾؛ أي: نترُكُكم في النَّارِ تركَ الشَّيءِ المنسيِّ، كما تركتُم التَّأمُّلَ في آياتِ الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ أي: أنتم مُقيمون فيها.

---

(١) بالنصب حمزة، والباقون بالرفع. انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٥)، و«التيسير» (ص: ١٩٩).

(٣٥) - ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

قولُه: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾؛ أي: هذا لاستهزائِكم بالقرآنِ والدِّين.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾؛ أي: من النّارِ ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ أي: لا يُقبَلُ منهم عذرٌ.

وقيلَ: أي: لا يُعاتَبون؛ إذ قد انقطعَت المعاتبةُ.

وقيلَ: لا يُراجَعون الكلامَ بعدَ دخولِهم النّار.

قُرِئَ ﴿لا يَخْرُجون﴾ بفتح الياء وبضمِّها[١]، وقُرِئَ بالياء وبالتَّاء[٢].

* * *

(٣٦) - ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قولُه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: المستحِقُّ للثَّناءِ هو اللهُ مالكُ كلِّ شيء.

* * *

(٣٧) - ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

قولُه: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾؛ أي: فله العظمةُ والجلالُ والقدرةُ على الكمالِ، فهو الَّذي يجبُ أن يُفرَدَ بالعبادةِ.

* * *

---

(١) قرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وضم الراء، والباقون بضم الياء وفتح الراء. انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٥)، و«التيسير» (ص: ١٧٥).

(٢) اتفق العشرة على قراءتها هنا بالياء، ولم أجد القراءة بالتاء.

سُورَةُ الأَحْقَافِ

تفسيرُ سورةِ الأحقاف

بسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾.

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾؛ أي: هذه السُّورةُ أنزلَها الله كتاباً؛ أي: ليكونَ القرآنُ المنزَلُ مكتوباً عند عبادِه محفوظاً إلى قيامِ السَّاعة، وليس فيها تقوُّلٌ وافتراءٌ.

* * *

(٣) ـ ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: ما خلقناهما عبثاً لغيرِ شيءٍ، بل أرسلنا الرُّسلَ وأمَرنا ونهَينا.

﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ يعني: القيامةَ، وهو الأجلُ الَّذي تنتهي إليه السَّماواتُ والأرض، وهذا إشارةٌ إلى قيامِها ثمَّ قيامِ السَّاعةِ بعدها.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾؛ أي: عمَّا أُنذِروا به معرضون، فلا يعلمون أنَّه لا بدَّ من بعثٍ؛ لأنَّهم لا يتدبَّرون ما يعلمون به صحَّةَ النُّبوَّات.

* * *

(٤) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: لـم أشركتُم باللهِ ما لا يقدرُ على خلقِ شيءٍ؟!

﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾؛ أي: قبلِ هذا القرآنِ ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾؛ أي: بقيّةٍ، يُقال: ناقةٌ ذاتُ أثارة؛ أي: بقيّةٍ من شحمٍ، والمعنى: أو بقيّةِ علمٍ عن الأوَّلين.

وقالَ الفرَّاءُ: أو شيءٍ مأثورٍ عن كتبِ الأوَّلين، و(الأثارةُ) مصدرٌ كالسَّماحة والشَّجاعة[1].

وقالَ الزَّجَّاجُ: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ﴾؛ أي: علَامةٍ[2].

ففي قولٍ هو من (الإثارة)، تقولُ: أثرتُ الشَّيءَ إثارة، كأنَّه بقيّةٌ تُستخرَجُ فتُثار.

وفي قولٍ من (الأثْر) الَّذي هو الرِّواية.

وفي قولٍ مِن (الأثَر) بمعنى: الأثر والعلامة[3].

وقيلَ: إنَّها من الإيثار والاستئثار، ولفلانٍ أثَرةٌ بكذا وأثارةٌ؛ أي: اختصاصٌ؛ أي: ائتوني بعلمٍ إن كنتم تعلمونه، فإنَّا لا نعلمُ أنَّ لله شريكاً.

فالغرضُ: أنَّه لا شيءَ لهم يُرجَعُ إليه في تصحيحِ شيءٍ من الخلقِ والإيجادِ لآلهتهم فيُعذَروا في عبادتها.

* * *

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٥٠)، و«البسيط» للواحدي (٢٠/ ١٦٠).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٤٣٨)، و«البسيط» (٢٠/ ١٦٠).

(٣) انظر: «البسيط» (٢٠/ ١٦٠) وفيه: «من الأثر بمعنى العلامة».

(٥) ـ ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ ﴾؛ أي: لا أحدَ أضلُّ ممَّن يدعو الجمادَ أو مَن ليس له قدرةُ الإيجادِ منَ الملائكةِ والجنِّ.

﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ أمَّا الجمادُ فلا خيرَ عنده، وأمَّا الملائكةُ فيعملون بعبادةِ الله تعالى، وما يعلمون ما فيه هؤلاء المشركون، ولو عَلِموا ما فكَّرُوا فيه، ولم يوجَدْ منهم أمرٌ لهم بعبادتهم، ولا عندهم نفعٌ على الاستقلال.

والدُّعاءُ بمعنى العبادة، أو يجري على الظَّاهرِ.

﴿لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾؛ أي: لا ينفعُه ولا يرزقُه.

* * *

(٦) ـ ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾؛ أي: هؤلاء المعبودون أعداءُ الكافرين يومَ القيامةِ، فالملائكةُ أعداءُ الكافرين، والجنُّ والشَّياطينُ يتبرَّؤونَ غداً.

ثمَّ؛ يجوزُ أن يُقالَ: كانَ المعبودون أعداءَ العابدين، ويجوزُ أن يُقالَ: كانَ العابدون أعداءً للمعبودين، وأمَّا الأصنامُ فعَبَدتُها غداً أعداءٌ لها، ولو قُدِّرَ لها حياةٌ لكانَت أعداءً لعبدتها.

* * *

(٧) ـ ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾؛ أي: إذا سمعوا القرآنَ قالوا هذا سحر وتخييلٌ، وهذا منهم بَهتٌ، وكيف يكونُ الكلامُ الَّذي يَسمعونه بلُغتِهم ويَعجِزون

عن معارضتِه سحراً وتخييلاً؟! فهلَّا أتوا بمثلِ ذلك السِّحرِ إن لم يكن معجزةً مُنزلةً من عندِ الله.

***

(٨) ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾؛ أي: تقوَّلَه محمَّدٌ ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾؛ أي: لا تقدرون على أن تردُّوا عنِّي عذابَ الله، فكيفَ أفتري على اللهِ لأجلكم؟!

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾؛ أي: هو أعلمُ بما تقولونه في القرآنِ وتخوضون فيه مِن التَّكذيبِ به، والإفاضةُ في الشَّيءِ: الخوضُ فيه.

﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾؛ أي: هو يعلمُ أنِّي صادقٌ وأنَّكم مُبطِلون.

***

(٩) ـ ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾؛ أي: لستُ أوَّلَ رسولٍ، والبِدعُ والبديعُ من كلِّ شيءٍ: المبتدأُ، والبِدعةُ: ما اختُرعَ ممَّا لم تجرِ به سنَّةٌ، ورجلٌ بِدْعٌ من قوم أَبْدَاعٌ.

﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ قالَ ابنُ عبَّاس: لمَّا نزلَ هذا فرحَ المشركون واليهودُ والمنافقون، وقالوا: كيف نتَّبعُ نبيًّا لا يدري ما يُفعلُ به ولا بنا؟ فأنزلَ الله:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ فنسخَتْ هذه الآيَةَ، وأَرغَمَ الله أنفَ الكفار[1].

وقالَ في روايةٍ: لـمَّا اشتدَّ البلاء بأصحابِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ بمكَّةَ رأى في المنامِ أنَّه يهاجرُ إلى أرضٍ ذاتِ نخلٍ وشجرٍ وماءٍ، فقصَّها على أصحابِه، فاستبشروا

---

(١) رواه أبو داود في «ناسخه» ـ كما في «الدر المنثور» (٧/ ٤٣٥) ـ من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عَنْهُمَا أنه قال في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾: نسخَتْها هذه الآية التي في الفتح، فخرج إلى النَّاس فبشرهم بالذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخَّر..، الحديث. وذكره النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٦٦٤) من رواية الضحاك عن ابن عباس، وروى معناه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٢١) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ فأنزل الله بعد هذا: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

وهذا القول بكونها في المَعاد وبالنسخ لم يرتضه كثير من العلماء، قال النحاس: محال أن يقول رسول الله للمشركين: ما أدري ما يفعل بي وبكم في الآخرة، ولم يزل يخبِر أن مَن مات على الكفر يخلد في النار ومَن مات على الإيمان فهو في الجنة، فقد دَرَى ما يفعل به وبهم في الآخرة، والصحيح في معنى الآية قول الحسن: وما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا. انظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (ص: ٦٦٥)، وسيأتي قول الحسن قريباً وتتمة كلام النحاس في استحسانه.

وقال ابن الجوزي في «نواسخ القرآن» لابن الجوزي (ص: ٢٢٧): والقول بنسخها لا يصح؛ لأنه إذا خفي عليه علم شيء ثم أعلم به لم يدخل ذلك في ناسخ ولا منسوخ.

وقال أبو حيان في «البحر» (١٩/ ١٩٦): هذا القول ليس بظاهر، بل قد أعلم الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام من أول الرسالة بحاله وحال المؤمن وحال الكافر في الآخرة.

وقال الإمام الرازي: أكثر المحققين استبعدوا هذا القول، واحتجوا بأن النبي لا بد أن يعلم من نفسه كونه نبيًّا، ومتى علم ذلك علم أنه لا يصدر عنه الكبائر وأنه مغفور، وإذا كان كذلك امتنع كونه شاكًّا في أنه: هل هو مغفور له أم لا؟ وبأنه لا شك أن الأنبياء أرفع حالاً من الأولياء، وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] فكيف يعتقد بقاء الرسول وهو رئيس الأنبياء وقدوة الأولياء شاكًّا في أنه هل هو من المغفورين أم لا؟ انظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ١٠)، و«روح المعاني» (٢٥/ ٦٥).

بذلك، ورأوا فيها فرجاً من أذى المشركين، ثمَّ إنَّهم مكثوا برهةً، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، متى نهاجرُ إلى الأرضِ الَّتي أُريتَ؟ فسكتَ رسولُ اللهِ ﷺ، وقالَ: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾؛ أي: لا أدري أأخرجُ إلى الموضعِ الَّذي أُريتُ في المنام أو لا، وقالَ: «إنَّما هو شيءٌ أُريتُه في منامي، ما أصنعُ إلا ما يُوحَى إليَّ»[1]؛ أي: لم يُوحَ إليَّ ما أخبرتُكم به.

وعلى هذا لا نسخَ في الآية.

وقال الحسن: أرادَ لا أدري ما يُفعلُ بي في الدُّنيا، أأموتُ أم أقتلُ؟ ولا أنَّكم أيُّها المكذِّبون أتُرمَون بالحجرِ من السَّماء، أم يُخسف بكم[2]؟

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٦٧)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٧٢)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٨٠)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٥٣)، والقرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٨٦)، من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

(٢) رواه مطولًا ومختصراً الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٢٢)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٦٦٥)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٦٧ ـ ٦٨)، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٨٦)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٧٢)، والسمعاني في «تفسيره» (٥/ ١٥٠).

وهذا القول هو المرجح عند أكثر العلماء، وهو الذي اختاره الطبري فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصحة وأشبهها بما دلّ عليه التنزيل القولُ الذي قاله الحسن البصري»، ثم أفاض في تعليل سبب اختياره لذلك.

واستحسنه النحاس أيضاً كما تقدم، ومما قال فيه: وهذا أصحُّ قولٍ وأَحسنُه لا يَدْري ﷺ ما يَلْحقُه وإيَّاهم من مرضٍ وصحةٍ ورُخْصٍ وغلاءٍ وغنًى وفقرٍ، ومثلُه ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وفي كون معنى هذه الآية في الدنيا وجوه ذكرها ابن الفرس في «أحكام القرآن» (٣/ ٤٨٧) فقال: (وذهب الحسن بن أبي الحسن وغيره إلى أن معنى الآية: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا =

أو: لا أدري بمَ أُؤمَرُ في المستقبلِ من الشَّرائع ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ أي: ما أبلِّغكم إلا ما بعثَني الله إليكم، فأمَّا في الآخرةِ فكانَ يعلمُ أنَّه في الجنَّةِ.

وفيما ذكرناه دليلٌ على أنَّ رؤياه كانَت تنقسمُ إلى ما يكونُ وحياً وإلى ما لا يكونُ وحياً، وقد قالَ: «تنامُ عيناي ولا ينامُ قلبي»[1]، فهو في النَّومِ كما هو في اليقظةِ، وأقوالُه في اليقظةِ منقسمةٌ إلى وحيٍ وغيرِ وحي، فكذا أقوالُه في الرُّؤيا، وكانَ يتميَّزُ له أحدُ القبيلين عن الآخرِ بقرائنِ الأحوال[2].

* * *

(١٠) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾؛ أي: قل: هذا القرآنُ إن كانَ من عندِ الله ثمَّ كفرتم به ثمَّ شهدَ نبيٌّ من أنبياءِ بني إسرائيلَ ـ وهو موسى ـ على مثلِ ما قلتُه لكم أنَّه من عندِ الله ﴿فَـَٔامَنَ﴾ هذا النَّبيُّ مع محلِّه من الرِّسالةِ ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾

= من أن أنصر عليكم أو تنصروا علي. وذكر بعضهم عن الحسن أن معناها: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا من غلاء أو رخص أو مرض أو غير ذلك من الأحداث. وقال قوم المعنى: ما يفعل بي ولا بكم من الأوامر والنواهي وما يلزم الشريعة من أغراضها. وقال بعضهم: نزلت الآية في أمر كان النبي ـ ﷺ ـ ينتظره من الله تعالى في غير الثواب والعقاب. وروي عن ابن عباس أنه لما تأخر خروج رسول الله ـ ﷺ ـ من مكة حين رأى في النوم أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وسبخة قلق المسلمون لتأخره فنزلت الآية. فالآية في هذه الأقوال كلها إنما هي في أمور الدنيا. ولا خلاف على ذلك بأن الآية محكمة).

(١) رواه البخاري (١١٤٧)، ومسلم (٧٣٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) وهذا كله بناء على رواية الرؤيا، وقد تقدم أنها من رواية الكلبي، فلا يحتج بها.

أنتم هرباً من أن يلزمَكم الانقيادُ لي، وتمامُ الكلامِ: أي[1]: تكونون ظالمين واضعين الاستكبارَ غيرَ موضعِه بعد أن أقرَّ لي موسى بالنُّبوَّةِ والقرآن، وبشَّرَ قومَه بذلك، وأخذَ الميثاقَ عليهم بتصديقي إن أدركوني، فحُذِفَ هذا لدلالةِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عليه.

ومثلُ هذا قولُ القائلِ: لو رأيتَ فلاناً وقد أخذَتْه السِّياطُ، معناه: لرأيتَ أمراً هائلاً، ومثلُ هذه الآيةِ من غيرِ حذفِ المفعولِ الثاني ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ﴾ [فصلت: ٥٢].

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ في رواية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: عبد الله بن سلام[2] ﴿عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾؛ أي: على ما جئتُكم به.

قالَ الجرجانيُّ: (مِثل) صلة؛ أي: شهدَ شاهدٌ عليه؛ أي: على أنَّه من عندِ الله ﴿فَـَٔامَنَ﴾؛ أي: هذا الشَّاهدُ، ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ أنتم عن الإيمان، وجوابُ قوله: ﴿إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ محذوفٌ كما تقدَّم؛ أي: أليس قد ظلمتُم؟

وقيلَ: ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ أتؤمنون؟ جوابه.

وقيلَ: جوابه ﴿مَنۡ أَضَلُّ﴾، وتقديرُ الكلام: أخبروني ماذا تقولون إن كانَ القرآنُ من عندِ الله وشهدَ على ذلك عالمٌ من بني إسرائيلَ وآمَنَ به وكفرتُم، ألستم تستحقُّون العذاب؟

ومن قالَ: الشَّاهدُ موسى، قالَ: السُّورةُ مكيَّة، وأسلمَ ابن سلام قبلَ موتِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ بعامين.

---

(١) في (أ): «أن»، والصواب المثبت.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٢٧). ورواه البخاريُّ (٣٨١٢) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

ويجوزُ أن تكونَ الآيةُ نازلةً بالمدينةِ وتُوضَعَ في سورةٍ مكيَّةٍ؛ فإنَّ الآيةَ كانَت تنزلُ فيقول النَّبيُّ عليه السَّلامُ: «ضعوها في سورةِ كذا»[(١)].

والآيةُ في محاجّةِ المشركين، ووجهُ الحجَّةِ: أنَّهم كانُوا يُراجعون اليهودَ في أشياءَ؛ أي: شهادتُهم لي ـ أو: شهادةُ نبيِّهم لي ـ من أوضحِ الحججِ.

ولا يَبعدُ أن تكون السُّورةُ في محاجَّةِ اليهودِ، ولما جاءَ ابنُ سلَامٍ مسلِماً من قبلِ أن تعلمَ اليهودُ بإسلامِه قالَ: يا رسولَ اللهِ، اجعلني حَكماً بينك وبين اليهود، فسألهم عنه: «أيُّ رجلٍ هو فيكم؟» فقالوا: سيِّدُنا وعالمنا. فقالَ: «إنَّه قد آمَنَ بي» فأساؤوا القولَ فيه[(٢)].

---

(١) ورد هذا في عدة أحاديث منها:

ما رواه أبو داود (٧٨٦)، والترمذي (٣٨٠٦) عن ابن عباس قال: قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني والى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموهما في السبع الطوال؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السورة ذات العدد فكان إذا أنزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا. وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطوال.

وما رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٧٩١٨) عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالسًا إذ شخص ببصره ثم صوبه حتى كاد أن يلزقه بالأرض قال ثم شخص ببصره فقال أتاني جبريل عليه السلام فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

(٢) رواه البخاري (٣٣٢٩) عن أنس رضي الله عنه.

وقالَ عبدُ الله بن سلام يومَ الدَّارِ وقد حضرَ لِيَنصرَ عثمان: إنَّه قد نزلَ فيَّ آياتٌ من كتابِ الله تعالى، نزلَ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾[١].

* * *

(١١) - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِ﴾؛ أي: قالَ مشركو قريشٍ في شأنِ الذين آمنوا من ضعفاءِ قومِهم: لو كانَ هذا القرآنُ الَّذي يقولُه محمَّدٌ خيراً ممَّا نحن فيه لما سبقنا إليه هؤلاء الأتباعُ والضُّعفاء ولكنَّا نحن أولى بالسَّبق.

وقيلَ: قالَ المشركون هذا في مخاطبةِ المؤمنين؛ أي: خاطبوهم كما تقولُ: قالَ زيدٌ لعمرَ، ثمَّ تركَ المخاطبةَ ولوَّنَ الكلامَ كقولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢].

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: لـمَّا أسلمَ جهينةُ ومزينةُ وأسلمُ وغِفارٌ، قالت أسدٌ وغطفانُ: لو كانَ هذا الدِّين خيراً ما سُبِقنا إليه[٢]، وكانَت غِفارٌ وأسلمُ أهلَ سِلةٍ في الجاهليَّة؛ أي: سرقةٍ.

وقال في روايةٍ: قالَت اليهودُ هذا لمَّا أسلمَ عبدُ الله بن سلام وأصحابُه[٣].

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٥٣)، وقال: حديث غريب.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ١٧١)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (١٣/ ٣٨٤)، من رواية الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٧٦-٧٧) عن الكلبي.

(٣) ذكره الواحدي في «البيسط» (٢٠/ ١٧٠) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٣٢) دون نسبة، والثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٧٥) عن أكثر المفسرين.

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾؛ أي: لـمَّا لـم يُصيبوا الهدى بالقرآنِ عادَوه ونسبُوه إلى الكذبِ، وقالوا: إنَّه ﴿إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾؛ أي: أساطيرُ الأوَّلين، ومَن جهلَ شيئاً عاداه، ومثلُه ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس: ٣٩]، والذي ذكروه ليس حجَّةً لهم؛ لأنَّ كونَ الشَّيءِ حقّاً لا يختلِفُ بأن يَسبقَ إليه الضُّعفاءُ والأتباعُ أو يَسبقَ إليه الإشرافُ.

***

(١٢) ـ ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ﴾؛ أي: ومن قبلِ القرآنِ ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾؛ أي: التَّوراةُ ﴿إِمَامًا﴾ يُقتدَى به ﴿وَرَحْمَةً﴾ من الله للنَّاظرين فيه، وفي الكلامِ حذفٌ؛ أي: فلم يهتدوا به، وذلك أنَّه كانَ في التَّوراةِ نعتُ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والإيمانُ به، فتركوا ذلك.

و﴿إِمَامًا﴾ نصبٌ على الحالِ؛ لأنَّ المعنى: وتقدَّمَه كتابُ موسى إماماً.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾؛ أي: للتَّوراةِ ولِمَا قبلَه من الكتبِ، ولم يُصدَّق، لـماذا؟ لأنَّه دلَّ عليه قوله: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ فهذا سببُ الحذف.

﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ منصوبٌ على الحال؛ أي: مصدِّقٌ لـمَا قبله عربيّاً، وذكرَ ﴿لِّسَانًا﴾ توكيداً، كما تقولُ: جاءني زيد رجلاً صالحاً، فتذكرُ (رجلاً) توكيداً.

وقيلَ: أي: وهذا كتابٌ مصدِّقٌ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأنَّه معجزتُه، والتَّقديرُ: مصدِّقٌ ذا لسانٍ عربيٍّ.

وقيلَ: اللِّسانُ هو النَّبيُّ عليه السَّلام.

وقيلَ: أي: بلسانٍ، فلمَّا حُذفَ الباءُ نُصِبَ.

﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ قُرِئَ بالتَّاء والياء[١]، و﴿بُشْرى﴾ هو في موضعِ رفعٍ؛ أي: وهو بشرى، ويجوزُ أن يكونَ نصباً؛ أي: لينذرَ الذين ظلموا ويبشِّرَ المحسنين ببشرى عظيمةٍ.

***

(١٣) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾؛ أي: من الكفَّار مَن قالوا: ربُّنا الله وما استقاموا، وأصحابُ النَّبيِّ عليه السَّلامُ استقاموا، ومَن استقامَ فلا خوفٌ عليه، فقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ معناه: فلم يشركوا.

قالَ الصِّدِّيقُ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾؛ أي: لـم يلتفتوا إلى إلهٍ غيرِه[٢].

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: نزلَت في أبي بكرٍ[٣].

وقيلَ: استقاموا على ما فُرِضَ عليهم، فلا يخافون المناقشةَ في الحسابِ ولا يحزنونَ بدخولِ النّار.

***

---

(١) قرأ نافع والبزي بخلاف عنه وابن عامر بالتاء والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٦)، و«التيسير» (ص: ١٩٩).

(٢) رواه أبو داود في «الزهد» (٣٨)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٢٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٤٨).

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٧٣)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٥١)، من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(١٤) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾؛ أي: هؤلاء المستقيمون أصحابُ الجنَّةِ والخلودِ فيها جزاءً على استقامتِهم. وما يُروى من خوفِ المؤمنين والأنبياءِ يومَ القيامةِ فذلك من فزعِ الطَّبع، فأمَّا خوفُ دخولِ النّارِ فمنفيٌّ عنهم.

***

(١٥) ـ ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ووصَّينا الإنسانَ بوالِدَيْهِ حُسْناً﴾ بيَّنَ حالَ اختلافِ حالِ الإنسانِ مع أبويه فقد يطيعُهما وقد يُخالفُهما؛ أي: فلا يبعدُ مثلُ هذا في حقِّ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وقومِه حتَّى يستجيبَ له البعضُ ويكفرَ البعضُ، فهذا وجهُ اتِّصالِ الكلامِ بعضِه ببعضٍ.

﴿حُسْناً﴾؛ أي: بِرّاً، وقُرِئَ ﴿إِحۡسَٰنًا﴾[1]، والحُسنُ: خلافُ القُبح، والإحسانُ: خلافُ الإساءة، والتَّوصيةُ للأمر.

﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا﴾ قُرِئَ بالفتحِ، وهو مصدرُ كرِهتُ أكرهُ، وقُرِئَ بالضَّمِّ[2]، وهو الاسمُ، فهو الشَّيءُ المكروه.

---

(١) قرأ بها عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ، والباقون بالأولى. انظر: «السبعة» (ص: ١٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٩٩).

(٢) قرأ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ وابن ذكوان بضم الكاف في الموضعين، والباقون بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ١٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٩٩).

وقيلَ: هما لغتان بمعنًى، مثل الضَّعْفِ والضُّعْفِ، والشَّهْدِ والشُّهْدِ.

أي: حملته في مشقَّة ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾؛ أي: في مشقَّة، وليس يُريدُ ابتداءَ الحمل لأنَّه ليس فيه مشقَّةٌ، وإنَّما المشقَّةُ في الحمل إذا أثقلَت، وبيَّنَ أنَّ وجوبَ شكرِ الوالدَين والإحسانِ بهما لِـمَا[1] تحمَّلا من المشقَّةِ في حقِّه من التَّربيةِ وغيرِها.

﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾؛ أي: لحِقَها المشقَّةُ في الحملِ والوضعِ والإرضاعِ، فجعلَ مُدَّةَ الحملِ والفصالِ والفِطامِ ثلاثين شهراً، وقالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقالَ عكرمةُ: قالَ ابنُ عبَّاس: إذا حملَت تسعةَ أشهرٍ أرضعَت أحداً وعشرين شهراً، وإن حملَت ستَّةَ أشهرٍ أرضعَت أربعةً وعشرين شهراً[2].

وقيلَ: لـم يَعُدَّ ثلاثةَ أشهرٍ في ابتداء الحمل؛ لأنَّ الولدَ فيها نطفةٌ وعلقةٌ ومضغةٌ فلا يكونُ له ثقلٌ يُحَسُّ.

وقيلَ: نزلَتِ الآيةُ في أبي بكرٍ، وكانَ حملُه وفصالُه في ثلاثين شهراً[3].

وفي الآية حذف؛ أي: ومُدَّةُ حملِه وفصالِه ثلاثون شهراً.

ورُوي: أنَّ أمَّ أبي بكرٍ حملته تسعةَ أشهرٍ وأرضعته أحداً وعشرين شهراً[4].

---

(١) في (أ): «ما»، والمثبت هو الأنسب بسياق الكلام.

(٢) رواه سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (٧/ ٣٣٧)، والطبري في «تفسيره» (٤/ ٢٠١)، والحاكم في «المستدرك» (٣١٠٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٧٢٧).

(٣) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٩/ ٢٤٥)، والسمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٨٨)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ١٧٧)، وانظر التعليق الآتي.

(٤) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٤/ ٢٠)، وذكره أبو حفص النسفي في «تفسيره» (١٣/ ٣٩٠) عن ابن إسحاق.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قالَ ابنُ عبَّاس: ثماني عشرةَ سنةً، وقالَ: إنَّ أبا بكرٍ صحبَ النَّبيَّ عليه السَّلامُ وهو ابن ثمانِ عشرةَ سنة والنَّبيُّ عليه السَّلامُ ابنُ عشرين سنة، وهم يريدون الشَّام للتِّجارةِ، فنزلوا منزلاً فيه سدرةٌ، فقعدَ رسولُ اللهِ ﷺ في ظلِّها، ومضى أبو بكرٍ إلى راهبٍ هناك فسأله عن الدِّين، فقالَ الرَّاهبُ: من الرَّجل الَّذي في ظلِّ السِّدرةِ؟ فقالَ: ذاك محمَّدُ بنُ عبدِ الله بنِ عبدِ المطَّلب. فقالَ: هذا والله نبيٌّ، وما استظلَّ تحتها أحدٌ بعد عيسى. فوقعَ في قلبِ أبي بكرٍ اليقينُ والتَّصديق، وكانَ لا يكادُ يفارقُ رسولَ اللهِ ﷺ في أسفارِه وحضوره، فلمَّا نُبِّئَ رسولُ اللهِ عليه السَّلامُ وهو ابنُ أربعين سنة، صدَّقَ أبو بكرٍ رسول اللهِ عليه السَّلامُ وأسلمَ وهو ابنُ ثمانٍ وثلاثين سنة، فلمَّا بلغَ أربعين سنةً ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ الآية(١).

وقالَ الشعبيُّ: بلوغُ الأشدِّ: بلوغُ الحلم(٢).

وقالَ الحسنُ: هو بلوغُ الأربعين(٣).

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾؛ أي: أَلْهِمْني ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾ ما أنعمتَ عليَّ به من الهدايةِ وعطَّفْتَ عليَّ والديَّ حتَّى ربَّياني صغيراً.

وقالَ عليٌّ رضي الله عنه: هذه الآيةُ نزلَت في أبي بكرٍ رضي الله عنه؛ أسلمَ أبواه

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٨٠ ـ ٣٨١)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٠٧)، من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما. وإسناده ساقط، وأكثرُ ما تقع هذه الروايات عندَ الواحديِّ في «البسيط» و«الوسيط»، وهي أخبارٌ ضعيفةٌ واهيةٌ لا يُحتجُّ بها كما بيَّن الحافظ في «العجاب في بيان الأسباب» (١/ ٢٢٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٣٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١٩).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١٨)، وذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ١٧٩).

جميعاً، ولم يجتمِع لأحدٍ من المهاجرين أبواه غيره، فأوصاه الله بهما، ولزم ذلك مَن بعدَه[١].

ووالداه: أبو قُحافةَ عثمانُ بنُ عمرٍو، وأمُّه أمُّ الخيرِ ابنةُ صخرٍ.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ قالَ ابنُ عبَّاس: فأجابَه الله، فأعتقَ تسعةً من المؤمنين يُعذَّبون في اللهِ، منهم: بلالٌ وعامر بن فُهَيرة، ولم يدع شيئاً من الخيرِ[٢] إلا أعانه الله عليه[٣].

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾؛ أي: اجعل ذرِّيتي صالحين.

قالَ ابنُ عبَّاس: فلم يبقَ له ولدٌ ولا والدٌ ولا والدةٌ إلا آمنوا باللهِ وحدَه[٤].

﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾؛ أي: من الشِّرك؛ أي: رجعتُ إلى طاعتِك عن كلِّ ذنب.

﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: من المخلِصين في التَّوحيد.

* * *

(١٦) - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ قُرِئَ ﴿يُتقبَّل﴾ بضمِّ الياء، وقُرِئَ ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ بالنُّون[٥].

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٨٣)،

(٢) في (أ): «ولم يدع شيئاً من المؤمنين ومن الخير»، والمثبت من «البسيط».

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ١٨٠).

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ١٨١).

(٥) وكذا الخلاف في ﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾ فقرأ حمزةُ والكسائيُّ وعاصمٌ في رواية حفص بالنون فيهما، والباقون بالياء على ما لم يُسَمَّ فاعلُه. انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٧)، و«التيسير» (ص: ١٩٩).

﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾؛ أي: أعمالَهم الصَّالحة، والأحسنُ بمعنى: الحسن، كقولِه: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾ [الزمر: ٥٥].

وقيلَ: الأحسنُ ما يقتضي الثَّوابَ، والحسنُ: المباحُ الَّذي لا يتعلَّقُ به ثوابٌ وعقاب.

﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ ﴿فِي﴾ بمعنى: مع؛ أي: نفعلُ بهم ما نفعلُ بأصحابِ الجنَّة، كما تقولُ: يُعطَى زيدٌ مع القوم، وتقولُ: أكرمُك وأحسنُ إليك في جميعِ أهلِ بلدك؛ أي: مع جميعِهم.

﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾؛ أي: وَعَدَ اللهُ أهلَ الإيمانِ أن يقبلَ من محسِنِهم ويتجاوَزَ عن مسيئِهم وَعْدَ الصِّدق، فهو مصدرٌ مؤكِّدٌ لـمَا قبله.

والتَّجاوُزُ: تركُ الوقوفِ على الشَّيءِ، يُقال: جازَ عنه، وتجاوَزَ عنه، ثمَّ استُعمِلَ بمعنى العفو.

وقولُـه: ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾ مـن بـابِ إضافةِ الشَّـيء إلـى نفسِـه؛ لأنَّ الصِّدقَ هو ذلـك الوعـدُ الَّـذي وعـده الله، وهـو كقولِـه: ﴿حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، وهذا عند الكوفيـين، فأمَّا عنـد البصريـين فتقديره: وَعْـدَ الكلامِ الصِّـدقِ والكتـابِ الصِّدقِ، فحُـذفَ الموصوفُ.

﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ في الدُّنيا على لسانِ الرُّسل.

* * *

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ قيل: نزلَتْ في عبدِ الرَّحمنِ بن أبي بكرٍ قبلَ إسلامِه، وكانَ أبواه يدعوانه إلى الإسلامِ فيأبى[١].

﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ هذه كلمةُ استثقالٍ وطردٍ وتوبيخ.

﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾؛ أي: أُبعَثَ من القبرِ بعدَ الموت ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ فلم أرَ أحداً منهم بُعِثَ ﴿وَهُمَا﴾ يعني: والديه ﴿يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾؛ أي: يدعوان اللهَ له بالهدى، أو: يستغيثان باللهِ من كُفرِه، فلمَّا حُذفَ الجارُّ وصلَ الفعلُ فنَصبَ.

وقيلَ: الاستغاثةُ الدُّعاءُ، فلا حاجةَ إلى الباء.

وقوله: «فلم أر أحداً بُعثَ» لا حجَّةَ فيه؛ إذ ليس من ضرورةِ أن يَبعثَ الله الخلقَ يومَ القيامةِ أن يُخرجَ بعضَ الموتى اليومَ لغيرِ الحساب.

﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ بالبعثِ؛ فإنَّ الله لم يخلقِ الخَلقَ سُدًى، وإنَّ اللهَ قادرٌ على ذلك.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾؛ أي: لا خُلفَ فيه ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ﴾؛ أي: ما يقوله والداه

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٨٦ ـ ٨٧)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٥٨)، وهو قول مقاتل كما في «تفسيره» (٤/ ٢١). وهذا القول ضعيف، فإن عبد الرحمن بن أبي بكر قد أسلم وكان من أجلاء الصحابة، وإنما ينزل مثل هذا فيمن مات على كفره كأبي لهب والوليد بن المغيرة.
وقال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية: ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ فقوله ضعيف؛ لأن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وكان من خيار أهل زمانه.
قلت: وقد أنكرت عائشة ذلك كما سيأتي.

﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ أي: باطلٌ قد كتبَه الأوَّلون، ولا حقيقةَ له.

وأنكرَت عائشةُ رضي الله عنها أن تكونَ الآيةُ في عبدِ الرَّحمنِ(١).

وقال الحسنُ: هي نعتُ عبدٍ كافرٍ عاقٍّ لوالديه(٢).

وقال الزَّجَّاج: كيف يُقالُ: نزلَت في عبدِ الرَّحمنِ قبلَ إسلامِه والله يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾؛ أي: العذابُ، ومِن ضرورتِه عدمُ الإيمان، وعبدُ الرَّحمنِ من أفاضلِ المؤمنين؟! والصَّحيحُ أنَّها نزلَت في كافرٍ عاقٍّ لوالديه(٣).

ومَن قالَ: نزلَت في عبد الرَّحمنِ، قالَ: إنَّه لمَّا قالَ: ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾ قالَ مع ذلك: فأين عبدُ الله بنُ جدعان؟ وأين عثمانُ بنُ عمرو؟ وأين فلان؟ وأين فلان(٤)؟

فقولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾؛ أي: جرى الحُكمُ عليهم بالشَّقاوة ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾؛ أي: ضاعَ سعيُهم وخسروا الجنَّة.

* * *

---

(١) رواه البخاري (٤٨٢٧) ولفظه: عن يوسف بن ماهك قال: «كان مروان على الحجاز، استعمله معاوية، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئا، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذري».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ١٨٥)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٤٥) بلفظ: «هو الكافر الفاجر العاق لوالديه، المكذب بالبعث».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٤٤٤)، و«البسيط» للواحدي (٢٠/ ١٨٦).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢١).

(١٩) - ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾؛ أي: من جهة أعمالِهم ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾؛ أي: رفعنا ذلك بهم ليوفِّيَهم، كقولِه: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥]؛ أي: ولذلك أريناه.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾؛ أي: لا يُنقَصُ من أجورِ أعمالهم شيءٌ.

***

(٢٠) - ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني: المشركين؛ أي: يُكشَفُ الغطاءُ فيُقرَّبون من النّارِ وينظرونَ إليها.

﴿أَذْهَبْتُمْ﴾؛ أي: يُقالُ: ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾، فالقولُ مضمرٌ؛ قُرِئَ ﴿أأذهبتم﴾ بهمزتين، وقُرِئَ بهمزة واحدة استفهاماً، وقُرِئَ ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ على طريقِ الخبر[1]؛ أي: تمتَّعتُم بالطَّيِّبات في الدُّنيا واتَّبعْتُم الشَّهواتِ واللَّذات.

﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾؛ أي: عذابَ الخزيِ والفضيحة.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بتكبُّركم عن قَبول قولِ محمَّدٍ عليه السَّلامُ وقولِ الرُّسل، والتَّوبيخُ واقعٌ على ركوبِ الشِّركِ وعلى تركِ الشُّكرِ لا على تناولِ الطَّيِّباتِ المحلَّلة.

---

(١) قرأ ابن ذكوان بهمزتين محققتين من غير مد، وقرأ ابن كثير وهشام بهمزة ومدة، وسهل ابن كثير الهمزة الثانية، وأدخل هشام عن ابن عامر بينهما ألفاً، وقرأ الباقون بهمزة واحدة من غير مد على الخبر. انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٨)، و«التيسير» (ص: ١٩٩).

وقيلَ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾؛ أي: أفنَيْتُم شبابَكم في الكفرِ والمعاصي.

***

(٢١) - ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ يعني: هوداً، وكانَ منهم فسمَّاه أخاً لهم؛ أي: اذكرْ لهؤلاء المشركين قصَّةَ عادٍ ليَعتبروا بها.

وقيلَ: أمرَه بأن يتذكَّرَ في نفسِه قصَّةَ هودٍ ليقتديَ به ويَهونَ عليه تكذيبُ قومِه له.

﴿بِٱلْأَحْقَافِ﴾؛ أي: بالرَّملِ فيما بين عُمانَ إلى حضرموتَ واليمنِ، وكانوا قهروا أهلَ الأرضِ بفضلِ قوَّتهم.

والحقفُ: الرَّملُ المعوجُّ، يُقال لكلِّ معوجٍّ: مُحْقَوقِفٌ.

وقيلَ: هو المستطيلُ من الرَّمل.

وقيلَ: الكثيبُ المكتنِزُ غيرُ العظيمِ وفيه اعوجاجٌ.

وقيلَ: هو وادٍ بين عُمانَ ومَهرةَ[١] الَّتي تُنسبُ إليه الجمالُ المَهْرِيَّةُ، وهي بلاد الشِّحْر[٢].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٥١). والمهَرة: بلاد تنسب إليها الإبل، بينها وبين عمان نحو شهر، وكذلك بينها وبين حضرموت. انظر: «معجم البلدان» (٥/ ٢٣٤).

(٢) الشِّحْر: منطقة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن ما بين عدن وعمان. انظر: «معجم البلدان» (٣/ ٣٢٧).

وقالَ مقاتلٌ: هي دكاكُ الرَّملِ باليمنِ في حضرموتَ(١).

وقالَ الضَّحَّاكُ: هي جبلٌ بالشَّامِ يسمَّى الأحقاف(٢).

وقالَ مجاهدٌ: هي أرضٌ بحِسْمَى(٣).

﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾؛ أي: الرُّسل ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾؛ أي: بَعَثْنا قبله رسلاً وبعثنا بعده رسلاً:

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذا من قولِ الرُّسل، فهو كلامٌ معترضٌ، ثمَّ قالَ هود: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾، وقيلَ: هو من قولِ هودٍ أيضاً. والعظيمُ: الهائلُ؛ يعني: القيامة.

***

(٢٢) - ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾؛ أي: لتصرِفنا، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ إن كنتَ صادقاً.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٣)، و«البسيط» للواحدي (٢٠/ ١٩٠).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ١٠٦)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٥١) بلفظ: «جبل يسمى الأحقاف»، وروى (٢١/ ١٥٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: «الأحقاف: جبل بالشام».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٥٢) بعدة روايات عن مجاهد، وهي: «الأحقاف: الأرض»، و«الأحقاف: حشاف»، و«حشاف من حسمى». والحشاف: الحجارة في الموضع السهل، وحسمى بكسر أوله، وبالميم، مقصور، على بناء فِعلى: موضع من أرض جذام. انظر: «معجم ما استعجم» (١/ ١١٩)، و(٢/ ٤٤٦)، وفي «معجم البلدان» (٢/ ٢٥٨): «يجوز أن يكون أصله من الحسم وهو المنع: وهو أرض ببادية الشام، بينها وبين وادي القرى ليلتان».

وقالَ الزَّجَّاج: أي: لتصرِفنا عن آلهتِنا بالإفكِ بما تعدنا[١].

هذا يدلُّ على أنَّ الوعدَ قد يُوضَعُ موضعَ الوعيد.

* * *

(٢٣) ـ ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في الوقتِ الَّذي يأتيكم العذابُ فيه ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ ومِن الجهلِ أن تأمنَ وقوعَ الشَّيءِ لتأخُّرِه عن الوقتِ المؤقَّتِ له.

وقيلَ: أي: ﴿تَجْهَلُونَ﴾ فتظنُّون أنَّكم تَسلَمونَ منَ العذابِ مع تكذيبِكم إيَّاي ومع الإشراكِ.

وقيلَ: ﴿تَجْهَلُونَ﴾ لأنَّكم تعبدون ما لا يضرُّ ولا ينفعُ.

﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾؛ أي: عليَّ التَّبليغُ ولا أطَّلعُ على وقتِ نزولِ العذاب.

* * *

(٢٤) ـ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ قالَ المُبرِّدُ: الضَّميرُ في قولِه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ يعودُ إلى غيرِ مذكور، ويؤيِّدُه قوله: ﴿عَارِضًا﴾، فالضَّميرُ يعودُ إلى السَّحاب؛ أي: فلمَّا رأوا السَّحابَ عارضاً.

وقيلَ: يرجعُ الضَّميرُ إلى قولِه: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾: فلمَّا رأوا ما يوعدون عارضاً[٢].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٤٤٥).

(٢) انظر: «البسيط» للواحدي (٢٠/ ١٩٢).

والعارِضُ: السَّحابةُ تراها في ناحيةِ السَّماءِ ثمَّ تطبِّقُ السَّماء، وكانَ المطرُ قد احتبسَ عنهم، فرأوا سحابةً قد استقلَّت أوديتَهم ففرحوا، وقالوا: هذا سحابٌ يأتينا بالمطر.

﴿مُّمْطِرُنَا﴾؛ أي: ممطِرٌ إيّانا، فقالَ هودٌ: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ يعني: قولَهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، ثمَّ بيَّنَ ما هو فقالَ: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، والرِّيحُ الَّتي عُذِّبوا بها نشأت من ذلك السَّحابِ الَّذي رأوه، وخرجَ هودٌ من بين أظهُرِهم.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: كانَت الرِّيح تطيرُ بهم بين السَّماءِ والأرضِ حتَّى أهلكَتْهم[1].

* * *

(٢٥) - ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ﴾؛ أي: هذه الرِّيحُ تهلكُ كلَّ شيءٍ من النَّاسِ والدَّوابِّ والأموالِ، وقالَ ابنُ عبَّاس؛ أي: كلَّ شيءٍ بُعِثَت إليه[2].

﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾؛ أي: بإذنِ ربِّها، والتَّدميرُ: الإهلاكُ، والدُّمورُ: الدُّخولُ بغيرِ إذنٍ.

﴿فَأَصْبَحُواْ﴾؛ أي: فأصبحَت عادٌ ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ قُرِئَ بضمِّ الياء ﴿مَسَٰكِنُهُمْ﴾ بالرَّفعِ، وقُرِئَ بالتَّاء، وقُرِئَ ﴿لا تَرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُم﴾ بالنَّصبِ[3]،

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ١٩٤)، وروى نحوه مطولًا ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (١٢٩)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢٧٨)، عن السدي.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ١٩٤)، وذكر معناه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ١٢٩) فقال: «وإنما عنى بقوله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ مما أرسلت بهلاكه، لأنها لم تدمر هوداً ومن كان آمن به»، ثم روى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ما أرسل الله على عاد من الريح إلا قَدْرَ خاتمي هذا، فنزع خاتمه».

(٣) قرأ عاصم وحمزة: ﴿لا يُرى﴾ بالياء مضمومة ﴿إلاَّ مساكنُهم﴾ بالرفع، والباقون بالتاء مفتوحة وبالنصب. انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٨)، و«التيسير» (ص: ٢٠٠). =

والمعنى: بقيتْ مساكنُ عادٍ خاليةً ولم يبقَ إلا هودٌ ومَن آمَنَ معه، وفي الخبرِ: «نُصِرتُ بالصَّبا، وأُهلِكَت عادٌ بالدَّبور»[1].

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: كما عذَّبنا عاداً نُعذِّبُ هؤلاء المشركين إن أصرُّوا.

***

(٢٦) ـ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾؛ أي: بسطنا لهم من القدرةِ ما ليس لكم مثلُه، ثمَّ لم يغنِهم ذلك، فأنتم مع ضعفِكم كيف تمتنِعونَ من عذابِ اللهِ عزَّ وجلَّ؟

والمعنى: مكَّنَّاهم من القوَّةِ وكثرةِ المالِ وأعطيناهم ما لم نُعْطِكم يا أهلَ مكَّة.

وقال المُبرِّدُ: أي: مكَّنَّاهم في الَّذي ما مكَّنَّاكم فيه، فـ(ما) [في قوله]: ﴿فِيمَآ﴾ بمنزلةِ: الذي، و﴿إِن﴾ بمنزلة: ما[2].

= وقرأ الحسن والجحدري وقتادة وعمرو بن ميمون والسلمي والأعمش وابن أبي إسحاق ـ واختُلف عن الكل ـ وأبو رجاء ومالك بن دينار: (لا تُرى)، بالتاء مضمومة وبالرفع. انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٦٥). واقتصر في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٠) على عزوها للحسن. وتحرفت (تُرى) في مطبوعه إلى: (يُرى) بالياء.

(١) رواه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «البسيط» للواحدي (٢٠/ ١٩٦)، وما بين معكوفتين منه.

وقالَ القُتيبيُّ: أي: مكَّنَّاهم فيما مكَّنَّاكم فيه، فزِيدت ﴿إن﴾[١]. وفيه تحكُّمٌ بدعوى الزِّيادة.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾؛ أي: أثبتنا لهم آلاتِ التَّفكُّرِ والنَّظرِ، فلم ينظروا في أمرِ الدِّين.

***

(٢٧) ـ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾؛ أي: حِجْرَ ثمودَ وقُرى لوطٍ ونحوَها ممَّا كانَ يجاورُ بلادَ الحجاز، وكانَت أخبارُهم متواترةً عندهم.

﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾؛ أي: بيَّناها لأهلِ تلك القُرى ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فلم يرجعوا.

وقيلَ: أي: صرَّفنا آياتِ القرآنِ في الوعدِ والوعيدِ والقصصِ والإعجازِ لعلَّ هؤلاء المشركين يرجعُون.

***

(٢٨) ـ ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾؛ أي: هلَّا نصرَتهم آلهتُهم الَّتي يتقرَّبون بها[٢] بزعمِهم إلى اللهِ لتشفعَ لهم.

﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾؛ أي: هلكُوا عنهم ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾؛ أي: محصولُ إفكِهم.

---

(١) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٤٠٨)، وقدم له بقوله: «ويقال»، وقدم عليه قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ أي: فيما لم نمكنكم فيه، و﴿إن﴾ بمعنى: لم.

(٢) في (أ): «يقربونها»، والصواب المثبت.

وقيلَ: ﴿ضَلُّواْ عَنْهُمْ﴾؛ أي: تركُوا الأصنامَ وتَبرَّؤُوا منها.

وقيلَ: ﴿إِفْكُهُمْ﴾: اتِّخاذُهم الآلهةَ دون الله.

* * *

(٢٩) - ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ هذا توبيخٌ لمشركي [قريشٍ][(١)]؛ أي: على التَّكذيبِ.

قالَ المفسِّرونَ: لـمَّا أيسَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ من أهلِ مكَّةَ أن يُجيبوه خرجَ إلى الطَّائفِ ليدعوَهم إلى الإسلامِ، فلمَّا انصرفَ إلى مكَّةَ فكانَ بنخلةَ يقرأُ القرآنَ في صلاةِ الفجرِ، فمرَّ به نفرٌ من أشرافِ جنِّ نَصِيبينَ[(٢)]، كانَ إبليسُ بعثَهم ليَعرِفَ السَّببَ الَّذي أَوجبَ حراسةَ السَّماءِ بالرَّجم، فاستعموا لقراءةِ النَّبيِّ عليه السَّلام[(٣)].

---

(١) ما بين معكوفتين من «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢٠).

(٢) نَصِيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام، ونصيبين أيضاً مدينة على شاطئ الفرات كبيرة تعرف بنصيبين الروم، وتقع في جنوب تركيا حاليًّا. انظر: «معجم البلدان» (٥/ ٢٨٨).

(٣) روى بعضه البخاري (٤٩٢١)، ومسلم (٤٤٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه أن الجن أتَوْه ﷺ بنخلة وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر. وانظر: «الكافي الشاف» (ص: ١٥١)
قلت: وأما ما ذكره المؤلف من كون ذلك عند رجوعه من الطائف فنقله ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية من رواية محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن محمد بن كعب القرظي، ثم تعقبه بقوله: قوله: «إن الجن كان استماعهم تلك الليلة» فيه نظر؛ لأن الجن كان استماعهم في ابتداء الإيحاء، كما دل عليه حديث ابن عباس المذكور، وخروجه عليه السلام إلى الطائف كان بعد موت عمه، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين، كما قرره ابن إسحاق وغيره. =

وقيلَ: بل أُمِرَ رسولُ اللهِ ﷺ أن يُنذرَ الجنَّ ويقرأ عليهم القرآنَ، فصُرفَ إليه نفرٌ من الجنِّ ليسمعوا منه وينذروا قومَهم[١].

قالَ ابنُ عبَّاس: كانُوا سبعةً[٢]، وقالَ مقاتلٌ: تسعةً[٣].

﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ﴾؛ أي: نفراً مستمعين؛ أي: طالبين سماعَه.

وقيلَ: إنَّ ذلك كانَ بالحجونِ[٤]. وإن ثبتَ هذا فهو في غيرِ اللَّيلةِ الَّتي وافقوا فيها رسولَ اللهِ ﷺ بعثَ أولئك السَّبعةِ، وكأنَّهما ليلتان[٥].

= قلت: ويؤيد ما قاله ابن كثير أن في حديث ابن عباس في الصحيحين كما قدمنا: أن الجن أتَوْه بنخلة وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، وعند عودته من الطائف كان وحيداً، ولم يكن معه أصحابه.

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤٣٨١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩٩٦٢). وإسناده ضعيف لجهالة أبي زيد مولى عمرو بن حريث المخزومي. وانظر: «الدراية في تخريج الهداية» لابن حجر (١/ ٦٦).

ورواه الإمام أحمد أيضاً من طريق آخر (٣٧٨٨)، وله روايات أخر تنظر في حواشي «المسند» ولا يخلو كل منها من مقال.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٦٥) بلفظ: كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلًا إلى قومهم.

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٧).

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣٩٥٤)، وابن حبان في «صحيحه» من طريق عُبيدِ اللهِ بن عبد الله بن عُتبةَ، عن ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «بِتُّ الليلةَ أقرأ على الجنِّ، رُفقاءَ بالحَجُون».

وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود لم يسمع من عم أبيه عبد الله بن مسعود، وبقية رجاله ثقات.

و«الحجون» بتقديم الحاء على الجيم: جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها.

(٥) في (أ): الثلثان، والصواب المثبت.

وقيلَ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بعثَ أولئك السَّبعةَ أو التِّسعةَ إلى مَن وراءهم من قومِهم، ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾؛ أي: حضروا النَّبيَّ عليه السَّلامُ، وهو من بابِ تلوينِ الخِطاب.

وقيلَ: أي: حضروا القرآنَ واستماعَه.

﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾؛ أي: قالَ بعضُهم لبعضٍ: اسكتوا لاستماعِ القرآن.

﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾؛ أي: فلمَّا قضى النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ القراءةَ؛ أي: فرغَ منها، وقالَ الزَّجَّاج: أي: فلمَّا تلا عليهم القرآنَ حتَّى فرغَ منه[1].

﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾؛ أي: انصرَفوا قاصِدِين مَن وراءَهم من قومِهم من الجنِّ مُنذِرِين لهم مخالفةَ القرآن، ومحذِّرين إيَّاهم بأسَ الله إن لـم يؤمنوا.

وهذا يدلُّ على أنَّهم آمنوا بالنَّبيِّ عليه السَّلامُ، ولولا ذلك لَـمَا أنذروا قومَهم.

* * *

(٣٠) ـ ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾؛ أي: القـرآنَ، وكانوا مؤمنين بموسى ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ﴾ مَن سلكَه أدَّاه إلى الجنَّة.

* * *

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٤٤٧).

(٣١) - ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: محمَّداً، وهـذا يدلُّ على أنَّه عليه السَّلامُ كانَ مبعوثاً إلى الجنِّ والإنس.

وقالَ مقاتلٌ: ولم يَبعثِ الله نبيّاً إلى الجنِّ والإنسِ قبلَ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[١].

﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: بالدَّاعي، وهو محمَّدٌ عليه السَّلامُ وكلُّ مَن يدعو إلى الله.

وقيلَ: ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: باللهِ؛ لقوله: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم﴾.

***

(٣٢) - ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: لا يسبقُ اللهَ ولا يفوتُه ﴿وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُ﴾؛ أي: أنصارٌ يمنعونه من الله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: الذين لا يجيبون إلى الإيمانِ ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾.

قالَ مقاتلٌ: فأقبلَ إلى النَّبيِّ عليه السَّلامُ من الجنِّ الذين أُنذروا سبعون رجلاً، فقرأ النَّبيُّ عليه السَّلامُ عليهم القرآنَ وأمرَهم ونهاهم[٢].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٠)، و«البسيط» (٢٠/ ٢٠٠)، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٤٨٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٨).

قال الحسنُ: ثوابُ مؤمني الجنِّ أن يُجاروا[١] من النّار، ثمَّ يُقالَ لهم: كونوا تراباً، مثلَ البهائمِ[٢].

وقالَ قومٌ: إنَّهم كما يُعاقَبون في الإساءة يُجازَون في الإحسان. وهو مذهبُ مالكٍ وابنِ أبي ليلى[٣].

وقد قالَ الضَّحَّاكُ: الجنُّ يدخلون الجنَّة ويأكلون ويشربون[٤].

والصَّحيحُ: أنَّ هذا ممَّا لا يُقطَعُ فيه بشيء، والعِلمُ عند الله.

***

(٣٣) ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ هذا احتجاجٌ على مُنكري البعثِ؛ أي: اعترفُوا بأنَّ اللهَ خالقُ السَّماواتِ والأرضِ فلم يقدروا على [إنكارِ][٥] أن يحييَ الموتى، والرُّؤيةُ هاهنا بمعنى العلم.

﴿بِقَٰدِرٍ﴾ قالَ أبو عُبيدة: الباءُ زائدةٌ للتَّوكيدِ[٦]، كالباءِ في قولِه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

---

(١) في (أ): (أن لا يُجازَوا)، والتصويب من المصادر الآتية.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الإشراف في منازل الأشراف» (٣٨٧)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ١٤٢) عن ليث بن أبي سليم، وذكره عنه الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٠١).

(٣) انظر: «البسيط» للواحدي (٢٠/ ٢٠٢)، و«تهذيب الأسماء واللغات» للنووي (٣/ ٥٦).

(٤) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٦٩٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ١٤٤).

(٥) زيادة يقتضيها السياق.

(٦) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٢١٣).

وقال الزَّجّاج: الباءُ بسببِ ﴿لـم﴾، والعربُ تدخلُها مع الجحد، تقولُ: ما ظننتُ أنَّ زيداً بقائم، ولا تقولُ: ظننتُ أنَّ زيداً بقائم، وهذا كدخولِ (ما) ودخولِ (إنْ) للتَّوكيدِ، والتَّقديرُ: أليس الله بقادرٍ[1]؟

﴿وَلَمْ يَعْيَ﴾؛ أي: لـم يلحقْه عيٌّ مَّا يقطعُ عن الإتمام.

***

(٣٤) - ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾؛ أي: يُقالُ لهم: أليس هذا بالحقِّ؟ والمعنى: واذكر يومَ يعرضُ.

﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾؛ أي: قالَ الله لهم، أو[2]: قالَ الملكُ لهم: ذوقوا العذابَ بكفرِكم.

***

(٣٥) - ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾؛ أي: اصبر على دعاءِ المشركين إلى اللهِ واقتدِ بالرُّسلِ.

وأولو العزمِ: جميعُ الرُّسلِ، و﴿مِنَ﴾ للتَّبيين، كما يُقالُ: «أكسيةٌ من الخزِّ»[3]؛ أي: اصْبِرْ كما صبرَ الرُّسلُ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٤٤٧)، و«البسيط» للواحدي (٢٠/ ٢٠٣).

(٢) في (أ): «أي»، والصواب المثبت.

(٣) في (أ): «اكتسبه من الجن»، والتصويب من «البسيط» (٢٠/ ٢٠٥).

وقيلَ: أولو العزمِ قومٌ معدودون، وعلى هذا قيل: هم قومٌ؛ نوحٌ وإبراهيمُ وهودٌ ورابعُهم محمَّد[١].

وقيلَ: هم أربعةٌ إبراهيمُ وموسى وداودُ وعيسى.

وقالَ مقاتلٌ: ستَّةٌ؛ نوحٌ صبرَ على أذى قومِه مُدَّة، وإبراهيمُ صبرَ على النّار، وإسحاقُ صبرَ على الذَّبح، ويعقوبُ صبرَ على فقدِ الولدِ وذهابِ البصر، ويوسفُ صبرَ في البئرِ والسِّجن، وأيوبُ صبرَ على الضُّرِّ[٢].

وقيلَ: هم الذين أُمِروا بالقتال[٣].

وعند هؤلاء لم يكن يونسُ من أولي العزم؛ لأنَّه أبقَ من قومِه وضجر، وقالَ الله في صفةِ آدمَ: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

ومن قالَ: كلُّ الأنبياء أولو العزم، يقول: إنَّما نسيَ آدمَ ما أُمرَ به، فلم يكن لعزمِه انقطاع، فليس هذا من العزم المعتبَر في قولِه: ﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل﴾ في ذلك، ولا تعجل في إحلالِ العقابِ بهم؛ فإنَّ العذابَ يأتيهم يومَ القيامةِ، ومفعولُ الاستعجالِ محذوفٌ، وهو العذاب.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾؛ أي: يظنُّون أنَّهم لم يمكثوا في القبرِ ـ وقيلَ: في الدُّنيا والبرزخِ ـ إلا ساعةً من نهارٍ لهولِ ما عاشوا.

﴿بَلَٰغٌ﴾؛ أي: هذا بلاغٌ، كما قالَ في مواضعَ أُخرَ: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ١٥٤) عن أبي العالية، وهكذا ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٨٨)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٠٤). وعندهم: «ثلاثة» بدل كلمة: «قوم».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ١٥١).

(٣) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٨٨) عن السدي.

بِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، وقالَ: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٦].

والبلاغُ يعني: التَّبليغ؛ أي: طولُ لبثِهم كأنَّه تَبلُّغٌ.

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: الخارجون عن طاعةِ الله.

قيلَ: هذه أقوى آيةٍ في الرَّجاء.

* * *

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

تفسيرُ سورةِ محمَّد ﷺ

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١) ـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ أي: جعلَ أعمالَهم في ضلالٍ، فلا ثوابَ لهم على أعمالِ البرِّ مع الكفر.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: نزلَت في المطعِمين ببدرٍ[1].

وهم اثنا عشرَ رجلاً: أبو جهل والحارث ابنا هشام، وعتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعة، وأُبيٌّ وأُميّةُ ابنا خلف، ومنبِّهٌ ونبيهٌ ابنا الحجَّاج، وأبو البختريِّ بنُ هشام، وزَمعةُ بن الأسود، وحكيمُ بن حِزام، والحارث بن عامر بن نوفل[2].

و﴿أَضَلَّ﴾ بمعنى: أبطلَ، وقيلَ: أحبطَ ثوابها، وقيلَ: أضلَّ كيدهم الَّذي كادوا به النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

﴿وَصَدُّوا﴾؛ أي: أعرضوا عنه، أو منعوا النَّاس عنه.

وسبيلُ الله الَّذي دعا إليه: الدِّينُ، ووجهُ الإضافةِ: التَّشريفُ بالذِّكر، كما يُقالُ: بيتُ اللهِ، وشهرُ الله.

***

---

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٩٦) عن الكلبي.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٣).

(٢) - ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يعني: أصحابَ محمَّد ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أفردَ العملَ بالذِّكرِ ليدلَّ على أنَّ الإيمانَ التَّصديقُ بالقلب.

﴿وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾؛ أي: صدَّقوا محمَّداً ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ أي: نسخَ به ما قبلَه ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾؛ أي: ما مضى من سيِّئاتِهم قبلَ الإيمان ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ البالُ: الحالُ، وفي غيرِ هذا الموضعِ: القلبُ، تقولُ: ما خطرَ ببالي؛ أي: قلبي.

قالَ ابنُ عبَّاس: أي: عصمَهم أيَّامَ حياتهم[١]؛ لأنَّهم ما كانُوا أصحابَ مال.

وقيلَ: هو عامٌّ في إصلاحِ حالِ المسلمين في الطَّاعةِ وفي المال لإعطاءِ المغانم.

***

(٣) - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ﴾؛ أي: إضلالُ قومٍ وإصلاحُ بالِ قومٍ سببُه هذا، فالكافرُ اتَّبعَ الباطلَ، والمؤمنُ اتَّبعَ الحقَّ، والباطلُ: الشِّرك، والحقُّ: التَّوحيدُ والإيمان.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ﴾؛ أي: كالذي وصفَ لكم من أحوال النَّاس يفعلُ بالنَّاسِ أبداً، والضَّميرُ في ﴿أَمْثَالَهُمْ﴾ يرجع إلى الذين كفروا والذين آمنوا.

وقيلَ: أرادَ بمَن ذكرَ من الكافرين والمؤمنين الفريقين من أهلِ مكَّةَ والمدينةِ، ثمَّ قالَ: وهكذا يفعلُ الله بالنَّاسِ كلِّهم.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢١٣) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤ ـ ٥) ـ ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ لـمَّا ميَّزَ بين الفريقين أمرَ بجهادِ الكفَّار؛ أي: إذا لَقِيْتُموهم في مواطنِ الجهادِ فاثبتُوا لهم؛ فإنَّ الله يُظفِرُكم عليهم.

﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ قالَ أبو عُبيدةَ: هو كقولِك: يا نفسُ صبراً[1].

وقالَ الزَّجَّاجُ: أي: فاضربوا الرِّقاب ضرباً، ولـمَّا كانَ أكثرُ القتلِ بضربِ العنقِ خصَّه بالذِّكرِ[2].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾؛ أي: أكثرتم القتلَ.

وقيلَ: أي: ذلُّوا وعجَزوا عن الهربِ، ﴿فـ﴾أسِروهم و﴿شُدُّوا الوَثَاق﴾، وقد قالَ الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]، فجعلَ الأسرَ بعد المبالغةِ في القتلِ.

و(الوثاق): اسمٌ من الإيثاق، وقد يكونُ مصدراً، يُقالُ: أوثقَه إيثاقاً ووَثاقاً، وأمَّا (الوِثاق) بالكسرِ فهو اسمُ الشَّيء الَّذي يُوثَقُ به كالرِّباط.

وإنَّما أمرَ بشدِّ الوَثاقِ لئلا يُفلِتوا.

﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ يعني: بعد الأسرِ، والأمرُ إلى اجتهادِ الإمامِ، ولم يذكرِ القتلَ هاهنا اكتفاءً بما ذكرَ من القتلِ والأسرِ في صدر الكلامِ، وقد ثبتَ

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٢١٤).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٦)، و«البسيط» للواحدي (٢٠/ ٢١٥).

مـن النَّبـيِّ ﷺ التَّخييـرُ في الوثنـيِّ بين الأشـياء الأربعـة[١]، وفي الكتابـيِّ فيها وفي أخـذِ الجزيـةِ إذا قبلَها.

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾؛ أي: سيروا بهذه السِّيرة فيهم إلى أن يدخلُوا في الإسلامِ أو تُفنوهم.

قالَ ابنُ جُبيرٍ رحمه الله: أرادَ: حتَّى يخرجَ عيسى[٢].

وقالَ مقاتلٌ: الأوزارُ: الشِّرك؛ أي: حتَّى لا يكون شركٌ[٣]، والهاءُ في قولِه: ﴿أَوْزَارَهَا﴾ ترجعُ إلى الحرب؛ أي: أوزارَ أهلِها، وهم المشركون؛ أي: حتَّى تضعَ حربُكم أوزارَ المشركين بأن يُسْلِموا فلا يبقى دينٌ إلا دينَ الإسلام، فالأوزارُ على هذا بمعنى: الإجرام [والآثام][٤].

وقيلَ: الأوزارُ الأسلحةُ وآلاتُ الحرب.

وقيلَ: ﴿ٱلْحَرْبُ﴾: القومُ المحاربون؛ أي: حتَّى يضعَ المحاربون مع المسلمين السِّلاحَ أو الشِّركَ والآثامَ بالسِّلمِ والإسلامِ[٥].

---

(١) وهي: القَتلُ، والاستِرقاقُ، والفداءُ بأُسارَى المُسلمين، والمَنُّ. انظر تفصيل ذلك في «الأحكام السلطانية» للماوردي (ص: ٨٩).

(٢) رواه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٧/ ٤٦٠)، وذكره النحاس في «معاني القرآن» (٦/ ٤٦٣)، والسمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٩٨).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٤)، وعنه النحاس في «معاني القرآن» (٦/ ٤٦٣)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢١٣)، وما سيأتي منقول منه في شرح قول مقاتل.

(٤) في (أ): «فالأوزارُ على هذا بمعنى: الأوزار؛ أي: بمعنى: الإجرام»، والمثبت وما بين معكوفتين من «البسيط».

(٥) قوله: «أي: حتَّى يضعَ المحاربون مع المسلمين السِّلاحَ أو الشِّركَ والآثامَ بالسِّلمِ والإسلامِ» فيه لف ونشر مرتب؛ أي: حتَّى يضعَ المحاربون مع المسلمين السِّلاحَ بالسلام، أو الشِّركَ والآثامَ بالإسلامِ.

﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: الأمرُ ذلك.

وقيلَ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ منصوبٌ؛ أي: افعلوا ذلك، وهي كلمةٌ يستعملُها الفصيحُ عند الخروجِ من كلامٍ إلى كلام، وهو كما قالَ: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٥٥]؛ أي: هذا حقٌّ وأنا أعرِّفكم أنَّ للطَّاغين كذا.

﴿لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: بغيرِكم.

وقيلَ: لانتصرَ منهم بملَكٍ واحد؛ أي: إنَّه قادرٌ على إهلاكِهم بما شاءَ من غيرِ جهادٍ منكم، ولكنْ أمرَكم بالحربِ ليبلوَ بعضَكم ببعض.

﴿والَّذِينَ قاتَلوا في سبيلِ الله﴾ هذه القراءةُ الفاشية، وقرأ أبو عمرو: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1] يريدُ: قتلى أحُدٍ من المؤمنين[2]، **ولكنَّه بعيد**؛ لقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ والمقتولُ لا يُوصَفُ بهذا[3].

❊ ❊ ❊

---

(١) وقرأ بها أيضاً حفص، والباقون بالأولى. انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٠)، و«التيسير» (ص: ٢٠٠).

(٢) يعني أنها نزلت فيهم لا أنها مخصوصة بهم فإن الآية عامة بلا شك، ونزولها بشهداء أحد رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٩٠ ـ ١٩١) من طريق سعيد عن قتادة.

ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٨٧٣)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٩١) من طريق معمر عن قتادة بلفظ: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ قال: الذين قُتلوا يوم أُحد.

(٣) كذا قال، وفيه نظر فإن القراءة متواترة كما تقدم، والمصنف من أكثر المفسرين دفاعاً عن القراءة المتواترة الثابتة! والأولى توجيه القراءة كما فعل بعض العلماء منهم ابن زنجلة في «حجة القراءات» (ص: ٦٦٦) حيث قال: «وحجتهما [أي: أبو عمرو وحفص] أن هذه الآية مخصوص بها الشهداء المقتولون في سبيل الله الذين قال الله جل وعز فيهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾؛ أي: إلى طريق الجنة ويصلح شأنهم في الآخرة ويدخلهم الجنة».

(٦) - ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾؛ أي: إذا دخلوا الجنَّة يُقالُ لهم: تعرَّفُوا إلى منازِلكم، فهم أعرفُ بمنازلهم من أهلِ الجمعةِ إذا انصرفوا إلى منازلهم[١].

وقيلَ: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾؛ أي: بيَّنها لهم حتَّى عرفوها من غيرِ استدلال.

وقيلَ: هذا تعريفٌ بدليلٍ، فالملكُ الموكَّلُ بعملِ العبدِ يمشي بين يديه ويتبعُه العبدُ، حتَّى يأتيَ العبدُ منزلَه ويُعرِّفُه الملكُ جميعَ ما جُعلَ له في الجنَّة[٢].

وقيلَ: فيه حذفٌ؛ أي: عرَّف طرقَها لهم، فحذفَ المضاف.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾؛ أي: طيَّبَها لهم[٣]. من (العَرْف)، وهي الرَّائحةُ الطَّيِّبة، وطعامٌ مُعرَّف؛ أي: مُطيَّب.

وقيلَ: هذا مِن وضعِ الطَّعامِ بعضِه على بعضٍ من كثرتِه، يُقالُ: خزيرٌ مُعرَّفٌ[٤]؛ أي: بعضُه على بعض، وهو مِن العُرْف المتتابعِ كعُرفِ الفرس.

وقيلَ: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾؛ أي: وفَّقَهم للطَّاعةِ حتَّى استوجبوا الجنَّة.

---

(١) ذكره بهذا اللفظ الواحدي «البسيط» (٢٠/ ٢٢٣) من رواية أبي صالح عن ابن عباس، ويشهد له ما رواه البخاري (٢٤٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم بمسكنه في الجنة أدل بمنزله كان في الدنيا».

(٢) ويرد هذا حديث أبي سعيد الخدري كما قال القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٢٥١)، وانظر التعليق السابق.

(٣) في (أ): «حرير معرف»، والتصويب من «تهذيب اللغة» (٢/ ٢٠٨)، و«البسيط» (٢٠/ ٢٢٥)، ونسباه لأبي العباس عن بعض أهل المعاني، وأبو العباس هو ثعلب. والخزير والخزيرة: اللحم الغاب - البائت - يقطع صغارًا في القدر ثم يطبخ بالماء الكثير. انظر: «اللسان» و«معجم متن اللغة» (مادة خزر).

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٢٥)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١١٧)، من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧) ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾؛ أي: إن تنصروا دينَ اللهِ ينصرْكم على الكفَّارِ، وأضافَ إلى اللهِ تعظيماً لأمرِ الجهاد.

﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾؛ أي: عند القتال. وقيلَ: على الإسلام. وقيلَ: على الصِّراط.

* * *

(٨) ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ ﴾؛ أي: لا أنصرُ الكفَّارَ عليكم، بل أُتعِسُهم وأُذِلُّهم وأُسقِطُهم على وجوههم، والتَّعْسُ: ضدُّ الإعلاء، يُقال: تعَسَه وأتعسَه.

وقيلَ: التَّعْسُ: الهلاكُ، وتَعَسَ؛ أي: هلك، وجوَّزَ قومٌ: تعِس بكسرِ العين.

و﴿تعساً﴾ نصبٌ على الدُّعاء مثل: سَقْياً له ورَعْياً.

﴿وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾؛ أي: هَلكُوا في الدُّنيا والآخرة.

* * *

(٩) ـ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾؛ أي: هذا الإتعاسُ والإضلالُ لأنَّهم كرهوا ما أنزلَ اللهُ من الكتبِ والشَّرائع.

﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾؛ أي: ما لهم من صُورِ الخيراتِ؛ كعمارةِ المسجدِ، وقِرى الضَّيف، وأصنافِ القُرَب، ولا يقبلُ اللهُ العملَ إلا مِن مؤمنٍ.

وقيلَ: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾؛ أي: عبادة الصَّنم.

* * *

(١٠) ـ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بيَّنَ أحوالَ المؤمنِ والكافرِ تنبيهاً على وجوبِ الإيمان، ثمَّ وصلَ هذا بالنَّظر؛ أي: ألم يَسِرْ هؤلاء في أرضِ عادٍ وثمودَ وقومِ لوطٍ وغيرِهم ليعتبروا بهم.

﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: أهلكَهم ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾؛ أي: لهؤلاء أمثالُ تلك العقوباتِ.

والضَّميرُ في قولِه: ﴿أَمْثَالُهَا﴾ يرجعُ إلى ما تضمَّنَه لفظُ ﴿دَمَّرَ اللَّهُ﴾، وإنَّما كانَ التَّدميرُ واقعاً بالعقوبات، ويجوزُ أن ترجعَ الكنايةُ إلى العاقبة؛ أي: أمثالُ تلك العاقبة، يريد بهذا: ما نزلَ بهم ببدر.

وقيلَ: ما ينزلُ بهم غداً.

* * *

(١١) ـ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: ينصرُهم ويثبِّتُ أقدامَهم ويدمِّرُ على الكفَّارِ ويضلُّ أعمالَهم، والمولى: هو الجاعلُ نُصرتَه تلي مَن أرادَها له.

* * *

(١٢) ـ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾؛ أي: هم غداً على

نهايةِ النُّزهة والطِّيب ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾ في الدُّنيا وكأنَّهم أنعامٌ، ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾؛ أي: عاقبتُهم النّار.

* * *

(١٣) ـ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾؛ أي: من أهلِ مكَّةَ ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ فلم يكن لهم ناصرٌ.

وفي الكلامِ إضمارٌ؛ أي: وكم من أهلِ قريةٍ هم أشدُّ قوَّةً من أهلِ قريتِك، وفيه أيضاً إضمارُ (كان)؛ أي: كانُوا أشدَّ قوَّةً فما كانَ لهم ناصرٌ.

وقيلَ: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ الآنَ منَ العذابِ الَّذي هم بصددِه في البرزخِ.

* * *

(١٤) ـ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ الألِفُ ألِفُ التَّقرير.

﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾؛ أي: على بيانٍ ويقينٍ، وهو محمَّدٌ عليه السَّلام.

﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾؛ أي: عبادةُ الأوثان، وهو أبو جهلٍ والكفَّار.

﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾؛ أي: في عبادةِ ما اشتهَوا.

وهذا التَّزيينُ من جهةِ الله خَلقاً، ويجوزُ أن يكونَ من الشَّيطانِ دُعاءً ووسوسةً، ويجوزُ أن يكونَ من الكافرِ؛ أي: زيَّنَ لنفسِه سوءَ عملِه وأصرَّ على الكفر.

* * *

(١٥) ـ ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ لمَّا قالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ وصفَ تلك الجنَّات؛ أي: صفةُ الجنَّةِ المعدَّةِ للمتَّقين ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ تجري ﴿مِّن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾؛ أي: غيرِ مُتغيِّرِ الرَّائحة.

قُرِئَ ﴿أسِنٍ﴾ بالقصرِ وبالمدِّ[1] مثل: حَاذِرٍ وحَذِرٍ، يُقال: أَسَنَ الماءُ يأسُنُ أَسْناً وأُسُوناً فهو آسِنٌ وأَسِنٌ.

﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾؛ أي: كما تتغيَّرُ ألبانُ الدُّنيا إلى الحُموضة.

﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾؛ أي: من خمرةٍ لذيذةِ الطَّعمِ طيِّبةِ الشُّربِ لا يسكرُ بها الشَّاربون، لا كخمرِ الدُّنيا.

﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ العسلُ: ما يسيلُ من لُعابِ النَّحلِ ﴿مُّصَفًّى﴾؛ أي: من الشَّمعِ والأقذاءِ، خلقَه الله كذلك، والعسلُ يُذكَّرُ ويُؤنَّثُ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: ﴿مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾: لم يخرج من بطونِ النَّحلِ[2].

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ﴿مِّن﴾ زيادة للتَّوكيدِ ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾؛ أي: يَغفرُ ذنوبَهم.

---

(١) قرأ ابن كثير بالقصر، وقرأ الباقون بالمد. انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٠)، و«التيسير» (ص: ٢٠٠).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٣٦).

﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ قال الفرَّاءُ: في ضمنِ الكلامِ: أمَن[1] كانَ في هذا النَّعيمِ كمَن هو خالدٌ في النّارِ[2].

وقالَ الزَّجَّاج: أي: أفمَن كانَ على بيِّنةٍ من ربِّه وأُعطِيَ هذه الأشياءَ كمَن زُيِّنَ له سوءُ عمله، وهو خالدٌ في النَّارِ[3].

فقولُه: ﴿كَمَنْ﴾ بدلٌ من قولِه: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾[4].

وقيلَ: أفمَن كانَ على بيِّنةٍ من ربِّه كمَن زُيِّنَ له سوءُ عملِه كمَن هو خالدٌ في النّارِ، كما تقولُ: أساءَ إليَّ فلانٌ[5] منعَ حقِّي ظلمَني، فتحذفُ واوَ العطف، وكذلك تقولُ: فلانٌ كأنَّه شمسٌ كأنَّه قمرٌ.

﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا﴾؛ أي: ويُسقَون في النَّارِ ﴿مَآءً حَمِيمًا﴾؛ أي: في نهايةِ الحرارة ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ والأمعاءُ: جمعُ مِعًى، والتَّثنيةُ مِعَيان، وهو جميعُ ما في البطنِ[6] من الحَوَايا.

***

---

(١) في (أ): (أم من)، والصواب المثبت.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٦٠)، و«البسيط» (٢٠/ ٢٣٦).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٠)، و«البسيط» (٢٠/ ٢٣٦).

(٤) انظر: «البسيط» (٢٠/ ٢٣٧) وهذا كلام الواحدي، ثم عقبه بقوله: واختار صاحب «النظم» قول الفراء، وقال: الكاف في قوله: ﴿كَمَنْ﴾ تدل على مبتدأ قبله، ولم يجر له ذكر، وإنما جرى ذكر الجنة وصفتها، فكأنه -عز وجل- قال: أفمن هو في الجنة كمن هو خالد في النار، فدل الجواب على الابتداء.

(٥) بعدها في (أ): «حقًّا بي»، ولم يظهر لي معناها هنا.

(٦) تحرفت في (أ) إلى: «النظر».

(١٦) - ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾؛ أي: من هؤلاء الذين يَتمتَّعون ويأكلون كما تأكلُ الأنعامُ وزُيِّنَ لهم سوءُ عملِهم قومٌ يستمعُ إليك منهم السَّامع، ثمَّ إذا فارقَ مجلسَك قالَ: ماذا قالَ محمَّد؟

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: نزلَت فـي المنافقين؛ كانُوا يستمعون الخطبةَ يومَ الجمعةِ، وكانَ عليه السَّلامُ يُعرِّضُ بالمنافقين ويَعيبُهم، فإذا خرجوا قالوا لأولي العلمِ منَ الصَّحابةِ: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾[1]؟

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: كنتُ ممَّن سُئِلَ[2]؛ أي: كنتُ من الذين أوتوا العلمَ، وقد خرجَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ من الدُّنيا وابنُ عبَّاس ابنُ ثلاثَ عشرةَ سنة.

وفي روايةٍ عن ابنِ عبَّاس: أنَّه يريد عبدَ الله بنَ مسعود[3].

﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾؛ أي: السَّاعةَ، وهو من الائتنافِ وهو الابتداءُ، وهو من الأنفِ، وهو أوَّلُ كلِّ شيء، يُقالُ: هذا أنفُ البَرْدِ، وأنفُ المطر، وأنفُ العدو، ومنه: أنفُ الجبلِ، وأنفُ الإنسان.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٣٨) عن ابن عباس والمفسرين. وروى الضياء في «المختارة» (١٢/ ١١٠) عن ابن عباس قوله: «كان المنافقون يجلسون عند رسول الله ﷺ ثم يخرجون فيقولون: ماذا قال آنفاً، ليس معهم قلوب»، وهكذا ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٤٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٠٤)، والحاكم في «المستدرك» (٣٧٠٥).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٣٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية عطاء، ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٣/ ١٤٤) من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنه، ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٢٢٣٩) عن عبد الله بن بريدة رضي الله عنه.

وفي روايةٍ عن ابنِ كثيرٍ: ﴿أَنِفاً﴾ بالقصرِ[(١)]، ومنه: حَاذِرٌ وحَذِرٌ، وفاكِهٌ[(٢)] وفَكِهٌ.

ثمَّ قيل: إنَّما سألوا هذا استهزاءً منهم وإيهاماً أنَّهم لـم يستمعوا إلى كلامِه ولم يلتفتوا إلى ما قال.

وقيلَ: إنَّهم سمعوا ولم يفقهوا فلذلك سألوا؛ أي: ليس معهم قلوبٌ يفقهون بها، ولهذا قالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

ويجوزُ أن تكونَ الآيةُ في المشركين أيضاً.

***

(١٧) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى﴾ وأمَّا المؤمنون فيستمعون إلى القرآنِ فيزيدُهم هدًى؛ لأنَّ يقينَهم يتضاعفُ.

﴿زَادَهُمْ﴾؛ أي: زادهم اللهُ هدًى؛ لأنَّه قالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

وقيلَ: زادهم الاجتماعُ بـك والاستماعُ إليك هدًى؛ لقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾.

وقيلَ: زادهم إعراضُ المنافقين واستهزاؤُهم هدى.

---

(١) وهي رواية البزي بخلف عنه. انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٠)، و«التيسير» (ص: ٢٠٠)، وقال ابن الجزري في «النشر» (٢/ ٣٧٤): «واختلف عن البزي في (آنفًا)، فروى الداني من قراءته على أبي الفتح عن السامري عن أصحابه عن أبي ربيعة بقصر الهمزة، وقد انفرد بذلك أبو الفتح فكل أصحاب السامري لم يذكروا القصر عن البزي... وعلى تقدير أن يكونوا رووا القصر فلم يكونوا من طرق التيسير، فلا وجه لإدخال هذا الوجه في طرق الشاطبية، والتيسير».

(٢) في (أ): «ونادر»، والصواب المثبت.

وقيلَ: زادهم ما قالَ الرَّسولُ آنفاً هدى.

﴿وَءَاتَنٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾؛ أي: ألهمهم اللهُ تقواهم، وقيلَ: آتاهم ثوابَ تقواهم.

* * *

(١٨) - ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ هذا وعيدٌ للكفَّارِ؛ أي: ما ينتظرون إلا السَّاعةَ الَّتي [لا](١) يكون بعدها مُهلةٌ للتَّدبُّر.

﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾؛ أي: علاماتها. وكانوا قد قرؤوا في كتبِهم أنَّ محمَّداً آخرُ الأنبياءِ فلم يبقَ للانتظارِ معنًى، وسُمِّيَ الشُّرطُ شُرَطاً لأنَّهم جعلوا لأنفسِهم علامةً يُعرفون بها.

وقيلَ: أشراطُ السَّاعةِ: أسبابُها الَّتي هي دونَ مُعظمِها، ومنه يُقالُ للدُّونِ من النَّاس: الشَّرَطُ، وفي الخبرِ: «بُعثتُ والسَّاعةَ كهاتين»(٢)، ويُروى: «كفرَسَي رِهانٍ»(٣).

وقيلَ: يعني بعلاماتِ السَّاعةِ: انشقاقَ القمرِ والدُّخانَ.

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾؛ أي: من أينَ لهم التَّوبةُ والتَّذكُّرُ إذا جاءتهم السَّاعةُ؟ ومن أين ينفعُهم الإيمانُ؟

* * *

---

(١) زيادة يقتضيها السياق، ودليلها ما بعدها: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾.

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١)، من حديث أنس رضي الله عنه، ورواه البخاري (٦٥٠٣)، ومسلم (٢٩٥٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٨٠٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٢٣٧)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(١٩) ـ ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ كانَ عليه السَّلامُ عالماً باللهِ، فالمعنى: اثبُتْ على الإيمانِ، ووجهُ النَّظمِ: عرفتَ حالَ الكافرين والمؤمنين، فاثبت على ما أَحُثُّ عليه من التَّوحيدِ والإخلاصِ والحذرِ عمَّا يُحتاجُ معه إلى استغفارٍ.

وقيلَ: الخطابُ له والمرادُ الأمَّة.

وقيلَ: كانَ عليه السَّلامُ يَضيقُ صدرُه من طعنِ الكفَّارِ والمنافقين، فنزلَت الآيَةُ؛ أي: فاعلم أنَّه لا كاشفَ يكشِفُ ما بك إلا الله، فلا تعلِّقْ قلبَك بأحدٍ سواه.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ وقد تقدَّمَ الكلامُ في جريانِ الصَّغائرِ على الأنبياء.

وقيلَ: أُمِرَ بالاستغفارِ لتقتديَ به الأُمَّة.

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ أي: لذنوبِهم، وهذا أمرٌ بالشَّفاعةِ.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾؛ أي: متصرَّفكم في أعمالِكم ومصيرَكم في الآخرةِ إلى الجنَّةِ أو النّار.

وقيلَ: مسيرَكم بالنَّهارِ ومأواكم باللَّيلِ.

وقيلَ: مُتقلَّبكم من الأصلابِ إلى الأرحامِ، ومقامَكم في الأرض.

وقيلَ: مُتقلَّبَكم في الدُّنيا ومقامَكم في القبور؛ أي: لا يخفَى عليه شيءٌ.

* * *

(٢٠) - ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾؛ أي: يتمنَّى المؤمنون نزولَ سورةٍ يحرِّضُ الرَّبُّ فيها على الجهادِ، ويذكرُ ثوابَ القتالِ، فيكونُ سؤالُ السُّورةِ من المؤمنين، ثمَّ إذا نزلَت أظهرَ المنافقون تكرُّهاً للجهادِ.

ويجوزُ أن يكونَ استعجالُ السُّورةِ ممَّا كانَ يشتركُ فيه المؤمنون والمنافقون، غيرَ أنَّ الكلامَ كانَ من المؤمنين، والمنافقون تبعٌ لهم في إرادةِ السُّورة.

وقيلَ: كانَ المؤمنون إذا أبطأ عليهم الوحيُ اشتاقوا إلى نزولِه، فقالوا: هلَّا نزلَت سورةٌ على محمَّد.

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ قيل: هي كلُّ سورةٍ ذُكرَ القتالُ فيها.

وقيلَ: هي الَّتي لـم تُنسخ.

وقيلَ: سورةٌ مُحدَثة؛ لأنَّها حين تنزلُ تكونُ محكمةً إلى أن يُنزلَ ويُنسَخَ منها شيء. وفي قراءةِ عبدِ الله: (فإذا نزلَت سورةٌ مُحدَثةٌ)[1].

﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾؛ أي: فُرِضَ فيها الجهادُ ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: نفاقٌ ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: يَشْخَصون بأبصارِهم نحوَك نظراً شديداً بتحديدٍ وتحديقٍ كمَن يَشْخَصُ بصرُه عندَ الموتِ، وذلك لجبنِهم عن القتالِ، ولميلِهم في السِّرِّ إلى الكفَّار.

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ هذا وعيدٌ لهم.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٦٢)، و«تأويل مشكل القرآن» (ص: ٢٣٨).

قالَ الأصمعيُّ رحمه الله: «أولى لك»؛ أي: وَلِيَكَ وقارَبك ما تكرهُ[1].

وقيلَ: هو كقولِ الرَّجلِ لصاحبِه: يا محروم أيُّ شيءٍ فاتَك.

وقال الجُرجانيُّ: مأخوذٌ من (الويل)، وللويلِ[2] تصريفٌ قد ماتَ، فهو «أفعلُ» من (الويل)، ولكن فيه قلبٌ، وهو أنَّ عينَ الفعل وقعَ موضعَ اللام.

وقد تمَّ الكلامُ على قولِه: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ ثمَّ قال: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾؛ أي: طاعةٌ وقولٌ معروفٌ أمثلُ وأحسنُ، أو: أمرٌ بإطاعةٍ وقولٌ معروفٌ.

وقيلَ: تمَّ الكلامُ عند قوله: ﴿فَأَوْلَىٰ﴾ وهو تهديدٌ، ثمَّ ابتدأ ﴿لَهُمْ طَاعَةٌ﴾؛ أي: للمؤمنين طاعةٌ وقولٌ معروفٌ باللِّسان.

وقيلَ: أي: للمنافقينَ طاعةٌ وقولٌ معروفٌ للهِ ولرسولِه.

وقيلَ: الآيةُ الثانيةُ متَّصلةٌ بالأولى؛ أي: الطَّاعةُ أولى وأليقُ بهم وأحقُّ لهم من تركِ امتثالِ أمرِ الله.

﴿نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾؛ أي: من أسبابِ الموتِ، وقيلَ: أي: من خوفِ الموت.

* * *

(٢١) ـ ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ مضى معناه.

---

(١) ذكره الأزهري في «تهذيب اللغة» (١٥/ ٣٢٢)، والخطابي في «غريب الحديث» (٣/ ٣٢)، ونقلا عن ثعلب قوله: «لم يقل أحد في (أولى) أحسن من قول الأصمعي».

(٢) في (أ): «والويل»، والمثبت من «البسيط» (٢٠/ ٢٥٠)، وفيه: «وللويل تصريف قد درج ولم يبق منه إلا الويل فقط».

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: جدَّ القتالُ، أو: وجبَ فرضُ القتال.

ثمَّ؛ قيلَ: الأمرُ لا يعزِمُ بل يُعزَمُ عليه، والعزمُ للإنسانِ لا للأمر.

وقيل: ﴿عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: انعقدَ الأمرُ على ما يُعمَل عليه، يُقالُ: وقعَت عزيمةُ فلان على كذا.

يعني: إذا عزمَ الأمرُ نَكَلوا، فلهذا قالَ: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: في إيمانِهم وثباتِهم ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من المعصية والكراهية.

* * *

(٢٢) - ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: فلعلَّكم إن تولَّيتم أن تُفسِدوا في الأرضِ ﴿وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾؛ لأنَّ الكفرَ يُسهِّلُ المعاصيَ، وأشارَ بقطعِ الرَّحمِ إلى ما كانَ بينهم وبينَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ والمسلمين من القرابةِ بتكذيبِهم النَّبيَّ عليه السَّلام؛ لأنَّ ذلك يوجبُ القتال.

تقولُ: عَسَيتُ أن أفعلَ كذا؛ أي: عسى أن أفعلَه.

وقيلَ: أشار بقطعِ الأرحام إلى وأدِ البناتِ.

وقالَ الكلبيُّ: أي: إن تولَّيتم أمرَ هذه الأُمَّة[1].

ورُويَ أنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قرأ: «إن وُلِّيتم»[2]، وعلى هذا قيل:

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٣٠١)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٥٣).

(٢) رواه حفص الدوري في «جزء قراءات النبي ﷺ» (١٠٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٠٠٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ١٩٧)، وفي سنده نفيع أبو داود متروك. انظر: «الكامل» لابن عدي (٨/ ٣٢٨)، و«الكمال» (٩/ ١٥٠)، وقال العقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٣٠٦): «ممن يغلو في الرفض».

المـرادُ بالخطـابِ بنـو أُميَّـة[١]، أعني: مَـن أضمرَ منهـم نفاقاً.

وقـرأ نافعٌ ﴿عسِيتم﴾ بكسرِ السِّين[٢]، وقالَ الزَّجَّاجُ: لو جازَ هذا لجازَ[٣] (عَسِيَ) بالكسرِ[٤].

***

(٢٣) ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾؛ أي: طردَهم عن رحمتِه ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾؛ أي: قلوبَهم.

وقالَ: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ ﴾ ثمَّ قالَ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾، فرجعَ من الخطابِ إلى الغيبةِ على عادةِ العربِ في ذلك.

---

(١) قال ابن عاشور في «التحرير والتنوير» (٢٦/ ١١٢): «ومنهم من جعلها ـ أي: الآية ـ فيما يحدث بين بني أمية وبني هاشم على عادة أهل التشيع والأهواء من تحميل كتاب الله ما لا يتحمله، ومِن قصرِ عموماته على بعض ما يراد منها»، انتهى.

قلت: وقد تقدم في التعليق السابق أن نفيعاً أبا داود كان ممن يغلو في الرفض، والكلبي أشد منه، فقد قال عنه ابن حبان: كان سبئيًّا من أولئك الذين يقولون: إن عليًّا لم يمت، وإنه راجع إلى الدنيا ويملؤها عدلاً كما ملئت جوراً، وإن رأوا سحابة قالوا: أمير المؤمنين فيها.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ١٨٦)، و«التيسير» (ص: ٨١).

(٣) في (أ): (خاب هذا لخاب)، والتصويب من معاني القرآن (٥/ ١٣).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٣)، وفي «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٦٢): «وقرأها نافع المدني: (فهل عسيتم) بكسر السين، ولو كانت كذلك لقال: عسي في موضع عسى، ولعلها لغة نادرة، وربما اجترأت العرب على تغيير بعض اللغة إذا كان الفعل لا يناله (قد). قالوا: لستم يريدون لستم، ثم يقولون: ليس وليسوا سواء، لأنه فعل لا يتصرف ليس له يفعل وكذلك عسى ليس له يفعل فلعله اجترى عليه كما اجترى على لستم».

(٢٤) ـ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ أي: ليعلمُوا ما أعدَّ اللهُ للذين لم يتولَّوا عن الإسلامِ ولم يقطعُوا الأرحام.

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ أصلُ القفلِ: اليبسُ والصَّلابةُ، ويُقال لـمَا يبِسَ من الشَّجرِ: القَفْل، وأقفلَه الصَّومُ؛ أي: يبَّسَه، والأقفالُ هاهنا: إشارةٌ إلى إرتاجِ القلبِ وخلوِّه عن الإيمان؛ أي: لا يدخلُ قلوبَهم الإيمانُ ولا يخرجُ منها الكفر؛ لأنَّ اللهَ تعالى طبعَ على قلوبهم، وقالَ: ﴿قُلُوبٍ﴾ لأنَّه لو قالَ: قلوبهم، لـم يدخل قلبُ غيرِهم في هذه الجملة، والمرادُ: أم على قلوبِ هؤلاء وقلوبِ مَن كانُوا بهذه الصِّفة.

* * *

(٢٥) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾: الحقُّ[1]، وَصَفَ المنافقين؛ أي: أعرضوا عن الطَّاعةِ في قتالِ المشركين بعد ما تبيَّنَ لهم الهدى بنزولِ القرآنِ.

وقيلَ: أرادَ اليهودَ؛ فإنَّهم كانُوا عرفوا صفةَ النَّبيِّ ﷺ في كتابِهم فآمنوا به، فلمَّا دعاهم إلى دينِه كفروا.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾؛ أي: زيَّنَ لهم القبيحَ ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾: مدَّ لهم في الأملِ؛ كقوله: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ [الأعراف: ٢٠٢].

وقيلَ: أي: وأملى الله لهم؛ أي: أمهلَ لهم.

---

(١) في (أ): (الحق الهدى)، والصواب المثبت.

وقرأ أبو عمرٍو: ﴿وأُمْلِيَ لهم﴾ على لفظِ ما لـم يُسمَّ فاعلُه[١]، ثمَّ؛ يجوزُ إضافتُه إلى اللهِ بمعنى: الإمهال، وإلى الشَّيطانِ بمعنى: التَّغريرِ والوسوسةِ.

***

(٢٦) ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾؛ أي: ذلك الإملاءُ لهم حتَّى يتمادَوا في الكفرِ جزاءٌ لهم على صنيعِهم، وهو أنَّ هؤلاء المنافقين واليهودَ قالوا للمشركين الذين كرهُوا ما أنزلَ اللهُ: سنطيعُكم في تكذيبِ محمَّدٍ وتوهينِ أمرِه في السِّرِّ، وهم إنَّما قالوا ذلك سرّاً فأخبرَ الله نبيَّه.

﴿واللهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُم﴾ قُرِئَ بالفتحِ وهو جمع السِّرِّ، وقُرِئَ: ﴿إِسْرَارَهُمْ﴾ بالكسرِ على المصدر[٢].

***

(٢٧) ـ ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ هذا تخويفٌ لهم؛ أي: إن تأخَّرَ العذابُ فإلى انقضاءِ العمرِ، ثمَّ تتوفَّاهم الملائكةُ ضاربين وجوهَهم وأدبارَهم؛ أي: فكيفَ يكونُ حالُهم في هذا الوقتِ؟

***

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٠)، و«التيسير» (ص: ٢٠١).

(٢) قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وعاصمٌ في رواية حفصٍ، والباقون بالأولى. انظر: «السبعة» (ص: ٦٠١)، و«التيسير» (ص: ٢٠١).

(٢٨) - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾؛ أي: إنَّما استحَقُّوا العقوبةَ في حالِ قبضِ الأرواحِ لاتِّباعِهم ما نهى اللهُ عنه وإضمارِهم الكفرَ.

وإن حُمِلت على اليهودِ فهو إشارةٌ إلى ما كتموا من أمرِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ.

﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾؛ أي: ما فيه رضاه وهو الإيمانُ، وإذا كرهوا سببَ الرِّضوانِ، فقد كرهوا الرِّضوانَ.

﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ أي: ما عملوا من صدقةٍ وصلاةٍ وصلةِ رحمٍ؛ لأنَّها في غيرِ إيمانٍ، والإحباطُ: إذهابُ منفعةِ الشَّيءِ، والحَبَطُ: انتفاخُ الجوفِ من النَّباتِ المضرِّ.

* * *

(٢٩) - ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: أيحسبُ المنافقون بسببِ إمهالِ الله إيَّاهم أنَّ ذلك لعجزِه عن كشفِ أسرارِهم.

والضِّغنُ والضَّغينةُ: الحقدُ، وجمعُ الضِّغن: أضغانٌ، وجمعُ الضَّغينةِ: ضغائنُ، يُقالُ: ضَغِنَ يَضغَنُ ضَغَناً فهو ضَغِنٌ، وهي ضَغِنةٌ، وأَضْغَنَ عليه ضِغناً؛ أي: أضمرَه.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾؛ أي: أن لا تطَّلعَ على ما في قلوبِهم[1].

* * *

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٦٠)، وروى الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٢٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الآية: «هم أهل النفاق»، وروى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٩٩) عنه أنه قال: «أعمالهم خبثهم، والحسد الذي في قلوبهم».

(٣٠) - ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾؛ أي: لأَعْلَمْناكَهُم؛ كقولِه: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]؛ أي: بما أعلمَكَ الله.

﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾؛ أي: فعرفتَهم، واللامُ تأكيدٌ، والسِّيما: العَلامة.

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾؛ أي: في مخارجِ ألفاظِهم فيما يخاطبونكَ به، واللَّحنُ: ما عُدِلَ به عن مُوجَبِ اللَّفظ، وأصلُه: الميلُ عن الشَّيء، يُقالُ: لحنَ فلانٌ؛ أي: أخذَ في شيءٍ فعدلَ إلى غيرِه تَعمِيةً على السَّامعِ، كقولِك: والله ما رأيتُه؛ أي: ما أصبتُ رِئَتَه.

وكانَ المنافقون يُخاطبونَ النَّبيَّ عليه السَّلامُ بكلامٍ تَواضَعُوه فيما بينهم، والنَّبيُّ عليه السَّلامُ يسمعُ ذلك ويأخذُ بالظَّاهرِ المعتادِ، فنبَّهَه الله عليه، فكانَ بعدَ هذا يعرفُ المنافقين إذا سمعَ كلامَهم.

قال أنسٌ: فلم يَخْفَ منافقٌ بعد هذه الآيةِ على رسولِ اللهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، عرَّفَه الله ذلك بوحيٍ، أو علامةٍ عرَفَها بتعريفِ الله إيَّاه[١].

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾؛ أي: لا تخفَى عليه.

* * *

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٢٠٥)، والنسفي في «التيسير في التفسير» عند هذه الآية، من غير إسناد. قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٢٩٨): غريب، وهو في الثعلبي هكذا. وقال ابن حجر في «الكافي الشاف»: ذكره الثعلبي بغير سند، ولم أجده.

(٣١) - ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾؛ أي: بتعبُّدِكم بالشَّرائعِ وإن علمنا عواقبَ الأمورِ، وسرُّ هذا الابتلاءِ: إظهارُ ما علمَه الرَّبُّ من سرِّهم.

وقيلَ: لنعاملنَّكم معاملةَ المُختبِر.

﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ﴾ في الدِّين ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ عليه.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾؛ أي: حتَّى نميِّزَ[(١)].

وقالَ مقاتلٌ: أي: حتَّى نعلمَ الوجودَ بعد أن كنَّا نعلمُ أنَّه سيوجدُ[(٢)].

وقرأ عاصمٌ: ﴿وليبلونَّكم﴾ بالياء[(٣)].

***

(٣٢) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يرجعُ إلى المنافقين أو إلى اليهود ﴿وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾؛ أي: عادَوه.

﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ لأنَّه غنيٌّ لا حاجةَ به إلى أحدٍ ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ أي: جميعَ ما هم فيه، وقيلَ: ثوابَ أعمالِهم. وقيلَ: كيدَهم للمسلمين.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٦٧).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٠)، وفيه: «حتى نعلم المجاهدين منكم يعني كي نرى من يجاهد منكم ومن يصبر من الصابرين على أمر الله».

(٣) هي رواية أبي بكر عن عاصم وكذا ﴿يَعْلَمَ﴾ و﴿يَبْلُوَ﴾، ثلاثتها بالياء، والباقون بالنون. انظر: «السبعة» (ص: ٦٠١)، و«التيسير» (ص: ٢٠١).

(٣٣ ـ ٣٤) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ لمَّا بيَّنَ حالَ الكفَّارِ أمرَ المؤمنين بلزومِ الطَّاعة ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾؛ أي: بالشَّكِّ والنِّفاق.

وقيلَ: بالرِّياءِ والسُّمعةِ.

وقيلَ: بالمنِّ، فهو خطابٌ لمَن كانَ يمنُّ على النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بإسلامِه.

وقيلَ: بالمعاصي والكبائر، قالَه الحسنُ[1]، وهذا يشيرُ إلى أنَّ الكبائرَ تُحبِطُ الطَّاعاتِ، والمعاصيَ تُخرِجُ عن الإيمان.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي: الاعتبارُ بالوفاةِ على الكفرِ في الخلودِ في النّار.

* * *

(٣٥) ـ ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾؛ أي: إن قُتِلتُم في سبيلِ اللهِ فلكم الجنَّةُ وأنتم شهداءُ، وإن قاتلتم الكفَّارَ فلكم النَّصرُ والظَّفرُ في الدُّنيا والثَّوابُ في العُقبى، فليس من حقِّكم أن تُظهروا الضَّعفَ من أنفسِكم.

﴿وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾؛ أي: ولا تدعوا إلى السّلمِ؛ بفتحِ السِّينِ وكسرِها[2]، وهما بمعنًى؛ أي: أديموا القتالَ حتَّى يُسلِموا.

---

(١) في (أ): «وقال الحسين»، والتصويب من «البسيط» (٢٠/ ٢٦٩)، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٣٠٦) عن الحسن بلفظ: «لا تبطلوا حسناتكم بالمعاصي».

(٢) قرأ أبو بكر وحمزة بكسر السين، والباقون بفتح السين. انظر: «السبعة» (ص: ٦٠١)، و«التيسير» (ص: ٢٠١).

﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾؛ أي: وأنتم العالونَ وإن غلبوكم في الظَّاهرِ في بعضِ الأحوال.

وقيلَ: وأنتم الأعلونَ بالحُجَّة.

﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾؛ أي: على عدوِّكم، وقيلَ: معكم بالنَّصر.

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾؛ أي: لن يُنقصَكم، من وَتَرَه يَتِرُه وَتراً ووِتراً وتِرَةً.

وفي الخبرِ: «مَن فاتَه العصرُ فكأنَّما وُتِرَ أهلَه ومالَه»[1]؛ أي: نُقِصَ.

***

(٣٦) - ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ هذا ترغيبٌ في الجهادِ حتَّى لا يخافُوا فواتَ الدُّنيا وذهابَ المال.

﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟﴾؛ أي: تُصدِّقوا ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾؛ أي: الشِّركَ والمعاصي ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾؛ أي: جزاءَ أعمالِكم في الآخرةِ ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾؛ أي: لا يأمرْكم بإخراجِ جميعِ المال، بل أمرَ بإخراجِ البعض.

وقيلَ: لا يسألْكم لنفسِه أو لحاجةٍ منه إليها، إنَّما يأمرُكم بالإنفاقِ في سبيلِه ويرجعُ ثوابُه إليكم.

***

(٣٧) - ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟﴾؛ أي: إن أمرَكم بإخراجِ الكلِّ

---

(١) رواه البخاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أو سألَكم الإخراجَ لنفسِه من غيرِ أن يثيبَكم لبخلتُم، والإحفاءُ: الإلحاحُ في المسألةِ والإلحافُ.

﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾؛ أي: يُظهِرْ بُغضَكم وعداوتَكم للهِ ورسولِه.

وقيلَ: ﴿تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ﴾ البخلُ ﴿أَضْغَانَكُمْ﴾.

* * *

(٣٨) ـ ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾.

قولُه تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾؛ أي: قد دعوتُكم لإخراجِ البعضِ في سبيلِ اللهِ فبخلَ بعضُكم، فلو دعوتُ إلى إنفاقِ الكلِّ والإنفاقِ لنفسي من غيرِ ثوابٍ، فأولى أن تَبخلوا ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾؛ أي: يفوتُه الثَّوابُ، فكأنَّما بخلَ على نفسِه بذلك الثَّوابِ.

﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾؛ أي: سألَكم لا لحاجةٍ إلى مالِكم، بل ﴿أَنْتُمُ الفُقَرَاءُ﴾ بحاجةٍ إلى الإنفاقِ لتنتفعُوا في الآخرةِ.

وقيلَ: الضَّميرُ في قولِه: ﴿لا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ راجعٌ إلى الضَّمير؛ أي: إلى الرَّسولِ؛ أي: ليس يطلبُ ما يطلبُ لنفسِه.

وقوله: ﴿عَن نَّفْسِهِ﴾؛ أي: عن بُخلِ نفسِه، وقيلَ: أي: على نفسِه.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾؛ أي: يُهلكْكُم ويأتِ بقومٍ آخرين بدلاً عنكم.

﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ بل يكونونَ مُطيعينَ مؤمنين.

وسُئِلَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ عن الَّذي يُستبدَلُ بهم إن تولَّوا، فضربَ على منكبِ سلمانَ فقالَ: «هذا وقومُه»(١).

وقال الحسنُ: هم العجمُ(٢).

وقالَ عكرمةُ: هم فارس(٣).

والله تعالى أعلمُ بالصَّوابِ

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٦٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٧١٢٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣٧٠٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الترمذي: هذا حديث غريب في إسناده مقال. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. وقال الجوزقاني: حديث صحيح، ورجاله ثقات.
وروى نحوه البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، لكن في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣].

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٢١٤)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٧٥)، وأبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» (١٣/ ٤٣٤).

(٣) انظر المصادر السابقة.

سُورَةُ الفَتح

تفسيرُ سورةِ الفتح

بسمِ اللّه الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١) ـ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قيل: نزلَت في صُلحِ الحُدَيبية، وذلك أنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ خرجَ في ذي القعدةِ من سنةِ ستٍّ من الهجرةِ يريدُ العمرةَ، وساقَ سبعين بدنةً للهدي، وساقَ أصحابُه أيضاً الهديَ، وكانَ استنفرَ من العربِ ومَن حولَه من أهلِ البوادي من الأعرابِ ليخرجُوا معه، وأبطَأَ عليه كثيرٌ منهم، وخرجَ بمَن معه من المهاجرين والأنصارِ ومَن لحقَ به من العربِ، وأحرمَ بالعمرةِ ليَعلمَ النَّاسُ أنَّه ما خرجَ لحربٍ، بل خرجَ زائراً للبيتِ، فلقيه بِشرُ بنُ سفيانَ الكعبيُّ بعسفانَ فقالَ: يا رسولَ اللهِ، هذه قريشٌ قد سمعَت بمسيرِك فخرجوا معهم العُوذُ المطافيلُ، قد لبسُوا جلودَ النُّمورِ، وقد نزلوا بذي طُوى يُعاهدون اللهَ لا تدخلُها عليهم أبداً، وهذا خالدُ بنُ الوليدِ في خيلِهم قدَّمُوها إلى كُراعِ الغَميمِ. فقالَ: «يا ويحَ قريشٍ، لقد أكلَتْهم الحربُ، ماذا عليهم لو خلَّوا بيني وبينَ سائرِ العربِ، فإن هم أصابوني كانَ ذلك ما أرادُوا وإن أظهرني اللهُ عليهم دخلُوا في الإسلامِ وافِرين، وإن لم يفعلوا قاتَلُوا وبهم قوَّةٌ، فما تظنُّ قريشٌ؟ فوالله لأجاهدنَّهم على الَّذي بعثني اللهُ به حتَّى يظهرَه الله»، ثم قالَ: «ما من رجلٍ يخرجُ بنا في طريقٍ غيرِ طريقِهم الَّتي [هم] فيها؟» فسلكَ بهم رجلٌ من أسلمَ طريقاً وعراً أخرجَهم إلى الحُدَيبية من أسفلِ مكَّةَ، وخرجَ رسولُ اللهِ ﷺ يسيرُ فبركَت به ناقتُه، فقالَ النَّاس: خَلأَت ـ أي: حَرَنَتْ وبركت من

غيرِ علَّة، يُقال: خَلَأتِ الناقةُ خَلْئاً بالخاء ـ فقالَ عليه السَّلامُ: «ما خلَأت، ولا هوَ لها بخُلُقٍ، ولكن حبسَها حابسُ الفيلِ عن مكَّةَ، لا تَدْعوني قريشٌ اليومَ إلى خطَّةٍ يسألونني فيها صلةَ الرَّحمِ إلا أعطيتُهم إيَّاها»، ثمَّ قالَ للنَّاسِ: «انزِلوا»، فقيلَ: ما بالوادي ماءٌ ينزلُ النَّاسُ عليه. فأخرجَ سهماً من كنانتِه فأعطاه رجلاً من أصحابِه، فنزلَ في قَليبٍ من تلك القُلُبِ فغرزَه في جوفِه فجاشَ بالرَّواءِ حتَّى ضربَ النَّاسُ عليه بعطنٍ.

فلمَّا اطمأنَّ رسولُ اللهِ ﷺ أتاه بُدَيلُ بنُ وَرْقاءَ في رجالٍ من خُزاعةَ، فسألوه: ما الَّذي جاءَ به؟ فأخبرَهم أنَّه لـم يأتِ لحربٍ، وإنَّما جاءَ زائراً لهذا البيتِ، فجاؤوا إلى قريش، وقالوا: إنَّكم تعجَلون على محمَّد، إنَّ محمَّداً لـم يأتِ لقتالٍ، بل جاءَ زائراً لهذا البيت. فقالوا: واللهِ لا يدخلُ علينا عَنوةً أبداً، ولا تَحدَّثُ العربُ بذلك. فبعثوا إليه مكرَزَ[١] بنَ حفصٍ فقالَ رسول اللهِ ﷺ: «هذا رجلٌ فاجرٌ» فلم يكلِّمه[٢]، فبعثوا إليه بفلانِ[٣] بنِ علقمةَ، وهو سيِّدُ الأحابيش، فقالَ عليه السَّلامُ: «هذا من قومٍ

---

(١) في (أ) «بكر»، والصواب المثبت. انظر التعليق الآتي.

(٢) كذا ذكر المصنف، والذي في رواية البخاري (٢٧٣١) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم: «فقام رجلٌ منهم يقالُ له مِكْرَزُ بن حفص، فقال: دعوني آتيهِ، فقالوا: ائتِهِ، فلما أَشْرف عليهم، قال النبيُّ ﷺ: «هذا مِكرزٌ، وهو رجلٌ فاجرٌ»، فجعل يكلِّم النبيَّ ﷺ، فبينما هو يُكلِّمُه إذ جاء سهيل بن عَمرٍو.

وفي رواية في «مسند أحمد» (١٨٩١٠) بسند حسن: «بعثوا إليه مِكْرَزَ بنَ حَفْص بن الأَخْيَف، أحدَ بني عامر بن لُؤيٍّ، فلمَّا رآه رسولُ الله ﷺ، قال: «هذا رجلٌ غادرٌ». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كَلَّمه رسولُ الله ﷺ بنحوِ مما كَلَّم به أصحابه».

(٣) كذا في (أ)، وهو الحلس بن علقمة كما في رواية أحمد، وضبطه السندي بكسر فسكون، وجاء في «السيرة النبوية» لابن هشام، و«الطبقات الكبرى» لابن سعد (٢/ ٩٦) وأكثر المصادر: «الحُلَيس» مصغراً. وكذلك ضبطه الحافظ في «الفتح» (٥/ ٣٤٢).

يتألَّهون ويُعظِّمون الهديَ، فابعثوا الهديَ في وجهِه»، فلمَّا رأى الهديَ في قلائدِه وقد أكلَ أوبارَه من طولِ الحبسِ عن المحِلِّ رجعَ ولم يصلْ إلى النَّبيِّ عليه السَّلام، وقالَ: قد رأيتُ ما لا يحلُّ صدُّه عن البيتِ. فقالوا: اجلسْ؛ فإنَّما أنت أعرابيٌّ.

ثمَّ بعثُوا إلى النَّبيِّ عليه السَّلامُ عروةَ بنَ مسعودٍ الثَّقفيَّ، فحضره، وقالَ: أجَمعْتَ أوباشَ النَّاس ثمَّ جئتَ إلى بيضتِكَ تفضُّها بهم؟! إنَّها قريشٌ قد خرجَت وقد لبسُوا جلودَ النُّمورِ يعاهدونَ اللهَ لا تدخلُها عليهم عَنْوةً أبداً، وايمُ اللهِ لكأنِّي بهؤلاء قد انكشفُوا عنك غداً. فقالَ أبو بكرٍ: امصُص بَظَرَ اللاتِ، أنحنُ ننكشفُ عنه؟ فقالَ: مَن هذا يا محمَّدُ؟ فقالَ: «هذا ابنُ أبي قُحافةَ» فقالَ: أمَا والله لولا يدٌ كانت لك عندي لكافأْتُك بها، ولكن هذه بتلك. وجعلَ يتناولُ لحيةَ رسولِ اللهِ ﷺ بيدِه ويكلِّمُه، والمغيرةُ بنُ شُعبةَ واقفٌ على رأسِ رسولِ اللهِ ﷺ في الحديدِ، فقالَ: اكفُف يدَك عن وجهِ رسولِ اللهِ ﷺ قبلَ أن لا تَصلَ إليك. فقالَ عروةُ: ويحكَ ما أفظَّكَ وأغلظَك. فتكلَّمَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ بنحوِ ما تكلَّمَ به مع أصحابِه من قبلُ، فقامَ من عندِ رسولِ اللهِ وقد رأى ما يصنعُ أصحابُه؛ لا يتوضَّأُ إلا ابتدروا وَضوءَه، ولا تسقطُ منه شعرةٌ إلا أخذوها، فرجعَ إلى قريشٍ فقال: إنِّي قد أتيتُ كسرى وقيصرَ والنَّجاشيَّ، فما رأيتُ ملكاً قطُّ مثلَ محمَّدٍ في أصحابِه، ولقد رأيتُ قوماً لا يُسلِمونه لشيءٍ أبداً، فكفُّوا عنه لينحرَ هديَه وينصرفَ.

وكانَت قريشٌ بعثُوا أربعين أو خمسين رجلاً ليُصيبوا من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، فرَمَوا في عسكرِ رسولِ اللهِ ﷺ بالحجارةِ والنَّبلِ، وأُخِذوا أخذاً، فأُتِيَ بهم النَّبيُّ عليه السَّلامُ، فعفا عنهم وخلَّى سبيلَهم.

وأرادَ أن يبعثَ عمرَ إلى قريشٍ، فقالَ لرسول اللهِ ﷺ: ليس بمكَّةَ من بني عديٍّ

بنِ كعبٍ أحدٌ يمنعُني، وقد عرفَتْ قريشٌ عداوتي إيَّاها، ولكنِّي أدلُّكَ على رجلٍ هو أعزُّ بها منِّي؛ عثمانُ بنُ عفّان.

فبعَثَه رسولُ اللهِ ﷺ إلى قريشٍ يخبرُهم أنَّه لـم يأتِ لحربٍ، وإنَّما جاءَ زائراً للبيتِ، فخرجَ عثمانُ فقالوا له: إن شئتَ أنت فطُفْ بالبيتِ. فقال: ما كنتُ لأفعلَ حتَّى يطوفَ به رسولُ اللهِ. واحتبسُوا عثمانَ عندهم، فبلغَ رسولَ اللهِ والمسلمين أنَّ عثمانَ قُتِلَ، فقالَ عليه السَّلام: «لا نبرحُ حتَّى نُناجزَ القومَ» ودعا النَّاسَ إلى البيعة، وكانَت بيعةُ الرِّضوان تحتَ الشَّجرةِ، بايعَهم رسول اللهِ على الموت، وقالَ جابرٌ: على أنَّ لا يفرُّوا.

وبعثَت قريشٌ إليه سُهيلَ بن عمرو فقالَ عليه السَّلام: «دعوني وكلامَه؛ فإنِّي أَعْرَفُ بذلاقةِ لسانِ قومي» ثمَّ قال: «لقريشٍ قرابةٌ ليسَت إليَّ؟» قال: لا، قالَ: «اللهمَّ أَلَهم رحمٌ ليسَت لي؟» قال: لا، ثمَّ أمرَ بالبُدْنَ فنفرَت في وجهِه فقال: «أنَّى واللهِ أن تُصدَّ هذه عن البيتِ؟» فقالَ: لا، ولكنَّ مكَّةَ حرمُنا، وقد تسامعَت العربُ بأنَّك غزوتَنا، ومتى دخلتَها عَنوةً يُطمعُ فينا ونُختطفُ، ونحن نذكِّرُك الرَّحمَ أن تنصرفَ. فقالَ رسول اللهِ: «فما تريد؟» قالَ: أن يكونَ بيننا وبينك هدنةٌ على أن نخلِّيَها لك في قابلٍ في هذا الشَّهر فتدخلَها بلا سلاحٍ إلا سلاحَ الرَّاكبِ بالسَّيف والقوسِ في القرابِ.

فوقعَ الصُّلح على هذا، ولـم يبقَ إلا الكتابُ، فجاءَ عمرُ إلى أبي بكر، وقال: أليس هو رسولُ اللهِ؟ قالَ: بلى. قال: أو لسنا مسلمين؟ قالَ: بلى. قالَ: أو ليسوا المشركين؟ قالَ: بلى. قالَ: فعلامَ نُعطي الدَّنيَّةَ في دينِنا؟ ثمَّ صار إلى النَّبيِّ ﷺ، فقال[1]: «أنا رسولُ اللهِ وعبدُه، لن أخالفَ أمرَه، ولن يُضيِّعَني».

---

(١) في (أ): «ثم صار إلى النبي ﷺ وما وصَّاه وقال»، والصواب المثبت، وفي رواية البخاري: «فجاء =

وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ رأى في النَّومِ أنَّه دخلَ الكعبةَ وحلقَ رأسَه وأخذَ المفتاحَ، وكانَ المسلمون لا يشكُّون في الفتحِ، فقالَ عمرُ في ذلك، فقالَ أبو بكر: لم يذكر أنَّه يدخلُ في هذه السَّنة. وكانَ عمرُ يقولُ: اتَّهمُوا الرَّأيَ؛ فلقد رأيتُني ذلك اليومَ حينَ كُتِبَ الكتابُ ولو أنَّ معي سبعةً لخرجتُ عليه[1]، وقال: ما شككتُ منذ أسلمتُ إلا يومئذٍ.

ودعا رسولُ اللهِ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رضي الله عنه، وقالَ: «اكتبْ: بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ»، فقالَ سهيل: لا أعرفُ هذا، ولكن اكتب: باسمِك اللهمَّ، كما كنَّا نكتبُ. فقالَ رسول اللهِ ﷺ لعليٍّ: «اكتب: باسمِك اللَّهمَّ» ثمَّ قالَ: «اكتب: هذا ما

= عمرُ إلى رسول اللهِ ﷺ فقال: يا رسولَ الله ألسنا على الحق وهم على باطلٍ؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «بَلَى»، قال: فَفِيم نعطي الدَّنِيَّة في ديننا ونرجعُ ولمَّا يَحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: «يابن الخطاب، إني رسول الله ولن يضيعني أبداً» قال: فرجع وهو مُتغيِّظٌ فلم يَصبرْ حتى أتى أبا بكر فقال يا أبا بكر ألسنا..» الحديث.

(١) قوله: «ولو أنَّ معي سبعةً لخرجتُ عليه» كذا وقعت العبارة في (أ)، ولم أجدها هكذا في مصدر من المصادر، ولعلها أقحمت من بعض الكارهين للفاروق رضي الله عنه، والخبر رواه الدولابي في «الكنى» (١٥١٧)، والطبراني في «الكبير» (٨٢) بلفظ: «اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله برأيي، والله ما آلو عن الحق، وذلك يوم أبي جندل». وحتى هذا فإن إسناده ضعيف، قال ابن طاهر في «أطراف الغرائب والأفراد» (١/ ١٢٣): غريب من حديث عبيد الله بن عمر عن نافع، تفرد به المبارك بن فضالة عنه، وتفرد به يونس بن عبيد الله العميري عن المبارك.

قلت: ومبارك بن فضَالة قال عنه ابن الجوزي في «الضعفاء والمتروكون» (٣/ ٣٣): كان يحيى بن سعيد لا يرضاه، وضعفه أحمد بن حنبل، وقال لرجل سأله عن مبارك: «دع مبارك» ولم يَعبأ به، وقال يحيى بن معِين والنَّسائي: ضعيف الحديث، وقال السعدي: يضعف، وقال أبو زرعة: يدلس.

ويونس بن عبيد الله قال الحافظ في «التهذيب»: قال أبو زرعة: لا بأس به، وذكره بن حبان في «الثقات» وقال: يخطئ.

قلت: وقد روى البخاري (٤١٨٩) مثل هذا من كلام سهل بن حنيف، وهو الصواب إن شاء الله.

صالحَ عليه محمَّدٌ رسولُ اللهِ» فقالَ سهيل: لو شهدتُ أنَّك رسولُ اللهِ لـم أقاتلك، يكفيك أنَّك تقدِّمُ اسمَك واسمَ أبيك. فقالَ رسول اللهِ لعليٍّ: «اكتب كما يقولُ» فقالَ عليٌّ: والله لا يُمحَى أبداً، ورفعَ الدَّواةَ ليضربَ بها رأسَ سُهيل، وسلَّ النَّاسُ السُّيوفَ من الجانبين، وحملَ الزُّبيرُ على خالدِ بنِ الوليدِ فهزمَهم. فقالَ سهيلُ بنُ عمرو: ما نقصتُ يا محمَّدُ، وما رأيتُك اليومَ، وما كنتُ لأُقرَّ بأنَّك رسولُ اللهِ ثمَّ أقاتلَك.

ولمَّا قالَ عليٌّ: لا أمحو اسمَك، قال: «إنَّه ليَحْيَيَنَّ إلى مِثْلِها وأنت مَضِيضٌ»[1].

ثمَّ كتبَ في الصُّلحِ عشرَ سنين، وقيلَ: ثلاثَ سنين، وشرطَ أنَّ مَن أتى رسولَ اللهِ ﷺ من قريشٍ بغيرِ إذنِ وليِّه ردَّه عليه، ومَن جاءَ قريشاً ممَّن مع رسولِ اللهِ لـم يردُّوه إليه، وأنَّ مَن أحبَّ أن يدخلَ في عقدِ رسولِ اللهِ ﷺ وعهدِه دخلَ فيه، ومَن أحبَّ أن يدخلَ في عهدِ قريشٍ دخلَ فيه، وأن يرجعَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ عنهم في ذلك العام، وأن يُخلُّوا له مكَّةَ من القابلِ ثلاثةَ أيام.

وقيلَ لعثمانَ: هنيئاً لك طُفتَ بالبيتِ! فقال: بئس! ما ظَنَنْتُم، لو بَقيتُ ثَمَّ حولاً

---

(١) في (أ): «رأيت مضيض»، ولعل الصواب هو المثبت، ولم أقف على العبارة في المصادر، ولعلها في معنى ما روي: أن سهيلاً لما أسر ببدر قال عمر: يا رسول الله، أَنْزِعُ ثَنِيَّتيه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً؟ فقال: «دعه يا عمر فعسى أن يقوم مقاماً تَحْمدُه عليه»، فكان ذلك المقام أنَّ رسول الله ﷺ لما توفي ارتجت مكة لِمَا رأت قريش من ارتداد العرب، واختفى عَتَّاب بن أسيد الأُموي أمير مكة للنبي، فقام سهيل بن عمرو خطيباً فقال: يا معشر قريش لا تكونوا آخر من أسلم وأوَّل من ارتد، والله إنّ هذا الدين ليمتدَّنَّ امتداد الشمس والقمر من طلوعهما إلى غروبهما... في كلام طويل مثلِ كلام أبي بكر في ذكر وفاة النبي ﷺ، وأُحضِر عَتَّاب بن أسيد، وثبتت قريش على الإسلام. انظر: «أنساب الأشراف» (١/ ٣٠٣)، و«الاستيعاب» (٢/ ٦٦٩)، و«أسد الغابة» (٢/ ٥٨٥).
وجاء في «صحيح مسلم» (١٧٨٣) من حديث البراء: فقال عليٌّ: لا واللهِ، لا أمحاها، فقال رسولُ الله ﷺ: «أَرِني مكانَها»، فأراه مكانها فمحاها، وكتب: «ابنُ عبد الله».

ما طفتُ حتَّى يطوفَ رسولُ اللهِ ﷺ، وكانوا قالوا للنَّبيِّ عليه السَّلامُ في غيبةِ عثمانَ: ابنُ عفَّانَ شبعَ من الطَّواف. فقال: «ما أظنُّه يطوفُ لحالِنا الَّتي نحنُ عليها».

ونزلَت هذه السُّورةُ بالحُدَيبية، وقيلَ: لـمَّا نزلَ هناك نزلَت السُّورةُ في الطَّريق، فقيل: صُدِدنا ورُدَّ هديُنا، فأينَ الفتحُ؟ فقالَ عليه السَّلام: «هذا أعظمُ الفتحِ؛ رضيَ المشركون أن يدفعوكم بالرَّاحِ إلى بلادِكم، وسألوكم القضيَّةَ، ورغبوا إليكم في الأمان، وقد أظهرَ اللهُ عليهم وردَّكم سالمين مأجورين، أنسيتُم يومَ أُحُدٍ إذ تُصعِدون ولا تلوون على أحَد؟ أنسيتُم يومَ الأحزابِ إذ جاؤوكم من فوقِكم ومن أسفلَ منكم؟» فقالَ المسلمون: صدقَ رسولُ اللهِ، هذا أعظمُ الفتح[1].

وقيلَ: ما فُتِحَ في الإسلامِ فتحٌ أعظمُ منه؛ لأنَّ الحربَ وضعَت أوزارَها وأمِنَ النَّاس، فتداخلوا وتفاوضوا، ودخلَ في تلك السِّنين في الإسلامِ مثلُ مَن كانَ في الإسلامِ قبل ذلك أو أكثرَ.

ولمَّا فُرِغَ من الكتابِ قالَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ: «قوموا واحلِقوا وانحَروا»، فما قامَ واحدٌ، فأعادَ فما قامُ أحدٌ، فقالَت أمُّ سلمةَ: لو أنَّكَ يا رسولَ اللهِ حلقتَ ونحرتَ لاتَّبعوك. فحلقَ رسولُ اللهِ فحلقَ النَّاسُ وقصَّروا وأمَرَ بالبدنِ فنُحرَت[2].

---

(١) رواه البيهقي في «الدلائل» (٤/ ١٦٠) من طريق موسى بن عقبة عن الزهري، ومن طريق ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما.

(٢) انظر قصة الحديبية في: «مغازي الواقدي» (٢/ ٥٧١)، و«سيرة ابن هشام» (٢/ ٣١٧)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ٦٢٠)، و«السيرة النبوية» لابن حبان (١٣/ ٤٤٥)، وجمع البيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ١٣٣ ـ ١٦٣) روايات عدة في قصة صلح الحديبية.

وروى القصة البخاري (٢٧٣١) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، وهي في «مسند أحمد» (١٨٩١٠) من حديثهما، وورد بعضها في حديث البراء وأنس وسهل بن حنيف في «صحيح مسلم» (١٧٨٣)، و(١٧٨٤)، و(١٧٨٥).

فقولُه تعالى: ﴿فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ هو هذا الصُّلح.

قالَ ابنُ عبَّاس: كانَ فتحاً بلا قتالٍ، والصُّلحُ من الفتح[1].

وقالَ جابرٌ: ما كنَّا نعدُّ فتحَ مكَّة إلا يومَ الحُدَيبية[2].

وقيلَ: هذا كانَ سببَ الفتحِ، وسببُ الشَّيءِ يُسمَّى باسمِ ذلك الشيء.

وقيلَ: ﴿فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾؛ أي: قضينا لك قضاءً، والمقصودُ الحكمُ وظهورُ دينِه ونصرتُه على أعدائِه، والفتحُ في اللُّغةِ: فتحُ المنغلِقِ، والصُّلحُ الَّذي جرى كانَ متعذِّراً عليه فانفتحَ في ذلك اليوم.

* * *

(٢) - ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [مَن قال]: «هذا الفتحُ فتحُ الدِّينِ والهدايةِ» قال: «إنا هديناك [للدِّين] ليغفرَ لك»، ومن قالَ: «هذا الفتحُ صلحُ الحُدَيبية» [ذكر في اللام وجوهاً:

أحدها: ما] قالَ أبو حاتم: هذه اللامُ لامُ اليمين؛ أي: لَيَغْفِرنَّ الله لك، وهذا وعدٌ، فحُذفَت النُّونُ وكُسِرَت اللامُ، فأَشْبَهَتْ لامَ «كي»، فنصبوا بها كما نصبوا بلام «كي»[3].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٢٣٠)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٨٠)، عن الضحاك.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٤٢)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٢٢٤).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٦/ ٤٩٥)، و«تهذيب اللغة» للأزهري (١٥/ ٢٩٤)، و«تفسير الثعلبي» (٢٤/ ٢٣٠)، و«البسيط» للواحدي (٢٠/ ٢٨٢)، والكلام وما بين معكوفتين منه.

وأنكرَ ابنُ الأنباريِّ هذا، وقال: لامُ القسمِ لا تُكسَرُ، ولا نصبَ بها، ولو جازَ هذا لجازَ: لِيقومَ زيدٌ؛ بتأويل: والله ليقومَنَّ زيد(١).

وقيلَ: هي لامُ «كي»؛ أي: إنا فتحنا عليك الحُدَيبيةَ بالصُّلحِ لكي يجتمعَ لك مع المغفرةِ تمامُ النِّعمة في الفتح، فلمَّا انضمَّ إلى المغفرة شيءٌ حادثٌ حسُنَ معنى «كي».

وقالَ ابنُ جرير: قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣] وعلَّقَ بمجيءِ النَّصرِ والفتحِ، وأعلمَه أنَّه إذا جاءَ الفتحُ واستغفرَ غفرَ له(٢).

وقيلَ: أي: ليكونَ هذا الفتحُ سبباً لمغفرتِنا لك بما تأخذُ به نفسَك من الشُّكرِ على إنعامِنا عليك.

﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قيل: ما سلفَ قبلَ النُّبوَّةِ وما تأخَّرَ عن وقتِ النُّبوَّة إلى يومِ وقوعِ هذا الفتح.

وقيلَ: النَّوعان قبلَ النُّبوَّة.

وقيلَ: هو إشارةٌ إلى الجنسِ؛ أي: ليغفرَ لك الله جميعَ ذنوبِك ما عملتَ وما لم تعمل، وهذا كما تقولُ: «أعطِ مَن رأيت ومَن لم ترَ»، [و]لا يُمكنُ أن تُعطيَ [مَن لم ترَ]، ولكنَّه يُذكَرُ تأكيداً(٣).

وقيلَ: هو وعدٌ بمغفرةِ ما سيكون.

---

(١) انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (١٥/ ٢٩٤)، و«البسيط» للواحدي (٢٠/ ٢٨٢).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٢٣٦).

(٣) انظر: «البسيط» (٢٠/ ٢٨٣) وما بين معكوفتين مستفاد منه، ولفظه: «كما تقول: أعطى من رآه ومن لم يره، وضرب من لقيه ومن لم يلقه، وليس يمكن أن يضرب من لم يلقه ولا أن يعطيه، ولكنه يذكر تأكيداً للكلام على معنى: أنه كان يضربه إن أمكنه، كذلك في الآية: غفر المتقدم والمتأخر لو وجد».

وقيلَ: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾؛ أي: من ذنبِ أبويك، ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ من ذنوبِ أمَّتِك. وقد بيَّنا فيما قبلُ أنَّه لا يَبعُدُ [وقوعُ](١) الصَّغائرِ منَ الأنبياءِ.

﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ قالَ ابنُ عبَّاس: في الجنَّة(٢).

وقيلَ: أي: بالنُّبوَّةِ والمغفرة.

﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾؛ أي: يثبِّتك على الهدى إلى أن يقبضَك إليه.

* * *

(٣ - ٤) - ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾؛ أي: على عدوِّك نصراً منيعاً فلا تُستَذلُّ.

قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: إنَّ الَّذي فتحَ عليك هذا الفتحَ هو الَّذي هيَّأ لك أسبابَه، وأنزلَ السَّكينةَ في قلوبِ أصحابِك لـمَّا صُدُّوا، فإنَّه جرت ثَمَّ أمورٌ اشمأزَّت لها النُّفوسُ من محوِ اسمِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ ومحوِ آيةِ التَّسميةِ وغيرِها، ثمَّ ثبَّتَ الله المسلمين، وأنزلَ السَّكينةَ في قلوبهم، وهي الطُّمأنينةُ والوقارُ وثقةُ النَّفس.

﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾؛ أي: تصديقاً مع تصديقِهم، قال الكلبيُّ: أي: كلَّما نزلَت آيةٌ من السَّماء فصدَّقوا بها ازدادوا تصديقاً إلى تصديقِهم(٣).

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٨٣).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٨٥).

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلو أرادَ إهلاكَ المشركين الصَّادِّين عن البيتِ لـم يُعْجِزْه ذلك.

قالَ ابنُ عبَّاس: يريدُ الملائكةَ والجنَّ والشَّياطينَ والإنسَ(١).

***

(٥) ـ ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: أنزلَ السَّكينة ليزدادوا إيماناً ثمَّ تلك الزِّيادةُ سببُ إدخالِهم الجنَّة.

وقيلَ: لمَّا قرأ عليه السَّلامُ على أصحابِه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، قالوا: هنيئاً لك يا رسولَ اللهِ، فماذا لنا؟ فنزلَ(٢): ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾(٣).

ولمَّا قرأ: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾، قالوا: هنيئاً لك، فنزلَ: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣]، فلمَّا قالَ: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، نزلَ في حقِّ الأُمَّةِ: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠]، ولمَّا قال: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾، نزلَ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٨٥).

(٢) في (أ): «منك»، والصواب المثبت.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٢٢٢٦)، والترمذي (٣٢٦٣)، عن أنس رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح». ورواه البخاري (٤١٧٢) بلفظ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال: الحديبية. قال أصحابه: هنيئاً مريئاً، فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ قال شعبة: فقدمت الكوفة، فحدثت بهذا كله عن قتادة، ثم رجعت فذكرت له فقال: أما: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ فعن أنس، وأما ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ فعن عكرمة.

وهـو كقولـه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الأحزاب: ٥٦] ثـمَّ قـال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقيلَ: اللامُ في ﴿لِّيُدْخِلَ﴾ تتعلَّقُ بما تتعلَّقُ به اللامُ في قولِه: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ﴾.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ ﴾؛ أي: ذلك الوعدُ ﴿فَوْزًا عَظِيمًا ﴾؛ أي: نجاةً من كلِّ غمٍّ وظفراً بكلِّ مطلوبٍ.

***

(٦) - ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ ﴾؛ أي: بإيصالِ الهمومِ إليهم بسببِ علوِّ كلمةِ المسلمين، وبأن يسلِّطَ النَّبيَّ عليه السَّلامُ عليهم قتلاً وأسراً واسترقاقاً، وذلك أنَّ مَن تخلَّفَ عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ ظنُّوا أنَّ المشركين يستأصلون المسلمين، ولا يرجعُ منهم أحدٌ.

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾؛ أي: ظنُّوا أنَّ محمَّداً لا يرجعُ إلى المدينةِ، أو أنَّ اللهَ لا ينصرُه ﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾؛ أي: ظنّاً فاسداً.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾؛ أي: يدورُ الفسادُ والعذاب عليهم.

وقُرِئَ ﴿دائرةُ السُّوء﴾ بالضَّمِّ(١)، والمعنى واحد(٢).

---

(١) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو، والباقون بفتح السين. انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٣)، و«التيسير» (ص: ١١٩).

(٢) قوله: «والمعنى واحد» كذا قال المصنف، وقد ذكر غيره فرقاً بينهما، قال السمين في «الدر المصون» (٦/ ١٠٦): قال مكي: مَنْ فتح السينَ فمعناه الفساد والرداءة، ومَنْ ضمَّها فمعناه =

و﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾؛ أي: ظنَّ الأمرِ السَّوء، وقيلَ: أي: الظَّنَّ السَّوءَ، فأضافَ، كما يُقالُ: مسجدُ الجامعِ، ودارُ الآخرة، ويُقال: رجلُ سَوءٍ، ورجلٌ سَوءٌ.

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: أرادَ عقابَهم، أو: أحلَّ بهم العقاب.

﴿وَلَعَنَهُمْ﴾؛ أي: أبعدَهم عن طاعتِه.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾؛ أي: مَرجعاً ومُنقَلباً.

* * *

(٧) ـ ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جنودُ السَّماواتِ الملائكةُ، وجنودُ الأرضِ المؤمنون، قاله ابن عبَّاس(١).

وقيلَ: لمَّا جرى صلحُ الحُدَيبية قالَ ابنُ أُبيٍّ: أيظنُّ محمَّدٌ أنَّه إذا صالحَ أهلَ مكَّةَ أو فتحَها لا يبقى له عدوٌّ، فأين فارسُ والرُّوم؟ فبيَّنَ الله أنَّ جنودَ السَّماواتِ والأرضِ أكثرُ من فارسَ والرُّوم(٢).

= الهزيمةُ والبلاءُ والضرر. وقال غيرُه: المضموم: العذاب والضرر، والمفتوح: الذم، ألا ترى أنه أُجْمِع على فتح ﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ وقولِه: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ [مريم: ٢٨] ولا يليق ذِكْرُ العذاب بهذين الموضعين.

وقال الزمخشري فأحسن: «المضموم: العذاب، والمفتوحُ ذمٌّ لدائرة، كقولك: «رجلُ سَوْء» في نقيض «رجل عدل»، لأنَّ مَنْ دارَتْ عليه يَذُمُّها» يعني: أنها من باب إضافة الموصوف إلى صفته فوُصِفَتْ في الأصل بالمصدر مبالغةً، ثم أُضِيفَتْ لصفتِها كقولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ [مريم: ٢٨].

(١) ذكره بلا نسبة مقاتل في «تفسيره» (٤/ ٦٩)، والسمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٣١٢)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٨٨).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٦٩)، و«التمهيد» لابن عبد البر (٣/ ٢٦٧).

وقيلَ: ليُدخلَ فيه جميعَ المخلوقات، وأعادَ لأنَّ الَّذي سبقَ عقيبَ ذكرِ المشركين من قريشٍ، [و] هذا عَقِيبَ ذكرِ المنافقين وسائرِ المشركين.

***

(٨) ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا﴾ تعبَّدَهم بجهادِ المشركين وجعلَ الرَّسولَ شاهداً عليهم، فهو شاهدُ أفعالِهم اليومَ، والشَّهيدُ عليهم يومَ القيامةِ، والمبشِّرُ بالجنَّةِ على الطَّاعة، والمنذِرُ بالنَّار على المخالفة.

وقيلَ: شهادتُه شهادةٌ على الأممِ بتبليغِ الرُّسلِ إليهم.

***

(٩) ـ ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قُرِئَ بالتَّاء والياء[1].

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ قيل: ترجعُ الكنايةُ إلى اللهِ تعالى، والعَزْرُ: النَّصرُ، ونصرةُ الله: نصرةُ رسولِه، يُقال: عزرتُه عَزْراً وعزَّرته تعزيراً، والتَّوقيرُ: التَّعظيمُ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾؛ أي: تُنزِّهوه.

وقيلَ: وتُعزِّروا الرَّسولَ وتوقِّروه، فأمَّا التَّسبيحُ فيرجعُ إلى اللهِ. **والأوَّلُ أحسن.**

***

---

(١) قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو بالياء، والباقون بالتاء، وكذا الخلاف في ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٣)، و«التيسير» (ص: ٢٠١).

(١٠) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ هذا في مبايعتِهم تحتَ الشَّجرةِ لـمَّا أُرجِفَ بقتلِ عثمانَ رضي الله عنه، فرضيَ الله لهم تلك البيعةَ، فسُمِّيت بيعةَ الرِّضوان، وبيَّنَ أنَّ بيعتَهم للنَّبيِّ عليه السَّلامُ إنَّما هي بيعةُ الله كما قالَ[1] الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وكانَ المسلمون يومَ بيعةِ الرِّضوان ألفاً وأربعَ مئةٍ في روايةٍ[2]، كما سنبيِّن ذلك إن شاءَ الله تعالى.

والمبايعةُ من البيعِ؛ أي: باعوا أنفسَهم من اللهِ بالجنَّة.

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: يدُ اللهِ بالوفاءِ لهم بما وعدَهم من الخيرِ فوقَ أيديهم بالوفاءِ والعهدِ حين بايعوك؛ أي: إنَّ اللهَ أوفى منهم، كما قال: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

وقيلَ: أي: نعمةُ اللهِ عليهم فوقَ ما صنعُوا، فيدُ اللهِ بالمنَّةِ بالهدايةِ فوقَ أيديهم في الطَّاعة.

وقيلَ: أي: قوَّةُ اللهِ ونصرتُه فوقَ قوَّتهم؛ أي: ليكن يقينُك بنصرةِ الله لك أكثرَ من الثِّقةِ بنصرِهم.

فإن بايعوا ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾؛ أي: عقدَ البيعةِ ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾؛ أي: يرجعُ الضَّررُ عليه، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾؛ أي: ثبت على الوفاء ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ في الآخرةِ.

---

(١) في (أ): «كما يقال وكما قال»، والتصويب من «تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٠٦).

(٢) رواه البخاري (٤٨٤٠)، ومسلم (١٨٥٦)، عن جابر رضي الله عنه، وسيذكر المصنف الخلاف في عددهم.

(١١) ـ ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ ﴾ ذكرَ الأعرابَ الذين تخلَّفوا عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ في هذه السُّورةِ بعدَ أن كانَ استنفرَهم إليها، وكانَ لا يأمنُ صدَّ المشركين إيَّاه والاحتياجَ إلى القتال، وهؤلاء الذين تخلَّفوا أعرابُ غفارٍ ومزينةَ وجهينةَ وأسلمَ، ومَن قَرُبَ من المدينة، وكانوا قالوا: أنذهبُ معه إلى قومٍ جاؤوهُ وقتلُوا أصحابَه، ويخرجُ إليهم فيقاتلُهم في دارِهم؟ فأخبرَ الله نبيَّه بما قالوا، فعاتبَهم لمَّا عادَ إليهم(١).

وإنَّما قالَ: ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾؛ لأنَّ قضاءَ الله خلَّفَهم على التَّحقيق.

﴿شَغَلَتْنَآ﴾؛ أي: عن الخروجِ مع الرَّسولِ ﴿أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾؛ أي: النِّساءُ والذَّراري، وأهلُ الرَّجل: أخصُّ النَّاسِ به، يُقالُ: أهْلٌ وأهلون وأهالي، قالَ الله: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾؛ أي: سل ربَّك أن يغفرَ لنا هذا التَّخلُّفَ، فإنَّا كنَّا معذورين، وما شغلَهم إلا الشَّكُّ في الدِّين. قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنه: شكُّوا في نصرِ الله رسولَه(٢).

فكذَّبَهم الله وقال: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: طلبَ الاستغفارِ وهم لا يُبالون أستغفرَ لهم الرَّسولُ أم لم يستغفر.

---

(١) رواه بنحوه الطبريُّ في «تفسيره» (٢١/ ٢٥٧)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ١٦٤) عن مجاهد.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٩٤).

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾؛ أي: مَن يمنعُكم من اللهِ ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ قُرِئَ بالفتحِ، وهو خلافُ النَّفعِ، وبالضَّمِّ(١) وهو سُوءُ الحال.

وقيلَ: هما بمعنًى واحد، كالفَقْرِ والفُقْرِ، والضَّعْفِ والضُّعْفِ.

﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾؛ أي: غنيمةً.

وهذا ردٌّ عليهم حينَ ظنُّوا أنَّ التَّخلُّفَ عن الرَّسولِ يدفعُ عنهم الضُّرَّ ويعجِّلُ لهم النَّفعَ، وفي هذه الآيات كشفُ أسرارِهم وإظهارُ نفاقِهم.

* * *

(١٢ ـ ١٣) ـ ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ﴾؛ أي: توهَّمتم أنَّ المشركين يستأصلون المسلمين ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، وهذا التَّزيين من الشَّيطانِ أو بخلقِ اللهِ ذلك في قلوبِهم.

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ مضى معناه ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾؛ أي: فاسدةً قلوبُكم.

وقيلَ: ﴿بُورًا﴾؛ أي: هَلْكَى، يقالَ: أصبحَت أعمالُهم وأموالُهم بوراً؛ أي: لا شيء.

قولُه تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذا وعيدٌ لهم، وبيانٌ أنَّهم كفروا بالنِّفاق.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي بضم الضاد والباقون بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٤)، و«التيسير» (ص: ٢٠١).

(١٤) - ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: هو غنيٌّ عن عبادِه، وإنَّما ابتلاهم بالتَّكليفِ ليُثيبَ مَن آمنَ، ويُعاقِبَ من عَصَى.

* * *

(١٥) - ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ هم الذين سبقَ ذكرُهم: ﴿إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يعني: مغانمَ خيبرَ؛ لأنَّ اللهَ وعدَ أهلَ الحُدَيبيةِ فتحَ خيبرَ، وقد رُويَ أنَّ غنائمَ خيبرَ كانَت لأهلِ الحُدَيبيةِ على الخصوصِ؛ مَن غابَ منهم ومَن حضرَ، ولم يَغب[1] منهم عنها غيرُ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ، فقسمَ له رسولُ اللهِ ﷺ كسهمِ مَن حضرَ[2].

وكانَ انصرافُه عليه السَّلامُ من الحُدَيبيةِ في ذي الحجَّةِ، فخرجَ في المحرَّمِ إلى خيبرَ، فقالَ المخلَّفون: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾، فمنعَهم النَّبيُّ عليه السَّلام؛ لأنَّ اللهَ كانَ أمرَه بأن لا يخرجَ إلى خيبرَ إلا أهلُ الحُدَيبيةِ بدلاً لهم عمَّا فاتَهم من دخولِ مكَّة،

---

(١) في (أ): «وكم بعثَ»، والصواب المثبت.

(٢) انظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٣٤٩)، وذكره أبو حفص النسفي في «التيسير» (١٣/ ٤٦٢)، ورواه الطبري في «تاريخه» (٣/ ١٩)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ١٣٦)، من طريق ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم.

وكانَ فعلُ هؤلاء الأعرابِ في الاستئذانِ فعلَ مَن يُريدُ أن يُبدِّلَ ﴿كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾[١].

وقُرِئَ ﴿كَلِمَ الله﴾[٢]، والكلامُ مصدرٌ، والكَلِمُ جمعُ كلمة.

وقيلَ: أي: أرادوا أن يُغيِّروا قولَه تعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٣][٣].

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ﴾؛ أي: هكذا قالَ ﴿ٱللَّهُ﴾ في الحُدَيبية ﴿مِن قَبْلُ﴾ خيبر، فإنَّه أخبرَ أنَّ غنيمةَ خيبرَ لمَن شهدَ الحُدَيبية.

وقيلَ: قالَ رسول اللهِ ﷺ: «إن خرجتُم لن أمنعَكم، ولكن لا يُسهَمُ لكم»[٤]، فقالوا: هذا حسدٌ[٥]، فقالَ المسلمون: قد أخبرنا اللهُ في الحُدَيبيةِ بما ستقولونه، وهو قوله:

---

(١) يريد - والله أعلم - ما ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٩٨) عن ابن عباس أنه قال: يريد: مواعيد الله؛ لأن الله تعالى جعل خيبر لأهل الحديبية خاصة، لم يجعل لأحد من الناس فيها شيئاً إلا لمن تخلف عنها لعذر.

(٢) قرأ بها حمزة والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٤)، و«التيسير» (ص: ٢٠١).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٦٣) عن ابن زيد، ولم يرتض الطبري هذا القول فقال: «وهذا الذي قاله ابن زيد قول لا وجه له، لأن قول الله عز وجل ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣] إنما نزل على رسول الله ﷺ منصرفه من تبوك، وعنى به الذين تخلفوا عنه حين توجه إلى تبوك لغزو الروم، ولا اختلاف بين أهل العلم بمغازي رسول الله ﷺ أن تبوك كانت بعد فتح خيبر وبعد فتح مكة أيضاً، فكيف يجوز أن يكون الأمر على ما وصفنا معنيًّا بقول الله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾».

قال النيسابوري في «تفسيره» (٦/ ١٤٨): «وأجاب بعضهم بأن هذه الآية - أعني: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ - نزلت في غزوة تبوك أيضًا».

(٤) لم أجده مسنداً، وذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٣١١) وقد نقله مع ما بعده عن المصنف.

(٥) في (أ): «هذا حينئذ»، والتصويب من «تفسير القرطبي»، وذكر الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٩٩) عن الكلبي: لما قالوا لهم: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾، قالوا: والله ما أمركم الله بذلك وما بكم إلا الحسد.

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما لهم وعليهم من أمرِ الدِّين ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهو مَن تركَ النِّفاق.

وقالَ الزُّهريُّ وجماعة: إنَّما نزلَت هذه الآياتُ في شأنِ غزوةِ تبوكَ، وهي بعدَ الحُدَيبيةِ بسنتين(١).

وعند هؤلاء كانَت غنائمُ خيبرَ لمَن شهدَ الحُدَيبيةَ ولمن لم يشهد، وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى قولِه في سورةِ براءة: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٣]، وإنَّما نزلَت في غزوةِ تبوكَ. والأوَّلُ أظهرُ.

* * *

(١٦) - ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ لـمَّا منعَهم النَّبيُّ عليه السَّلامُ من الغزوِ معه بيَّنَ أنَّ خُلفاءَه بعدَه غيرُ ممنوعين من استصحابِهم، وإن مُنِعَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ عن ذلك؛ فإن أجابوا مَن يدعوهم بعدَه إلى قتالِ هؤلاء آتاهم اللهُ أجراً حسناً، وذلك أنَّه مَن تركَ منهم النِّفاقَ وأخلصَ فله الأجرُ الحسنُ، ومَن لـم يتركِ النِّفاقَ، ولكنَّه أظهرَ الإخلاصَ، فيجبُ على المؤمنين إجراءُ أحكامِ المسلمين عليهم، فالأجرُ الحسنُ هاهنا المغانمُ؛ لأنَّه لا يظهرُ سوءُ أمرِهم لغيرِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ.

---

(١) لم أجده عن الزهري، ذكره الكرماني في «لباب التفاسير» (٨/ ٤٢٠) عن بعضهم. واستظهره البيضاوي في «تفسيره» (٥/ ١٢٨)، لكن ذكر الكرماني أنه خلاف ما عليه المحققون من أنه في الحديبية.

والمعنيُّون بقوله: ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ بنو حنيفةَ أتباعُ مُسيلمةَ[١]. قالَ رافعُ بن خَديجٍ: كنَّا نقرأُ هذه الآيةَ فلا نعلمُ مَن هم حتَّى دعا أبو بكرٍ إلى قتالِ بني حنيفةَ فعلمنا أنَّهم هم[٢].

وقيلَ: هم فارسٌ والرُّوم[٣].

وقيلَ: الجميعُ.

وقيلَ: أولو البأسِ الشَّديدِ أهلُ هوازنَ وثقيفٌ وغطفانُ[٤].

﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾، رُويَ في بعضِ القراءات: (أو يسلموا)[٥]، كما تقول: كُلْ أو تشبعَ؛ أي: حتَّى تشبع.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (١٥١٧)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٦٨) عن الزهري، وهو قول مقاتل كما في «تفسيره» (٤/ ٧٢). وذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٩/ ٣٠٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومقاتل. ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٤٦) عن الزهري ومقاتل، وعزاه الواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٣٨) إلى أكثر المفسرين.

(٢) ذكره الواقدي في «الردة» (ص: ١٣٢)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٢٤٨)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٠٠).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧) عن الحسن وعبد الرحمن بن أبي ليلى وابن زيد، وروى عن مجاهد أنهم فارس، ولم يذكر الروم.

(٤) رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (٤/ ٢٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٦٧) عن قتادة.

(٥) نسبت لأبيٍّ رضي الله عنه في: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ١٣٣)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٣)، ووردت دون نسبة في «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٦٦)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٢٦٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٤)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ١٣٣).

وقالَ الزَّجَّاجُ: قالَ: ﴿أَوْ يُسْلِمُونَ﴾؛ لأنَّ المعنى: أو هم يُسلمون من غيرِ قتال[١].
وهذا في قتالِ المشركين لا في أهلِ الكتاب.

***

(١٧) - ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ لمَّا نزلَ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قالَ أصحابُ الزَّمانةِ: كيف بنا إذا دُعينا فلا نستطيعُ الخروج؟ فنزلَ ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾[٢]؛ أي: لا ضِيقَ على الأعمى من جهةِ الشَّرع، فلا يلحقُه إثمٌ في تركِ الجهاد.

﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ العرجُ آفةٌ تَعرِضُ لرِجلٍ واحدة، وإذا كانَ ذلك مؤثِّراً فخللُ الرِّجلين أولى أن يؤثِّر.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٤)، وفيه: «وقد قرئت (أو يُسْلِموا)، فالمعنى تقاتلونَهُمْ حتى يسلموا، وإِلَّا أن يسلموا».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٢٤٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (٢٠/ ٣٠٢) عن ابن عباس، وذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٠٢) من طريق أبي صالح عن ابن عباس، وأورده السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٣١٦) عن الكلبي. فهو من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.
وروى معناه الطبراني في «الكبير» (٤٩٢٦) عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ، وإني لواضع القلم على أذني إذ أمر بالقتال، إذ جاء أعمى فقال: كيف بي وأنا ذاهب البصر؟ فنزلت: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٠٧): «فيه محمد بن جابر السحيمي وهو ضعيف يكتب حديثه وبقية رجاله رجال الصحيح». وحسن إسناده السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٥٢١).

وقالَ مقاتلٌ: هم أهلُ الزَّمانةِ الذين تخلَّفوا عن الحُدَيبية، وقد عذرَهم؛ أي: مَن شاءَ أن يسيرَ منهم معكم فلْيَفْعَلْ(١).

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وطاعةُ اللهِ وطاعةُ الرَّسولِ واحدةٌ ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ بالياء، وقُرِئَ بالنُّون(٢).

***

(١٨ ـ ١٩) ـ ﴿لَّقَدْ رَضِىَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ هذه بيعةُ الرِّضوان، وقد قالَ قومٌ: قولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ عامٌّ في كلِّ بيعةٍ، وهذه الآيةُ في بيعةِ الرِّضوان، وقد جرَت تحتَ شجرةٍ بفجٍّ نحو مكَّة، ويُروى أنَّ تلك الشَّجرة عُمِّيَت عليهم من قابلٍ فلم يَدْروا أين ذهبَت، وكانَت الشَّجرةُ سَمُرةً(٣)، فأمَّ إليها رسولُ اللهِ ﷺ فاستندَ إليها وبايعَ النَّاسَ على قتالِ أهلِ مكَّةَ.

وقيلَ: صاحَ الشَّيطانُ في عسكرِ رسولِ اللهِ ﷺ بأنَّ أهلَ مكَّةَ قتلوا عثمان.

وقالَ قومٌ: كانَ أهلُ هذه البيعةِ خمسَ مئةٍ وخمسةً وعشرين رجلاً(٤).

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٣).

(٢) قرأ نافع وابن عامر بالنون، والباقون بالياء، وكذا الخلاف في ﴿يُعَذِّبْهُ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٤)، و«التيسير» (ص: ٢٠١).

(٣) كون الشجرة سمرة رواه مسلم (١٨٥٦/ ٦٧) عن جابر رضي الله عنه.

(٤) كذا ذكر الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٠٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية عطاء، وهو وهم لا شك لمخالفته روايات الصحيحين بأنهم فوق الألف، وقد روى الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٧٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية العوفي قال: «كان أهل البيعة تحت الشجرة =

وقيلَ: خمسَ عشرةَ مئةً[1].

وقالَ عبدُ اللهِ بن أبي أوفى: كنَّا يومئذٍ ألفاً وثلاثَ مئةٍ[2].

وقال جابرٌ: ألفاً وأربعَ مئة[3].

ووضعَ رسول اللهِ ﷺ إحدى يديه على الأخرى، وقال: «هذه بيعةُ عثمانَ»[4]، ويدُ رسول اللهِ ﷺ خيرٌ من أيديكم.

﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: ما في قلوبِ المؤمنين من صدقِ النيَّةِ.

وقيلَ: ﴿مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من الكراهةِ للبيعةِ على أنَّ لا يفرُّوا ﴿فَأَنزَلَ﴾ اللهُ ﴿ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ حتَّى بايعوا.

وقيلَ: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من الكآبةِ[5] بصدِّ المشركين إيَّاهم وتخلُّفِ رؤيا النَّبيِّ عليه السَّلامُ عنهم؛ إذ رأى أنَّه يدخلُ الكعبة[6]، حتَّى قالَ رسول اللهِ ﷺ: «إنَّما كانَ ذلك رُؤيا منامٍ»[7].

= ألفا وخمس مئة وخمسة وعشرين»، وكذا ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٢٥٤)، ومكي بن أبي طالب في «الهداية» (١١/ ٦٩٥٥). فلعل الألف سقطت عند الواحدي وتابعه المصنف عليه.

(١) رواه البخاري (٣٥٧٦)، ومسلم (١٨٥٦): (٧٢) عن جابر رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (٤١٥٥)، ومسلم (١٨٥٧).

(٣) رواه البخاري (٤٨٤٠)، ومسلم (١٨٥٦). وذكر الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٧/ ٤٤١) الخلاف في ذلك، وجمع بين الروايات بأنهم كانوا أكثر من ألف أربع مئة، فمن قال: ألفًا وخمس مئة جبر الكسر، ومن قال: ألفًا وأربع مئة ألغاه.

(٤) رواه البخاري (٣٦٩٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) في (أ): (الكاذبة)، والصواب المثبت.

(٦) في (أ): (الجنَّة)، والصواب المثبت.

(٧) ذكره الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٦٧)، وعنه الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٠٥). وروى عبد الرزاق =

وقالَ الصِّدِّيقُ: لـم يكن فيها الدُّخولُ في هذا العامِ[1].

﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ يعني: فتحَ خيبرَ.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ يعني: أموالَ خيبرَ وعقارَهم ومغانمَ فارس والرُّوم.

***

(٢٠) ـ ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾؛ أي: مع النَّبيِّ عليه السَّلامُ وبعده إلى القيامةِ ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾؛ أي: مغانمَ خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ في سيرِكم إلى مكَّةَ، والمرادُ بالنَّاس: أهلُ مكَّةَ.

وقيلَ: لمَّا خرجَ إلى الحُدَيبيةِ همَّتِ اليهودُ وحلفاؤُها من أسدٍ وغطفانَ أن يُغيروا على عيالِ المسلمين وذراريهم بالمدينة، فألقى الله في قلوبِهم الرُّعبَ[2].

= في «تفسيره» (٢٩١٠)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣١٦) عن قتادة في قوله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ قال: «أري في المنام أنهم يدخلون المسجد الحرام، وأنهم آمنون محلقين رءوسهم ومقصرين».

(١) رواه البخاري (٢٧٣١ ـ ٢٧٣٢) ضمن حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم في رد أبي بكر على عمر لما قال: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقًّا؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق، قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٤)، و«معاني القرآن» للفراء (٣/ ٦٧)، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٩٠٦)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٨٢) عن قتادة بلفظ: «كف أيدي الناس عن عيالهم بالمدينة».

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ليكونَ انكفافُ هؤلاء الذين همُّوا بذراري المسلمين وعودُكم سالمين آيةً للمؤمنين على صدقِك ونبوَّتِك.

وقيلَ: لتكونَ هذه الَّتي عجَّلَها لكم آيةً للمؤمنين على صدقِك حيثُ وعدْتَهم أن يُصيبوها.

والواوُ في ﴿وَلِتَكُونَ﴾ مُقحَمةٌ عند الكُوفيِّين، وقال البصريُّون: عاطفةٌ على مضمرٍ؛ أي: وكفَّ أيديَ النَّاس عنكم لتشكروه ولتكونَ آية للمؤمنين.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾؛ أي: يزيدَكم هدًى، أو: يُثيبَكم على الهداية.

* * *

(٢١) - ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾؛ أي: وعدَكم قُرًى وبلاداً أخرى؛ قالَ ابنُ عبَّاس: فارسُ والرُّوم[1].

وقيلَ: أشارَ إلى فتحِ مكَّةَ وإلى هوازن وأوطاس؛ لأنَّه قالَ: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾، وهذا يدلُّ على تقدُّمِ محاولةٍ لها وفواتِ دَركِ المطلوبِ في الحال، كما كانَ في مكَّة.

﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾؛ أي: أعدَّها لكم فهي كالشَّيءِ الَّذي قد أُحيطَ به من جوانبِه، فهو محصورٌ لا يفوتُ، فأنتم وإن لم تقدرُوا عليها في الحالِ فهي محبوسةٌ عليكم لا تفوتُكم.

وقيلَ: ﴿أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾؛ أي: علمَ أنَّها ستكونُ لكم.

* * *

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٨٤).

(٢٢ ـ ٢٣) ـ ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾؛ أي: إنَّ أهلَ مكَّةَ لو قاتلوكم لانهزموا، ولكن طلبوا الصُّلحَ، فأخَّرَ الله فتحَ بلدِهم.

وقيلَ: ولو قاتلكم غطفانُ وأسدٌ والذين أرادوا[1] نُصرةَ أهلِ خيبرَ لكانَت الدَّائرةُ عليهم.

قولُه تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: هكذا سنَّتي في الأممِ الخالية الكافرة، فلا يجدونَ وليًّا ولا نصيراً وإن أُمهِلوا إلى حينٍ.

﴿سُنَّةَ﴾ نصبٌ على المصدر؛ أي: سنَّ اللهُ خذلانهم سنّة.

* * *

(٢٤) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ بيَّنَ المنَّةَ في أن عجَّزَ بعضَهم عن بعضٍ حتَّى وقعَ الصُّلحُ، وكفُّ أيديهم عن المسلمين: أنَّهم خرجُوا بأجمعِهم وقصدُوا المسلمين، وكفُّ أيدي المسلمين[2] عنهم: أنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ لمَّا ظفرَ بأربعين أو خمسين منهم ـ وقيلَ: ثمانين ـ وكانوا قصدُوا عسكرَ المسلمين، فأخذَ الله بأبصارِهم حتَّى لم يروا شيئاً، فأُخِذُوا وسِيقوا إلى النَّبيِّ عليه السَّلامُ فأعتقهم.

---

(١) في (أ): «أراد» والصواب المثبت.

(٢) في (أ): «الناس»، ولعل الصواب المثبت.

وقيلَ: قالَ لهم رسولُ اللهِ ﷺ: «هل جئتم في عهدِ أحدٍ؟ هل جعلَ لكم أحدٌ أماناً؟» فقالُوا: لا. ثمَّ إنَّه عليه السَّلامُ خلَّى سبيلَهم(١).

وقد قدَّمنا أنَّ خالدَ بنَ الوليدِ كانَ في خيلِ المشركين(٢)، فهذه روايةٌ، **والصَّحيحُ** أنَّه كانَ مع النَّبيِّ عليه السَّلامُ في ذلك الوقت(٣).

---

(١) روى نحوه الإمام أحمد في «المسند» (١٦٨٠٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٤٧)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٨٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٧١٦)، عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه من جملة حديث، وفيه أنهم كانوا ثلاثين شابًا، ونصه: «قال عبد الله بن مغفل: فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم النبي ﷺ فأخذ الله بأبصارهم فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد أو هل جعل لكم أحد أمانا؟» فقالوا: اللهم لا. فخلى سبيلهم، فأنزل الله عز وجل ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾».

وروى الطبري نحوه (٢١/ ٢٨٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما وفيه: أنهم كانوا أربعين رجلاً.

(٢) روى ذلك البخاري (٢٧٣١) عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، وفيه: «خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم، في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين»، فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيرا لقريش».

(٣) وقد صح في البخاري خلافه كما تقدم في التعليق السابق؟! وكذا في عامة كتب السيرة، والحديث أن خالد بن الوليد كان في الحديبية في جانب المشركين، وأنه أسلم بعد صلح الحديبية. انظر: «مغازي الواقدي» (٢/ ٧٤٦)، و«الطبقات الكبرى» (٢/ ٩٢)، و«دلائل النبوة» (٤/ ٣٤٩)، و«الاستيعاب» (٢/ ٤٢٧).

وقال ابن حجر في «الإصابة» (٢/ ٢١٥): «وشهد مع كفّار قريش الحروب إلى عمرة الحديبيّة كما ثبت في الصّحيح أنه كان على خيل قريش طليعة، ثم أسلم في سنة سبع بعد خيبر، وقيل: قبلها، ووهم من زعم أنه أسلم سنة خمس». وانظر النقل الآتي عن ابن كثير في «تفسيره».

وقد قالَ سلمةُ بنُ الأَكْوعِ: كانُوا في أمرِ الصُّلحِ إذ أقبلَ أبو سفيان، فإذا الوادي يسيلُ بالرِّجالِ والسِّلاحِ، قال: فجئتُ بستَّةٍ من المشركين بسيوفِهم مُسلَّحين لا يملكون لأنفسِهم نفعاً ولا ضرًّا، فأتيتُ بهم رسولَ اللهِ ﷺ، وكانَ عمرُ قالَ في الطَّريق: يا رسولَ اللهِ، تأتي قوماً حرباً وليس معك سلاحٌ ولا كُراعٌ[1]! فبعثَ رسول اللهِ ﷺ إلى المدينةِ من الطَّريقِ فأتوه بكلِّ سلاحٍ وكراعٍ كانَ فيها، وأُخبِرَ رسولُ اللهِ ﷺ أنَّ أبا[2] جهلٍ خرجَ إليك في خمسِ مئةِ فارسٍ. فقالَ رسول اللهِ ﷺ لخالدِ بنِ الوليد: «هذا ابنُ عمِّك أتاك في خمسِ مئةٍ». فقالَ خالدٌ: أنا سيفُ الله ورسولِه، فيومئذٍ سُمِّي سيفَ الله، فخرجَ ومعه خيلٌ فهزمَ الكفَّار ودفعَهم إلى حوائطِ مكَّةَ. **وهذه الرِّوايةُ أصحُّ**[3].

وكانَ بينهم قتالٌ بالحجارة، وقيلَ: بالنَّبلِ والطَّعن.

وقيلَ: أرادَ بكفِّ اليدِ أنَّه شرطَ في الكتابِ بأنَّ مَن جاءنا منهم فهو ردٌّ عليهم، فخرجَ أقوامٌ من مكَّةَ مسلمين، وخافوا أن يردَّهم النَّبيُّ عليه السَّلامُ إلى المشركين،

---

(١) الكُراع: اسم يجمع الخيل والسلاح إذا ذكر مع السلاح، والكُراع: الخيل نفسها. انظرة «تهذيب اللغة» (١/ ٢٠٢).

(٢) في (أ): «ابن أبي»، والصواب المثبت.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٩١)، وفي «تاريخه» (٢/ ٦٢٢) عن ابن أبزى مرسلًا. وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٣٤٣) ثم قال: ورواه ابن أبي حاتم عن ابن أبزى بنحوه، وهذا السياق فيه نظر، فإنه لا يجوز أن يكون عام الحديبية؛ لأن خالدًا لم يكن أسلم، بل قد كان طليعة المشركين يومئذ، كما ثبت في الصحيح، ولا يجوز أن يكون في عمرة القضاء؛ لأنَّهم قاضوه على أن يأتي من العام المقبل فيعتمر ويقيم ثلاثة أيام، فلما قدم لم يمانعوه، ولا حاربوه ولا قاتلوه، فإن قيل: فيكون يوم الفتح؟ فالجواب: لا يجوز أن يكون يوم الفتح؛ لأنَّه لم يسق عام الفتح هديًا، وإنما جاء محاربًا مقاتلًا في جيش عرمرم، فهذا السياق فيه خلل، وقد وقع فيه شيء، فليتأمل.

فلحقوا بالسَّاحلِ، ومنهم أبو بصيرٍ، وجعلوا يُغيرون على الكفَّار ويأخذون عيرَهم حتَّى [جاء][1] كفَّارُ قريشٍ إلى النَّبيِّ عليه السَّلام، وقالوا: ضُمَّهم إليك حتَّى نأمنَ، ففعل ذلك[2].

﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ يعني: الحُدَيبية.

وقيلَ: همَّت غطفانُ وأسدٌ بمنعِ المسلمين عن يهودِ خيبرَ لأنَّهم كانُوا حُلفاءَهم فمنعَهم الله عن ذلك، فهو كفُّ اليد.

***

(٢٥) ـ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ أي: لم يكن كفُّ يدِ المسلمين عنهم لأنَّهم كانُوا على حقٍّ، بل هم الكفَّارُ الذين صدُّوا المسلمين عن المسجدِ الحرامِ، وصدُّوا الهديَ حتَّى لا يبلغَ محلَّه فيُنحَرَ، وإ[نما][3] الكفُّ بسببِ رجالٍ مؤمنين ونساءٍ مؤمناتٍ ثَمَّ أنتم لا تعلمونَ أنَّهم مؤمنون، ولا يمكنُكم أن تُميِّزوهم لاختلاطِهم بالكفَّار، ولا يجوزُ قتلُهم.

﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا﴾؛ أي: محبوساً، يُقال: عكفَه يعكِفُه عكفاً ـ مثل: ضرَبَه يضرِبُه ـ؛

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) روى نحو ذلك بتفصيل أكثر البخاري (٢٧٣١) ضمن حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

أي: حبسَه، وعكفتُ القومَ عن كذا؛ أي: حبسْتُهم، وعكَفَ عكوفاً، فهو لازمٌ وواقعٌ(١).

﴿أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾؛ أي: عن أن يبلغَ محلَّه؛ أي: مَنحرَه، وهو الحرمُ كلُّه.

﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ﴾ يعني: المستضعفين من المؤمنات والمؤمنين بمكَّةَ وسطَ الكفَّارِ كسلمةَ بنِ هشامٍ وعيَّاشِ بنِ أبي ربيعةَ وأبي جندل بن سُهيلٍ وأشباهِهم.

﴿لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾؛ أي: لم تعرفوهم، وقيلَ: لم تعلموا أنَّهم مؤمنون.

﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾؛ أي: بالقتلِ والإيقاعِ بهم، يقالُ: وطئتُ القومَ؛ أي: أوقعتُ بهم.

﴿فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ﴾؛ أي: إثم، والعُرُّ: الجرَبُ، يُقال: عَرَّهُ بِشَرٍّ(٢)؛ أي: ظلمَه وأخذَ مالَه، فهذه المعرَّةُ: أن تلزمَهم كفَّارةُ مَن قُتِلَ من المسلمين وتلحقَهم شُبهةٌ بأنَّهم قتلوا مَن هو على دينِهم فيَعيبهم الكفَّارُ بذلك.

﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: لو لا أن تطؤوهم بغيرِ علمٍ، وهذا يدلُّ على أنَّ البلدةَ الَّتي فيها قومٌ من المسلمين وإن كانَت من بلادِ الكفَّار لا يجوزُ تعميمُهم بالإحراقِ والإغراقِ(٣)، ولا البياتُ عليهم.

وقيلَ: جوابُ(٤) ﴿لولا﴾ محذوفٌ؛ أي: لسلَّطناكم عليهم.

وقيلَ: جوابُه ﴿لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وهو جوابٌ لكلامين: أحدهما: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ﴾، والثاني: ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ﴾.

---

(١) أي: متعدٍّ.

(٢) في (أ): «يسيراً»، والصواب المثبت.

(٣) في (أ): «ولا يجوزُ تعميمُهم بالأحزاب والأعراف»، والتصويب من «البسيط» (٢٠/ ٣١٦)، وفيه: «لا يجوز البيات عليهم ولا تعميمهم بالحرق والغرق والمجانيق».

(٤) في (أ): «المراد»، والصواب المثبت.

﴿لِيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يعني: مَن أسلمَ من الكفَّارِ بعد الصُّلحِ، واللامُ متعلِّقةٌ بمحذوفٍ؛ أي: حالَ بينكم وبينهم ليدخلَ الله في رحمتِه من يشاء.

﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ﴾ هذا كلامُ ابتداءٍ؛ أي: لو تميَّزوا وأُخلصَ الكفَّارُ وحدَهم ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وقد قيل: لولا رجالٌ ونساءٌ خلصوا ليدخلَ اللهُ في رحمتِه مَن يشاءُ منهم.

* * *

(٢٦) - ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾؛ أي: لعذَّبنا إذ فعلُوا هذا، والحَميَّةُ مصدرُ قولك: حَمَى فلانٌ كذا يَحمِيه حَميَّةً ومَحميَّةً، والحميَّةُ: الحِفاظُ.

وقيلَ: إنَّها من الحمَّى، وهي الحرارةُ.

﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾؛ أي: أَنِفُوا من دخولِ المؤمنين مكَّة.

وقيلَ: كانَت حميَّتُهم أنَّهم لم يُقِرُّوا بأنَّه نبيُّ الله، ولم يرضَوا بأن يُصدَّرَ الكتابُ بالتَّسميةِ المعهودةِ في الإسلامِ.

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ثبَّتَهم على الرِّضا والتَّسليم لأمرِ الله، ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾؛ أي: ألزمَ المؤمنين كلمةَ الإخلاصِ، وهي لا إلهَ إلا الله، روى أبيُّ بنُ كعبٍ عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ أنَّه قالَ في تفسيرِها: «هي لا إلهَ إلا الله»(١).

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٦٥) وقال: غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسن بن قزعة. قال: وسألت =

وقالَ الزُّهريُّ: هي بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ[1]؛ يعني: أنَّ المشركين لم يُقرُّوا بهذه الكلمةِ فخصَّ الله بها المؤمنين.

وكلمةُ التَّقوى: هي الَّتي يُتَّقى بها من الشِّرك.

﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾؛ أي: أحقَّ بها من كفَّارِ مكَّةَ وكانوا أهلَها في علمِ الله.

***

= أبا زرعة عن هذا الحديث فلم يعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه.

وروي هذا القول عن جمع من السلف، رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣١٠)، والطبراني في «الدعاء» (١٦٠٧)، والحاكم في «مستدركه» (٣٧١٧) وصححه، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٩٧)، عن علي رضي الله عنه.

ورواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣١١)، والطبراني في «الدعاء» (١٦١١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٩٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ورواه عبدُ الرزاق في «تفسيره» (٢٩١٨)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣١٢)، عن قتادة.

ورواه الطبريُّ في «تفسيره» (٢١/ ٣١٢)، والطبراني في «الدعاء» (١٦٢٠)، عن مجاهد. وعلقه عنه البخاريُّ قبل الحديث (٦٦٨١).

ورواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣١٢)، والطبراني في «الدعاء» (١٦٢١)، عن عكرمة.

(١) رواه عنه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣١٤)، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٦٣)، والمستغفري في «فضائل القرآن» (٥٥٤). وقال الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣١٩): وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء، وذلك أن سهيل بن عمرو كان عند النبي صلى ﷺ وهو يملي كتاب الصلح وسهيل مشرك، فقال رسول الله ﷺ لعلي: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: لا ندري ما الرحمن، ولكن اكتب: باسمك اللهم..». الحديث وقد تقدم.

(٢٧) - ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ﴾ هذا يدلُّ على أنَّه أَرَى النَّبيَّ عليه السَّلامُ ما تأويلُه دخولُ مكَّة، فأخبرَ أصحابَه، ولـمَّا صُدُّوا عن البيتِ وانصرفُوا كانَ في القلوبِ من الرُّؤيا شيءٌ، حتَّى قالَ أبو بكرٍ: إنَّ المنامَ لـم يكن مؤقَّتاً بوقتٍ، وإنَّه سيدخلُ. فمعنى الآيةِ: ما أريناه من هذا المنامِ كانَ صدقاً.

﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أي: حقَّقَ اللهُ ما أراه.

﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ﴾؛ أي: تدخلونه مُحرِمين بالعمرةِ، وفي الخبرِ: «رؤيا الأنبياءِ وحيٌ»[١]، فالرُّؤيا أحدُ وجوهِ الوحي إلى الأنبياءِ، ولم يكن ما يدلُّ عليه التَّعبير.

﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾؛ أي: في القابلِ؛ أي: رأى الدُّخولَ أو رأى ما تعبيرُه الدُّخول.

وقولُه: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ ترجعُ إلى الدُّخولِ أو إلى الأمنِ[٢].

وقالَ أبو عبيدةَ: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾؛ أي: إذ شاءَ الله حيثُ أرى رسولَه ذلك[٣].

وكانَ استثنى فيما يَعلمُ ليستثنيَ الخَلقُ فيما لا يعلمون، وكانَ علمُ الله أنَّه يُميتُ بعضَ هؤلاء الذين كانُوا بالحُدَيبيةِ، فوقعَ الاستثناءُ لهذا المعنى.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) في (ف): «الأمر»، والصواب المثبت.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٣١١)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٢٣).

﴿ءَامِنِينَ﴾؛ أي: من العدوِّ.

﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ﴾ يُقال: حَلَقَ رأسَه وحلَّقَ بمعنًى.

﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾؛ أي: من الشَّعر، يُقالُ: قصَّرَ شعرَه؛ أي: جزَّ من طولِه.

والمحرمُ يتخيَّرُ بين التَّقصيرِ[1] والحلقِ.

﴿لَا تَخَافُونَ﴾ هذا حالٌ من المحلِّقين والمقصِّرين، والتَّقدير: غيرَ خائفين.

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾؛ أي: علمَ في تأخيرِ الدُّخولِ من الخيرِ والصَّلاح، ولم تعلموه أنتم، وهو خروجُ المؤمنين من بينِهم، والصُّلحُ العظيمُ الوقعِ.

﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: من قبلِ الدُّخول ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو ما تيسَّرَ من هذا الصُّلحِ الَّذي هو فتحٌ قريبٌ إلى دخولِ مكَّة؛ لأنَّ دخولَها وقعَ في العامِ المقبل.

وقيلَ: أرادَ بالفتحِ القريبِ: فتحَ خيبرَ بدلاً عمَّا فاتَهم من غنائمِ أهلِ مكَّةَ لو قاتلوهم.

* * *

(٢٨) ـ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ﴾ بيَّنَ أنَّه يفتحُ عليه مكَّةَ وغيرَها حتَّى يظهرَ دينُ الإسلام.

---

(١) في (أ): «القصر»، والصواب المثبت.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾؛ أي: ليظهرَ دينَ الحقِّ ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، والدِّينُ اسمٌ بمعنى المصدرِ، ويستوي لفظُ الواحدِ والجمعِ؛ أي: على الأديانِ كلِّها.

وقيلَ: أي: ليظهرَ رسولَه على الدِّين كلِّه؛ أي: على الدِّين الَّذي هو شرعُهُ.

والظُّهورُ: العلوُّ والغلبةُ، وظهورُ هـذا الشَّرعِ على الأديانِ بالحجَّةِ، ثمَّ باليدِ والسَّيفِ وبنسخِ ما عداه.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾؛ أي: كفى اللهُ شهيداً لنبيِّه عليه السَّلامُ، وشهادتُه له تبيِّنُ صحَّةَ نبوَّتِه بالمعجزات.

وقيلَ: شهيداً على ما أُرسِلَ به، وذلك لأنَّ الكفَّار أبَوا أن يكتبوا: هذا ما صالحَ عليه محمَّدٌ رسولُ اللهِ.

* * *

(٢٩) ـ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾.

قولُه تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ مبتدأٌ و﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ خبرُه.

وقيلَ: ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ ابتداءٌ و﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ نعتُه، ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ عطفٌ على المبتدأ، والخبرُ فيما بعده.

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ يعني: جميعَ المؤمنين، وقالَ ابنُ عبَّاس: أهل الحُدَيبية[1].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٢٥).

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾؛ أي: غلاظٌ عليهم كالأسدِ على فريستِه ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: يرحمُ أحدُهم الآخر، وقيلَ: يتوادُّون.

﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ هذا إخبارٌ عن كثرةِ صلاتِهم.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾؛ أي: يطلبون الجنَّةَ ورضا الله.

وقيلَ: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه عَظُمَ[1] على المؤمنين أن يردُّوا إلى الكفَّارِ من جاءَهم مسلماً، كما جاءَ في كتاب الصُّلحِ.

﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾؛ أي: لاحَت علاماتُ التَّهجُّدِ باللَّيلِ وأماراتُ السَّهر، وفي الخبرِ: مَن كَثُرَت صلاتُه باللَّيلِ حَسُنَ وجهُه بالنَّهار[2].

---

(١) في (أ): «على أنَّه أعظم»، والصواب المثبت.

(٢) رواه ابن ماجه (١٣٣٣) من حديث جابر رضي الله عنه، وهو باطل مرفوعًا، والصواب أنه من كلام شريك، قال محمَّد بن عبد الله بن نمير ـ كما في «الكامل» لابن عدي في ترجمة ثابت بن موسى ـ: باطِل، شُبِّه على ثابت، وذلك أن شريكًا كان مزاحًا، وكان ثابت رجلًا صالحًا، فيشتبه أن يكون ثابت دخل على شريك، وكان شريك يقول: الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن النبي ـ ﷺ ـ فالتفت فرأى ثابتًا، فقال يمازحه: من كثرت صلاته بالليل حَسُن وجهه بالنهار، فظن ثابت لغفلته أن هذا الكلامَ الذي قال شريك هو من الإسناد الذي قرأه، فحمله على ذلك، وإنما ذلك قول شريك.

قلت: وذكر الحاكم في «المدخل إلى كتاب الإكليل» (ص: ٦٣) نحو كلام ابن عدي وزاد: وليس لهذا الحديث أصل إلا من هذا الوجه، وعن قوم من المجروحين سرقوه من ثابت بن موسى فرووه عن شريك. أخبرنا بصحة ما ذكرته أبو عمرو عثمان بن عبد الله السماك ببغداد قال: حدثنا أبو الأصبغ محمد بن عبد الرحمن بن كامل قال: قلت لمحمد بن عبد الله بن نمير: ما تقول في ثابت بن موسى؟ قال: شيخ له فضل وإسلام ودين وصلاح وعبادة. قلت: ما تقول في حديث جابر: «من كثر صلواته بالليل...»؟ فقال: غلط من الشيخ، وأما غير ذلك فلا يتوهم عليه. وانظر: «الموضوعات» لابن الجوزي (٢/ ٣٤ ـ ٣٦) فقد رواه من طرق عدة عن جابر وأنس وقال: لا يصح.

وقيلَ: أي: يُعرَفون يومَ[1] القيامةِ بعلاماتِهم من كثرةِ الصَّلاة، كقولِه عليه السَّلام: «أمتي غرٌّ مُحجَّلون من آثارِ الوضوء»[2].

وقالَ ابنُ عبَّاس: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ ممَّا حملت جباهُهم من الأرضِ وممَّا علِقَ بها من التُّراب[3].

وقالَ الزُّهريُّ: تكونُ مواضعُ السُّجود من وجوهِهم يومَ القيامةِ كالقمرِ ليلةَ البدر[4].

وقيلَ: أرادَ به الهديَ والسَّمتَ الحَسَن.

﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾؛ أي: وصفُ هذه الأُمَّة في التَّوراةِ أنَّهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ﴾.

وقيلَ: يعني: ذلك مثلُهم[5] في التَّوراةِ والإنجيل، ثمَّ ابتدأ فقالَ: ﴿كَزَرْعٍ﴾؛ أي: هم كزرعٍ، أو رسولُ اللهِ كزرعٍ، فالكافُ في محلِّ الرَّفع؛ لأنَّه خبرُ المبتدأ المحذوف.

---

(١) في (أ): «نور»، والصواب المثبت.

(٢) رواه البخاري (١٣٦)، ومسلم (٢٤٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٢٦)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٢٥) من قول عكرمة بلفظ: «هو أثر التراب».

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٢٧) عن الزهري وشهر بن حوشب، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٣١٤)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (١٣/ ٤٨٣) من قول شهر بن حوشب.

(٥) في (أ): «في مثلهم»، والصواب المثبت.

﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ قُرِئَ بسكون الطاء وفتحها[1]، يُقال: شطَأَت الشَّجرةُ بغصونها؛ أي: أخرجَت غصونَها، وجمعُ الشَّطءِ: أشطاءٌ، وقد أشطأَ الزَّرع؛ أي: فرَّخَ.

وقالَ الزَّجَّاجُ: ﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾؛ أي: أخرجَ نباتَه[2].

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ بالمدِّ، وقرأ ابنُ عامرٍ ﴿فأَزَرَهُ﴾ مثلَ فَعَلَه بالقصر[3]؛ أي: هذه الأفرُخُ لحقَت الأمَّهاتِ حتَّى صارَت مثلَها، فآزرَ الشَّطءُ الزَّرعَ فصارَ في طولِه.

ثمَّ؛ قيل: [قوَّى][4] الشَّطءُ الزرعَ، وقيلَ: قوَّى الزَّرعُ الشَّطء.

وقيلَ: ﴿آزَرَه﴾ من بابِ المفاعلةِ، يُقال: آزرَه يؤازرُه مؤازَرَة.

وقيلَ: (آزرَ): أَفْعَلَ، والمستقبلُ: يُؤزِر، ويُقال: أزَرَه يأزِره؛ أي: قوَّاه[5]، مثل عزَرَه يَعزِرُه، وليس هذا من (الوِزْر)؛ لأنَّ هذا مهموزُ الفاء، و(الوزر) فاؤه واوٌ[6].

﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾؛ أي: صارَ غليظاً، وهذا لازمٌ.

﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾؛ أي: استوى الزَّرعُ على سوقِه، جمع السَّاق.

---

(١) قرأ ابن كثير وابن ذكوان عن ابن عامر بفتح الطاء، والباقون بسكونها. انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٤)، و«التيسير» (ص: ٢٠٢).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٩).

(٣) هي رواية ابن ذكوان عن ابن عامر. انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٠)، و«التيسير» (ص: ٢٠٢).

(٤) زيادة يقتضيها السياق. انظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٤٥).

(٥) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٣٢) عن أبي الحسن الأخفش قال: الأشبه في آزر أَفْعَلَ لا فاعَلَ؛ ليكون قول ابن عامر: ﴿أَزَرَه﴾: فعَله، فيكون فيه لغتان فَعَل وأفْعَل، لأنهما كثيرًا ما يتعاقبان على الكلمة كما قالوا: أَلَتَهُ وآلَتَهُ يُؤْلِتُهُ، وكذلك أزره وآزره.

(٦) في (أ) زيادة: (يا).

﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾؛ أي: يعجبُهم حسنُ زرعِه حين استوى قائماً على ساقه، وهذا مثلٌ ضربَه الله؛ فالزَّرعُ محمَّدٌ، والشَّطءُ أصحابُه والمؤمنون حولَه، وكانوا في ضعفٍ وقلَّةٍ، كما كانَ الزَّرعُ دقيقاً ثمَّ غَلظَ وتلاحَقَ، كذلك قَوِي المؤمنون بعضُهم ببعضٍ.

وقالَ الزَّجَّاجُ: الزُّرَّاعُ: الدُّعاةُ إلى الإسلامِ[1]؛ أي: قوَّةُ الإسلامِ تعجبُ الدُّعاة.

وقيلَ: هذا إعجابُ النَّبيِّ وإعجابُ غيرِه بأصحابِه فيما يرونه مِن توازرِهم على نُصرتِه، وسائرُ الأنبياءِ يعجَبون يومَ القيامةِ لِـمَا يرونَ من فضلِهم على سائرِ أتباعِ الأنبياءِ، فالزُّرَّاعُ مثلُ الأنبياء.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾؛ أي: فعلَ الله بهم ذلك ليغيظَ بهم الكفَّارَ.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: وعدَ هؤلاء الذين أعمالُهم صالحةٌ ﴿مَّغۡفِرَةً﴾، و(مِن) هاهنا للتَّمييزِ والتَّبيينِ، كقولِه: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾[الحج: ٣٠]، ويُقال: أنفِقْ نفقتَك من الدَّراهم؛ أي: اجعل نفقتَك هذا الجِنسَ.

ثـمَّ؛ تخصيصُ أصحابِ محمَّدٍ بوعدِ المغفرةِ تفضيلٌ لهم، وإن وُعِدَ جميعُ المؤمنين المغفرة.

﴿وَأَجۡرًا عَظِيمًا﴾؛ أي: ثواباً عظيماً لا ينقطع.

* * *

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٩).

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

تفسيرُ سورةِ الحجرات

بسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ كانَ في العربِ جفاءٌ وسوءُ أدبٍ في خطابِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وتلقيبِ النَّاسِ، فالسُّورةُ في الأمرِ بمكارمِ الأخلاقِ ورعايةِ الأدبِ.

﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ بضمِّ التَّاء من التَّقديم، وقُرِئَ ﴿لا تَقَدَّموا﴾ بفتح التَّاء من التَّقدُّم[1].

ومعنى الأوَّل: لا تُقدِّموا قولاً ولا فعلاً بين يدي قولِ رسولِ اللهِ وفعلِه فيما سبيلُه أن تأخذوه عنه من أمرِ الدِّين والدُّنيا، ومَن قدَّمَ قولَه أو فعلَه على الرَّسول فقد قدَّمَه على الله؛ لأنَّ الرَّسولَ إنَّما يأمرُ عن أمرِ الله.

وقيلَ: قدَّمَ بمعنى: تقدَّم، وهو لازمٌ، كما تقولُ: حوَّلَ بمعنى: تحوَّلَ، ذكره الأزهريُّ.

﴿بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ أي: أمامَه وقُدَّامَه، ويرجعُ ذلك إلى قُدَّامِ الأمرِ والنَّهيِ؛ أي: لا تقدِّموا قبلَ أمرِهما ونهيِهما.

نزلَتِ الآيةُ في قومٍ كانُوا يقولونَ: لو كانَ أنزلَ كذا وكذا لكانَ كذا وكذا[2].

---

(١) هي قراءة يعقوب من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٣٧٥).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٩٢٢)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٣٦)، وابن أبي حاتم في =

وقيلَ: ذبحَ ناسٌ قبلَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ يومَ النَّحرِ فنزلَت الآيةُ(١).

وقيلَ: نزلَت في الثَّلاثةِ الذين قتلُوا الرَّجلين السُّلَميَّين(٢) الذين اعتَزَيا إلى بني عامرٍ، وبنو عامرٍ هم الذين قتلُوا أصحابَ بئرِ معونةَ، وقالَ عليه السَّلام: «بئسَ ما صنعتُم هما رجلانِ من بني سليمٍ من أهلِ ميثاقي»(٣).

والآيةُ عامَّةٌ في النَّهيِ عن أن يَسبقُوا رسولَ اللهِ عليه السَّلامُ بشيءٍ من الأحكامِ ويَعجَلوا بالقضاءِ قبلَ قضائِه، ومثلُه ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ ﴾ الآية [النساء: ٨٣].

وقالَ ابنُ عبَّاس: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ أي: لا تقولُوا خلافَ الكتابِ والسُّنَّة(٤).

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: خافوا عقابَه بتقديمِكم بين يدي رسولِه.

* * *

(٢) - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ هذا متَّصلٌ بما قبلَه، وهو الأمرُ بتوقيرِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والتَّواضعِ له.

= «تفسيره» (١٠/ ٣٣٠٢)، عن قتادة.

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٩٢٣)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٣٦)، عن الحسن.

(٢) في (أ): «المسلمين»، والصواب المثبت، والسلميين نسبة إلى بني سليم.

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٤٥٩)، وذكره عنه السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٣٢٢).

(٤) رواه محمد بن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (٧١٥)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٣٠٢).

نزلَت في ثابتِ بن قيسِ بن شَمّاسٍ وكانَ في أذنِه وَقْرٌ، وكانَ جَهْوَرِيَّ الصَّوت، وكانَ إذا كلَّم إنساناً جهرَ بصوتِه، وربَّما كانَ يكلِّمُ رسولَ اللهِ فينادي بصوتِه، فنزلَتِ الآيةُ، فقالَ: أنا الَّذي كنتُ أرفعُ صوتي، فأنا من أهلِ النّارِ. وقعدَ في بيتِه حزيناً، فذُكِرَ ذلك لرسولِ اللهِ فقال: «هو من أهلِ الجنَّة»[1].

وقيلَ: قدمَ رَكْبٌ من بني تميمٍ على النَّبيِّ عليه السَّلامُ، فأشار أبو بكرٍ إلى أن يُؤمِّرَ عليهم القعقاعَ، وأشارَ عمرُ بأن يُؤمِّرَ الأقرعَ بنَ حابس، وتماريا، فنزلَتِ الآيةُ، فقالَ عمرُ بعد ذلك: لا يَسمعُ النَّبيُّ عليه السَّلامُ صوتي حتَّى يستفهمَه[2].

﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾؛ أي: لا تَدْعوه باسمِه فتقولوا: يا محمَّدُ، يا بنَ عبدِ الله، بل عظِّموه وقولوا: يا رسولَ اللهِ.

وقيلَ: كانَ المنافقون يرفعون أصواتَهم عندَ النَّبيِّ ﷺ ليقتديَ بهم ضَعَفةُ المسلمين، فنُهِيَ المسلمون عن ذلك.

﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾؛ أي: «لئلَّا تحبط أعمالكم» عند الكوفيين، و: «مخافةَ أن تحبط» عند البصريين.

وقد قالَ مالكٌ: مَن قالَ: «إنَّ [زرَّ] رسول اللهِ ﷺ وسخٌ» يُريد به النَّقصَ؛ وجبَ قتلُه[3].

وقيلَ: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ﴾؛ أي: لا تجهروا عليه، كما يُقالُ: سقطَ لِفيه، أو: على فيه.

---

(١) رواه بنحوه البخاري (٣٦١٣)، ومسلم (١١٩)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه بنحوه البخاري (٤٣٦٧)، و(٤٨٤٥)، و(٤٨٤٧)، من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما.

(٣) ذكره الزجاج في «معاني القرآن» (٥/ ٣٢)، وعنه الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٤٤) وما بين معكوفتين منهما. وفيهما: «قال بعض الفقهاء».

(٣) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يَخفِضون أصواتَهم عندَه إذا كلَّموه إجلالاً له، أو كلَّموا غيره بين يديه إجلالاً له.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: اختبرَ الله ﴿قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ليُظهرَ للعبادِ طاعتَهم له.

قالَ ابنُ عبَّاس: لمَّا نزلَت هذه الآياتُ آلى أبو بكرٍ أن لا يكلِّمَ رسولَ اللهِ إلا كأخي السِّرار، فنزلَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ﴾[(١)].

والغضُّ: النَّقصُ في كلِّ شيء، ومنه: غضُّ البصرِ، وغضُّ الصَّوت.

وقالَ ابنُ عبَّاس: ﴿ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾؛ أي: طهَّرَهم من كلِّ قبيحٍ، وجعلَ في قلوبهم الخوفَ من الله والتَّقوى[(٢)].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٤٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما دون سند.
ورواه الحارث في «مسنده» (٩٥٧)، ومحمد بن نصر في «الصلاة» (٧٢٩)، والبزار في «مسنده» (٥٦)، والحاكم في «المستدرك» (٤٤٤٩)، من حديث أبي بكر رضي الله عنه. وصححه الحاكم، فتعقبه الذهبي بقوله: حصين بن عمر واهٍ. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٠٨): «فيه حصين بن عمر الأحمسي وهو متروك وقد وثقه العجلي، وبقية رجاله رجال الصحيح».
ورواه الحاكم في «المستدرك» (٣٧٢٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه. وقال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٣٢٧): «وحديث أبي بكر غريب».
والذي رواه البخاري (٧٣٠٢) أن هذا كان في شأن عمر رضي الله عنه، ولفظه: قال ابن الزبير: «فكان عمر بعد إذا حدث النبي ﷺ بحديث حدثه كأخي السرار لم يسمعه حتى يستفهمه»، وقال ابن أبي مليكة: «ولم يذكر ذلك عن أبيه يعني أبا بكر».
قال ابن حجر في «فتح الباري» (١٣/ ٢٧٩)؛ والسِّرار: الكلام السر، ومنه: المساررة، وأما قوله: «كأخي سرار»، فقال ابن الأثير: كصاحب السرار.
(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٤٦) من رواية عطاء عن ابن عباس.

وقيلَ: الامتحانُ من مَحَنتُ الأديمَ مَحْناً؛ أي: مدَدْتُه حتَّى أوسَّعَه، فمعنى ﴿ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾؛ أي: وسَّعَها وشرحَها للتَّقوى، وعلى الأوَّلِ: امتحن قلوبهم فأخلصها؛ كقولك: «امتَحَنْتُ الفِضَّةَ»؛ أي: اختبرتُها حتى خلصت[1]، وفيه محذوفٌ يدلُّ عليه الكلامُ، وهو الإخلاصُ.

ولـمَّا نزلَتِ الآيةُ قالَ ثابتُ بن قيسٍ: ما يسرُّني أنِّي لم أجهر بصوتي عندَ رسول اللهِ؛ إذ امتحنَ الله قلبي للتَّقوى، وجعلَ لي مغفرةً وأجراً عظيماً[2].

وقُتِلَ هذا يومَ مُسيلمةَ شهيداً[3].

---

(١) في (أ): «وعلى الأوَّلِ ﴿ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾؛ أي: وسَّعَها وشرحَها للتَّقوى»، ولعله سبق نظر من الناسخ والله أعلم، والمثبت من «تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٦٤). ومعنى الكلام ما قاله الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٤٦): أن الامتحان معناه في اللغة: الاختبار، والاختبار إنما يكون للإخلاص؛ كما يمتحن الذهب بالنار ليخلص، والتقدير: امتحن الله قلوب فأخلصها للتقوى، فحذف الإخلاص لدلالة الامتحان عليه، وذلك أن الامتحان إنما كان للإخلاص.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل بن سليمان» (٤/ ٩٠)، ورواه محمد بن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (٧٢٧) عن مقاتل بن حيان، وذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٤٦) عن المقاتلَين.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٢٣٩٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٧١٦٧)، عن أنس بن مالك قال: لما نزلت هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ قعد ثابت بن قيس بن شماس في بيته وقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي وأجهر له بالقول، وأنا من أهل النار، ففقده النبي ﷺ فأخبروه، فقال: «بل هو من أهل الجنة». قال أنس: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة وكان ذلك الانكشاف لبس ثيابه وتحنط وتقدم فقاتل حتى قتل. وإسناده صحيح على شرط مسلم. ورواه البخاري (٣٦١٣)، ومسلم (١١٩)، دون كلام أنس في آخره.

ورواه أبو يعلى كما في «المطالب العالية» (٤٠٨٢)، والطبراني في «الكبير» (١٣٢٠)، والحاكم في «المستدرك» (٥٠٣٦)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٣٥٦ ـ ٣٥٧)، من حديث ابنة ثابت بن =

وكانَ رسولُ اللهِ بشَّرَه بالجنَّة لـمَّا قعدَ في بيتِه يبكي إلى أن أخرجَه رسولُ اللهِ ﷺ من البيتِ[1].

ولمَّا قُتِلَ رآه رجلٌ في المنامِ كانَ يقول: إنَّ فلاناً نزعَ درعي فذهبَ بها وهو في ناحيةٍ من العسكر، وإنَّه وضعَ عليه بُرمةً، فائتِ خالداً فأخبرْه حتَّى يستردَّ درعي، وائتِ خليفةَ رسول اللهِ فقل له: إنَّ عليَّ ديناً؛ حتَّى يقضيَ ديني، وفلانٌ من رقيقي عتيقٌ. فأخبرَ الرَّجلُ خالداً فوجدَ الدِّرع كما وصَفَ، وأخبرَ خالدٌ بالقصَّة أبا بكرٍ فأجازَ وصيَّته. قالَ مالكٌ: لا أعلمُ وصيَّةً أُجيزَت بعدَ موتِ صاحبِها إلا هذه[2].

وقيلَ: ﴿ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾؛ أي: عَلِمَ منها التَّقوى.

﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: ثوابٌ جليل.

* * *

(٤) ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ ﴾ قالَ زيدُ بنُ أرقم: جاءَ ناسٌ إلى النَّبيِّ ﷺ وجعلُوا ينادونه وهو في حجرتِه: يا محمَّدُ، فنزلَت الآيةُ[3].

= قيس، وفيه: أن رسول الله ﷺ قال له: «يا ثابت، ألا ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟» قال: بلى، يا رسول الله، قال: فعاش حميدًا، وقتل شهيدًا يوم مسيلمة الكذاب. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٣٢٢): رواه الطبراني، وبنت ثابت بن قيس لم أعرفها وبقية رجاله رجال الصحيح، والظاهر أن بنت ثابت بن قيس صحابية فإنها قالت: «سمعت أبي» والله أعلم.

(١) انظر التعليق السابق.

(٢) وردت هذه القصة في حديث ابنة ثابت بن قيس المتقدم، وذكر قول مالك الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٧٢)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٣٦)، وهو وارد في آخر الحديث المذكور.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٤٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٣٠٢)، والطبراني =

وقيلَ: نزلَت في جُفاةِ بني تميمٍ، قدمَ الوفدُ منهم إلى النَّبيِّ عليه السَّلامُ [ينادونه] من وراءِ حجرتِه: أن أخرجْ إلينا؛ فإنَّ مدحَنا زَينٌ، وذمَّنا شَينٌ. وكانوا سبعين رجلاً قدموا لفداءِ ذراريَ لهم سُبيَت[1]، وكانَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ نامَ للقائلةِ[2].

والحُجُراتُ: جمعُ حُجْرةٍ كالغُرفاتِ جمع غُرفةٍ، والظُّلماتِ جمع ظُلمةٍ، ومنهم مَن يفتح الجيم استثقالاً للضَّمتين[3]، وأصلُ الكلمةِ: المنعُ، وكلُّ ما منعْتَ أن يُوصَلَ إليه فقد حجَرْتَ عليه.

= في «المعجم الكبير» (٥١٢٣)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٠٨): «رواه الطبراني، وفيه داود بن راشد الطفاوي وثقه ابن حبان وضعفه ابن معين، وبقية رجاله ثقات».

(١) تحرفت العبارة في (أ) إلى: «الفداء ورأى لهم سبب»، والصواب المثبت.

(٢) رواه ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس مطولًا كما في «الكافي الشاف» (ص: ١٥٦)، والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

ورواه مطولاً ومختصراً ابن أبي خيثمة في «التاريخ الكبير» (١/ ٨٥)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٣١٣)، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (١/ ١٠٣)، وابن عساكر في «تاريخه» (١٠/ ٢٧٢ ـ ٢٧٤)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٨٧)، جميعهم عن ابن إسحاق قوله.

ورواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٣٥١ ـ ٣٥٢)، والحنائيُّ في «فوائده» (٢/ ١١٠٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٩٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٢/ ٤٠٨)، من حديث جابر رضي الله عنهما في خبر طويل، ولكنه عند الثعلبي والواحدي في نزول قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، وعند غيرهما لم يذكر فيه نزول شيء. وفي إسناده معلى بن عبد الرحمن الواسطي، وهو متهم بالوضع كما في «التقريب».

ويشهد للقصة ما رواه الترمذي (٣٢٦٧)، والنسائي في «الكبرى» (١١٥١٥)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ٢٩٦)، وفيه: عن البراء بن عازب في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قال: فقام رجل، فقال: يا رسول الله، إن حمدي زين، وإن ذمي شين. فقال النبي ﷺ: «ذاك الله». قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٣) هي قراءة أبي جعفر من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٣٧٦).

ثمَّ؛ يحتملُ أن يكونَ المناديَ بعضاً مـن الجملةِ، فلهذا قـالَ: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: إن الذين ينادونك من جملةِ قومِ الغالبُ عليهم الجهلُ.

* * *

(٥) ـ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: لو انتظروا خروجَك لكانَ أصلحَ لهم في دينِهم ودنياهم، وكانَ عليه السَّلامُ لا يحتجبُ عن النَّاسِ إلا في أوقاتٍ يشتغلُ فيها بمُهِمَّاتِ نفسِه، وكانَ إزعاجُه في تلك الحالةِ من سوءِ الأدب.

وقيلَ: كانُوا جاؤوا شفعاءَ في أسارى بني عنبرٍ، فأعتقَ رسولُ اللهِ نصفَهم، وفادى على النِّصف، ولو صبروا لأعتقَ رسولُ اللهِ جميعَهم بغيرِ فداءٍ[1].

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مع سوءِ أدبِهم.

وقيلَ: لمَن تابَ منهم.

* * *

(٦) ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ نزلَت في الوليدِ بنِ

---

(١) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٤/ ٩١) وذكره الواحدي عن مقاتل في «البسيط» (٢٠/ ٣٤٨)، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢٤/ ٣٥٨) بلا نسبة، وذكر نحوه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٧٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولعله من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، فقد ذكر نحوه أبو حفص النسفي في «التيسير» (١٣/ ٥٠٠) عن الكلبي. وانظر القصة مطولة في «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٤/ ٣٤٦ـ ٣٤٧).

عقبةَ بن أبي مُعَيطٍ، بعثَه رسولُ اللهِ ﷺ إلى بني المصطلقِ بعدَ إسلامِهم، فلمَّا سمعُوا به ركبُوا إليه، فلمَّا سمعَ بهم خافَهم، فرجعَ إلى رسولَ اللهِ، فأخبرَه أنَّ القومَ قد همُّوا بقتلِه ومنعُوا صدقاتِهم، فهمَّ رسولُ اللهِ عليه السَّلامُ أن يغزوَهم، فبينما هم كذلك إذ قدمَ وفدُهم على رسولِ اللهِ ﷺ، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، سمعنا برسولِك فخرجنا إليه لنكرمَه ونُؤدِّيَ إليه[١] ما قِبَلَنا من الصَّدقةِ فاستمرَّ راجعاً، وبلَغَنا أنَّه يزعمُ لرسولِ اللهِ أنَّا خرجنا إليه لنقاتلَه، وواللهِ ما خرجنا لذلك. فأنزلَ اللهُ هذه [الآية][٢].

وقيلَ: كانَ بينَ الوليدِ وبين القومِ إحْنةٌ[٣].

وقيلَ: بعثَ إليهم رسولُ اللهِ بعدَ الوليدِ خالدَ بنَ الوليدِ، فلمَّا دنا منهم بعثَ عيوناً ليلاً، فإذا هم يُنادون ويُصلُّون، وأتاهم خالدٌ فلم يرَ منهم إلا الطَّاعةَ، فرجعَ إلى النَّبيِّ عليه السَّلامُ، وأخبرَه، ونزلَ: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[٤].

---

(١) في (أ): «إلينا»، والصواب المثبت.

(٢) روى القصة الإمام أحمد في «المسند» (١٨٤٥٩)، والطبراني في «الكبير» (٣٣٩٥)، من حديث الحارث بن أبي ضرار الخزاعي رضي الله عنه، قال الهيثمي في «مجمع الزوئد» (٧/ ١٠٩): «رجال أحمد ثقات»، وقال ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٣٧٠): «ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق. وقد روي ذلك من طرق، ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده من رواية ملك بني المصطلق، وهو الحارث بن ضرار، والد جويرية بنت الحارث أم المؤمنين، رضي الله عنها».
وذكر القصة ابن هشام في «سيرته» (٢/ ٢٩٦) عن ابن إسحاق، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٥٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة وابن أبي ليلى ويزيد بن رومان. وذكر ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٤/ ١٥٥٣) إجماع العلماء على أنها نزلت في الوليد بن عقبة.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٥٣) من طريق ابن إسحاق عن يزيد بن رومان. والإِحْنة: الحقد في الصدر. انظر: «مقاييس اللغة» لابن فارس (١/ ٦٧).

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٩٢٩)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٥١) عن قتادة.

قُرِئَ ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ من التَّبيُّن، وقُرِئَ ﴿فتَثَبَّتُوا﴾[(١)]، والمعنى قريبٌ.

واتَّصلَ هذا بما تقدَّمَ؛ لأنَّ من إجلالِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ صيانةَ مجلسِه عن الكذبِ.

﴿أَن تُصِيبُواْ﴾؛ أي: لئلا تصيبوا، أو: كراهةَ أن تصيبوا ﴿قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾؛ أي: على جهلٍ بحالِهم ﴿فَتُصۡبِحُواْ﴾ نادمين على الفعلةِ.

ومَن قضَى بما يَغلِبُ على الظنِّ لـم يكن ذلك عملاً بجهالةٍ كالقضاءِ بالشَّاهدين العَدْلين، وقَبولِ قولِ العالمِ المجتهدِ، وإنَّما العملُ بالجهالةِ قَبولُ قولِ مَن لا تحصلُ غلبةُ الظَّنِّ بقولِه.

* * *

(٧) - ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أنَّ اللهَ يُعلِمُه ما تُضمرون فاتَّقوا الكذبَ ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾؛ أي: لو تَسارَعَ إلى مـا أردْتُم قبلَ وضوحِ الأمرِ لنالَكم مشقَّةٌ وإثمٌ؛ فإنَّه لو قتلَ القومَ الذين سعَى بهم الوليدُ بنُ عقبةَ إليه لكانَ خطأً، ولعَنِتَ مَن أرادَ إيقاعَ الهلاكِ بأولئك القومِ لعداوةٍ كانَت بينه وبينهم.

ومعنى طاعةِ الرَّسولِ لهم: الائتمارُ بما يأمرونه فيما يتلقَّونه عـن النَّاسِ، والسَّماعُ منهم.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ ولا تُخبِرون بالباطلِ؛ أي: جعلَ الإيمانَ أحبَّ

---

(١) هي قراءة حمزة والكسائي من السبعة. انظر: «السبعة» (ص: ٢٣٦)، و«التيسير» (ص: ٢٠٢).

الأديانِ إليكم ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾؛ أي: حسَّنَه إليكم حتَّى اخترتموه ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ حتَّى اجتنبتُموه ﴿وَٱلْفُسُوقَ﴾ قالَ ابنُ عبَّاس: يريدُ به الكذبَ[1] ﴿وَٱلْعِصْيَانَ﴾ يريدُ: جميعَ المعاصي.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾؛ أي: مَن أحبَّ الإيمانَ وكرهَ الكفرَ والعصيانَ فهو الرَّاشدُ الَّذي أصابَ طريقَ الحقِّ، وقد عادَ من المخاطبةِ إلى المُغايبة؛ لأنَّ المعنى: [مَن][2] فعلَ هذا فهو راشدٌ.

* * *

(٨) ـ ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾؛ أي: فعلَ الله ذلك بكم ﴿فَضْلًا﴾؛ أي: للفضلِ والنِّعمة، فهو مفعولٌ له.

* * *

(٩) ـ ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ نزلَت في اختلافٍ وقعَ بين نَفَرٍ من الأنصارِ، فتقاتلوا بالأيدي والنِّعالِ والعِصيِّ والجَريد[3].

(١) ذكره عن ابن عباس رضي الله عنهما الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٥٠)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٥٦) عن ابن زيد.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) روى معناه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠) عن مجاهد وأبي مالك، وابن أبي حاتم في =

وقيلَ: قالوا للنَّبيِّ عليه السَّلامُ لو أتيتَ عبدَ اللهِ بنَ أُبيٍّ، فركبَ حماراً وانطلقَ إليه، والمسلمون يمشون وهي أرضٌ سَبْخة، فلمَّا أتاه راثَ حمارُه، فقال: إليك عنِّي فقد آذاني نَتْنُ حمارك، فقالَ عبدُ الله بنُ رواحة: لَحمارُ رسولِ اللهِ أطيبُ ريحاً منك، فغضبَ لابنِ أُبيٍّ قومٌ ولابن رواحةَ قومٌ، وكانَ بينهم ضربٌ بالجريدِ والأيدي والنِّعال، قالَ أنس: فنزلَ فيهم ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآيةَ[1].

﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ بالدُّعاءِ إلى حُكمِ كتابِ الله، ومهما تخاصمَ فريقان فعلى الإمامِ ونائبِه إن حضرا، أو على عدولِ المسلمين، أن يُوْقِعوا الصُّلح بينهما، فإن امتنعَ أحدُهما فهو باغٍ على الآخرِ، فليُمنعْ بالوعظِ ثمَّ بالسِّلاحِ وإن أتى القتلُ عليه.

﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ البغيُ التَّطاولُ والفساد.

﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ترجعَ ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾؛ أي: اعدِلوا فيما تحكمون به بين الفِئتين ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾؛ أي: اعدلوا أيُّها المؤمنون في الحُكم.

وقيلَ: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾ أيُّها النَّاسُ فلا تقتَتِلوا.

وقيل: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾؛ أي: خذُوا بالصُّلحِ والعفو.

* * *

= «تفسيره» (١٠/ ٣٣٠٤) عن سعيد بن جبير.

وروى الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٦٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٣٠٤) عن السدي ما ملخصه: أنها نزلت في خلاف بين رجل من الأنصار وزوجته، فوقع التدافع والتجالد بالنعال بين أهله وأهلها.

(١) رواه البخاري (٢٦٩١)، ومسلم (١٧٩٩) باختلاف يسير.

(١٠) - ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ هذا تحريضٌ على الإصلاحِ بين الفريقين، يعني: أخوَّةَ الإيمان ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾؛ أي: بين كلِّ مُسلمَين تخاصما.

وقيلَ: بين الأوس والخروج في القصَّةِ الَّتي ذكرناها مع ابن أُبيٍّ.

وقالَ أبو عليٍّ: أرادَ بالأخوين: الطَّائفتين؛ لأنَّ لفظَ التَّثنيةِ يَرِدُ والمرادُ به الكثرةُ كقولِه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤][(١)].

وقالَ أبو عُبيدةَ: أي: أصلحوا بين كلِّ أخوين، فهوَ آتٍ على الجمع[(٢)].

وفي الآيةِ دليلٌ على أنَّ البغيَ لا يُزيلُ اسمَ الإيمان؛ لأنَّه قالَ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، ولهذا قالَ عليٌّ رضي الله عنه: «إخوانُنا بغَوا علينا»[(٣)].

***

---

(١) انظر: «الحجة» (٦/ ٢٠٩).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٥٥).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٧٧٦٣)، ومن طريقه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٦٧١٣)، من رواية أبي البختري عن علي رضي الله عنه أنه سئل علي عن أهل الجمل، قيل: أمشركون هم؟ قال: من الشرك فروا، قيل: أمنافقون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، قيل: فما هم؟ قال: إخواننا بغوا علينا.

وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٣٧٢)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٥٥)، من رواية الحارث الأعور عن علي رضي الله عنه.

(١١) - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾؛ أي: صُونُوا المسلمين عن السُّخريةِ والتَّلقيبِ.

قيل: نزلَت في خالدِ بنِ الوليدِ، فإنَّه ذكرَ عماراً مرَّةً فنالَ منه[١].

وقيلَ: سخرَت عائشةُ وحفصةُ من أمِّ سلمةَ لِقصرِها[٢].

وقيلَ: سخرَت عائشةُ من زينبَ بنتِ خزيمةَ الهلاليّة، وكانَت امرأةً قصيرةً تُسمَّى أمَّ المساكين[٣].

---

(١) ذكره أبو حفص النسفي في «التيسير» (١٣/ ٥٠٨) دون نسبة ولا راو.
والذي رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٧٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٨٨) عن السدي، وذكره مقاتل في «تفسيره» (١/ ٣٨٢)، ورواه ابن مردويه - كما في «تفسير ابن كثير»، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٣/ ٤٠٠) من طريق السدي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قصة خلاف وقع بين خالد وعمار، أنها كانت سبب نزول قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٣٧٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٩٣)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٤٣)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٤٩)، جميعهم عن أنس دون سند، ولفظه: نزلت في نساء النبي ﷺ عيَّرن أم سلمة بالقصر.

(٣) ذكره أبو حفص النسفي في «التيسير» (١٣/ ٥١٢) في سبب نزول هذه الآية.
قلت: وكل هذه أخبار لم نقف لها على سند، لكن روى أبو داود (٤٨٧٥)، والترمذي (٢٥٠٢) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبُكَ من صفِيّة كذا وكذا - تعني: قصيرةً - فقال: «لقد قلتِ كلمةً لو مُزِجَت بماء البحرِ لمزجتْه». قال الترمذي: «حديث حسن صحيح». وليس فيه ذكر نزول الآية.

[وقيلَ][١]: قالَت صفيّةُ بنتُ حُييٍّ بنِ أخطب: إنَّ النِّساءَ يقلن لي: يا يهوديةُ بنتَ يهوديِّين، فقالَ عليه السَّلام: «هلَّا قُلتِ: إنَّ أبي هارونُ، وإنَّ عمِّي موسى، وإنَّ زوجي محمَّداً»، فنزلَت الآيةُ[٢].

وقال الليث: القومُ: الرِّجال دونَ النِّساء، ولهذا قال: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ فأفردَهنَّ بالذِّكرِ[٣].

وقيل[٤]: لفظُ القومِ يشملُ القسمين، وأفردَ النِّساءَ بالذِّكرِ لأنَّ السُّخريةَ منهنَّ أكثرُ، وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح: ١] فشملَ الجميعَ.

والسُّخريةُ نوعٌ من الازدراءِ والاستخفاف، إمَّا بشيءٍ خَلقيٍّ كالقِصرِ والدَّمامةِ، أو بالفقرِ وغيرِه، فبيَّنَ اللهُ أنَّ الفضلَ في التَّقوى.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) روى نحوه الترمذي (٣٨٩٤) من حديث أنس رضي الله عنه، دون ذكر نزول الآية، وفيه أن القائل لصفية هي حفصة، وفي آخره: أنه قال: «اتقي الله يا حفصة». قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

وروى نحوه أيضاً الترمذي (٣٨٩٢) من حديث صفية رضي الله عنها، وفيه أن القائل عائشة وحفصة، وليس فيه ذكر الآية أيضاً. وقال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه من حديث صفية إلا من حديث هاشم الكوفي وليس إسناده بذاك.

وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٣٧٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٩٣)، وأبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» (١٣/ ٥١١)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٤٩)، من رواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ذكره الأزهري في «تهذيب اللغة» (٩/ ٢٦٦)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٥٦).

(٤) في (أ): «ولهذا قيل»، والمثبت أنسب بالسياق، أو لعل الصواب: «لهذا وقيل».

﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾؛ أي: أن يكونَ المستهزَأُ بـه عنـدِ اللهِ أفضـلَ مـن المستهزِئِ.

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: لا يَعِب بعضُكم بعضاً، ونبَّهَ بهذا على أنَّ العاقلَ لا يَعيبُ نفسَه، فلا ينبغي أن يَعيبَ غيرَه لأنَّه كنفسِه.

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾؛ أي: لا تدعوا النَّاسَ بالألقابِ الخارجةِ عن الأسماءِ والكُنى، وفي الخبرِ: «مِن حقِّ المؤمِنِ على أخيه أن يدعوَه بأحبِّ أسمائِه إليه»[١].

والتَّنابُزُ تفاعُلٌ من النَّبز، والنَّبْزُ مصدرٌ، وقد يكونُ اسماً للقب.

واللقبُ اسمٌ غيرُ الَّذي سُمِّيَ به الإنسان.

قال مجاهدٌ: هو أن يقولَ لأخيه المسلمِ: يا فاسقُ، يا منافقُ[٢].

﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ﴾ فمَـن أقـدمَ علـى ما نُهي عنه من السُّـخريةِ والنَّبـزِ باللقبِ فذلـك فسـقٌ، وهـو يعـودُ عليه، وفـي الخبـرِ: «مَن قـالَ لأخيـه: يا كافـرُ، فقد بـاءَ به أحدُهما»[٣].

---

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٥٧): لم أجده هكذا. وروى الطبراني في «الأوسط» (٣٤٩٦)، والحاكم في «المستدرك» (٥٨١٥)، عن عثمان بن طلحة الحجبي رفعه قال: «ثلاث يصفين لك ود أخيك: تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه» وفيه موسى بن عبد الملك بن عمير وهو ضعيف.

وروى البخاري في «الأدب» (٨١٩)، والطبراني في «الكبير» (٣٤٩٩)، من حديث حنظلة بن حذيم قال: «كان رسول الله ﷺ يعجبه أن يُدْعى الرجل بأحب أسمائه إليه وأحب كناه». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٥٦): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٦٩).

(٣) رواه البخاري (٦١٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم =

فمعنى الآية: بئسَ الأمرُ أن يُسمَّى المرءُ فاسقاً بعدَ الإيمان؛ أي: لا ينبغي أن تفعلَ هذا مع إيمانك.

وقيلَ: أي: بئسَ الاسمُ أن تقولَ لأخيك: يا يهوديُّ، يا نصرانيُّ، بعد أن أسلمَ.

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾؛ أي: عن هذه الأشياء، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسِهم بارتكاب هذه المناهي.

* * *

(١٢) ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾؛ أي: لا تذكرُوا ما لم تتحقَّقُوه كالوليدِ بنِ عقبة.

وقيلَ: لا تلمِزوا ولا تنابزوا بالألقابِ، فإنَّ بناءَها على ظنونٍ.

﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ يعني: ما ظنَّه فأبداه من غيرِ تحقُّقٍ، فأمَّا مَن ظهرَ منه الفسقُ فذِكرُه لا يُؤثم؛ لأنَّ ذلك تحقيقٌ لا ظنٌّ.

وقيلَ: إنَّما قالَ ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾؛ لأنَّ الظنَّ الحسنَ بالمسلمِ ليس منهيًّا عنه.

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾؛ أي: لا يطلبْ بعضُكم عورةَ بعضٍ، ولا يبحثْ عن سرائرِه ليتبيَّنَ عُيوبَه، يُقالُ: جسَّ الشَّاةِ عن سمنِها، وجسَّ العِرقَ؛ أي: بحثَ عن قوَّةِ حركتِه، ومنه الجاسوسُ؛ لأنَّه يبحثُ عن الأخبار.

= (٦٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾؛ أي: لا يتناولْه بظهرِ الغيبِ بما يسوءُه بما هو فيه، وأمَّا إذا ذكرَه بما ليس فيه فهو بَهْتٌ، ويُقال: اغتابَه اغتياباً وغِيبةً، وحكى الأزهري: غابَه يَغِيبُه؛ أي: عابه(١).

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ ضَرَبَ للغِيبةِ مثلاً فقالَ: كما لا يحبُّ أحدُكم أن يأكلَ لحمَ أخيه ميتاً، فينبغي أن لا يحبَّ اغتيابَه.

وقالَ الزَّجَّاجُ: ذكرُكَ بالسُّوءِ مَن لـم يَحضرْك بمنزلةِ أكلِ لحمِه وهو ميِّتٌ لا يُحسُّ بذلك(٢).

﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ عطفٌ على الاستفهام، والمعنى: لـم تُحبُّوا أكلَ لحمِ الميتِ فكرهتُموه، كقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا﴾ [الشرح: ١ ـ ٢]؛ أي: قد شرَحْنا ووضَعْنا.

وقال الفرَّاء: أي: فقد كرهتُموه فلا تفعلُوه(٣).

وقـالَ مجاهـدٌ: أي: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ﴾ قالـوا: لا، فقيـل: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾؛ أي: فكمـا كرهتُـم ذلـك فاجتنِبوا ذكـرَه بالسُّـوءِ غائباً(٤).

وقيلَ: كرهتُم أن تُغتابوا واكرهوا أن تَغتابوا.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ هو معطوفٌ على قولِه: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾؛ أي: فاكرهوه واتَّقوا الله.

---

(١) انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (٨/ ١٨٣)، و«البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٦٠). وفيهما: «وروي عن بعضهم أنه سمع غابه يغيبه: إذا عابه وذكر منه ما يسوءه».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٧)، و«البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٦١).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٧٣).

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٦٢)، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٨١).

وقيلَ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ عطفٌ على قولِه: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ﴾ و﴿لا تجسَّسوا﴾.

وفي الخبرِ: «مَن أَلْقَى جلبابَ الحياءِ فلا غيبةَ له»[1]، فالغيبةُ إذاً في المُسِرِّ الَّذي يَسترُ نفسَه، فإذا كانَ في ذكرِه بالسُّوء فائدةٌ، كقولِه عليه السَّلام: «أمَّا معاويةُ فصُعلوكٌ لا مالَ له، وأمَّا أبو جَهمٍ فلا يضعُ عصاه عن عاتقِه»[2] فهذا جائزٌ، وكانَ مقصودُه أن لاتغترَّ فاطمةُ بنتُ قيسٍ بهما.

قُرِئَ ﴿ميتاً﴾ بالتَّخفيفِ والتَّشديد[3].

* * *

---

(١) رواه المؤمل بن إيهاب في «جزئه» (ص: ٩٩)، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (١٠٢)، وابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٥١٣)، من طريق روَّاد بن الجراح عن أبي سعد الساعدي عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً.

قال المؤمل: لما اختلط رواد رفَعَ هذا الحديث ودلَّسوا عليه.

وقال ابن حبان: أبو سعد الساعدي شيخ يروي عن أنس المناكير التي لا يشارك فيها لا يجوز الاحتجاج به بحال.

وله طريق آخر لا يفرح به، رواه ابن عدي في «الكامل» (٢/ ٦٥)، وابن الجوزي في «العلل» (١٣٠١) من طريق الربيع بن بدر عن أبان بن أبي عياش عن أنس رضي الله عنه. قال ابن الجوزي: الربيع وأبان متروكان.

(٢) رواه مسلم (١٤٨٠) عن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها. وقوله: «فلا يضع عصاه عن عاتقه» أراد: التأديب والضرب، وقيل: أراد به كثرة الأسفار عن وطنه، يقال: رفع الرجل عصاه: إذا سافر، ووضع عصاه: إذا نزل وأقام. انظر: «جامع الأصول» (٨/ ١٢٨).

(٣) قرأ نافع بالتشديد، وباقي السبعة بالتخفيف. انظر: «ألسبعة» (ص: ٦٠٦)، و«التيسير» (ص: ١٠٦).

(١٣) - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ عيَّرَ ثابتُ بنُ قيسٍ رجلاً ببعضِ أمَّهاتِه، فقالَ: ابنُ فلانة، فنكسَ الرَّجلُ رأسَه واستحيا، وإنَّما جرى هذا لأنَّه كانَ به وَقرٌ، وكانَ يتخطَّى رقابَ النَّاسِ حتَّى يسمعَ قولَ رسول اللهِ، فقالَ له رجلٌ: اجلس حيثُ وجدتَ مكاناً للجلوس، فقالَ: مَن هذا؟ فقيل: فلان. فقالَ له: ابنُ فلانة، فذكرَ بعضَ أمَّهاتِه، فلمَّا سمعَ رسولُ اللهِ ﷺ ذلك قالَ: «مَن الذَّاكرُ فلانة؟» فقالَ ثابتٌ: أنا يا رسولَ اللهِ. فقالَ عليه السَّلامُ: «انظر في وجوهِ القومِ» ثمَّ قالَ: «ما رأيتَ؟» قالَ: رأيتُ أبيضَ وأسودَ وأحمرَ. قالَ: «فإنَّك لا تَفضُلُهم إلا في الدِّين والتَّقوى»، ونزلَت الآيةُ[1].

---

(١) ذكر طرفًا منه الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٣٧٤)، و(٢٤/ ٣٩٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٩٣ ـ ٣٩٤)، والنسفي في «التيسير في التفسير» (١٣/ ٥٠٨) و(١٣/ ٥٢١)، عن ابن عباس. قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٣٤٢): «غريب، وذكره الثعلبي ثم البغوي والواحدي في أسباب النزول عن ابن عباس هكذا من غير سند». وكذا قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٥٧).

قلت: ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٣٢٩) عن الكلبي، وذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٦٣) من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقد تقدم مراراً التنبيه على ضعف هذا الطريق عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وله طريق آخر رواه الحارث بن أبي أسامة كما في «بغية الباحث» (٨٥٥) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه. ولكنه من رواية الخليل بن زكريا البصري عن مجالد بن سعيد، ومجالد ضعيف، والخليل عامة أحاديثه مناكير لا يتابع عليها. انظر: «الكامل» لابن عدي (٣/ ٥٠٩ ـ ٥١١)، و«الكمال» (٤/ ٣٨٨)، و«تهذيب الكمال» (٨/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦).

وقيلَ: أمرَ رسولُ اللهِ يومَ فتحِ مكَّةَ بلالاً حتَّى أذَّنَ على ظهرِ الكعبة، فقالَ عتَّابُ بن أَسِيدِ بنِ أبي العَيص: الحمدُ للهِ الَّذي قبضَ أبي حتَّى لـم يرَ هذا اليوم، وقالَ الحارثُ بن هشام: أما وجدَ محمَّدٌ غيرَ هذا الغرابِ الأسودِ مؤذِّناً، وقالَ سهيلُ بن عمرو: إن يردِ اللهُ شيئاً يُغيِّره، وقالَ أبو سفيان: إنِّي لا أقولُ شيئاً أخافُ أن يُخبِرَ به ربُّ السَّماء. فأخبرَ جبريلُ النَّبيَّ عليه السَّلامُ بما قالوا، فدعاهم وأخبرَهم، فأقرُّوا، ونزلَتِ الآيةُ[1] في الزَّجرِ عن التَّفاخُرِ بالأنسابِ والمالِ؛ فإنَّ المدارَ على التَّقوى؛ أي: الجميعُ من آدمَ وحوَّاءَ، إنَّما الفضلُ بالتَّقوى.

﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾؛ أي: بيَّـنا الأنسـابَ للتَّعارُفِ لا التَّـفاخُرِ، والشُّعوبُ: جمعُ الشَّعب، وهو: الحيُّ العظيم، والقبائلُ دون ذلك؛ فالشَّعبُ مثلُ مضرَ وربيعةَ، والقبيلةُ كبكرٍ من ربيعةَ وتميمٍ من مضرَ، وأصلُ الشَّعبِ من الضَّمِّ والإصلاحِ، ويُقال: شَعَبْتُ الشَّيء؛ أي: ضَمَمْتُه وأصلحتُه، والقبائلُ من قبائلِ الرَّأسِ، وهي كلُّ فلقةٍ قُوبلَت بالأخرى.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ في رواية: الشُّعوبُ: الموالي، والقبائلُ: العربُ[2].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٧)، وذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٨٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٩٤)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٤٧).

وروى نحوه مختصراً الأزرقي في «أخبار مكة» (١/ ٢٧٤)، ومن طريقه الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٩٥)، وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «الدلائل» كما في «الدر المنثور» (٧/ ٥٧٨) عن ابن أبي مليكة قال: لما كان يوم الفتح رقي بلال فأذن على ظهر الكعبة، فقال بعض الناس: يا عباد الله أهذا العبد الأسود أن يؤذن على ظهر الكعبة؟! فقال بعضهم: إن يسخط الله هذا يغيره، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٦٦)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٥٣)، من رواية =

وعلى هذا فالشُّعوبُ مَن لا يُعرَفُ لهم أصلُ نسبٍ كالهندِ والجِيلِ والتُّركِ، والقبائلُ من العربِ.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ في الخبرِ بروايةِ أبي هريرةَ: «إنَّ اللهَ يقولُ يومَ القيامةِ: إنِّي جَعلْتُ نسباً، وجَعلتُم نسباً، فجعلتُ أكرمَكم أتقاكم، وأبيتُم إلا أن تقولوا: فلانُ بنُ فلان، وأنا اليومَ أرفعُ نسبي وأضعُ أنسابَكم، أينَ المتَّقون؟ أين المتَّقون؟»[١].

وروى ابنُ عمرَ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ في خطبتِه يومَ فتحِ مكَّة: «إنَّ اللهَ أذهَبَ عنكم عُبِّيَّةَ الجاهليَّة وتكبُّرَها[٢]، إنَّما النَّاسُ رجلان: مؤمِنٌ تقيٌّ كريمٌ على اللهِ، وفاجرٌ شقيٌّ هيِّنٌ على الله»[٣].

= عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وروى البخاري (٣٤٨٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ قال الشعوب القبائل العظام والقبائل البطون».

(١) رواه المعافى بن عمران في «الزهد» (١٣٣)، والحارث في «مسنده» (٨٥٦)، والطبراني في «الصغير» (٦٤٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣٧٢٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٤٠٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٧٧٥)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٥٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٨٤): فيه طلحة بن عمرو، وهو متروك.
ورواه من طريق آخر الحاكم في «المستدرك» (٣٧٢٥)، وقال: هذا حديث عال غريب الإسناد والمتن، ولم يخرجاه. وقال الذهبي: فيه المخزومي بن زبالة: ساقط.

(٢) العبية: الكبر والنخوة يريد بهذا القول ما كان عليه أهل الجاهلية من التفاخر بالأنساب والتباهي بها. انظر: «غريب الحديث» للخطابي (١/ ٢٩٠).

(٣) رواه الترمذي (٣٢٧٠) من طريق عبد الله بن جعفر عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث عبد الله بن دينار عن ابن عمر إلا من هذا الوجه، وعبد الله بن جعفر يضعف، ضعفه يحيى بن معين، وغيره وهو والد علي بن المديني.
وفي الباب عن أبي هريرة رضي الله عنه رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٨٧٣٦)، والترمذي =

وقد يُعتبرُ النَّسبُ في الكفاءةَ في النِّكاح، وهو الاتِّصالُ بشجرةِ النُّبوَّة، وبالعلماءِ الذين هم ورثةُ الأنبياء، وبالمرموقين في الزُّهدِ والصَّلاحِ، فالتَّقيُّ المؤمنُ أفضلُ من الفاجرِ النَّسيب، وإن كانا تقيَّين فحينئذٍ يُقدَّمُ النَّسيبُ منهما، كما يُقدَّمُ الشَّيخُ على الشَّابِّ إذا استويا في التَّقوى.

***

(١٤) ـ ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ هذا في قومٍ أظهروا الإيمانَ ولم يكونوا مؤمنين، فأطْلَعَ الله نبيَّهُ عليه السَّلامُ على نفاقِهم.

وقيلَ: نزلَت في أعرابٍ من بني أسدِ بنِ خزيمةَ قدموا المدينةَ في سنةٍ جَدْبةٍ، وأظهروا الشَّهادتين، ولم يكونوا مؤمنين في السِّرِّ، وأفسدوا طُرقَ المدينةِ بالعذرات، وأغلَوا أسعارَها، وكانوا يقولون: أتيناك بالعيالِ والأثقال، ولم نقاتلْك كما قاتلَك بنو فلان، فأعطِنا من الصَّدقة. وكانوا يَمنُّون عليه[(١)].

وقيلَ: نزلَت في الأعرابِ الذين تخلَّفُوا عنه عامَ الحُدَيبية[(٢)].

(٣٩٥٦) وحسنه، وأبو داود (٥١١٦)، والبيهقي في «الآداب» (٣٣٨)، وليس فيه ذكر الآية.

وكذا رواه الترمذي (٣٩٥٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٤٠٨)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٤٩) دون نسبة، وذكره الواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٥٩)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (١٣/ ٥٢٣)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. ورواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٨٨) عن مجاهد مقتصرًا على قوله في الآية: «أعراب بني أسد بن خزيمة».

(٢) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٤/ ٩٨)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٤٠٩)، وأبو حفص =

﴿ءَامَنَّا﴾؛ أي: قد صدَّقنا ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوٓا أَسْلَمْنَا﴾؛ أي: أقررْنا في الظَّاهرِ واستسلمنا مخافةَ القتل ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ بيَّنَ أنَّ محلَّ الإيمانِ القلبُ، وأنَّ الإيمانَ هو التَّصديقُ، فأمَّا الإسلامُ فقبولُ ما أتى به النَّبيُّ عليه السَّلامُ في الظَّاهرِ، وذلك لحقنِ الدَّمِ، وإنَّما يتحقَّقُ الإيمانُ مع تصديقِ القلب.

﴿وَإِن تُطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يعني: إن تُخلِصوا الإيمانَ ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ يُقالُ: لاتَهُ يَليتُه؛ أي: نقصَه، وقرأ أبو عمرو ﴿لا يَأْلِتْكم﴾[1] من أَلَتَه يَألِتُه أَلْتاً؛ أي: نقصَه.

وحكَى قومٌ: آلَتَ يُؤْلِتُ، وحكى الزَّجَّاجُ: ألاتَ يُلِيتُ[2]، ففيه أربعُ لغات[3].

ولم يقل: يلتانِكُم؛ لأنَّ طاعةَ الله طاعةُ الرَّسول.

***

(١٥) - ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾؛ أي: صدَّقوا ولم يشكُّوا، وحقَّقُوا ذلك بالجهادِ والأعمالِ الصَّالحة.

قيل: لـمَّا نزلَت الآيتانِ جاءَ أولئك الأعرابُ يحلفون أنَّهم صادقون، فعرَّف الله نبيَّه عليه السَّلامُ كذبَهم.

= النسفي في «التيسير» (١٣/ ٥٢٣)، عن السدي، وذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٦٨) عن مقاتل والسدي.

(١) وإذا خفف أبدلها ألفًا. انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٦)، و«التيسير» (ص: ٢٠٢).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٩).

(٣) وهي: أَلَت وآلَتَ ولاَتَ وألاَتَ. انظر: «البسيط» للواحدي (٢٠/ ٣٧٠).

(١٦) - ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾؛ أي: أنَّه عالمٌ بما أظهَرْتُم وأبطَنْتُم.

﴿بِدِينِكُمْ﴾؛ أي: بالذي أنتم عليه؛ أي: أتُعلِمُون الله دينكم.

***

(١٧) - ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ أشارَ إلى قولِهم: جئناك بالأثقالِ والعيالِ.

وقولُه: ﴿أَنْ﴾ نصبٌ؛ أي: يمنُّون عليك بأن أسلموا، فنُصبَ لسقوطِ حرفِ الصِّلة.

﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: المنَّةُ للهِ على مَن اهتدى.

قرأ عاصمٌ: (إنْ هداكم) بالكسرِ[١]، وفيه بعدٌ؛ لقولِه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ولا يُقالُ: يمنُّ عليكم إن يهديكم[٢] إن صدَقتم، والقراءةُ الظَّاهرةُ ﴿أَنْ هَدَىٰكُمْ﴾، وهذا [لا][٣] يدلُّ على أنَّهم كانُوا مؤمنين؛ لأنَّ تقديرَ الكلام: إن آمنتم فذاك منَّةُ الله عليكم.

---

(١) وهي خلاف المشهور عن عاصم، وذكرها الكرماني في «شواذ القراءات» (ص: ٤٤٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وفي «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٤) عن ابن مسعود رضي الله عنه: (يمنون عليك إن أسلموا)، و(إذ هداكم للإيمان) بالذال.

(٢) قوه: «يهديكم» كذا وقعت في (أ)، وهكذا نقلها القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٤٢٣).

(٣) ما بين معكوفتين من «تفسير القرطبي» (١٩/ ٤٢٣).

وقيـلَ: هـذا فـي قـومٍ آمنُـوا ولكنَّهم مَنُّـوا، فقيل لهـم: لا تَمنُّـوا؛ فـإنَّ المنَّةَ للهِ بـأن هداكم.

واللهُ أعلمُ بالصَّوابِ، وإلى اللهِ المرجعُ والمآب.

* * *

سُورَةُ قٓ

تفسيرُ سورةِ ق

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١) ـ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾؛ أي: هذه السُّورةُ اسمُها ﴿قٓ﴾، ثمَّ قال: ﴿و﴾ حقِّ ﴿القرآنِ المجيدِ﴾؛ أي: الأمرُ كذا وكذا.

وقيلَ: قافْ اسمُ جبلٍ محيطٍ بالدُّنيا من زبرجدٍ والسَّماءُ مُتقبِّبةٌ عليه[١].

قال الفرَّاء: كانَ يجبُ على هذا أن يظهرَ الإعرابُ في قافٍ؛ لأنَّه اسمٌ وليس بهجاءٍ، ثمَّ قالَ: ولعلَّ القافَ وحدَها ذُكِرَت من اسمِه كقولِ القائل:

قلـتُ لهـا قِفِـي قالَـتْ قَـافْ

---

(١) رواه بنحوه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٢٢)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٤٨٤ و١٤٨٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو من خرافات الإسرائيليات، ولعله لا يصح عن ابن عباس، وقد ذهب القرافي إلى أن جبل قاف لا وجود له، وبرهن عليه بما برهن ثم قال: ولا يجوز اعتقاد ما لا دليل عليه، ذكر ذلك الآلوسي في «روح المعاني» (٢٥/ ٤١٢)، ثم أورد تعقب ابن حجر الهيتمي على القرافي وأعقبه بقوله: والذي أذهب إليه ما ذهب إليه القرافي من أنه لا وجود لهذا الجبل بشهادة الحس، فقد قطعوا هذه الأرض برها وبحرها على مدار السرطان مرات فلم يشاهدوا ذلك، والطعن في صحة هذه الأخبار أهون من تكذيب الحس، وليس ذلك من باب نفي الوجود لعدم الوجدان كما لا يخفى على ذوي العرفان، وأمر الزلزلة لا يتوقف على ذلك الجبل، بل هي من الأبخرة وطلبِها الخروج مع صلابة الأرض، وإنكار ذلك مكابرة عند من له أدنى عرق من الإنصاف، والله تعالى أعلم.

أي: أنا واقفةٌ(١).

وقالَ الزَّجَّاجُ: قوله: ﴿قٓ﴾؛ أي: قُضِيَ الأمرُ، كما قيلَ في ﴿حمٓ﴾: أي: حُمَّ الأمر(٢).

﴿ٱلْمَجِيدِ﴾ الكريمِ، وقيلَ: الرَّفيعِ القَدْر.

ثمَّ؛ قيلَ: جوابُ القسمِ ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ ولم يقلْ: لقد؛ لأنَّ ما قبلَها عوضٌ من اللام.

وقيلَ: تقديرُه: قد علِمْنا ذلك والقرآنِ المجيد.

وقيلَ: جوابُ القسمِ محذوفٌ يدلُّ عليه قولُه: ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾؛ أي: قاف والقرآنِ المجيدِ لتُبعثُنَّ بعدَ الموت.

وقيلَ: الجوابُ ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ﴾.

* * *

(٢ - ٣) - ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ولم يقلْ: فقالوا، بل قبَّحَ حالَهم ووصفَهم بالكفرِ، كما تقولُ: جاءني فلانٌ وأسمعني المكروهَ، وقالَ لي الفاسقُ: أين كذا وكذا؟

و﴿هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾؛ أي: معجب؛ أي: ذو عجب؛ أي: تعجب منه.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٧٥)، والرجز ذكره ابن قتيبة في «تأويل مشكل القرآن» (ص: ١٨٩)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٤٠١)، والأزهري في «تهذيب اللغة» (١٥/ ٤٨٨)، وابن جني في «المحتسب» (٢/ ٢٠٤) من غير نسبة. وتقدم الكلام عنه في صدر هذا التفسير.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٤١).

قولُه تعالى: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا﴾؛ أي: أنبعثُ إذا متنا، ففيه إضمارٌ.

﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ الرَّجعُ: الرَّدُّ؛ أي: هو ردٌّ بعيدٌ؛ أي: مُحالٌ، وفيه إضمارٌ آخرُ؛ أي: وقالوا: أنبعثُ إذا متنا؟ وذِكرُ البعثِ وإن لـم يجرِ هاهنا فقد جرى في مواضعَ، والقرآنُ كالسُّورةِ الواحدةِ، وأيضاً ذكرُ البعثِ مُنطَوٍ تحت قولِه: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ﴾؛ لأنَّه إنَّما ينذرُ بالعقابِ والحسابِ في الآخرةِ.

* * *

(٤) ـ ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡ﴾؛ أي: ما تأكلُه الأرضُ من أجسادِهم، فلا يضلُّ عنَّا شيءٌ حتَّى تَتعذَّرَ علينا الإعادةُ، بل ذلك كلُّه في عِلمِنا وقبضتِنا.

وقيلَ: أي: عَلمْنا مَن يموتُ، فالنَّقصُ هاهنا هو الموتُ؛ لأنَّ مَن ماتَ دُفِنَ فكأنَّ الأرضَ تنقصُ من النَّاس.

﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾ يعني: اللَّوحَ المحفوظَ؛ أي: محفوظٌ من الشَّياطينِ، أو محفوظٌ فيه كلُّ شيء.

وقيلَ: حافظٌ لكلِّ شيءٍ[1] يحدثُ في الأجسادِ من تغيُّرٍ ونقصانٍ، وفَعِيلٌ بمعنى فَاعِلٍ كثيرٌ، كسميعٍ بمعنى سامعٍ.

وقيلَ: الكتابةُ عبارةٌ عن العلمِ والإحصاءِ، كما تقولُ: كتبتُ عليك هذا؛ أي: حفظتُه.

وقيلَ: هذا تركُ الظَّاهرِ من غيرِ ضرورةٍ.

وقيلَ: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾ لأعمالِ بني آدمَ لنُحاسبَهم عليها.

---

(١) في (أ): زيادة: «ما» هنا، ولا معنى لها.

(٥) - ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: ليس معهم حجَّةٌ، بل هو مجرَّدُ تكذيبِ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالقرآنِ وبمحمَّدٍ ودينِه الحقِّ.

﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾؛ أي: مختلِطٍ، يُقال: مَرَجَ الدَّابَّةَ؛ أي: أرسلَها وخلَّاها، و﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ [الفرقان: ٥٣]، فالمريجُ: المهمَلُ، والمهمَلُ مختلطٌ.

وقيلَ: أصلُه الاضطرابُ، يُقالُ: مَرِجَ الخاتَمُ في يدي.

وهذا الاضطرابُ والاختلاطُ قولُهم مرَّةً: إنَّه ساحرٌ، ومرَّةً: مُعلَّمٌ، وقولُهم للقرآنِ مرَّةً: سحرٌ، ومرَّةً: زَجْرٌ(١)، ومرَّةً: مُفترًى.

وقيلَ: اختلاطُهم أنَّ قوماً قالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٢٩]، وقالَ قومٌ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وفيهم من كانَ يقول: ﴿مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ [الجاثية: ٣٢] قالَ الله: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦].

وقيلَ: الاختلاطُ: تناقُضُ قولِهم إذ اعترفُوا بأنَّ اللهَ قدرَ على خلقِهم ابتداءً ولا يقدرُ على الإعادةِ.

و﴿بَلْ﴾ للاستدراك؛ أي: لم يُنكروا البعثَ لجهلِهم بقدرتنا، بل كذَّبوا به لتركِ النَّذير.

***

---

(١) قوله: «زَجْر» كذا في (أ) مع الضبط، ولم يرد مثل هذا في القرآن صريحاً، لكن من معاني الزجر: العيافة والتكهن، وقد جاء في القرآن في سورة الحاقة: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

(٦ ـ ٨) ـ ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾؛ أي: مَن قدرَ على خلقِ السَّماءِ كيفَ لا يقدرُ على الإعادةِ؟

﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾؛ أي: بالكواكبِ ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾؛ أي: من شقوقٍ، والفَرْجُ في اللُّغةِ: الخللُ بين الشيئين.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا﴾؛ أي: بسطناها تحتَهم ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾؛ أي: من كلِّ نوعٍ من النَّبات، ﴿بَهِيجٍ﴾؛ أي: حَسَنٍ يسرُّ النَّاظرين.

قولُه تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾؛ أي: فعلنا ذلك لندلَّ به على كمالِ قدرتنا.

﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾؛ أي: راجعٍ إلى اللهِ مفكِّرٍ في قدرتِه.

❊ ❊ ❊

(٩ ـ ١١) ـ ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا﴾؛ أي: كثيرَ الخيرِ، وهو المطر.

﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾؛ أي: حبًّا يُحصَدُ، والحصيدُ: المحصودُ. ثمَّ هو عند الكوفيِّين من بابِ إضافةِ الشَّيءِ إلى نفسِه، وعند البصريِّين؛ أي: حبَّ النَّبتِ الحصيد.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ﴾؛ أي: وأنبتنا به النَّخلَ باسقاتٍ، والبُسوقُ: الطُّول.

﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ هو أوَّلُ ما يخرجُ من ثمرةِ النَّخلِ، يُقال: طلعَ الطَّلْعُ طلوعاً، وأطلعَت النَّخلةُ، وطَلْعُها: كُفُرَّاها قبلَ أن ينشقَّ.

﴿نَّضِيدٌ﴾ من نَضَدْتُ الشَّيءَ أَنْضُدُه نَضْداً؛ أي: وضعتُ بعضَه فوقَ بعضٍ، فهو منضودٌ ونَضِيدٌ ونَضدٌ.

قولُه تعالى: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾؛ أي: رزقناهم رزقاً.

وقيلَ: للرِّزقِ، والرِّزقُ ما كانَ مهيَّأً للانتفاعِ به.

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ ولو قالَ: مَيْتةً، لجازَ أيضاً، وجازَ ﴿مَّيْتًا﴾ لأنَّ المقصودَ المكانُ.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾؛ أي: من القبور.

* * *

(١٢ ـ ١٤) ـ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾؛ أي: كما كذَّبَ هؤلاء فقد كذَّبَ أولئك أيضاً فحلَّ بهم العقابُ.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ ذكرناهم في (الفرقان)، والرَّسُّ: ما حُفِرَ في الأرضِ من حُفرة، وهم الذين ألقَوا نبيَّهم ـ وهو حبيبٌ النَّجَّار، وقيلَ: حنظلةُ بنُ صفوان ـ في بئر[١].

وقيلَ: أرسلَ الله إليهم شُعيباً فكذَّبوه، فخسفَ الله بهم في بئرٍ[٢].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٤١٣) عن قتادة.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٤١٢)، والواحدي في «البسيط» (١٦/ ٥٠٦)، عن وهب بن منبه.

﴿وَثَمُودُ﴾ وهم قومُ صالحٍ.

﴿وَعَادٌ﴾ وهم قومُ هودٍ ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ كذَّب موسى ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾؛ أي: قومُ لوطٍ، سمَّاهم إخوانَه لأنَّهم كانُوا ساكنين بلداً معه، كما يُقالُ: فلانٌ أخو الغواني؛ أي: يألَفُهنَّ.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ هم قومُ شُعيبٍ، والأيكةُ: الغَيضةُ.

﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ قومٌ كذَّبوا رسولَهم، فإنَّ الله قالَ: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾، وقومُ تُبَّعٍ هم حِمْير، وفي خبرٍ: «لا تَسبُّوا تُبَّعاً؛ فإنَّه قد أسلمَ»[1].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٢٨٨٠)، والروياني في «مسنده» (١١١٣)، والطبراني في «الأوسط» (٣٢٩٠)، و«الكبير» (٦٠١٣)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٥٣٤)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٣٤)، عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.
قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ١٤٨): وفيه ابن لهيعة عن عمرو بن جابر وهما ضعيفان، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٧٦): رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» وفيه عمرو بن جابر وهو كذاب.
وذكر له الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٢٦٩) طريقًا أخر عند الدارقطني في «غرائب مالك»، رواه من حديث حبيب عن مالك عن أبي حازم بن دينار أنه سمع سهل بن سعد الساعدي يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تلعنوا تبعًا فإنه كان قد أسلم». انتهى، ثم قال: تفرد به حبيب عن مالك. وزاد ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ١٤٨): وهو متروك.
ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٧٩٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي: فيه أحمد بن أبي بزة المكي لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.
وقال ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٥٧١): وإسناده أصلح من إسناد سهل.
وقد وردت في النهي عن سبه موقوفات ومرسلات قد تُبيِّن أن للحديث أصلاً، منها: ما رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٤٩) عن عائشة رضي الله عنها: لا تسبوا تُبَّعاً فإنه كان رجلاً صالحاً.
وروى الحاكم في «المستدرك» (٣٦٨١) ـ وصححه ـ عنها أنها قالت: كان تُبَّعٌ رجلًا صالحاً، ألا =

وقيلَ: كانَ قومُه يعبدون النّارَ، فأسلمَ تُبَّعٌ ودعا قومَه إلى الإسلامِ، فأبَوا، فأحرقَهم[(١)] اللهُ بالنّار.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾؛ أي: كلُّ قوم كذَّبوا رسولَهم.

وقيلَ: كذَّبَ جميعَ الرُّسل؛ لأنَّ مَن كذَّبَ واحداً منهم، فقد كذَّبَ الكلَّ في الحُكم.

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾؛ أي: فوجبَ ما تَوَعَّدْتُهم به.

وقيلَ: تحقَّقَ لهم ما كانُوا يعتقدون أنَّه غيرُ حقٍّ، إلا أنَّ إيمانَهم كفرٌ [لا][(٢)] ينفعُهم في ذلك الوقت.

* * *

(١٥) - ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ هذا جوابُ قولِهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ﴾؛ أي: أفعجزنا عن خلقِهم ابتداءً حتَّى نعجزَ عن إعادتِهم؟ يقالُ: عَيِيَ عن كذا؛ أي: عجَزَ عنه.

= ترى أن الله عز وجل ذمَّ قومَه ولم يَذُمَّه.

وروى ابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٧/ ٤١٥)، وابن عساكر في «تاريخه» (١١/ ٦) عن بكار بن عبد الله قال: سمعت وهب بن منبه يقول: نهى رسول الله ﷺ الناس عن سب أسعد وهو تبع، قلنا: يا أبا عبد الله، وما كان أسعد؟ قال: كان على دين إبراهيم عليه السلام، وكان إبراهيم يصلي كل يوم صلاة ولم تكن شريعة.

(١) في (أ): «فأغرقهم»، والصواب المثبت.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٍ﴾؛ أي: لبَّس الشَّيطانُ عليهم الأمرَ في الخلقِ الجديدِ، وهو البعث.

وقيلَ: نزلَت في قومٍ كانُوا شاكِّين في البعثِ من غيرِ قطعٍ بنفيه.

وعلى الأوَّلِ عنى بالشَّكِّ: الجهلَ والتَّصميمَ من غيرِ دليلٍ، وكلُّ تصميمٍ على شيءٍ من غيرِ دليلٍ فهو جهلٌ وشكٌّ؛ لأنَّه لو أنعَمَ النَّظرَ لَمَا شكَّكَ[١] لا محالةَ.

* * *

(١٦) - ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾؛ أي: ابنَ آدمَ ﴿وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥ﴾ ما يُخفيه في صدرِه ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ حبلُ الوريدِ هو الوريدُ، فأُضيفَ أحدُهما إلى الآخرِ لاختلافِ اللَّفظين، قاله الفرَّاء[٢].

وقيلَ: أُضيفَ كما يُقالُ: حبلُ العاتقِ[٣].

والوريدُ قالَ الزَّجَّاجُ: في الحلقِ وباطنِ العُنقِ[٤].

---

(١) في (أ): «لشكك»، ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٧٦).

(٣) حبل العاتق: عرق يظهر على عاتق الرجل ويتصل بحبل الوريد في باطن العنق. انظر: «الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي» للأزهري (ص: ١٨٨).

وفي «الصحاح» (مادة: حبل): وحَبْلُ العاتِقِ: عصبٌ. وحَبْلُ الوريد: عِرْقٌ في العنق.

وبعض العلماء يجعل حبل الوريد هو حبل العاتق، قال الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٤٢١): ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ يقول: ونحن أقرب للإنسان من حبل العاتق.

وقال مكي في «الهداية» (١١/ ٧٠٣٧): وقال أبو عبيدة: حبل الوريد: حبل العاتق.

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٤٤)، وفيه: «والوريد عرق في باطن العنق، وهما وريدان».

وقيلَ: هو عرقٌ من تحتِ اللِّسانِ يتفرَّقُ في البدن.

وقال مقاتلٌ: عرقٌ يخالِطُ القلبَ(١).

وهذا القُربُ قربُ العلمِ والقدرةِ، وأبعاضُ الإنسانِ يَحجُبُ البعضُ البعضَ، ولا يَحجبُ علمَ اللهِ شيء.

***

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾؛ أي: نحن أقربُ إليه من حبلِ وريدِه حينَ يتلقَّى المتلقِّيان، وهما الملكانِ الموكَّلان به؛ أي: نحن أعلمُ بأحوالِه فلا نحتاجُ إلى ملَكٍ يُخبِرُ، ولكنَّهما وُكِّلا به إلزاماً للحجَّةِ وتوكيداً للأمرِ عليه.

والتَّلقِّي: التَّلقُّنُ، وفيه حذفٌ؛ أي: إذ يتلقَّى المتلقِّيانِ ألفاظَه وأفعالَه.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ والقعيدُ بمنزلةِ القاعدِ، مثل: قديرٍ وقادرٍ.

وقيلَ: بمنزلةِ المُقاعِدِ كـ: الأَكِيل، والشَّريب.

ثمَّ؛ قالَ الزَّجَّاج: عن اليمين قعيدٌ وعن الشِّمالِ قعيدٌ، فدلَّ أحدُهما على الآخر، فحُذفَ المدلولُ عليه(٢).

وقالَ المُبرِّدُ: (فَعِيل) يكون للواحد والجمع، قالَ الله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤](٣).

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١١٢).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٤٤).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٩٤).

والمرادُ بالقعيدِ هاهنا: الملازِبُ[1]، لا ضدُّ القائمِ.

قولُه تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾؛ أي: ما يرمي به مِن فيه ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾؛ أي: حفيظٌ، يعني: الملكَ الموكَّل به.

* * *

(١٩) ـ ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: ما دام الإنسانُ حيّاً فأقوالُه وأعمالُه تُكتَبُ عليه ليُحاسَبَ غداً، ثمَّ يجيئُه الموتُ وسكرتُه[2]، وهي شدَّتُه التي تَغلبُ على فهمِ الإنسانِ وتغمُرُ عقلَه كالسُّكرِ من الشَّراب.

وقولُه: ﴿وَجَآءَتْ﴾؛ أي: وتجيءُ، فذُكِرَ بلفظِ الماضي لتحقُّقِ كونِه.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: أنَّه حقٌّ وكائن. وقالَ الزَّجَّاجُ: أي: بالموتِ الذي خُلِقَ له[3].

وقيلَ: أي: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي كانَ غيرَ مُتبيِّنٍ لهم من أمرِ الآخرة، ويكونُ الحقُّ هو الموتُ؛ أي: جاءَت سكرةُ الموتِ بحقيقةِ الموت.

وقيلَ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بأمرِ اللهِ وحُكمِه بأنَّه لا يبقى إلا وجهُه.

وقيلَ: أي: ببيانِ ما يصيرُ إليه الإنسانُ بعد موتِه من جنَّةٍ أو نارٍ؛ فإنَّ[4] تلك الأحوالَ تتَّصلُ بالموتِ.

﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾؛ أي: يُقالُ لـمَن جاءته سكرةُ الموتِ: ذلك ما كنتَ تفرُّ

---

(١) في «البسيط» (٢٠/ ٣٩٤): «الملازم»، والمعنى واحد، يقال: ضربة لازب، و: لازم.

(٢) جاء في (أ) هنا زيادة هي تكرار للكلام مع بعض تحريف، فلم نجد حاجة لذكرها.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٤٥).

(٤) في (أ): «فإن نار»، والصواب المثبت.

منـه، يُقـال: حـادَ عن الشَّـيءِ يَحيـدُ حَيـداً وحَيـدودةً ومَحِيداً وحِيـاداً وحُيُـوداً: إذا مـالَ عنـه وهربَ.

* * *

(٢٠ ـ ٢٢) ـ ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ هي النَّفخةُ الآخرةُ للبعثِ، ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ذلك اليومُ ﴿يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾؛ أي: يومُ عذابِ الكفَّار.

قولُه تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾؛ أي: تجيءُ كلُّ نفسٍ فـي ذلك اليومِ ﴿مَّعَهَا سَآئِقٌ﴾ يسوقُها إلى موقفِ الحسابِ ﴿وَشَهِيدٌ﴾ يشهدُ عليها بما عملَت من خيرٍ وشرٍّ، فلا مَهربَ من الموكَّلِ بها ولا مَطمعَ في الجحودِ مع حضورِ الشَّهيد.

وقيلَ: السَّائقُ: كاتبُ السَّيِّئات، والشَّهيدُ: كاتبُ الحسنات.

وقيلَ: السَّائقُ: الملكُ، والشَّهيدُ: عملُ العبد؛ لأنَّه يراه يومَ القيامةِ.

وقيلَ: الشَّهيدُ: جوارحُه التي تشهدُ عليه.

وقيلَ: السَّائقُ: قرينُ الإنسانِ من الشَّياطينِ، والشَّهيدُ: هو الملكُ، فيشهدُ الشَّاهدُ، ويتبرَّأُ القرينُ، فيُلقى مع قرينِه في النَّارِ.

ويجوزُ أن تكونَ هذه الشَّهادة مِنَ الأنبياءِ ومِن أمَّةِ محمَّدٍ عليه السَّلامُ.

والمقصودُ: أنَّه لا مَطمَعَ لأحدٍ غداً في الجحود.

قولُـه تعالـى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾؛ أي: يُقـالُ: لقـد كنـتَ فـي غفلـةٍ عـن هـذا ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾؛ أي: أوضحْنـا لـكَ مـا كانَ مستوراً عليـك حتَّـى

زالت الشُّكوكُ ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾؛ أي: فعِلْمُك اليومَ ثابتٌ، يُقال: فلانٌ بصيرٌ بالأمور؛ أي: عالم، ووصفُ العِلمِ بالحدَّةِ كوصفِ الفهمِ بالحدَّةِ، يُقال: فلانٌ حادُّ الفهمِ.

ثمَّ؛ هذا خطابٌ للكافرِ؛ لقولِه: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾، ويجوزُ أن يكونَ خطاباً للمؤمنِ والكافرِ، فالكافرُ كانَ في لَبسٍ فكُشِفَ له عن الحقيقة، والمؤمنُ كانَ إيمانُه غيباً فصار عِياناً.

وقيلَ: هذا خطابٌ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ؛ أي: كنتَ قبلَ أن نوحيَ إليك في غفلةٍ عن هذه العلومِ المتَّصلةِ بالغيبِ، فكشفنا عنك الغطاءَ بما أوحيناه إليك، فعلمُك اليومَ نافذٌ.

وقيلَ: يعني: أنَّ الكافرَ يُحشرُ وبصرُه حديد، ثمَّ يَزرقُّ ثمَّ يَعمى.

* * *

(٢٣) ـ ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾؛ أي: الشَّاهدُ الذي كانَ موكَّلاً به ليتلقَّى أعمالَه يقولُ: هذا ما تَلقَّيتُه وكتبتُه وهو حاضرٌ عندي عتيدٌ.

ويُقالُ: ﴿مَا﴾ بمعنى: مَن؛ أي: هذا مَن وكَّلْتَني به وقد أحضرتُه.

وقالَ سيبويه: ﴿مَا﴾ نكرة؛ أي: هذا شيءٌ لديَّ عتيد[1].

* * *

(١) انظر: «الكتاب» (٢/ ١٠٦).

(٢٤ ـ ٢٦) ـ ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾؛ أي: يقولُ الله: ﴿أَلْقِيَا﴾، والخطابُ للملكين السَّائقِ والشَّهيد.

وقيلَ: هو مِن قولِ الزَّبانيةِ أو الملائكةِ الآخرين.

وقيلَ: يقولُ اللهُ لخازنِ النّارِ، وقد يقولُ العربُ: «خذاهُ» في مخاطبةِ الواحد؛ لأنَّ الغالبَ أن يستعينَ الرَّجلُ بأقوامٍ، والأقلُّ اثنان، فجرى كلامُ الواحدِ على غالبِ العادة.

وقال المُبرِّدُ: هذا فعلٌ مُثنًّى توكيداً، فقولُه: ﴿أَلْقِيَا﴾ بمثابةِ قولِك: ألقِ ألقِ، وكذلك: (قفا) مثلُ قولِك: قِفْ قِفْ[١].

وقرأ الحسنُ: (ألقيَنْ) بالنُّونِ الخفيفة[٢]، وهو خطابُ الواحد.

﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾؛ أي: مُبالِغٍ في كفرِه ﴿عَنِيدٍ﴾؛ أي: عادلٍ عن الصَّوابِ مُعاندٍ جاحدٍ للحقِّ ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾؛ أي: بخيلٍ بما ينفعُ النَّاسَ ﴿مُعْتَدٍ﴾؛ أي: ظالمٍ يتعدَّى حدودَ الله، ﴿مُرِيبٍ﴾؛ أي: شاكٍّ في التَّوحيدِ، يُقال: أرابَ الرَّجلُ؛ أي: صارَ ذا رَيبٍ.

قيل: نزلَت هذه الآياتُ في الوليدِ بنِ المغيرة[٣].

---

(١) ذكره الزجاج في «معاني القرآن» (٥/ ٤٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٤٧٠)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٠١).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٥)، و«المحتسب» (٢/ ٢٨٤).

(٣) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٤/ ١١٣)، وذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٠٢) عن عطاء ومقاتل.

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾؛ أي: عَبَد الأصنامَ، ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾، وهو تأكيدٌ للأمرِ الأوَّل.

***

(٢٧) ـ ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ هذا القرينُ هو الشَّيطانُ المقترِنُ به، كما قال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]؛ أي: إذا أُلقِيَ في النَّارِ دعا على قرينِه، كما قالَ: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] فيتبرَّأُ قرينُه ويقول: ما أطغيتُه بل كانَ طاغياً باختيارِه، وإنَّما كانَ منِّي الدُّعاء.

وقالَ الكلبيُّ: يقولُ الملكُ: ربَّنا ما أطغيتُه[1]، فكأنَّ الكافرَ يقولُ: «زادَ الملك عليَّ» أو: «أعجلَني عن التَّوبة»، فيُقال[2]: ما فعلتُ، بل ﴿كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ من الرَّشادِ.

***

(٢٨ ـ ٢٩) ـ ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ هذا يدلُّ على أنَّ القرينَ الشَّيطانُ ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾؛ أي: أرسلتُ الرُّسلَ.

﴿قَدَّمْتُ﴾ يجوزُ أن يكونَ متعدِّياً والباءُ زائدةٌ، ويجوزُ أن يكونَ لازماً والباءُ للتَّعديةِ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٠٣).

(٢) كذا في (أ)، والأظهر: (فيقول).

قولـه تعالـى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾؛ أي: كانَ لي أن أتعبَّدَكم وأن أعافيَكم.

وقـالَ القُتيبـيُّ: أي: لا يُكـذَبُ عندي؛ فإنِّي أعلـمُ ما كانَ[1]. فالقـولُ على هذا قولُ العبد.

***

(٣٠) ـ ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾؛ أي: نملأُ جهنَّمَ من الكفَّارِ من الجِنَّةِ والنَّاسِ؛ أي: ما أنا بظلَّامٍ للعبيدِ يومَ نقولُ لجهنَّم: هل امتلأت؟ هذا الاستفهامُ إخبارٌ بأنَّه وفَّى بما وعدَ.

﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾؛ أي: ما بقيَ موضعٌ للزِّيادةِ فيَّ، كقولِه عليه السَّلامُ: «هل تركَ لنا عَقيلٌ مِن رَبعٍ»[2]؛ أي: ما تركَ.

وقيلَ: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾؛ أي: إنِّي محتملةٌ للمزيدِ، وهو تغيُّظٌ على الكفَّار.

وقيلَ: يُنطقُ اللهُ النّارَ حتَّى تقولَ هذا كما يُنطقُ الجوارحَ.

وقيلَ: المقصودُ الإخبارُ بامتلائها.

قُرِئَ ﴿يَوْمَ نَقُولُ﴾ بالتَّاء والنُّون[3].

---

(١) انظر: «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص: ٢٣٩)، وفيه: «﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾: لا يغير عن جهته ولا يحرف، ولا يزاد فيه ولا ينقص، لأني أعلم كيف ضلوا وكيف أضللتموهم». وما ذكره المصنف أقرب لكلام الفراء حيث قال في «معاني القرآن» (٣/ ٧٩): «أي: ما يُكْذَب عندي؛ لعلمه عزَّ وجلَّ بغيب ذَلِكَ». ومؤدى القولين واحد كما ذكر الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٠٥).

(٢) رواه البخاري (٣٠٥٨)، ومسلم (١٣٥١)، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

(٣) قرأ نافع وشعبة بالياء، والباقون بالنون. انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٧)، و«التيسير» (ص: ٢٠٢).

ومَن قالَ: الاستزادةُ من جهنَّمَ، يقولُ: جرى هذا قبلَ دخولِ جميعِ أهلِ النّارِ فيها، وتطلبُ أن يُزادَ في سعتِها تغيُّظاً على الكفَّار.

***

(٣١ ـ ٣٥) ـ ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: قُرِّبَت منهم، قيل: هذا قبلَ الدُّخول، وقيلَ: بعدَ الدُّخول قُرِّبَت لهم مواضعُهم فيها فلا تَبعد.

قولُه تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾؛ أي: هذا الجزاءُ هو الموعودُ لكم ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾؛ أي: راجعٍ إلى اللهِ عن المعاصي ﴿حَفِيظٍ﴾؛ أي: حافظٍ لِـمَا أمرَ الله.

وقيلَ: حفيظٍ لذنوبِه، لم يَنسَها حتَّى يمكنَه أن يتوبَ منها، فهي على ذُكرِه، فيستغفرُ أبداً؛ فالحفيظُ بمعنى: الحافظِ، وقيلَ: بمعنى: المُحافِظ كـ: الأَكِيلِ، والشَّريب.

قولُه تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ قيلَ: هو بدلٌ من قوله: ﴿أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾؛ أي: صفتُهم أنَّهم آمنوا بالغيب.

وقيلَ: هو ابتداءُ كلامٍ؛ أي: مَن خشيَ الرَّحمنَ بالغيبِ يُقال له غداً: ادخلِ الجنَّةَ بسلامٍ.

والخشيةُ بالغيبِ: أن يخافَه ولم يره.

وقيلَ: إنَّ يَخشاه في الخلوةِ حيثُ لا يراه أحدٌ، فالغيبُ: غيبتُه عن النَّاسِ ورؤيتِهم.

﴿وَجَآءَ﴾؛ أي: في الآخرةِ ﴿بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾؛ أي: مُخلِصٍ.

وقيلَ: راجعٍ عن معاصي الله.

قولُه تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾؛ أي: يُقالُ لهم: ادخلوها ﴿بِسَلَٰمٍ﴾؛ أي: بسلامةٍ من الهمومِ والموتِ.

وقيلَ: سلَّمَ الله عليهم(١).

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ فلا موتَ بعده.

قولُه تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾؛ أي: لأهلِ الجنَّةِ في الجنَّةِ ما يريدون من اللّذاتِ، ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾؛ أي: من فضلِنا.

وقالَ أنسٌ وجابرٌ: المزيدُ: النَّظرُ إلى اللهِ(٢).

وقد وردَ ذلك في أخبارٍ مرفوعةٍ إلى النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في قولِه: ﴿لِّلَّذِينَ

---

(١) انظر: «البسيط» (٢٠/ ٤١١)، وفيه عن قتادة: سلموا من عذاب الله وسلم الله عليهم.

(٢) رواه الدارمي في «الرد على الجهمية» (١٩٨)، وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (٩٤)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (١٢٢٦)، والبزار في «مسنده» (٧٥٢٨) كلهم موقوفًا على أنس رضي الله عنه في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قال: «يتجلى لهم كل جمعة». قال البزار: «وهذا الحديث لا نعلم رواه عن أنس بهذا اللفظ إلا عثمان بن عمير أبو اليقظان، وعثمان صالح». وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١١٢): «رواه البزار، وفيه عثمان بن عمير وهو ضعيف».

والرواية عن جابر ذكرها الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٤٨٨)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤١٢)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (١٤/ ٣٠). وقد روى الآجري في «الشريعة» (٦١٧) عن جابر رضي الله عنه حديثًا في رؤية الله تعالى يوم القيامة، لكن ليس فيه هذه الآية.

ورواه اللالكائي في «الاعتقاد» (٨٥٢)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٦٩) من حديث علي رضي الله عنه مرفوعاً.

أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: ٢٦]، قالَ: «الزِّيادةُ النَّظرُ إلى وجهِ اللهِ الكريمِ»[١].

***

(٣٦) ـ ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾؛ أي: كم أهلكنا يا محمَّدُ قبلَ قومِك من أمَّةٍ هم أشدُّ من هؤلاء بطشاً ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾؛ أي: بلغَ من شدَّتِهم أن توغَّلوا في أقاصي البلادِ، وطافوا فيها للتِّجاراتِ، فهل وجدُوا من الموتِ محيصاً؟

وقيلَ: نقَّبُوا في البلادِ يَطلُبونَ محيصاً من عذابِنا فلم يجدوه.

وقيلَ: أي: هل كانَ لهم من مَحيصٍ؟

وقرئ[٢]: (فنَقَبَوا) خفيفةَ القافِ[٣]، والنَّقبُ: هو الخرقُ والدُّخولُ في الشَّيء.

وقيلَ: النَّقبُ: الطَّريقُ، والجمعُ: النُّقوب؛ أي: خَرَقوا البلادَ وساروا في نُقوبها.

وقيلَ: أثَّرُوا فيها كفأسِ الحديدِ فيما يَنْقبُ به.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٦٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ١٠٤٤)، والدارقطني في «الرؤية» (١٨٣)، واللالكائي في «الاعتقاد» (٧٨٠)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وله شاهد رواه مسلم (١٨١) من حديث صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار. قال فيكشف الحجاب. فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل»، ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾.

(٢) في (أ): «وقيل» والصواب المثبت.

(٣) هي رواية غير مشهورة عن أبي عمرو، كما في «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٦٠٧)، وذكرها ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٥) عن ابن عباس وعبيد عن أبي عمرو.

وقُـرِئَ: (فنَقِبُـوا) بكسـرِ القافِ مـع التَّخفيـفِ[١]؛ أي: أكثَروا السَّـيرَ فيها حتَّى نَقِبَـت دوابُّهم.

* * *

(٣٧) ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

قولُـه تعالـى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾؛ أي: فيمـا ذكرنا في هذه السُّـورةِ تذكيرٌ وعظـةٌ ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾؛ أي: عقـلٌ يتدبَّـرُ به، وهـو كما تقولُ: أين ذهـبَ عقلُك؟ وأين ذهـبَ قلبك؟

وقيلَ: القلبُ محلُّ التَّدبُّرِ، كما قالَ الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، فمَن تركَ التَّدبُّر فهو كمَن لا قلبَ له.

﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ يُقال: ألقَى سمعَه إلى الشَّيءِ؛ أي: استمع.

﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾؛ أي: شاهدٌ غيرُ غائبِ القلبِ؛ أي: شاهدُ القلب.

قالَ الزَّجَّاجُ: وقلبُه حاضرٌ فيما يستمعُ[٢].

وقيلَ: أرادَ بقولِه: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾: المؤمنَ، وبمَن ألقى السَّمعَ: المسترشدَ الذي لـم يُؤمِنْ بعدُ. وقيلَ: على العكسِ.

* * *

---

(١) ذكرها الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٤٦١)، وأبو بكر الأنباري في «الوقف والابتداء» (٢/ ٩٠٤)، عن يحيى بن يعمر، وزاد الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٤٩٠) نسبتها للسلمي.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٤٩).

(٣٨) ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ أي: قدِرنا على خلقِ السَّماواتِ والأرضِ، فليسَ تأخيرُ العذابِ عنهم لعجزٍ، ولكن لوعدٍ سبقَ في إنظارِهم، وهذا كما أنَّه خالقُ الخليقةِ في ستَّةِ أيَّامٍ، لا لعجزِه عن خلقِها في لحظةٍ واحدة، بل لحكمةٍ له فيه.

وقيلَ: قالَت اليهودُ: خلقَ اللهُ الأرضَ يومَ الأحدِ والإثنين، والجبالَ يومَ الثُّلاثاء، والشَّجرَ يومَ الأربعاء، والسَّماءَ يومَ الخميس، والنُّجومَ يومَ الجمعة، ثمَّ استوى على العرشِ واستراحَ. فغضبَ النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ غضباً شديداً، ونزلَت هذهِ الآيةُ إلى قولِه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[1].

واللغوب: الإعياء؛ يُقال: «لَغَبَ يَلْغُبُ» مثلَ: نَصَرَ يَنصُرُ، و«لَغِبَ يَلغَب» مثلَ: حَمِدَ يَحمَدُ، لَغْباً، فهو لاغِبٌ.

* * *

(٣٩) ـ ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: هوِّنْ أمرَهم على نفسِك، فليسَ لهم من القَدْرِ ما يُهتمُّ بشأنِهم. قيل: نزلَ هذا قبلَ الأمرِ بالقتالِ.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾؛ أي: صلِّ بحمدِ الله.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٨٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣٩٩٧)، عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الحاكم، فتعقبه الذهبي بقوله: أبو سعد البقال قال ابن معين: لا يكتب حديثه.

وقيلَ: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾؛ أي: وأنت تحمدُ الله فيها.

﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾؛ أي: صلاةِ الفجرِ والعصرِ.

قالَ ابنُ عبَّاس: يدخلُ فيما قبلَ الغروبِ صلاةُ الظُّهر[١].

***

(٤٠) ـ ﴿وَمِنَ الَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾.

﴿وَمِنَ الَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾؛ أي: من المغربِ والعشاءِ.

﴿وإِدْبارَ السُّجود﴾ قُرِئَ بكسرِ الهمزةِ، مِن أدبرَ الشَّيء إدباراً؛ أي: ولَّى، وهو نصبٌ على الظَّرف، كقولِك: جئتُكَ مَقدمَ الحاجِّ، فالمعنى: وقتَ إدبارِ السُّجود، فحُذِفَ المضافُ.

وقُرِئَ ﴿وَأَدْبَارَ﴾ بفتحِ الهمزة[٢]، وهو جمعُ الدُّبُرِ والدُّبْر، وقد يُستعمَلُ ذلك ظرفاً، تقولُ: جئتُكَ في أدبارِ الصَّلاةِ، وفي إدبارِ الصَّلوات، فالمعنى: أنَّه أُمِرَ بالتَّسبيحِ باللِّسانِ أدبارَ الصَّلواتِ المكتوبةِ، والمرادُ بالسُّجودِ: الصَّلاة.

***

(٤١ ـ ٤٢) ـ ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ﴾ مفعولُ الاستماعِ محذوفٌ؛ أي: استمعِ

(١) ذكر معناه الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤١٦) عن ابن عباس من رواية عطاء والكلبي، وكلا الروايتين ضعيف جدًّا، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٤٩٤) بلفظ: «صلاة الظهر والعصر».

(٢) قرأ بكسر الهمزة نافع وابن كثير وحمزة، والباقون بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٧)، و«التيسير» (ص: ٢٠٢).

النِّداءَ والصَّوتَ، أو: الصَّيحةَ، وهي صيحةُ القيامة، وهي النَّفخةُ الثَّانية؛ أي: إنَّها قريبةٌ.

والمنادي جبريلُ ـ وقيلَ: إسرافيل ـ فيُنادي بالحشرِ، ويقول: هلمُّوا إلى الحسابِ.

وقيلَ: واستمِعْ نداءَ الكفَّارِ بالويلِ والثُّبورِ.

﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾؛ أي: يَسمعُ الجميعُ، فلا يَبعُدُ أحدٌ عن ذلك النِّداء.

قالَ عكرمةُ: يُنادي منادي الرَّحمنِ فكأنَّما يُنادي في آذانِهم[1].

وقيلَ: المكانُ القريبُ: صخرةُ بيتِ المقدس، وقيلَ: إنَّها وسطُ الأرضِ[2]، فيقفُ جبريلُ ـ أو إسرافيلُ ـ ويُنادي على الصَّخرة بالحشرِ.

وقيلَ: إنَّها أقربُ إلى السَّماءِ باثني عشر ميلاً[3].

قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ﴾؛ أي: النِّداءَ بالبعثِ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالأمرِ الجائي مِن قِبَلِ الله ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾؛ أي: من القبور.

* * *

(٤٣ ـ ٤٤) ـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ نُحييهم بعدَ أن كانُوا نُطفاً، ونديمُ لهم

---

(١) وذكر أبو حفص النسفي في «التيسير» (١٤/ ٣٥) عن عكرمة قال: ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾: كأنه مِن تحت أقدامِهم. وهكذا ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤١٩) لكن عن ابن عباس.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٤٧٥) عن قتادة قال: كنا نحدّث أنه ينادي من بيت المقدس من الصخرة، وهي أوسط الأرض.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٤٧٥) من تتمة خبر قتادة السابق، حيث زاد فيه: وحُدّثنا أن كعباً قال: هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً. وهو من خرافات الإسرائيليات.

الحياةَ ما شئنا، ثمَّ نميتُهم، ﴿وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ﴾ إذا أحييناهم للحسابِ.

وقالَ الكلبيُّ: الواو لا تقتضي ترتيباً؛ أي: نحن نميتُ في الدُّنيا، ونُحيي للبعثِ، وإلينا المصير[١].

قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ﴾؛ أي: تصدَّعُ ﴿عَنۡهُمۡ﴾ الأرضُ فيخرجون ﴿سِرَاعٗا﴾ إلى دعوةِ المنادي ﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾؛ أي: بعثٌ علينا سهلٌ.

* * *

(٤٥) ـ ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: مِن تكذيبِك وشتمِك، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ﴾؛ أي: بمُسلَّطٍ يُجبرُهم على الإسلام.

وقيلَ: كانَ هذا قبلَ الأمرِ بالقتالِ.

والجبَّارُ من الجبريَّةِ والتَّسلُّطِ؛ إذ لا يُقالُ: «جبَّار» بمعنى: مُجبِر، كما لا يُقالُ: خرَّاج بمعنى: مُخرِج.

وقالَ الفرَّاء: سمعتُ من العربِ مَن يقولُ: جبَرَه على الأمرِ؛ أي: قَهَرَه، فالجبَّارُ من هذه اللُّغة صحيحٌ بمعنى: القهر[٢].

واللهُ تعالى أعلمُ بالصَّوابِ.

* * *

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٢٠).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٨١)، و«البسيط» للواحدي (٢٠/ ٤٢١).

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

تفسيرُ سورةِ الذاريات

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١ ـ ٤) ـ ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾.

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾؛ أي: وربِّ الذَّارياتِ.

ويُقالُ: أُقْسِمُ بالذَّارياتِ، وإذا أقسَمَ الرَّبُّ بشيءٍ أثبتَ له شَرَفاً.

ومعنى الذَّارياتِ: الرِّياحُ تذرو التُّرابَ وهشيمَ النَّبت، كقولِه: ﴿تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥]، يُقال: ذَرَت وأذْرَت بمعنًى، ﴿ذَرۡوٗا﴾ ويُذكرُ المصدرُ كقولِه: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤].

قولُه تعالى: ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾ أي: السُّحبِ التي تحملُ ثِقْلاً من الماءِ، والوِقرُ: الثِّقْلُ.

قولُه تعالى: ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾؛ أي: السُّفنِ التي تجري ميسَّرةً في الماءِ جرياً سهلاً.

قولُه تعالى: ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾؛ أي: الملائكةِ يُقسِّمون الأمرَ بين الخلقِ في الأرضِ بأمر الله.

وقيلَ: جبريلُ عليه السَّلامُ صاحبُ الغِلظة، وميكائيلُ صاحبُ الرَّحمة، وملكُ الموتِ يأتي بالموت[1].

---

(١) ذكره الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٨٢)، وعنه الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٢٦).

واللَّفظُ عامٌّ في جميعِ الملائكةِ فإنَّهم وُكِّلوا بالأمور.

وقيلَ: ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾ هي الرِّياحُ أيضاً، وكذلك ﴿الحامِلاتِ وِقْراً﴾؛ فإنَّ الرِّياحَ هي التي تحملُ السُّحبَ الثِّقال، وكذا ﴿المقسِّماتِ أمراً﴾؛ لأنَّها إذا أثارَت السَّحابَ كانَ منها المطرُ المقسَّمُ، وهو المُفرَّقُ في المواضعِ، وقد تُصيبُ موضعاً ولا تُصيبُ موضعاً، فالجميعُ راجعٌ إلى الرِّياحِ، وكلُّ قَسَمٍ منها بصفةٍ للرِّيحِ غيرِ الصِّفةِ في القَسَمِ الآخرِ.

وعلى الأوَّلِ عُطِفَ بالفاءِ لاتِّصالِ البعضِ بالبعض؛ لأنَّ الرِّيحَ تثيرُ السَّحابَ الحاملاتِ وقراً، وتسوقُ السُّفنَ، والملائكةُ هي التي تسوقُ السَّحابَ بأمرِ الله.

* * *

(٥ ـ ٦) ـ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ﴾؛ أي: لحقٌّ كائنٌ، والصَّادقُ صفةُ الوعدِ، يُقال: وعدٌ صادقٌ، ووعدٌ كاذبٌ؛ أي: مُكذوبٌ فيه، كقولِه: ﴿عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٢١]، وكقولهم: ليلٌ نائمٌ.

وقيلَ: ﴿لَصَادِقٞ﴾؛ أي: لذو صدقٍ، وكذا ﴿عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾؛ أي: ذات رضاً.

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ﴾؛ أي: وإنَّ الجزاءَ لكائنٌ.

* * *

(٧ ـ ٩) ـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ٧ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ٨ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾ أقسمَ بالسَّماءِ أيضاً، والحَبْكُ: إجادةُ النَّسج،

يُقال: حَبَكَ الثَّوب؛ أي: أجادَ نسجَه، وحبلٌ محبوكٌ؛ أي: شديدُ الفتلِ، وفرسٌ محبوكُ الكفلِ؛ أي: مُدْمَجُه.

وقالَ أبو عُبيدةَ والمُبرِّدُ: الحُبُكُ: الطَّرائقُ، الواحدةُ: حِباكٌ، وحِباكُ الحَمامِ: طرائقُ على جناحِه، وطرائقُ الماءِ: حُبُكُه[1].

وقالَ الفرَّاء: الحِبْكُ ـ بكسرِ الحاء ـ: تكسُّرُ كلِّ شيءٍ كالرَّملةِ إذا مرَّت بها الرِّيحُ، والماءِ إذا مرَّت به الرِّيح، والدِّرعُ من الحديدِ لها حُبُكٌ أيضاً، يُقال في الواحدة: حِباك وحَبِيكة[2]؛ مثل طريقةٍ وطُرُق ومِثالٍ ومُثُل.

وقالَ ابنُ عبَّاس: يريدُ: الخَلْقَ الحَسَن[3].

وقيلَ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾؛ أي: ذاتِ الخَلقِ الشَّديد، كما قالَ: ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢].

ثمَّ طرقُ السَّماءِ لا تُرى[4] لبُعدِ المسافةِ.

وقيلَ: عنى بهذه الطَّرائقِ المجرَّة.

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٢٢٥)، و«الكامل» للمبرد (١/ ٤٢)، وعنهما الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٢٨).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٨٢)، و«البسيط» للواحدي (٢٠/ ٤٢٩). وليس فيهما التقييد بكسر الحاء. مع العلم أنه قد نسب للحسن القراءة بكسر الحاء وسكون الباء، وبكسرهما. انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٢).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٤٨٦)، ورواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥٤٥) بلفظ: «ذات البهاء والجمال وإن بنيانها كالبرد المسلسل». وذكره البخاري معلقاً قبل حديث (٦/ ١٣٩) بلفظ: «والحبك: استواؤها وحسنها».

(٤) بعدها في (أ): «الاب»! ولا يظهر لها وجه.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ هذا جوابُ القسمِ؛ أي: واحدٌ يقولُ لـمحمَّد: شاعرٌ، وآخرُ: ساحرٌ.

وقيلَ: هو خطابٌ للكلِّ؛ أي: واحدٌ يصدِّقُه وآخرُ يكذِّبُه.

وقيلَ: اختلافُهم أنَّ منهم مَن نفى الحشرِ ومنهم مَن شكَّ فيه.

قولُه تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾؛ أي: يُصرَفُ عن الإيمانِ به مَن أُفِكَ عن الخيرات.

وقيلَ: يُصرَفُ عن ذلك الاختلافِ مَن عصمَه الله.

❊ ❊ ❊

(١٠ ـ ١٤) ـ ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ في التَّفسيرِ: لُعِنَ الكذَّابون، وهذا لأنَّ مَن لعنَه الله فهو بمنزلةِ المقتولِ الهالك، وهذا دعاءٌ عليهم.

وقالَ ابنُ الأنباريِّ: علَّمَنا الدُّعاءَ عليهم؛ أي: قولوا: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾[(١)].

والخَرْصُ: الكذب، والخرَّاصُ: الكذَّاب، وقيلَ: الذي يَحكمُ بالحدسِ والتَّخمينِ، من خَرْصِ النَّخلة، وهو الحَزْرُ، يعني: رؤساءَ قريشٍ الذين قالَ بعضُهم: إنَّه شاعر، وقالَ بعضهم: إنَّه ساحرٌ أو كاهن، فذكروا ما لا علمَ لهم به.

وقالَ ابنُ عبَّاس: هم المقتسِمون الذين قالوا: إن محمَّداً ساحرٌ وشاعرٌ ومجنونٌ وكاهن[(٢)].

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٣١).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٥١٨)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٣٢).

وقيلَ: هم الكهنةُ. ويدخُلُ في الخرصِ قولُ المنجِّمين.

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ الغَمرةُ: ما سترَ الشَّيءَ وغطَّاه، ومنه: نهرٌ غمرٌ؛ أي: يغمرُ مَن دخلَه، ومنه: غمراتُ الموت؛ أي: هم ذاهِلون غافِلون عن أمرِ الآخرة.

﴿سَاهُونَ﴾؛ أي: غافلون.

قولُه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾؛ أي: يشكُّون في القيامةِ ويقولون لفرطِ إنكارِهم: متى هو؟

و﴿أَيَّانَ﴾ بمعنى: متى، وأصلُه: أيَّ أوانٍ، فجُعِلَتا كلمةً واحدة.

قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ قالَ الزَّجَّاج: تقولُ: «يعجبُني يومُ أنتَ قائمٌ»، و: «يومُ أنتَ تقومُ»، وإن شئتَ فتحْتَ وهو في موضعِ رفعٍ، فإنَّما انتصبَ بهذا[١] وهو في المعنى رفعٌ، قالَ: ويجوزُ أن يكونَ المعنى: يقعُ الجزاءُ يومَ هم على النّارِ يُعرَضون[٢].

﴿يُفْتَنُونَ﴾؛ أي: يُحرقونَ، من فتنتُ الذَّهبَ بالنّار؛ أي: أخرجتُ ما فيه من الغشِّ عنه.

قولُه تعالى: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾؛ أي: يُقالُ لهم: ﴿ذُوقُواْ﴾.

وقيلَ: كانُوا يَفتنون المسلمين عن الدِّين بأنواعِ العذابِ، فيُقالُ لهم غداً: ذوقوا

---

(١) أي: فتح ﴿يَوْمَ﴾ وهو في موضع خفض لأنك أضفته إلى غير متمكن. من المصدرين الآتيين. وفي «تفسير القرطبي» (١٩/ ٤٧٦) ـ وهو ناقل عن المصنف هنا ـ: «فإنما انتصب هذا»، والمعنى واضح، ويبقى التعليل الذي ذكرناه ضروريًّا.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥٢)، و«البسيط» للواحدي (٢٠/ ٤٣٤).

العذابَ جزاءً على فتنتِكم المؤمنين، وجزاءُ الشَّيءِ قد يُسمَّى باسمِ ذلك الشَّيءِ.

﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾؛ أي: هذا ما استعجَلْتُموه في الدُّنيا.

***

(١٥ ـ ١٩) ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ لـمَّا ذكرَ مآلَ الكفَّارِ ذكرَ مآلَ المؤمنين؛ أي: هم في بساتين فيها عيونٌ جاريةٌ على نهايةِ ما يُتنزَّهُ به.

قولُه تعالى: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾؛ أي: أعطاهم من الكرامةِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: في الدُّنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾؛ أي: مطيعين.

قولُه تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾؛ أي: كانُوا يُصلُّون باللَّيلِ، والهجوعُ: النَّومُ ليلاً، ثمَّ؛ قيلَ: ﴿مَا﴾ صلةٌ؛ أي: كانُوا يهجعون من اللَّيل قليلاً ويُصلُّون أكثرَ اللَّيل.

قالَ عطاءٌ: هذا لـمَّا أُمِروا بقيامِ اللَّيل[1].

وقيلَ: ليس ﴿مَا﴾ صلةً، بل الوقفُ عند قوله: ﴿قَلِيلًا﴾، ثمَّ تَبتدِئ: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ فـ﴿مَا﴾ للنَّفيِ، وهو نفيُ النَّومِ عنهم البتَّة.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦٣٠٠)، وابن نصر وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٧/ ٦١٥)، وتتمته: وكان أبو ذر يحتجز احتجازه ويأخذ العصا فيعتمد عليها، فكانوا كذلك حتى أنزلت الرخصة: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾.

وقيلَ: ﴿مَا﴾ بمعنى المصدر؛ أي: كانُوا قليلاً من اللَّيل هجوعُهم، ثمَّ يعودُ فيه المعنيان.

وقيلَ: ﴿مَا﴾ بمعنى: الذي؛ أي: كانُوا قليلاً من اللَّيل الذي يهجعون.

وقالَ المُبرِّدُ: لو كانَ ﴿مَا﴾ للمصدر أو بمعنى: الذي، لارتفعَ ما قبلَه حتَّى تقولَ: قليلٌ هجوعُهم، أو: قليلٌ الذي يهجعون(١).

وأجازَ الزَّجَّاجُ والفرَّاءُ النَّصبَ مع كون ﴿مَا﴾ للمصدر أو بمعنى: الذي(٢).

وقالَ أنس في هذه الآية: أي: كانُوا يصلُّون بين المغرب والعشاء(٣).

وقالَ محمَّدُ بنُ عليٍّ: كانُوا لا ينامون حتَّى يُصلُّوا العشاءَ(٤).

وعَدَّ هجوعَهم قليلاً في جنبِ تعظيمِهم للصَّلاة.

قولُه تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾؛ أي: من ذنوبِهم، والسَّحَرُ وقتٌ يُرجى فيه إجابةُ الدُّعاء.

وقيلَ: أرادَ: يُصلُّون وقتَ السَّحَر، فسَمَّى الصَّلاةَ استغفاراً.

قولُه تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ قيل: أرادَ: صدقةَ الفرض.

وقيلَ: النَّفل؛ لأنَّ السُّورةَ مكيّةٌ، وفُرِضَت الزَّكاةُ بالمدينةِ.

﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾: الذي حُرِمَ المالَ.

---

(١) ذكره عنه النحاس في «إعراب القرآن» (٤/ ١٦٠)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٣٨).

(٢) انظر: «البسيط» (٢٠/ ٤٣٨)، وانظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٨٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥٣).

(٣) رواه أبو داود (١٣٢١) و(١٣٢٢).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦٣٠١)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٥٠٢).

ثمَّ؛ قيلَ: عنى به مَن ليس له شيءٌ من الغنيمةِ والفَيءِ ولا مالَ له أصلاً.

وقيلَ: هو الذي لا يَسأَلُ.

وقيلَ: هو المصابُ ثمرُه أو زرعُه أو ماشيتُه.

والسَّائلُ: هو الذي أظهرَ نفسَه بالحاجةِ، فهو يَسأل، والمحرومُ متعفِّفٌ عن السؤال.

***

(٢٠ ـ ٢١) ـ ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ لـمَّا ذكرَ أمرَ الفريقين بيَّنَ أنَّ في الأرضِ علاماتٍ تدلُّ على قدرتِه على البعثِ والنُّشور:

فمنها: عَودُ النَّباتِ بعد أن صارَ هشيماً.

ومنها: أنَّه قدَّرَ الأقوات منها قواماً للحيوانات.

ومنها: سيرُهم في البلدانِ التي يُشاهدون فيها آثارَ الهلاكِ النَّازلِ بالأممِ المكذِّبة.

وخَصَّ الموقنين لأنَّهم المنتفِعون بتلك الآياتِ وتدبُّرِها.

قولُه تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ وفي خَلْقِ أنفسِكم من نطفةٍ وعلقةٍ ومضغةٍ ولحمٍ وعظمٍ إلى نفخِ الرُّوحِ، وفي اختلافِ الألسنةِ والألوانِ والصُّورِ، والأكلِ والشُّربِ[1] من مدخلٍ واحدٍ والانفصالِ من موضعين، وغيرِ ذلك من الآيات، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يعني: بصرَ القلبِ لتعرفُوا كمالَ قُدرته.

***

---

(١) بعدها في (أ): «وانفصالِ ما ينفصلُ من الحيوان، والأكلِ والشُّربِ». وانظر: «البسيط» (٢٠/ ٤٤٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٤٨٥).

(٢٢) ـ ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾؛ أي: منها ينزلُ المطرُ ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من الثَّوابِ والعقاب.

وقالَ مجاهدٌ: من الجنَّةِ والنّارِ(١).

وقيلَ: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من أمرِ السَّاعة.

* * *

(٢٣) ـ ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أكَّدَ ما أخبرَهم به من البعثِ وما خَلقَ في السَّماءِ والأرضِ من الرِّزقِ ومِن الآياتِ بالقسَمِ بنفسِه في أنَّه حقٌّ صِدقٌ ليسَ بباطلٍ ولا كذبٍ ﴿مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾؛ أي: هو حقٌّ كما أنَّك هاهنا جالسٌ.

قُرِئَ: ﴿مِثْلُ﴾ بالرَّفعِ وهو صفةُ قولِه: ﴿لَحَقٌّ﴾، وقُرِئَ بالنَّصبِ(٢).

قالَ أبو عليٍّ: لمَّا أُضيفَ ﴿مِثْلَ﴾ إلى مبنيٍّ وهو قوله: ﴿أَنَّكُمْ﴾ بُنِيَ، كما بُنِيَ ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ في قولِه: ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ [المعارج: ١١] ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ [هود: ٦٦]، قال: ويجوزُ أن يَنتصبَ ﴿مِثْلَ﴾ على الحالِ من النَّكرةِ الذي هو (حقٌّ) في قولِه: ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾، والعاملُ في الحالِ هو الحقُّ(٣).

---

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٣٤٣)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٤٣)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (١٤/ ٤٧)، عن مجاهد، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٥٢٢)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٢٦١) عن الضحاك.

(٢) قرأ بالرفع حمزةُ والكسائيُّ وشعبة، والباقون بالنَّصْب. انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٩)، و«التيسير» (ص: ٢٠٣).

(٣) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٦/ ٢١٦ ـ ٢١٧)، ونحوه في «التعليقة على كتاب سيبويه» =

وقالَ الفرَّاء: هو كقولِك: هذا رجلٌ قائماً[١].

وقـالَ الزَّجَّاجُ: يجوزُ أن يَنتصبَ على التَّوكيدِ؛ أي: لحقٌّ حقًّا مثلَ نُطقِكم، فكأنَّه نعتُ مصدرٍ محذوفٍ[٢].

وأمَّا ﴿مَآ﴾ في قولِه: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾:

قال الفرَّاء: (ما) مع الفعلِ بمنزلةِ المصدرِ، وكذلك (أنَّ)، وقد يَجمَعُ العربُ بين الشَّيئين ومعناهما واحدٌ إذا اختلفَ لفظُهما، تقولُ: ما رأيتُ كمثلِه، ويُجمَعُ بين (ما) و(إنْ) وهما للجحدِ [أحدُهما يَجْزي عن الآخَر]، فكأنَّه قالَ: مثلَ نُطْقِكم[٣].

وقالَ المُبرِّدُ وأبو عليٍّ: ﴿مَآ﴾ زائدةٌ، كقولِه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾ [آل عمران: ١٥٩][٤].

***

(٢٤ ـ ٢٥) ـ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ ثمَّ ذكرَ قصَّةَ إبراهيمَ ليُبيِّنَ بها أنَّه يُهلِكُ المكذِّبَ بآياتِه كما فعلَ بقومِ لوطٍ.

= (٢/ ٢٥٣). ونقله الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٤٥ ـ ٤٤٧)، وما ذكره المصنف هنا مختصر منه.

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٨٤ ـ ٨٥)، وفيه كلام طويل، لكن ليس فيه هذا الوجه، بل ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٤٧) عن المبرد، وتمام عبارته: «وذكر المبرد أيضًا هذا الوجه فقال: يجوز أن يجعل حالاً للنكرة كقوله: هذا رجل قائمًا». ثم ذكر عقبه عن الفراء والزجاج وجهاً آخر في انتصاب ﴿مثل ما﴾، وسيأتي كلام الزجاج.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥٤).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٨٤ ـ ٨٥)، و«البسيط» (٢٠/ ٤٤٤)، وما بين معكوفتين منهما.

(٤) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٦/ ٢١٧)، وذكره عنهما الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٤٤).

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾؛ أي: ألم يأتك.

وقيلَ: أي: أليس قد أتاك، كقولِه: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ [الإنسان: ١].

﴿حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ سمَّاهم ضيفاً وإن كانُوا لا يأكلون لأنَّهم جاؤوا مَجيءَ الأضياف، والضَّيفُ يُطلَقُ على الواحدِ والجمعِ لأنَّه مصدرُ ضافَ يضيفُ ضيفاً، كما يُقالَ: قومٌ صَومٌ.

﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾؛ أي: عندَ الله، قالَ ابنُ عبَّاس: يريدُ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيل[1].

وقالَ مجاهدٌ: إكرامُهم: أنَّه خدمَهم بنفسِه[2]، وكانَ لا يقومُ على رأسِ ضيفٍ، فلمَّا رأى هيئاتِهم حسنةً قامَ هو وامرأتُه سارةُ بخدمتِهم.

وقيلَ: أكرمَهم بالعجل.

قولُه تعالى: ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: حين دخلُوا عليه دخولَ الأضيافِ ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمٗا﴾؛ أي: حيَّوه بالسَّلام، فردَّ عليهم، وقد ذكرنا هذا في (سورةِ هود).

﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾؛ أي: أنتم قومٌ مُنكَرون، قاله في نفسِه، ويجوزُ أن يُقالَ: خاطبَهم بهذا القولِ؛ أي: أنتم غيرُ معروفين.

وقيلَ: رأى هيئةً لـم يكن رأى مثلَها قبلَ ذلك مِن حُسنِ الوجوهِ وطيبِ الرَّائحة.

وقيلَ: أنكرَ تحيَّتَهم إيَّاه بالسَّلامِ في ذلك الزَّمانِ؛ إذ لـم يكن السَّلامُ مِن تحيَّتِهم.

وقولُه: ﴿قَالَ سَلَٰمٞ﴾؛ أي: قالَ لهم قولاً هو سلام.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٤٨).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «قرى الضيف» (٨)، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ١١٧)، وذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٤٨).

وقيلَ: الرَّفعُ بإضمارِ (عليكم)؛ أي: قالَ: عليكم سلامٌ، وهم قالوا: ﴿سَلَٰمٗا﴾؛ أي: لَقِيتَ سلاماً، أو: نلتَ سلاماً وأماناً منَ المكارهِ، كقولِك: مرحباً وأهلاً.

وقيلَ: أي: قالوا له سلاماً من القولِ؛ أي: صَواباً.

***

(٢٦ ـ ٢٧) ـ ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ (٢٦) فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾؛ أي: فمالَ إبراهيمُ إلى أهلِ منزلِه كالمستخفي من ضيفِه لئلا يَظهروا على ما يريدُ أن يتَّخذَه لهم من الطَّعامِ، يُقال: أراغَ الرَّجلُ الصَّيدَ: إذا تتبَّعَه خُفيةً ينتهزُ الفرصةَ منه، ومنه: روغانُ الثَّعلب.

﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾؛ أي: جاءَ ضيفَه بعجلٍ قد شَواه لهم ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾؛ أي: قرَّبه ليأكلوا، فلم يأكلوا، فقالَ: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾؟

قالَ قتادةُ: كانَ عامَّةُ مالِ إبراهيمَ البقرَ[1].

وقيلَ: العجلُ في بعضِ اللُّغاتِ: الشَّاةُ.

***

(٢٨) ـ ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾؛ أي: أضمرَ منهم خوفاً لمَّا لم يتحرَّمُوا بطعامِه، ومن أخلاقِ النَّاسِ أنَّ مَن تحرَّمَ بطعامِ إنسانٍ أمِنَه.

وقالَ عمرُو بنُ دينار: قالَت الملائكةُ له: لا نأكلُ إلا بثمنٍ. قالَ: فكلُوا وأدُّوا

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٥٢٦)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٥٤٦)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٣٧٠).

ثمنَه. قالوا: وما ثمنُه؟ قالَ: تُسمُّون اللهَ إذا أكلتُم، وتَحمدونه إذا فرغتُم. فنظرَ بعضُهم إلى بعض، وقالوا: لهذا اتَّخذكَ اللهُ خليلاً(١).

والإيجاسُ: الإحساسُ.

ولمَّا رأَوا ما بإبراهيمَ من الخوفِ ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ وأعلموه أنَّهم ملائكةُ اللهِ ورسلُه، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾؛ أي: بولدٍ يُولَدُ له من سارة.

وقيلَ: لمَّا أخبروه أنَّهم ملائكةٌ لـم يُصدِّقهم، فدعَوا اللهَ فأحيا العجلَ الذي قرَّبه إليهم.

﴿عَلِيمٍ﴾؛ أي: يكونُ بعدَ بلوغِه مِن أولي العلمِ باللهِ وبدينِه، كقولِه: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] قيل: بعد بلوغي، ولا يبعدُ أنَّه كانَ له عِلْمٌ ونبوَّةٌ حالةَ الصِّبا.

* * *

(٢٩ ـ ٣٠) ـ ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾؛ أي: لمَّا بشَّرَت الملائكةُ إبراهيمَ بولدٍ من سارةَ، وكانَ إسحاقَ، كانَت سارةُ قائمةً تسمع، فأقبلَت في صَرَّة؛ أي: جعلَت تتعجَّبُ.

قال الفرَّاء: هو كقولك: أقبلَ يشتمُني؛ أي: أخذَ في شتمي(٢).

والصَّرَّةُ: الصَّيحةُ، وهي من الصَّريرِ في البابِ والرِّيح.

---

(١) رواه إبراهيم الحربي في «إكرام الضيف» (٩٤)، وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٤/ ٤٥٠).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٨٧).

وقيلَ: أقبلَت في صرَّة؛ أي: جماعةٍ من النَّاسِ تسمعُ كلامَ الملائكةِ، فلمَّا سمعَت البشارةَ صكَّت وجهَها؛ أي: ضربَت يدَها على وجهِها على عادةِ النِّسوانِ عند التَّعجُّب.

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾؛ أي: أتلدُ عجوزٌ عقيمٌ؟!

وقالَ الزَّجَّاج: أي: وقالَت: أنا عجوزٌ عقيمٌ، فكيفَ ألدُ؟ كما قالَ: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢][1].

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾؛ أي: كما أخبرناكِ قالَ ربُّك، فلا تَشكِّي فيه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فما يفعلُه حكمةٌ وصوابٌ، وهو عليمٌ بمصالحِ الخلق.

***

(٣١ ـ ٣٧) ـ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ قالَ: ما أمرُكم وشأنُكم؟ ومنه: خطوبُ الدَّهر؛ أي: ما الذي تُخبِرون به عن أنفسِكم، تقولُ: خطبتُ بالشَّيءِ: إذا أخبرتَ به، ومنه الخُطبة.

قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾؛ أي: مُذنبين أنَّهم أكسبُوا أنفسَهم الهلاكَ بأعمالِهم السَّيِّئةِ وتكذيبِهم لوطاً.

قولُه تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾؛ أي: لنرجمَهم.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥٥)، و«البسيط» للواحدي (٢٠/ ٤٥٣).

قولُـه تعالـى: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾؛ أي: مُعْلَمـةً. قيـل: كانَـت بسـوادٍ وبيـاض. وقيـلَ: بسـوادٍ وحُمـرةٍ.

﴿عِندَ رَبِّكَ﴾؛ أي: عند الله، وقد أعدَّها لرجمِ مَن قضَى برجمِه.

وقيلَ: أي: موسومةً يعرفُها الملائكة.

وقيلَ: كانَت مطبوخةً من طينٍ طَبْخَ الآجرِّ.

وقيلَ: هي الحجارةُ التي نراها الآنَ، فأصلُها طينٌ، وإنَّما تصيرُ حجارةً بإحراقِ الشَّمسِ إيَّاها على مرِّ الدُّهور.

وإنَّما قالَ: ﴿مِّن طِينٍ﴾ ليُعلَمَ أنَّها ليسَت حجارةَ الماءِ التي هي البَرَدُ.

قولُه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: لـمَّا أردنا إهلاكَ قومِ لوطٍ أخرجنا مَن كانَ في قومِه من المؤمنين؛ لئلا يَهلِكَ المؤمنون، وذلك قولُه: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود: ٨١].

قولُه تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ يعني: لوطاً وبِنْتيه، وفيه إضمارٌ؛ أي: غيرَ أهلِ بيتٍ، وقد يُقالُ: بيتٌ شريفٌ، يُرادُ به الأهلُ.

وقولُه: ﴿فِيهَا﴾ كنايةٌ عن القرية وإن لـم يجرِ لها ذكرٌ؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يدلُّ على القرية؛ لأنَّ القومَ إنَّما يسكنون قريةً.

ثمَّ؛ قيلَ: الإسلامُ والإيمانُ واحدٌ، فجنَّسَ اللَّفظَ؛ لئلا يتكرَّر.

وقيلَ: الإيمانُ: تصديقُ القلبِ، والإسلامُ: الانقيادُ بالظَّاهر، فكلُّ مؤمنٍ مسلمٌ، وليس كلُّ مسلمٍ مؤمناً، فسمَّاهم في الآيةِ الأولى مؤمنين لأنَّه ما مِن مؤمنٍ إلا وهو مسلم، وقولُه: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ [الحجرات: ١٤] يـدلُّ على الفرقِ بين الإسلامِ والإيمان.

قولُه تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾؛ أي: عبرةً لأهلِ ذلك الزَّمانِ ومَن جاء بعدَهم يحذرونَ بها تكذيبَ الرُّسل.

ثمَّ؛ قيلَ: الآيةُ نفسُ القريةِ الخَرِبةِ.

وقيلَ: أي: تركنا فيها حجارةً منضودةً ممَّا رُجِموا به، فهي الآيةُ.

﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ لأنَّهم الـمُنتفِعون.

***

(٣٨ - ٤٠) - ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾؛ أي: وفي شأنِه وقصَّتِه آيةٌ أيضاً؛ أي: وتركنا في قصَّةِ موسى آيةً.

﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: بالمعجزاتِ.

قولُه تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ ركنُ الرَّجلِ: أعوانُه، ومنه: ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، والباءُ بمعنى: مع؛ أي: أعرضَ مع أركانه[1] عن قَبولِ قولِ موسى، تقولُ: خرجَ الأميرُ بحَشَمِه؛ أي: مع حَشَمِه.

وقيلَ: أي: تولَّى بقوَّتِه في نفسِه.

وقيلَ: أي: أعرضَ بجانبِه، كقولِه: ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٣]، فالرُّكنُ جانبُ البدن، وهذا عبارةٌ عن المبالغةِ في الإعراضِ عن الشَّيء.

﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾؛ أي: ساحرٌ يُخيِّلُ إلى النَّاظرِ ما ليس له تحقيقٌ، أو مجنونٌ

---

(١) في (أ): «مع أن كانت»، ولعله محرف عما أثبتناه.

لا يُفكِّرُ في العاقبةِ، ولا يدري ما يفعلُ، وهذا اختلاطٌ عظيمٌ من فرعون؛ لأنَّ بينَ السَّاحرِ والمجنونِ [بونٌ](١)، فالسِّحرُ لا يصدرُ إلا عن رأيٍ دقيقٍ، والجنونُ عدمُ العقلِ والتَّمييز، فكيفَ وصفَ موسى بهما في حالة واحدة؟!

وقالَ أبو عُبيدةَ: ﴿أَوۡ﴾ بمعنى الواو، فقد وصفَ موسى بالأمرينِ(٢). والاختلاطُ هنا(٣) أكثرُ.

قولُه تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾؛ أي: كما تولَّى هو وجنودُه وأركانُه أخذناه وجنودَه فألقيناهم في اليم ﴿وَهُوَ مُلِيمٞ﴾؛ أي: أخذناه بذلك وفِعْلِ ما يُلامُ عليه.

* * *

(٤١ ـ ٤٢) ـ ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ﴾: وفيهم آيةٌ لمَن تأمَّلَ ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَا﴾؛ أي: حينَ أرسلنا ﴿عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ وهي الرِّيحُ التيلا تنبتُ ولا تُلقِحُ شجراً، ولا تُثيرُ سحاباً، ولا تحملُ مطراً، كالمرأةِ العقيمِ التي لا تلدُ.

ثمَّ؛ قيلَ: هي الجَنوبُ.

وقالَ مقاتـلٌ: الدَّبـورُ(٤)، ....

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٢٢٧).

(٣) في (أ): «وهذا»، والصواب المثبت.

(٤) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٣٧٣) عن مقاتل، ورواه ابن أبي الدنيا في «المطر والرعد» (١٦٨) عن سعيد بن المسيب، وفي «تفسير مقاتل» (٤/ ١٣٢): «التي تهلك ولا =

كما في الخبرِ: «نُصِرتُ بالصَّبا، وأُهلِكَت عادٌ بالدَّبورِ»(١).

وقالَ ابنُ عبَّاس: هي النَّكباءُ(٢).

وقالَ عُبيدُ بنُ عُميرٍ: مسكنُها الأرضُ الرابعةُ، وما فُتِحَ على عادٍ منها إلا كقَدْرِ مَنْخِرِ الثَّور(٣).

قولُه تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ﴾؛ أي: ما تتركُ من شيءٍ ﴿أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ ممَّا أُمِرَت بإهلاكِه ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ البالي، والرَّميمُ: نباتُ الأرضِ إذا يَبِس.

وقيلَ: الرَّميمُ البالي، قالَ الله: ﴿مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

وقيلَ: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ﴾ من عادٍ؛ من أنفسِهم وأموالِهم إلا أهلكَته. فهذا مختصٌّ بهم.

* * *

(٤٣ ـ ٤٥) ـ ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾؛ أي: وفيهم أيضاً عبرةٌ ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ﴾؛

= تلقح الشجر ولا تثير السحاب وهي عذاب على من أرسلت عليه».

والدَّبور: ريح تهب من نحو المغرب. انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (١٤/ ٨٠).

(١) رواه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٥٦) من رواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره مكيُّ بن أبي طالب في «الهداية» (١١/ ٧١٠١)، والسمعاني في «تفسيره» (٥/ ٢٦٠)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (١٤/ ٥٥)، عن علي رضي الله عنه.

(٣) ذكره عنه مكي بن أبي طالب في «الهداية» (١١/ ٧١٠١)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٥٦)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (١٤/ ٥٦).

أي: إلى وقت الهلاكِ، وهو ثلاثةُ أيَّام، كما قالَ: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥].

قولُه تعالى: ﴿فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: خالفُوا أمرَ الله فعقرُوا النَّاقةَ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾؛ أي: الموتُ، وقيلَ: هي كلُّ عذابٍ مُهلِكٍ.

وقرأ الكسائيُّ ﴿الصَّعْقةُ﴾[1] وهي مصدرٌ كـ: الضَّربة، والصَّعْقةُ: الصَّوتُ الذي يكونُ عن الصَّاعقةِ.

﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾؛ أي: جاءَهم العذابُ نهاراً وهم يُبصِرونه.

وقيلَ: وهم ينتظرونَ الصَّاعقةَ؛ لأنَّ صالحاً كانَ وعدَهم ذلك لتمامِ ثلاثةِ أيَّامٍ، ووصفَ لهم علاماتٍ من تغيُّرِ ألوانِهم، فظهرَت العلاماتُ.

وقيلَ: أي: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ آيةٌ ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾: إن لـم تَعْقِروا النَّاقةَ ﴿تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، وإنْ عقروها هلكُوا، فخالفوا ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾.

وقيلَ: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾؛ أي: وهم ينظرُ بعضُهم إلى بعضٍ غيرَ مُتوقِّعين للعذاب، وقد رُويَ أنَّهم انتظروا العذاب فأصبحُوا في اليومِ الرَّابعِ وقد تَحنَّطوا ولبسُوا الأكفانَ، وكانَت أكفانُهم الأنطاعَ، وحَنوطُهم الصَّبِرَ[2].

قولُه تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ﴾؛ أي: ما أطاقوا أن يستقلُّوا بعذابِ الله، وأن

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٩)، و«التيسير» (ص: ٢٠٣).

(٢) قطعة من حديث طويل رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٥٨)، والحاكم في «المستدرك» (٤٠٦٩)، من حديث عمرو بن خارجة رضي الله عنه مرفوعاً. وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ الآية. وفيه أن ذلك كان في اليوم الثالث. والصبر بكسر الباء: عصارة شجر مر. انظر: «القاموس» (مادة: صبر).

يتحمَّلوه ويقوموا به، ويدفعُوه عن أنفسِهم، تقول: لا أقومُ بهذا الأمر؛ أي: لا أُطيقُه.

وقيلَ: أي: صرعتهم الصَّاعقةُ فلم يقدروا على القيام.

وقالَ ابنُ عبَّاس: أي: ذهبَت أجسامُهم وبقيَت أرواحُهم في العذابِ[1].

﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾؛ أي: ممتنعِين منَ العذابِ حين أُهلِكوا؛ أي: ما كانَ لهم ناصرٌ.

***

(٤٦) - ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ قُرِئَ بالنَّصبِ لأنَّ معنى ﴿أخذتهم الصَّاعقةُ﴾: أهلكناهم؛ أي: وأهلكنَّا قومَ نوح، وقُرِئَ ﴿وقومِ نوحٍ﴾ بالخفض[2]؛ أي: وفي ثمودِ وقومِ نوحٍ آيةٌ وعظةٌ.

***

(٤٧) - ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا﴾ لمَّا بيَّنَ هذه الآياتِ، قال: وفي السَّماءِ آياتٌ وعِبرٌ تدلُّ على أنَّ الصَّانعَ قادرٌ على الكمالِ، والأيدُ: القوَّةُ؛ أي: والسَّماءَ بنيناها بقوَّةٍ وقدرةٍ، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾؛ أي: وفي وُسعِنا ما هو أكثرُ من ذلك، والوُسْعُ: ما دونَ الطَّاقةِ.

ومَن قالَ: الصَّانعُ علَّةُ العالَمِ، فالعلَّةُ إذا لم تتغيَّر لم تُغيِّر المعلولَ، فلا يجوزُ

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٥٩) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) قرأ بالجر أبو عمرو وحمزة والكسائي، والباقون بالنصب. انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٩)، و«التيسير» (ص: ٢٠٣).

أن يكونَ العالمُ زيادةً على ما هو عليه ولا نقصانَ، فليسَ في قدرةِ اللهِ إذاً زيادةٌ على ما يُشاهَد، وهذا يُؤدِّي إلى نفيِ الصَّانعِ المختارِ.

ويُقال: أوسَعَ الرَّجلُ؛ أي: صارَ ذا وُسْعٍ وسَعةٍ، وهو الغنى والجِدَةُ، والـمُوسِعُ: المليءُ، ويُقال: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ تعني: سعةَ الرِّزق.

ويُقال: أوسَعَ بمعنى: وَسَّعَ ما بينَ السَّماءِ والأرض.

***

(٤٨) ـ ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾.

قولُـه تعالـى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾؛ أي: بسـطناها ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾؛ أي: فنِعـمَ الجاعلـون نحن لهـم مِهاداً وقَـراراً.

***

(٤٩) ـ ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾؛ أي: لونين، ومُزاوجُ هذا ذاك: إمَّا من شكلِه، أو من ضدِّه، أو من خلافِه، كاللَّيلِ والنَّهار، والظُّلمةِ والنُّور، والذَّكرِ والأنثى، والشِّتاءِ والصَّيف، والبرِّ والبحر، والشَّمسِ والقمر، والسَّهلِ والجبل، والبُكرةِ والعشيِّ، وكالأشياءِ المختلفةِ من الألوانِ ومن الطُّعومِ والأراييحِ والأصواتِ؛ أي: جعلناه هكذا ليُستدلَّ به على قدرتِنا، ومَن فَعَل هذا فليقدِرْ على الإعادة.

وقيلَ: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ ليعلمُوا أنَّ خالقَ الأزواجِ فردٌ، فلا يُقدَّرُ في صفتِه حركةٌ ولا سكون، وضياءٌ وظلام، وقعودٌ وقيام، وابتداءٌ وانتهاء.

***

(٥٠ ـ ٥١) ـ ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: فانقطِعُوا إلى اللهِ الذي وَصفُه هذا بأنْ تُطيعوه.

وقالَ ابنُ عبَّاس: فِرُّوا إلى اللهِ بالتَّوبةِ من ذنوبِكم[1].

﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾؛ أي: أنذرُكم عقابَه على الكفرِ والمعصية.

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أمرَ محمَّداً أن يقولَ هذا للنَّاسِ، وهو التَّدبُّر.

وقيلَ: الآيةُ خطابٌ من اللهِ للخلقِ؛ أي: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ﴾؛ أي: من محمَّدٍ وسيوفِه ﴿نَذِيرٞ﴾؛ أي: أنذرُكم بأسَه وسيفَه؛ أي: إنْ أشركتُم، قاله ابنُ عبَّاس رضيَ اللهُ عنهما[2].

***

(٥٢ ـ ٥٣) ـ ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ هذا تسليةٌ للنَّبيِّ عليه السَّلام.

قولُه تعالى: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦ﴾؛ أي: أوصى الأوَّلُ الآخِرَ أن يقولَ ذلك لرسولِه، وهذا استفهامُ توبيخٍ وتعجيبٍ ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ يعني: لم يُوصِ بعضُهم بعضاً، بل جمعَهم الطُّغيان، وهو مجاوزةُ الحدِّ في الكفرِ.

***

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٦٣).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٦٣) من رواية عطاء عن ابن عباس.

(٥٤ ـ ٥٥) ـ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ أي: قد بلَّغْتَ ونصحتَ، ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ عند الله، فدُم على الإنذارِ حتَّى يأتيَ الوقتُ المعيَّنُ للقتال.

قولُه تعالى: ﴿وَذَكِّرْ﴾؛ أي: عِظْ بالقرآنِ، ثمَّ الذكرى إنَّما تنفعُ مَن عَلِمَ اللهُ أنَّه مؤمنٌ.

***

(٥٦ ـ ٥٨) ـ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ أي: لآمُرَ الخلقَ[1] بالعبادةِ، [والآيةُ دخلَها التخصيصُ على القطعِ؛ لأن المجانين والصبيان ما أُمروا بالعبادة][2] حتَّى يُقال: أرادَ منهم العبادةَ، وقد قالَ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ومَن خُلِقَ لجهنَّم لا يكونُ ممَّن خُلِقَ للعبادةِ، فالآيةُ إذاً محمولةٌ على المؤمنين منهم، وهو كقولِه: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ [الحجرات: ١٤]، وإنَّما قالَ فريقٌ منهم، ذكره الضَّحَّاكُ والكلبيُّ والفرَّاءُ والقُتيبيُّ[3].

وفي قراءةِ عبدِ اللهِ: (وما خلَقْتُ الجنَّ والإنسَ من المؤمِنينَ إلَّا ليَعْبُدون)[4].

---

(١) في (ف): «امر بالخلق»؛ والصواب المثبت. انظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٥٠٧).

(٢) ما بين معكوفتين من «تفسير القرطبي» (١٩/ ٥٠٦) وقد نقله القرطبيُّ عن المصنف.

(٣) ذكره عنهم الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٦٥)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٥٦٧) عن الضحاك وسفيان. وانظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٨٩)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٤٢٢).

(٤) نسبت لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما في «تفسير الثعلبي» (٢٤/ ٥٦٧)، و«البسيط» للواحدي (٢٠/ ٤٦٦).

وقيلَ: أي: إلا لآمُرَهم بالعبادةِ. وهذا قولُ عليٍّ[١]، واختيارُ الزَّجَّاج[٢].

وقيلَ: إلا ليوحِّدون. والمؤمنون يوحِّدون اللهَ طوعاً في الشِّدَّةِ والرَّخاء، والكافرُ يوحِّدُه في الشِّدَّةِ.

وقيلَ: إلا ليخضعوا لي ويتذلَّلوا. يُقالُ: طريقٌ معبَّدٌ؛ أي: مذلَّلٌ للسَّابلةِ. وكلُّ مخلوقٍ فهو خاضعٌ لقضاءِ الله عزَّ وجلَّ مُتذلِّلٌ لـمشيئتِه، ومَن علمَ أن شيئاً لا يكونُ ثمَّ أرادَه فهو مُتمنٍّ.

ومرادُ الخصمِ أنَّ المعنى: ما أردتُ من الجنِّ والإنسِ إلا العبادة، وأين معنى الخلقِ مِن معنى الإرادة؟

قولُه تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾؛ أي: ما أُريدُ أن ينفعوني بشيءٍ، بل أنا الرازقُ المعطي.

وقالَ ابنُ عبَّاس: ما أُريدُ أن يَرزقُوا من خَلقي أحداً[٣].

وقيلَ: أن يرزقُوا أنفسَهم.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾؛ أي: أن يُطعموا عبيدي، كما في الخبرِ: «استطعمْتُكَ فلم تُطعِمني»[٤]؛ أي: لم تُطعِمْ عبدي.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ لجميعِ الخلقِ ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ أي: القدرةِ ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ القويُّ.

---

(١) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٥٦٥)، ومكي بن أبي طالب في «الهداية» (١١/ ٧١٠٩)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٦٦)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (١٤/ ٦٣).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٥٨).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٦٨) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) رواه مسلم (٢٥٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥٩) ـ ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا ﴾؛ أي: نصيباً منَ العذابِ مثلَ نصيبِ الكفَّارِ من الأممِ السَّابقة، والذَّنوبُ: الدَّلوُ العظيمة.

﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾؛ أي: لا حاجةَ بهم إلى استعجالي بالعذابِ.

وقيلَ: أي: لهم نصيبٌ من الدُّنيا، يتمتَّعون مُدَّةً ثمَّ يموتون.

***

(٦٠) ـ ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾؛ أي: أنَّهم يَدْعون يومَ القيامةِ بالويلِ.

وقيلَ: لهم العذابُ والهلاكُ.

﴿مِن يَوْمِهِمُ﴾؛ أي: من يومِ القيامةِ.

واللهُ تعالى أعلمُ بالصَّوابِ، وإليه المرجعُ والمآب.

***

سُورَةُ الطُّورِ

تفسيرُ سورةِ الطُّور

بسمِ اللّه الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١ ـ ٨) ـ ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ اسم الجبلِ الذي كلَّمَ الله عليه موسى، أقسمَ الله به.

وقيلَ: هذا إقسامٌ بكلِّ جبلٍ.

قولُه تعالى: ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾؛ أي: مكتوبٍ يقرؤُوه المؤمنون من المصحف، ويقرؤُوه الملائكةُ من اللَّوحِ المحفوظِ، كما قالَ الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ [الواقعة: ٧٧].

وقيلَ: يعني: سائرَ الكتبِ المنزلةِ على الأنبياءِ، وكانَ كلُّ كتابٍ ﴿فِي رَقّٖ﴾ ينشرُه أهلُه لقراءتِه.

وقيلَ: هو اللَّوحُ المحفوظُ. **وهو بعيدٌ.**

وقيلَ: الكتابُ الذي يُخرَجُ للعبدِ يومَ القيامةِ بأعمالِه، فيُدفَعُ إليه بيمينِه أو شمالِه.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ﴾؛ أي: المعمورِ بكثرةِ غاشيتِه ومَن يتردَّدُ إليه، يعني: الكعبةَ يحجُّها النَّاس.

وقيلَ: هو البيتُ الذي في السَّماءِ بحيالِ الكعبةِ من الأرضِ، يدخلُه كلَّ يومٍ سبعون ألفَ ملكٍ، ثمَّ لا يعودون إليه[١].

قالَ الكلبيُّ: هو في السَّماءِ السَّادسةِ، بناه آدمُ، فرُفعَ أيَّامَ الطُّوفان[٢].

وقالَ ابنُ عبَّاس: هو في السَّماءِ الدُّنيا[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾ هو السَّماءُ رفعَه اللهُ مسيرةَ خمسِ مئةِ عامٍ. وقالَ ابنُ عبَّاس: هو العرشُ، وهو سقفُ الجنَّة[٤].

قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ قيل: المملوء، يُقال: سَجَرْتُ الإناءَ؛ أي: ملأْتُه.

قيلَ: هو بحرٌ تحتَ العرشِ فيه ماءٌ غليظ، يُقال له: بحرُ الحيوان، يُمطَرُ العبادُ بعدَ النَّفخةِ الأولى منه أربعين صباحاً، فيَنبتونَ في قبورِهم[٥].

---

(١) روى البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٢)، عن أنس في حديث المعراج الطويل: «فرفع لي البيت المعمور، فسألت جبريل فقال: هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم».

(٢) في (أ): «الطور»، والتصويب من «البسيط» (٢٠/ ٤٧٨)، وقد ذكره عن الكلبي، وروى ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٤٢)، والطبري في «تاريخه» (١/ ١٨٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٢/ ٢٤٦) من طريق الكلبي أبي صالح عن ابن عباس: «ورفع البيت الذي بناه آدم رفع من الغرق وهو البيت المعمور».

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٧٨) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ١٩٠) ضمن خبر من طريق السدي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: «نزل القرآن جملة واحدة من الزبر إلى البيت المعمور، وهو مواقع النجوم في السماء الدنيا حيث وقع القرآن...».

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٧٨) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٧٩) من رواية النزَّال بن سَبْرة عن علي رضي الله عنه.

وقيلَ: ﴿الْمَسْجُورِ﴾ يعني: المُوْقَدَ، والسَّجْرُ: إيقادُ التَّنُّور، والسَّجُورُ: الحَطَب.

وقالَ كعبٌ: يُسجرُ البحرُ غداً، فيُزادُ [في نار] جهنَّم[1]، وقد وردَ هذا في خَبرٍ[2].

وقيلَ: البحرُ المسجورُ هو الذي نَضَبَ ماؤُه ويَبِسَ.

وقيلَ: تُحمَى البحارُ يومَ القيامةِ فتكونُ شراباً لأهلِ النّار.

وقيلَ: المسجورُ: المفجورُ، قالَ الله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]، وقال: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣]؛ أي: تُنشِّفُها الأرضُ، فلا يبقَى فيها ماءٌ.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ هذا جوابُ القسمِ؛ أي: واقعٌ بالمشركين.

***

(٩ ـ ١٠) ـ ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾؛ أي: يقعُ العذابُ بهم يومَ القيامةِ، وهو اليومُ الذي تمورُ فيه السَّماء مَوراً، والمورُ: الاضطرابُ والدَّورانُ، يُقالُ: مارَ يَمُورُ: إذا جعلَ يَجيءُ ويذهبُ.

---

(١) ذكره بهذا اللفظ الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٨٠)، والقرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٥١٧) وما بين معكوفتين منهما. ورواه أبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٤٠٩)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٧٥)، وابن حزم في «الفصل في الملل» (٢/ ٨٢)، من طريق ابن عباس رضي الله عنهما عن كعب قال: «﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ بحر يسجر فيصير جهنم».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ١٦)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٨٠)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٧٦)، دون راو ولا سند ولا نسبة، بلفظ: «إن الله تعالى يجعل البحار كلها نارًا يوم القيامة فيسعر بها نار جهنم». وقد عقد ابن رجب فصلاً في صفة تسعر النار يوم القيامة ومزيدها بإيقاد البحر وإضافته إليها في كتاب «التخويف من النار» (ص: ٦٢ ـ ٦٩) فانظره.

وقالَ ابنُ عبَّاس: تدورُ السَّماءُ يومئذٍ بما فيها وتَضْطرِبُ[١].

وقيلَ: يدورُ أهلُها فيها، ويَموجُ بعضُهم في بعض.

قولُه تعالى: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾؛ أي: كسيرِ السَّحابِ يومئذٍ في الدُّنيا.

وقالَ مقاتلٌ: تسيرُ عن أماكنِها حتَّى تستويَ الأرضُ[٢].

***

(١١ ـ ١٢) ـ ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: شدَّةُ العذابِ لهم.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ﴾؛ أي: في تردُّدٍ في الباطلِ، وهو خوضُهم في أمرِ محمَّدٍ بالتَّكذيب.

وقيلَ: ﴿فِى خَوْضٍ﴾: في أسبابِ الدُّنيا.

﴿يَلْعَبُونَ﴾: لا يذكرون حساباً ولا جزاءً[٣].

***

(١٣ ـ ١٤) ـ ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾؛ أي: يُدفَعون إلى جهنَّمَ بشدَّةٍ وعنفٍ، ومنه: ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ٢].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٢٢)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٨٢).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٤٤).

(٣) «ولا جزاء» من «تفسير القرطبي» (١٩/ ٥٢٠) ووقع بدلاً منها في (أ) كلمة غير مفهومة.

﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ﴾؛ أي: يقولُ لهم خُزَّانُ النّار: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ في الدُّنيا.

* * *

(١٥) ـ ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ ﴾؛ أي: يُقالُ لهم على جهةِ التَّوبيخِ: أفسحرٌ هذا الذي تَرونَ الآنَ بأعينكم ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾؛ أي: أو هل أنتم ممَّن لا يبصرُ؟ أي: يَتيقَّنونَ الآلامَ والنّارَ غداً.

وقيلَ: ﴿أَمْ ﴾ بمعنى: بل؛ أي: بل كنتم لا تُبصرونَ في الدُّنيا ولا تعقلون.

* * *

(١٦) ـ ﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ ﴾؛ أي: يقولُ لهم الخزنةُ: ذوقُوا العذابَ سواءٌ كانَ لكم فيها صبرٌ أو لم يكن لكم ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ خبرُه محذوفٌ؛ أي: الصَّبرُ والجزعُ، فلا ينفعُكم شيءٌ، كما أخبرَ عنهم أنَّهم يقولون: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا ﴾ [إبراهيم: ٢١].

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾؛ أي: هذا جزاءُ أعمالِكم.

* * *

(١٧ ـ ١٩) ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ لمَّا ذكرَ حالَ الكفَّارِ ذكرَ أحوالَ المؤمنين أيضاً.

قولُه تعالى: ﴿ فَٰكِهِينَ ﴾ قالَ ابنُ عبَّاس: مُعجَبين[١].

وقيلَ: مُتوسِّعين فيما يَشتهونَه من الفواكهِ.

قولُه تعالى: ﴿ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا ﴾؛ أي: يُقالُ لهم ذلك.

﴿هَنِيٓـًٔا﴾ من قولِك: هنِئَ يَهنأُ هَناءةً فهو هَنِيءٌ، وفيه إضمارٌ؛ أي: مُتِّعتُم بنعيمِ الجنَّة إمتاعاً هنيئاً.

وقيلَ: أي: شُرباً هنيئاً، أو: أكْلاً هنيئاً.

وقالَ الزَّجَّاج: أي: لِيَهْنأْكم ما صرتُم إليه هنيئاً[٢].

وقيلَ: ﴿هَنِيٓـًٔا﴾؛ أي: حلالاً.

وقيلَ: لا أذًى فيه ولا غائلة.

وقيلَ: ﴿هَنِيٓـًٔا﴾؛ أي: لا تموتون؛ فإنَّ ما لا يَبقى ـ أو لا يَبقى الإنسانُ معه ـ مُتنغِّصٌ[٣] غيرُ هنيءٍ.

* * *

(٢٠) ـ ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾؛ أي: متَّكئين على نمارقَ على سُررٍ

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٨٥ ـ ٤٨٦). ورواه عنه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٢٢٦) لكن في قوله تعالى: ﴿ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾ [المطففين: ٣١].

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٦٣).

(٣) في (أ): «مُتبغِّض»، والصواب المثبت، وذكر معناه الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٨٧) عن الكلبي: أن الموت ينغص النعمة، ولما كان أهل الجنة يأمنون الموت وصف نعيمهم بالهنيء.

مصفوفةٍ، وفي الأخبارِ: أنَّها تصفُّ في السماءِ[١] بطولِ كذا وكذا، فإذا أرادَ العبدُ أن يجلسَ عليها تواضَعَت له، فإذا جلسَ ارتفعَت إلى حالها[٢].

قالَ ابنُ عبَّاس: هي سررٌ من ذَهبٍ مُكلَّلةٌ بالزَّبرجدِ والدُّرِّ والياقوتِ، والسَّريرُ مثلُ ما بين مكَّةَ وأَيْلةَ[٣].

﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾؛ أي: جعلنا لهم قِرناً من الحورِ العِين، قالَ يونسُ: ليس في الجنَّةِ تزويجٌ كتزويجِ الدُّنيا، بل هو الإقرانُ، ولهذا قال: ﴿بِحُورٍ﴾، ولا يُقالُ: زوَّجتُه بها، بل يُقالُ: زوَّجتُه منها، قالَ يونسُ[٤]: يُقالُ زوَّجتُه المرأةَ، ولا يُقالُ: زوَّجتُه بها.

وقالَ الفرَّاءُ: [هي] لغةٌ [في] أزدِ شنوءةَ[٥].

وقالَ غيرُه: زوَّجتُه بها، وتزوَّجَ فلانٌ بفلانةَ.

---

(١) في (أ): «في الدنيا»، والتصويب من المصادر وستأتي.

(٢) ذكر نحوه الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٤٢٩)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٨٧)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (١٤/ ٧٩)، عن الكلبي. وذكره بلفظه دون نسبة القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٥٢٢) والظاهر أنه نقله عن المصنف.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٨٧) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) يونس هو ابن حبيب. وكلامه في «إصلاح المنطق» (ص: ٢٣٥)، و«الحجة» لأبي علي الفارسي (٤/ ٣٢٦ ـ ٣٢٧)، و«الصحاح» (مادة: زوج)، و«البسيط» للواحدي (٢٠/ ١٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٥٢٣)، وقوله: «زوجته منها» لم أجده، وقال في «المصباح» (مادة: زوج): «وقولُ الفقهاء: «زَوَّجْتُه منها» لا وجهَ له إلَّا على قولِ مَن يَرى زيادتها في الواجب، أو يجعلُ الأصل: «زَوَّجْتُه بها» ثُم أُقيم حرفٌ مقامَ حرف على مذهبِ مَن يَرى ذلك، وفي نسخةٍ من «التَّهذيب»: زَوَّجتُ المرأةَ الرجلَ، ولا يُقالُ: زوَّجتُها منه». قلت: هو في «تهذيب اللغة» (١١/ ١٠٦).

(٥) انظر: «البسيط» (٢٠/ ١٢٤)، و«تهذيب اللغة» (١١/ ١٠٥)، وما بين معكوفتين منهما.

(٢١) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿والذين آمنُوا وأتبَعْناهُم ذُرِّيَّاتِهِم بإيمانٍ﴾؛ أي: من تمامِ نعمتِهم إلحاقُ ذرِّيَّاتهم المؤمنين بهم؛ لتقرَّ أعينُهم بالاجتماعِ في الجنَّة.

وقيلَ: بإيمانِ الذُّرِّيَّةِ، فيقعُ على البالغين الذين يصدرُ منهم الإيمانُ.

وقيلَ: يدخلُ فيه الصِّغار أيضاً؛ لأنَّ لهم حُكمَ الإيمانِ.

وقيلَ: أي: بإيمانٍ منَ الذين آمنُوا؛ لأنَّ حُكمَ الذُّرِّيَّةِ الصِّغارِ حُكمُ الوالدَين في الإيمانِ.

ثمَّ؛ إذا قلنا: «بإيمانٍ من الذُّرِّيَّةِ» فيحتمِلُ أنَّهم من الذُّرِّيَّةِ الذين آمنُوا ولم يعملُوا ما عملَه آباؤُهم من الحسناتِ، فبلَّغَ اللهُ الأبناءَ درجةَ الآباءِ تفضُّلاً منه على الإتمام[1].

ويحتملُ أنَّه في ذرِّيَّةٍ عملُهم مثلُ عملِ آبائِهم غيرَ أنَّهم كانُوا أقصرَ أعماراً، فيُثابُ الأبناءُ ثوابَ الآباء.

وقالَ ابنُ عبَّاس: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني: المهاجرين والأنصارَ، ﴿وأتبَعْناهُم ذُرِّيَّاتهم﴾ يعني: التابعين[2].

وفي روايةٍ عن ابنِ عبَّاس: إن كانَ الآباءُ أرفَعَ درجةً رفعَ اللهُ الأبناءَ إلى الآباءِ،

(١) في (أ): «على الإتمام بالأم» كذا وقعت، ولم يظهر لي معناها.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٨٧).

وإن كانَ الأبناءُ أرفعَ درجةً رفعَ اللهُ الآباءَ إلى الأبناء[١]. فالآباءُ داخلون في اسمِ الذُّرِّيَّة، كقولِه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١]؛ أي: آباءَهم.

قُرِئَ: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ﴾، وقُرِئَ: (وأَتْبعتْهم)[٢] و﴿أتْبعْناهم﴾ وقُرِئَ: ﴿ذُرِّيَّتُهُم﴾ و﴿ذُرِّيَاتِهم﴾[٣].

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ بفتحِ اللام، وقرأ ابنُ كثيرٍ بكسرِ اللام[٤]؛ أي: ما نَقَصْناهم؛ أي: ما نَقَصْنا الأبناءَ من ثوابِ أعمالِهم بقِصَرِ أعمارِهم، أو ما نَقَصْنا الآباءَ من ثوابِ أعمالِهم شيئاً بإلحاقِ الذُّرِّيَّاتِ بهم.

﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ قيلَ: يرجعُ إلى أهل النّار.

قالَ ابنُ عبَّاس: ارتُهنَ أهلُ جهنَّمَ بأعمالهم وصارَ أهلُ الجنَّة إلى نعيمِهم[٥]، ولهذا قالَ: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٨ـ٣٩].

وقيلَ: هو عامٌّ لكلِّ إنسانٍ مُرتهَنٍ بعملِه، فلا يُنقَصُ أحدٌ عن ثوابِ عملِه، فأمَّا الزِّيادةُ على ثوابِ العملِ فهو تفضُّلٌ من الله تعالى.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٩٠) من رواية الكلبي عن ابن عباس.

(٢) يعني: بتاء الفاعل ونصب (ذريتَهم) على المفعولية. انظر: «روح المعاني» (٢٦/ ٧٨). وضبطت في مطبوع «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٦): (وأَتْبَعَتْهم ذريتهم) ونسبها لسعيد بن جبير. وعلى كل فهي شاذة، وباقي ما ذكر من القراءات من المتواتر، وسيأتي تخريجه.

(٣) قرأ أبو عمرو: ﴿وأَتْبَعْناهم ذريَّاتِهم﴾ بقطع الألف وإسكان التّاء والعين، ونونٍ وألف بعد النُّون، وكسرِ التاء من ﴿ذرياتِهم﴾، وابن عامر: ﴿واتَّبَعَتْهُم ذرِّياتُهم﴾، والباقون: ﴿واتَّبَعَتْهُم ذرِّيتُهم﴾. وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو: ﴿بهم ذرِّياتِهم﴾ بالجمع وكسر التاء، والباقون بالتوحيد وفتح التاء. انظر: «التيسير» (ص: ٢٠٣).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٦١٢)، و«التيسير» (ص: ٢٠٣).

(٥) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٩١).

ويحتملُ أن يكونَ هذا في الذُّرِّيَّةِ الذين لـم يُؤمنوا، فلا يُلحَقون بآبائِهم المؤمنين، بل يكونون مُرتهَنين بكفرِهم.

* * *

(٢٢) ـ ﴿وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَـٰهُم﴾ يعني: أهلَ الجنَّةِ ﴿بِفَـٰكِهَةٍ﴾ كثيرةٍ غيرِ الذي كانَ لهم، زيادةً من اللهِ تعالى أمدَّهم بها[1].

* * *

(٢٣) ـ ﴿يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾؛ أي: يتعاطَون شـراباً في كأسٍ، ولفظُ الكأسِ إنَّما يُطلَقُ على ما فيه الشَّرابُ.

﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾؛ أي: لا يَجري بينهم لغوٌ ولا ما فيه إثمٌ.

وقيلَ: لا تذهبُ بعقولِهم حتَّى يَرْفُثوا.

والتَّأثيمُ: تفعيلٌ من الإثم؛ أي: تلك الكأسُ لا تجعلُهم آثمين.

وقيلَ: لا إثمَ عليهم في الشُّربِ ذلك اليومَ؛ لأنَّه مباحٌ لهم.

والكنايةُ في ﴿فِيهَا﴾ ترجعُ إلى الكأسِ، وقيلَ: إلى الجنَّةِ.

* * *

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٩٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: ﴿وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ قال ابن عباس: يعني: غير الذي كان لهم زيادة من الله تعالى أمدهم بها. على هذا: «غير الذي كان لهم» يعود على الفاكهة واللحم.

(٢٤) ـ ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾

قولُه تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: بالخدمةِ ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ قيل: هم غلمانٌ خُلقوا في الجنَّةِ. قالَ الكلبيُّ: لا يَكبرون أبداً[1].

﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في الحُسنِ والبياضِ ﴿لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ في الصَّدفِ، والمكنونُ: المصونُ.

وقيل[2]: هم أولادُ المشركين، وهم خدمُ أهلِ الجنَّةِ، وليس في الجنَّةِ نَصَبٌ ولا حاجةٌ إلى خدمةٍ، ولكنَّه أخبرَ بأنَّهم على نهايةِ التَّنعُّم.

***

(٢٥ ـ ٢٨) ـ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾؛ أي: يتذاكرون ما كانُوا فيه في الدُّنيا من التَّعبِ والخوفِ من العاقبةِ، ويحمدون الله على زوالِ الحزنِ عنهم.

قولُه تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾؛ أي: قالَ كلُّ مسؤولٍ منهم لسائلِه: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾؛ أي: في الدُّنيا ﴿فِي أَهْلِنَا﴾؛ أي: حيثُ كنَّا مع أهلِنا، وقيلَ: أي: كنَّا مع أهلِنا جميعاً.

﴿مُشْفِقِينَ﴾ من عذابِ اللهِ؛ أي: لـم نعبدْه حقَّ عبادتِه.

---

(١) ذكره عن الكلبي القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٦٩)، وذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٩٤) عن مقاتل. وهو في «تفسير مقاتل» (٤/ ١٤٦).

(٢) في (أ): «وقوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ قيل...» ولعل الصواب هو المثبت.

وقيلَ: أي: كنَّا مشفقين؛ أي: مُجتَنبين محارمَ الله.

قولُه تعالى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾؛ أي: بالمغفرةِ، ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾؛ أي: جهنَّمَ الحارَّة، والسَّمومُ في اللُّغةِ: الرِّيحُ الحارَّةُ تكونُ بالنَّهارِ، وقد تكونُ باللَّيلِ.

وقيلَ: الحرُّ الذي يَدخلُ في مسامِّ البدن.

وقيلَ: أي: عذابَ سمومِ جهنَّمَ، وسمومُ جهنَّمَ: ما يُوجدُ من لفحِ أُوارِها.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾؛ أي: في الدُّنيا بأن يمنَّ علينا بالعفوِ عن تقصيرنا.

وقيلَ: ﴿نَدْعُوهُ﴾؛ أي: نعبده.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ﴾ بالكسرِ، وقُرِئَ بالفتحِ(١)؛ أي: لأنَّه هو البرُّ.

* * *

(٢٩) ـ ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾؛ أي: ذكِّرهم يا محمَّدُ بالآياتِ التي بَثْناها ليُعرضُوا عن التَّقليد ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾؛ أي: برحمةِ ربِّك عليكَ بالهدى حتَّى جعلَك تَذمُّ الشَّياطينَ وتذمُّ الكهنة، فكيفَ تتلقَّى منهم؟

وقيلَ: ليس هذا قسماً؛ أي: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾؛ أي: كما يُقالُ: ما أنت بحمدِ اللهِ بضالٍّ؛ أي: قد برَّأكَ اللهُ من ذلك.

وقيلَ: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾: بسببِ نعمةِ الله عليك.

---

(١) قرأ بفتح الهمزة نافع والكسائي، والباقون بكسرها. انظر: «السبعة» (ص: ٦١٣)، و«التيسير» (ص: ٢٠٣).

والكهنةُ: هم الذين كانَت الشَّياطينُ تُلقي إليهم ما يَسترِقُون، فيُخبرون النَّاسَ به، وكانَت الكهانةُ في العربِ قبلَ مَبعثِ رسولِ اللهِ ﷺ، فلمَّا بُعثَ مُنِعَت الشَّياطينُ من استراقِ السَّمع، وبطلَ علمُ الكهانة، فالكاهنُ: الذي يُوهِمُ أنَّه يعلمُ الغيبَ بطريقِ خدمةِ الجنِّ إيَّاه؛ أي: لستَ من هؤلاء، بل أنت رسولُ الله.

* * *

(٣٠ ـ ٣١) ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾؛ أي: بل أيقولونَ: إنَّ محمَّداً شاعرٌ، ونتربصُ به حوادثَ الدَّهر، والمنونُ: الدَّهرُ، وأصلُه: المنُّ، وهو القطعُ، فالدَّهرُ يقطعُ الأعمار، والمنونُ يُذكَّرُ ويُؤنَّثُ، فمَن ذكَّره أرادَ الدَّهرَ، ومَن أنَّث أرادَ المنيَّةَ.

وقيلَ: المنونُ: الموتُ، وهو قطعُ العمر، والتَّربُّصُ: الانتظارُ، وكانوا يقولون: نتربَّصُ به فيموتُ عن قريبٍ، كما هلكَ مِن قبلُ الشُّعراءُ، فإنَّ أباه ماتَ شابًّا، فربَّما يموتُ عن قريبٍ كما ماتَ أبوه.

وقالَ الأخفشُ: نتربَّصُ به إلى ريبِ المنون، فحُذِفَ حرفُ الجرِّ، تقولُ: قصدتُ زيداً، و: قصدتُ إلى زيد(١).

قولُه تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا﴾؛ أي: انتظرُوا بي الموتَ ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ بكم العذابَ، فعُذِّبوا يومَ بدرٍ بالسَّيفِ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٢٥)، و«البسيط» (٢٠/ ٥٠٢)، وعنه نقل المصنف.

وذُكِرَ في التَّفاسيرِ: أنَّ هؤلاء الذين قالوا هذا؛ هلكَ كلُّهم قبلَ وفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ(١).

***

(٣٢ ـ ٣٤) ـ ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا﴾؛ أي: أفعقولُهم تدلُّهم على افتراءِ الكذبِ عليك وإنكارِ البعثِ ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ بل هم قومٌ طاغون كفرُوا طغياناً وإن ظهرَ لهم الحقُّ.

وقيلَ: ليس ﴿أَمْ﴾ بمعنى: بل، [بل](٢) هو على ظاهرِه؛ أي: أَصْدرُوا هذا من عقلٍ أم قالوه لطغيانِهم؟

قولُه تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾؛ أي: افتعلَه وافتراه، والتَّقوُّلُ: تكلُّفُ القول، وإنَّما يُستعمَلُ في الكذبِ في غالبِ الأمرِ.

﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: ليس الأمرُ كما زعمُوا، بل هم لا يؤمنون جَحداً واستكباراً.

قولُه تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾؛ أي: بقرآنٍ مثلِه من تلقاءِ أنفسِهم إن صدَقُوا أنَّ محمَّداً افترى، وهذا تَحدٍّ بالقرآنِ.

***

(٣٥) ـ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أم يقولون: إنَّهم خَلقُوا أنفسَهم، فإن كانُوا

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٦٤)، و«البسيط» للواحدي (٢٠/ ٥٠٢).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

يَعترفُون أنَّ ثَمَّ خالقاً غيرَهم، فما الذي يمنعُهم من الإقرارِ له بالعبادةِ دونَ الأصنام، ومن الإقرارِ بأنَّه قادرٌ على البعث؟

وقيلَ: أم خُلقُوا من غيرِ أن كانُوا نطفةً ثمَّ علقةً ثمَّ مُضغةً؟ بل رُدِّدوا في أطوارِ الخلقة، فيدلُّ على قادرٍ على الكمال(١).

* * *

(٣٦) ـ ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: ليس الأمرُ كذلك، فإنَّهم لـم يَخلقُوا شيئاً ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾؛ أي: بربوبيَّتي.

* * *

(٣٧) ـ ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾؛ أي: أم يقولون: عندَهم خزائنُ ربِّك من علمِ الغيبِ، فعلمُوا من عندِ الله أنَّك كاذبٌ وأنَّه لا بعثَ.

وقيلَ: أي: أَفَبِأيديهم مفاتيحُ ربِّك بالرِّسالةِ؛ ليَضعوها حيثُ شاؤُوا، يعني: النُّبوَّة.

وقيلَ: عنى خزائنَ الرِّزقِ والمطرِ، فهم يملكون الضَّرَّ والنَّفعَ لأنفسِهم ولغيرِهم حتَّى يستغنُوا بذلك عن ربِّهم.

---

(١) في (أ): «فازددوا في أطوارِ الخلقة، فليدل...» بدل: «بل رُدِّدوا في أطوارِ الخلقة، فيدلُّ...»، والتصويب مستفاد من «البسيط» (٢٠/ ٥٠٤ ـ ٥٠٥)، وفيه: «والمعنى: أوُجِدوا كما هم عليه من كمال الخلقة، وخُلقوا من غير أن كان لهم ابتداء من التراب، ثم من الأب، ثم من النطفة والعلقة. وهذا استفهام إنكاري، أي: أنهم خلقوا أطوارًا، وذلك يدل على قادر ردَّدهم وصرَّفهم في أحوالهم، ولم يوجدوا ابتداء كما يخلق الجماد ابتداءً من غير تقدمِ سببٍ من أب وأم».

والصَّحيحُ: أنَّه عامٌّ في جميعِ مقدوراتِ الله، وضربَ المثَلَ بالخزائنِ لأنَّ الخزانةَ بيتٌ يُهيَّأُ لجمعِ أنواعٍ مختلفةٍ من الذَّخائرِ، ومقدرواتُ الرَّبِّ كالخزائنِ التي فيها من كلِّ الأجناسِ فلا نهايةَ له، فالمعنى: أهم القادرون على ما يُريدونَ حتَّى لا يَجري شيءٌ على خلافِ ما يُحبُّون ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾؛ أي: الأربابُ المسلَّطون، والسَّيطرةُ: السَّلطنةُ، ويجوزُ: (المصيطرُ) بالصاد[1]، وهو كما ذُكِرَ في ﴿السِّراط﴾ و﴿الصِّراط﴾؛ أي: أهم المسلَّطون على النَّاسِ حتَّى يُصرِّفُوهم كما يريدون؟ فإذا اعترفوا وثبتَ بالدَّليلِ أنَّ المالكَ لجميعِ ذلك هو اللهُ، فلمَ يُشرِكونَ به ويُنكِرون البعثَ؟

***

(٣٨) - ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾؛ أي: أيدَّعون أنَّ لهم سُلَّماً إلى السَّماءِ يستمعون الأخبارَ ويَصِلُون إلى علمِ الغيبِ كما يصلُ إليه محمَّدٌ بطريقِ الوحيِ ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: فليأتِ مَن يدَّعي أنَّه سمعَ ذلك بحجَّةٍ بيِّنَةٍ على استماعِه وسماعِه، بأن يُخبرَ بأشياءَ من الغيبِ، فتُوجَدَ كما أخبرَ به، وإذ قد عجزوا وجاءَهم محمَّد وأخبرهم عن الغيب فوُجد كما أخبرَ، فليعلمُوا أنَّه المحِقُّ وهم المُبطِلون.

والسُّلمُ: الدرَّجُ الذي يُتسبَّبُ به إلى الصُّعود.

وقالَ الأخفشُ: ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾؛ أي: عليه، كقولِه: ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]؛ أي: عليها[2].

---

(١) قرأ قنبل وحفص بخلاف عنه وهشام بِالسِّين، وحمزةُ بخلاف عن خَلاَّد بَيْن الصَّاد والزاي، والباقون بالصاد خالصة. انظر: «السبعة» (ص: ٦١٣)، و«التيسير» (ص: ٢٠٤).

(٢) ذكره الزجاج في «معاني القرآن» (٥/ ٦٦) عن أهل اللغة. وقاله أبو عبيدة. انظر التعليق الآتي.

وقالَ أبو عُبيدةَ: أي: يستمعون به[1].

وقالَ الزَّجَّاجُ: أي: ألهم كجبريلَ الذي يأتي النَّبيَّ عليه السَّلامُ بالوحيِ[2].

***

(٣٩) - ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ سفَّهَ أحلامَهم؛ أي: أتُضيفونَ إلى الله البناتِ مع أَنَفَتِكم منهنَّ؟ ومَن كانَ عقلُه هذا فلا يُستبعَدُ منه إنكارُ البعث.

***

(٤٠) - ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا ﴾؛ أي: أتطمعُ في مالِهم حتَّى تَثْقُلَ عليهم إجابتُك؟ فإن علموا أنَّك لا تزاحمُهم في أموالِهم، بل تعدُهم على الإجابةِ لك أجرَ الآخرةِ وأجرَ الدُّنيا وهو المغانمُ، فما الذي ينفِّرُهم عنك؟

والمَغْرَمُ: الذي يلزمُ الإنسانَ ممَّا يغرَمُ لغيرِه، أو خسارةٌ[3] تلحقُه بوجهٍ لا يَلزمُه.

***

(٤١) - ﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾؛ أي: أيدَّعُون أنَّ عندهم علمَ الغيبِ

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٢٣٣)، وفيه: «ومجاز ﴿فِيهِ﴾: به وعليه، وفي القرآن: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ إنما هو: على جذوع النخل». قلت: ولعله يريد من تفسيره ﴿فِيهِ﴾ بـ«به» أن الباء للسببية.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٦٧).

(٣) في (أ): «حسرات»، والصواب المثبت.

﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ من ذلك مثلَ ما تأتيهم به أنت حتَّى يُعارضوكَ؟

والغَرَضُ: أنَّ كلَّ ما هم عليه تقليدٌ وإِلْفٌ.

وقيلَ: أي: أم عندهم علمُ الغيبِ بأنَّه لا بعثَ، ومعهم بذلك كتابٌ وحجَّةٌ.

وقيلَ: ﴿يَكْتُبُونَ﴾ بمعنى: يَحكمون، كقولِه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤]؛ أي: حَكَمَ.

* * *

(٤٢) - ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾؛ أي: ليس بهم شيءٌ من هذه الأشياء، وإنَّما قصدُهم أن يكيدوك ويَمكروا بك، ووبالُ ذلك عائدٌ عليهم.

* * *

(٤٣) - ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾؛ أي: ألهم إلهٌ يمنعُهم عنَّا ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ نزَّهَ نفسَه أن يكونَ له شريكٌ.

* * *

(٤٤) - ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾؛ أي: إن يروا قطعةً من السَّماءِ تسقطُ عليهم عِياناً، وكانَ ذلك بإنزالِ الله إيَّاها حجَّةً لك عليهم بعدما سألوك على سبيلِ التَّعنُّتِ أن تُنزلَها عليهم، لأدخلُوا على أنفسِهم الشَّكَّ، ولقالوا: هو سحابٌ رُكِمَ بعضُه على بعضٍ سَقَطَ علينا، وليس سماءً، وهذا فعلُ المعانِدِ، أو فعلُ مَن استولى عليه التَّقليدُ، وكانَ في المشركين[1] القسمان.

---

(١) بعدها في (أ): «التقليد»، ولا وجه لها.

(٤٥ ـ ٤٦) ـ ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟﴾؛ أي: أعرِض عنهم حتَّى يرَوا يومَ القيامةِ.

﴿فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾؛ أي: يُهلَكون بالصَّاعقة، وهي العذابُ المهلِكُ.

ثمَّ؛ قيل: إنَّه عند النَّفخةِ الأولى؛ لقولِه تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقيلَ: هو يومَ القيامةِ، يأتيهم العذابُ المهلِكُ الذي يُزيلُ عقولَهم.

قُرِئَ: ﴿يَصعَقون﴾ بفتحِ الياء، و﴿يُصْعَقُونَ﴾ بضمِّ الياء[1]، ويُقال: صَعِقَ الرَّجلُ وصُعِقَ، مثل: سَعِدَ وسُعِدَ.

وقيلَ: ﴿يُصْعَقُونَ﴾ بضمِّ الياء، من أصعقَه اللهُ في الدُّنيا.

***

(٤٧) ـ ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؛ أي: إنَّ للمُشركين ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ اليومِ الذي فيه يُصعَقون، وهو القتلُ ببدرٍ وعذابُ القبرِ، فـ﴿دُونَ﴾ بمعنى: غير.

وقيلَ: عذاباً أخفَّ من عذابِ الآخرة.

(٤٨) ـ ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾؛ أي: إلى وقتِ إنزالِ العذابِ بهم ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أي: نسمعُ ونرى ما تقاسي منهم.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قيل: أُمِرَ بأن يقولَ حين يقومُ من مجلسِه: «سبحانَ الله

---

(١) قراءة عاصمٍ وابنِ عامرٍ، والباقون بالأولى. انظر: «السبعة» (ص: ٦١٣)، و«التيسير» (ص: ٢٠٤).

وبحمدِه»، أو: «سبحانَكَ اللَّهمَّ وبحمدِك»، وفيه أخبارٌ كقولِه عليه السَّلام: «كفَّارةُ المجلسِ إذا قامَ أحدُكم أن يقولَ: سبحانَك اللَّهمَّ وبحمدِك لا إلهَ إلا أنتَ، اغفرْ لي وتُبْ عليَّ»(١).

وقيلَ: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من النَّوم؛ يعني: صلاةَ الصُّبح.

وقيلَ: سبِّحْ حين تقومُ من فراشِك إلى أن تدخُلَ في الصَّلاة.

وقيلَ: أُمِرَ إذا قامَ إلى الصَّلاةِ أن يقولَ: اللهُ أكبرُ كبيراً، والحمدُ للهِ كثيراً، وسبحانَ اللهِ بُكرةً وأصيلاً.

***

(٤٩) ـ ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾؛ أي: فصَلِّ له.

وقيلَ: أرادَ صلاةَ المغربِ والعشاءِ.

﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ يعني: الرَّكعتين اللتين قبلَ صلاةِ الفجر، وذلك حين تُولِّي النُّجوم.

وقيلَ: يريدُ صلاةَ الفجر.

وقيلَ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ إشارةٌ إلى صلاةِ اللَّيل.

واللهُ أعلمُ، وحسبُنا الله ونعمَ الوكيل.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٨٨١٨)، والترمذي (٣٤٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

ورواه النسائي في «الكبرى» (١٠١٨٧) من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه وغيره.

ورواه بنحوه أبو داود (٤٨٥٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

سُورَةُ النَّجۡمِ

تفسيرُ سورةِ النَّجمِ

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١) ـ ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ أقسمَ بجنسِ النُّجومِ ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾؛ أي: أسرعَ في مسيرِه وسقطَ؛ يعني: الغروبَ.

وقيلَ: أقسمَ بالنَّجمِ في انقضاضِه لرجمِ الشَّياطين.

وقيلَ: أقسمَ بالنُّجومِ إذا انتثرَت يومَ القيامةِ.

وقيلَ: أقسمَ بالثُّريا إذا غابَت، والعربُ تُطلِقَ اسمَ النَّجمِ على الثُّريا.

وقيلَ: النَّجمُ هاهنا: النَّبتُ الذي له ساقٌ، و﴿هَوَىٰ﴾؛ أي: سقطَ على الأرض.

وقيلَ: أقسمَ بالقرآنِ إذ نزلَ نجوماً، فإنَّ بين أوَّلِ القرآنِ وآخرِه عشرين سنة. وقيلَ: ثلاثاً وعشرين سنة، والتَّنجيمُ بمعنى: التَّفريق، ومنه: نجومُ الكتابةِ، و﴿هَوَىٰ﴾ على هذا بمعنى: نَزَلَ، يُقال: هَوَى يَهوي هُوِياً.

وأصلُ النَّجمِ: الطُّلوعُ، يُقال: نَجَمَ السِّنُّ، ونجمَ فلانٌ ببلادِ كذا[1]؛ أي: خرجَ على السُّلطان.

---

(١) في (أ): «يُقال: نجمَ الشَّيءُ، ونجمَ فلانٌ به وبنار كذا»، والتصويب من «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧).

وقالَ جعفرٌ الصَّادقُ رحمة الله: يعني بالنَّجمِ محمَّداً ﷺ ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾؛ أي: رجعَ من المعراج[1].

* * *

(٢) - ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ هذا جوابُ القسمِ؛ أي: ما ضلَّ محمَّدٌ، وما حادَ عن الصَّوابِ ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ الغيُّ: ضدُّ الرُّشدِ.

وقيلَ: أي: ما تكلَّمَ بالباطلِ.

ثمَّ؛ يجوزُ أن يكونَ هذا إخبارٌ عن أحوالِه على التَّعميم، ويجوزُ أن يكونَ هذا إخبارٌ عمَّا بعدَ الوحي؛ أي: كانَ أبداً مُوحِّداً للهِ عزَّ وجلَّ.

* * *

(٣ - ٤) - ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾؛ أي: ما ينطقُ بالقرآنِ عن الهوى ولا يَتقوَّلُ.

وقيلَ: ﴿عَنِ الْهَوَىٰ﴾؛ أي: بالهوى، كقولِه: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]؛ أي: فسلْ عنه.

قولُه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ﴿إِنْ﴾ بمعنى: ما؛ أي: ما القرآنُ إلا وحيٌ من الله.

* * *

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٧٢)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (١٤/ ٩٨).

(٥ ـ ٦) ـ ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسْتَوَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾؛ أي: جبريلُ، وهو ذو شدَّةٍ وقوَّة، ومِن قوَّتِه أنَّه قلبَ مدائنَ لوط، فجعلَ عاليَها سافلها[١].

قولُه تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٖ فَٱسْتَوَىٰ﴾؛ أي: ذو إحكامٍ للشَّيءِ، كالشَّيء يُمَرُّ؛ أي: يُفتَل، يُقال: أَمررتُ الحبلَ؛ أي: شدَدْتُ فتلَه.

وقيلَ: ﴿ذُو مِرَّةٖ﴾؛ أي: ذو خَلْقٍ صحيحٍ من العاهات.

وقيلَ: أي: أنَّه قويٌّ في أمرِ الله.

وقيلَ: أي: ذو رأيٍ قويٍّ مُحكَمٍ.

﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾؛ أي: استوى جبريلُ واقفاً في الهواءِ بعد أن كانَ ينزلُ مُسرِعاً.

* * *

(٧) ـ ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قيل: ﴿وَهُوَ﴾: والنَّبيُّ عليه السَّلامُ ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ يعني: ليلةَ الإسراء، **وهذا ضعيفٌ**؛ لأنَّه يُقال: «استوى هو وفلانٌ»، ولا يُقال: «استوى وفلانٌ» إلا في ضرورةِ الشِّعر.

والأصحُّ: استوى جبريلُ عليه السَّلامُ وجبريلُ بالأفقِ الأعلى على صورتِه الأصليَّة؛ لأنَّه كانَ يتمثَّلُ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إذا نزلَ بالوحيِ في صورةِ رجلٍ، فأحبَّ رسولُ اللهِ ﷺ أن يراه على صورةِ صفتِه الحقيقيَّةِ، فاستوى في أفقِ المشرقِ فملأ الأفق، فقوله: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾؛ أي: مَثَلَ له.

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٢/ ٥١٥ ـ ٥١٦) عن سعيد بن جبير، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٦٦) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما.

وقيلَ: أراه جبريلُ عليه السَّلامُ نفسَه على صورتِه التي جُبِلَ عليها مرتين، مرَّةً في الأرضِ، ومرَّةً في السَّماء[1]، فأمَّا في الأرضِ: ففي الأفقِ الأعلى، وكانَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ بحراء، فطلعَ له جبريلُ من المشرقِ فسدَّ الأفقَ إلى المغرب، فخرَّ رسولُ اللهِ ﷺ مَغشياً عليه، فنزلَ جبريلُ عليه السَّلامُ في صورةِ الآدميِّين فضمَّه إلى نفسِه، وأمَّا في السَّماءِ: فعند سدرةِ المنتهى، ولم يره أحدٌ منَ الأنبياءِ على تلك الصُّورة إلا محمَّدٌ عليه السَّلام.

وقالَ قومٌ: رآه ليلةَ الإسراءِ على تلك الصُّورة مرَّتين.

ثمَّ؛ قولُه: ﴿بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ ليس يريدُ الأعلى في السَّماء، بل يريدُ بالأعلى: جانبَ المشرق، وهو فوقَ جانبِ المغرب، فهو أعلى منه في صعيدِ الأرضِ لا في الهواء.

وقيلَ: المرادُ بالأفقِ الأعلى: طَرَفُ السَّماء.

* * *

(٨ ـ ١٠) ـ ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾.

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾؛ أي: دنا جبريلُ منَ النَّبيِّ عليه السَّلام، أو دنا من الأرضِ، ﴿فَتَدَلَّى﴾؛ أي: فتدلَّى على النَّبيِّ عليهما السَّلام، فنكسَ رأسَه إليه حتَّى قَرُبَ منه لإلقاءِ الوحيِ إليه ﴿فَكَانَ﴾ قُربُه منه ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾؛ أي: لم يماسَّه ولم ينادِه أيضاً من بُعْدٍ.

(١) رواه البخاري (٣٢٣٤)، ومسلم (١٧٧) واللفظ له، من رواية مسروق عن عائشة: أنا أول من سأل رسول الله ﷺ، فقال: «إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين: رأيته منهبطاً من السماء سادًّا عِظَمُ خَلْقه ما بين السماء والأرض». وللترمذي (٣٢٧٨): ولكنه رأى جبريل، لم يره في صورته إلا مرتين: مرة عند سدرة المنتهى، ومرة في أجياد له ست مئة جناح وقد سد الأفق.

والتَّدلِّي: الامتدادُ في جهةِ السُّفل، ومنه: تدلَّى العِذقُ.

وقالَ قومٌ: دنا جبريلُ ليلةَ الإسراءِ منَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ وتدلَّى، ومعنى ﴿دَنَا﴾ و﴿تَدَلَّى﴾ واحد، وهو كقولِك: «دنا منِّي فلانٌ فقَرُبَ»، ولو قلت: «قَرُبَ منِّي فدنا»؛ جاز(١).

وقالَ الجرجانيُّ: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: تدلَّى فدنا؛ لأنَّ التَّدلِّيَ سببُ الدُّنوِّ(٢).

وقالَ ابنُ الأنباريِّ: ثمَّ تدلَّى جبريلُ فدنا من محمَّدٍ(٣).

ومَن قال: المعنى: فاستوى جبريلُ ومحمَّدٌ بالأفقِ الأعلى، قد يقولُ: ثمَّ دنا محمَّدٌ من ربِّه دنوَّ كرامةٍ، فتدلَّى إلى أن هوى للسُّجود.

وقيلَ [على](٤) هذا: ﴿تدلَّى﴾؛ أي: تدلَّلَ، مثل «تَظَنَّى» بمعنى: تظنَّنَ، **وهذا بعيدٌ**؛ لأنَّ الدَّلالَ غيرُ مرضيٍّ في صفةِ العبوديَّة.

قولُه تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾؛ أي: كانَ [ما](٥) بينَ جبريلَ ومحمَّدٍ قَدْرَ قوسين.

وقيلَ: بينَ محمَّدٍ وبينَ ربِّه هذا القَدْرَ في الكرامة، وهو ضربُ مَثَلٍ؛ أي: لو كانَ ذلك القُربُ بين مخلوقينِ لقيل: أحدُهما من الثَّاني على هذا القَدْر.

---

(١) وكذلك: «ظلمتني فأسأت»، بمنزلة: «أسأت فظلمتني»، و«شتمني فأساء» و«أساء فشتمني». انظر: «البسيط» (٢١/ ١٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦).

(٢) انظر: «البسيط» (٢١/ ١٦).

(٣) ذكره عنه الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٣٩٣)، والواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٨).

(٤) من «تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٧).

(٥) من «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٧١)، و«البسيط» (٢١/ ١٩).

وقيلَ: عادةُ العربِ إذا اشتدَّ التَّصافي بين اثنينِ أن يَقرنَ أحدُهما قوسَه بقوسِ صاحبِه و[يقولَ][١]: مالي مالُك ودمي دمُك، والمعنى: أثبتَ له من المنزلةِ غايةَ ما يُتوهَّمُ بين المخلوقينَ.

وقيلَ: أي: كانَ بين محمَّدٍ وطرفِ المخلوقاتِ قابَ قوسين.

والقابُ: القَدْرُ، يُقال: «قابَ قوسٍ» و«قيبَ قوسٍ»؛ بمعنى القَدْر.

وقيلَ: أرادَ: قَدْرَ قوسٍ واحدةٍ، فثنَّى على عادةِ العربِ في التَّثنيةِ.

وقيلَ: عنى بالقوسِ: ما يُقاسُ به الشَّيء، فهو الذِّراعُ.

﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾؛ أي: بل أقربَ.

وقيلَ: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ في ظنِّكم، كقولِه: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧].

قولُه تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾؛ أي: أوحى جبريلُ إلى عبدِ اللهِ محمَّدٍ ما أوحى اللهُ إليه.

قالَ قتادةُ: أوحى اللهُ إلى جبريلَ وأوحى جبريلُ إلى محمَّدٍ[٢].

وقيلَ: أوحى جبريلُ إلى محمَّدٍ ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾، فأبهمَ ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾.

وقيلَ: أوحى اللهُ إلى عبدِه ما أوحى.

ثمَّ؛ قيل: هذا مُبهَمٌ لا نَطَّلعُ نحن عليه، وتُعبِّدنا بالإيمانِ به على الجملة.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٢١) ثم قال: هذا قول الحسن وابن زيد، واختيار الفراء والزجاج وابن الأنباري. قلت: وروى الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٢١)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٧٨٧)، عن قتادة قال: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾، قال الحسن: «جبريل».

وقيلَ: لا، بل هو مفسَّرٌ في الأخبار، فعلى هذا رُويَ أنَّه أوحَى إليه: ألم أَجِدْكَ يتيماً فآويتُكَ، ألم أجِدْكَ ضالًّا فهديتُكَ، ألم أَجِدْك عائلاً فأغنيتُكَ، ألم أشرح لك صدرَك، ذكره سعيد بن جُبير(١).

وقيلَ: أوحَى إليه: خصَصْتُكَ بحوضِ الكوثر، فكلُّ أهلِ الجنَّةِ أضيافُك بالماءِ، ولهم الخمرُ واللَّبنُ والعسل.

وقيلَ: أوحى إليه: إنَّ الجنَّةَ محرَّمةٌ على الأنبياءِ حتَّى تدخلَها، وعلى الأممِ حتَّى تدخلَ أمَّتُك.

* * *

(١١) - ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ يُقال: كذَبَه؛ أي: أخبرَه بالكذب؛ أي: لم يَكْذِبْه فؤادُه ما رآه، بل رآه صدقاً.

وهذا إخبارٌ عن رؤيةِ النَّبيِّ عليه أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ ربَّه جلَّ وعلا ليلةَ المعراج.

---

(١) روى الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣٩٦٦)، والطبراني في «الأوسط» (٣٦٥١)، والحاكم في «المستدرك» (٣٩٤٤) وصححه، والثعلبي في «تفسيره» (٢٩/ ٤٨٤)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥١١)، والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ٦٣) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «سألت الله مسألة وددت أني لم أكن سألته، ذكرت رسل ربي فقلت: يا رب، سخرت لسليمان الريح، وكلمت موسى، فقال تبارك وتعالى: ألم أجدك يتيماً فآويتك، وضالًّا فهديتك، وعائلاً فأغنيتك؟ قال: فقلت: نعم. فوددت أن لم أسأله».

ثمَّ؛ في روايةٍ عن ابنِ عبَّاس: أنَّه رأى بقلبِه[١]، وهو قولُ أبي ذرٍّ[٢] وجماعةٍ من الصَّحابة[٣]؛ أي: خلَقَ في قلبِه الرُّؤيةَ التي تُخلَقُ اليومَ في العين، فرأى ربَّه رؤيةً غيرَ كاذبةٍ بالقلبِ كما نرى بالعين، وليس هذا بمعنى العلم؛ فإنَّ العلمَ كانَ قبلَ تلك اللَّيلة.

وقالَ أنسٌ وجماعةٌ: إنَّه رأى بعينِه[٤]، وهو روايةٌ عن ابنِ عبَّاس، فإنَّه قال: أتعجبونَ أن تكونَ الخلَّةُ لإبراهيمَ والكلامُ لموسى والرُّؤيةُ لمحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٥]؟!

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ أيضاً: أمَّا نحن بنو هاشمٍ فنقولُ: إن محمَّداً رأى ربَّه مرَّتين[٦].

وقيلَ: أي: ما كذبَ فؤادُ محمَّدٍ ما رآه ببصرِه مِن الآياتِ تلك اللَّيلةَ، بل آمنَ بجميعِها.

---

(١) رواه عنه مسلم (١٧٦).

(٢) رواه عنه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٧٢)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٢/ ٥١٦).

(٣) عقد اللالكائي في «الاعتقاد» فصلًا في سياق ما روي أن النبي ﷺ رأى ربه بقلبه، وروى ذلك (٩٠٩ - ٩١٩) عن أم الطفيل امرأة أبي بن كعب وابن عباس وأبي ذر وأبي هريرة رضي الله عنهم.

(٤) رواه عنه ابن خزيمة في «التوحيد» (٢/ ٤٨٧)، ولفظه: «رآى محمد ربه»، وذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٢٣)، والسمعانيُّ في «تفسيره» (٥/ ٢٩٠)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٤٠٣)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٨٦)، والنووي في «شرح مسلم» (٣/ ٥)، وقال: «روي بإسناد لا بأس به».

(٥) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٧٥)، والحاكم في «المستدرك» (٢١٦). قال ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٦٠٨): «أخرجه النسائي بإسناد صحيح وصححه الحاكم».

(٦) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٠٣٢) واللفظ له، ومن طريقه ابن خزيمة في «التوحيد» (٢/ ٥٦١ - ٥٦٢)، والدارقطني في «الرؤية» (٢٥٢)، وفيه حوار بين ابن عباس وكعب، ورواه الترمذي (٣٢٧٨) ولم يذكر كلام ابن عباس.

وقيلَ: ما كذبَ فؤادُ محمَّدٍ قبلَ ذلك ما رآه في تلك اللَّيلةِ ببصرِه؛ لأنَّه كانَ آمنَ بقدرةِ اللهِ على أمثالِ ذلك وأضعافِه.

قُرِئَ: ﴿ما كذَّبَ﴾ بالتَّشديد(١)؛ أي: ما كذَّبَ فؤادُه ما رآه ببصرِه، وهذا إن جعلْتَ الرُّؤيةَ رؤيةَ العين، فأمَّا إذا قلتَ: هي رؤيةُ القلب، فالمعنى: أنَّ الإنسانَ قد يرى الشَّيءَ ويكونُ غافلاً عنه فتتحقَّقُ الرُّؤيةُ ولا علمَ، فهو عليه السَّلامُ رأى بقلبِه؛ [و]ما كانَ غافلاً بقلبِه عمَّا رأى، بل كانَ العلمُ حاصلاً مع تلك الرُّؤيةِ التي هي بمعنًى زائدٍ على العلمِ.

وكانَت عائشةُ رضيَ اللهُ عنها تحملُ هذه الرُّؤيةَ على رؤيةِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لجبريلَ(٢)، حتَّى قالَ معمرٌ: ما عائشةُ عندنا بأعلمَ من ابنِ عبَّاس(٣)؛ أي: ظاهرُ الآيةِ مع ابنِ عبَّاس.

ثمَّ؛ اختلافُ الصَّحابةِ في أنَّه هل رأى الرَّبَّ ليلةَ المعراجِ دليلٌ على جوازِ الرُّؤية؛ لأنَّهم قصَرُوا الخلافَ على تلك اللَّيلة، **ولم يُروَ عن أحدٍ منهم إنكارُ الرُّؤيةِ على الجملةِ.**

* * *

(١٢) ـ ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾؛ أي: أفتجادلونَه فيما شاهدَ ورأى ببصرِه،

---

(١) هي رواية هشام عن ابن عامر. انظر: «السبعة» (ص: ٦١٤)، و«التيسير» (ص: ٢٠٤).

(٢) روي عنها ذلك في عدة أحاديث، منها ما رواه البخاري (٣٢٣٤) أنها قالت: «من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم، ولكن قد رأى جبريل في صورته وخلقه ساد ما بين الأفق».

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٠٣٢)، ومن طريقه ابن خزيمة في «التوحيد» (٢/ ٥٦١ ـ ٥٦٢)، والدارقطني في «الرؤية» (٢٥٢)، عقب قصة ابن عباس وكعب، وقد تقدم قريباً.

وذلك أنَّهم قالُوا: إنَّما رأيتَ بعضَ الشَّياطينِ الذين ينزلونَ على الكهنةِ لا جبريلَ، وقالوا: ما رأيتَه تخييلٌ من مرَّة هاجَت بك كما يتخيَّلُ المجانينُ أشياء، فأنت كاهنٌ أو مجنونٌ.

فمعنى الآية: أنَّ مجادلتكم إيَّاه فيما أيقنَه بفطرتِه السَّليمةِ وتحقَّقَه على الضَّرورةِ محالٌ.

وقُرِئَ ﴿أفتَمْرُونَه﴾[1]؛ أي: أفتجحدونه، يُقال: مَريتَ الرَّجلَ حقَّه؛ أي: جَحَدتُه.

وقالَ المُبرِّدُ: ﴿أفتَمْرُونَه﴾؛ أي: أفتَدفَعونه عمَّا يرى، فـ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى: عن[2].

وقوله: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ ﴾؛ أي: أفتُدافِعونه.

[و(تمارونه) كأنه أغلبُ في هذا الموضعِ للإنكار عليه؛ أي: تجادلونه فيما رأى وعلم][3]، وأمَّا الجحودُ فقد كانَ دائماً منهم، وهذا جدالٌ جديد، حتَّى قالوا: صِفْ لنا مسجدَ بيتِ المقدسِ، وأخبِرْنا عن عيرِنا التي في طريقِ الشَّام.

***

(١٣) ـ ﴿ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴾.

وقيلَ: رأى جبريلَ في صورتِه التي كانَ عليها نازلاً من السَّماءِ نزلةً أخرى، فقد رآه على أكملِ صورتِه مرَّتين، وكانَ يأتيه في الأحوالِ الأُخَرِ على صورةِ البشرِ، وفي

(١) قرأ بها حمزة والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ٦١٤)، و«التيسير» (ص: ٢٠٤).

(٢) انظر: «الكامل» (٢/ ١٤١).

(٣) ما بين معكوفتين من «البسيط» (٢١/ ٢٧).

الخبرِ: أنَّ أكثرَ ما كانَ يأتيه على صورةِ دحيةِ الكلبيِّ(١)، وكانَ هناك آياتٌ يجدُها النَّبيُّ عليه السَّلامُ عند مجيئِه من هيئاتٍ تحدثُ له في بدنِه يراها مَن يشاهدُه عند نزولِ الوحيِ عليه، فكما لا تثبُتُ لنا نبوَّةُ النَّبيِّ إلا بمعجزةٍ، ما كانَ يثبُتُ له عليه السَّلامُ صدقُ جبريلَ إلا بأمورٍ خارقةٍ للعادةِ مع التَّحدِّي، وكانَت معرفتُه أيضاً نظريَّةً، وفي الخبرِ: أنَّه رأى جبريلَ على صورتِه جالساً بينَ السَّماءِ والأرضِ على كرسيٍّ(٢)، وكانَ هذا في أوَّلِ الأمرِ.

قالَت عائشةُ رضيَ اللهُ تعالى عنها: كانَ أوَّلُ شأنِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّه رأى في منامِه جبريلَ بأجياد، ثمَّ خرجَ ليقضيَ حاجتَه فصرخَ به جبريلُ: يا محمَّدُ يا محمَّدُ، فنظرَ يميناً وشمالاً فلم يرَ شيئاً، هكذا ثلاثَ مرَّات، ثمَّ خرجَ فرآه، فدخلَ في النَّاس، ثمَّ خرجَ فرآه، فذلك قولُه: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ إلى قولِه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾؛ أي: جبريلُ إلى محمَّدٍ(٣).

---

(١) ورد ذلك في عدة أحاديث، منها ما رواه البخاري (٣٦٣٤)، ومسلم (٢٤٥١)، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما. وما رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥٨٥٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما. وفي الباب من غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم.
ودحية هو ابن خليفة بن فروة الكلبي، كان من كبار الصحابة، لم يشهد بدرًا، وشهد أحدًا وما بعدها من المشاهد، وبقي إلى خلافة معاوية، وكان يضرب به المثل في حسن الصورة، وكان رسول رسول الله ﷺ إلى قيصر سنة ست من الهجرة. انظر: «الاستيعاب» (٢/ ٤٦١)، و«الإصابة» (٢/ ٣٢٢).

(٢) رواه البخاري (٤٩٥٢)، ومسلم (١٦١)، عن جابر رضي الله عنهما، وفيه: «فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض...» الحديث.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ١٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٣١٩)، قال الحافظ في «الفتح» (١/ ٢٣): وهذا من رواية ابن لهيعة عن أبي الأسود، وابن لهيعة ضعيف.

وقالَ ابنُ عبَّاس: رأى ربَّه مرَّةً أخرى[١]، فقوله: ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ يعودُ إلى محمَّد، فإنَّه كانَ له صعودٌ ونزولٌ مِراراً بسببِ أعدادِ الصَّلواتِ المفروضة، فلكلِّ عرجةٍ نزلةٌ، وعلى هذا قولُه: ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾؛ أي: ومحمَّدٌ عندَ السِّدرة في بعضِ تلك النَّزلات.

* * *

(١٤) ـ ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾ السِّدرُ: ضربٌ من شجرِ البرِّ، قيل: هو شجرُ النَّبِقِ، والسِّدرةُ في السَّماءِ السَّابعة، وقيلَ: في السَّادسةِ[٢].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٨٠٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٣٩)، والآجري في «الشريعة» (١٠٣٢)، والطبراني في «الكبير» (١٠٧٢٧)، من طريق عَبْدَةَ بن سليمانَ عن محمد بن عَمرٍو عن أبي سلمةَ عن ابن عباسٍ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ قال: رأى رَبَّه عز وجل.
ورواه ابن أبي عاصم في «السنة» (٤٣٤)، والآجري في «الشريعة» (٦٢٧)، والدارقطني في «الرؤية» (٣٠٧)، من طريق أسباط بن نصر عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس مثله، وزاد: فقال له رجل: أليس قد قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ فقال له عكرمة: أليس ترى السماء؟ قال: بلى! قال: فكلَّها ترى؟

(٢) روى مسلم (١٧٣)، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لما أسري برسول الله ﷺ انتهي به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السادسة، وإليها ينتهي ما عرج به من تحتها، وإليها ينتهي ما أهبط به من فوقها حتى يقبض منها...».
قال النووي في «شرح مسلم» (٣/ ٢): كذا هو في جميع الأصول: «السادسة»، وفي الروايات الأُخر من حديث أنس: أنها فوق السماء السابعة، قال القاضي (هو عياض): كونها في السابعة هو الأصح وقولُ الأكثرين، وهو الذي يقتضيه المعنى وتسميتُها بالمنتهى، قلت (القائل النووي): ويمكن أن يجمع بينهما، فيكون أصلها في السادسة ومعظمها في السابعة، فقد علم أنها في نهايةٍ من العِظَم، وقد قال الخليل رحمه الله: هي سدرة في السماء السابعة قد أظلت السماوات والجنة.

وقالَ عليه السَّلام: «رأيتُ ورقَها مثلَ آذانِ الفيلةِ ونَبِقَها كالقِلالِ»(١).

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما: سُمِّيَت سدرةَ المنتهَى لأنَّ علمَ الملائكةِ ينتهي إليها، ولم يجاوزْها أحدٌ إلا رسولُ اللهِ عليه السَّلامُ حين تدلَّى إليه الرَّفرفُ(٢).

وقالَ أبو هُريرةَ(٣): السِّدرةُ شجرةٌ تخرجُ من أصلِها أنهارٌ من ماء، وهي شجرةٌ يسيرُ الرَّاكبُ في ظلِّها مئةَ عامٍ لا يقطعها، والورقةُ منها مُغطِّيةٌ الأُمَّةَ كلَّها(٤).

و﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ بمعنى الانتهاء؛ أي: عندَ سدرةِ الانتهاء.

وقيلَ: سُمِّيَت سدرةَ المنتهى لأنَّ مَن رُفِعَ إليها فقد انتُهِيَ به في الكرامة.

* * *

(١٥) ـ ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾.

قولُه تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾؛ أي: بحضرةِ سدرةِ المنتهَى الجنَّةُ التي أوَى إليها آدمُ إلى أن أُخرِجَ منها.

وقيلَ: تأوي إليها أرواحُ الشُّهداء.

وقيلَ: يأوى إليها جبريلُ وميكائيلُ.

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٧) عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٣٠) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما. وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٣٣) من رواية ابن عباس عن كعب.

(٣) بعدها في (أ): «الرفرف»، ولعلها سهو أو سبق نظر من الناسخ.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٣٧) بلفظ: لما أسري بالنبي ﷺ انتهى إلى السدرة، فقيل له: هذه السدرة ينتهي إليها كل أحد خلا من أمتك على سنتك، فإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وهي شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين عاما لا يقطعها، والورقة منها تغطي الأمة كلها.

(١٦) - ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾؛ أي: لقد رآه إذ يغشى السِّدرةَ مِن عجائبِ صنعِ اللهِ ما يغشى.

وقيلَ: غشِيَتْها ملائكةُ اللهِ الصَّاعدون إليها من سائرِ السَّماوات، والنَّازلونَ إليها من عندِ العرشِ بأمرِ الله.

وسُئِلَ رسول اللهِ: ما غشيَها؟ فقال: «فَراشٌ من ذَهَبٍ»(١).

وفي خبرٍ آخرَ: «غشيَها نورٌ من اللهِ حتَّى ما يستطيعُ أحدٌ أن ينظرَ إليها»(٢).

وقيلَ: هو تعظيمُ الأمر، كأنَّه قال: إذ يغشَى السِّدرةَ ما اللهُ أعلمُ به من دلائلِ ملكوتِه، وهكذا قولُه: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٣ - ٥٤]، ومثلُه: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ - ٢].

* * *

(١٧) - ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾؛ أي: بصرُ محمَّدٍ عمَّا أُريدَ نظرُه إليه ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾؛ أي: ما جاوَزَ ما أُمِرَ بالنَّظرِ إليه(٣).

---

(١) رواه مسلم (١٧٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) في «صحيح مسلم» (١٦٢) من حديث الإسراء الطويل عن أنس رضي الله عنه: «فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إلي ما أوحى».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٤٤)، والحاكم في «المستدرك» (٣٧٤٩) وصححه، من طريق مسلم البطين عن ابن عباس: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾: ما زاغ يمينًا ولا شمالًا ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾: ولا جاوز ما أمر به. والبطين لم يدرك ابن عباس.

وقالَ ابنُ عبَّاس: ما مالَ بصرُه عن رؤيةِ الآياتِ خوفاً وجزعاً، بل قويَ على النَّظرِ في الآيات[١].

وقيلَ: لم يمدَّ بصرَه إلى غيرِ ما أُرِيَ من الآيات.

وهذا وصفُ أدبِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ في ذلك المقامِ؛ إذ لم يلتفتْ يميناً وشمالاً، وزيغُ البصرِ: التفاتُه من الجانبَين.

* * *

(١٨) ـ ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ صفةُ الـ﴿ءَايَٰتِ﴾، ووُحِّدَت لرؤوسِ الآي، وأيضاً يجوزُ نعتُ الجماعةِ بنعتِ الأنثى، كقولِه: ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨].

وقيلَ: ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ نعتُ محذوفٍ؛ أي: رأى من آياتِ ربِّه الآيةَ الكبرى.

وقالَ ابنُ مسعودٍ: رأى رفرفاً أخضرَ[٢].

وقالَ الضَّحَّاكُ: هي سدرةُ المنتهى[٣].

وقيلَ: جبريلَ على تمامِ صورتِه[٤].

و﴿مِنْ﴾ للتَّبعيضِ؛ أي: رأى بعضَ الآيات.

---

(١) ذكر نحوه الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٣٤) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (٤٨٥٨).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ١١٦).

(٤) رواه مسلم (١٧٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وقيلَ: ﴿مِنْ﴾ زائدةٌ؛ أي: رأى آياتِ ربِّه الكبرى.

وقيلَ: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: رأى الكبرى من آياتِ ربِّه.

***

(١٩) - ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ لمَّا ذكرَ الوحيَ إلى النَّبيِّ عليه السَّلامُ، وذكرَ من آياتِ قدرتِه ما ذكرَ، حاجَّ المشركين أن عَبَدوا ما لا يعقل، وقال: أفرأيتُم هذه الآلهةَ التي تعبدونها أَوْحَينَ إليكم كما أُوحِي إلى محمَّد؟!

وقالَ الزَّجَّاج: أي: أفرأيتُم هذه الإناث، أللهِ هي، وإنَّما تختارونَ الذُّكرانَ[1]؟!

واللاتُ والعُزَّى ومَناةُ اسمٌ من أسماءِ الأصنامِ التي كانُوا يعبدونَها، ومن جهلِهم أنَّهم قالوا: إنَّها بناتُ الله، كما قالَ قومٌ: الملائكةُ بناتُ الله.

واللاتُ صنمٌ كانَ بالطَّائفِ.

وقيلَ: كانَت صخرةً بالطَّائفِ لثقيفٍ يعبدونها.

وقيلَ: بيتٌ بنخلةَ كانَت قريشٌ تعبدُه.

وقيلَ: صنمٌ كانَ في جوفِ الكعبةِ لقريشٍ.

وقالَ ابنُ عبَّاس: كانَ رجلٌ يلتُّ السَّويقَ يَسقيه الحاجَّ، ولمَّا ماتَ عكفَ المشركون على قبرِه فعبدوه[2].

وقالَ الكلبيُّ: كانَ اسمُ هذا الرَّجلِ: صِرمةَ بنَ غنم، كانَ يسلأُ السَّمنَ فيضعُه

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٧٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٤٧ ـ ٤٨).

على صخرةٍ، ثمَّ يأتيه العربُ فيلتُّ به أسوقتَهم، فلمَّا ماتَ حوَّلَت ثقيفٌ تلك الصَّخرةَ إلى منازِلِها فعبدَتها(١).

وقرأ ابنُ عبَّاس: (اللاتَّ) بتشديدِ التَّاءِ(٢) لِمَا ذكرنا، والقراءةُ الصَّحيحةُ تركُ التَّشديد، وعلى هذا قالَ الفرَّاءُ: أصلُه لتُّ السَّويقِ فخُفِّفَ، وعلى هذا فالوقفُ على ﴿ٱللَّٰتَ﴾ يكونُ بالتَّاء(٣).

واختارَ الكسائيُّ الوقفَ عليها بالهاء(٤)، فكأنَّه لم يجعلْها من اللَّتِّ، بل هيَ من (الله)، والعُزَّى من (العزيزِ).

وقالَ أبو عليٍّ: هي من لَوَيتَ على الشَّيءِ؛ أي: أقمْتُ عليه، وذلك أنَّهم كانُوا يَلوون على آلهتِهم ويعكفُون عليها عبادةً لها(٥).

والعُزَّى صنمٌ، وقيلَ: سَمُرةٌ من الشَّجرِ كانَت بنخلةَ لغطفانَ عبدُوها، فبعثَ رسولُ اللهِ ﷺ خالدَ بنَ الوليدِ فقطعَها وهو يقولُ:

يا عُزَّ كُفرانَكِ لا سُبحانَكِ   إنِّي رأيتُ اللهَ قد أهانَكِ

فخرجَت منها شيطانةٌ تجرُّ شعرَها واضعةً يدَها على رأسِها تدعو بالويلِ،

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ١١٩)، والواحدي في «البسيط» (٢١/ ٣٩).

(٢) ذكرها الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ١١٨)، والواحدي في «البسيط» (٢١/ ٣٩)، وهي رواية رويس عن يعقوب. انظر: «النشر» (٢/ ٣٧٩).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٩٧ _ ٩٨).

(٤) ذكره الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٩٧)، والزجاج في «معاني القرآن» (٥/ ٧٣)، والداني في «التيسير» (ص: ٦٠) عن الكسائي، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ١٢٣) من رواية الدوري عن الكسائي والبزي عن ابن كثير.

(٥) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٤٠).

فضربَها خالدٌ بالسَّيفِ حتَّى قتلَها، وأخبرَ رسولَ اللهِ بذلك فقال: «تلك العُزَّى، ولن تُعبَدَ أبداً»(١).

وقالَ أبو عُبيدةَ: هذه أصنامٌ من حجارةٍ كانَت قريشٌ تعبدها(٢).

والعُزَّى: تأنيثُ الأعزِّ، مثل الكُبرى تأنيثِ الأكبرِ، والأعزُّ والأكبرُ قد يُطلقانِ بمعنى: العزيزِ والكبيرِ، فالعُزَّى بمعنى: العزيزةِ.

والألفُ واللامُ في (اللاتِ) و(العُزَّى) زائدتان، كهما في (الذي) وبابِه؛ لأنَّ هذه الأسماءَ أعلامٌ مثلَ يغوثَ ويعوقَ ونسرٍ، فلا حاجةَ في التَّعريفِ إلى اللَّام، وليسَت من بابِ الحارثِ والعبَّاسِ من الأوصافِ التي نُقِلَت فصارَت أعلاماً وأُقِرَّت فيها لامُ التَّعريفِ بخيالِ الصِّفةِ فيها(٣).

وفي الآيةِ حذفٌ دلَّ عليه الكلامُ؛ أي: أفرأيتم هذه الآلهةَ هل نفعَت أو ضرَّت حتَّى تكونَ شريكاً لله؟

---

(١) رواه الواقدي في «المغازي» (٣/ ٨٧٣ ـ ٨٧٤)، ومن طريقه الأزرقي في «أخبار مكة» (١/ ١٢٧) عن سعيد بن عمرو الهذلي.
وروواه بنحوه الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٩٨)، والأزرقي في «أخبار مكة» (١/ ١٢٥ ـ ١٢٦)، من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما.
وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ١١٩)، والواحدي في «البسيط» (٢١/ ٤٢)، عن مجاهد.
وروى القصة دون الرجز النسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٨٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (٩٠٢)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (٤٦٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٧٧)، من حديث أبي الطفيل رضي الله عنه.
ورواه ابن إسحاق في «سيرته» (ص: ١٩٣) عن العيزار بن حريث.

(٢) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٢٣٦).

(٣) هذا من تمام كلام أبي علي الفارسي السابق الذي نقله عنه الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٤١).

(٢٠) ـ ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ قالَ أبو عُبيدةَ: هي صنمٌ كانَ لقريشٍ[١].

وقالَ قتادةُ: للأنصارِ[٢]، وقيلَ: لهُذيلٍ وخُزاعةَ[٣].

ثمَّ قيل: إن مَناةَ غيرُ مُشتقَّة.

وقيلَ: سُمِّيَت مَناةَ لِـمَا كانَ يُمنَى عندها من الدِّماء؛ أي: يُهراقُ؛ لأنَّهم كانُوا يذبحون لآلهتِهم، ولهذا سُمِّيَ مِنًى للذَّبائحِ التي تُذبَحُ.

ثمَّ قُرِئَ: ﴿ومَناءَةَ﴾ بالمدِّ والهمزِ[٤]، ولعلَّها لغةٌ، وقيلَ: كانُوا يمسحونها بأيديهم كثيراً فسُمِّيَت (مناءة) ـ بالهمزِ ـ من مَنأتُ الجلدَ للدِّباغِ.

﴿ٱلثَّالِثَةَ﴾؛ أي: الثَّالثةَ للصَّنمينِ ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ نعتٌ لـ﴿مَناة﴾ أيضاً.

* * *

(٢١ ـ ٢٢) ـ ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾.

قولُـه تعالـى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ ردَّ عليهـم قولَهـم: الملائكـةُ بنـاتُ الله، والأصنامُ بنـاتُ الله.

قولُه تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾؛ أي: جائرةٌ خارجةٌ عن العدلِ ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ من قولِك: ضُزْتُه حقَّه؛ أي: نقصتُه.

وقيلَ: ضُزتُه؛ أي: جُرت عليه.

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٢٣٦).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٠٣٦).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٤٣) عن الكلبي.

(٤) هي قراءة ابن كثير. انظر: «السبعة» (ص: ٦١٥)، و«التيسير» (ص: ٢٠٤).

وقرأ ابنُ كثير: ﴿ضِئْزَى﴾ بالهمزِ[1]، من ضَأَزَ يَضْأَزُ ضأزاً، مثل: ضَازَ يَضِيزُ ضَيْزاً[2].

* * *

(٢٣) - ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾؛ أي: هذه أسماءٌ لهذه الأصنامِ وضعَها آباؤُكم فقلَّدتموهم ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾؛ أي: حجَّةٍ.

﴿إِنْ هِىَ﴾؛ أي: ما هي.

وقيلَ: ما أنزلَ اللهُ بعبادتها من سلطانٍ.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ عادَ من الخطابِ إلى الخبرِ؛ أي: ما يتَّبعُ هؤلاء إلا الظَّنَّ ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾؛ أي: يتَّبعونَ ميلَ النَّفس.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾؛ أي: البيانُ من جهةِ الرَّسول.

* * *

(٢٤ - ٢٥) - ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ يعني بالإنسانِ: الكافرَ ﴿مَا تَمَنَّىٰ﴾ من شفاعةِ الأصنامِ؛ أي: أتقولون هذه الحجَّةَ أم للإنسانِ ما تمنَّى [مِن] شفاعةِ الأصنام - أو ما

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦١٥)، و«التيسير» (ص: ٢٠٤).

(٢) في (أ): «من ضاز يضاز مثل ضاز يضاز ضازاً»، والصواب المثبت. انظر: «البسيط» (٢١/ ٤٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٣٧ - ٣٨).

يشاءُ ـ حتَّى يجعلَ الصَّنمَ شريكاً للهِ، ويقولَ: الأوثانُ بناتُه، أو يتمنَّى النُّبوَّةَ لـمَن أرادَ؟

﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ واللهُ يرسِلُ إلى الخلقِ مَن يُريد.

***

(٢٦) ـ ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: لا تنفعُ شفاعةُ الملائكةِ أحداً شيئاً مع كثرةِ عبادةِ الملائكةِ إلا أن يَشفعُوا بإذنِ الله، فكيفَ يَطمعونَ في شفاعةِ الأصنامِ لمَن لم يأذنِ اللهُ له ويَرْضى أن يَشفعَ؟

﴿لِمَن يَشَآءُ﴾؛ أي: لمَن يشاءُ شفاعتَه.

***

(٢٧ ـ ٢٨) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

قولُـه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ هـم الذين قالوا: الملائكةُ بناتُ للهِ، والأصنامُ بناتُ الله ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾؛ أي: يعتقدون أنَّ الملائكةَ إناثٌ، وهم مُتحكِّمون فيه.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾؛ أي: لـم يشاهدوا خِلقةَ الملائكةِ، ولم يسمعوا ما قالُوا من رسول اللهِ، ولم يَرَوْه في كتابٍ ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾؛ أي: ما يتبعون إلا الخيالاتِ والظُّنون، ولا يُغني الظَّنُّ.

***

(٢٩) - ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا ﴾؛ أي: تولَّى عن مجازاةِ الكفَّارِ الآن، والذِّكرُ القرآنُ، وهذا منسوخٌ بآيةِ القتالِ.

* * *

(٣٠) - ﴿ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾؛ أي: ليس عندهم إلا الظَّنُّ في أنَّ الملائكةَ إناثٌ وأنَّها تشفعُ لهم.

وقيلَ: أي: ﴿مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ بأحوالِ الدُّنيا، ولذلك لم يُريدوا إلا الحياةَ الدُّنيا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾؛ أي: هو عالمٌ بالكلِّ فيجازيهم.

* * *

(٣١) - ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾؛ أي: هو خالقُها ﴿لِيَجۡزِيَ﴾ المحسنَ بإحسانِه والمسيءَ بإساءتِه.

وقيلَ: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ مُعترِضٌ في الكلامِ، والمعنى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ﴾ ﴿لِيَجۡزِيَ﴾ واللَّامُ لامُ العاقبةِ.

﴿بِٱلۡحُسۡنَى﴾؛ أي: بالجنَّةِ.

* * *

(٣٢) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ هذا نعتٌ لـ﴿ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾؛ أي: هم الذين لا يرتكبونَ كبائرَ الإثم، وهو الشِّركُ؛ لأنَّه أكبرُ الآثام.

وقالَ مقاتلٌ: ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾: كلُّ ذنبٍ خُتمَ بالنّارِ ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ كلُّ ذنبٍ فيه الحدُّ[١].

وقُرِئَ ﴿كبير الإثم﴾[٢]، والمرادُ: كبائرُ الإثم.

﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ اللَّممُ: صغارُ الذُّنوب. قالَ ابنُ عبَّاس: أي: إلا ما كانَ دونَ الزِّنى[٣].

وقيلَ: ﴿ٱللَّمَمَ﴾: النَّظرةُ عن غيرِ تعمُّدٍ.

وقيلَ: ﴿ٱللَّمَمَ﴾: الذَّنبُ يُلِمُّ به العبدُ ثمَّ يتوبُ.

وهو مِن قولِك: ألممْتُ بفلانٍ إلماماً، واللِّمَّةُ: الشَّعرُ الذي ألَمَّ به؛ أي: قَرُبَ أن يبلغَ الأذنَ أو العنقَ.

وهذا استثناءٌ منقطعٌ، وقد قيل: أي: الذي ألـمُّوا به من الفواحشِ قبلَ الإسلام، فإنَّ اللهَ قد غفرَ ذلك؛ لأنَّ صاحبَه في الغالبِ كانَ لا يعتقدُ تحريمَه، فالمعنى: لكنْ إن ألـمُّوا بذنبٍ تابوا.

وقيلَ: هو استثناءٌ من الجِنسِ؛ أي: إلا أن يُلِمَّ بالفاحشةِ.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٦٤).

(٢) قرأ بها حمزة والكسائي هنا وفي (الشورى). انظر: «السبعة» (ص: ٥٨١)، و«التيسير» (ص: ١٩٥).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٥٥) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٦٢) عن الشعبي.

وقالَ ابنُ عمرٍو: ﴿ٱللَّمَمَ﴾ ما دونَ الشِّرك(١).

وقيلَ: ﴿ٱللَّمَمَ﴾: القُربُ من الذَّنبِ ولا ذنبَ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾؛ أي: لـمَن تابَ عن ذنبِه ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني: آدمَ ﴿وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ﴾ هي جمعُ جَنينٍ، وسُمِّيَ به لأنَّه مستورٌ؛ أي: هو أعلمُ بضعفِكم وغلبةِ الهوى عليكم، ففتحَ لكم بابَ التَّوبةِ ولم يؤاخذْكم باللَّممِ.

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ نزلَت في ناسٍ كانُوا يقولون: صلَّينا وصُمنا وفَعلنا وفَعلنا، فنُهوا عن الاعتدادِ بالأعمالِ(٢).

وقيلَ: أي: لا تمدحُوا أنفسَكم بما ليس فيها.

وقيلَ: ما ليسَ فيها وبما فيها أيضاً؛ فإنَّه أبعدُ من الرِّياءِ وأقربُ إلى الخشوع.

﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾؛ أي: أخلصَ العملَ واتَّقى عقوبةَ الله.

* * *

(٣٣ - ٤٢) - ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ٣٣ وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ٣٤ أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ٣٥ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ٣٦ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ٣٨ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ٤١ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ٣٣ وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ﴾ لـمَّا بيَّنَ جهلَ المشركين في عبادةِ الأصنامِ ذكرَ واحداً منهم معيَّناً بسوءِ فِعلِه.

---

(١) رواه ابن وهب في «جامعه» (١/ ٢٣)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٦٦).

(٢) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٤/ ١٦٥)، وذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٦٢) عن مقاتل والكلبي.

وقيلَ: نزلَت في الوليدِ بنِ المغيرةِ؛ مالَ إلى الإسلامِ بعضَ الميلِ، وقال: إنِّي أخافُ العذابَ، فعاتبَه بعضُ المشركين، فقالَ: إن أعطيْتَني كذا من مالِكَ ضمنْتُ لك أن أحملَ خطاياك وعذابَ الآخرةِ، فرجعَ إلى الشِّركِ، وأعطى ذلك الرَّجلَ بعضَ ما شرطَ ومنعَه البعضَ(١).

وقالَ مقاتلٌ: كانَ الوليدُ بنُ المغيرةِ مدحَ القرآنَ، ثمَّ أمسكَ عنه، فنزلَ فيه: ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا ﴾؛ أي: من الخيرِ بلسانِه ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾؛ أي: قطعَ ذلك وأمسكَ عنه(٢).

فقولُه تعالى: ﴿تَوَلَّىٰ ﴾؛ أي: أعرضَ عن الإيمانِ ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا ﴾؛ أي: قليلاً من المالِ على أن يتحمَّلَ عنه العذابَ ثمَّ قطعَ إعطاءَه، أو أعطى بلسانِه ومدحَ الإسلامَ قليلاً ثمَّ أصرَّ على كُفرِه ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾؛ أي: قطعَ ذلك، يُقال: أكدى الرَّجلُ؛ أي: بلغَ الكُديةَ في حفرِ البئرِ.

﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: أعند هذا المُكدِي علمُ ما غابَ عنه من أمرِ العذابِ ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴾؛ أي: يعلمُ ما غابَ عنه من أمرِ الآخرة، وأنَّ مَن ضمنَ له يمكنُه حَملُ العذابِ عنه، وكفى به حُمقاً.

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴾؛ أي: لـم يُخبَر بما في أسفارِ التوراة.

---

(١) ذكره الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٧١) بلا نسبة ثم روى عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾، قال: الوليد بن المغيرة أعطى قليلًا ثم أكدى. وعن ابن زيد نحو هذه القصة لكنه لم يسمِّ الرجل، وذكر أنه قد أسلم.

وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ١٤٥ ـ ١٤٦) عن مجاهد وابن زيد، وزاد الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٩٩) نسبته إلى ابن عباس من رواية عطاء.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٦٥)، و«البسيط» (١١/ ٦٤ ـ ٦٥).

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾؛ أي: بما في صحفِ إبراهيمَ من أنَّه لا يُقبلُ أحدٌ بدلاً عن غيرِه فيما يَستحقُّه منَ العذابِ على كُفرِه وذنبِه.

﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾؛ أي: بلَّغَ ما أُمِرَ به ولم يكتمْ شيئاً منه.

وقيلَ: صبرَ على النّارِ والختانِ وذبحِ ابنِه.

وقيلَ: هو من الوفاءِ، يُقالُ: وَفَى ووَفَّى وأوْفَى بمعنًى، قالَ الله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وفي الخبرِ: «وفَّى عملَه كلَّ يومٍ بأربعِ ركعاتٍ في صدرِ النَّهارِ»[١]، قيل: يعني: صلاةَ الضُّحى.

وفي خبرٍ: «ألا أخبرُكم لـمَ سمَّى اللهُ إبراهيمَ خليلَه الذي وفَّى؟» قيل: بلى، قال: «لأنَّه كانَ يقولُ إذا أصبحَ وأمسىَ: سبحانَ اللهِ حينَ تُمسُون وحين تُصبِحون، وله الحمد في السَّماوات والأرض وعشيًّا وحين تُظهرون»[٢].

---

(١) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٧/ ٤٧١)، وحفصُ بن عمر في «قراءات النبي» (١٠٩)، والطبري في «تفسيره» (٢/ ٥٠٧) و(٢٢/ ٧٨)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ١٥٣)، والطبراني في «مسند الشاميين» (١٩٧١)، وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه والشيرازي في «الألقاب» كما في «الدر المنثور» (٧/ ٦٦٠)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وضعفه السيوطي. وقال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٣٤٨): «وهو معلول بجعفر بن الزبير». وضعفه أيضاً الطبري وابن حجر كما سيأتي.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٥٦٢٤)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٧٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ١٩٢)، من حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه. قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٣٨٥): «هو مشتمل على جماعة من الضعفاء».

وقال الطبري عنه وعن خبر أبي أمامة المتقدم: ولو صح الخبران اللذان ذكرناهما أو أحدهما عن رسول الله ﷺ لم نَعْدُ القول به إلى غيره، ولكن في إسنادهما نظر يجب التثبت فيهما من أجله. وكذا ضعف ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٦٠٥) إسناد الحديثين.

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ أي: ألم يُخبَر بما في صحفِهم بأنَّه لا تزرُ وازرةٌ؟

وقيلَ: ﴿وَفَّىٰ﴾؛ أي: بلَّغَ قومَه أنَّه لا تَزرُ[1].

فعلى الأوَّلِ هو خفضٌ؛ أي: بأنَّه لا تزر.

وقيلَ: (أنَّ) في محلِّ الرَّفع؛ أي: هو ألَّا تزرُ؛ أي: لا تُؤخَذُ نفسٌ بإثمِ غيرِها.

والوِزرُ: الثِّقلُ، وقال: ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ لأنَّ المرادَ: «وزرَ نفسٍ أخرى»، ومَن سنَّ سُنَّةً سيِّئةً فعليه وزرُها ووزرُ مَن عملَ بها، فلا يصيرُ المذنبُ كأنَّه لـم يذنب، ومعنى ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: قَطْعُ وهمِ مَن ظنَّ أنَّ المذنبَ يَحمِلُ عنه أحدٌ خطأَه حتَّى يصيرَ كأنَّه لـم يُذنب، فيُؤاخَذَ غيرُه بذلك الذَّنبِ دونَه، وهذا إخبارٌ من الرَّبِّ بهذا، وإن كانَ يجوز إيلامُ البريء.

قولُه تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ وهذا أيضاً ممَّا في صحفِ موسى وإبراهيمَ؛ أي: ليس للإنسانِ في الآخرةِ إلا ما عملَ في الدُّنيا، وفيه قولان:

قالَ قومٌ: هو منسوخُ الحُكمِ في شرعِنا؛ لقولِه: ﴿والَّذينَ آمَنوا وأَتْبَعْنَاهُم ذرِّيَتَهُم بإيمانٍ﴾ [النجم: ٢١] أدخلَ الأبناءَ الجنَّةَ بصلاحِ الآباء.

والثَّاني: قالَ البجليُّ: هو من طريقِ العدلِ، فليسَ للإنسانِ إلا ما سعى حيثُ [لا][2] يُرتقَبُ الثَّوابُ من غيرِ عملٍ، فأمَّا الفضلُ فلله أن يتفضَّلَ عليه بما يشاءُ من تضعيفِ الحسنات.

قولُـه تعالـى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ هـو مِـن أريتُـه الشَّـيء؛ أي: يَطَّلـعُ يومَ

---

(١) وعلى هذا ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ في محل نصب بـ﴿وَفَّىٰ﴾. انظر: «البسيط» (٢١/ ٦٦).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

القيامةِ على سعيِه في[1] ميزانِه، أو يَطَّلعُ النَّاسُ على ذلك غداً.

وقيلَ: يراه الله مُؤاخَذاً به، ومُثاباً أو مُعاقباً عليه.

قولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾؛ أي: يُجزى الإنسانُ سعيَه، فالضَّميرُ للسَّعي، يُقال: جزيتُ فلاناً سعيَه؛ أي: جزاءَ سعيِه. والجزاءُ الأوفى الأتمُّ.

قولُه تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾؛ أي: يُحشرُ الخلائقُ إليه يومَ القيامةِ.

وقيلَ: أي: إلى ثوابِه أو عقابِه المنتهى.

وقيلَ: هذه الآياتُ في المنافقِ الذي إذا أُمِرَ بإعانةِ المسلمين في الغزواتِ وبالصَّدقاتِ أنفقَ منه أقلَّه من غيرِ إخلاصٍ، فهذا الذي ﴿أَعْطَى قَليلاً﴾، ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾ بأن الكفَّارَ يَغلبُون المسلمين، ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ ﴾ بأنَّ المنتهى إلى الله، وأنَّ منه النَّفعَ والضّرَّ، والإقناءَ والإغناءَ، وأنَّه وَعَدَ وأوْعَد.

***

(٤٣) ـ ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ هذا عامٌّ في كلِّ ضحكٍ وبكاءٍ، قالَت عائشةُ: [مرَّ النَّبيُّ ﷺ على قومٍ يَضحَكونَ فقالَ]: «لو تعلمونَ ما أعلمُ لَبكيتُم كثيراً، ولَضحكتُم قليلاً» فنزلَت هذهِ الآيةُ، فرجعَ إليهم فقال: «إنَّ اللهَ هو أضحَكَ وأبكى»[2].

---

(١) في (أ): «حتَّى»، والتصويب من «البسيط» (٢١/ ٦٩).

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ١٦٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٩٩)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٦٣٣) إلى ابن مردويه، وما بين معكوفتين من هذه المصادر.

وقالَ الكلبيُّ: أضحَكَ أهلَ الجنَّةِ وأبكى أهلَ النّارِ[1].

ودلَّت هذه الآيةُ على أنَّ أفعالَ العبادِ مخلوقةٌ للهِ تعالى.

***

(٤٤) ـ ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾؛ أي: أماتَ في الدُّنيا وأحيا للبعثِ.

وقيلَ: أماتَ الآباءَ وأحيا الأبناءَ.

وقيلَ: أماتَ النُّطفةَ وأحيا النَّسمةَ.

وقيلَ: أماتَ الكافرَ بالكفرِ وأحيا المؤمنَ بالإيمانِ.

***

(٤٥ ـ ٤٩) ـ ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾؛ أي: من أولادِ آدمَ، ولم يُرِدْ آدمَ وحواءَ؛ لأنَّهما ما خُلِقا من نطفةٍ.

قولُه تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾؛ أي: أمناها المرأةُ والرَّجلُ، وأصلُ الكلمةِ: الإراقةُ، يُقال: مَنَى الرَّجلُ وأمْنَى من المنيِّ، وسُمِّيَت مِنى بهذا الاسمِ لمَا يُمْنَى بها من الدِّماءِ؛ أي: يُراقُ، والمنيُّ: الماءُ الذي يُقدَّرُ منه الولدُ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٧١).

قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾؛ أي: إعادةَ الأرواحِ في الأشباحِ للبعثِ؛ أي: وعَدَ ذلك ووعدُه صدقٌ.

قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ ﴿أَغْنَىٰ﴾؛ أي: أَعْطَى الغنى ﴿وَأَقْنَىٰ﴾؛ أي: أعطَى مَن لا يَقتَني؛ أي: ما يتَّخذُ أصلَ مالٍ[1].

وقيلَ: ﴿أَقْنَى﴾؛ أي: قنَّعَ ورضَّى بما أعطى الفقيرَ، يُقال: قَنِيْتُ به؛ أي: رَضيتُ، ومَن اتَّخذَ قِنْيةً فقد رضيَها، وأصلُ الكلمةِ من اللُّزوم، يُقال: قَنَى الحياءَ؛ أي: لَزِمَه، ومنه:

فـاقـنَي حياءَكِ...[2] ....

أي: الْزَمي.

وقالَ الحسن: ﴿أَغْنَىٰ﴾ في المالِ ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ في الخدمِ[3].

قولُـه تعالـى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ كانَ بعـضُ أهـلِ الجاهليَّـةِ يعبدُهـا، فبيَّـنَ

---

(١) فمعنى (أقنى): جعل لَهُ قنية، أَي: أصلَ مَال؛ أي: ﴿أَغْنَىٰ﴾ من أغنى من خلقه بالمال ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أعطى القنية وهي أصول الأموال. انظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٨٢)، و«النكت والعيون» (٥/ ٤٠٥).

(٢) قوله: «فاقني حياءك» ورد في أبيات منها بيت عنترة، وتمامه:

فَاقْنَـيْ حَيَـاءَكِ لا أَبَـا لَـكِ وَاعْلَمـي ... أَنّـي امْـرُوءٌ سَـأَمُوتُ إِنْ لَـمْ أُقْتَـلِ

انظر: «ديوان عنترة» (ص: ٢٥٢)، و«البيان والتبيين» (٣/ ١٢٦)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٢٤٧).

وبيت حجر بن خالد في «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (ص: ٢٥٥)، وتمامه:

فاقْنَـي حيـاءَكِ لا أبالَـكِ إنـني ... فـي أرض فـارس موثـقٌ أحوالاَ

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٧٥) عن الضحاك والحسن وقتادة. وروى الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٨٣) عن الحسن ومجاهد وقتادة في أخبار متفرقة قالوا: «وأقنى: أخدم»،

أنَّ اللهَ ربُّها وخالقُها، وهما شِعرَيان: الغُميصاءُ والعَبورُ؛ لأنَّها تعبرُ المجرَّة، فأوَّلُ مَن عبدَ الشِّعرى رجلٌ يُقال له: أبو كبشة، فلمَّا دعا رسولُ اللهِ ﷺ إلى اللهِ وخالفَ أديانَهم شبَّهُوه بأبي كبشةَ، فقالوا: ما لقينا من ابنِ أبي كبشةَ؟ وقالَ أبو سفيان يومَ الفتحِ وقد وقفَ في بعضِ المضائقِ وعساكرُ رسولِ اللهِ ﷺ تمرُّ عليه: لقد أَمِرَ أمْرُ ابنِ أبي كبشةَ(١).

* * *

(٥٠ ـ ٥٥) ـ ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ قيل: كانَ كلُّ هذا في صحفِ موسى وإبراهيمَ، وأمَّا قولُه: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣] ـ وهي قريةُ لوطٍ ـ **فيَبعُدُ** أن يكونَ مذكوراً في صحفِ إبراهيمَ، وكانَت قصَّتُها في زمانِ إبراهيم، ولكنْ أَجْرَى ذكرَ الجميعِ مُجرًى واحدٍ إذ لا يُنكَرُ أن يكونَ بعضُ ما ذُكِرَ في صحفِ أحدِهما والبعضُ في صحفِ الآخَر، **ولا يَبعدُ** أيضاً ذِكرُ قصَّةَ المؤتفكةِ في صحفِ إبراهيمَ وإن كانَت في عصرِه، كما ذُكِرَ كثيرٌ من غزواتِ النَّبيِّ ﷺ في القرآنِ.

وقد قدَّمنا أنَّ هذه الآياتِ في محاجَّةِ الوليدِ بنِ المغيرة، وكانَ شاكًّا في البعث، والشَّاكُّ في الشَّيء قد يُعطي مالاً ليُتحمَّلُ عنه العذابُ إن كان، وإنَّما أُقيمَت الحجَّةُ عليه ليَقْطَعَ بالبعث.

---

(١) رواه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما، في حديث أبي سفيان الطويل في مساءلة هرقل له عن النبي ﷺ، وفيه: «فقلت ـ أي: أبو سفيان ـ لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر. فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام».

وقيلَ: محاجَّةُ الوليدِ انتهَت عند قولِه: ﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾، وما بعده كلامٌ مستأنَفٌ، وفُتحَت الألِفاتُ في ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ ﴾... على الإتْباعِ لمَا قبلَه.

و﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾: قومُ هودٍ، وهم الذين أُهلِكوا بريحٍ صرصرٍ، وكانَ لهم عَقِبٌ، وكانوا عاداً الأخرى.

قولُه تعالى: ﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ هم قومُ صالحٍ أُهلِكوا بالصَّيحةِ. قُرِئَ: ﴿ثَمُوداً﴾ و﴿ثَمُودَ﴾(١).

قولُه تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾؛ أي: وأهلكَ قومَ نوحٍ من قبلِ عادٍ وثمودَ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾، وذلك لطول مُدَّة نوحٍ فيهم، قالَ الله: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت: ١٤]، وكانَ الرَّجلُ فيهم يأخذُ ابنَه فينطلقُ به إلى نوحٍ فيقول: احذر هذا فإنَّه كذَّاب، وإنَّ أبي قد مشى بي إلى هذا وقالَ لي ما قلتُ لك، فيموتُ الكبيرُ على الكفرِ وينشأُ الصَّغيرُ على وصيَّةِ أبيه.

وقيلَ: الكنايةُ في ﴿إِنَّهُمْ ﴾ ترجعُ إلى كلِّ مَن ذُكِرَ من عادٍ وثمودَ وقومِ نوحٍ، خاطبَ مشركي العربِ؛ أي: كلُّ هؤلاء كانُوا أظلمَ منكم وأطغى، فصَبَرَ الأنبياءُ إلى أوانِ التَّعذيب، فكأنَّه قالَ لـمحمَّدٍ: فاصبرْ أنت أيضاً فالعاقبةُ الحميدةُ لك.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ هم قومُ لوط، وقريتُهم المؤتفكةُ؛ لأنها ائْتَفَكَتْ؛ أي: انقلبَت بهم وصارَ عاليْها سافلَها، يُقال: أفكْتُه؛ أي: قلبتُه وصرَفتُه.

---

(١) قرأ حمزةُ وحفص بغير تنوين، والباقون بالتنوين. انظر: «السبعة» (ص: ٦١٦)، و«التيسير» (ص: ٢٠٥).

﴿أَهْوَىٰ﴾؛ أي: خسفَ بهم بعذابٍ، رفعَهم إلى السَّماءِ، فرمى بهم[1] في الأرض، وهو من الهوَّةِ، وهي الحفرة.

وقيلَ: ﴿أَهْوَىٰ﴾؛ أي: خسفَ بهم حتَّى هوَت جدرانُهم، و«هوى»؛ أي: سقطَ، و«أهواه»؛ أي: أسقطَه، فقوله: ﴿أَهْوَىٰ﴾؛ أي: أهواها جبريلُ عليه السَّلامُ إلى الأرضِ.

وقالَ المُبرِّدُ: جعلَها تَهوِي[2].

قولُه تعالى: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾؛ أي: ألبسَها ما ألبسَها من الحجارةِ، فإنَّه أمطرَ عليهم حجارةً.

وقيلَ: مرجعُ الكنايةِ إلى جميعِ هذه الأمم؛ أي: غشَّاها مِن العذابِ ما غشَّاها، وأبهَمَ لأنَّ كلًّا منهم أُهلِكَ بضربٍ [غيرِ ما أُهلِكَ به الآ]خرُ[3].

وقيلَ: هذا تعظيمُ الأمرِ.

قولُه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾؛ أي: بأيِّ نِعمِ ربِّكَ تشكُّ أيُّها الإنسانُ حتَّى تجادلَ فيه وتجحدَ قدرتَه، وقد أقامَ لك الدَّلائل، وقد قالَ هذا بعدَ تعديدِ النِّقم؛ لأنَّ تلك النِّقمَ على الكفَّارِ نِعَمٌ على المؤمنين.

وقالَ ابنُ عبَّاس: بأيِّ آلاء ربِّك تكذِّبُ يا وليدُ[4].

---

(١) بعدها في (أ): «فهو» ولا وجه لها.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٧٩).

(٣) انظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٦٤) وما بين معكوفتين منه.

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٨٠).

وإزاحةُ العِلَلِ، وبيانُ أهدى السُّبلِ، منٌّ من اللهِ على الكافرين لو(١) تأمَّلوا وتدبَّروا.

* * *

(٥٦) ـ ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾.

قولُه تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾؛ أي: محمَّدٌ نذيرٌ أرسلَه الله لإنذارِ خَلقِه كالرُّسلِ الأولى، فإن أطَعْتُموه أفلَحْتُم، وإلا حلَّ بكم ما حلَّ بمُكذِّبي الرُّسلِ السَّالفة.

وقيلَ: أي: هذا الذي أَخْبَرْنا به من أخبارِ الأممِ الذين هلكُوا تخويفٌ لهذه الأُمَّةِ من أن ينزلَ بهم ما نزلَ بأولئك.

﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ﴾؛ أي: مثلَ النُّذرِ، فالنَّذيرُ في قولٍ بمعنى: الإنذارِ، كالنَّكيرِ بمعنى: الإنكارِ؛ أي: هذا الإنذارُ لكم.

* * *

(٥٧ ـ ٥٨) ـ ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾؛ أي: قَربَتِ القيامةُ فاستعدُّوا لها، والآزفةُ من أسماءِ القيامةِ؛ لدنوِّها من النَّاس؛ لأنَّ كلَّ ما هو آتٍ فقريبٌ.

قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾؛ أي: لا يَكشِفُ عنها ولا يُبديها غيرُ(٢) الله، فـ(الكاشفةُ) مصدرٌ كالخافيةِ والعاقبة، وهي بمعنى الكشفِ.

وقيلَ: لا أحدَ يردُّ ذلك؛ أي: أنَّ القيامةَ إذا قامَت لا يكشفُها أحدٌ من آلهتِهم ولا يُنجِيهم غيرُ الله، وقد سُمِّيَت القيامةُ غاشيةً، فإذا كانَت غاشيةً كانَ ردُّها كشفاً،

---

(١) في (أ): «وبيان أهدى السبيل من إلا اللهِ على الكافرين أو»، والصواب المثبت.

(٢) في (أ): «إلا غير»، والصواب المثبت.

فالكاشـفةُ علـى هذا نعـتُ مُؤنَّثٍ محذوفٍ؛ أي: نفسٌ كاشـفةٌ، أو أمةٌ كاشـفةٌ.

وقيلَ: الهاءُ للمُبالغةِ، مثل راويةٍ وداهيةٍ.

***

(٥٩ ـ ٦٢) ـ ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ۝٦١ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ ۝٦٢﴾.

قولُـه تعالـى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ﴾؛ أي: مـن القـرآنِ ﴿تَعْجَبُونَ﴾ تكذيبـاً به، وهذا استفهامُ توبيخٍ.

وقيلَ: أي: من حديثِ القيامةِ تعجبون؟

قولُه تعالى: ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾؛ أي: تستهزئونَ ولا تبكونَ خوفاً من الوعيدِ، قيل: ما رُؤِيَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ بعد نزولِ هذه الآيةِ ضاحكاً إلا تبسُّماً[1].

قولُه تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾؛ أي: لاهونَ، والسُّمودُ: الغفلةُ والسَّهو.

وقيلَ: اللَّهو، يُقال: اسمُدي أَيَّتُها الجارية؛ أي: غنِّي.

وقيلَ: السَّامدُ: المتحيِّرُ القائِمُ. وقيلَ: المتكبِّرُ. وقيلَ: اللاعِبُ.

ومَن حملَه على الغناءِ قال: كانُوا إذا سمعُوا القرآنَ تَغَنَّوا لئلا يسمعوا القرآنَ.

قولُه تعالى: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾؛ أي: أنتم لاهونَ عن الصَّلاةِ وامتثالِ أمرِ الله، فصلُّوا للهِ كما يفعلُه المؤمنون، ﴿وَاعْبُدُوا﴾ الله ووحِّدُوه.

---

(١) رواه وكيع في «الزهد» (٣٦)، وهناد في «الزهد» (٤٧٣)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ١٨٥)، من حديث صالح بن أبي الخليل، وإسناده معضل.
قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ١٦١): ورواه ابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس بإسناد ضعيف.

ولمَّا نزلَت هذهِ الآيةُ أعلنَها رسولُ اللهِ ﷺ، فسجدَ وسجدَ المشركون وسجدَ الجنُّ[١].

وقيلَ: إنَّما سجدَ المشركون لأنَّهم سمعُوا صوتَ الشَّيطانِ في أثناءِ قراءةِ رسولِ اللهِ عليه السَّلامُ عند قولِه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ فإنَّه قالَ: «تلك الغرانيقُ العُلا، وإن شفاعتهنَّ لتُرتجى»، فظنُّوا أنَّه من قولِ محمَّدٍ عليه السَّلام[٢]، وقد مضى الكلامُ عليه.

فلمَّا بلغَ الخبرُ [مَن] بالحبشةِ مِن أصحابِ النَّبيِّ ﷺ رجعُوا ظنًّا منهم أنَّ أهلَ مكَّةَ آمنوا، فكانَ أهلُ مكَّةَ أشدَّاءَ عليهم، وأخذُوا في تعذيبِهم إلى أن كشفَ اللهُ عنهم ذلك.

* * *

---

(١) رواه البخاري (٤٨٦٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولفظه: «سجد النبي ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون، والجن والإنس».

(٢) قصة الغرانيق معروفة، ولا يصح فيها شيء، وتقدم الكلام عليها في (سورة الحج) عند قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾، فلتنظر ثمة.

سُورَةُ القَمَرِ

سورةُ (اقتربَت)(١)

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١) ـ ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: دنا الوقتُ الَّذي تقومُ فيه القيامةُ، فاستعدُّوا للقيامةِ.

والسَّاعةُ: اسمٌ للقيامةِ، سُمِّيَت بها لقُربِها، كما سُمِّيَت الآزفةَ.

﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾؛ أي: وقد انشقَّ حتَّى رأيتموه ـ أو رآه بعضُكم ـ فِلقَتين، وهو أعظمُ آيةٍ؛ لأنَّه حصلَ ذلك باستدعائِه منَ اللهِ تعالى عندَ التَّحدِّي.

وقيلَ: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: انشقَّ القمرُ واقتربَت السَّاعة؛ لأنَّ انشقاقَه من أشراطِ السَّاعةِ.

وقالَ قومٌ: لـم يقع انشقاقُ القمرِ بعدُ، وهو منتظرٌ؛ أي: اقتربَ قيامُ السَّاعةِ وانشقاقُ القمر، وإنَّ السَّاعةَ إذا قامَت انشقَّت السَّماءِ بما فيها من القمرِ وغيره.

وقالَ الحسنُ: اقتربَت السَّاعةُ، فإذا جاءَت انشقَّ القمرُ، وإنَّما ينشقُّ بعدَ النَّفخةِ الثَّانية(٢).

---

(١) في (أ): «اقترب»، والمثبت من المصادر. انظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٥٧)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٤٣١)، و«ياقوتة الصراط» لأبي عمر الزاهد (ص: ٤٩٣)، وغيرها. وهكذا سماها البخاري في كتاب التفسير من «صحيحه» قبل الحديث (٤٨٦٤).

(٢) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٤٠٩).

والذي عليه معظمُ العلماءِ: أنَّ القمرَ انشقَّ بإشارةِ النَّبيِّ ﷺ.

قالَ ابنُ عبَّاس: اجتمعَ المشركون إلى رسولِ اللهِ ﷺ، وقالوا: لو كنتَ صادقاً فشُقَّ لنا القمرَ فرقتين: نصفٌ على أبي قُبَيسٍ ونصفٌ على قُعَيقِعانَ، فقالَ لهم رسولُ اللهِ ﷺ: «إن فعلتُ تُؤمنون؟» قالوا: نعم، وكانَت ليلةَ بدرٍ، فسأَلَ رسولُ اللهِ ﷺ ربَّه أن يُعطيَه ما قالوا، فانشقَّ القمرُ فرقتين ورسولُ اللهِ يُنادي للمشركين: «يا فلانُ يا فلانُ اشهدوا»(١).

وقولُه تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟﴾ هذا ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ يدلُّ على أنَّهم رأَوا انشقاقَ القمرِ فحملوه على السِّحر، فإنَّ انشقاقَ القمرِ في الآخرةِ لا يكونُ

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٨٩)، وفي حادثة انشقاق القمر روايات كثيرة، أقربها إلى ما ساقه المصنف ما رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (٢٠٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما. ورواها البخاري (٤٨٦٤)، ومسلم (٢٨٠٠)، عن ابن مسعود، قال: انشَقَّ القمرُ على عهد رسول الله ﷺ فرقتين، فرقةً فوق الجبل، وفرقةً دونَه، فقال رسولُ الله ﷺ: «اشْهَدُوا». وله في الصحيحين روايات أخر ستأتي.

وقد قال بتواتر انشقاق القمر الجم الغفير من العلماء، قال القسطلاني في «المواهب اللدنية» (٢/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤): «وقد أجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه»، ونقل عن ابن عبد البر قوله: «قد رَوَى هذا الحديثَ ـ يعني: حديثَ انشقاق القمر ـ جماعةٌ كثيرة من الصحابة، وروي ذلك عنهم أمثالهم من التابعين، ثم نقله عنهم الجم الغفير إلى أن انتهى إلينا، وتأيد بالآية الكريمة»، ثم نقل عن العلامة ابن السبكي قوله: «والصحيح عندي أن انشقاق القمر متواتر، منصوص عليه في القرآن، مروي في الصحيحين وغيرهما من طرق...» ثم قال: «وله طرق أخر شتى، بحيث لا يمترى في تواتره».

وممن قال بتواتره ابن كثير حيث قال في «تفسيره» (٧/ ٤٧٢): «وقوله: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ : قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ، كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة».

آيةً معجزةً للعبادِ؛ إذ لا تكليفَ غداً، ولو كانَ قولُه: ﴿انْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ في الآخرةِ[1] بمعنى: سينشقُّ، لكانَ معنى ﴿اقْتَرَبَتِ﴾: ستقتربُ، فالظَّاهرُ إذاً انشقاقُ القمر، ومَن تَرَكَ الظَّاهرَ احتاجَ إلى دليلٍ.

فإنْ قيل: لو انشقَّ القمرُ لتواتَرَ الخبرُ به، ولم ينفرِدْ بروايتِه ابنُ مسعودٍ.

قلنا: هذه آيةٌ، ولم يكن هذا في مجلسٍ غاصٍّ بأهلِه، بل جرى في شرذمةٍ في صُبحِ ليلٍ، ومعظمُ النَّاسِ نيامٌ، والكفَّارُ الذين شاهدوا ذلك عددٌ قد يتواطؤون على الكتمانِ أو يعتقدون أنَّه تخييلٌ، ومعظمُ الخلقِ في ذلك الوقتِ كانُوا نياماً، والقمرُ قد يعارضُه غيمٌ في بعضِ البلدانِ فلا يُرى، وهو في تلك الحالة قد يرى في مواضعَ أُخَر، فمثلُ هذا ممَّا لا يُلتزَمُ فيه نقلُ التَّواتر، وهو كالمعجزاتِ الأُخَرِ ما عدا القرآنَ. ثمَّ كان[2] ذلك الزَّمانُ زمانَ خرقِ العوائد، وكانَ ذلك معجزةً أخرى. ثمَّ ربَّ شيءٍ يُنقَلُ تواتراً مُدَّةً ثمَّ يندرس.

وأمَّا انفرادُ ابنِ مسعودٍ بالنَّقل، فليسَ كذلك، بل رواه أنسٌ وابنُ عبَّاسٍ وجُبيرُ بنُ مُطعمٍ وحذيفةُ وابنُ عمرَ وغيرُهم، مع ابنِ مسعود[3]، ورواياتُهم بعيدةٌ عن التَّأويل.

وروَى مسروقٌ عن ابنِ مسعودٍ قال: انشقَّ القمرُ ونحن بمكَّةَ، فقالَ كفَّارُ قريشٍ

---

(١) تكررت في (أ) عبارة: «لا يكون آيةً معجزةً».

(٢) في (أ): «عاد»، والصواب المثبت.

(٣) رواه البخاري (٣٦٣٦)، ومسلم (٢٨٠٠)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ورواه البخاري (٤٨٦٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه البخاري (٤٨٦٨)، ومسلم (٢٨٠٢)، عن أنس رضي الله عنه، ورواه الترمذي (٣٢٨٩) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه، ورواه الحاكم في «المستدرك» (٨٨٠٠) عن حذيفة رضي الله عنه، ورواه مسلم (٢٨٠١) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

من أهلِ مكَّةَ: هذا سحرٌ سحرَكم به ابنُ أبي كَبْشةَ، فانظروا إلى السُّفَّارِ يأتونكم، فإن أخبروكم بمثلِ ما رأيتُم فقد صدقَ. فما قدمَ عليه أحدٌ من وجهٍ من الوجوهِ إلا أخبرَهم أنَّه رآه مثلَ ما رأوه[1].

وقد وردَ القرآنُ أنَّ عيسى تكلَّمَ في المهدِ، والنَّصارى كلُّهم يُنكرونه، فإذا قيل لنا: لو كانَ هذا حقًّا لتواترَ الخبرُ، فما الجوابُ؟ فجوابُ عدمِ التَّواترِ في انشقاقِ القمرِ مثلُ ذلك.

* * *

(٢) ـ ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾؛ أي: لـمَّا رأى المشركون انشقاقَ القمرِ أعرضُوا وقالوا: إنَّه ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾، من إمرارِ الحبلِ، وهو إحكامُ فَتلِه، فـ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾: شديدٌ، ومنه ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٦]، ومنه: استمرَّ فلانٌ على كذا؛ أي: قَوِيَ عليه.

وقيلَ: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾؛ أي: ذاهبٌ لا يَبقى ولا حقيقةَ له، من المرورِ بمعنى: الذَّهاب.

وقيلَ: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾: يُشبهُ بعضُه بعضاً؛ أي: قد استمرَّت أفعالُ محمَّدٍ على هذا الوجهِ، فلا يأتي بشيءٍ له حقيقةٌ، بل الجميعُ تخييلاتٌ، يُقال: هذا قياسٌ مستمرٌّ؛ أي: مطَّردٌ جارٍ على وجهٍ واحد.

---

(١) رواه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (٢٩٣)، والشاشي في «مسنده» (٤٠٤)، وأبو نعيم في «الدلائل» (٢١٢).

وقيلَ: ﴿سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾؛ أي: كانَ يُفعلُ مثلُ هذا قبلَ محمَّدٍ في الأممِ الماضيةِ فيُكذِّبون.

وقيلَ: ﴿سِحۡرٞ﴾؛ أي: هذا سحرٌ.

***

(٣) ـ ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ﴾؛ أي: كذَّبَ هؤلاء المعرِضون ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾؛ أي: ما زَيَّنَ لهم الشَّيطانُ من عبادةِ الأوثانِ واتَّبعوا الإلفَ والعصبيَّةَ.

﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾؛ أي: لكلِّ أمرٍ من الخيرِ والشَّرِ مُستقَرٌّ، فهو يستقِرُّ يوماً مّا قرارُه وتنكشفُ عاقبتُه وتَبِينُ حقيقتُه، وهو كقولِه: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞ﴾ [الأنعام: ٦٧]، وهذا وعيدٌ للكافرِ.

***

(٤) ـ ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم﴾؛ أي: جاءَ هؤلاء الكفَّارَ ﴿مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾؛ أي: من أخبارِ الأممِ الماضيةِ ﴿مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾؛ أي: ازدجارٌ، فهو بمعنى المصدر، يُقال: زجرتُه وازدجرتُه؛ أي: نهيتُه عن السُّوءِ.

وقيل: أي: ما فيه مُنْزَجَرٌ[1]؛ لأنَّ الازدجارَ قد يأتي بمعنى: الانزجارِ، فعلى هذا لا بدَّ من تقديرِ محذوفٍ؛ أي: ما فيه انزجارٌ لو انزجَروا.

***

---

(١) في (أ): «مزدجر»، والصواب المثبت.

(٥) ـ ﴿حِكْمَةٌۢ بَـٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَـٰلِغَةٌ﴾؛ أي: قد أتاهم حكمةٌ بالغةٌ تردُّ عن الكفرِ مَن تأمَّلَها؛ يعني: القرآنَ وقولَ الرَّسول.

وقيلَ: فيه إضمارٌ؛ أي: هو حكمةٌ؛ أي: ذلك حكمةٌ ﴿بَـٰلِغَةٌ﴾؛ أي: تامّةٌ قد بلغَت الغايةَ في البيانِ والحجَّةِ والوضوح.

﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾: أيُّ شيءٍ تُغني؟

وقيلَ: ﴿ما﴾ للنَّفيِ؛ أي: فلا تُغنيهم النُّذُر.

و﴿ٱلنُّذُرُ﴾: جمعُ النَّذيرِ؛ أي: لا تُغنيهم الأنبياءُ؛ لأنَّهم لا يقبلون قولَ الأنبياءِ.

وقيلَ: هؤلاء الأنبياءُ لا يُغنون عنهم يومَ القيامةِ، ولا[1] يدفعون عنهم العذابَ، ولا يشفعون لهم؛ لأنَّهم لم يقبلوا إنذارَهم.

والرَّسولُ نذيرٌ، والقرآنُ نذيرٌ، قالَ الله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ [الروم: ٣٥]، فإذا جازَ وصفُ الحجَّةِ بالتَّكلُّمِ جازَ وصفُها بالإنذارِ.

***

(٦) ـ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ أي: أعرِضْ عنهم، قيل: هذا منسوخٌ بآيةِ السَّيفِ.

﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾؛ أي: تولَّ عنهم لهذا اليومِ الَّذي يدعو فيه الداعي، كما تقولُ: افعلْ هذا إبقاءً على فلانٍ؛ أي: للإبقاءِ عليه، تقول: أنا فاعلٌ هذا يومَ كذا وليومِ كذا؛ أي: أخِّرْ مكافأتَهم لهذا اليوم[2].

---

(١) في (أ): «وقد»، والصواب المثبت.

(٢) في (أ): «القوم»، والصواب المثبت.

وقيلَ: تمَّ الكلامُ عند قولِه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، ثمَّ قال: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ يخرجون من الأجداثِ خاشعةً أبصارُهم.

وقيلَ: أي: تولَّ عنهم يا محمَّدُ فقد أقمتَ الحجَّةَ، وأبصِرْهم يومَ يدعو الدَّاعي، فإنَّك تراهم خُشَّعاً أبصارهم.

وقيلَ: أي: أعرِضْ عنهم يومَ القيامةِ، ولا تسلْ عنهم وعن أحوالِهم، فإنَّهم يُدعَون إلى شيءٍ نُكرٍ، وينالُهم عذابٌ شديد، وهو كما تقول: لا تسأَلْ عمَّا جرى على فلان، إذا أخبرتَه بأمرٍ عظيم.

وقيلَ: أي: وكلُّ أمرٍ مستقرٌّ يومَ يدعو الدَّاعي.

﴿يَدْعُ الدَّاعِ﴾؛ أي: يُنادي مُنادٍ من جهةِ الله، وهذا في النَّفخةِ الثَّانية، وهذا الدَّاعي إسرافيلُ، ينفخُ قائماً على صخرةِ بيتِ المقدسِ، فيخرجون من القبورِ للحسابِ والعرضِ.

﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾؛ أي: مُنكَرٍ مَهُولٍ؛ أي: يَعظمُ أمرُه.

وقيلَ: إلى شيءٍ كانُوا يُنكرونه في الدُّنيا.

وقرأ ابنُ كثيرٍ ﴿نُكْرٍ﴾ بسكونِ الكاف[1]، وهما لغتان مثل شُغُلٍ وشُغْلٍ.

* * *

(٧) ـ ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾؛ أي: خاضعينَ أَذِلَّاءَ لأمرِ اللهِ تعالى، وأضافَ الخشوعَ إلى الأبصارِ لأنَّ أثرَ الذُّلِّ والعزِّ بيِّنٌ في ناظرِ[2] الإنسانِ، قالَ الله تعالى:

---

(١) والباقون بضم الكاف. انظر: «السبعة» (ص: ٦١٧)، و«التيسير» (ص: ٢٠٥).

(٢) في (أ): «تأخر»، والصواب المثبت.

﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٩]، وقال: ﴿خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وأبو عمرٍو: ﴿خاشعاً﴾ بالألفِ[١]، ويجوزُ في أسماءِ الفاعلينَ إذا تقدَّمَت على الجماعةِ التَّوحيدُ نحو ﴿خاشعاً أبصارهم﴾، والتَّأنيثُ نحو ﴿خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ﴾ [القلم: ٤٣]، ويجوزُ الجمعُ نحو ﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ﴾.

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾؛ أي: يَبرُزون من القبور، الواحدُ: جَدَثٌ.

﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ شبَّهَ خروجَهم من القبورِ بالجرادِ المنتشرِ في كثرتِها وتفرُّقِها في كلِّ جهةٍ.

وقيلَ: أي: يخرجون حَيارى ويدخلُ بعضُهم في بعضٍ، فلا يَتبيَّنُ لهم صَوبٌ[٢] كالجرادِ.

* * *

(٨) ـ ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾؛ أي: مُسرِعين إلى جانبِه.

وقيلَ: ناظرين إليه، يُقال: هَطَعَ الرَّجلُ يَهطَعُ هُطُوعاً: إذا أقبلَ على الشَّيءِ ببصرِه، ولعلَّه استُعمِلَ منه أهْطَعَ، ويُقال: أهْطَعَ في مِسيرِه؛ أي: أسرعَ.

﴿يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ هذا يدلُّ على أنَّ ذلك اليومَ سهلٌ على المؤمنين،

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦١٧)، و«التيسير» (ص: ٢٠٥).

(٢) أي: قصد. انظر: «القاموس» (مادة: صوب). وفي «البسيط» (٢١/ ٩٧) عن أهل المعاني: المعنى: أنهم يخرجون فزعين لا يهتدون فيدخل بعضهم في بعض لا جهة لأحد منهم يقصدها، فشبههم في هذا الوقت بالجراد؛ لأن الجراد لا جهة لها فتكون أبدًا مختلفة بعضها في بعض.

وهو كقولِه: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٩ ـ ١٠]؛ أي: تشتدُّ على الكفَّارِ أهوالُ[١] ذلك اليومِ.

* * *

(٩) ـ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ ذكرَ جُملاً من وقائعِ الأممِ الماضيةِ، فقد كذَّبت قبلَ هؤلاء قومُ نوحٍ نوحاً، ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ أعادَ ذِكرَ التَّكذيبِ لأنَّهم كذَّبوا تأسِّياً[٢]؛ أي: كذَّبت قومُ نوحٍ بالبعثِ، فأدَّاهم ذلك إلى التَّكذيبِ بالنُّبوَّةِ، أو: كذَّبت قومُ نوحٍ أنبياءَ اللهِ، فردُّوا على نوحٍ قولَه ﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾؛ أي: زُجِرَ عن دعوى النُّبوَّة مُهدَّداً بالقتلِ، وقيلَ: سَبُّوه، وإنَّما قال: ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ بلفظِ ما لم يُسَمَّ فاعلُه لرأسِ الآيةِ.

* * *

(١٠) ـ ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾؛ أي: أَيِسَ من إيمانِهم بإخبارِ اللهِ إيَّاه، فدعا اللهَ بإهلاكِهم.

وقيلَ: إنَّ الأنبياءَ كانُوا لا يَدْعون على قومِهم بالهلاكِ إلا بإذنِ اللهِ لهم فيه.

﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ﴾؛ أي: غلبَني قومي بتمرُّدِهم، ﴿فَٱنتَصِرْ﴾؛ أي: فانتقمْ لي منهم بعقابٍ.

---

(١) في (أ): «هوان»، والصواب المثبت.

(٢) في (أ): «بأسنا»، والصواب المثبت. والمراد: كذب قوم منهم عقب قوم مقتدياً بمن قبله في التكذيب.

(١١ - ١٢) - ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: فأجَبْنا دعاءَه فأمرناه باتِّخاذِ السَّفينةِ، وفتحنا لـمَّا بلغَ الكتابُ أجلَه أبوابَ السَّماءِ من فوقِهم ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾؛ أي: بماءٍ كثيرٍ ينصبُّ انصباباً يخرجُ عن عادةِ الأمطارِ في نزولِها قطرةً قطرة، يُقال: هَمَرَ الماءُ فهو هامِرٌ، وانْهَمَرَ فهو مُنهَمِرٌ؛ أي: انصبَّ انصباباً كثيراً.

وقيلَ: لـم ينقطِعْ ذلك المطرُ أربعين يوماً.

وقُرِئَ: ﴿ففتَّحْنا﴾ بالتَّشديدِ[1].

قولُه تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾؛ أي: عيونَ الأرضِ من تحتِهم، فنبعَتِ المياهُ، ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾؛ أي: من فوقِهم ومن تحتِهم فغرقوا.

﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾؛ أي: قدَّره اللهُ وعلِمَ مقدارَه، وقدَّرَه في أمِّ الكتابِ وأرادَه في أزلِه.

وقيلَ: كانَ ماءُ السَّماءِ وماءُ الأرضِ سواءً، فهذا قولُه: ﴿قَدْ قُدِرَ﴾.

وقولُه: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ يعني: ماءَ السَّماواتِ وماءَ الأرض، ولم يقل: التقى الماءان؛ لأنَّهما لمَّا اجتمعَا صارَ ماءً واحداً، وفي بعضِ المصاحفِ: (فالتقى الماءان)[2]، وهو لغةُ طيِّئٍ.

* * *

---

(١) قرأ بها ابن عامر، والباقون بالتخفيف. انظر: «السبعة» (ص: ٦١٨)، و«التيسير» (ص: ٢٠١).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٨) عن الجحدري ومحمد بن كعب.

(١٣ ـ ١٤) ـ ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾؛ أي: على سفينةٍ ذاتِ ألواحٍ، وهي الخشباتُ العريضةُ الَّتي منها جُمعت السَّفينة.

﴿وَدُسُرٍ﴾ الدَّسْرُ: الدَّفعُ الشَّديد، يُقال: دسَرَه بالرُّمح، ومنه قولُ ابن عبَّاس في العنبرِ: «إنَّما هو شيءٌ دسَرَه البحرُ»[1]؛ أي: دفعَه، فالدُّسُرُ: المساميرُ والشُّرطُ الَّتي تُشَدُّ بها الألواحُ.

وقيلَ: الدَّسْرُ: دفعُها الماءَ بصدرِها، فالدُّسُرُ على هذا مصدرٌ.

وقيلَ: الدُّسرُ: صدرُها الَّتي تدفَعُ به الماءَ وتَدْسُر.

وقالَ الليثُ: الدِّسارُ: خيطٌ من ليفٍ تُشدُّ به ألواحُ السَّفينةِ[2].

قولُه تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أي: هذه السَّفينةُ كانَت تجري على الماءِ؛ أي: بمرأًى منَّا فنحن نراها.

وقيلَ: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أي: نحن نحفظُها، يُقال: عينُ الله عليك؛ أي: بحفظِ الله أنتَ.

وقيلَ: أي: بالأعينِ النَّابعةِ منَ الأرضِ، وكلُّ ما هو خلقُ اللهِ يمكنُ أن يُضافَ إليه.

وقيلَ: أي: تجري بأوليائنا، كما في الخبرِ: «مَرِضَ عَينٌ من عُيونِنا فلم تَعُدْه»[3].

---

(١) رواه الشافعي في «مسنده» (٦٣٠)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٦٩٧٧)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٠٠٥٨)، وعلقه البخاري قبل حديث رقم (١٤٩٨).

(٢) انظر: «العين» (٧/ ٢٢٥).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٣٣)، ولم أقف عليه بهذا اللفظ مرفوعًا، وروى مسلم (٢٥٦٩) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم! مرضت فلم تعدني. قال: يا رب! كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟...».

وقيلَ: بأعينِ مَن وكَّلْنا بها مِن أوليائِنا وملائكتِنا.

وفي التَّفاسيرِ: تجري بوحيِنا وأمرِنا.

﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾؛ أي: فَعَلْنا ذلك جزاءً لنوحٍ على صبرِه على أذى قومِه، وهو المكفورُ به.

وقيلَ: ﴿كُفِرَ﴾؛ أي: جُحِدَ، فـ(مَن) كنايةٌ عن نوح، وقيلَ: كنايةٌ عن الله تعالى.

والجزاءُ بمعنى العقابِ؛ أي: عقاباً لكفرِهم بالله.

* * *

(١٥ ـ ١٧) ـ ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾؛ أي: تركنا السَّفينةَ آيةً لـمَن بعدَ قومِ نوحٍ يعتبِرون بها فلا يُكذِّبونَ الرُّسل.

وقيلَ: لقومٍ يعلمونَ بها كمالَ قدرةِ الله ولطفِه بأوليائِه.

وقيلَ: كانَت السَّفينةُ ألفين ومئتي ذراعٍ في الطُّولِ وعرضُها ستُّ مئةِ ذراعٍ.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؛ أي: مِن مُعتَبِر، وهو افتعالٌ من الذِّكرِ.

قولُه تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ هذا تعظيمُ ذلك العذابِ وتعجيبٌ منه للسَّامعين، و﴿نُذُرِ﴾ الاسمُ من الإنذارِ أُقِيمَ مُقامَ المصدرِ؛ أي: وكيف كانَ إنذاري؟!

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ قيل: للاعتبارِ والتَّفكُّرِ وتذكُّرِ ما فيه ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؛ أي: مُعتبِر.

وقيـلَ: ﴿لِلذِّكْرِ﴾؛ أي: للحفظِ والقراءة، قالَ سـعيدُ بنُ جُبيرٍ: ليس من كتبِ الله

كتابٌ يُقرأُ كلُّه ظاهراً إلا القرآن[١]، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؛ أي: قارئٍ يَقرؤُه.

***

(١٨ ـ ٢٢) ـ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٢١ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾؛ أي: قومُ هودٍ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾؛ أي: إنذاري، وقيلَ: الرُّسل؛ أي: ألَمْ أحفَظْهم؟

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على عادٍ ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أصلُها: صَرَرٌ، من الصِّرِّ، وهو البردُ، فأبدلوا مكانَ الرَّاء الوسطى فاءَ الفعلِ كما قالوا: «تَجَفْجَفَ» وأصله: تَجَفَّفَ. أي: أرسلنا عليهم ريحاً باردةً.

وقيلَ: هو من صريرِ البابِ، وهو الصيحةُ والضجَّة[٢]؛ أي: أرسلنا عليهم ريحاً شديدةً ذاتَ صوتٍ.

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾؛ أي: في يومٍ كانَ مشؤوماً عليهم، والنَّحسُ: ضدُّ السَّعدِ، يُقال: يومُ سَعدٍ؛ أي: ظُفِرَ فيه بالخير، ونحسٍ؛ أي: فاتَ فيه الخيرُ.

---

(١) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٢٢٤)، والواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٠٢)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (١٤/ ١٥٩).

(٢) (أ): «والصحة» وهو تحريف، والمثبت من «تهذيب اللغة» (١٢/ ٧٦)، و«اللسان» (مادة: صرر)، وفيهما: ويقال: هو من صرير الباب ومن الصَّرَّة وهو الضَّجَّة. ومثله في «تفسير القرطبي» (١٨/ ٤٠٢) لكن فيه: «الصَّيحةُ» بدل: «الضَّجة»، والمعنى واحد فإن الصرة تفسر بالصيحة والضجة، قال الهروي تلميذ الأزهري في «الغريبين» (مادة: صرر): ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩] الصرة: الصيحة ههنا والضجة.

وقالَ ابنُ عبَّاس: أي: في يومٍ كانُوا يتشاءمُون به(١).

وقالَ الزَّجَّاجُ: قيل: في يومِ أربعاء في آخرِ الشَّهرِ لا يدورُ(٢).

﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾؛ أي: دائمِ الشُّؤمِ بنحوسِه، واستمرَّ فيه العذابُ إلى الهلاكِ.

وقيلَ: استمرَّ بهم إلى نارِ جهنَّمَ.

وقد نبَّه الله أنَّ هذه الرِّيحَ دامَت عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ.

وحكَى الكسائيُّ أنَّ قوماً قالوا: هو مِن المرارة، يُقال: استمرَّ الشَّيءُ وأمَرَّ؛ أي: كانَ كالشَّيءِ المرِّ تكرهُه النُّفوس، وقد قال: ﴿فَذُوقُواْ﴾ والذي يُذاقُ فقد يكونُ مُرًّا(٣).

وقيلَ: هو مِن المِرَّةِ بمعنى: القوَّة؛ أي: في يومِ نحسٍ مُستحكِمِ الشُّؤمِ كالشَّيءِ المحكَمِ الفَتلِ الَّذي لا يُطاقُ نقضُه.

قولُه تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: تقلعُ النَّاسَ الذين أُمِرَت بإهلاكِهم من مواضعِهم.

ثمَّ قيل: قلَعَتْهم من تحتِ أقدامِهم اقتلاعَ النَّخلةِ من أصلِها.

وقيلَ: كانَت تقلعُهم من الأرضِ، فترمي بهم على رؤوسِهم، فتندقُّ أعناقُهم، وتَبينُ رؤوسُهم من أجسادِهم.

وقيلَ: تنزعُ النَّاسَ من البيوتِ.

وفي خبرٍ عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ قال: «انتزعَت الرِّيحُ النَّاسَ من قبورِهم»(٤).

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٠٣).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٨٩).

(٣) ذكره أبو حفص النسفي في «التيسير» (١٤/ ١٦٠).

(٤) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٢٣٠) معلقًا عن كعب بإسناد فيه مجاهيل، وذكره الواحدي في =

وقيلَ: حفرُوا حُفَراً ودخلوا، فكانَت الرِّيحُ تنزعُهم(١) منهاوتكسرُهم، فتَبقَى تلك الحفرُ كأنَّها أصولُ نخلٍ قد هلكَ ما كانَ فيها فيبقى(٢) موضعُها منقعراً، وهذا معنى قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾، والمُنقعِرُ: الشَّيءُ الَّذي له قَعرٌ. وقيلَ: المنقعِرُ: المنقلِعُ.

وقالَ الزَّجَّاجُ: ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ هاهنا في موضعِ الحالِ؛ أي: تنزعُ النَّاسَ مُشبِهين النَّخلَ المنقعرَ، وهو المقطوعُ من أصولِه(٣).

والأعجازُ: الأسافلُ، وهي جمعُ عَجُزٍ، وهو مؤخَّرُ الشَّيءِ، وكانَت عادٌ موصوفين بطولِ القامةِ فشُبِّهوا بالنَّخيلِ انكبَّت لوجوهِها.

وقال: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ للَفظِ النَّخلِ، وهو من الجمعِ الَّذي يُذكَّرُ ويُؤنَّثُ، وقالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧](٤).

قولُه تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ وقولُه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ مضى معناه، وكُرِّرَ للتَّأكيدِ والتَّقرير.

***

(٢٣ ـ ٢٦) ـ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ۝٢٣ فَقَالُوٓا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝٢٤ أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝٢٥ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ هم قومُ صالحٍ كذَّبوا ﴿بِالنُّذُرِ﴾؛ أي: بالرُّسلِ، ومنهم صالحٌ، أو كذَّبوا بالآياتِ الَّتي هي النُّذر.

= «البسيط» (٢١/ ١٠٥).

(١) في (أ): «تزعجُهم»، والصواب المثبت. انظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨٩).

(٢) في (أ): «ببعضٍ»، والتصويب من المصدر السابق.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٨٩).

(٤) المصدر السابق.

قولُـه تعالـى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾؛ أي: هـو آدمـيٌّ مثلُنا، ثـمَّ هو واحدٌ لا أتبـاعَ له.

وقيلَ: أي: واحداً منَّا ومن جنسِنا.

﴿إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ﴾؛ أي: [لو][1] اتَّبعناه فإنَّا إذاً لفي ذهابٍ عن الحقِّ ﴿وَسُعُرٍ﴾؛ أي: جُنونٍ، يُقال: ناقةٌ مسعورةٌ؛ أي: كأنَّ بها جنوناً، ذكره ابن عبَّاس[2].

وقيلَ: هي جمعُ السَّعيرِ، وهو لهيبُ النّار، والبعيرُ المجنونُ يذهبُ كذا وكذا لِمَا يلتهبُ فيه من الحِدَّةِ، ومعنى الآيةِ: إنَّا إذاً في شقاءٍ وعناءٍ ممَّا يَلزمُنا.

قولُه تعالى: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾؛ أي: أخُصِّصَ بالرِّسالةِ وفينا مَن هو أكثرُ مالاً وأحسنُ حالاً منه؟!

والذِّكرُ: الوحي، ويُقال: أُلقِيَ هذا الحسابُ عليه، وأُلقِيت المسألةُ عليه؛ أي: عَرَفَ.

﴿بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ﴾؛ أي: لا؛ ليس كما يَدَّعيه، وهو كذَّابٌ بَطِرٌ[3]، يلتمسُ الذِّكرَ علينا من غيرِ استحقاقٍ.

والأَشَرُ: المرحُ والتَّجبُّرُ والنَّشاطُ.

قولُه تعالى: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا﴾؛ أي: سيَرون العذابَ يومَ القيامةِ، أو في حالِ نزولِ العذابِ بهم في الدُّنيا.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٢٥٥)، وبين الواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٠٧) أنها من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في (أ): «نظير»، والتصويب من «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩٢).

قُرِئَ ﴿ سَيَعْلَمُونَ ﴾ بالياء والتَّاء[1].

* * *

(٢٧ ـ ٢٨) ـ ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ ﴾ سألوه آيةً، وهي أن يُخرجَ لهم ناقةً عُشَراءَ[2]، فتضعُ ثمَّ تَرِدُ ماءَهم فتشربُ، ثمَّ تغدو عليهم بمثلِه لبناً، فقالَ الله: إنا باعثوها ومُخرِجوها، وهذا الإرسالُ إنَّما كانَ بالخلقِ والإبداعِ، لا بمعنى: تحمُّلِ الرِّسالةِ والأداء[3].

ورُوِيَ: أنَّ صالحاً عليه السَّلامُ صلَّى ركعتين ودعا، فانصدعَتِ الصَّخرةُ الَّتي عيَّنوها من سنامِها، فخرجَت ناقةٌ عشراءُ وَبْراءُ[4].

﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾؛ أي: اختباراً، أو هو مفعول له.

﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾؛ أي: انتظِرْ ما هم صانعون، واصطَبِرْ على أذاهم إلى أن ترى عاقبةَ أمرِهم.

قولُه تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بينَ القوم والنَّاقة، ولـمَّا جَمعَ الجميعَ في خبرٍ واحدٍ غلَّبَ الآدميين، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن﴾ [النور: ٤٥].

---

(١) قرأ بالتاء ابن عامر وحمزة، والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٦١٨)، و«التيسير» (ص: ٢٠٦).

(٢) العشراء: الناقة التي أتت عليها من يوم أرسل عليها الفحل عشرةُ أشهر وزال عنها المخاض، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع وبعدما تضع أيضاً. انظر: «الصحاح» (مادة: عشر).

(٣) في (أ): «والإيداع»، والمثبت من «البسيط» (٢١/ ١١٠).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٤١٧). ومعنى (وبراء): كثيرة الوبر. انظر: «المحيط في اللغة» (٢/ ٤٤١).

فكانَ يومٌ من الماءِ لهم ويومٌ لها.

قالَ ابنُ عبَّاس: كانَ يومُ شُربِهم لا تشربُ النَّاقةُ شيئاً من الماءِ وتسقيهم لبناً، وكانوا في نعيمٍ، وإذا كانَ يومُ النَّاقةِ شربتِ الماءَ كلَّه، فلم تُبقِ لهم شيئاً[(١)].

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾؛ أي: حضرَ القومُ يوماً والنَّاقةُ يوماً، [وحَضَرَ][(٢)] واحتَضَرَ بمعنًى واحدٍ، والشِّربُ: الحظُّ من الماءِ والنَّصيبُ.

وقيلَ: ﴿أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بين القومِ وحدَهم في يومِ غِبِّ النَّاقة، وهو اليومُ الَّذي كانَت لا تردُ الماءَ؛ لأنَّهم كانُوا يحتاجون يومَ غِبِّها إلى قسمةِ الماء بينهم ليشربوه ويتزوَّدُوا منه لليوم الثَّاني.

وقيلَ: ﴿كُلُّ شِرْبٍ﴾؛ أي: كلُّ شِربٍ من الماءِ ولبنِ النَّاقة.

* * *

(٢٩ ـ ٣٠) ـ ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾؛ أي: عاقِرَ النَّاقةِ قُدَارَ بنَ سالفٍ، ويُقال له: أحمرُ ثمودَ، وذلك لأنَّ الأمرَ لمَّا طالَ بهم في النَّاقةِ ائتَمرَ تسعةُ نفرٍ بالنَّاقة، وقالوا: أيُّكم يَكْمُنُ للنَّاقةِ حيثُ تمرُّ إذا صدرَت عن الماء؟ فكَمَنَ لها قُدارٌ، فلمَّا نادَوه ونبَّهوه على قُربِها من مَكمنِه ودعوه إلى قتلِها ﴿فَتَعَاطَى﴾؛ أي: تناولَ باليد، وهو تَفاعلٌ من العَطْو، ومنه: الإعطاءُ والمعاطاة؛ أي: تعاطَى النَّاقةَ بالسَّيفِ فعقرَها.

وقيلَ: عقرَها، ثمَّ وَجَأها بالسَّيفِ في لبَّتِها، وفرغ منها.

* * *

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (٢١/ ١١١).

(٢) من «البسيط» (٢١/ ١١١).

(٣١ ـ ٣٢) ـ ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ٣١ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ يعني: الصَّاعقةَ الَّتي أخذتهم.

وقيلَ: أي: صيحةَ جبريل، وذلك أنَّه سُمِعَت فيما بينهم صيحةٌ شديدة، فماتوا من شدَّةِ هولها.

﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾؛ أي: كيابسِ الشَّجرِ الَّذي يجمعُه صاحبُه ويَحتظِرُه لمواشيه؛ أي: يتَّخذُه لها حظيرةً يجمعُها فيها، ولا يفعلُها كذلك إلا وهو مُتكسِّرٌ مُتَفَتِّتٌ.

والهشيمُ: النبتُ اليابسُ من الشَّجر وغيرِه، والحظرُ: المنعُ، والمحتظِرُ: المفتَعِلُ منه، يُقال: احتظَرَ على إبلِه وحظرَ؛ أي: جمعَ الشَّجرَ ووضَعَ بعضَه فوقَ بعضٍ ليمنعَ بردَ الرِّيحِ عن إبلِه.

ثمَّ؛ قيل: شبَّهَهم بما تناثرَ من الشَّجرِ الَّذي تُتَّخذُ منه الحظيرةُ وتدوسُه الغنمُ، فهو الهشيمُ؛ أي: تفرَّقَت لحومُهم وعظامُهم.

وقيلَ: أي: كالهشيمِ الَّذي يجمعُه صاحبُ الحظيرةِ لعلفِ ماشيتِه.

وقالَ ابنُ عبَّاس: أي: وكانُوا مثلَ القمحِ الَّذي قد دِيسَ وهُشِمَ(١). فالمحتظِرُ على هذا: الَّذي يتَّخِذُ حظيرةً على زرعِه، والهشيمُ: فُتاتُ السُّنبلِ والتِّبن.

* * *

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ١١٤)، وفيه: «قد يبس وهشم».

(٣٣ - ٣٥) - ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾.

قولُه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ أخبرَ عن قومِ لوطٍ أيضاً لـمَّا كذَّبوا لوطاً.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾؛ أي: سحاباً حصبَهم؛ أي: رماهم بالحجارةِ والحصا، والحصبُ: الرميُ.

وقالَ النَّضرُ: الحاصبُ: الحصباءُ في الرِّيح(١).

وقالَ أبو عُبيدةَ: الحاصبُ: الحجارة، وقد يكونُ من الجليد(٢).

ومنه: المحصَّبُ؛ لأنَّ بها [الحصى](٣).

﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ يعني: لوطاً وابنتيه ﴿نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾.

قالَ الزَّجَّاجُ: (سَحَرٌ) إذا كانَ نكرةً يُرادُ به سَحَرٌ من الأسحارِ ويُصرَفُ، تقولُ: أتيتُه سحراً، فإذا أردتَ سحرَ يومِك لم تصرفه، تقول: أتيتُه سحرَ يا هذا، وأتيتُه بسحرَ(٤).

قولُه تعالى: ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾؛ أي: إنعاماً على لوطٍ، فهو نصبٌ لأنَّه مفعولٌ له.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾؛ أي: وحَّدَ وشكرَ النِّعَمَ.

***

---

(١) ذكره الأزهري في «تهذيب اللغة» (٤/ ١٥٣)، والواحدي في «البسيط» (٢١/ ١١٤).

(٢) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٢٤١).

(٣) انظر: «البسيط» للواحدي (٢١/ ١١٥)، وفيه: «قال المبرد: يعني الثلج؛ لأن الريح ترميهم به في قصدهم الشام، قال: ومنه المحصب لأن فيه الحصى الذي قد رمي به».

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٩٠)، وفيه: «أتيته لسحر يا هذا»، بدل: «أتيته سحر يا هذا».

(٣٦ ـ ٣٧) ـ ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾؛ أي: أَخْذَتَنا إيَّاهم بالعذابِ ﴿فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾؛ أي: فشكُّوا فيما أنذرَهم به الرُّسلُ، ولم يُصدِّقوه.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾؛ أي: أرادوا منه تمكينَهم ممَّن كانَ أتاه منَ الملائكةِ في هيئةِ الأضيافِ فتوهَّموهم آدميِّين، والضَّيفُ هاهنا للجمعِ.

﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ بينهم وبينَ ضيفِ لوطٍ بأنْ أعميناهم.

قيل: مسحَ جبريلُ وجوهَهم بجناحِه فأعماهم، فلم يَدرُوا كيف يتوجَّهُون.

وقيلَ: صُيِّرَت أعينُهم كسائرِ الوجهِ لا يُرى لها شقٌّ، كما تَطمسُ الرِّيحُ الأعلامَ بما تُسفِي عليها من التُّراب.

وقيلَ: لا، بل أعماهم الله مع صحَّةِ أبصارِهم فلم يَروهم.

﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾؛ أي: فقلنا لهم: ذوقوا، والمرادُ من هذا الأمرِ الخبرُ؛ أي: فأذقتُهم عذابي الَّذي أنذرَهم به لوطٌ.

* * *

(٣٨ ـ ٤٠) ـ ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾؛ أي: جاءَهم العذابُ صُبحاً، وما بعد طلوعِ الفجرِ بكرةٌ لأنَّه أوَّلُ النَّهار، كالباكورةِ في الثِّمار، ويُقال: صبحتُ فلاناً وصبَّحتُه؛ أي: أتيتُه صباحاً.

﴿مُّسْتَقِرٌّ ﴾؛ أي: استقرَّ لهم العذابُ بكرةً.

وقيلَ: استقرَّ فيهم حتَّى أفضى بهم إلى عذابِ الآخرةِ، وذلك العذابُ قلبُ قريتِهم عليهم، وجَعلُ أعلاها أسفلَها.

***

(٤١ ـ ٤٢) ـ ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ يعني: القِبْطَ، و﴿ٱلنُّذُرُ﴾: الآياتُ الَّتي أُنذِروا بها مثلَ آياتِ موسى من الضَّفادعِ والدَّمِ والطُّوفانِ والجرادِ واليدِ البيضاء.

وقيلَ: النُّذرُ: الرُّسل، فقد جاءَهم يوسفُ وبَنُوه إلى أن جاءَهم موسى.

وقيلَ: النُّذرُ: موسى وهارونُ، وقد يُطلَقُ لفظُ الجمعِ على الاثنين.

وقيلَ: النُّذرُ: الإنذارُ.

قولُه تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾؛ أي: بحُجَجِنا؛ أي: كذَّبَ كلُّ فريقٍ من هؤلاء بالآياتِ الَّتي ظهرَت مع الرُّسل.

وقيلَ: أي: كذَّبوا بالآياتِ التِّسعِ.

﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ﴾؛ أي: بالعذابِ ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾؛ أي: غالبٍ في انتقامِه ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾؛ أي: قادرٍ على إهلاكِهم.

***

(٤٣) ـ ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ خاطبَ العربَ، وقيلَ: أرادَ كفَّارَ أمَّةِ محمَّدٍ.

﴿خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾؛ أي: من عادٍ وقومِ فرعون؛ أي: أهؤلاء أشدُّ من أولئكم؟ وهو استفهامُ إنكارٍ؛ أي: لستُم خيراً منهم وقد أهلكناهم.

وقيلَ: ليس كُفرُكم دونَ كفرِ أولئك.

﴿أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾؛ أي: في الكتبِ المنزلةِ على الأنبياءِ بالسَّلامةِ[1] من العقوبةِ.

وقالَ ابنُ عبَّاس: أي: أم لكم في اللَّوحِ المحفوظِ براءةٌ منَ العذابِ[2].

***

(٤٤ ـ ٤٦) ـ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ۝٤٤ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ﴾؛ أي: أم يَعتزُّون بالعددِ والأحسابِ ويظنُّون أنَّهم ينتصرون بهم ممَّن يقصدُهم بمكروهٍ، فإن كنتُم تظنُّون ذلك، فاعلموا أن سيُهزمُ جمعُكم.

﴿مُّنتَصِرٞ﴾ لم يقل: منتصرون؛ لأنَّ لفظَ (الجميعِ) واحدٌ، فهو كالرَّهطِ والجيشِ.

قولُه تعالى: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ﴾؛ أي: جمعُ كفَّارِ مكَّةَ ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾؛ أي: ينهزمون فيولُّونكم أدبارَهم في الهزيمةِ، والدُّبرُ اسمُ جنس، كالدِّرهمِ والدِّينارِ، وهذه الهزيمةُ كانَت يومَ بدر، وفيها إعجازٌ لأنَّه عليه السَّلامُ أخبرَ عن الغيبِ فكانَ كما أخبرَ، وكانَ أبو جهلٍ يقولُ يومَ بدرٍ وهو في الصَّفِّ: نحن جميعٌ منتصرٌ من عدوِّنا، والنَّبيُّ عليه السَّلامُ يقول: «﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾»، فقُتِلَ أبو جهلٍ بسيفه[3].

---

(١) بعدها في (أ): «من المؤمنون»، ولا وجه لها، ولم ترد في «تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٠٢) وكلام القرطبي منقول من هنا بحرفه.

(٢) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (٢١/ ١١٩).

(٣) في (أ): «فقتل أبو جهل بدعة»، والمثبت مستفاد من «البسيط» (٢١/ ١٢٠) وقد ذكره الواحدي عن =

قالَ ابنُ عبَّاس: كانَ بينَ نزولِ هذه الآيةِ وبينَ بدرٍ سبعُ سنين(١).

قولُه تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾؛ أي: لا يُقتصَرُ على هذا بهم، بل موعدُهم القيامةُ ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ﴾؛ أي: أعظمُ وأنكرُ، وعذابُها أمرُّ مذاقاً وأعسرُ من عذاب الدُّنيا، يُقال: دهاه أمرُ كذا؛ أي: أصابه، دَهْواً ودَهْياً، ويُقال: داهِيةٌ دَهواءُ ودَهياءُ.

﴿وَأَمَرُّ﴾: أشدُّ مَرارةً.

* * *

(٤٧ ـ ٤٨) ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾؛ أي: إنَّ المشركين في ضلالٍ في الدُّنيا عن الحقِّ، وسُعرٍ في الآخرةِ؛ أي: في نيرانٍ تَستعرُ بهم، وهي جمعُ سعيرٍ.

وقيلَ: أي: هم في الدُّنيا في ضلالٍ ونَصَبٍ(٢) وجنونٍ، والسُّعرُ: الجنونُ، وهو

= المفسرين، وفيه: «فما كان بأسرع من أن قتل ابن مسعود أبا جهل بسيف أبي جهل، وولوا منهزمين».
وروى البخاري (٤٨٧٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: «أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً»، فأخذ أبو بكر بيده وقال: حسبك يا رسول الله، فقد ألححت على ربك، وهو في الدرع، فخرج وهو يقول: «﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾».

وروى عبد الرزاق في «مصنفه» (٣٠٦٩)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ١٥٧)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٨٢٩)، عن عمر رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ﴾ جعلت أقول: أي جمع يهزم؟ فلما كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يثب في الدرع ويقول: «﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾».

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٢١) من رواية عطاء عن ابن عباس.

(٢) بعدها في (أ) كلمة غير واضحة، وإسقاطها لا يضر بالسياق.

جوابُ قولهم: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤]؛ أي: هم بإنكارِهم النُّبوَّةَ في السُّعرِ، لا بإقرارِهم بها.

وقيلَ: أي: هم في الآخرةِ ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾؛ أي: في ذهابٍ عن وجهِ النَّجاةِ وعن سبيلِ الجنَّة، ﴿و﴾في ﴿سُعرٍ﴾ من النِّيران.

قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾؛ أي: في سُعُرٍ يومَ يُسحبون، أو المعنى: السَّاعةُ أدهى وأمرُّ يومَ يُسحبون، أو: بل السَّاعةُ موعدُهم يومَ يُسحبون، أو: يُقال لهم: ﴿ذُوقُواْ﴾ يومَ يُسحبون.

والمرادُ بالوجهِ: جميعُ البدن، فذكَرَ أعزَّ الأعضاءِ، لا يُجرُّونَ على أقفيتِهم بل على وجوهِهم، وهو أبلغُ في الإهانةِ.

﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾؛ أي: يُقالُ لهم: ﴿ذُوقُواْ﴾، ومسُّها: ما يُوجَدُ من الألمِ عند الوقوعِ فيها.

و﴿سَقَرَ﴾ اسمٌ من أسماءِ جهنَّمَ، مُؤنَّثٌ لا ينصرفُ؛ لأنَّه اسمٌ مُؤنَّثٌ معرفةٌ، وكذلك ﴿لَظَىٰ﴾ [المعارج: ١٥] و﴿جهنَّم﴾.

وقالَ عطاءٌ: (سقرُ): الطَّبقُ السَّادسُ من جهنَّم(١).

وقالَ قطربٌ: (سقرُ) من سَقَرَته الشَّمسُ وصَقَرَته؛ أي: أحمتْه.

والصَّقَرُ: قُطارةُ الرُّطبِ، والصَّاقورُ: حديدةٌ تُحمى فيُكوى بها الحمارُ(٢).

* * *

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٢٣).

(٢) وفي «تهذيب اللغة» (٨/ ٢٨٣) عن أبي عمرو: «الصاقور: الفأس العظيمة التي لها رأس واحد دقيق تكسَّر به الحجارة، وهو المعول أيضًا».

(٤٩) - ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ قيل: أي: كلَّ شيءٍ خلقناه في سقرَ من أنواعِ عذابِها فهو على مقدارِ ما يستحقُّه المعذَّبُ.

وقيلَ: هو عامٌّ؛ أي: كلَّ شيءٍ خلقناه فهو بمقدارِ حاجةِ العبادِ إليه، ومقدارِ مصلحةِ الخلق.

وهذا تجدُه في تفاسيرِ المعتزلةِ، **والصَّحيحُ**: خلَقْنا كلَّ شيءٍ بالقَدَرِ الَّذي عَلِمْنا وأرَدْنا واختَرْنا؛ إذ كلُّ عاقلٍ يعلمُ أنَّ التَّخليدَ في النَّارِ يَزيدُ قدرُه على كُفرِ خمسين سنة، وإن قيل: كانَ في نيَّتِه أن يستديمَ الكفرَ إن بقي، فهذا عقابٌ على النِّيةِ لا على الفعلِ، فهو زائدٌ في القَدْرِ أيضاً.

وقد صحَّت الرِّوايةُ بأنَّ الآيةَ نزلَت في تكذيبِ الكفَّارِ بالقَدَر:

قال أبو هُريرةَ: جاءَ مشركو قريشٍ إلى النَّبيِّ عليه السَّلامُ يخاصمونَه في القَدرِ، فنزلَ: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[(١)].

وقالَ عطاءٌ: قالَ أسقفُّ نجرانَ: تزعمُ يا محمَّدُ أنَّ المعاصيَ بقَدَرٍ، والبحارَ بقَدَرٍ، والسَّماءَ بقَدَرٍ؟! وهذه الأمورُ تجري بقَدَرٍ، وأمَّا المعاصي فلا. فقالَ رسولُ اللهِ: «أنتم خُصماءُ الله»، وأنزلَ الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[(٢)].

وقرأ رسولُ اللهِ ﷺ مرَّةً هذه فقال: «أنزلَت هذهِ الآيةُ في ناسٍ من آخرِ هذه الأُمَّةِ يُكذِّبونَ بقَدرِ الله»[(٣)].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٦).

(٢) رواه الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٠١ - ٤٠٢).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٣٢١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٥٣١٦)، عن زرارة، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١١٧): «رواه الطبراني، وفيه من لم أعرفه».

وقالَ أبو أُمامةَ: أشهدُ باللهِ لسمعتُ رسولَ اللهِ عليه السَّلامُ يقولُ: «إنَّ هذه الآيةَ نزلَت في القدريَّةِ ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ﴾»[١].

ولعلَّ المثَلَ المعروفَ ذُكِرَ في هذا إذ قيل: «مع كفرِه قَدَريٌّ»[٢]، فالمشركون مع إشراكِهم نفَوا القَدَرَ عنِ اللهِ وأثبتوه لأنفسِهم.

قدمَ وفدُ نجرانَ على رسولِ اللهِ فقالوا: الأعمالُ إلينا والآجالُ بيدِ غيرِنا. فنزلَت هذه الآياتُ إلى قولِه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾، فقالوا: يا محمَّدُ، يَكتبُ علينا الذَّنبَ ويعذِّبنا؟ فقال: «أنتم خُصماءُ اللهِ يومَ القيامةِ»[٣].

ومعنى الآيةِ: كلُّ شيءٍ ما خلقناه فمُقدَّرٌ مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ؛ أي: معلومٌ مُقدَّرٌ مرادٌ محكومٌ به لدينا قبلَ وقوعِه.

وقيلَ: أي: لكلِّ شيءٍ وقتٌ، ولهذا لـم نُعاجِلْ هؤلاء بالعقوبةِ.

***

(٥٠) ـ ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ﴾؛ أي: قضائي فـي خَلقي أسـرعُ من لـمحِ

(١) رواه ابن عدي في «الكامل» (٧/ ٩٨)، ورواه الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٠١) مسلسلًا بقول: «أشهد بالله». وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٦٨٣) إلى ابن عدي وابن مردويه والديلمي وابن عساكر، وضعف إسناده.

(٢) يضرب لمن انضاف إلى عيبه عيب آخر. انظر: «الأمثال المولدة» لأبي بكر الخوارزمي (٧٨٦).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٢٥)، عن أبي ذر رضي الله عنه. ولم أقف عليه مسنداً.

العينِ؛ أي: إذا أردنا تكوينَ شيءٍ كوَّنّاه، فلو أردنا قيامَ السَّاعةِ الآنَ لقامَت كلمحِ البصرِ.

واللمحُ: النَّظرُ بالعَجَلةِ، يُقال: لمَحَ البرقَ ببصرِه.

***

(٥١) ـ ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ﴾؛ أي: أشباهَكم في الكفرِ من الأممِ الخاليةِ.

وقيلَ: أتباعَكم وأعوانكم.

وقيلَ: إنَّه أشارَ إلى بدرٍ. ولكنَّ السُّورةَ مكيَّةٌ، **فلا يَحسنُ هذا التَّأويلُ.**

***

(٥٢ ـ ٥٣) ـ ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾؛ أي: جميعُ ما فعلَته الأممُ قبلَهم كانَ مكتوباً عليهم، وهذا بيانُ قولِه: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾.

﴿ فِي الزُّبُرِ ﴾؛ أي: في اللَّوحِ المحفوظِ.

قولُه تعالى: ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ﴾؛ أي: من الخَلقِ والأعمالِ ﴿ مُّسْتَطَرٌ ﴾: مسطورٌ في اللَّوحِ المحفوظِ.

وقيلَ: مكتوبٌ على فاعليهِ قبلَ أن يَفعلوه؛ ليُجازَوا به.

***

(٥٤ ـ ٥٥) ـ ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ لمَّا وصفَ الكفَّارَ وصفَ المؤمنين أيضاً.

﴿وَنَهَرٍ﴾ يعني: أنهارَ الجنَّةِ من الماءِ والخمرِ والعسلِ واللَّبنِ، ووحَّدَ لأنَّه رأسُ الآيةِ، ثمَّ الواحدُ قد يُنبِئُ عن الجميع.

وقيلَ: ﴿وَنَهَرٍ﴾؛ أي: في ضياءٍ وسعةٍ، ومنه: النَّهارُ؛ لضيائِه، ومنه: أنهرتُ الجُرحَ.

قولُه تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾؛ أي: في مجلسِ حقٍّ، يُقال: رجلُ صدقٍ؛ أي: يَصْدُقُ واصفُه بالفضلِ.

﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾؛ أي: عندَ اللهِ، وهو عنده الكرامةُ.

* * *

سُورَةُ الرَّحْمَٰن

سورة الرَّحمنِ

بسمِ اللّه الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ لمَّا نزلَ قولُه: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] قالوا: وما الرَّحمن؟ قالَ اللهُ: الرَّحمنُ هو الَّذي علَّمَ القرآن(١)؛ أي: هو الَّذي أنزلَ الكتابَ على محمَّدٍ، ولم يذكرِ المعلِّمَ لأنَّه يُعلَمُ أنَّ التَّعليمَ لا بدَّ فيه من معلِّم؛ أي: علَّمَ محمَّداً القرآنَ، وعَلِمَه محمَّدٌ منه.

وقالَ الزَّجَّاجُ: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ أي: يسَّرَه لأن يُذكَرَ ويُقرأ(٢).

وقيلَ: أي: جعلَه علامةً لـمَا تَعبَّد النَّاس به.

* * *

(٣ ـ ٤) ـ ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ يعني: جنسَ النَّاس.

---

(١) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٤/ ١٩٥)، والسمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٣٧٨)، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ١٧٧)، وروى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٥١) عن عطاء: وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا: وما الرحمن ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٩٥).

وقالَ ابنُ عبَّاس: يعني: محمَّداً عليه السَّلام(١).

وقيلَ: أرادَ آدمَ [﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾]: علَّمَه الأسماءَ.

[وقال ابن كيسانَ في البيان: إنه بيانُ] ما كانَ ويكونُ، وهذا إذا حملْتَ الإنسانَ على محمَّدٍ ﷺ.

[وقال آخرونَ: الإنسانُ اسمٌ لجنسِ النَّاسِ جميعًا، ومعنى ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾]: النُّطقُ والتَّمييزُ والكتابةُ والخطُّ والفهمُ، وعلَّمَ كلَّ قومٍ لسانَهم الَّذي يتكلَّمون به(٢).

ويُقالُ: بانَ هذا عن هذا؛ أي: انفصلَ وتميَّزَ.

* * *

(٥) ـ ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾؛ أي: يجريانِ بحسابٍ معلومٍ لا يختلفُ جريُهما ولا يتقاربُ، ويدلَّان على عددِ الشُّهورِ والسِّنين، وخبرُ المبتدأِ ما دلَّ عليه بقولِه: ﴿بِحُسْبَانٍ﴾؛ أي: يجريانِ بحسابٍ.

وقيلَ: يعني بالحسبانِ: حسابَ أيَّامِ جَرْيِهما؛ أي: لهما حسابٌ وأجلٌ كأجلِ النَّاسِ، فإذا جاءَ أجلُهما هلَكَا.

* * *

(٦) ـ ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾.

قولُـه تعالـى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾؛ أي: كلُّ ما تُنبتُه الأرضُ فهو يسـجدُ

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٣٤) من رواية عطاء عن ابن عباس.

(٢) الكلام من «البسيط» (٢١/ ١٣٤) مع اختلاف يسير وبعض اختصار، وما بين معكوفتين منه.

لـه[١]، والشَّـجرُ: مـا لـه سـاقٌ، والنَّجـمُ: ما لا سـاقَ لـه مـن النَّبـاتِ، يُقـال: نَجَمَ؛ أي: طلَعَ.

وقيلَ: أرادَ نجمَ السَّماء؛ أي: جميعُ ذلك مسخَّرٌ للهِ، فلا تعبدوا النَّجمَ كما عبدَ قومُ الصَّابئين النُّجوم، وعبدَ كثيرٌ من العجمِ الشَّجرَ.

والسُّجودُ: الخضوعُ، والمعنيُّ به آثارُ الحدوثِ.

***

(٧ ـ ٩) ـ ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ فوقَ الأرضِ مسيرةَ خمسِ مئةِ عامٍ.

وقيلَ: ﴿رَفَعَهَا﴾؛ أي: أحوجَ الخلقَ إلى ما ينزلُ عليهم منها، فهو ارتفاعُ القَدْرِ والمرتبةِ، والذي ينزلُ من السَّماءِ المطرُ والوحيُ والملائكةُ والصَّواعقُ على الأعداءِ.

﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾؛ أي: وضـعَ فـي الأرضِ الشَّـيءَ الَّـذي تَعدلـون بـه فيمـا تُعطُـون وتَأخـذون، وهذا امتنـانٌ على الخلقِ بـأنْ هداهم لصنعةِ الميـزانِ وألهمَهم الـوزنَ به.

وقيلَ: ﴿ٱلْمِيزَانَ﴾: العدلُ؛ أي: وضعَ في الأرضِ العدلَ؛ أي: أمرَ به، يُقال: وضعَ اللهُ هذه الشَّريعةَ، ووضعَ فلانٌ كذا؛ أي: ألقاه[٢].

---

(١) في (أ): «فهي مسجدة له» والصواب المثبت.

(٢) في (أ): «ألفه» والمثبت من «تفسير القرطبي» (٢٠/ ١١٦).

وقيلَ: هذا الميزانُ: القرآنُ؛ لأنَّ فيه بيانَ ما يُحتاجُ إليه.

وقيلَ: أرادَ: وَضعَ الميزانَ في الآخرةِ لتُوزَنَ الأعمالُ.

قولُـه تعالـى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ قيـل: لأن لا تطغـوا، كقولِـه: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦].

وقيلَ: (أن) بمعنى: أي؛ أي: وضعَ الميزانَ أي لا تَطغوا، كقولِه: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾ [ص: ٦]؛ أي: وانطلقَ الملأُ منهم أي امشوا.

والطُّغيانُ: مجاوزةُ الحدِّ.

وقالَ ابنُ عبَّاس: أي: لا تخونوا مَن وزَنْتُم له(١).

وقيلَ: فيه إضمارٌ؛ أي: وضعَ الميزانَ وأمرَكم أن لا تطغَوا فيه.

قولُه: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: أقيموا لسانَ الميزانِ بالقسطِ.

وقيل(٢): ﴿وَأَقِيمُوا﴾؛ أي: افعلُوه مُستقيماً بالعدلِ.

وقيلَ: هو كقولِك: أقامَ الصَّلاة؛ أي: أتى بها في وقتِها، وأقامَ النَّاسُ أسواقَهم؛ أي: أتَوا بها لوقتِها؛ أي: لا تَدَعوا التَّعامُلَ بالوزنِ بالعدلِ.

﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾؛ أي: لا تَنْقُصُوا ما تتولَّون من الحقوقِ، ولا تزيدُوا فيما تستحقُّون(٣)، فيكونُ ذلك خُسراناً على مَن يعاملُكم، وهذا كقولِه: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾، وكرَّرَ الميزانَ لحالِ رؤوسِ الآي.

---

(١) ذكره بهذا اللفظ الواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٣٩)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ١٧٩) بلفظ: يا معشر الموالي إنكم وليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم، اتقى الله رجل عند ميزانه، اتقى الله رجل عند مكياله، فإنما يعدله شيء يسير ولا ينقصه ذلك بل يزيده الله إن شاء الله.

(٢) في (أ): «قوله تعالى» والصواب المثبت. انظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ١١٧).

(٣) في (أ): «تفسقون» والصواب المثبت. ولم أجد من ذكر نحو هذا.

وقيلَ: التَّكريرُ للأمرِ بإيفاءِ الوزنِ ورعايةِ العدلِ فيه.

ويُقال: أخسرْتَ الميزانَ وخَسَرْتَه.

* * *

(١٠ ـ ١٢) ـ ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾؛ أي: بسطَها على الماءِ، وثبَّتَها لـمنفعةِ الخلقِ، فهي لهم مهادٌ.

﴿لِلْأَنَامِ﴾؛ أي: للنَّاسِ.

وقالَ الحسن: للجنِّ والإنسِ[1].

وقيلَ: الأنامُ: ما على ظهرِ الأرضِ من جميعِ الحيوانات.

قولُه تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾؛ أي: ما يَتفكَّهُ به الإنسانُ من ألوانِ الثِّمار ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾؛ أي: وفي الأرضِ النَّخلُ، وأُفرِدَت النَّخلةُ بالذِّكرِ لِـمَا فيها من عجيبِ الخِلقة، فإنَّها تُشبهُ الإنسانَ في أشياءَ؛ فليفُها في رأسِها كشعرِ الإنسان، ولها قلبٌ كقلبِه إذا ماتَ ماتَت النَّخلة فلم تَنْمُ[2]، وإذا قُطِعَ رأسُها لـم يَنْبُتْ مكانه، ولا تُثمرُ إلَّا باللِّقاحِ كإناثِ الحيوان، وطلعُها أشبهُ الأشياءِ رائحةً برائحةِ المنيِّ.

﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ الكمُّ: ما سترَ شيئاً وغطَّاه، ومنه: كُمُّ القميص، والكُمَّةُ: القَلنسوةُ، وأكمامُ الزَّرعِ: غُلفُها، والمرادُ: ذاتُ الطَّلع، فإنَّ الطَّلعَ يستترُ بالأكمَّةِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ١٨٠).

(٢) انظر: «التيسير» لأبي حفص النسفي (١٤/ ١٨٥)، وفيه: «ولها قلب كقلب الإنسان يموت بإخراجه وبإصابة البرد إياه».

وقالَ اللَّيثُ: ﴿ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾؛ أي: ذاتُ اللِّيفِ، فإنَّ النَّخلةَ قد تتكمَّمُ باللِّيفِ[1].

وقالَ أيضاً: لكلِّ شجرةٍ كمٌّ، وهو برعومُه[2].

قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ﴾؛ أي: وفي الأرضِ الحبُّ، وهو القمحُ والشَّعير.

وقيلَ: أرادَ سائرَ الحبوبِ الَّتي تُخزَن.

والعصفُ: ما على حبِّ الحنطةِ ونحوِها من القشورِ، وما على ساقِ الزَّرعِ من الورقِ الَّذي ييبَسُ ويتفتَّتُ.

وقالَ الفرَّاءُ: العصفُ: بقلُ الزَّرعِ؛ أي: أوَّلُ ما يَنبتُ منه[3].

وقيلَ: العصفُ: التِّبن.

وقرأ ابنُ عامرٍ ﴿وَٱلۡحَبَّ ذَا ٱلۡعَصۡفِ﴾[4]؛ أي: والأرضَ وضعَها ـ أي: خلَقَها ـ وخلَقَ الحبَّ ذا العصفِ.

﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾؛ أي: وفيها الرَّيحانُ، وهو كلُّ بقلةٍ طيِّبةِ الرِّيحِ، سُمِّيَت ريحاناً لأنَّ الإنسان[5] يَراحُ لها رائحةً طيِّبة، فهو فَعلانٌ من الرَّائحةِ، وأصلُ الياءِ في الكلمةِ: واوٌ قُلِبَت للفرقِ بينه وبين الرُّوحان، وهو كلُّ شيءٍ له رُوحٌ.

---

(١) ذكره بهذا اللفظ القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١١٩) عن الحسن وزاد: وكمامها ليفها الذي في أعناقها.

(٢) انظر: «العين» (٥/ ٢٨٦)، و«البسيط» (٢١/ ١٤٢).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١١٣)، و«البسيط» للواحدي (٢١/ ١٤٣)، وعنه نقل المصنف.

(٤) بالنصب في الأسماء الثلاثة. انظر: «السبعة» (ص: ٦١٩)، و«التيسير» (٢٠٦)، وسيذكره المصنف قريباً.

(٥) في (أ): «لأن الريحان» والتصويب من «البسيط» (٢١/ ١٤٤).

قالَ ابنُ الأعرابيِّ: يُقال: شيءٌ رَيحانيٌّ ورُوحانيٌّ؛ أي: له رُوحٌ[١].

والأصلُ فيما يتركَّبُ من الرَّاءِ والواوِ والحاءِ: الاهتزازُ والحركة[٢]، فالرَّائحةُ فاعلةٌ من راحَت الرِّيحُ تَرُوحُ رَوْحاً ورَوَحاناً؛ أي: تحرَّكَت.

وقيلَ: الرَّيحانُ: الرِّزقُ، فإنَّ الإنسانَ يرتاحُ لإدراكِه وتقوَى به رُوحُه.

وقالَ أبو عُبيدةَ: الرَّيحانُ: الحبُّ الَّذي يُؤكَل، ويُقالُ في الدُّعاءِ: سبحانَكَ وريحانَك؛ أي: سبحانَكَ واسترزاقاً منك[٣].

والقراءةُ ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ بالرَّفعِ، ففي قولٍ هو المشمومُ، وفي قولٍ هو المطعومُ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿والرَّيحانِ﴾ بالخفض[٤]؛ أي: والحبُّ ذو العصفِ وذو الرَّيحانِ؛ أي: من الحبِّ العصفُ والتِّبن، ومن الحبِّ الرِّزقُ، فكأنَّه ذكرَ قوتَ النَّاسِ والأنعامِ، كما قال: ﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾، فالعصفُ رزقُ الأنعامِ، والرَّيحانُ يَعُمُّ الإنسانَ وغيرَ الإنسان.

وقيلَ: الحبُّ شاملٌ للأمرين، والرَّيحانُ يُطلَقُ عل قوتِ الآدميِّ.

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿والرَّيحانَ﴾ بالنَّصبِ، كما قرأ ﴿والحبَّ ذا العصفِ﴾[٥].

***

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٤٤).

(٢) انظر: «البسيط» (٢١/ ١٤٤) ونقله عن الزجاجي. وعند ابن فارس: الراء والواو والحاء أصل كبير مطرد يدل على سعة وفسحة واطراد. انظر: «مقاييس اللغة» (مادة: روح). ولا تعارض فلعل الشواهد تدل على كليهما.

(٣) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٢٤٣)، و«البسيط» للواحدي (٢١/ ١٤٥).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٦١٩)، و«التيسير» (٢٠٦).

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٦١٩)، و«التيسير» (٢٠٦).

(١٣) - ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قيل: هو خطابٌ للجنِّ والإنس، ويخرَّجُ هذا على أنَّ الأنامَ: الجنُّ والإنسُ، وقد جرى ذكرهما أيضاً قال: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] فهو خطابٌ للجنِّ والإنس، وقد قالَ في هذه السُّورةِ أيضاً: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وقد قالَ الجرجانيُّ: خاطبَ الجنَّ مع الإنسِ وإن لـم يتقدَّم للجنِّ ذكرٌ، وقد يُكنَى عن الشَّيء وإن لـم يَجرِ له ذِكرٌ، كقولِه: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢][1].

وقيلَ: سبقَ ذكرُ الجنِّ فيما سبقَ نزولُه من القرآنِ، والقرآنُ كالسُّورةِ الواحدةِ، فإذا ثبتَ أنَّهم مكلَّفون كالإنسِ خُوطبَ الجنسانِ بهذه الآيات.

وقيلَ: هذا على عادةِ العربِ في قولِهم:

قِـفـا نبـكِ... ....

خـلـيـلـيَّ... ....

فهو إذاً خطابٌ للمُكلَّفِ أو للإنسانِ الَّذي جرى ذكرُه في أوَّلِ السُّورة، والمعنى: هذه النِّعمُ الَّتي عدَدْنا مُعايَنةٌ لا يمكنُ جحدُها فبأيِّها تكفرُ وتُكذِّبُ؟!

والتَّكريـرُ للتَّأكيـدِ والمبالغـةِ فـي التَّقريـرِ، وهـو كقولِـك: أمَـا أحسـنتُ إليك فـي وقـتِ كـذا أفتُنكِـرُ هـذا؟ ألـم أكرمـكَ بهـذا أفتُنكِرُ هـذا؟ ألـم أحملْـكَ وأنت راجِـلٌ أفتُنكِـرُ هذا؟

***

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٤٩).

(١٤ ـ ١٦) ـ ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ﴾؛ أي: من طينٍ قد يبسَ، فله مِن يَبسِه صلصلةٌ إذا نُقِرَ وحُرِّكَ، والصَّلصلةُ: الصَّوتُ، وهو الطِّينُ اليابسُ الَّذي لم يُطبَخ، شبَّهَهُ بالفخَّارِ الَّذي طُبِخَ.

وقيلَ: هو طينٌ خُلطَ برملٍ.

وقيلَ: الطِّينُ المنتِنُ، من صَلَّ اللَّحمُ وأصَلَّ؛ أي: أَنتنَ، وأصلُه: صَلَلَ، ثمَّ ضُعِّفَ، وقيلَ: صَلْصَلَ، كما يُقال: كَفْكَفَ في كفَفَ، وصَرْصَرَ من صررَ.

والإنسانُ هاهنا: آدمُ.

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾؛ أي: من خالصٍ من النَّارِ.

وقالَ اللَّيثُ: المارجُ: الشُّعلةُ السّاطعةُ ذاتُ اللَّهبِ الشَّديد(١).

وقيلَ: نارٌ لا دخانَ لها، ومنها تكونُ الصَّواعقُ.

وقالَ ابنُ عبَّاس: اللَّهبُ الَّذي يعلو النّارَ فينخلِطُ بعضُه ببعضٍ؛ أحمرُ وأصفرُ وأخضر(٢).

---

(١) انظر: «العين» (٦/ ١٢١)، وذكره عن الليث: الأزهري في «تهذيب اللغة» (١١/ ٥١)، والواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٥٢).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٥٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن مقاتل وعكرمة ومجاهد، ورواه عن مجاهد الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ١٩٦) بلفظ: «اللهب الأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا أوقدت»، وزاد في رواية: «والأحمر». وعلقه البخاري عن مجاهد قبل حديث (٤٨٧٨). =

والمارجُ في اللُّغةِ: المرسَلُ أو المختلطُ، وهو فاعلٌ بمعنى: مفعولٍ [كقولِه][1]: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] و﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]، والمعنى: ذو مَرْجٍ.

قولُه تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وإن لم يكنْ إلهٌ كذبت، فاستدِلَّ بذلك على قدرتِه على الإحياءِ بعدَ الموت.

وواحدُ الآلاءِ: (إِلًى) مثلُ: (مِعًى)، و: (ألاً) مثل: (عصاً).

***

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾؛ أي: هو ربُّ المشرقين.

***

(١٩ ـ ٢١) ـ ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾؛ أي: خلَّى وأرسلَ، يُقال: مرجَ السُّلطانُ النَّاسَ؛ أي: أهمَلَهم، والمعنى: خلَّى البحرين ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾؛ أي: مُلتقيين؛ أي: لم يختلطِ المِلْحُ بالعذبِ، فمَن قدرَ على هذا قدرَ على البعثِ.

قولُه تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ البغيُ: التماسُ الغلبةِ والفضلِ.

= وروى الطبري في «تفسيره» (١/ ٥٣٥) و(١٥/ ٢٨٦) و(٢٢/ ١٩٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما: «...وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت»، وفي رواية: «من أوسطها وأحسنها»، وفي أخرى: «خلقه من لهب النار من أحسن النار».

(١) زيادة يقتضيها السياق.

ثمَّ؛ قيل: ﴿لَّا يَبۡغِيَانِ﴾ بأن يختلط أحدهما [بالآخر][1] لحاجزٍ من قدرةِ اللهِ؛ أي: بسببِ هذا الحاجزِ لا يختلطانِ.

قالَ الحسنُ وقتادةُ: يريدُ بالبحرينِ: بحرَ فارسَ والرُّوم، ﴿بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ﴾؛ أي: الأرضُ الَّتي بينهما، وهي الحجارةُ، ﴿لَّا يَبۡغِيَانِ﴾؛ أي: لا يأتيان على النَّاسِ بالغرقِ[2].

وقيلَ: البرزخُ: ما بينَ الدُّنيا والآخرة؛ أي: بينهما مُدَّةٌ قدَّرَها الله، وهي مُدَّةُ الدُّنيا ﴿لَّا يَبۡغِيَانِ﴾، فإذا أذِنَ اللهُ في انقضاءِ الدُّنيا صارَ البحرانِ شيئاً واحداً، وهو كقولِه: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾ [الانفطار: ٣].

* * *

(٢٢ ـ ٢٣) ـ ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ۝٢٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يُخرَجُ منهما اللُّؤلؤُ والمَرْجَانُ﴾؛ أي: يُخرَجُ لكم من الماءِ اللُّؤلؤُ والمرجانُ، كما يُخرَجُ من التُّرابِ الحبُّ والعصفُ والرَّيحان، وكما خُلقَ من الصَّلصالِ الإنسانُ، ومن النّارِ الجانُّ.

وقُرِئَ: ﴿يَخۡرُجُ﴾ بفتحِ الياءِ[3].

وقال: ﴿مِنۡهُمَا﴾ وإنَّما يخرجُ من المِلح؛ لأنَّ العربَ تجمعُ الجنسين ثمَّ تُخبرُ

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) رواه عنهما عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٠٨٣)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٢٠٠)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٠٨) عن الحسن.

(٣) قرأ نافع وأبو عمرو بضم الياء وفتح الراء على ما لم يُسَمَّ فاعِلُه، والباقون على الفعل الظاهر. انظر: «السبعة» (ص: ٦١٩)، و«التيسير» (ص: ٢٠٦).

عن أحدِهما، كقولِه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وإنَّما الرُّسلُ من الإنسِ.

وقالَ الزَّجَّاجُ: قد ذكرَهما الله، فإذا خرجَ من أحدِهما شيءٌ فقد خرجَ منهما، وهو كقولِه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٥ ـ ١٦]، والقمرُ في سماءِ الدُّنيا، ولكن أجملَ ذكرَ السَّبعِ، فكانَ ما في إحداهنَّ فيهنَّ[١].

وقالَ الأخفشُ: زعمَ قومٌ أنَّه يَخرجُ اللُّؤلؤُ من العَذبِ أيضاً[٢].

وقالَ أبو عليٍّ: هذا من بابِ حذفِ المضافِ؛ أي: من أحدِهما، كقولِه: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ [الزخرف: ٣١][٣]؛ أي: من إحدى القريتين.

واللُّؤلؤُ: العِظامُ، والمرجانُ: ما صَغُرَ من اللُّؤلؤ.

وقالَ مقاتلٌ: اللُّؤلؤُ: الصِّغارُ، والمرجانُ: [العِظامُ][٤].

[وقيلَ: إنَّ اللُّؤلؤَ لا][٥] يخرجُ إلا مِن موضعٍ يلتقي فيه الماءان.

* * *

(٢٤ ـ ٢٥) ـ ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٢٤ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ﴾؛ أي: السُّفنُ، والقراءةُ الظَّاهرةُ: ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٠٠).

(٢) ذكره أبو علي الفارسي في «الحجة» (٦/ ٢٤٧)، والواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٥٥).

(٣) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٦/ ٢٤٧).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٩٨)، «البسيط» (٢١/ ١٥٥)، وما بين معكوفتين منهما.

(٥) ما بين معكوفتين من «تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣٠).

﴿ٱلْبَحْرِ﴾ بالفتحِ، وقُرِئَ بالكسرِ[1]؛ أي: المنْشِئاتُ السَّيرَ، أُضيفَ إليها الفعلُ على التَّجوُّزِ.

والجواري: جمعُ جاريةٍ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، والمُنشَآتُ: المرفوعاتُ؛ أي: رُفِعَ خشبُها بعضُها على بعضٍ حتى ارتفعَت. وقيلَ: المُجرَياتُ.

﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي: كالجبالِ، والعَلَمُ: الجبلُ الطَّويل، فالسُّفنُ في البحرِ كالجبالِ في البرِّ.

وقيلَ: أي: قلوعُ[2] السَّفينةِ إذا رُفِعَت كانَت كأنَّها الجبالُ.

وقيلَ: معنى ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾: أنَّها رُفِعَت شُروعُها.

***

(٢٦ ـ ٢٨) ـ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ثمَّ بيَّنَ أنَّه يُفني الخلقَ ثمَّ يجمعُهم للحسابِ، وقد جرى ذكرُ الأرضِ في قولِه: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾، فلهذا قال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على الأرضِ، وقد يُقالُ: هوَ أكرمُ مَن عليها.

﴿فَانٍ﴾؛ أي: تنقطعُ عنهم الحياةُ.

قالَ مقاتلٌ: لمَّا نزلَت هذهِ الآيةُ قالَت الملائكةُ: هلكَ أهلُ الأرضِ، فلمَّا نزلَ

---

(١) قرأ حمزةُ وعاصمٌ في رواية أبي بكرٍ بخلاف عنه بكسر الشين، والباقون بفتح الشين. انظر: «السبعة» (ص: ٦١٩)، و«التيسير» (ص: ٢٠٦).

(٢) جمع قِلْع، وهو شراع السفينة. انظر: «اللسان» (مادة: قلع).

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] أيقنَتِ الملائكةُ أيضاً بالهلاكِ(١).

ووجهُ النِّعمةِ في فناءِ الخَلقِ: التَّسويةُ بينهم في الموتِ، ومعَ الموتِ تستوي الأقدامُ.

وقيلَ: وجهُ النِّعمةِ: أنَّ الموتَ سببُ النَّقلِ إلى دارِ الجزاءِ والثَّواب.

قولُه تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ قالَ قومٌ: هو صفةٌ زائدةٌ على الذَّاتِ لا تُكيَّفُ، يحصلُ بها الإقبالُ على مَن أرادَ الرَّبُّ تخصيصَه بالإكرام.

والصَّحيحُ أن يُقالَ: وجهُه: وجودُه وذاتُه، يُقال: هذا وجهُ الأمرِ، ووجهُ الصَّوابِ، وعينُ الصَّواب.

وقيلَ: أي: يَبقى ربُّك الظَّاهرُ بأدلَّتِه كظهورِ الإنسانِ بوجهِه.

وقيلَ: وتبقى الجهةُ الَّتي يُتقرَّبُ بها إلى اللهِ.

﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ الجلالُ: عظمةُ اللهِ وكبرياؤُه واستحقاقُه صفاتِ المدحِ، يُقال: جلَّ الشَّيءُ؛ أي: عظُمَ، وأجلَلْتُه؛ أي: أعظمتُه، و(الجلالُ) اسمٌ من (جلَّ).

﴿وَالْإِكْرَامِ﴾؛ أي: هو أهلٌ لأن يُنزَّهَ ويُكرَمَ عمَّا لا يليقُ به من الشِّركِ، [كما تقولُ](٢): أنا أكرمُكَ عن كذا.

وقيلَ: أي: منه إكرامُ الأنبياءِ والأولياءِ.

***

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٩٨)، وذكره أبو الليث السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٢٩٦) عن الكلبي، وذكره أبو حفص النسفي في «التيسير» (٤/ ٣٨٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٢٩ ـ ٣٠) ـ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ۝٢٩ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يسألونَه الرَّحمةَ والرِّزقَ.

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ هذا كلامٌ مبتدأ، وانتصبَ ﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ ظرفاً لقولِه: ﴿فِى شَأْنٍ﴾، أو ظرفاً للسُّؤال، ثمَّ يُبتدَأُ ﴿هُوَ فِى شَأْنٍ﴾.

ثمَّ؛ قيل: من شأنِه أنَّه يُحيي ويُميتُ، ويُعزُّ ويُذلُّ، ويرزقُ ويمنعُ، وقيلَ للنَّبيِّ ﷺ: ما ذلك الشَّأنُ؟ فقال: «يغفرُ ذنباً، ويُفرِّجُ كرباً، ويرفعُ قوماً، ويضعُ آخرين»[(١)].

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٣١٦)، والبزار (٢٢٦٦ ـ كشف)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٢١٤)، والطبراني في «الأوسط» (٦٦١٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٤٨١)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٣٢٧)، من حديث عبد الله الأزدي رضي الله عنه. وفي سنده عمرو بن بكر السكسكي وهو متروك كما في «التقريب».

وله شاهد رواه ابن ماجه (٢٠٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٠١)، والبزار في «مسنده» (٤١٠٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٨٩)، والطبراني في «الأوسط» (٣١٤٠)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٤٧٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٥٢)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٢٢١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٢٩)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً.

وعلقه البخاري قبل الحديث (٤٨٧٨) بصيغة الجزم موقوفا عليه. وقال الدارقطني في «العلل» (٦/ ٢٢٩): والموقوف هو الصواب.

وللمرفوع شاهد آخر، رواه البزار (٢٢٦٨ ـ كشف) عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ قال: «يغفرُ ذنبًا ويكشف كربًا»، وفي سنده محمد بن عبد الرحمن بن البيلماني، قال في «التقريب»: ضعيف، وقد اتهمه ابن عدي وابن حبان.

وانظر الكلام على الحديث وطرقه في «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٣/ ٣٩٨)، و«مصباح الزجاجة» للبوصيري (١/ ٢٧ ـ ٢٨)، و«تغليق التعليق» لابن حجر (٤/ ٣٣٢).

والشَّأن في اللُّغةِ: الخَطْبُ العظيمُ، والجمعُ: الشُّؤون، والمرادُ بالشَّأن هاهنا: الجمعُ، كقولِه: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧].

وقالَ البَجَليُّ: شأنُه سَوْقُ المقاديرِ إلى المواقيتِ(١).

***

(٣١ - ٣٢) - ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ سنقصدُ لحسابِكم(٢)؛ إذ الرَّبُّ تعالى لا يشغلُه شأنٌ عن شأنٍ، وقد يقولُ الرَّجلُ لغيرِه: قد فرغْتَ لشتمي؛ أي: أخذْتَ فيه وأقبلْتَ عليه.

وقيلَ: سنقصدُ لحسابِكم قَصْدَ مَن يتفرَّغُ للعملِ لتجويدِه، فهو مبالغةٌ في الوعيدِ.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿سيَفرُغُ لكم﴾ بالياء؛ أي: سيَفْرُغُ لكم ربُّكم؛ لتقدُّمِ قولِه: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ﴾، وقولِه: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، وقرأ الباقون ﴿سَنَفْرُغُ﴾ بالنُّونِ(٣).

﴿أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ يعني: الجنَّ والإنسَ، وقيلَ لهما: الثَّقلان؛ لعظمِ شأنِهما بالإضافةِ إلى ما في الأرضِ من غيرِهما [بسببِ](٤) التَّكليفِ، وكلُّ شيءٍ مَصونٍ

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٣٢٩)، والواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٦٤).

(٢) في (أ): «ليقصد لحسابكم»، والتصويب من «البسيط» (٢١/ ١٦٥)، وفي «تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣٦): «سنقصد لمجازاتكم أو محاسبتكم».

(٣) قراءة حمزة والكسائي، والباقون بالنون. انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٠)، و«التيسير» (ص: ٢٠٦).

(٤) من «تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣٨).

فهو عند العربِ ثَقَلٌ، وأصلُه: بيضُ النَّعامِ المصونُ، وفي الخبرِ: «إنِّي تاركٌ فيكمُ الثَّقلَينِ: كتابَ اللهِ وعِترَتي»[1]، وإنَّما ذلك لفضلِهما وشرفِهما.

وقيلَ: سُمِّيَ الإنسُ والجنُّ الثَّقلينِ لثقلِهما على الأرضِ أحياءً وأمواتاً، كقولِه: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢]، فسمَّى الأمواتَ أثقالاً.

وقالَ جعفرٌ الصَّادق: سُمِّيا ثقلينِ لأنَّهما مُثقَلانِ بالذُّنوبِ[2].

وقال: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ فجَمعَ ثمَّ قال: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ لأنَّهما فريقان، وكلُّ فريقٍ جمعٌ، ويجوزُ أن يُخبرَ عنهما مرَّةً على اللَّفظِ ومرَّةً على المعنى، وقال: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ ثمَّ قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وهو كقولِه: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟﴾ [الحج: ١٩]، وقولِه: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥]، ولو قال: «سنفرغُ لكما»، وقال: «إن استطعتما» لجاز.

* * *

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ١٩٤)، والإمام أحمد في «المسند» (١١١٠٤)، وابنُ أبي عاصم في «السنة» (١٥٥٤)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٠٢٧)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وإسناده ضعيف لضعف عطية العوفي الراوي عن أبي سعيد. وله شاهد من حديث زيد بن أرقم عند مسلم (٢٤٠٨)، والنسائي (٨١٧٥)، بلفظ: «وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما كتابُ الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به»، فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: «وأهلُ بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»، وفيه التصريح بأن المراد من قوله ﷺ: «وعترتي» هو وجوب مراعاتهم ومحبتهم، واجتناب ما يسوؤهم، والاحتراز عما يؤذيهم، وأما ما ورد مما يفهم منه وجوب الاقتداء بهم، والأخذ بأقوالهم والعمل بها، مثل قوله: «لن تضلوا بعدهما»، أو: «لن تضلوا إن اتبعتموهما»، فأسانيده ضعيفة لا يصلح الاحتجاج بها كما جاء في حاشية «المسند».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٣٣٥)، والواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٦٨).

(٣٣ ـ ٣٤) ـ ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ ﴾ يُقال: نفذَ الشَّيءُ من الشَّيءِ؛ أي: خلصَ منه كالسَّهمِ ينفذُ من الرَّميّةِ نُفوذاً ونَفاذاً، ويُقال: لهذا الطَّريقِ نَفَذٌ إلى مكانِ كذا وكذا؛ أي: مَخرجٌ.

﴿مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: من جوانبِها، والواحدُ: قُطرٌ؛ أي: لا يقدرُ أحدٌ أن يهربَ من المحاسبةِ.

﴿إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾؛ أي: بقدرةٍ يعطيها اللهُ إيَّاه[1]، ولا يعطيكم ذلك يومَ القيامةِ؛ أي: لا مخلصَ لأحدٍ عن حُكمِه.

وقيلَ: لا مهربَ منَ الموتِ.

وقيلَ: أي: ﴿فَٱنفُذُواْ﴾؛ فإنَّكم لا تنفذونَ إلا وأنتم في سلطانِ اللهِ حيثُ كنتم.

و[في][2] الأثر: أنَّ اللهَ يأمرُ الملائكةَ يومَ القيامةِ فتحفُّ بأطرافِ السَّماواتِ والأرضِ، وتُحضَرُ جهنَّمُ، فتسمعُ الجنُّ والإنسُ زفيرَها، فيَنِدُّون، فيُقالُ لهم: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ الآيةَ، فلا يستطيعُ سلطانٌ ولا إنسٌ ولا جنٌّ أن يخرجَ من أقطارِها[3].

وقولُه: ﴿فَٱنفُذُواْ﴾ أمرُ تعجيزٍ.

* * *

(١) «إياه» كذا في (أ)، ولعل الصواب: «إياكم»، ولو حذفت أيضاً لكان لذلك وجه.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٦٩)، وفيه: «...فلا يستطيع شيطان ولا إنس...».

(٣٥ ـ ٣٦) ـ ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾؛ أي: لو خرجتُم أُرسِلَ عليكما شواظٌ من نارٍ وأخذَكم العذابُ المانعُ من النُّفوذ، والمعنى: لا تنفذوا لأنَّه لا سلطانَ لكم، ولو جازَ النُّفوذُ وتُوهِّمَ لأخذكم العذابُ.

وقيلَ: ليس هذا متعلِّقاً بالنُّفوذِ، بل أخبرَ أنَّه تُعاقَبُ العصاةُ غداً بالنَّارِ.

وقيلَ: أي: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ عقوبةً على ذلك التَّكذيبِ.

وقيلَ: [يحاطُ][(١)] على الخلق بالملائكة وبلسان من نار، ثمَّ ينادَون: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ الآية، فتلك النّارُ قولُه: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾.

والشُّواظُ: النّارُ الَّتي تتأجَّجُ ولا دخانَ لها، وقُرِئَ: ﴿شِواظ﴾ بكسرِ الشِّينِ[(٢)]، وهما لغتان، مثل صُوارٍ وصِوارٍ لقطيعِ البقرِ.

﴿وَنُحَاسٌ﴾؛ أي: يُرسَلُ عليكما نحاسٌ.

قال أبو عُبيدةَ: هو الدُّخانُ[(٣)].

وقالَ الخليلُ: هو الدُّخانُ الَّذي لا لهبَ فيه[(٤)].

---

(١) من «تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٤٠).

(٢) هي قراءة ابن كثير. انظر: «السبعة» (ص: ٦٢١)، و«التيسير» (ص: ٢٠٦).

(٣) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٢٤٤).

(٤) انظر: «العين» (٣/ ١٤٤).

وقالَ مجاهدٌ وقتادةُ: النُّحاسُ: الصُّفرُ المذابُ يُصبُّ على رؤوسِهم(١).

أي: يُرسلُ شواظٌ مرَّةً ونحاسٌ مرَّةً.

وقيلَ: النُّحاسُ دُرْدِيُّ الزَّيت.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو: ﴿شوَاظٌ من نارٍ ونحاسٍ﴾ بالكسر(٢)؛ أي: شواظٌ من نارٍ وشيءٌ من نحاسٍ، فحُذفَ الموصوفُ وحُذفَ الجارُّ أيضاً.

﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾؛ أي: فلا ناصرَ لكم من الله.

* * *

(٣٧ ـ ٣٨) ـ ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ٣٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾: انصدعَت يومَ القيامةِ ﴿فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ﴾؛ أي: تذوبُ من الانشقاقِ حتَّى تصيرَ حمراءَ من حرارةِ نارِ جهنَّمَ، وتصيرَ مثلَ الدُّهنِ لرقَّتِها وذوبانها؛ أي: فانظروا ما يكونُ حالُكم يومئذٍ؟ وهل تقومُ أجسادُكم لهذه النّارِ الَّتي تُذيبُ السَّماءَ مع عِظَمِ جِرمِها، وفي الآثارِ: أنَّ السَّماءَ الدُّنيا من حديدٍ(٣).

---

(١) ذكره عنهما الواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٧٢)، وعلقه البخاري قبل حديث (٤٨٧٨) عن مجاهد، ووصله هناد بن السري في «الزهد» (٢٧١)، وابن أبي الدنيا في «صفة النار» (١٣٠)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٢٢٥)، ورواه بمعناه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٢٢٥) عن قتادة، ولفظه: «توعدهما بالصفر ـ كما تسمعون ـ أن يعذبهما به».

(٢) أي: بجر النحاس. انظر: «السبعة» (ص: ٦٢١)، و«التيسير» (ص: ٢٠٦). وتقدم عن ابن كثير كسر الشين.

(٣) لم أجده هكذا، وروى الثعلبي في «تفسيره» (٢٧/ ٩٨ ـ ٩٩) عن بريدة وكعب قالا: «سماء الدنيا موج مكفوف، والثانية: مرمرة بيضاء، والثالثة: حديد، والرابعة: صفر...» الخبر. وفيه المسيب بن =

ومعنى الوردةِ: الحمراءُ؛ أي: حين تحمرُّ.

وقيلَ: أرادَ: كالفرسِ الوَرْد[١]، يكون في الربيعِ وردةً إلى الصُّفرةِ، فإذا اشتدَّ البردُ كانَت حمراء، فإذا كانَ بعد ذلك كانَت وردةً إلى الغُبرةِ.

وقالَ الزَّجَّاجي[٢]: أصلُ الواوِ والرَّاءِ والدَّالِ: المجيءُ والإتيان، يُقال: وردْتُ أرِدُ وُروداً، وسُمِّيَ الأسدُ: الوردَ؛ لجُرأتِه وتورُّدِه على فريستِه[٣].

وقيلَ للنور المصروف: وردٌ؛ تشبيهاً لون[٤] الحُمرة أو الصُّفرة، ويُقال: ورَّدَ فلانٌ لونَه؛ أي: أوردَ عليه لوناً غيرَ اللَّونِ الأصليِّ.

﴿كَالدِّهَانِ﴾؛ أي: جمع دُهنٍ، شبَّهَ السَّماءَ في الذَّوبانِ بالدُّهنِ.

وقيلَ: بالفرسِ الَّتي تتلوَّنُ ألواناً، ثمَّ شبَّهَ الفرسَ بالدِّهانِ في اختلافِ ألوانِها.

وقيلَ: الدِّهانُ: الأديمُ الأحمرُ الصِّرفُ، ذكره أبو عُبيدةَ والفرَّاءُ[٥]؛ أي: تصيرُ السَّماءُ حمراءَ كالأديمِ الأحمرِ لشدَّةِ حرِّ النّار.

= شريك وهو متروك.

ورواه مقاتل في «تفسيره» (٤/ ٦٩٣) عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباسٍ مرفوعاً: «خَلق اللهُ السماء الدنيا من ماء حرج مكفوفٍ، والثانيةَ من حديدٍ، والثالثةَ من فضةٍ...» الحديث، ومقاتل متروك.

(١) في (أ): «أراد الفرس الوردة»، والمثبت مما رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٢٢٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما وكذا ذكره مكي في «الهداية» (١١/ ٧٢٢٩)، والقرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٤٤)، وابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية.

(٢) في (أ): «الزجاج»، والمثبت من «البسيط» (٢١/ ١٧٤)، وفيه: «أبو القاسم الزجاجي».

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٧٤) عن أبي القاسم الزجاجي.

(٤) كذا في (أ)، ولعل الصواب: «بلون».

(٥) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١١٧)، و«البسيط» (٢١/ ١٧٧).

وقالَ الحسنُ: ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾؛ أي: كصَبِّ الدُّهنِ، فإنَّك إذا صببتَه رأيتَ فيه ألواناً[1].

وهذا يقرُبُ ممَّا قدَّمنا من أنَّ المهيرةَ الوردةَ تتغيَّرُ ألوانُها.

* * *

(٣٩ ـ ٤٠) ـ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾؛ أي: لا يُسأَلُ: أيَعرِفُ هو من أهلِ الجنَّةِ أو النَّارِ؟ لأنَّهم يومئذٍ يُعرَفون بسيماهم، ولكنَّهم يُسألون سؤالَ المحاسبة.

وقالَ ابنُ عبَّاس: لا يسألُهم: هل عمِلْتم كذا وكذا؟ لأنَّه أعلمُ بذلك منهم، ولكن يقولُ: لـمَ عمِلْتُم كذا[2]؟ كما قال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]؛ أي: نسألُهم عمَّا عملوا.

وقيلَ: إنَّهم يُسألون للمحاسبةِ؛ فيُسألون في موقفٍ، ولا يُسألون في موقف.

وقيلَ: أي: فيومئذٍ لا يُسأَلُ عن ذنبِ المرءِ غيرُه من الإنسِ والجانِّ، بل هو المؤاخَذُ بجُرمِ نفسِه، فترجعُ الكنايةُ في ﴿ذَنۢبِهِۦٓ﴾ إلى الإنسانِ المذكور في قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ﴾ [الرحمن: ١٤]، وقولِه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣ ـ ٤].

---

(١) رواه ابن المبارك كما في ملحق «الزهد» (ص: ١٠١) عن الحسن بلفظ: «تكون ألوانًا»، وذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٧٦) بلفظ: تلون الواناً.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٤١).

و[الإنسانُ: واحدُ][(١)] الإنسِ، والجانُّ: واحدُ الجنِّ.

***

(٤١ ـ ٤٢) ـ ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قولُـه تعالـى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾؛ أي: بسـوادِ الوجـوهِ وزُرقـةِ العيـونِ، ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾؛ أي: يأخـذُ الملائكـةُ بنواصيهـم وأقدامِهـم، فيقذفونهـم فـي النّارِ.

***

(٤٣ ـ ٤٥) ـ ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: يُقالُ لهم: هذه هي النّارُ الّذي أُخبرتم بها وكذَّبتم، ولـمَّا بيَّنَ أنّه يُؤخذُ بنواصيهم وأقدامِهم فُهِمَ منه أنّهم يُقذفون في النّارِ.

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾؛ أي: بلـغَ إنـاهُ في شـدَّةِ الحـرِّ، وكلُّ مُـدركٍ آنٍ[(٢)]، مِـن أنَـى يأنِـي فهـو آنٍ؛ أي: انتهـى فـي النُّضـجِ، ﴿مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥]؛ أي: حـارَّة، والمعنـى: يسـعَون بينَ عـذابِ الجحيمِ وبينَ الحميـمِ، فإذا اسـتغاثوا يُغاثوا بمـاءٍ كالمهلِ.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٥)، وعنه الواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٨٠). زاد أبو عبيدة: وفي آية أخرى: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣]؛ أي: إدراكه، قال نابغة بني ذبيان:

وتخضـب لحيـةً غـدرتْ وخانتْ ... بـأحـمر مـن نجيـع الجـوف آن

أي: مدرك.

والحميمُ: الماءُ الحارُّ، ومنه الحمَّام.

وذكرُ الآلاءِ عقيبَ ذكرِ العقوباتِ يعني: أنَّ بمعرفتِهما ينزجرُ المرءُ عن الذُّنوبِ.

* * *

(٤٦ ـ ٤٧) ـ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ ذكرَ أحوالَ أهلِ النّارِ، ثمَّ ذكرَ ما أعدَّ للأبرار.

﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ قيل: إنَّه مصدرٌ، فهو بمعنى: القيام؛ أي: خافَ قيامَه لربِّه غداً في موقفِ الحسابِ، أو: خافَ قيامَ ربِّه عليه؛ أي: إشرافَه واطِّلاعَه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

وقيلَ: المقامُ: الموضعُ؛ أي: خافَ مقامَه بينَ يدي ربِّه للحسابِ، ويجوزُ أن يكونَ المقامُ للعبدِ ثمَّ يُضافُ إلى الله، وهو كالأجَلِ في قولِه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وقولِه في موضعٍ آخر: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤].

﴿جَنَّتَانِ﴾؛ أي: لمَن خافَ جنَّتانِ على حِدَةٍ، فلكلِّ خائفٍ جنَّتان.

وقيلَ: جنَّتانِ لجميعِ الخائفين؛ قالَ مقاتلٌ: يعني: جنّةَ عدنٍ وجنّةَ النَّعيمِ(١).

وفي الخبرِ: «هما بستانانِ في رياضِ الجنَّةِ»(٢).

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢٠٢).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٨٢)، وروى نحوه الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٣٥٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «أتدرون ما هاتان الجنتان؟» قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: «هما بستانان في بساتين، قرارهما لابت، وفروعهما ثابت وشجرهما نابت». =

وقالَ الفرَّاءُ: إنَّما هي جنَّةٌ واحدةٌ فثنَّى لرؤوسِ الآي[١].

وأنكرَ القتيبيُّ هـذا، وقال: لا يجوزُ أن يُقال: خزنةُ النّارِ عشرون، وإنَّما قال: ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ لمراعاةِ رؤوسِ الآي، وأيضاً قال: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٨][٢].

* * *

(٤٨ ـ ٤٩) ـ ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾؛ أي: أغصان، والواحدُ فَنَنٌ، وهو الغصنُ المستقيمُ طولاً.

وقيلَ: الأفنانُ: الألوانُ، والواحدُ: فنٌّ، وهو الضَّربُ من كلِّ شيءٍ.

* * *

(٥٠ ـ ٥١) ـ ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾؛ أي: في كلِّ واحدةٍ منهما عينٌ جاريةٌ، قالَ ابنُ

= وروى ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٧/ ٧٠٨) عن عياض بن تميم أنه سمع رسول الله ﷺ تلا ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ قال: «بستانان عرض كل واحد منهما مسيرة مئة عام، فيهما أشجار، وفرعهما ثابت، وشجرهما ثابت، وعرصتهما عظيمة، ونعيمهما عظيم، وخيرهما دائم ولذتهما قائمة، وأنهارهما جارية، وريحهما طيب، وبركتهما كثيرة، وحياتهما طويلة، وفاكهتما كثيرة».

وروى مقاتل في «تفسيره» (٤/ ٢٠٢) عن عطاء عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «هل تدرون ما الجنتان؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هما بستانان في ريض [كذا، ولعلها: ربض أو رياض] الجنة كل واحد منهما مسيرة خمس مئة عام، في وسط كل بستان دار في دار من نور على نور، ليس منهما بستان إلا يهتز بنعمة وخضرة قرارها ثابت وفرعها ثابت وشجرها نابت».

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١١٨).

(٢) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٤٤٠ ـ ٤٤١).

عبَّاس: عينان مثلُ الدُّنيا أضعافاً مضاعفةً، حصباؤُها الياقوتُ الأحمرُ والزَّبرجدُ الأخضر، وترابُها الكافور، وحمأتُها المسكُ الأذفر، وحافتَاهـ[ـا] الزَّعفران(١).

وقالَ الحسنُ: يجريانِ بالماءِ الزَّلالِ، إحداهما السَّلسبيل والأخرى التَّسنيم(٢).

***

(٥٢ ـ ٥٣) ـ ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ۝٥٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ﴾؛ أي: نوعان؛ أي: فيهما من كلِّ ما يُتفكَّهُ ضربان: رطبٌ ويابسٌ، لا يَقصُرُ هذا عن ذلك في الفضلِ والطِّيبِ.

وقيلَ: أرادَ تفضيلَ هاتين الجنَّتين [على](٣) اللَّتين دونهما، فإنَّه ذكرَ هاهنا عينين جاريتين، وذكر ثَمَّ عينين تنضحان بالماءِ، والنَّضحُ دونَ الجريان، فكأنَّه قالَ: في تلك الجنَّتينِ من كلِّ فاكهةٍ نوعٌ، وفي هذه الجنَّةِ من كلِّ فاكهةٍ نوعان.

***

(٥٤ ـ ٥٥) ـ ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ۝٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ﴾ هو نصبٌ على الحالِ.

والبطائنُ: جمعُ بطانةٍ، وهي الَّتي تحت الظِّهارة، والإستبرقُ: الدِّيباجُ الغليظُ الخشنُ؛ أي: إذا كانَت البطانةُ هكذا فما الظَّنُّ بالظِّهارةِ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٨٥) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٣٥٥)، والواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٨٥).

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

وقالَ الفرَّاءُ: أرادَ بالبطائنِ الظَّواهرَ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما قد يكونُ وجهاً[١].

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الجَنى: ما يُجتنَى من الثِّمارِ، وهو من الجني، ومِن المثلِ:

هـذا جَنَـايَ وخِيـــارُه فِيــهِ إذ كُلُّ جَـانٍ يـدُه إلـى فِيـهِ[٢]

قال [ابن عباس]: تدنو الشَّجرةُ حتَّى يَجتنيَها وليُّ الله إن شاءَ قائماً، وإن شاءَ قاعداً، [وإن شاءَ] مضطجعاً[٣].

[وقال قتادة]: لا يردُّ يدَه بُعدٌ ولا شوكٌ[٤].

***

(٥٦ ـ ٥٧) ـ ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾؛ أي: في الجنَّتين المذكورتين.

قالَ الزَّجَّاجُ: وإنَّما قال: ﴿فِيهِنَّ﴾ لأنَّه عنَى الجنَّتين، وما أُعدَّ لصاحبِهما من النَّعيمِ[٥].

وقيلَ: أي: في هذه الفرشِ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١١٨).

(٢) يضرب للرجل يؤثر صاحبه بخيار ما عنده. وهو لعمرو بن عدي اللخمي ابن أخت جذيمة، كما في «الأمثال» لأبي عبيد (ص: ١٧٤)، و«تفسير الطبري» (١٥/ ٥١٤)، و«تهذيب اللغة» (١١/ ١٣٣).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٨٧) وما بين معكوفتين منه.

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٠٩٨)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٢٤٤)، وذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٨٧) وما بين معكوفتين من المصادر.

(٥) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٠٣)، و«البسيط» للواحدي (٢١/ ١٨٨).

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾؛ أي: نساءٌ قاصراتُ الطَّرفِ، قصرنَ أعينَهنَّ على أزواجِهنَّ، ولا يَرينَ غيرَهم، ووحَّدَ الطَّرفَ مع الإضافةِ إلى الجمعِ لأنَّه في معنى المصدر، من طَرَفَ عينَه يَطرِفُ طَرْفاً، ثمَّ سُمِّيَت العينُ بذلك، فأدَّى عن الواحدِ والجمعِ، كقولِهم: قومٌ عدلٌ وصومٌ.

﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ﴾؛ أي: لـم يُصِبْهنَّ بالجماعِ قبلَ أزواجِهنَّ هؤلاء أحدٌ، والطَّمثُ: الافتضاضُ، وهو النِّكاحُ بالتَّدميةِ. والطَّمَثُ بفتحِ الميم، يُقال: طَمَثَ يطمِث مثل ضَرَبَ يضرِب، ويطمُثُ مثل نصَرَ ينصُرُ، ويُقالُ للحائضِ: طامِثٌ، وطَمِثَتْ تطمَثُ، مثل حَمِدَ يحمَدُ؛ أي: حاضَتْ.

ثمَّ؛ قيل: الحورُ العينُ لَسْن من نساءِ أهلِ الدُّنيا؛ لأنَّ نساءَ الدُّنيا هنَّ مطموثاتٌ في الدُّنيا.

وقيلَ: الحورُ العينُ آدميَّاتٌ يُخلقنَ في الآخرةِ على أحسنِ صورةٍ؛ أي: لـم يطمثهنَّ بعد النَّشأةِ الثَّانيةِ إنسٌ ولا جانٌّ.

ثمَّ؛ قيل: أي: لـم يطمثْ ما يَهَبُ اللهُ للمؤمنينَ من الجنِّ في الجنَّةِ من الحورِ العينِ [من الجنيَّات جنٌّ، ولـم يَطمثْ ما يهبُ اللهُ للمؤمنينَ من الإنس في الجنَّةِ من الحورِ العينِ][1] من الإنسيَّاتِ إنسٌ، وذلك لأنَّ الجنَّ لا تطأُ بناتِ آدمَ في الدُّنيا.

وقيلَ: المقصودُ: لـم يطأهنَّ واطِئٌ من إنسٍ ولا جنٍّ.

***

(١) ما بين معكوفتين من «تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥٦).

(٥٨ ـ ٦١) ـ ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾؛ أي: في صفاءِ اللَّونِ والحُسنِ.

قولُه تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾؛ أي: نالوا هذا الثَّوابَ لأَنَّهم أطاعوا في الدُّنيا مولاهم.

قالَ ابنُ عبَّاس: أي: هل جزاءُ مَن قالَ: «لا إلهَ إلا اللهُ» وعملَ بما جاءَ به محمَّدٌ إلا الجنَّة[1].

وروى ابنُ عبَّاس: أنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ قرأ هذه الآيةَ فقال: «يقولُ اللهُ: هل جزاءُ مَن أنعمتُ عليه بمعرفتي وتوحيدي إلا أن أُسكِنَه جنَّتي وحظيرةَ قُدسي برحمتي»[2].

* * *

(٦٢ ـ ٦٣) ـ ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾؛ أي: من دونِ هاتينِ الجنَّتينِ جنَّتانِ أُخريانِ أدنى منهما، فالأُوليان للسَّابقينَ المقرَّبينَ، والأخريان لأصحابِ اليمينِ، قالَ اللهُ تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧ ـ ١١].

---

(١) رواه عنه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٧/ ٧١٤). ورواه الدينوري في «المجالسة» (٣٥٧٩)، والطبراني في «الدعاء» (١٥٤٥).

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٣٦٧) من حديث ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم، وفيه بشر بن عبيد الدارسي قال الذهبي في ترجمته في «الميزان»: كذبه الأزدي، وقال ابن عدي: منكر الحديث عن الأئمة.

وفي الخبرِ: «جنَّتانِ من ذَهَبٍ للسَّابقينِ، وجنَّتانِ من فضَّةٍ للتَّابعين»(١).

ومذهبُ الضَّحَّاك: أنَّ الجنَّتين الأُوليين من ذهبٍ وفضَّةٍ، والأخريين من ياقوتٍ وزمرُّدٍ، وهما أفضلُ من الأُوليين(٢)، [وعلى هذا](٣) قولُه: ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾؛ أي: ومن أمامِهما، ومِن قبلِها.

***

(٦٤ ـ ٦٥) ـ ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ۝٦٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾؛ أي: سوداوانِ من شدَّةِ الخُضرةِ والرِّيِّ، وكلُّ نبتٍ أخضرَ يُوصَفُ بالسَّوادِ، ويُقال: ادْهامَّ: اسْوادَّ، ويُقالُ للَّيلِ المظلم: أخضرُ، ويُقال: أبادَ اللهُ خضراءَهم؛ أي: سوادَهم.

---

(١) روي بهذا اللفظ مرفوعاً وموقوفاً:

المرفوع رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٣٥١)، وأبو نعيم الأصبهاني في «صفة الجنة» (٤٣٦)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٢١٨).

والموقوف رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٨١٤)، والإمام أحمد في «الورع» (٣٧٥)، والدينوري في «المجالسة» (١٤١٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢٨٢)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٢١٨)، قال الحاكم: هذا إسناد صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه هكذا، إنما خرجاه من حديث الحارث بن عبيد، وعبد العزيز بن عبد الصمد، عن أبي عمران الجوني، عن أبي بكر بن أبي موسى، عن أبيه، عن النبي ﷺ: «جنتان من فضة...» الحديث، وليس فيه ذكر السابقين والتابعين. وقال الذهبي: على شرط مسلم.

ورواه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠)، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه بلفظ: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٣٧٠)، والواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٩٣).

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٦٦ ـ ٦٧) ـ ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

[﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ قال ابنُ عبَّاس] وابنُ مسعودٍ وأنسٌ: تَنضَخُ على أولياءِ الله بالمسكِ والعنبرِ والكافورِ في دورِ أهلِ الجنَّةِ كما يَنضخُ رشُّ المطرِ(١).

وقيلَ: تنبعان؛ أي: تجريان(٢).

* * *

(٦٨ ـ ٦٩) ـ ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ قالَ ابنُ عبَّاس: الرُّمانةُ مثلُ جلدِ البعيرِ المقتَّبِ(٣).

وثمرُ النَّخلِ والرُّمَّان من الفاكهةِ، وأُفردا بالذِّكرِ للتَّفضيلِ، كقولِه: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وقالَ ابنُ جُبير: نخلُ الجنَّةِ جذوعُها من ذهبٍ، وعروقُها من ذهبٍ، وكرانيفُها من زمرُّدٍ، وسَعَفُها كسوةٌ لأهلِ الجنَّة، ورُطَبُها كالدِّلاءِ، أشدُّ بياضاً من اللَّبنِ، وألينُ

---

(١) ذكره عنهم الواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٩٥)، وما بين معكوفتين منه، ورواه بنحوه عن أنس رضي الله عنه: ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (٦٨) و(٧١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٣٢٨)، وأبو نعيم الأصبهاني في «صفة الجنة» (٢٠٣).

(٢) انظر: «البسيط» (٢١/ ١٩٥) عن الحسن وعطاء الخراساني، وفيه: «تنبعان ثم تجريان».

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ١٩٦)، وروي مرفوعاً من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، رواه الحارث ابن أبي أسامة في «مسنده» (٢٧)، والدينوري في «المجالسة» (١١٠٢)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٣٧٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٩/ ٣٧٢). قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (ص: ١٩٣٢): رواه الثعلبي في تفسيره من رواية أبي هارون العبدي عن أبي سعيد وأبو هارون اسمه عمارة بن حريث ضعيف جدًّا.

والبعير المقتب: الذي وضع القتب على ظهره، والقتب: إكاف الجمل، وهو الرحل الصغير على قدر سنام البعير، القَتَب للجمل بمنزلة الإكاف للحمار، والسرج للفرس.

من الزُّبدِ، وأحلى من العسلِ، ليس بهم عَجْمٌ[١].

وقيلَ: أي: لمَن خافَ مقامَ ربِّه جنَّتانِ واسعتانِ وجنَّتانِ مـن دونهما، فلكلِّ واحدٍ أربعُ جنَّاتٍ، وعلى القولِ الأوَّلِ الأُوليان لقومٍ والأُخريان لقومٍ.

***

(٧٠ ـ ٧١) ـ ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾؛ أي: في الجنانِ الأربعِ، والخَيراتُ: جمعُ خَيْرَة، وأصلُها التَّشديدُ وخُفِّفَ، مثل سَيْدٍ ومَيْتٍ.

وقيلَ: أي: خيراتُ الأخلاق حِسان الوجوهِ[٢]، ورُويَ هذا مرفوعاً[٣].

***

(٧٢ ـ ٧٣) ـ ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ۝٧٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾ الحُورُ: جمعُ الحوراء، وهي الشَّديدةُ بياضِ العينِ الشَّديدةُ سوادِ العين.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣١٠٤)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٢٦١).

ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣١١٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٧٧٦) وصححه، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) وقع في (أ) هنا تكرار وتحريف، والمثبت من «البسيط» (٢١/ ٩٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦٤). وعزاه الأول لجماعة من المفسرين، والثاني للزهري وقتادة.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٢٦٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٣/ ٣٦٧)، و«الأوسط» (٣١٤١)، والضياء في «صفة الجنة» (١١٩)، من حديث أم سلمة رضي الله عنها. قال الضياء: «لا أعلمه روي إلا من طريق سليمان بن أبي كريمة وفيه كلام». وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١١٣٩٦): «رواه الطبراني، وفيه سليمان بن أبي كريمة ضعفه أبو حاتم وابن عدي».

﴿مَقْصُورَٰتٌ﴾: محبوساتٌ ﴿فِى ٱلْخِيَامِ﴾؛ أي: على أزواجِهنَّ، والخيامُ: جمعُ خِيَمٍ، والخِيَمُ: جمعُ خَيمةٍ، وهي أعوادٌ تُنصبُ وتظلَّلُ بأليافٍ في القَيظِ فتكونُ أبردَ من الأخبية.

قالَ أبو عُبيدةَ: والهوادجُ أيضاً خيامٌ(١).

وفي التَّفسيرِ: خيامُ الجنَّةِ من درٍّ مجوَّفٍ.

وقالَ ابنُ عبَّاس: هي من درٍّ وزبرجدٍ وياقوت، الخيمةُ ما بين بُصرى إلى صنعاء(٢).

والتَّخييمُ في الأصلِ: الإقامةُ، يُقال: خيَّمَ الظَّبيُ والبقرُ؛ أي: أقامَ في موضعٍ لا يَبرحُ.

* * *

(٧٤ ـ ٧٧) ـ ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ الرَّفرفُ: الفرشُ.

وقالَ اللَّيثُ: ضربٌ من الثِّيابِ الخضرِ تُبسطُ(٣).

وقيلَ: الرَّفرفُ: الوسائد.

وقالَ سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: الرَّفرفُ: رياضُ الجنَّة(٤).

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٢٤٦).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٢٠١) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «العين» (٨/ ٢٥٥)، وذكره عنه الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٢٠١).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٠٦٩)، وهناد بن السري في «الزهد» (٨١)، وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (١٥٥).

وقيلَ: الفرشُ المرتفعة، والرَّفرفُ: الارتفاعُ، ومنه: رفرفةُ الطَّائرِ، لتحريكِه جناحيه في الهواءِ، ومنه قيلَ للظَّليمِ: رَفْرافٌ.

وقيلَ: الرَّفرفُ: أسفلُ الفسطاطِ، وفي الخبرِ في وفاةِ النَّبيِّ ﷺ: فرفعَ الرَّفرفَ فرأينا وجهَه كأنَّه وَرقةٌ(١)؛ أي: رفعَ طرفَ الفُسطاطِ.

﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ قال الفرَّاءُ: ﴿عبقري﴾: الطَّنافسُ الثِّخانُ منها(٢)، الواحدةُ عَبْقريَّةٌ.

وعبقرُ موضعٌ بالباديةِ كثيرُ الجنِّ، يُقالُ في المثلِ: كأنَّهم جنُّ عَبقَرَ، وصارَ اللَّفظُ لكلِّ منسوبٍ إلى شيءٍ رفيعٍ، والعربُ إذا بالغَت في وصفِ شيءٍ نسبتَه إلى الجنِّ(٣).

والمقصودُ: أنَّ فيها كلَّ ما يُعدُّ من أسبابِ النِّعمةِ.

(٧٨) ـ ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿تبَارَكَ اسمُ ربِّكَ ذو الجَلَالِ والإِكْرامِ﴾(٤)؛ أي: استكثِروا ذكرَه؛ فإنَّ البركةَ في اسمِه.

***

---

(١) انظر: «البسيط» للواحدي (٢١/ ٢٠٢)، وبهذا اللفظ ذكرته كتب اللغة والغريب كما في «تهذيب اللغة» (١٥/ ١٢٤)، و«الغريبين» و«مجمع الغرائب» للفارسي و«غريب الحديث» لابن الجوزي و«النهاية» (مادة: رفرف)، وأصل الحديث رواه البخاري (٦٨٠)، ومسلم (٤١٩)، عن أنس رضي الله عنه: «أن أبا بكر كان يصلي لهم في وجع رسول الله ﷺ الذي توفي فيه، حتى إذا كان يوم الاثنين وهم صفوف في الصلاة كشف رسول الله ﷺ ستر الحجرة فنظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم رسول الله ﷺ ضاحكاً...» الحديث.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٢٠).

(٣) انظر: «البسيط» للواحدي (٢١/ ٢٠٣)، وعزاه لأبي عبيدة، ولم أجده في المطبوع من «مجاز القرآن».

(٤) هكذا في (أ): «ذو» بالواو، وهي قراءة ابن عامر، والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٦٢١)، و«التيسير» (ص: ٢٠٧).

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١ ـ ٣) ـ ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾؛ أي: قامتِ القيامةُ، وسُمِّيَت واقعةً لأنَّها تقعُ عن قريبٍ، وفيه إضمارٌ؛ أي: اذكرْ إذا وقعتِ الواقعةُ.

وقالَ الجرجانيُّ: ﴿إِذَا﴾ صلةٌ؛ أي: وقعَت الواقعةُ، كقولِه: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] و﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٧]، وهو كما يُقال: قد جاءَ الصَّومُ؛ أي: دنا واقتربَ[1].

وعلى الأوَّلِ ﴿إِذَا﴾ للوقتِ، والجوابُ ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾.

وقالَ مقاتلٌ: ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾: النَّفخةُ الأخيرةُ[2].

قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ الكاذبةُ: مصدرٌ بمعنَى الكذبِ، والعربُ قد

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٢٠٩)، وزاد: وإنما قلنا: إن ﴿إِذَا﴾ ملغاة، لأنه لم يجيء لها خبر ولا جواب.

(٢) كذا ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٢١٠) عن مقاتل، وقد قال هذا مقاتل في «تفسيره» (٤/ ٤٢٢) لكن عند قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٥] قال: «وقعت الصيحة الآخرة يعني النفخة الآخرة». أما عند هذه الآية (٤/ ٢١٥) فقال: «يعني: إذا وقعت الصيحة وهي النفخة الأولى».

تضعُ الفاعلَ والمفعولَ موضعَ المصدرِ، كقولِه: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾ [الغاشية: ١١]؛ أي: لغواً، والمعنى: ليس لها كذبٌ(١).

وقالَ الكسائيُّ: أي: ليس لها تكذيبٌ؛ أي: ينبغي أن لا يُكذِّبَ بها أحدٌ(٢).

وقيل: الكاذبةُ صفةٌ والموصوفُ محذوفٌ؛ أي: ليس لوقعتها قضيةٌ كاذبةٌ؛ [أو نفسٌ كاذبةٌ؛ أي: كلُّ مَن يُخبِرُ عن] وقوعِها صادقٌ(٣).

وقالَ الزَّجَّاجُ: ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾؛ أي: لا يردُّها شيءٌ(٤).

وقيلَ: أي: قيامُها جِدٌّ لا هزلَ فيه.

قولُه تعالى: ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾؛ أي: هي تخفضُ قوماً وترفعُ آخرينَ.

وقيلَ: تخفضُ بالمعصيةِ وترفعُ بالطَّاعةِ.

وقيلَ: خفضَتْ صيحةُ القيامةِ فأسمعتِ الأدنى ورفعَتْ فأسمعتِ الأقصى؛ أي: عمَّتِ الجميعَ.

***

(٤ ـ ٦) ـ ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ۝٥ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا﴾؛ أي: اذكرْ إذا رُجَّت.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٢١٠ ـ ٢١١) عن أكثر أهل المعاني، وعزاه الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٤٠٥) للكسائي.

(٢) ذكره عن الكسائي الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٢١١).

(٣) انظر: «البسيط» (٢١/ ٢١١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٧٧)، وما بين معكوفتين منهما.

(٤) تقدمت عبارة (أي: لا يردُّها شيءٌ) في (أ) قبل عبارة (وقوعها صادق)، والتصحيح من «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٠٧)، و«البسيط» (٢١/ ٢١١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٧٧).

وقالَ الجرجانيُّ: إذا وقعتِ الواقعةُ إذا رُجَّت[1].

﴿رُجَّتِ﴾؛ أي: حُرِّكَت حركةً شديدةً.

قولُه تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾؛ أي: خُلِطت فصارَت كالدَّقيقِ المَلْتوتِ بشيءٍ من الماءِ؛ أي: تصيرُ الجبالُ تراباً يختلطُ البعضُ بالبعضِ.

وقيلَ: البَسُّ: الفَتُّ، وبسَّ الشَّيءَ؛ أي: صيَّره فُتاتاً.

وقيلَ: البَسُّ: السَّوقُ؛ أي: سِيقَت الجبالُ.

قولُه تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾؛ أي: فصارَت غباراً مُتفرِّقاً كالذي يُرى في شعاعِ الشَّمسِ إذا دخلَ من الكوَّةِ.

***

(٧ ـ ٩) ـ ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ ثمَّ ذكرَ أحوالَ النَّاسِ في الآخرةِ. والزَّوجُ الصنفُ.

قولُه تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾؛ أي: فأصحابُ اليمينِ.

ثمَّ؛ قيل: هم الذين يُعطَونَ كتبَهم بأيمانِهم.

وقيلَ: الذين كانُوا على يمينِ آدمَ حين أُخرجتِ الذُّرِّيَّةُ.

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٢١٣)، وفيه: ﴿إِذَا﴾ ظرف لقوله: ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ لأنه وقت لها؛ أي: أن الواقعة تقع إذا رجت الأرض رجًّا، وفي هذا دليل على أن تأويل قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾: ستقع الواقعة إذا رجت.

وقيلَ: الذين كانُوا ميامينَ مبارَكينَ على أنفسِهم.

وقيلَ: الذين يُؤخذُ بهم ذاتَ اليمينِ إلى الجنَّةِ.

﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ هذا للتَّفخيمِ والتَّعجيبِ، كقولِه: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ ـ ٢] و﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١ ـ ٢].

قولُه تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾؛ أي: أصحابُ الشِّمالِ، والمشأمةُ: الشِّمالُ، يُقال: اليدُ اليُمني واليدُ الشُّؤمَى، ومنه أُخِذَ اليُمنُ والشُّؤم.

وفي أصحابِ المشأمةِ أقوالٌ على حدِّ ما ذكرنا في أصحابِ الميمنةِ.

وتقولُ: ذهبَ فلانٌ يمنةً، وذهبَ فلانٌ شَأْمةً، و«شَأَمتَ القوم»؛ أي: أخذتَ عن شمالِهم، و: «يَمَنْتَهم»؛ أي: أخذتَ عن يمينِهم، وسُمِّيَت الشَّامُ شاماً لأَنَّها عن يسارِ الكعبةِ، واليمنُ عن يمينِها.

وقالَ قومٌ: قال: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾؛ لأنَّ مَن أدَّاه عملُه إلى النَّارِ فهو مشؤومٌ على نفسِه، ومَن أدَّاه عملُه إلى الجنَّةِ فهو ميمونٌ على نفسِه.

والأَوَّلُ أصحُّ؛ لقولِه بعد هذا: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾.

* * *

(١٠ ـ ١٤) ـ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ هم الذين سبقوا إلى اتِّباعِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ كالمهاجرينَ، فلهم فضلٌ لسبقِهم، ومَن بعدَهم تَبَعٌ لهم.

وقيلَ: أي: الذين سبقوا إلى الأعمالِ الصَّالحةِ كالنَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ.

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنه: هم السَّابقون إلى الصَّلواتِ الخمسِ[١].

وقيلَ: هم الذين يَخرجونَ إلى الجهادِ في الرَّعيلِ الأوَّلِ.

ثمَّ؛ قالَ الزَّجَّاجُ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ ابتداءٌ، وخبرُه الثَّاني؛ أي: السَّابقونَ إلى طاعةِ الله السَّابقون إلى رحمةِ الله، وقولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ من صفتِهم.

قال: ويجوزُ أن يكونَ الأوَّلُ ابتداءً، والثَّاني توكيداً، والخبرُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[٢].

قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾؛ أي: هم المقرَّبون في المرتبةِ من الله، وهو قربُ الفضل، وقيلَ: الجنَّة.

قولُه تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ أي: هم في جناتِ عَدْنٍ، أو في غايةِ النِّعمةِ.

قولُه تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ جعلَ النَّاسَ ثلاثةَ أصنافٍ، والثُّلَّةُ من السَّابقينَ من سائرِ الأممِ، والقليلُ من أمَّتنا؛ لأنَّ الأنبياءَ المتقدِّمينَ كثروا فكثُرَ السَّابقونَ إلى الإيمانِ بهم، فزادوا على عدَّةِ من سبقَ إلى التَّصديقِ من أمَّتِنا.

وقيلَ: لمَّا نزلَ هذا شقَّ على أصحابِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ فنزلَ ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾[٣]، وهذا نزلَ على أنَّ الثلةَ من الأوَّلين إنَّما هي من الأممِ الأوَّلين.

---

(١) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٤٢٠)، والواحدي في «البسيط» (٢١/ ٢١٩)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (١٤/ ٢٣٨).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٠٩) إلا أنه قدم القول الثاني وجوز القول الأول.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٩٠٨٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٣٣٠)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وزادوا: فقال ﷺ: «أنتم ثلث أهل الجنة، بل أنتم نصف أهل الجنة، وتقاسمونهم النصف الباقي». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٤٠٨): رواه أحمد من حديث محمد بياع الملاء عن أبيه، ولم أعرفهما، وبقية رجاله ثقات. انتهى.

=

وقالَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ لـمَّا نزلَ ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾: «مِن آدمَ إلينا ثلَّةٌ، ومِنِّي إلى القيامةِ ثلَّةٌ، ولا يَستَتِمُّها إلا سُودانٌ من رُعاةِ الإبلِ ممَّن قالَ: لا إلهَ إلا اللهُ»(١).

والثُّلَّةُ بضمِّ الثاء: الجماعةُ العظيمةُ من النَّاسِ.

= قلت: أما محمد بياع الملاء فهو أبو عمرو، محمد بن عبد الرحمن بن خالد بن ميسرة، روى له النسائي، وذكره ابن حبان في «الثقات». انظر: «تهذيب الكمال» للمزي (٢٥/ ٦٠٩).

وأبوه عبد الرحمن بن خالد بن ميسرة، قال عنه الذهبي: تابعي ما روى عنه إلا ابنه محمد، مجهول. انظر: «المغني في الضعفاء» (٣٥٥٧)، و«ديوان الضعفاء» (٢٤٤٠) كلاهما للذهبي.

قال القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٨٤): ومعناه ثابت في «صحيح مسلم» من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

قلت: هو في «صحيح مسلم» برقم (٢٢١)، ورواه أيضاً البخاري (٦٥٢٨)، عن عبد الله، قال: كنَّا مع النبيِّ في قُبَّة، فقال: «أترضون أن تكونوا رُبُعَ أهل الجنَّة» قلنا: نعم، قال: «أترضَون أنْ تكونوا ثلثَ أهل الجنَّة» قلنا: نَعم، قال: «أتَرضَون أن تكونوا شَطْرَ أهل الجنَّة» قلنا: نَعَم، قال: «والذي نفسُ محمدٍ بيده، إنِّي لأرجو أن تكونوا نصفَ أهل الجنة، وذلك أن الجنة لا يدخلُها إلَّا نفسٌ مسلمةٌ، وما أنتم في أهل الشِّرك إلَّا كالشّعرة البيضاء في جلد الثَّور الأسود، أو كالشَّعرة السَّوداء في جلد الثَّور الأحمر».

(١) رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (٥٢٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٠/ ٢٢٩) من طريق عروة بن رويم عن جابر رضي الله عنهما. قال ابن كثير عند هذه الآية: في إسناده نظر.

وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٨/ ٨) إلى ابن مردويه وابن عساكر موصولاً، وإلى ابن أبي حاتم عن عروة بن رويم مرسلًا. وكذا رواه مرسلاً الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٤٨١) بلفظ: «من آدم إلينا ثُلَّة، ومنَّا إلى يوم القيامة ثلة، وليسوا بأنبياء ولا صديقين إلَّا الأساود من رعاة الإبل، ممن قال: لا إله إلا الله».

وقالَ مقاتلٌ: يعني: سابقي هذه الأُمَّة، إلَّا أنَّهم أقلُّ من سابقي الأممِ الخاليةِ[1]. وهو خارجٌ على ما قدَّمنا.

وقالَ قومٌ: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ خطابٌ لهذه الأُمَّة، والسَّابقونَ منهم هم المهاجرون الأوَّلون، وقولُه: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: من أوَّلي هذه الأُمَّة، وقليلٌ من آخرِهم يسارعُ في الطَّاعةِ حتَّى يلحقَ درجةَ الأوَّلينَ، ولهذا قالَ عليه السَّلام: «خيرُكم قَرنِي»[2]، ثمَّ سوَّى في أصحابِ اليمينِ بين الأوَّلين والآخرين.

* * *

(١٥ ـ ١٦) ـ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾؛ أي: السَّابقونَ في الجنَّةِ على سررٍ؛ أي: مجالسُهم على سررٍ ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾؛ أي: منسوجةٍ بأنواعِ الجوهرِ والذَّهبِ، والوَضْنُ: النَّسْجُ المضاعَفُ والنَّضْدُ، يُقالُ: وَضَنَ فلانٌ الحجرَ والآجُرَّ بعضَه فوقَ بعضٍ، فهو موضونٌ، و«درعٌ موضونةٌ»؛ أي: مُحكمَةٌ في النَّسجِ مثل «مَرصوفةٍ»، والوَضينُ: بِطانٌ من سُيورٍ يُنسجُ فيُدخلُ بعضُه في بعضٍ.

وفي التَّفاسيرِ: ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾؛ أي: منسوجةٍ بقضبانِ الذَّهبِ مشبَّكةٍ بالدُّرِّ والياقوتِ والزَّبرجدِ.

وقيلَ: الموضونةُ: المصفوفةُ، كما قالَ في موضعٍ آخر: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: ٢٠].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٢١٦).

(٢) رواه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥)، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، ولفظه: «خَيْرُكُم قَرْنِي، ثُم الذين يَلُونَهم، ثُم الذين يَلُونَهم». ورواه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ: «خير الناس قرني...».

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾؛ أي: لا يرى بعضُهم قفا بعضٍ، بل تدورُ بهم الأسرَّة، وهذا في المؤمنِ وزوجتِه وأهلِه؛ أي: يتَّكِئون مُتقابلين.

***

(١٧ - ٢١) - ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾؛ أي: غلمانٌ، وهم وإن لم يُولدوا في الجنَّةِ - إذ لا ولادةَ في الجنَّةِ - أُطلقَ عليهم هذا الاسمُ؛ لأنَّ العربَ تُسمِّي الغلمانَ ولداناً، وهؤلاء غلمانٌ أنشأهمُ الله لأهلِ الجنَّةِ يطوفونَ عليهم كما شاءَ من غيرِ ولادةٍ.

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنه: الولدانُ هاهنا: ولدانُ المسلمينَ الذين يموتونَ ولا حسنةَ لهم ولا سيِّئةَ(١).

وقالَ سلمانُ: أطفالُ المشركينَ هم خدمُ أهلِ الجنَّةِ(٢).

وقالَ الحسن: لم تكن لهم حسناتٌ يُجزونَ بها، ولا سيِّئاتٌ يُعاقبونَ عليها، فوُضِعوا هذا الموضعَ(٣).

والمقصودُ: أنَّهم على أتمِّ السُّرورِ، والنِّعمةُ إنَّما تتمُّ اليومَ باحتفافِ الخدمِ والولدانِ بالإنسانِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٤٣٢)، والواحدي في «البسيط» (٢١/ ٢٢٢).

(٢) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٢٠٠٧٩)، والبيهقي في «القضاء والقدر» (٦٣٠).

(٣) رواه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٨/ ٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٧٠).

﴿مُخَلَّدُونَ﴾؛ أي: لا يموتونَ ولا يكبرونَ ولا يتغيَّرونَ.

وقيلَ: أي: مُقرَّطون، وقيلَ: مُسَوَّرُون، الخُلْدُ: القُرطُ، وخَلَّدَ فلانٌ جاريتَه؛ أي: حلَّاها بالخَلَدةِ.

قولُه تعالى: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾؛ أي: يطوفونَ عليهم الولدانُ بأكوابٍ، والكوبُ: ما اتَّسعَ رأسُه من الأباريقِ ولم يكن له خرطومٌ ولا عُرَى، ﴿وَأَبَارِيقَ﴾: هي ما لها عُرًى وخراطيمُ، وسُمِّيَ الإبريقُ إبريقاً لأنَّه يَبرقُ لونُه من صفائِه.

﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾؛ أي: خمرٍ جاريةٍ كالماءِ المعين، وسُمِّيَ مَعيناً لأنَّه مأخوذٌ من العيونِ ظاهرٌ لها. وقيلَ: لأنَّه عينٌ جاريةٌ.

وبيَّن أنها ليسَت كخمرِ الدُّنيا الَّتي تُستخرَجُ بعصرٍ وتكلُّفٍ ومعالجةٍ.

قولُه تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾؛ أي: أنها لذَّةٌ بلا أذًى، بخلافِ شرابِ الدُّنيا.

﴿ولا يُنزَفون﴾ بفتحِ الزَّاي: لا تُذهِبُ عقولَهم، يُقال: نُزِفَ الرَّجل؛ أي: ذهبَ عقلُه.

وقُرِئَ: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ بكسرِ الزَّاي[1]؛ أي: لا تَفنى خمورُهم، يُقال: أنزَفَ القومُ؛ أي: أَقْتروا وافترقوا[2].

قولُه تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾؛ أي: يتخيَّرونَ ما شاؤوا لكثرتِها.

---

(١) قرأ حمزة والكسائيُّ وعاصم بكسر الزاي، وباقي السبعة بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ٥١٧)، و«التيسير» (ص: ٢٠٧).

(٢) قوله: «أقتروا وافترقوا» كذا في (أ)، ولم أقف عليه، وفي «الصحاح» (مادة: نزف): قرئ: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ بكسر الزاي، وأَنْزَفَ القومُ: إذا ذهب ماء بئرهم وانقطع.

وقيلَ: أي: وفاكهةٍ متخيَّرةٍ ومَرضيَّةٍ، والتَّخيُّرُ: الاختيارُ.

قولُه تعالى: ﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ﴾ قالَ ابنُ عبَّاس: يخطرُ على قلبِه الطَّيرُ، فيصيرُ مُتمثِّلاً بين يديه على ما اشتهى[1].

وكانَتِ العربُ تَطعَمُ لحومَ الإبلِ، ويَعِزُّ عندهم لحمُ الطَّيرِ، ويقولون: إنَّه طعامُ الملوكِ.

﴿مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾؛ أي: ممَّا هو شهيٌّ عندهم اليومَ، وقيلَ: ممَّا يشتهون في الجنَّةِ.

***

(٢٢ ـ ٢٤) ـ ﴿وَحُورٌ عِينٞ ۝٢٢ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ ۝٢٣ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٞ﴾ قُرِئَ بالرَّفعِ؛ أي: وعندهم حورٌ عينٌ؛ لأنَّه لا يُطافُ عليهم بالحورِ العينِ، وقُرِئَ بالخفضِ[2]؛ لأنَّ المعنى: لهم أكوابٌ وفاكهةٌ ولحمُ طيرٍ وحورٌ عين، وقد يُتْبَعُ آخرُ الكلامِ أوَّلَه وإن لم يَحسُنْ[3] في آخرِه ما حَسُنَ في أوَّلِه.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٢٢٣).

وروي مرفوعاً، رواه سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (١١٧١)، وابن عرفة في «جزئه» (٢٢)، وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (١٠٠)، والعقيلي في «الضعفاء» (١/ ٢٦٨)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ٧٦)،عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وفي سنده حميد بن علي الأعرج، قال العقيلي: منكر الحديث. وقال ابن عدي: «أحاديثه ليست مستقيمة ولا يتابع عليها».

(٢) قرأ حمزة والكسائي بالخفض، وباقي السبعة بالرفع. انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٢)، و«التيسير» (ص: ٢٠٧).

(٣) في (أ): «يحر» والمثبت من «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٢٣)، و«حجة القراءات» لابن زنجلة (ص: ٦٩٥)، و«البسيط» (٢١/ ٢٢٤ و٢٢٥).

وقالَ الزَّجَّاجُ: أي: هم مُنعَّمون بلحمِ طيرٍ ومُنعَّمونَ بحورٍ عينٍ(١).

وقالَ أبو عليٍّ: أي: أولئك المقرَّبونَ في جنَّاتِ النَّعيمِ وفي حورٍ عينٍ؛ أي: في صحبةِ حور عين(٢).

﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ الَّذي لم تمسَّه الأيدي، ولم يقعْ عليه الغبارُ.

قولُه تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: يُجزون جزاءً، فهو نصبٌ على المصدرِ.

وقيلَ: لأنَّه مفعولٌ له؛ أي: للجزاءِ.

***

(٢٥ ـ ٢٦) ـ ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾؛ أي: في الجنَّةِ ﴿لَغْوًا﴾؛ أي: باطلاً هذراً من القولِ ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾؛ أي: ما يُؤثِّمُ من الكلامِ، وهو الكذبُ والفحشُ من القولِ.

واللَّغوُ: ما يستحقُّ أن يُلْغَى، والتَّأثيمُ: مصدرُ أثَّمتُه؛ أي: قلتُ له: أَثِمْتَ.

وقيلَ: أي: لا يأتون ما هو سببُ التَّأثيمِ من فعلٍ أو قولٍ قبيحٍ، وعلى هذا قالَ أبو عُبيدةَ: مجازُه [مجازُ «أكلتُ خبزاً ولبناً» واللَّبنُ لا يؤكَلُ، فجاز إذا كان معها] شيءٌ يُؤكَلُ، فكذلك التَّأثيمُ [لا] يُسمَعُ، وإنَّما يُسمَعُ اللَّغو(٣).

قولُه تعالى: ﴿إِلَّا قِيلًا﴾ هو استثناءٌ منقطعٌ؛ أي: لكنْ يقولونَ قيلاً، أو يسمعون

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١١).

(٢) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٦/ ٢٥٧).

(٣) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٢٤٩)، و«البسيط» (٢١/ ٢٢٦)، وما بين معكوفتين منهما.

قيلاً ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾، فقولُه: ﴿سَلَٰمًا﴾ نعتٌ لقولِه: ﴿قِيلًا﴾، والسَّلامُ الثَّاني بدلٌ من الأوَّل، والمعنى: إلّا قيلاً يُسْلَمُ فيه من اللَّغوِ والإثمِ.

وقيلَ: ﴿سَلَٰمًا﴾ نَصبٌ بالقيلِ؛ أي: إلّا أنَّهم يقولونَ الخيرَ.

وقالَ ابنُ عبَّاس: يُحيِّي بعضُهم بعضاً بالسَّلامِ(١).

وقيلَ: تُحيِّيهم الملائكةُ أو يُحيِّيهم ربُّهم بالسَّلامِ.

* * *

(٢٧ ـ ٣٤) ـ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ هم التَّابعونَ للسَّابقين، وقد ذكرنا معنى اليمينِ ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾؛ أي: هم في سدرٍ، وهو النَّبْقُ، وكانوا يَستلذُّونه ويُعجبون بشجرِه، والمخضودُ: المنزوعُ الشَّوكِ، والخَضْدُ: كسرُ الشَّيءِ اللَّيِّنِ؛ أي: خُضدَ وقُطعَ شوكُه، وفي الخبرِ: «خضدَ اللهُ شوكَه، فجعلَ مكانَ كلِّ شوكةٍ ثمرةً، تَنفتِقُ الثَّمرةُ عن اثنين وسبعين لوناً من الطَّعامِ، ما فيه لونٌ يُشبِهُ الآخَرَ»(٢).

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٢٢٧) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (١٠٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٧٧٨) وصححه، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (٢/ ٣٣٠)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٢٧٦)، من طريق سليم بن عامر أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً. ورواه ابن المبارك في «الزهد» (٢٦٣ ـ زوائد نعيم)، وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (١٠٥)، عن سليم بن عامر مرسلاً دون ذكر أبي أمامة. قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/ ٢٩٣): رواه ابن أبي الدنيا وإسناده حسن ورواه أيضاً عن سليم بن عامر عن أبي أمامة الباهلي عن النبي ﷺ مثله.

وقيلَ: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾؛ أي: مُوقَّرٍ حَملاً، وهو قريبٌ ممَّا ذكرنا في الخبرِ.

وقيلَ: ﴿مَّخْضُودٍ﴾؛ أي: كثُر ثِقَلُ ثمرِه لكثرةِ الثَّمرةِ.

قولُه تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ الطَّلْحُ: شجرُ أمِّ غَيلانَ[1]، وهو مِن أعظمِ العِضاهِ شوكاً، وأصلبِه عوداً، وأجودِه صمغاً.

وقالَ ابنُ عبَّاس وعليٌّ: هو الموز[2].

وقالَ الزَّجَّاجُ: لشجرِ أمِّ غَيلانَ نَورٌ طيِّبٌ جدّاً، فخُوطبوا ووُعدوا ما[3] يُحبُّون مثلَه، إلّا أنَّ فضلَه على ما في الدُّنيا كفضلِ سائرِ ما في الجنَّة على ما في الدُّنيا[4].

والمنضودُ: الَّذي نُضِدَ بالحَملِ والورقِ من أوَّلِه إلى آخره.

قالَ مسروقٌ: أنهارُ الجنَّةِ تجري في غيرِ أخدودٍ، وشجرُها نضيدٌ من أسفلِها إلى أعلاها[5].

---

(١) قال الخفاجي في «حاشية الشهاب على البيضاوي» (٨/ ١٤٢ ـ ١٤٣): «أم غيلان هو السمر، وشجر الطلح قال أبو حنيفة الدينوري في «كتاب البيان»: العامّة تسمى الطلح أم غيلان، وظاهره أنه مولد وكأن وجه التسمية فيه أنه ينبت في القفار، وهي محل الغيلان عندهم فلاجتماعهم عندها شبهت بالأمّ التي يجتمع عندها أولادها».

(٢) رواه عن ابن عباس سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (٢١٥٠ ـ ٢١٥١)، وهناد بن السري في «الزهد» (١١١)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٣١٠). وعن علي رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣١٢٧)، وهناد بن السري في «الزهد» (١١٢)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٣١٠).
ووقع في (أ): «قال ابنُ عبَّاس على هذا الموز»، والصواب المثبت.

(٣) في «معاني القرآن»: «بما».

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٢).

(٥) رواه الدينوري في «المجالسة» (٧٠٣)، وذكره عنه ابن قتيبة في «غريب القرآن» (ص: ٤٤٨).

وفي روايةٍ عن عليٍّ رضيَ اللهُ عنه: أنَّه قُرِئَ بين يديه: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ فقال: ما شأنُ الطَّلحِ؟ إنَّما هو: (وطلعٍ منضودٍ)، ثمَّ قال: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ١٠]، فقيلَ له: أفلا نُحوِّلها؟ فقال: لا ينبغي أن يُهاجَ القرآنُ ولا يُحوَّلَ[(١)]. فقد أخبرَ هذه القراءةَ، ولم يرَ إثباتَها في المصحفِ لمخالفةِ ما رسمُه مُجمَعٌ عليه عند الصَّحابة.

قولُه تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾؛ أي: دائمٍ باقٍ لا يزولُ ولا تنسخُه الشَّمسُ، كقولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥]، وذلك بالغداةِ، وهي ما بينَ الإسفارِ إلى طلوعِ الشَّمسِ، والجنَّةُ كلُّها ظلٌّ لا شمسَ معه.

قولُه تعالى: ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ السَّكبُ: صبُّ الماءِ، يُقال: سكبَه سَكباً، والسُّكوبُ انصبابُه، يُقال: سَكَبَ سُكوباً، وانسكبَ انسكاباً؛ أي: وماءٍ مصبوبٍ يجري اللَّيلَ والنَّهارَ لا ينقطعُ عنهم.

وقيلَ: لا يَتعبونَ فيه باستقاءٍ بدلوٍ ورشاءٍ، بل يجري كيفما شاء، وكانَت العربُ أصحابُ باديةٍ وبلادٍ حارَّةٍ، وكانَت الأنهارُ عزيزةً في بلادِهم، فوُعِدوا في الجنَّةِ خلافَ ذلك، ووُصِفَ لهم أسبابُ التَّنزُّهِ المعروفةُ في الدُّنيا، وهنَّ الأشجارُ وظلالُها والمياهُ والأنهارُ واطِّرادُها.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٣٠٩)، وابن الأنباري في «المصاحف» كما في «تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٨-٢٠٩)، و«الدر المنثور» (٨/ ١٣)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٤٥٣). وفي إسناده مجالد بن سعيد قال في «التقريب»: ليس بالقوي.
قال الطيبي في «فتوح الغيب» (١٥/ ١٩٧): هذه الرواية وأمثالها مما يجب أن ترد أبلغ رد، لأنه تعالى صان هذا الكتاب المجيد من مثل هذه التحريفات، وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقيلَ: ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾؛ أي: يُصبُّ على الخمرِ للمزاجِ.

وقولُه: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾: وفاكهةٍ ليست بالقليلةِ العزيزةِ كما كانَت[1] عندهم في بلادِهم.

﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾؛ أي: في وقتٍ من الأوقاتِ كانقطاعِ فواكه الصَّيفِ في الشِّتاءِ.

وقيلَ: لا تنقطعُ إذا جُنيَت. وفي الخبرِ: «لا يُقطَعُ شيءٌ من ثمارِ الجنَّةِ إلا أبدَلَ اللهُ مكانَها ضِعفينِ»[2].

---

(١) في (أ): «وفاكهة قليلة العزيزة كهي كانت»، والتصويب من «تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٩٧).

(٢) ذكره بهذا اللفظ الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٢٣٢) عن النبي ﷺ بلا راو ولا سند.

وقد ورد في هذا المعنى أخبار: منها ما رواه البزار في «مسنده» (٤١٨٧) و(٤١٨٨)، والطبراني في «الكبير» (١٤٤٩)، من حديث ثوبان رضي الله عنه: «لا يَنْزِعُ رجلٌ من أهل الجنة من ثمرها إلا أُعيد في مكانها مثلاها». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٤١٤): «رجال الطبراني وأحد إسنادي البزار ثقات». لكن ذكره الضياء المقدسي في «صفة الجنة» (٧٤) ثم قال: «وعبّاد تكلم فيه بعض العلماء». يريد عباد بن منصور أحد رواته عند البزار والطبراني.

وروى الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣١٧١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما من عبد يسبح لله عز وجل تسبيحة، أو يحمده تحميدة، أو يكبره تكبيرة إلا غرس الله عز وجل له بها شجرة في الجنة، أصلها من ذهب، وأعلاها من جوهر، مكللة بالدر والياقوت، ثمارها كثدي الأبكار، ألين من الزبد، وأحلى من العسل، كلما جنى منها شيئاً عاد مكانه، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٨٩): «رواه الطبراني في «الأوسط» موقوفًا على أبي هريرة، وفيه سليمان بن أبي كريمة، وهو ضعيف».

قلت: قوله: «موقوف» يعني: أوله فآخره كما هو ظاهر مرفوع، وأوله مع ذلك له حكم المرفوع لأنه في أمر غيبي.

وروى عبد الرزاق في «تفسيره» (٣١٠٩)، وهناد بن السري في «الزهد» (١٠٣، ١٠٤)، وابن أبي =

﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾؛ أي: لا يُمنَعُ مَن أرادَها بشوكٍ ولا بُعدٍ ولا حائطٍ، بل إذا اشتهاها العبدُ دنَت منه حتَّى يأخذَها.

وقيلَ: أي: ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ﴾ بالأزمانِ، ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ بالأثمانِ.

قولُه تعالى: ﴿وَفُرُشٍ﴾ الفُرُشُ: جمعُ فِراشٍ ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي: عاليةٍ بعضُها فوقَ بعضٍ.

وقيلَ: مرفوعةٍ على الأسرَّةِ، وفي الخبرِ: «ارتفاعُها كما بينَ السَّماءِ والأرضِ»(١).

وقيلَ: ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾؛ أي: مرتفعةٍ بالحُسنِ والفضلِ على الفرشِ المعتادةِ في الدُّنيا.

وقيلَ: أرادَ بالفُرشِ النِّساءَ، والعربُ تَكني عن المرأةِ بالفراشِ والإزارِ واللِّباسِ، وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وعلى هذا فمعنى ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾: أنهنَّ رُفعنَ بالجمالِ والفضلِ والكمالِ على نساءِ الدُّنيا.

* * *

= الدنيا في «صفة الجنة» (٤٦، ٤٩)، عن مسروق قال: «نخل الجنة طلعها نضيد من أصلها إلى فرعها، وثمرها أمثال القلال، كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى، وأنهارها في غير أخدود، والعنقود اثنا عشر ذراعًا».

(١) رواه الترمذي (٢٥٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد. وقال بعض أهل العلم في تفسير هذا الحديث: إن معناه الفرش في الدرجات، وبين الدرجات كما بين السماء والأرض».

(٣٥ ـ ٤٠) ـ ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ يدلُّ عل أنَّ الفُرشَ بمعنى: المرأة، فالكنايةُ عائدةٌ إلى النِّساءِ، ومَن أخذَ الفُرشَ على الظَّاهرِ، قال: كُنِيَ عن النِّسوة وإن لـم يَجرِ لهنَّ ذكرٌ؛ لأنَّ الفرشَ محلُّ النِّساءِ، فإنَّ الفراشَ ما يُنامُ عليه.

ثـمَّ؛ قيـل: هنَّ الحـورُ العينُ، أنشـأناهنَّ كما أردناهـنَّ من غيـرِ أن نُوقعَ عليهنَّ ولادة.

وقيلَ: هنَّ نساؤُهم في الدُّنيا؛ أي: خلقناهم خَلقاً جديداً، وهو الإعادةُ؛ أي: أعدناهنَّ إلى حالِ البناتِ وكمالِ الجمالِ.

قولُه تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾؛ أي: على هيئةِ الأبكارِ وصفتِهنَّ.

﴿عُرُبًا﴾؛ أي: مُتحبِّباتٍ إلى أزواجِهنَّ غَنِجاتٍ مُطيعاتٍ.

و[قيل](١): العَرُوبُ: الحسنةُ التَّبعُّلِ.

قُرِئَ ﴿عُرُبًا﴾ بضمِّ الرَّاء وبسكونها(٢)، وهما جائزان في جمعِ فَعُول.

﴿أَتْرَابًا﴾؛ أي: على ميلادٍ واحدٍ، يُقال: هذا تِـربُ فلانٍ ولِدةُ فلان؛ أي: تِربُه وعلى سنِّه.

ثمَّ؛ قيل: هذا وصفٌ للحورِ العينِ، فإنهنَّ أترابٌ وأضرابٌ(٣) فـي الحُسنِ

---

(١) ما بين معكوفتين من «تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٩٩).

(٢) قـرأ أبـو بكـر وحمزة بسـكون الـراء والباقـون بضمها. انظـر: «السـبعة» (ص: ٦٢٢)، و«التيسـير» (ص: ٢٠٧).

(٣) في (أ): «فإنهن أترابا واضرات»، والصواب المثبت.

والميلادِ، وفي الأخبارِ: أنهنَّ بناتُ ثلاثٍ وثلاثينَ سنة[1]. وكانَت العربُ تميلُ إلى مَن جاوزَت حدَّ الصِّبا من النِّساءِ وانحطتْ عن الكبرِ.

وقيلَ: هنَّ أترابٌ لأزواجِهنَّ، فهم على سنٍّ واحدٍ، وخَلقٍ وخُلقٍ واحدٍ.

قولُه تعالى: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٣٨ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ عادَ الكلامُ إلى قولِه: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾؛ أي: هم ثلّةٌ من الأوَّلينَ وثلّةٌ من الآخِرين؛ أي: مَن يلي السَّابقينَ من أهلِ الجنَّةِ فريقان في الآخرةِ: أحدُهما من جميعِ الأممِ المتقدِّمة، والثَّاني من هذه الأُمَّة، وأتباعُ محمَّدٍ الذين يَلُون السَّابقين مثلُ سائرِ مَن يدخلُها من أتباعِ سائرِ الأنبياءِ، وعرفنا بهذا فضيلةَ هذه الأُمَّة.

قالَ ابنُ مسعودٍ: تحدَّثنا ليلةً عند رسولِ اللهِ ﷺ ثمَّ عُدنا إليه فقالَ: «عُرِضَت عليَّ الأنبياءُ في هذهِ اللَّيلةِ بأممِها وأتباعِها، فكانَ النَّبيُّ يمرُّ عليَّ ومعه الثَّلاثةُ، ويمرُّ النَّبيُّ ومعه العصابةُ، ويمرُّ النَّبيُّ ومعه النَّفرُ، ويمرُّ النَّبيُّ ومعه الرَّجلُ، ويمرُّ النَّبيُّ وما معه أحدٌ، حتَّى جاءَ موسى بنُ عمرانَ في كبكبةٍ من بني إسرائيلَ، فلمَّا رأيتُهم أعجبوني فقلت: مَن هذا يا ربِّ؟ قال: أخوكَ موسى بنُ عمرانَ بمَن معه مِن بني إسرائيل، قلت: يا ربِّ، وأينَ أمَّتي؟ قال: انظر عن يمينِك، فنظرتُ فإذا ظِرَابُ مَكَّةَ

---

(١) رواه يحيى بن سلام في «تفسيره» (٢/ ٨١٥) عن الحسن عن النبي ﷺ: «إنَّ أهل الجنة يَدْخُلونها كلُّهم نساؤُهم ورجالُهم مِن عندِ آخِرهم أبناءُ ثلاثٍ وثلاثين سنةً على صورة آدم، طولُه سِتُّون ذراعًا...» الحديث وهو مرسل.

ورواه بنحوه متصلاً مرفوعاً الإمام أحمد في «المسند» (٧٩٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه دون قوله: «رجالهم ونساؤهم»، وهو حديث حسن بطرقه وشواهده.

مسدودةٌ بوجوهِ الرِّجالِ، [فقلتُ: مَن هؤلاء؟ قيل: هؤلاء أمَّتُك؟] قال: أرضيتَ؟ قلتُ: رضيتُ يا ربِّ، [قيل: انظر عن يسارِك، فإذا الأفقُ قد سُدَّ بوجوهِ الرِّجال، فقلتُ: ربِّ مَن هؤلاء؟ قيل: هؤلاء أُمَّتُك، فقيل: أرضيتَ؟ فقلت: رضيتُ ربِّ، رضيتُ]، قال: إنَّ هؤلاء لك وسبعين ألفاً لا حسابَ عليهم، فإن استطعتُم فداءً لكم أبي وأمِّي أن تكونَوا من السَّبعين فكونوا، وإن عجَزتم فكونوا من أصحابِ الأفقِ، فإنِّي قد رأيتُ عندَه ناساً يَتَهاوشُونَ كثيراً»، فقلنا بيننا: مَن هؤلاء السَّبعون ألفاً؟ واتَّفقَ رأيُنا على أنَّهم الذين وُلِدوا في الإسلامِ ويموتون عليه، فذُكِرَ ذلك للنَّبيِّ عليه السَّلامُ قال: «لا، ولكنَّهم قومٌ لا يَكتوون، ولا يَستَرْقون، ولا يَتطيَّرون، وعلى ربِّهم يتوكَّلون»، فقامَ عكَّاشةُ بنُ مِحصَنٍ فقال: يا رسولَ اللهِ، ادعُ الله أن يجعلَني منهم، فقال: «الله اجعلْه منهم»، فقامَ رجلٌ فقال: يا رسولَ اللهِ، ادعُ الله أن يجعلَني منهم فقال: «قد سبقَك بها عكاشةُ»، فقالَ رسولُ اللهِ: «إنِّي أرجو اللهَ أن تكونوا رُبعَ أهلِ الجنَّةِ»، فكبَّرَ أصحابُه ثمَّ قالَ: «إنِّي لأرجو أن تكونوا ثُلثَ أهلِ الجنَّةِ»، فكبَّرَ أصحابُه ثمَّ قالَ: «إنِّي لأرجو أن تكونوا شطرَ أهلِ الجنَّةِ»، ثمَّ قرأ ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾[1].

وهذا يدلُّ على أنَّ قولَه في أوَّلِ السُّورة: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ في السَّابقين من أمَّتِنا والسَّابقين من سائرِ الأممِ، فسابقو هذه الأُمَّةِ قليلٌ من حيثُ

---

(١) رواه بنحو هذا السياق أبو داود الطيالسي في «مسنده» (٤٠٤)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٤٠١)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥٣٣٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٤٣١)، والحاكم في «المستدرك» (٨٧٢١) وصححه، وقال ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية: وهذا الحديث له طرق كثيرة من غير هذا الوجه في الصحاح وغيرها. وما بين معكوفتين من المصادر.

ورواه مختصراً دون ذكر الآية البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

سابقو الأممِ الماضيةِ إذا جُمعوا لكثرةِ الأنبياءِ المتقدِّمين، فإذا ضُمَّ التَّابعون من أمَّتِنا وهم ينتظرون أهلَ الجنَّةِ إلى سابقي أمَّتنا، زادَ المجموعُ على نصفِ أهلِ الجنَّةِ.
وفي بعضِ الأخبارِ: «أنَّ ثُلثي أهلِ الجنَّةِ من هذه الأُمَّةِ»(١).

وفي الخبرِ: «أهلُ الجنَّةِ عشرون ومئةُ صَفٍّ، ثمانون منها أُمَّتي»(٢).

وقالَ أبو هُريرةَ: لمَّا نزلَت ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ شقَّ على أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ فنزلَ ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنِّي لأرجو أن تكونُوا رُبعَ أهلِ الجنَّةِ، ثُلثَ أهلِ الجنَّةِ، شطرَ أهلِ الجنَّةِ، وتُقاسِموهم النِّصفَ الثَّاني؛ لأنَّه قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾»(٣).

وليس هذا على طريقِ النَّسخِ، ولكنَّه لـمَّا بيَّنَ أنَّ سابقي الأممِ السَّالفةِ يزيدون

---

(١) رواه الحميدي في «مسنده» (٨٥٣) من طريق الحسن عن عمران بن حصين رضي الله عنه، وفيه قوله ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة»، فكبروا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة» فكبروا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة» فكبروا. قال سفيان ـ هو ابن عيينة شيخ الحميدي ـ: انتهى حفظي إلى النصف، ولا أعلم إلا أنه قال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة». وأعلَّ بسبب ضعف علي بن زيد بن جدعان، وبالانقطاع بين الحسن البصري وعمران.
ورواه بنحو رواية عمران لكن دون ذكر الثلثين: البخاري (٦٥٢٨)، ومسلم (٢٢١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، والبخاري (٣٣٤٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٩٤٠)، والترمذي (٢٥٤٦) وحسنه، وابن ماجه (٤٢٨٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٤٥٩)، والحاكم في «المستدرك» (٢٧٣) وصححه، من حديث بريدة رضي الله عنه.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٩٠٨٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٣٣٠)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣٥٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه. وانظر ما تقدم عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٤].

على سابقي هذه الأُمَّةِ توهَّموا فضيلةَ الأممِ السَّالفة، فعرفُوا بالآيةِ الثَّانيةِ فضيلةَ هذه الأُمَّةِ، فطابَت نفوسُهم.

وقالَ قومٌ من المفسِّرين: الثُّلَّتانِ من هذه الأُمَّةِ، وفي خبرٍ أنَّه قالَ في الثُّلَّتين: «وهما جميعاً من أُمَّتي»[1]، على هذا يحتملُ أن يكونَ الفريقان من السَّابقين ردَّ فقال: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، وقال: أصحابُ اليمينِ هذه الأُمَّةُ أيضاً، فالأوَّلون من السَّابقين المهاجرون الأوَّلون، ساوهم إلا في النُّدرة، فإنَّه قد يكونُ في القرنِ الثَّاني والثَّالثِ ومَن بعدَهم أقوامٌ يثبتون على الإسلامِ على الفتن، فيلحقون درجةَ المهاجرين، وإليهم أشارَ عليه السَّلام: «الإسلامُ بدأ غريباً وسيعودُ غريباً،

---

(١) روي من حديث ابن عباس ومن حديث أبي بكرة رضي الله عنهم:

أما حديث ابن عباس فرواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٣٣٤)، وابن عدي في «الكامل» (١/ ٣٨٦)، من طريق أبان بن أبي عياش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ: «هما جميعاً من أمتي»، وأبان متروك.

وأما حَدِيث أبي بكرة فروي مرفوعاً وموقوفاً:

أما المرفوع فرواه مُسَدَّد في «مسنده» كما في «المطالب العالية» (٣٧٤٥) عن خاقان بن عبد الله بن الأهتم، عن علي بن زيد، عن عقبة بن صَهْبان، عن أبي بكرة عن النَّبي ﷺ.

ورواه الطبراني كما في «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٣/ ٤٠٣) من طريق حجاج بن المنهال عن حَمَّاد بن سَلَمَة عن علي بن زيد به. وكلا الطريقين ضعيف لضعف علي بن زيد.

وقال الدارقطني في «العلل» (٧/ ١٦٤): وخاقانُ ليس بالقوي، وكان يحيى القَطَّانُ حَدَّث به عن حَمَّادِ بن سلمةَ عن عليِّ بن زيد عن عقبةَ بن صهبانَ عن أبي بكرةَ عن النبي ﷺ ثم تركه.

وأما الموقوف فرواه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (٩٢٧): من طريق علي بن زيد عن عقبة بن صهْبَان عن أبي بكرة رضي الله عنه. قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٦٢): والموقوف أولى بالصواب، وعلي ضعيف.

فطُوبى للغُرباء»(١)، وأيضاً في كلِّ وقتٍ في الأبدالِ والأوتادِ ما وردَ به الخبرُ(٢)، فهم من القبيلِ الذين يلتحقون بأولئك في الدَّرجةِ.

ويحتملُ أن يرجعَ قوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ إلى هذه الأُمَّةِ والأممِ السَّالفة؛ أي: السَّابقون فريقان: الأكثرون من الأممِ السَّالفةِ، والقليلُ من هذه الأُمَّةِ، وهم المدركون للنَّبيِّ عليه السَّلام، ثمَّ لـمَّا ذكرَ أصحابَ اليمينِ لـم يتعرَّضْ لذكرِ الأممِ السَّالفةِ، بل قال: هذه الأُمَّةُ من أصحابِ اليمينِ فريقان؛ فرقةٌ من الأوَّلين، وفرقةٌ من الآخرين؛ أي: كثيرٌ منَ الصَّحابةِ وكثيرٌ ممَّن تأخَّرَ عنهم هم أصحابُ اليمينِ، وثلّةٌ من هؤلاء.

* * *

(٤١ ـ ٤٤) ـ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ ثمَّ ذكرَ الزَّوجَ الثَّالثَ من الأزواجِ الثَّلاثةِ، وهم أهلُ النَّارِ، وسُمُّوا أصحابَ الشِّمالِ لأنَّهم يُعطَون كُتبَهم بشمائِلِهم.

﴿فِى سَمُومٍ﴾؛ أي: في حرِّ النَّارِ ﴿وَحَمِيمٍ﴾ هو الماءُ الحارُّ؛ أي: إذا أحرقتِ النَّارُ أجسادَهم وأكبادَهم فزعوا إلى الحميمِ، كالذي يَفزعُ من النَّارِ إلى الماءِ ليُطفئَ به الحرَّ، فيجده حميماً حارّاً في نهايةِ الحرِّ والغليانِ.

قولُه تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾؛ أي: يفزعون من السَّمومِ إلى الظِّلِّ كما يفزعُ

---

(١) رواه مسلم (١٤٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) قال ابن القيم في «المنار المنيف» (ص: ١٣٦): أحاديث الأبدال والأقطاب والأغواث والنقباء والنجباء والأوتاد كلها باطلة على رسول الله ﷺ.

أهلُ الدُّنيا، فيجدونه ظلاً من يحمومٍ؛ أي: من دخانِ جهنَّمَ أسودَ يُجمعُ فيه مع سوادِه حرارةٌ عظيمة، واليحمومُ: يَفعول من الأحمِّ، وهو الأسودُ، ويُقال: أسودُ يحمومٌ؛ أي: شديدُ السَّوادِ، وهذا كقولِه: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٣٠ ـ ٣١].

قولُه تعالى: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾؛ أي: لا باردِ المدخَلِ ولا كريمِ المنظرِ.

وقالَ ابنُ بريدةَ في قولِه: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾: إنَّه جبلٌ من جهنَّمَ، يستغيثُ إلى ظلِّه أهلُ النّارِ، فإذا أُذِنَ لهم في أن يأتوه لـم يجدوه بارداً ولا كريماً، وكانَ ما لقوا هناك منَ العذابِ أشدَّ ممَّا كانُوا فيه[1].

* * *

(٤٥ ـ ٤٨) ـ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝٤٥ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤٦ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٤٧ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾؛ أي: إنَّما استحقُّوا هـذه العقوبةَ لأنَّهم كانُوا في الدُّنيا مُتمتِّعين بالدُّنيالا على الوجهِ الَّذي شُرعَ لهم، والمترَفُ: المتنعِّمُ المتجبِّرُ.

قولُه تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الإصـرارُ عـلى الشَّيءِ: الثَّباتُ عليه والدَّوامُ، والحِنثُ: الذَّنبُ، يُقال: بلغَ الغلامُ الحِنْثَ؛ أي: بلغَ مبلغاً يجري عليه القلمُ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٤٨٦)، والقرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٢٠٢) عن ابن زيد. وجاء في «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢١٣) (طبعة دار إحياء التراث العربي)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٥٢)، و«التيسير» لأبي حفص النسفي (١٤/ ٢٥٦): «ابن بريدة»، وفي «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٤٦): «وقال ابن بريدة وابن زيد أيضًا في كتاب الثعلبي... » وذكره.

وقيلَ: الحنثُ هاهنا: الشِّركُ؛ لأنَّه قالَ: ﴿عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

وقيلَ: هو اليمينُ الغَموسُ، وهي من الكبائرِ، يُقالُ: حنثَ في يمينه؛ أي: لم يبرَّها ورجعَ فيها، وكانوا يُقسمون أنْ لا بعثَ، وأنَّ الأصنامَ أندادُ الله، فذلك حِنثُهم، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل: ٣٨].

وفي الخبرِ: «كانَ يتحنَّثُ في حراء»[١]؛ أي: يفعلُ ما يُسقطُ عن نفسِه الحِنثَ، وهو الذَّنبُ.

قولُه تعالى: ﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا ﴾ هذا استبعادٌ منهم لأمرِ البعثِ.

قولُه تعالى: ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ أُدخلتْ ألفُ الاستفهامِ على واوِ العطفِ، ثمَّ هو استفهامُ تعجُّبٍ.

***

(٤٩ ـ ٥٠) ـ ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾؛ أي: إن الأوَّلين من آبائكم ﴿وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ ﴾ قسماً حقًّا [خلافَ][٢] قسمِكم الباطل، ودخولُ اللَّامِ دليلُ القسمِ في المعنى؛ أي: إنَّكم لمجموعونَ بعد البعثِ إلى ميقاتِ يومٍ علمَ اللهُ وقتَه.

وقوله: (مجموعون)؛ أي: محشورون في الآخرةِ.

وقيلَ: يُجمعون في الدُّنيا، فتخلو من الخلقِ إلى أن يجيءَ وقتُ البعثِ.

***

---

(١) رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) في حديث بدء الوحي الطويل عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) ما بين معكوفتين من «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠٤).

(٥١ ـ ٥٧) ـ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾؛ أي: عن سبيلِ الحقِّ ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ بيومِ القيامةِ ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ قد مضى وصفُ الثَّمرِ الزَّقومِ في مواضع ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾؛ أي: تلتمسون إطفاءَ ما نالكم من الجوعِ، وأنَّى يحصلُ منه مقصودٌ وهو يأكُلُ من صاحبِه الَّذي يريدُ أكلَه؟!

قولُه تعالى: ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من الشَّجرةِ؛ لأنَّ المقصودَ من الشَّجرِ شجرةٌ.

قولُه تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾؛ أي: على الزَّقومِ، أو على الأكلِ، أو على الشَّجرِ؛ لأنَّ اللَّفظَ مذكَّرٌ؛ أي: يُورثُهم حَرُّ ما يأكلون من الزَّقومِ مع الجوعِ الشَّديدِ عطشاً شديداً، فيشربون ماءً يظنُّون أنَّه يزيلُ العطشَ، فيجدونَه حميماً يغلي.

قولُه تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾؛ أي: شُربَ المستكثرِ من الماءِ طلباً للرِّيِّ، ثمَّ؛ هو لا يَروي ولا يُطفِئُ لهبَ العطش، كالإبلِ الَّتي بها هُيامٌ، وهو داءٌ يصيبُها لا تَروَى معه.

والهِيمُ: جمعُ أهيمَ وهيماءَ، ومن العربِ مَن يقولُ [في الإبل]: هائمٌ وهائمةٌ، و[الجمعُ][1]: هِيمٌ.

وقالَ الضَّحَّاكُ: الهِيمُ: السَّهلةُ من الرَّملِ؛ أي: فيشربون شربَ الرِّمالِ [التي لا تَرْوَى بالماء][2].

---

(١) ما بين معكوفتين من «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠٤).

(٢) ما بين معكوفتين من «المحرر والوجيز» (٥/ ٢٤٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠٤)، لكن نسباه =

وقُرِئَ: ﴿شَربَ الهيمِ﴾ بالفتحِ[1]، والشَّربُ المصدرُ.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾؛ أي: رزقُهمُ الَّذي يُعدُّ لهم كالنُّزُلِ الَّذي يعدُّ للأضيافِ.

قُرِئَ ﴿نُزُلُهُمْ﴾ بضمِّ النُّونِ والزَّاي، وقُرِئَ بالتَّخفيفِ[2] مثل الشُّغُلِ والشُّغْلِ، والعُنُقِ والعُنْقِ.

قولُه تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾؛ أي: أنتم مُقرُّون بأنَّا خلقناكم فهلَّا تُصدِّقون بالبعثِ؛ لأنَّ الإعادةَ كالابتداءِ.

* * *

(٥٨ ـ ٦٢) ـ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ هذا بيانُ الآيةِ الأولى؛ أي: أخبروني عن النُّطَفِ؛ أي: الَّتي تُمْنُونها في أرحامِ نسائِكم، أنتم تخلقونَ من النُّطفةِ إنساناً أم نحنُ؟ فإذا أقررْتُم أنَّا خالقوه لا أنتم، فاعترِفوا بالبعثِ.

قولُه تعالى: ﴿تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾؛ أي: تخلقونه خَلْقاً.

= لابن عباس رضي الله عنهما.

(١) قرأ نافع وعاصم وحمزة بضم الشين، والباقون بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٣)، و«التيسير» (ص: ٢٠٧).

(٢) بالتخفيف رواية غير المشهور عن أبي عمرو. انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٣)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٢).

وقيلَ: أي: [تصوِّرونه][١] فالخلقُ بمعنى: التَّصويرِ.

قولُه تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ قُرِئَ بالتَّخفيفِ والتَّشديدِ[٢]؛ أي: الآجالُ بقضاءٍ وقَدَرٍ، فمعنى ﴿قَدَّرْنَا﴾: قَضَينا.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾؛ أي: لا يَفتَاتُ علينا أحدٌ فيما نقدِّرُ حتَّى يُقدِّمَ أو يُؤخِّرَ شيئاً ممَّا قَضَيا.

قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾؛ أي: لأنْ نبدِّلَ أمثالَكم، تقولُ: افعلْ هذا على أن أعطيَك كذا؛ أي: لأنْ أعطيَك كذا؛ أي: قدَّرنا بينكم الموتَ لنبدِّلَ بكم أمثالَكم بعدَ إماتتِنا إيَّاكم، فنجيءَ بآخرينَ من جنسِكم في الدُّنيا في الوقتِ الَّذي قدَّرنا فيه إماتةَ الكلِّ، ثمَّ ننشئُكم خلقاً جديداً على ما نُريدُ من حُسنِ الوجهِ وقُبحِه وسوادِه وبياضِه.

وقيلَ: وما نحن بمغلوبينَ ممنوعين عن أن نخلقَ أمثالَكم بدلاً منكم.

﴿فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: من الصُّورِ والهيئاتِ.

وقالَ الحسنُ: أي: ونجعلَكم قردةً وخنازيرَ كما فعلنا بأقوامٍ[٣].

وقيلَ: أن نُنشئَكم في وقتٍ لا يعلمُه الخلقُ، ولا يَعلمُ أيضاً كيفيَّةَ الإنشاءِ[٤].

---

(١) ما بين معكوفتين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) قرأ ابن كثير بالتخفيف، والباقون بالتشديد. انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٣)، و«التيسير» (ص: ٢٠٧).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٤٩٩)، والواحدي في «البسيط» (٢١/ ٢٤٨).

(٤) أي: هذا على النشأة الثانية؛ يكوِّنها الله في وقت لا يعلمه العباد ولا يعلمون كيفيته كما علموا الإنشاء الأول من جهة التناسل، ويكون التقدير على هذا: وما نحن بمسبوقين على أن ننشئكم في وقت لا تعلمون يعني: وقت البعث، وتكون هذه الآية متصلة بما بعدها وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني لا تعلمون ذلك ولقد علمتم هذه كيف كانت، وهذا الوجه اختيار الحسين بن الفضل. انظر: «البسيط» (٢١/ ٢٤٨).

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: خَلْقَكم من طينٍ وماءٍ مهينٍ ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وفي الخبرِ: «عجباً كلَّ العَجبِ للمُكذِّبِ بالنَّشأةِ الآخرةِ وهو يَرى النَّشأةَ الأولى، وعجباً للمُصدِّقِ بالنَّشأةِ [الآخرة][1] وهو يَسعى لدارِ الغرور»[2].

***

(٦٣ ـ ٦٥) ـ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ هذه حجَّةٌ أخرى؛ أي: أخبروني عمَّا تحرثون من أرضِكم فتطرحونَ فيها البذورَ، أأنتم تُنبِتونَه وتجعلونَه زرعاً فيكونَ فيه السُّنبلُ والحبُّ، أم نحن نفعلُ ذلك، وإنَّما منكم البَذرُ وشقُّ الأرض؟ فإذا أَقرَرْتم بأنَّ إخراجَ السُّنبلةِ من الحبِّ ليس إليكم، فكيفَ تُنكرون إخراجَ الأمواتِ من الأرضِ وإعادتَهم؟

و﴿مَّا تَحْرُثُونَ﴾؛ أي: ما تعملونَ في الأرضِ.

وقيلَ: ما تُلقُون فيها من البذرِ.

---

(١) ما بين معكوفتين من «البسيط».

(٢) كذا ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٢٤٩) بلا سند ولا راو، وما بين معكوفتين منه، وروى نحوه أبو عبيد في «الخطب والمواعظ» (١٤)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٥٩٥)، عن عبد الله بن مسور يرفعه، وعبد الله بن مسور، هو أبو جعفر المدائني الهاشمي، من ولد جعفر بن أبي طالب، فالحديث مقطوع، ثم إنه متروك الحديث، ومن المشهورين بوضع الحديث. انظر: «تاريخ ابن معين» (٤/ ٣٧٨)، و«التاريخ الكبير» للبخاري (٦/ ٢٤٨)، و«الضعفاء» للنسائي (ص: ٦٢)، و«ميزان الاعتدال» (٢/ ٥٠٤)، و«لسان الميزان» (٥/ ١٢).

وروى نحوه ابن أبي الدنيا في «الأهوال» (٢١١) موقوفاً على أبي جعفر الباقر.

قولُه تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ﴾؛ أي: تُنبتونه، ومنه يُقالُ للصَّبيِّ: زَرَعه الله، وفي الخبرِ: «لا يقولنَّ أحدُكم: زَرعتُ، ولكن: حَرَثتُ» قال أبو هُريرةَ: ألم تسمعْ لقولِه: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾[1].

وقد يُقالُ: فلانٌ زرَّاعٌ كما يُقالُ: حرَّاثٌ؛ أي: يفعلُ ما يَؤُولُ إلى أن يكونَ زرعاً، وقد يُطلقُ لفظُ الزَّرعِ على بذرِ الأرضِ وتكريبِها تجوُّزاً.

قولُه تعالى: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا﴾؛ أي: هشيماً لا يُنتفعُ به في مطعمٍ ولا غذاءً بأن نُسلِّطَ عليه الآفاتِ ﴿فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ﴾؛ أي: تتعجَّبون لذهابِها وتَنَدَّمون.

وهو الدُّقاقُ، من حَطَمْتُه؛ أي: كسرتُه.

والتَّفكُّهُ: التَّعجُّبُ، وقيلَ: التَّندُّمُ والتَّلهُّفُ على ما فاتَ.

***

(٦٦ ـ ٦٧) ـ ﴿إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ٦٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ﴾ فيه إضمارٌ؛ أي: وتقولون: إنَّا لـمغرمون، والمُغرَمُ الَّذي ذهبَ مالُه بغيرِ عوضٍ؛ أي: غرمنا الحَبَّ الَّذي بَذَرْناه.

---

(١) رواه البزار في «مسنده» (١٠٠٦٤)، وأبو يعلى في «معجمه» (٢٩٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٧٢٣)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٨٠٢٤).
ورواه البيهقي في «السنن الكبرى» (١١٧٥١) عن مجاهد، ثم قال: «وقد روي فيه حديث مرفوع غير قوي». وكذا قال ابن حجر في «الفتح» (٥/ ٤): «قد ورد في المنع منه ـ أي: من نسبة الزرع إلى الآدمي ـ حديث غير قوي...» فذكره ثم قال: «ورجاله ثقات إلا أن مسلم بن أبي مسلم الجرمي قال فيه ابن حبان: ربما أخطأ»، وقال في «لسان الميزان» (٨/ ٥٦): «وليس في إسناده من ينظر فيه غير مسلم هذا».

وقيلَ: أي: إنَّا لَمولَعٌ بنا الشَّرُّ، من قولِهم: أُغرِمَ فلانٌ بفلانةَ؛ أي: أُولعَ بها، ومنه: الغرامُ، وهو الشَّرُّ اللَّازم.

وقيلَ: ﴿لَمُغْرَمُونَ﴾؛ أي: لـمُعذَّبون.

قولُه تعالى: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾؛ أي: حُرِمنا ما طلبْنا من الرَّيعِ.

* * *

(٦٨ ـ ٧٠) ـ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾.

قولُـه تعالـى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾؛ أي: تشـربونه لتُحْيُـوا بـه أنفسَـكم، وتُسـكِّنوا عطشَـكم.

﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾؛ أي: مـن السَّحابِ؛ أي: اعترفتُم بأنِّي أنزلتُه فلِمَ لا تشكرونني بإخلاصِ العبادةِ لي؟ ولِمَ تُنكرون قدرتي على الإعادةِ؟!

قولُه تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾؛ أي: مِلحاً مرًّا لا تنتفعون به فـي شُربٍ ولا زرعٍ وغيرهما ﴿فَلَوْلَا﴾؛ أي: فهلَّا ﴿تَشْكُرُونَ﴾.

* * *

(٧١ ـ ٧٤) ـ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾؛ أي: أخبِروني عن النَّارِ الَّتي تُضرمونها بالقَدْحِ من الشَّجرِ الرَّطب، أأنتم خلقتُم شجرتها أم نحن؟ فإذا اعترفتُم بقدرتي فاشكروني، ولا تُنكروا قدرتي على البعثِ.

يُقالُ: أَوْريتُ النّارَ، وقد وَرِيَتْ هي، ووَرِيَتْ شجرتُها؛ أي: الَّتي تُقدَحُ منها، وهي المَرْخُ والعَفارُ[١].

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾؛ أي: موعظةً للمؤمنينَ من نارِ جهنَّمَ، ﴿وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ المُقوِي: الَّذي ينزلُ بالقَواءِ من الأرضِ الخاليةِ، وأقوى الرَّجلُ: إذا نزلَ في قَواءٍ من الأرضِ؛ أي: مكانٍ خالٍ. وخُصَّ المسافرُ بالانتفاعِ بها لأنَّ منفعتَه بها أكثرُ من منفعةِ المقيمِ؛ لأنَّ أهلَ الباديةِ لا بدَّ لهم من النّارِ؛ يوقدونها ليلاً لتهربَ منهم السِّباعُ، وفي كثيرٍ من حوائجِهم.

وقيلَ: المُقوِي: الَّذي لا زادَ معه، من أقوَت الدَّارُ؛ أي: خَلَت، فهؤلاء يوقدون النّارَ ويُسوُّون بها لحومَ الصيدِ.

وقيلَ: ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾؛ أي: للمُستمتعينَ بها مـن النَّاسِ أجمعين من المسافرينَ والحاضرينَ، يَستضيؤُون بها في الظُّلمةِ، ويَصطلون في البردِ، ويَنتفعونَ في الخَبزِ والطَّبخِ.

وعلى هذا فالمُقوِي من الأضدادِ، يُقالُ للفقيرِ: مُقوٍ؛ لخلوِّه من المالِ، ويُقالُ للغنيِّ: مُقوٍ؛ لقوَّتِه على ما يريدُ، يُقالُ: أقوى الرَّجلُ؛ أي: صارَ إلى حالِ القوَّةِ.

وقيلَ: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾؛ أي: الشَّجرةَ الَّتي لا انتفاعَ بالنّارِ إلّا بها؛ لأنَّ النّارَ لا يُنتفَعُ بها إلّا بالحطبِ.

---

(١) المرخ والعفار: هما شجرتان من أسرع الشجر خروج نار، وفي المثل: (في كلِّ شجرٍ نارٌ، واسْتَمْجَدَ المَرْخُ والعَفَارُ)، والاستمجاد: الاستكثار من المجد، وهو كثرة الشرف، ومعناه: أنهما أخذا الفضل وذهبا بالمجد. يضرب في تفضيل بعض القوم على بعض إذا كانوا كلهم ذوي خير ولبعضهم مزية وتقدُّم ليس للآخرين. انظر: «الأمثال» لأبي عبيد (ص: ١٣٦)، و«الكامل» للمبرد (١/ ١٧٢)، و«المستقصى» للزمخشري (٢/ ١٨٣ ـ ١٨٤).

قولُـه تعالـى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ أي: فنـزِّهِ اللهَ عمَّـا أضافَـه إليـه المشـركونَ مـن الأنـدادِ والعجزِ عـن البعـثِ.

***

(٧٥ ـ ٨٠) ـ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ (لا) صلةٌ؛ أي: أقسمُ، بدليلِ قولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾.

وقيلَ: (لا) ردٌّ[١] لقولهم في القرآنِ: إنَّه سحرٌ وشعرٌ وكهانةٌ، ثم استأنف فقال أقسمُ[٢]، وقد يقولُ الرَّجلُ: «لا، واللهِ ما كانَ كذا»، فلا يريدُ به نفيَ اليمينِ، بل يريدُ نفيَ كلامٍ تقدَّمَ؛ أي: ليسَ الأمرُ كما ذكرتَ، بل كذا. هو قرينةٌ بهذا على فضيلةِ القرآنِ ليتدبَّروه.

﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾؛ أي: بنزولِ القرآنِ نجماً نجماً.

وقيلَ: أي: بمغاربِ الكواكبِ حين تسقطُ. وللهِ أن يُقسمَ بما يريدُ، وليس لنا أن نُقسمَ بغيرِ الله تعالى وصفاتِه القديمةِ.

وقُرِئَ: ﴿بمَوقِعِ النُّجومِ﴾[٣]، والموقعُ هاهنا مصدرٌ يصلحُ للقليلِ والكثيرِ، كما تقولُ: عجبتُ من ضربِ القومِ.

---

(١) في (أ): «وقيل أراد»، والمثبت من «البسيط» (٢١/ ٢٥٦).

(٢) في (أ): «فلا»، بدل: «ثم استأنف فقال» والمثبت من المصدر السابق.

(٣) بإسكان الواو من غير ألف، هي قراءة حمزة والكسائي، وباقي السبعة بفتح الواو وألف بعدها. انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٤)، و«التيسير» (ص: ٢٠٧).

وقيلَ: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ إشارةٌ إلى انكدارِها وانتثارِها.

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾؛ أي: لو تعلمونَ عِظَمَه لانتفعتُمْ به.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ﴾ ثمَّ ذكرَ المُقسَمَ عليه؛ أي: أقسمُ بمواقعِ النُّجومِ إنَّ هذا القرآنَ قرآنٌ كريمٌ، ليس بسحرٍ ولا كَهانةٍ، وليس بمفترًى، بل هو كريمٌ محمودٌ، جعَله اللهُ معجزةَ نبيِّه، وهو كريمٌ على المؤمنينَ لأنَّه كلامُ ربِّهم وشفاءُ صدورِهم، وكريمٌ على أهلِ السَّماءِ لأنَّه تنزيلُ ربِّهم ووحيُه. والكريمُ: ما كَرُمَ في نفسِه وعَظُمَ لشرفِه، والكرمُ اسمٌ جامعٌ لـمَا يُحمَدُ.

قولُـه تعالـى: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ﴾؛ أي: فـي اللَّوحِ المحفوظِ، فهـو مكنونٌ من الشَّياطين.

وقيلَ: أي: هو عندَ اللهِ مَستورٌ من النَّاسِ في اللَّوحِ المحفوظِ.

وقيلَ: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ﴾ لا يُصيبُه ترابٌ ولا غبارٌ.

قولُه تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾؛ أي: لا يمسُّ اللَّوحَ المحفوظَ الَّذي هو الكتابُ المصونُ إلَّا الملائكةُ المطهَّرون، قيلَ: إسرافيلُ هو الموكَّلُ بذلك، والملائكةُ مُطهَّرون من الشِّركِ والذُّنوبِ والأحداثِ والنَّجاساتِ.

وقيلَ: لا ينبغي أن يمسَّ مُصحفَ القرآنِ إلَّا المطهَّرونَ من الجنابةِ والحدَثِ، فهو خبرٌ بمعنى الأمرِ.

وقيلَ: أي: لا يمسُّ القرآنَ الشَّياطينُ، ولا يجدُ طعمَه وبركتَه إلَّا المؤمنونَ.

وقُرِئَ: (إلا المطَّهِّرون) بتشديدِ الطَّاءِ وكسرِ الهاءِ[1]؛ أي: الذينَ طهَّروا أنفسَهم من الشِّركِ.

---

(١) نسبت لسلمان الفارسي رضي الله عنه وعبد الله بن عون والحسن. انظر: «المختصر في شواذ =

قولُه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هو صفةُ القرآنِ، والمرادُ بالمصدرِ: المفعولُ؛ أي: مُنزَّلٌ، كقولِهم: «ضَربُ الأميرِ»، و: «نسجُ اليمنِ».

وقيلَ: أي: هو تنزيلٌ.

***

(٨١) ـ ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾؛ أي: بالقرآنِ الَّذي أُوردَ به عليكم ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾، والإدهانُ والمداهنةُ: التَّكذيبُ والكفرُ والنِّفاق، والأصلُ فيه اللِّينُ وأن يُسِرَّ خلافَ ما يُظهِرُ.

***

(٨٢) ـ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قالَ ابنُ عبَّاسٍ: مُطِرَ النَّاسُ على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ، فقالَ: «أصبحَ من النَّاسِ شاكرٌ، ومنهم كافرٌ، قالوا: هذه رحمةٌ وضعَها الله، وقالَ بعضُهم: لقد صدقَ نوءُ كذا»، فنزلَت هذهِ الآيةُ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ حتَّى بلغ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾(١).

ورُويَ أنَّه عليه السَّلام خرجَ في سفرٍ، فأصابَهم عطشٌ ولا ماءَ معهم، فقالَ عليه السَّلام: «أرأيتُم إن دعوتُ لكم فسُقيتُم لعلَّكم تقولونَ: سُقينا هذا المطرَ بنوءِ كذا» فقالوا: يا رسولَ اللهِ، ما هذا بحينِ الأنواءِ. فصلَّى ودعا ربَّه، وهاجَت ريحٌ ثمَّ هاجَت سحابةٌ فمُطِروا حتَّى سالتِ الأوديةُ ومَلؤوا الأسقيةَ، ثمَّ مرَّ عليه السَّلام

= القراءات» (ص: ١٥٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٥٢)، و«البحر» (٢٠/ ١٩٥).

(١) رواه مسلم (٧٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

برجلٍ يغترفُ بقدحٍ له وهو يقولُ: سُقِينا بنوءِ كذا، ولم يقلْ: هذا من رزقِ اللهِ، فأنزلَ اللهُ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾(١).

وفي خبرٍ: «﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾؛ أي: شُكرَكم»(٢)، وفي لغةِ أَزْدِ شَنُوءةَ: ما رزقَ فلانٌ؛ أي: ما شكرَ(٣).

وقالَ الفرَّاء: هو كقولِك: «جعلْتَ زيارتي إياك أنَّك استخففْتَ بي»، أي: جعلتَ [ثوابَ] زيارتي الجفاءَ؛ أي: جعلتُم شكرَ الرِّزقِ التَّكذيبَ(٤).

والمعنى: وتجعلون رزقي لكم، كقولِه: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ [الشورى: ٤١]؛ أي: من بعدِ ظُلْمِ خصمِه إيَّاه.

وقرأ عليٌّ رضيَ اللهُ عنه: (وتجعلونَ شكرَكُم أنَّكم تكذبون)(٥).

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٥٣٠)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٠٤)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (١٤/ ٢٧٤)، ورواه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٨/ ٢٨).

(٢) رواه الترمذي (٣٢٩٥) عن علي رضي الله عنه مرفوعًا، بلفظ: «قال رسول الله ﷺ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال: شكركم، تقولون مطرنا بنوء كذا وكذا وبنجم كذا وكذا»، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه مرفوعًا إلَّا من حديث إسرائيل، ورواه سفيان الثوري، عن عبد الأعلى، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن عليٍّ نحوه ولم يرفعه.

(٣) ذكره الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٣٦٨)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٥٣٢) عن الهيثم بن عدي.

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٣٠).

(٥) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٢)، و«المحتسب» (٢/ ٣١٠). وروي عن علي رضي الله عنه مرفوعاً وموقوفاً: فرواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٣٧١) عن علي موقوفاً، ورواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ٥٣١) عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قرأ: (وتجعلون شكركم أنكم تكذبون).
وقد ذكر الدارقطني في «العلل» (٤/ ١٦٣) الاختلاف عليه فقال: «يرويه عبد الأعلى الثعلبيُّ عن أبي عبد الرحمن، واختلف عنه؛ فرواه إسرائيل وأَبَانُ بن تَغْلِب عن عبد الأعلى ورَفَعَه إلى النبيِّ =

قال أبو عليٍّ: هو من بابِ حذفِ المضافِ؛ أي: تجعلونَ شكرَ رزقكم أن تُكذِّبوا بذلك الرِّزقِ أنَّه من الله، بل تنسبونه إلى غيرِهِ، فتقولون: مُطِرنا بنوءِ كذا، وتُكذِّبون بالقرآنِ[١].

وقالَ الحسنُ: أي: تجعلون حظَّكم من القرآنِ أنَّكم تُكذِّبون[٢]؛ أي: تجعلون

= ﷺ. وخالفهما الثوريُّ فرواه عن عبد الأعلى عن أبي عبد الرحمن عن عليٍّ موقوفًا. ويُشْبِهُ أن يكون الاختلاف من جهة عبد الأعلى».

وعبد الأعلى هو ابن عامر الثعلبي، قال عنه ابن حجر في «التقريب»: صدوق يهم. فلعل في كلام الدارقطني إشارة إلى وهمه في رفع هذا الحديث، والله أعلم.

ثم لعل الوهم يكون في المتن أيضاً، فقد رواه الترمذي (٣٢٩٥) ـ وحسنه ـ من طريق إسرائيل، عن عبد الأعلى، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن عليٍّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال: «شكركم، تقولون: مُطِرنا بنوء كذا وكذا وبنجم كذا وكذا»، فهذا المتن مخالف لما رواه الثعلبي، حيث صرح هناك بأن النبي ﷺ قرأها كذلك، وظاهر هذه الرواية أن النبي ﷺ قال ذلك على طريق التفسير.

ثم إن سفيان الثوري قد ردَّ الرواية المرفوعة، فقد روى الإمام أحمد في «المسند» (٨٥٠)، قال: حدثنا مُؤَمَّلٌ، حدثنا إسرائيلُ، حدثنا عبد الأعلى، عن أبي عبد الرحمن، عن عليٍّ، رَفَعَه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ قال مؤملٌ: قُلتُ لسفيان: إن إسرائيل رفَعه؟ قال: «صِبْيانٌ صِبْيانٌ».

وعلى كل حال فإن هذه القراءة إن صحت فهي على سبيل التفسير لمخالفتها مصحف الإمام الذي أجمعت عليه الأمة، وقال الزجاج في «معاني القرآن» (٥/ ١١٦): ولا ينبغي أن يُقرأ بها لخلاف المصحف.

(١) انظر: «الحجة» للفارسي (٣/ ٤٣٣)، و(٦/ ٢٦٥)، و«البسيط» للواحدي (٢١/ ٢٦٣) وعنه نقل المصنف.

(٢) رواه بهذا اللفظ عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٨/ ٣٠). ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٣٧٢) بلفظ: خسر عبد لا يكون حظه من كتاب الله إلا التكذيب.

ما رزقَكم اللهُ من العلمِ الَّذي أنزلَه عليكم في القرآنِ ومن العقلِ ومن سائرِ ما أخبرَكم به من سائرِ النِّعمِ في هذه السُّورة التَّكذيبَ بربوبيَّتِه وقدرتِه على البعثِ.

* * *

(٨٣) ـ ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾؛ أي: لولا أنَّ اللهَ يُحيي ويُميت لكانَ إليكم الخِيرةُ في الوفاةِ، وذلك أنَّهم قالوا: يموتُ مَن يموتُ بغيابِه من غيرِ أن يُميتَه الله، ومن غيرِ أن ينقلَه إلى دارِ الجزاء، فالمعنى: فهلَّا إذا بلغَت نفسُ أحدِكم الحلقومَ عند النَّزعِ وأنتم حضورٌ أمسكتُم روحَه في جسدِه مع حرصِكم على امتدادِ عمرِه وحُبِّكم لبقائه، وهذا ردُّ قولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وقيلَ: هو خطابٌ لمَن هو في النَّزعِ؛ أي: إنْ لـمْ يكنْ مماتُك من الله، فهلّا حفظتَ على نفسِك الرُّوحَ.

* * *

(٨٤ ـ ٨٥) ـ ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾.

﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾؛ أي: أمري وسُلطاني.

وقيلَ: أي: العذابَ الَّذي تُكذِّبون به.

وقيلَ: هو خطابٌ للحاضرين؛ أي: وأنتم تنظرونَ إليه متى تخرجُ نفسُه.

وقيلَ: وأنتم تنظرونَ ولا يمكنُكم الدَّفعُ، ولا تملكون شيئاً.

وقيلَ: هو ردٌّ عليهم في قولِهم لإخوانهم: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٦]؛ أي: فهلّا ردُّوا روحَ الواحدِ منهم إذا بلغَتِ الحلقومَ.

وقولُـه: ﴿بَلَغَتِ﴾؛ أي: بلغـتِ الـرُّوحُ الحلقـومَ، ولـم يتقـدَّم لهـا ذِكـرٌ؛ لأنَّ المعنـى معـروف.

وقيـلَ: وأنتـم تنظرونَ لـه ولأقاربِـه، وتُريدونَ بقـاءَه، وهو من قولِـك: نظرتُ لفلانٍ؛ أي: أكثـر منه[1].

قـولُـه تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾؛ أي: بالعلمِ والقدرةِ والرُّؤيةِ، وأنتم ﴿لَّا تُبْصِرُونَ﴾؛ أي: لا تعلمون ذلك. خاطبَ الكفَّارَ.

وقيلَ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾؛ أي: ورسلُنا القابضونَ لروحِه أقربُ إليه منكم وأنتم لا تُبصرونهم.

* * *

(٨٦ ـ ٨٧) ـ ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾؛ أي: غيرَ مُحاسَبينَ.

وقيلَ: غير مَجزيِّين.

وقيلَ: غير مَملوكين.

﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾؛ أي: تـردُّونَ تلـكَ النَّفسَ الَّتـي بلغتِ الحلقـومَ، وتقديرُ الكلامِ: فلـولا إذا بلغـتِ الحلقـومَ تردُّونهـا إلى موضعِهـا إن كنتم غيـرَ مَجزيِّين مُحاسـبينَ كمـا تزعمونَ.

* * *

---

(١) «أكثر منه» كذا في (أ)، ولم يظهر لي وجهه، ولعله تحريف.

(٨٨ ـ ٨٩) ـ ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أعادَ ذكرَ منازلِ النَّاسِ في الآخرةِ، كما ذكرَ في أوَّلِ السُّورةِ؛ أي: إن كانَ هذا الَّذي تُقبضُ روحُه من السَّابقينَ إلى صالحِ الأعمالِ وهم الزَّوجُ الأوَّلُ من الأزواجِ الثَّلاثةِ ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾؛ أي: فله روحٌ وريحانٌ في القبرِ.

وقيلَ: فروحٌ في القبرِ، وريحانٌ يُتلقَّى به عند موتِه فيَشَمُّه وتخرجُ روحُه.

وقيلَ: الرَّيحانُ الاستراحةُ من استفالِ الدُّنيا[1].

وقيلَ: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ في الجنَّةِ، والرَّوحُ: ذهابُ الخوف، والرَّيحانُ: الرِّزقُ في الجنَّةِ.

وقالَ الحسنُ: يُجمعُ له الرَّوحُ والرَّيحانُ عندَ الموتِ وفي القبرِ وفي الجنَّةِ[2].

---

(١) «استفال الدنيا» كذا في (أ)، ومعناه: انحطاطها، وقد تقرأ: «اشتغال»، ولعله بهذا يوافق ما رواه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٨/ ٣٧) عن محمد بن كعب القرظِيِّ في قوله: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ قَالَ: فرجٌ من الغم الذي كانوا فيه، واستراحة من العمل لا يصلُّونَ ولا يَصومونَ.
وذكر السيوطي في الموضع نفسه ما رواه البخاري (٦٥١٢) ومسلم (٩٥٠) عن أبي قتادة قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ إذ مرت جَنازة فَقال: «مستريح ومستراح مِنْهُ»، فَقُلْنَا يَا رَسُول الله: ما المستريح وما المستراح منه؟ قال: العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله سبحانه وتعالى، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشَّجر والدَّواب».

(٢) لم أجده هكذا، وروى عنه ـ كما في «الدر المنثور» (٨/ ٣٧) ـ عبد بن حميد وابن جرير وأبو القاسم بن مَنْدَه في كتاب «السُّؤَال»: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ قَالَ: ذَاك فِي الْآخِرَة، فاستفهمه بعض الْقَوْم فَقَالَ: أما وَالله إِنَّهُم ليسرون بذلك عِنْد الْمَوْت.
وهو في «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٧٩) بلفظ: ذلك في الآخرة، فقال له بعض القوم قال: أما والله إنهم ليرون عند الموت.

وقيلَ: الرَّوحُ: الفرحُ، وأصلُه[١]: النَّسيمُ الَّذي يُستروَحُ إليه من كربِ الحرِّ.

وقيلَ: الرَّوحُ: الرَّحمةُ، من قوله: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من رحمتِه.

وقرأ يعقوب: ﴿فرُوحٌ﴾ بضمِّ الرَّاء[٢]؛ أي: فله حياة في الجنَّةِ لا موت معها[٣].

***

(٩٠ - ٩١) - ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ﴾؛ أي: المتوفَّى ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾؛ أي: ممَّن يُؤتونَ كتبَهم بأيمانِهم ﴿فَسَلَٰمٌ﴾؛ أي: فسلامٌ لكَ يا محمَّدُ وسرورٌ وخيرٌ منهم؛ أي: إنَّك تُبشَّرُ بما تراه من ثوابهم في الجنَّةِ.

وقيلَ: سلامٌ لك في الجنَّةِ وسلامٌ لك منهم؛ أي: أنتَ سالمٌ من الاغتمامِ لهم.

وقيلَ: إنَّ أصحابَ اليمينِ يَدعونَ لكَ يا محمَّدُ بأنْ يصلِّيَ الله عليك ويسلِّمَ.

وقيلَ: أي: فقد سلِمتَ من عذابِ اللهِ لأنَّك من أصحابِ اليمينِ، فحذفَ (أنَّك)؛ أي: فيُقال له[٤]: سلامةٌ لك منَ العذابِ، أو تسليمٌ من الله والملائكةِ عليك في القبرِ وفي الجنَّةِ.

وقيلَ: أي: نُخبرُك يا محمَّدُ بسلامتِهم.

---

(١) في (أ): «وأصله من قوله»، والصواب المثبت.

(٢) قرأ بها رويس عن يعقوب من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٣٨٣).

(٣) في (أ): «أي قلب حياة في الجنة الموت معها»، والصواب المثبت؛ قال الأزهري في «معاني القرءات» (٣/ ٥٣): من قرأ (فَرُوحٌ وَرَيْحَانٌ) فمعناه: فحياةٌ دائمةٌ لا موت فيها.

وقال القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٢٣١): (فرُوحٌ) بضمِّ الراء معناه: فبقاء له وحياة في الجنة.

(٤) في (أ): «لهم»، والمثبت هو الأنسب بالسياق.

(٩٢ ـ ٩٤) ـ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنۡ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ هـمُ الذين قالَ لهم: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأٓكِلُونَ﴾.

﴿فَنُزُلٌ مِّنۡ حَمِيمٍ﴾؛ أي: فرزقُه المعدُّ له حميمٌ لا رَوحَ فيه.

﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾؛ أي: بإدخالِ نارٍ عظيمةٍ، يُقال: أصْلاه النّارَ وصَلّاه؛ أي: جعلَه يَصلاها، والمصدرُ هاهنا يضافُ إلى المفعولِ، كما يُقالُ: لفلانٍ إعطاءُ مالٍ؛ أي: يُعطَى المالَ.

وقُرِئَ: (وتَصليةِ) بكسرِ التَّاءِ[1]؛ أي: ونُزُلٌ من تصليةِ جحيمٍ، ثمَّ أدغمَ أبو عمرٍو التاءَ في الجيم[2]، وهو بعيدٌ.

* * *

(٩٥ ـ ٩٦) ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ إنَّ هذا الَّذي قصَصْنا عليك في هذهِ السُّورةِ فهو حقُّ اليقين، ثمَّ هو عند البصريِّين بمعنى: حقُّ الأمرِ اليقين، وعند الكوفيِّين هو من بابِ إضافةِ الشَّيءِ إلى نفسِه.

قولُه تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ أي: نزِّهِ الله تعالى عن السُّوءِ، والباءُ زائدةٌ؛ أي: سبِّحْ ربَّك، والاسمُ: المسمَّى.

وقيلَ: (سبِّحْ)؛ أي: صَلِّ.

---

(١) رويت عن أبي عمرو في غير المشهور عنه، والرفع رواية الجمهور. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٢)، و«الكامل في القراءات» (ص: ٦٥٤).

(٢) انظر: «التيسير» للداني (ص: ١٤٧)، و«الكنز في القراءات» (٢/ ٦٧٤).

سُورَةُ الحَدِيدِ

سُورَةُ الحَدِيدِ

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١) ـ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ هـو تسبيحُ الدِّلالةِ؛ فإنَّ ممَّا في السَّماواتِ والأرضِ الأعراضَ ولا يُتصوَّرُ لها تسبيحُ المقال.

وأنكرَ الزَّجَّاجُ هذا، وقال: لو كانَ هذا تسبيحَ الدِّلالةِ وظهورَ آثارِ الصَّنعةِ، لكانَت معقولةً مفهومةً، فَلِمَ قالَ: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٤٤]؟!

وهذا غيرُ لازمٍ؛ لأنَّ الكفَّارَ ما كانُوا يفقهونَ أنَّ العالمَ يدلُّ على ثبوتِ الصَّانعِ، والخطابُ معهم.

واستدلَّ أيضاً بقولِه: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ﴾، فلو كانَ هذا التَّسبيحُ تسبيحَ الدِّلالةِ، فأيُّ تخصيصٍ لداودَ[١]؟!

وهذا لأن التسبيحَ تسبيحُ المقال بخلقِ[٢] الحياةِ فيما كانَ تميَّزَ به داودُ والإنطاقِ بالتَّسبيحِ كما ذكرنا في مواضعَ.

* * *

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٢١).

(٢) في (أ): «وهذا الآن تسبيح المقال فخلقِ»، وهي عبارة غير مستقيمة، ولعل ما أثبتناه هو الصواب.

(٢) ـ ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قولُـه تعالـى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ أي: يفعـلُ ما يريـدُ، يميتُ الأحيـاءَ فـي الدُّنيـا، ويُحيـي الأمـواتَ للبعـثِ، أو يُحيي النُّطـفَ الَّتي هـي مواتٌ، أو يُحيـي الأرضَ بالنَّبـاتِ ويُميتُهـا عنـد يبس النَّبـاتِ، أو يُحيي القلـوبَ بالإيمانِ ويُميتهـا بالكفرِ.

***

(٣) ـ ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ قيل: ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾: السَّابـقُ لكـلِّ شيءٍ ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾: الباقي بعدَ الأشياءِ كلِّها ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ بمعنى: وضوحُ الدَّلالةِ على وجودِه ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ بمعنى: أنَّه مُدرَكٌ بالدَّليلِ دونَ الضَّرورةِ والعِيانِ اليومَ.

وقيلَ: يرجعُ الجميعُ إلى العلمِ، كما تقولُ: أنا أوَّلُ هذا الأمرِ وآخرُه وظاهرُه وباطنُه؛ أي: لا يَخفى عليَّ منه شيءٌ.

وقيلَ: هو من صفاتِ الفعلِ، كما تقولُ: أنا أوَّلُك وآخرُك وظاهرُك وباطنُك؛ أي: أنا القائمُ بأمورِكَ وأشيائِك.

وقيلَ: ﴿الظَّاهر﴾ بمعنى: العالي على كلِّ شيءٍ والغالبُ، ومنه ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤] وظهرتَ على كذا؛ أي: عَلَوتَ.

وفي الخبرِ: «وأنت الظَّاهرُ فليسَ فوقَك شيءٌ، والباطنُ فليسَ دونَك شيءٌ»[١]، عنى بالظَّاهرِ: الغالبَ، والباطنِ: العالمَ.

***

---

(١) رواه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤ ـ ٥) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ أي: لـم يُعاجِلْ بالعقوبةِ مع قدرتِه على المعاجلةِ إذ لا يَفوتُه شيء، كما لـم يخلقِ السَّماواتِ والأرضَ في لحظة واحدة، بل خلقَها في ستَّةِ أيَّامٍ.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: قصدَ إلى تدبيرِ مُلكِه وحفظِه عن أن يلحقَ شيئاً منه خللٌ.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ما ينزلُ من السَّماءِ ماءً فيدخلُ في الأرضِ، وما كانَ في الأرضِ فيخرجُ منها، وذلك النَّباتُ ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني: المطرَ والأحكامَ ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ منَ الملائكةِ وصحفِ الأعمالِ.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾؛ أي: بالعلمِ والقدرةِ والرُّؤيةِ.

وقد جمعَ في هذه الآيةِ بين ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وبين ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾، والأخذُ بالظَّاهرَينِ تناقضٌ، فدلَّ ذلك على أنَّه لا بدَّ من التَّأويلِ، والإعراضُ عن التَّأويلِ اعترافٌ بالتَّناقضِ.

قولُه تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا التَّكريرُ للتَّأكيدِ.

* * *

(٦) ـ ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: يصرِّفُهما على اختلافِ السّاعاتِ والأزمنةِ حتَّى يأخذَ هذا من ذلك، وذلك من هذا؛ لِمَا في ذلك من قِوامِ العالمِ.

﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: لا تخفى عليه الضَّمائرُ، ومَن كانَ بهذه الصِّفاتِ فلا يجوزُ أن يُعبدَ مَن سواه.

* * *

(٧) ـ ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ أي: ظهرَ الدَّليلُ على أنَّه لا إلهَ غيرُه، فآمنوا به ﴿وَأَنفِقُواْ﴾؛ أي: في جهادِ الكفَّارِ ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾؛ أي: كانَ بيدِ غيرِكم، فأهَّلَكم، وصارَ ذلك إليكم، فأنتم خلائفُ عمَّن مضَوا.

* * *

(٨) ـ ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: أيُّ عُذرٍ لكم في أن لا تُؤمنوا وقد أُزيحَت العِللُ ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ﴾؟ بيَّنَ هذا أنَّه لا حُكمَ قبل ورودِ الشَّرائع.

﴿وقد أُخِذَ ميثاقُكم﴾ بضمِّ القافِ[1].

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قيل: إذ أنتم، وقيلَ: إن كنتم مؤمنين بالحججِ والدَّليلِ.

وقيلَ: أي: إن كنتم مؤمنين يوماً، فما لكم لا تؤمنونَ الآنَ؟

وقيلَ: أي: إن كنتم مؤمنين باللهِ خالقِكم، وكانوا يَعترفون بهذا.

---

(١) هي قراءة أبي عمرو بالبناء للمجهول ورفع الميثاق، وباقي السبعة بالبناء للفاعل ونصب الميثاق. انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٥)، و«التيسير» (ص: ٢٠٨).

وقيلَ: هذا خطابٌ لقومٍ آمنوا وأخذَ النَّبيُّ عليه السَّلام ميثاقَهم فارتدُّوا، وقولُه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إن كنتم تَفُونَ بشرائطِ الإيمانِ.

* * *

(٩) ـ ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ وهذه الآياتُ: المعجزاتُ؛ أي: لزمكمُ الإيمانُ بمحمَّدٍ لـمَا معه من المعجزاتِ. وقيلَ: آياتُ القرآنِ.

* * *

(١٠) ـ ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: وأنتم ميِّتونَ تاركونَ أموالَكم.

﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ يعني بالفتحِ: فتحَ مكَّةَ؛ أي: لا يستوي في الفضلِ مَن أنفقَ من مالِه قبلَ الفتحِ ومَن أسلمَ من بعدُ وأنفقَ، نزلَت في أبي بكرٍ فإنَّه كانَ أوَّلَ مَن أنفقَ المالَ على رسولِ اللهِ ﷺ في سبيلِ اللهِ[١].

وفي الكلامِ اختصارٌ؛ أي: لا يستوي من أنفقَ من قبلِ الفتحِ وقاتلَ، ومن أنفقَ من بعدِ الفتحِ وقاتلَ، فحُذفَ لدلالةِ الكلامِ عليه؛ إذ قالَ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٦/ ٣٠)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٠٦)، عن الكلبي.

﴿أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟﴾ وبيَّنَ بهذه الآيةِ أنَّ المتقدِّمينَ[1] نالهم من المشقَّةِ أكثرُ ممَّا نالَ مَن بعدهم، وكانَت بصائرُهم أيضاً أنفذَ.

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: كِلَا الفريقينِ في الجنَّةِ، ﴿وَكُلًّا﴾ بالنَّصبِ كقولك: زيداً وعدتُ خيراً، وقرأ ابنُ عامرٍ ﴿وكلٌّ﴾ بالرَّفعِ[2]؛ لتقدُّمِه على الفعلِ.

***

(١١) - ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ نَدبَ إلى الإنفاقِ في سبيلِ اللهِ، وسمَّاه قرضاً؛ لأنَّ القرضَ أُخرجَ لاستردادِ البدلِ؛ أي: من ذا الَّذي ينفقُ في سبيلِ اللهِ حتى يُبدلَه الله بالأضعافِ الكثيرةِ ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ مع البدلِ.

والقرضُ الحسنُ: أن يكونَ المتصدِّقُ صادقَ النِّيَّةِ طيِّبَ النَّفسِ، يبتغي به وجهَ الله دونَ الرِّياءِ والسُّمعة، وأن يكونَ من الحلالِ.

ومن القرضِ الحسنِ:

أن لا يقصدَ إلى الرَّديءِ فيخرجَه؛ لقولِه: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وأن يتصدَّقَ في حالٍ يَأْمَلُ الحياةَ؛ فإنَّ النَّبيَّ عليه السَّلام سُئِلَ عن أفضلِ الصِّدقةِ فقال: «أن تُعطيَه وأنت صحيحٌ شحيحٌ تأمَلُ العيشَ، ولا تُمهِلْ حتَّى إذا بلغَتِ التراقيَ قلتَ: لفلانٍ كذا، ولفلان كذا»[3].

---

(١) في (أ): «المؤمنين»، والتصويب من «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٢٣)، و«البسيط» (٢١/ ٢٨١).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٥)، و«التيسير» (ص: ٢٠٨).

(٣) رواه البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٣٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وفيه: «تخشى الفقر وتأمل الغنى» بدل «تأمل العيش».

وأن يُخفيَ صدقتَه؛ لقولِه: ﴿وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٧١].

وأن لا يمنَّ؛ لقولِه: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وأن يستحقِرَ كثيرَ ما يُعطي؛ لأنَّ الدُّنيا كلَّها قليلة.

وأن يكونَ مِن أحبِّ مالِه؛ لقولِه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وأن يكونَ كثيراً؛ لقولِه عليه السَّلام: «أفضلُ القُرباتِ عندَ الله أغلاها ثمناً وأنفسُها عند أهلِها»(١).

﴿فيُضَاعِفه له﴾ قُرِئَ بالرَّفعِ عطفاً على ﴿يُقۡرِضُ﴾، وبالنَّصبِ جواباً للاستفهامِ(٢)، وهو كقولِه: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

* * *

---

(١) رواه البخاري (٢٥١٨) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، ولفظه بتمامه: «سألت النبي ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله، وجهاد في سبيله، قلت: فأي الرقاب أفضل؟ قال: أغلاها ثمناً، وأنفسها عند أهلها، قلت: فإن لم أفعل؟ قال: تعين صانعاً، أو تصنع لأخرق، قال: فإن لم أفعل؟ قال: تدع الناس من الشر، فإنها صدقة تصدق بها على نفسك».

(٢) قرأ ابن كثير: ﴿فيضعِّفُه له﴾ بتشديد العين ورفع الفاء، ومثله ابن عامر لكن بنصب الفاء، وقرأ عاصم: ﴿فيُضاعفَه﴾ بالألف ونصبِ الفاء، ومثله الباقون إلَّا أنَّهم رفعوا الفاء. انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٥)، و«التيسير» (ص: ٨١).

(١٢) ـ ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾؛ أي: ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) يَوْمَ تَرَى﴾؛ أي: في ذلك اليوم ﴿يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾؛ أي: إلى الجنَّةِ، وهو كقولِه: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا﴾ [التحريم: ٨]، فهذا يدلُّ على أنَّ هذا يكونُ في حالِ توجُّهِهم إلى الجنَّةِ.

قال الحسنُ: ﴿يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ على الصِّراطِ[١]، وهو دليلٌ لهم إلى الجنَّةِ.

وقالَ ابنُ مسعود: يُؤتَون نورَهم على قَدْرِ أعمالهم، منهم مَن نورُه مثلُ الجبلِ، وأدناهم نوراً نورُه على إبهامِه، يَنطفئُ مرَّةً، ويشعلُ أخرى[٢].

﴿وَبِأَيْمَانِهِم﴾؛ أي: عن أيمانِهم وعن شمالِهم، فذكرُ اليمينِ دلَّ على الشِّمالِ، والباءُ بمعنى: عن.

أو[٣]: ويُعطَون كتبَهم بأيمانِهم، فحذفَ لدلالةِ ذكرِ اليمينِ عليها.

وقيلَ: ﴿بأيمانهم﴾؛ أي: في أيمانِهم، كما تقولُ: كتبَ ببلدِ كذا وفي بلدِ كذا، و: خذْه ببدلٍ وفي بدلٍ، وإيتاءُ الكتابِ في اليمينِ علامةُ الخيرِ.

﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ﴾؛ أي: تقولُ الملائكةُ لهم: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ﴾.

* * *

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٥٣١٧)، وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٨/ ٥٢).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٥٥٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٣٣٦).

(٣) في (أ): «أي»، والصواب المثبت، فهو قول آخر كما يظهر من سياق الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٢٨٥)، فقد نسب الأول للأخفش والفراء، والثاني للضحاك وابن حيان. وابن حيان هو مقاتل.

(١٣) ـ ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ قالَ أبو أمامة: يغشى النَّاسَ يومَ القيامةِ ظلمةٌ شديدةٌ، ثمَّ يُعطَى المؤمنُ النُّورَ، ويُترَكُ الكافرُ والمنافقُ بلا نورٍ، فيقول المنافقون للذين آمنوا: انظُرونا نقتبسْ مِنْ نورِكم، فيقولون: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟﴾. وهذا خداعٌ للمنافقينَ، فيرجعون إلى المكانِ الَّذي قُسِمَ فيه النُّورُ فلا يجدون شيئاً، قالَ اللهُ تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢][1]، فينصرفونَ إليهم وقد ضُرِبَ بينهم بسورٍ.

﴿ٱنظُرُونَا﴾؛ أي: انتظرونا؛ أي: يسبقُ المسلمونَ بنورِهم، ونظرَ بمعنى: (انتظَرَ) مثلَ حَفرَ بمعنى: احتفَرَ، وشَرَى بمعنى: اشترى.

وقرأَ حمزةُ: ﴿أنظِرونا﴾ بقطعِ الألفِ[2] من الإنْظارِ.

﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾؛ أي: لا نورَ لكم عندنا، ثمَّ يحتمِلُ أنَّه من قولِ الملائكةِ، ويحتمِلُ أن يكونَ من قولِ المؤمنينَ.

وقيلَ: هلَّا طلبتم النُّورَ في الدُّنيا بأن تؤمنوا.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾، السُّورُ: الحائطُ، والباءُ في ﴿بِسُورٍ﴾ صلةٌ للتَّأكيدِ.

ثمَّ؛ قيل: هذا سورٌ على الحقيقةِ كالسُّور المعروفِ.

وقيلَ: هو الأعرافُ المذكورةُ في القرآنِ.

---

(١) رواه مطولًا موقوفاً على أبي أمامة: ابن أبي الدنيا في «الأهوال» (٩٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٣٣٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥١١)، وصححه.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٥)، و«التيسير» (ص: ٢٠٨).

﴿لَّهُۥ بَابٌۢ﴾؛ أي: لذلك السُّورِ بابٌ ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾؛ أي: في باطنِ السُّورِ الرَّحمةُ؛ يعني: الجنَّةَ الَّتي فيها المؤمنونَ، وظاهرُ السُّورِ يأتيهم العذابُ من قِبَلِه.

***

(١٤) - ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾؛ أي: يُنادي المنافقونَ المسلمينَ وقد ضُرِبَ بينهم السُّورُ: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في الدُّنيا نُصلِّي ونصومُ؟ فيقولُ المؤمنونَ: ﴿بَلَىٰ﴾، ولكن ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ بالنِّفاقِ، وخالَفْتُمونا بالقلوبِ ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾؛ أي: بالتَّوبةِ. وقيلَ: بمحمَّدٍ الموتَ وبالمؤمنينَ الدَّوائرَ.

﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾؛ أي: في الوعيدِ، وفي نبوَّةِ محمَّدٍ عليه السلام.

﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾؛ أي: ما تتمنَّونه من ضعفِ المسلمينَ ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الموت، ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾؛ أي: الشَّيطانُ. وقيلَ: الدُّنيا.

وقُرِئَ: (الغُرورُ) بضمِّ الغينِ[١].

***

(١٥) - ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ آيسَهم من النَّجاةِ ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ أي:

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٣) و«المحتسب» (٢/ ٣١١) عن سماك بن حرب وأبي حيوة.

مثواكم ﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾؛ أي: أولى بكم، والمولى: مَن يتولَّى مصالحَ إنسانٍ، ثمَّ استُعمِلَ فيمَن كانَ ملازماً للشَّيء.

وقيلَ: إنَّ النَّارَ تملكُ أمرَكم، بمعنى: أنَّ اللهَ يُركِّبُ فيها الحياةَ والعقلَ، فهي تتميَّزُ غيظاً؛ أي: على الكفَّارِ، ولهذا خوطبَتْ في قولِه: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ [ق: ٣٠].

* * *

(١٦) ـ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ نزلَت في المنافقينَ بعد الهجرةِ بسنةٍ؛ لأنَّهم قالوا لسلمانَ: حدِّثنا عمَّا في التَّوراةِ؛ فإنَّ فيها عجائبَ(١).

وقيلَ: نزلَتْ في المؤمنينَ، قالَ سعد: يا رسولَ اللهِ، لو قصصتَ علينا، فنزلَ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ٣]، فقالوا بعدَ زمانٍ: لو حدَّثتَنا، فنزلَ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، فقالوا بعد مُدَّة: لو ذكَّرتَنا، فأنزلَ اللهُ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾(٢).

وقيلَ: ظهرَ في المؤمنينَ المزاحُ والضَّحكُ لـمَّا ترفَّهوا بالمدينةِ، فنزلَتِ الآيةُ،

---

(١) ذكره مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (٤/ ٢٤١)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٦/ ٥٧)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٠٦)، عن الكلبي ومقاتل. ووقع في «تفسير مقاتل»: «بعد الهجرة بستة أشهر».

(٢) رواه البزار في «مسنده» (١١٥٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (٧٤٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢٠٩)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣١٩) وصححه، والضياء في «المختارة» (١٠٦٩)، وحسنه البوصيري في «الإتحاف» (٥٧٣٤)، والحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» (٣٦٣٤).

ولمَّا نزلَت هذهِ الآيةُ قالَ عليه السَّلام: «إنَّ اللهَ يَستبطِئُكم بالخشوعِ» فقالوا عند ذلك: يَعْتِبُ ربُّنا[١].

وقيلَ: هذا الخطابُ لـمَن آمنَ بموسى وعيسى دونَ محمَّدٍ عليه السَّلام؛ لأنَّه قالَ عقيبَ هذا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾؛ أي: ألم يأنِ للَّذينَ آمنوا بالتَّوراةِ والإنجيلِ أن تلينَ قلوبُهم للقرآنِ، وأن لا يكونوا كمتقدِّمي قومِ موسى وعيسى إذ طالَ عليهمُ الأمدُ بينهم وبين نبيِّهم فقسَت قلوبُهم.

وقيلَ: نزلَت في المنافقينَ؛ أي: ألم يأنِ للَّذين آمنوا جهراً أن يُؤمنوا بالقلبِ[٢].

يُقالُ: أَنَى يَأْنِي، وآنَ يَئِينُ أَيْناً: إذا حانَ، والخشوعُ: الذُّلُّ والخضوعُ.

﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لـموعظةِ الله، فالذِّكرُ مصدرٌ أُضيفَ إلى الفاعلِ؛ أي: لِـمَا ذكرَ اللهُ لهم من مواعظِ القرآن، ويجوزُ أن يكونَ الذِّكرُ مُضافاً إلى المفعولِ؛ أي: لذكرِهم الله.

﴿وما نزَّلَ منَ الحقِّ﴾؛ أي: ولِـمَا نزَّلَ من الحقِّ، وفيه حذفٌ؛ أي: ولـمَا نزَّلَه من الحقِّ، قُرِئ: ﴿نزَّلَ﴾ بالتَّشديدِ، و: ﴿نَزَلَ﴾ بالتَّخفيفِ، وقرأ أبو عمرٍو: (وما نُزِّلَ) بضمِّ النُّون والتَّشديدِ[٣].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٢٩٣) عن مقاتل بن حيان. وروى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٣٣٨) عن مقاتل بن حيان قال: «كان أصحاب النبي ﷺ قد أخذوا في شيء من المزاح، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ الآية»، وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ الآية».

(٢) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٤٧٧)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (١٤/ ٢٩٨)، عن الكلبي.

(٣) قرأ نافع وحفص: ﴿نزل﴾ خفيفة الزاي، والباقون مشددة الزاي. انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٦)، =

﴿وَلَا يَكُونُوا﴾ قال الفرَّاءُ: أي: وأنْ لا يكونوا، قالَ: ولو كانَ جزماً على النَّهيِ لكانَ صواباً[١]. ولهذا قرأ قومٌ بالتَّاءِ[٢].

﴿كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: اليهودِ والنَّصارى ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾؛ أي: الدَّهرُ والزَّمانُ، كما يُقالُ: «طالَ الأمدُ على لُبَدٍ».

﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: فمالوا إلى الدُّنيا.

وقيلَ: طالَ عليهم أمدُ آجالِهم.

وقيلَ: الأمدُ: الأملُ البعيدُ هاهنا؛ أي: أمَّلوا بعيداً فقستْ قلوبهم.

وقيلَ: طالَ عليهم خروجُ محمَّدٍ عليه السَّلام.

والمقصودُ: نهيُ المؤمنين عن أن يكونوا في صحبةِ القرآنِ كاليهودِ الذين قسَتْ قلوبهم.

وقرأ ابنُ كثيرٍ: (فطالَ عليهم الأمَدُّ) بالتَّشديدِ[٣]، وهو الأفعلُ من المدِّ، فهو صفةُ محذوفٍ؛ أي: الدَّهرُ الأمدُّ.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يعني: الذين تركوا الإيمانَ بعيسى ومحمَّدٍ عليهما السَّلامُ.

* * *

= و«التيسير» (ص: ٢٠٨). وذكر ابن مجاهد عن أبي عمرو في غير المشهور عنه القراءة بضم النون وتشديد الزاي.

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٣٥).

(٢) قرأ بها رويس عن يعقوب. انظر: «النشر» (٢/ ٣٨٤).

(٣) انظر: «البحر المحيط» (٢٠/ ٢١٨)، عن ابن كثير في رواية، والمشهور عنه كالجمهور.

(١٧) ـ ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ أي: كذلك يُحيي الموتى من الأممِ، ويميِّزُ بين الخاشعِ قلبُه وبين القاسي قلبُه.

* * *

(١٨) ـ ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ هذا حثٌّ على الصَّدقاتِ، والقراءةُ بالتَّشديدِ؛ أي: أنَّ المتصدِّقين والمتصدِّقات، ولهذا قالَ: ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، وإدغامُ التَّاءِ في الصَّادِ حَسَنٌ، وقُرِئَ: ﴿إنَّ المُصَدِّقين﴾ بتخفيفِ الصَّادِ[1] من التَّصديقِ بمعنى الإيمان؛ أي: إنَّ المؤمنينَ ومَن أقرضَ الله قرضاً حسناً.

وقيلَ: أقرضَ اللهَ قرضاً حسناً؛ أي: فعلَ فعلاً حسناً، ويدخلُ فيه جميعُ الطَّاعات.

* * *

(١٩) ـ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ عامٌّ في جميعِ المؤمنين.

﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: الذين آمنوا هم الصِّدِّيقونَ وهم الشُّهداءُ.

قالَ مجاهدٌ: كلُّ مؤمنٍ صدِّيقٌ وشهيدٌ، وتلا هذه الآيةَ.

---

(١) قرأ بها ابن كثير وأبو بكر، والباقون بتشديدها. انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٦)، و«التيسير» (ص: ٢٠٨).

وفي الخبرِ: «مُؤمنو أُمَّتي شهداءُ» وتلا هذه الآيةَ[١].

وقيلَ: قولُه: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ ابتداءُ كلامٍ[٢]؛ أي: والشُّهداءُ لهم أجرُهم ونورُهم؛ لأنَّ مُطلَقَ لفظِ الشَّهيدِ يُطلَقُ على القتيلِ.

وقيلَ: يعني بالشُّهداءِ: النَّبيِّينَ؛ لقولِه: ﴿وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ٤١].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: بالرُّسلِ والمعجزاتِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ فلا أجرَ لهم ولا نورَ.

* * *

(٢٠) ـ ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ وجهُ الاتِّصالِ: أنَّ الإنسانَ قد يتركُ الجهادَ خوفاً على نفسِه من القتلِ وخوفاً من لزومِ الموتِ، فبيَّنَ أنَّ الحياةَ الدُّنيا مُنقضيةٌ، فلا ينبغي أن يُتركَ أمرُ اللهِ محافظةً على ما لا يَبقى[٣]، وإنَّما يريدُ حياةَ مَن لا تكونُ حياتُه في طاعةِ اللهِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٤١٤) عن البراء بن عازب رضي الله عنهما. قال ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ٢٣): «حديث غريب».

(٢) ذكره الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ١٣٥)، وذكر النحاس الخلاف فيمن قطع ووصل في «القطع والائتناف» (ص: ٧١٧ ـ ٧١٩).

(٣) في (أ): «مخافة على ما بقي» بدل: «محافظة على ما لا يبقى»، والمثبت من «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٥٩).

وقيلَ: جعلها لعباً ولهواً لأنَّها تنقضي عن قريبٍ.

﴿وَزِينَةٌ﴾؛ أي: الكافرُ يتزيَّنُ بالدُّنيا ولا يعملُ للآخرةِ.

﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: تتفاخرونَ بالأموالِ والأولادِ.

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾؛ أي: الحياةُ الدُّنيا كالزَّرعِ الذي يُعجبُ الناظرينَ إليه لخُضرتِه بكثرةِ الأمطارِ، ثمَّ لا يلبثُ أن يصيرَ هشيماً كأنَّه لـم يكنْ.

و﴿الْكُفَّارَ﴾: الزُّرَّاعُ؛ لأنَّ الزُّرَّاعَ تَكْفُرُ الزَّرعَ بالتُّرابِ؛ أي: تَسْترُ، وإذا أعجَبَ الزُّرَّاعَ فهو غايةُ ما يُستحسَنُ.

وقيلَ: عنى الكافرين باللهِ؛ لأنَّهم أشدُّ إعجاباً بزينة [الدُّنْيَا من المؤمنين](١).

[قوله: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ فختَم بذكرِ العذاب، والمعنى: فعذابٌ شديدٌ] لمـ[ـن](٢) كانَت حياتُه بهذه الصِّفة ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾؛ أي: لأوليائِه، كأنَّه ذكرَ وصفَ الدُّنيا وما فيها ثمَّ قالَ: وأمَّا الآخرةُ فإنَّها عذابٌ لقومٍ وجنةٌ لقومٍ.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ هذا تأكيدُ ما سبقَ؛ أي: تَغُرُّ الكفَّارَ، فأمَّا المؤمنُ فالدُّنيا له متاعٌ وبلاغٌ إلى الجنَّةِ.

* * *

(٢١) ـ ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: إلى الأعمالِ الَّتي تُوجبُ

(١) ما بين معكوفتين من «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٢٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٦١).

(٢) ما بين معكوفتين من «البسيط» (٢١/ ٣٠٢).

المغفرةَ؛ يعني: المسابقةَ إلى الموتِ بالطاعاتِ ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وصَفَها بغايةِ ما يَتوهَّمُ الإنسانُ من السَّعةِ.

وقالَ الحسنُ: يعني: جميعَ السَّماواتِ والأرضينَ مبسوطاتٍ كلَّ واحدةٍ إلى صاحبتِها(١).

وقيلَ: يريدُ: لرجلٍ واحدٍ؛ أي: لكلِّ واحدٍ جنَّةٌ(٢).

فهذه السّعةُ ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ شرطَ الإيمانِ لا غير، وفيه تقويةُ الرَّجاء.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا تُنالُ الجنَّةُ إلّا بفضلِ الله.

* * *

(٢٢) ـ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هوَّنَ عليهم ما يصيبُهم في الجهادِ من قتلٍ وجرحٍ، وبيَّنَ ما يُخلِّفُهم عن الجهادِ من المحافظةِ على الأموالِ وما يقعُ فيها من خسرانٍ، فالكلُّ مكتوبٌ مقدَّرٌ لا مَدفعَ له، وإنما [على المرءِ امتثالُ الأمرِ](٣).

[﴿قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾]؛ أي: من قبلِ خلقِ الأنفسِ، أو الأرضِ، أو: من قبلِ خلقِ المصيبةِ(٤).

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ أي: حفظُ ذلك على اللهِ هيِّنٌ.

---

(١) ذكره ابن أبي زمنين في «تفسيره» (٤/ ٣٥٤)، والقرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٢٦٢)، ولم ينسبه ابن أبي زمنين، وزاد: «هذا عرضها، ولا يصف أحدٌ طولها».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٣٠٣) من رواية عطاء عن ابن عباس.

(٣) ما بين معكوفتين من «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٦٤).

(٤) انظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٦٣)، وما بين معكوفتين منه.

(٢٣) ـ ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾؛ أي: لكيلا تأسَوا بما فاتَ ﴿وَلَا تَفْرَحُوا﴾ بما تيسَّرَ، ومَن علمَ أنَّ ما قُضِيَ عليه سيصيبُه لا محالةَ قلَّ فرحُه وحزنُه.

﴿بِمَا آتَاكُمْ﴾؛ أي: أعطاكم.

وقرأ أبو عمرٍو: ﴿بما أتاكم﴾[1]

[ورَوَى عكرمةُ عن ابن عباس]: اجعلوا للمصيبةِ صبراً، وللخيرِ [شُكراً][2].

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾؛ أي: مُختالٍ بالدُّنيا فخورٍ بها.

***

(٢٤) ـ ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾؛ أي: لا يحبُّ المختالينَ الذين يبخلونَ.

وقيلَ: هذا ابتداءُ كلامٍ؛ أي: الذين يبخلونَ فالله غنيٌّ عنهم.

قيل: أرادَ اليهودَ بخلوا ببيانِ صفةِ محمَّدٍ عليه السَّلام، والخبرُ محذوفٌ؛ أي: الذين بخلوا فالله غنيٌّ عنهم ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن الإيمانِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ غنيٌّ عنه.

---

(١) في (أ): «وقال أبو عمرٍو: ولكنَّه قالَ»، والصواب المثبت، أو أن في الكلام سقطاً لم نعرفه. وقراءة أبي عمرو بقصر الهمزة في «السبعة» (ص: ٦٢٦)، و«التيسير» (ص: ٢٠٨).

قال الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٣٠٧): وقرأ أبو عمرو مقصورًا من الإتيان، عادل به ﴿فَاتَكُمْ﴾ فكما أن الفعل للفائت في قوله: ﴿فَاتَكُمْ﴾ كذلك يكون الفعل الذي في قوله: ﴿مَا آتَاكُمْ﴾، والعائد إلى الموصول من الكلمتين الذكر [أي: الضمير] المرفوع بأنه فاعل.

(٢) انظر: «البسيط» (٢١/ ٣٠٨)، ومابين معكوفتين منه،

وقيلَ: أي: مَن بخلَ بالزَّكاةِ.

وحذفُ الخبرِ كثيرٌ في القرآنِ، كقولِه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١].

* * *

(٢٥) ـ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالمعجزاتِ البيِّنةِ والشَّرائعِ الظَّاهرةِ ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: الكُتبَ ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾؛ أي: آلةَ التَّعاملِ الَّتي يقعُ بها العدلُ والإنصافُ ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدلِ في معاملاتِهم.

وقولُه: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ يدلُّ على أنَّه أرادَ الميزانَ المعروفَ. وقالَ قومٌ: أرادَ به العدلَ.

وإذا حملنا على الميزانِ المعروفِ، فالمعنى: أنزلنا الكتابَ ووضعنا الميزانَ، وهو من بابِ:

عَلفتُهـا تِبنـاً ومـاءً بـارداً[١]

ويـدلُّ على هذا قولُـه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمـن: ٧]، ثمَّ قال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الرحمن: ٩].

---

(١) صدر بيت أنشده الفراء في «معاني القرآن» (١/ ١٤) لبعض بني دُبَير ـ قبيلة من أسد ـ يصف فرسه. وعجزه:

حَتَّـى شَـتَتْ هَمَّالَـةً عَيْناهـا

﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ قال الكلبيُّ: أنزلَ اللهُ تعالى على آدمَ العلاةَ والمِطْرقةَ والكَلْبَتين(١).

وقالَ ابنُ عبَّاس: نزلَ آدمُ من الجنَّةِ مع خمسةِ أشياءَ من الحديدِ، وهي: السِّندانُ والكَلْبَتان والمِيْقَعةُ والمطرقةُ والإبرةُ(٢).

والميقعةُ: ما يُحَدُّ به، يُقال: وقَعْتُ الحديدةَ أقعُها؛ أي: حَدَدْتُها.

وقيلَ: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾؛ أي: أنشأناه وجعلناه، كقولِه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦].

﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾؛ أي: شدَّةٌ ليُحارَبَ به، وتُتَّخذَ منه آلةُ الدَّفعِ وآلةُ الضَّرب، ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: منافعُ سوى اتِّخاذِ أسلحةِ الجهاد.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ عطفاً على قولِه: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾، وهذا لأنَّ اللهَ تعالى يعلمُ مَن ينصرُ دينَه ناصراً إذا نصرَ، وقبلَ ذلك كانَ يَعلمُ أنَّه سيَنْصُرُ.

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: بالإخلاصِ.

---

(١) ذكره عن الكلبي الواحدي في «البسيط» (٢١/ ٣١٠). ودون نسبة في «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٣٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٢٩)، والسمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٤١٠). قال الزجاج: «والعلاة هي التي يسميها الحدادونَ السِّنْدَانَ». ووقع في (أ): «العلاوة»، وفي مطبوع الفراء والبسيط: «القلاة» وكلاهما تحريف. انظر: «القاموس» (مادة: علا).

(٢) رواه إبراهيم الحربي في «غريب الحديث» (١/ ٥٤)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٤٢٥)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٦/ ٩٣)، والواحدي في «البسيط» (٢١/ ٣١١)، وليس في رواية الحربي كلمة «المطرقة والإبرة». و«الإبرة» لم ترد عند الطبري أيضاً.

والكلبتان: ما يأخذ به الحداد الحديد المحمى، والميقعة كما قال الحربي: المطرقة التي يُضرب بها الحديد. وفي «الصحاح» (مادة: وقع): الميقعة: خشبة القصار التي يدق عليها، ويقال: الميقَعَةُ: المِسَنُّ الطويلُ.

(٢٦) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ فصَّلَ ما أجملَ من إرسالِ الرُّسلِ بالكتبِ، فأخبرَ أنَّه أرسلَ نوحاً وإبراهيمَ وجعلَ النُّبوَّةَ في نسلِهما.

﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: جعلنا بعضَ ذرِّيَّتِهما الأنبياءَ وبعضَهم أمماً يتلونَ الكتبَ المنزلةَ من السَّماءِ ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾؛ أي: من ذرِّيَّتهما مهتدونَ، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

* * *

(٢٧) ـ ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ وهو من ذرِّيَّةِ إبراهيمَ من جهةِ أمِّه ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ وهو الكتابُ المنزَّلُ عليه ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ يعني: الحواريِّين وأتباعَهم ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾؛ أي: مودَّةً، فكانَ يوادُّ بعضُهم بعضاً.

وقيلَ: هذا إشارةٌ إلى أنَّهم أُمِروا في الإنجيلِ بالصُّلحِ وتركِ إيذاءِ النَّاس، وألانَ اللهُ قلوبَهم لذلك، بخلافِ اليهودِ الذين قسَت قلوبُهم وحرَّفُوا الكلمَ عن مواضعِه.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ هي الرَّهبة؛ أي: آلَ الأمرُ بهؤلاءِ من أصحابِ عيسى إلى أن أفرطُوا وصاروا سيَّاحين بها بين أصحاب الصوامع ابتداعاً منهم[1] لا اتِّباعاً لأمرِ الله.

---

(١) في (أ): «وصاروا سيَّاحين وبها بين أصحاب الصوامع اتباعاً منهم»، والمثبت أولى.

قالَ الزَّجَّاجُ: ابتدعوها رهبانيَّةً، كما تقول: رأيتُ زيداً، وعَمراً كلَّمتُه[١].

وقالَ أبو عليٍّ: وابتدعوا رهبانيَّةً ابتدعوها[٢].

ومعنى ﴿ٱبۡتَدَعُوهَا﴾: جاؤوا بها من قِبَلِ أنفسِهم.

﴿مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: ما فرَضناها عليهم، وذلك لأنَّهم حملُوا على أنفسِهم المشقَّاتِ في الامتناعِ من المطعمِ والمشربِ والملبسِ والنِّكاحِ، والتعلُّقِ بالكهوفِ والصَّوامع، وذلك أنَّ ملوكَهم غيَّرُوا وبدَّلُوا، وبقيَ نفرٌ قليلٌ، فترهَّبوا وتبتَّلوا.

﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: طلبوا بها رضا الله؛ أي: ابتدعوا ابتغاءَ رضا الله، والتَّقديرُ: ما كتبناها عليهم، لكن ابتدعُوها ابتغاءَ رضا الله، فهو استثناءٌ منقطعٌ.

وقالَ الزَّجَّاجُ: أي: ما كتبنا الرَّهبانيَّةَ عليهم، إلا أن يطلبوا رضا الله باتِّباعِ أمرِهِ[٣].

وقيلَ: ما كتبناها عليهم، بل كتبنا ابتغاءَ أمرِ الله.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٣٠).

(٢) انظر: «الإيضاح العضدي» لأبي علي الفارسي (ص: ٣١).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٣٠) وهذا أحد وجهين ذكرهما الزجاج، وكلامه بتمامه: «هذه الآية صعبة في التفسير، ومعناها - والله أعلم - يحتمل ضربين:

أحدهما: أن يكون المعنى في قوله: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا﴾: ابتدعوا رهبانية؛ كما تقول: رأيت زيداً، وعمراً أكرمته، ويكون ﴿مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾ معناه: لم نكتبها عليهم ألبتة، ويكون ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ بدلًا من الهاء والألف، فيكون المعنى: ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وابتغاءُ رضوان الله: اتباعُ ما أمر به. فهذا وجه.

وفيها وجه آخر في ﴿ٱبۡتَدَعُوهَا﴾، جاء في التفسير: أنهم كانوا يرون من ملوكهم ما لا يصبرون عليه، فاتخذوا أسراباً وصوامع، فابتدعوا ذلك، فلما ألزموا أنفسهم ذلك التطوع ودخلوا فيه، لزمهم إتمامُه، كما أن الإنسان إذا جعل على نفسه صومًا لم يُفترض عليه لزمه أن يتمه».

﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾؛ أي: آلَ أمرُهم إلى أن أضاعوا أمرَ الله، وتسبَّبُوا بالتَّرهُّبِ إلى طلبِ الرِّئاسةِ على النَّاسِ وأكلِ أموالِهم، كما قالَ: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [التوبة: ٣٤]، وهذا في قومٍ منهم أدَّاهم التَّرهُّبُ إلى طلبِ الرِّئاسةِ في آخرِ الأمرِ.

وقيلَ: هم قومٌ كفروا بدينِ عيسى، وتهوَّدوا وتنصَّروا [من هؤلاءِ الذين أحدثوا الرهبانيةَ، ودخلوا في دينِ ملوكهم وتركوا الترهُّب] وبقي[1] شرذمةٌ منهم على دينِ عيسى حتَّى أدركوا محمَّداً عليه السَّلامُ، فآمنوا به، فهو قولُه: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾، وقولُه: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ يعني: الذين تهوَّدوا وتنصَّروا.

وقيلَ: هؤلاء هم الذين أدركُوا محمَّداً عليه السَّلام فلم يُؤمنوا به، فهم الفاسقونَ.

وفي الآيةِ تسليةٌ للنَّبيِّ عليه السَّلام؛ أي: إنَّ الأوَّلين أصرُّوا على الكفرِ أيضاً، فلا تعجَبْ من أهلِ عصرِك إن أصرُّوا على الكفرِ.

***

(٢٨) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: آمَنُوا بموسى وعيسى: اتَّقوا الله وآمِنُوا بمحمَّد عليه السَّلام ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾؛ أي: إن آمنتم بمحمَّدٍ أعطاكمُ الله نصيبَين من الأجرِ: أجراً بإيمانكم بالأنبياءِ المتقدِّمينَ، وأجراً بإيمانكم بمحمَّدٍ عليه السَّلام.

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: على الصِّراطِ، وفي القيامةِ إلى الجنَّةِ.

---

(١) في (أ): «بل بقي»، والصواب المثبت، وما بين معكوفتين من «البسيط» (٢١/ ٣١٧)، وفيه: «فأقام» مكان: «وبقي».

وقيلَ: نوراً تمشون به في النَّاس تدعونهم إلى الإسلام، فتكونون رؤوساً في دينِ الإسلامِ، لا تزولُ عنكم رئاسةٌ كنتُم فيها، وذلك أنَّهم خافوا أن تزولَ رئاستُهم لو آمنوا بمحمَّد عليه السَّلام، وإنَّما كانَ يفوتُهم أخذُ رشوةٍ يسيرةٍ من الضَّعَفةِ بتحريفِ أحكامِ الله، لا الرِّئاسةُ الحقيقيَّةُ في الدِّينِ.

وقيلَ: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا﴾؛ أي: سبيلاً واضحاً تهتدون به.

والكِفلُ في الأصلِ: ما يُكْفَلُ به الرَّاكبُ فيَحْبِسُه من السُّقوطِ؛ أي: يحصِّنُكم إيمانُكم من الوقوعِ في العذابِ.

* * *

(٢٩) ـ ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لمَّا نزلَ ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ وآمَنَ من آمن منهم حسدَهم الذين لم يُؤمنوا، فأنزل الله قوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾، و(لا) صلةٌ عند الكلِّ، والمعنى: ليعلمَ أهلُ الكتابِ الذين لم يُؤمِنوا بمحمَّدٍ عليه السَّلام ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾؛ أي: أنَّهم لا يقدرون ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: جعلنا الأجرينِ لمَن آمنَ بمحمَّدٍ عليه السَّلام؛ ليعلمَ الذين لم يؤمنوا أنَّهم لا أجرَ لهم ولا نصيبَ من فضلِ اللهِ ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

وقيلَ: فيه إضمارٌ؛ أي: أفعلُ هذا بكم إذا آمنتُم بمحمَّدٍ، ويفعلُ اللهُ هذا بمَن دخلَ في دينِ الإسلامِ؛ ليعلمَ أهلُ الكتابِ أنَّ الفضلَ بيدِ الله.

وفي قراءةِ عبدِ اللهِ: (ليعلمَ أهلُ الكتابِ)[١].

* * *

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥٣)، وذكر الطبري عنه في «تفسيره» (٢٢/ ٤٤٤): (لكي يعلم).